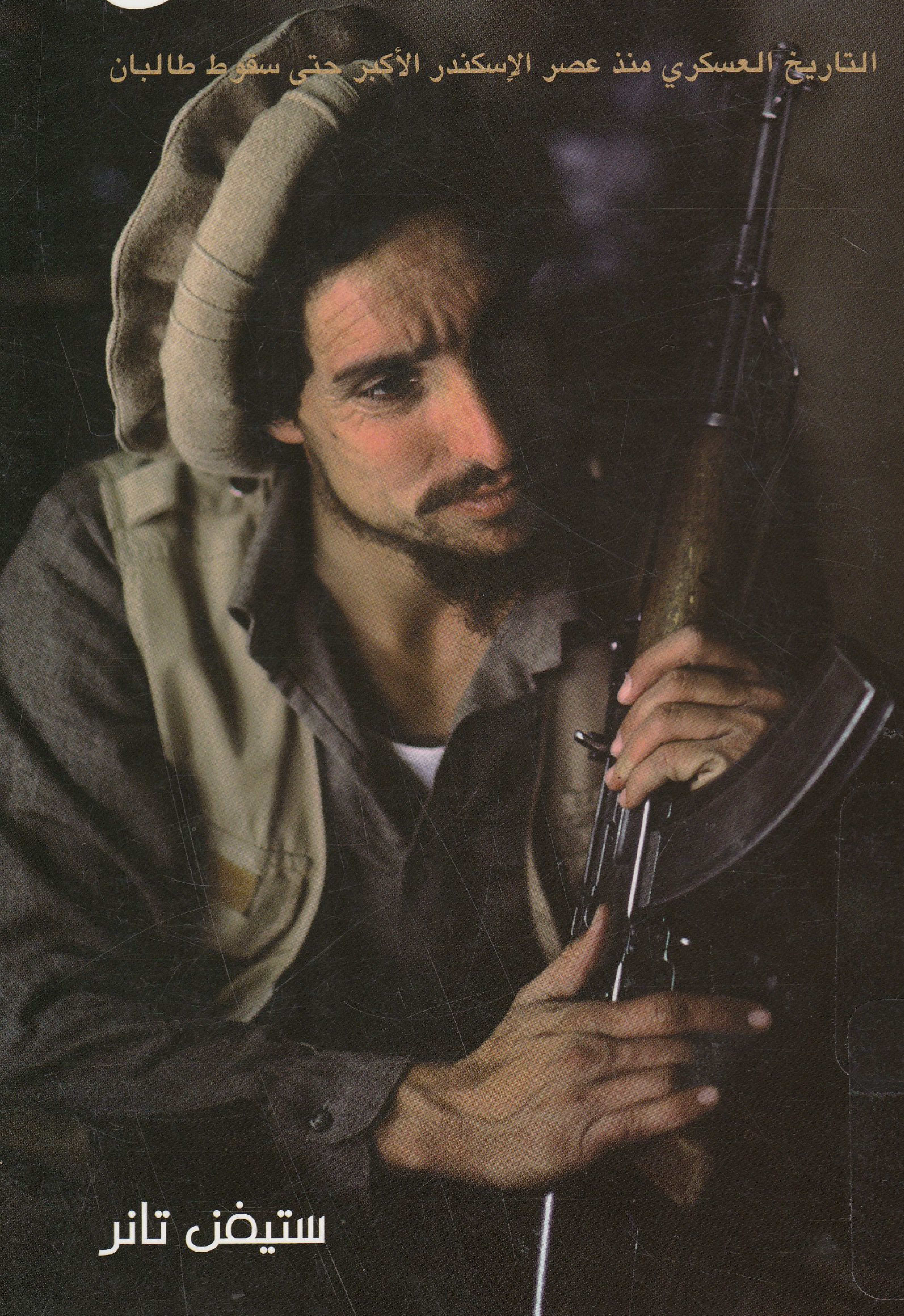
أفغانستان

التاريخ العسكري منذ عصر الإسكندر الأكبر حتى سقوط طالبان



ستيفن تانر

أفغانستان

أفغانستان

التاريخ العسكري منذ عصر الإسكندر الأكبر حتى سقوط طالبان

تأليف: ستيفن تانر

ترجمة
نادية إبراهيم

مراجعة
شهاب الدين أحمد

كلمات عربية

Afghanistan
A Military History from Alexander the Great to the Fall of the Taliban

Stephen Tanner

أفغانستان
التاريخ العسكري منذ عصر الإسكندر الأكبر حتى سقوط طالبان

ستيفن تانر

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ-٢٠١٠م

ISBN 978 977 6263 41 3

كلمات عربية للترجمة والنشر

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه

مكتب رقم ٤، عقار رقم ٢١٩٠، زهراء مدينة نصر، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ‎+٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١‎ **فاكس:** ‎+٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١‎

البريد الإليكتروني: kalimatarabia@kalimatarabia.com

الموقع الإليكتروني: http://www.kalimatarabia.com

تانر، ستيفن.

أفغانستان: التاريخ العسكري منذ عصر الإسكندر الأكبر حتى سقوط طالبان/ستيفن تانر؛ ترجمة: نادية أحمد إبراهيم؛ تحقيق: شهاب الدين أحمد . - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١٠.

٤٣٢ص، ١٥,٢×٢٢,٨سم

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٦٢٦٣ ٤١ ٣

١- أفغانستان-تاريخ قديم

أ- إبراهيم، نادية أحمد (مترجم)

ب- أحمد، شهاب الدين (محقق)

جـ- العنوان

٩٣٩,٦

المحتويات

مقدمة ٧
١- في مفترق الطرق بين الإمبراطوريات ١١
٢- الإسكندر الأكبر ٣١
٣- غنيمة النصر ٧١
٤- المغول ١٠٣
٥- بزوغ أفغانستـــــان ١٣٥
٦- اللعبـــة الكبـــرى ١٥٩
٧- انتصـــار القبائـــل ١٩١
٨- انتقـــام الفكتوريين ٢٣١
٩- السوفييـــــت ٢٧١
١٠- المجاهــــدون ٢٩٧
١١- ظهـــور طالبـــان ٣٣٣
١٢- الأمريكيـــون ٣٥٥
الختام ٣٩٧
مســرد الكلمـــات ٤٠٧
المراجع ٤١٣

مقدمة

في هذا العمل الذي يعبر خط الزمن، والذي اعتمد على مصادر منتقاة من جماعات لها لغتها الأجنبية التي ترجمت عبر القرون إلى أشكال مختلفة من اللغة الإنجليزية، حاولت جاهدًا أن أتحرى الثبات في تهجي وكتابة الكثير من الكلمات، وقد لقيت في هذا الأمر عنتًا شديدًا، إذ تحتم عليّ في بعض الأحيان أن أتبنى تهجيًا واحدًا لا أحيد عنه. فعلى سبيل المثال توجد خمس أو ست طرق لكتابة كلمة «محمد»، وثلاثة لكلمة «طالبان»، وثلاثة أو أربعة «لجلال أباد» ناهيك عن الجدل الدائر حول كلمات قندهار، وبيجرام، وأسامة، وباميان وغيرها كثير. وهناك قاعدة عامة انتهجتها في كتابتي لهذا الكتاب وهي استخدام التهجي الذي يرد في وسائل الإعلام، أما عن الأحداث التي يرويها معاصروها فقد تركت الألفاظ التي استخدموها دون تحريف، وكذلك فعلت عند الإشارة إلى أسماء الأشخاص الذين التقيت بهم.

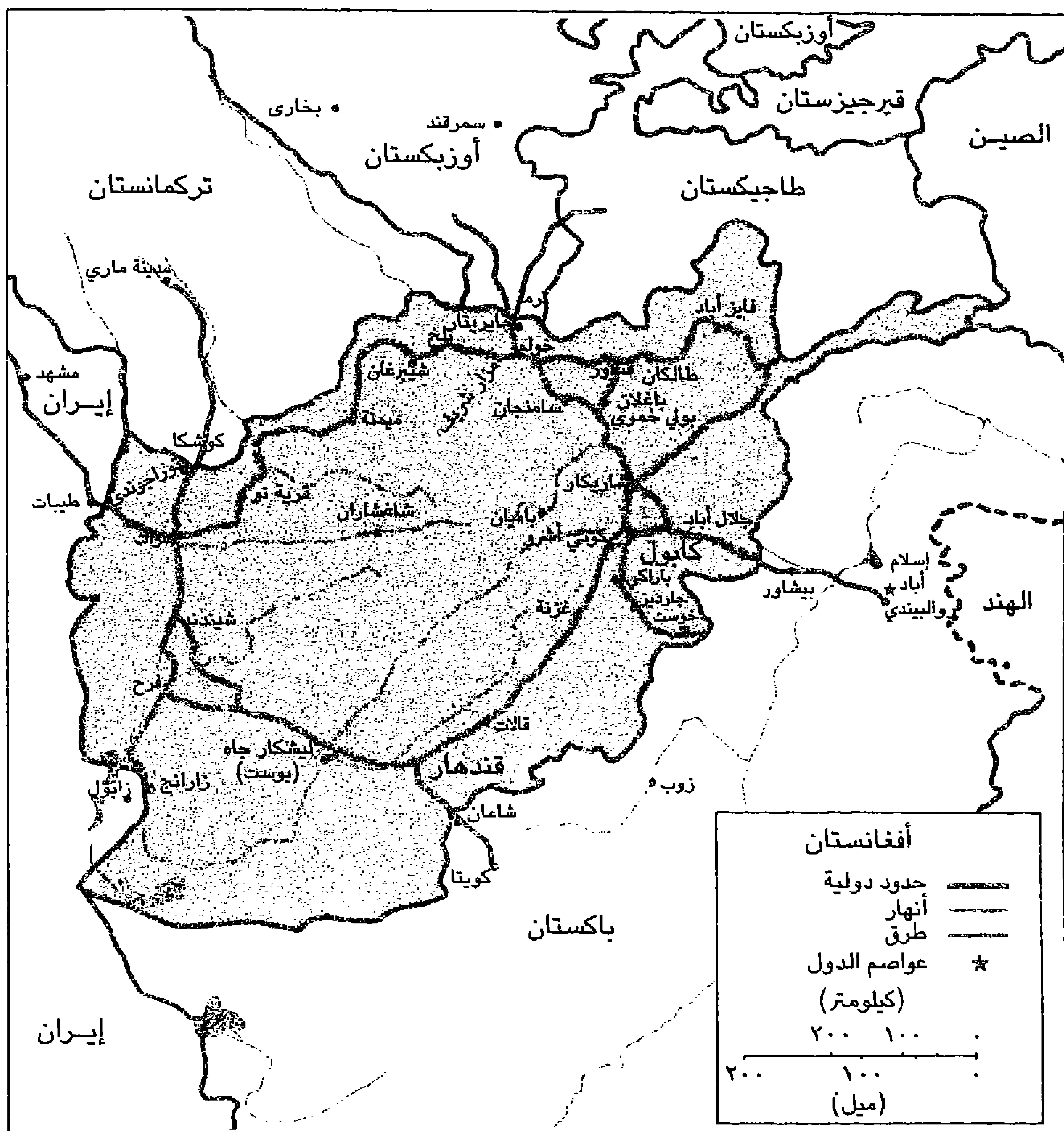
لكنني استثنيت من ذلك مرحلة المغول التي تضمنت أسماء ترجمها علماء محدثون بشكل يخالف كثيرًا الشكل الذي ألفته منذ زمن، وهذا يرجع إلى الاتجاهات اللغوية الحديثة في تهجي الأسماء. وقد آثرت أن أختار التهجي القديم لهذه الفترة لأنه من المستحسن — في كتاب يحوي عددًا من الأسماء والأماكن التي قد تكون مجهولة لدى الكثيرين — أن أحتفظ قدر الإمكان بالأسماء القديمة المألوفة. وقد شمل البحث عن مصادر هذا الكتاب مؤلفات قديمة عن فترات تاريخية لا أجد في نفسي الجرأة أن أختار واحدًا منها أعطيه أهمية أكثر من غيره. أما فيما يتعلق بأحداث أواخر القرن العشرين فقد استعنت بأعمال بعض الكتاب المتميزين الذين قد لا تكون أسماؤهم مألوفة لدى القراء؛ ففيما يتعلق بالحرب السوفييتية كان كتاب مارك أربان War in

Afghanistan عملًا غاية في الدقة، صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٧م، وإن كان قد نمى إلى علمي أنه سوف تصدر منه قريبًا طبعة منقحة تشمل تسلسل الصراع حتى نهايته. أما كتاب لستر جراو الذي بذل فيه جهدًا خارقًا ليلمّ بأحداث الحرب من جميع جوانبها فهو يستحق الثناء، مثله مثل أعمال آن هايناما، وماجي ليبانين، وكذلك يوري يورشينكو الذين تمكنوا من جمع مقالات «قصة جنود» من مصادرها الأصلية. ولقد وجدت في كتاب Afghanistan The Bear Trap – لمؤلفه الجنرال محمد يوساف بالاشتراك مع مارك آدكن – رؤية مهمة لهذا الصراع من وجهة نظر باكستانية.

وأشير أيضًا إلى أهمية كتاب مايكل جريفين عن طالبان والإسلام المتطرف تحت عنوان Reaping the Whirlwind، وكتاب أحمد رشيد Taliban الذي يتسم بالدقة الشديدة. أما كتاب مارتن إيوانز الباحث في العلوم السياسية Afghanistan: A New History فهو يتناول تاريخ أفغانستان بداية من الجذور وفي نفس الوقت يشير إشارات ذكية إلى السياسة الأفغانية وصراعات القوى في القرن العشرين. أما المؤلفات العامة عن أفغانستان فقد كان كتاب لويس دوبريه Afghanistan هو نقطة الانطلاق الأساسية لي. وكذلك كتاب أولاف كارو Pathans، وهو كتاب ليس معروفًا لدى الكثيرين ولكن مؤلفه – وهو عالم مرموق وكان حاكمًا للإقليم الشمالي الغربي الحدودي – يستعرض تاريخ قبائل البشتون بحماس سرعان ما ينتقل إلى القارئ.

إنني مدين بالفضل لكثيرين ممن كانت مساعدتهم الشخصية لي عاملًا مهمًا في إصدار هذا الكتاب مثل جانيس وميليسا كاكار – وهما طالبتان بجامعة إنديانا، أولاهما في قسم الصحافة والأخرى في قسم التاريخ – لما أمدتاني به من معاونة وخبرة، وكانتا قد قضتا الصيف الماضي في منغوليا حيث كانت ميليسا تجري دراسة حول الأنشطة المناهضة للشيوعية في سيبيريا في حين كانت جانيس تعمل مترجمة في وزارة الاستعلامات. وإنني مدين بالشكر أيضًا إلى ليام كلانسي، وهو شاب تخرج حديثًا من كلية هوفسترا للقانون، للمجهود الذي بذله في بحث وتحليل جزء من هذا الكتاب. خلال كتابتي لهذا المؤلف أسعدني الحظ بمقابلة عالم لامعٍ كريم هو ألكس جرانت، وربما لا يعرف الكثيرون أنه في منزل جرانت المتلئ بالأطفال في مدينة نيويورك توجد مجموعة من الإصدارات الأولى لأعمالٍ تتناول الاستعمار البريطاني؛ هي الأضخم

من نوعها على هذا الجانب من المحيط الأطلنطي. والشكر موصول أيضًا إلى السيد دون تيل الذي أسهمت خبرته العلمية ومهارته في المراجعة والنشر؛ في توجيه هذا الكتاب، كما أتوجه بالشكر أيضًا إلى بوب بيجون وسام ساوثورت لمساعدتهم وثقتهم. وأخيرًا أقدم تقديري الكامل إلى آن سميث التي كانت حكمتها الواسعة في تناول الأحداث الجارية، بالإضافة إلى حماسها الشديد لهذا الكتاب؛ خير ملهم لي أثناء العمل.



أوزبكستان
قيرجيزستان
الصيـن
بخارى
سمرقند
أوزبكستان
طاجيكستان
تركمانستان
مدينة ماري
فايز أباد
مشهد
إيــران
كوشكا
طالكان
باغلان
بولي خمري
جلال أباد
كابول
طيبات
باميان
إسلام أباد
بيشاور
راولبيندي
الهند
غزنة
خوست
فرح
قالات
قندهار
زوب
زابول
شامان
كويتا
باكستان
إيــران
أفغانستان
حدود دولية
أنهار
طرق
عواصم الدول
(كيلومتر)
٢٠٠ ١٠٠ ٠
٢٠٠ ١٠٠ ٠
(ميل)

الفصل الأول

في مفترق الطرق بين الإمبراطوريات

في خريف عام ٢٠٠١م أغارت الطائرات الأمريكية بي-٥٢ (B-52) على البلاد الواقعة على جانبي جبال الهندوكوش فاكتملت الدائرة في التاريخ العسكري لأفغانستان، فالبلاد التي ظلت قرونًا طويلة في مفترق طرق الحضارات العظمى للعالم القديم بدأت تتعرض لهجوم قوة عظمى جديدة يافعة في العصر الحديث. وفي هذه المرة لم يكن موقع أفغانستان المتوسط في العالم هو الذي فجر غضب الجيوش الأجنبية المعتدية، بل انعزالها عن بقية دول العالم. وفيما كانت أفغانستان قديمًا مطمعًا للإمبراطوريات المختلفة، ومصدرًا لمحاربي الممالك من السكان الأصليين، تحولت في العصر الحديث إلى مجرد دويلة تقع على الحدود ثم ساحة لحرب باردة، وأخيرًا إلى مخبأ يعج بالكهوف التي أصبحت مأوى للإرهابيين الدوليين. لكنه مع إطلالة القرن الحادي والعشرين — وكما حدث في القرن الخامس قبل الميلاد — وجدت أفغانستان نفسها مرة ثانية في غمار حرب طاحنة مع أكبر قوة عسكرية في العالم، ونظرة واحدة إلى تاريخ أفغانستان الطويل الذي كان يعج دائمًا بالصراعات؛ تشير إلى أن هذا التطور الأخير لا يشكل أي مفاجأة.

فبخلاف البلاد الجبلية الأخرى مثل بيرو، ونيبال والنرويج، وحتى سويسرا، التي تعتبر أقرب مثال لها في البلاد الأوروبية، لم يكن مقدرًا لأفغانستان أن تعيش في هدوء وسلام بعيدًا عن بقية العالم، فمنذ فجر التاريخ المدون كانت أفغانستان محور طموحات إمبريالية عديدة بدءًا من الإمبراطورية الفارسية العظمى التي كانت أول إمبراطورية في العالم تمد سطوتها عبر القارات؛ إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي تمثل أعظم قوة في العصر الحديث.

وما بين هاتين القوتين واستسلامها للغزاة أحيانًا، ومقاومتها لهم أحيانًا أخرى، كان المحاربون الأفغان يشحذون قوتهم القتالية عن طريق صراعاتهم الداخلية في أراض تسهل لهم بطبيعتها تقاسم القوى ومقاومة مفهوم السلطة المركزية. ومن المثير للدهشة أن الشعب الأفغاني الذي ظل عرضة لحروب لا تنقطع طوال ربع قرن لا يزال يشكل عقبة أمام المعتدين الأجانب تمامًا كما كان منذ ٢٥٠٠ سنة ماضية، ولا تزال الخلافات الثقافية والدينية هي المحرك الرئيسي لعجلة الحرب، وبذلك سوف تظل أفغانستان — كما كانت سابقًا — مسرحًا ليس لصدام الجيوش فقط بل لصدام الحضارات أيضًا.

وتفسر الخريطة الجغرافية لأفغانستان — أكثر من خريطتها السياسية — الأهمية التي حازتها هذه الدولة عبر التاريخ. فهي تقع في أقصى شرقي هضبة إيران العظمى، ولقربها من جبال الهيمالايا التي بمنزلة قوس يحيط بها ولا يمكن اختراقه فقد أصبحت همزة الوصل الرئيسية التي تربط بين الإمبراطوريات العظمى في وسط آسيا والشرق الأوسط وشبه القارة الهندية. وربما يكون تعبير همزة الوصل مخففًا بعض الشيء؛ ففي واقع الأمر يعتبر هذا الطريق منفذًا للغزاة. فقد شهدت ممرات أفغانستان الضيقة عبور جيوش الفرس واليونان والموريان والهون والمغول، بالإضافة إلى جيوش أخرى من بريطانيا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، بقيادة العديد من أشهر القادة العسكريين في التاريخ. ولأنها أرض لها استراتيجيتها الحيوية الخاصة، فقد أفرزت بداخلها أيضًا إمبراطوريات أخرى، مثل الإمبراطورية الغزنوية والإمبراطورية الغورية والإمبراطورية الدورانية، وهي الإمبراطوريات التي أسهمت في ذيوع صيت قوة أفغانستان القتالية وبث الرعب في قلوب أعدائها من دلهي إلى بحر قزوين.

وقد أشار المؤرخ الكبير أرنولد توينبي Arnold Toynbee إلى أن بزوغ الحضارة من مهدها في بلاد الرافدين يوضح بجلاء خريطة العالم القديم ويميز بين البلاد التي تقع في الأماكن القصية المجهولة وتلك التي تقع في مناطق استراتيجية مهمة، فيضع سوريا وأفغانستان في هذا التصنيف الأخير باعتبارهما تقعان في منطقتين متميزتين، حيث كانت سوريا همزة الوصل بين الحضارات التي نشأت في أوروبا وأفريقيا وآسيا، في حين كانت أفغانستان هي النقطة التي تتفرع عندها الطرق الواصلة بين حضارات الهند وشرق

آسيا ووسط آسيا والشرق الأوسط ومن ثم إلى أوروبا، وقد كتب يقول: «ضع نفسك – ليس في أوروبا – ولكن في العراق، وسوف يتبين لك بوضوح أن نصف طرق العالم القديم تؤدي إلى حلب والنصف الآخر إلى باجرام.» ويشير توينبي إلى أن باجرام كانت في يوم ما مرشحة لأن يؤسس فيها قورش العظيم Cyrus the Great دولته العسكرية كابيش كانيش، وكانت مرشحة كذلك لأن تؤسس فيها مدينة الإسكندرية التي أنشأها الإسكندر الأكبر Alexander the Great في القوقاز بعد ذلك. أعتقد أن توينبي كان سيسعد لتأكد صدق نظريته لو عاش ليرى تحول مطار باجرام إلى قاعدة رئيسية للسوفييت في ثمانينيات القرن العشرين، أو ليرى جيوش بريطانيا وألمانيا وأستراليا – وليس فقط أمريكا – في مطلع ذات القرن، تهبط في هذه النقطة الحيوية التي تستكين بين السفوح الجنوبية لجبال الهندوكوش.

وعندما كان مركز الثقل السياسي في العالم يقع في الشرق بعيدًا عن العواصم الأوروبية وبعيدًا عن واشنطن، كان لأفغانستان دور محوري في التأثير على مصير بقية الأمم. لكن دورها الذي تمتعت به كموقع حيوي مهم في مفترق الحضارات بدأ يضمحل وتتهاوى معه أهميتها السياسية في العصور الوسطى، وتذكر المؤرخة ريا تالي ستيوارت Rhea Talley Stewart أن ما حاق بأفغانستان من خراب – لا سبيل إلى إصلاحه – إنما يعزى إلى رجلين أولهما جنكيز خان Genghis Khan، لأسباب سوف نذكرها فيما بعد، وثانيهما كريستوفر كولومبس Cristopher Columbus الذي يقال إنه أبحر إلى ما يعتقد أنه نهاية العالم، محددًا طرقًا تجارية وعسكرية عديدة بحرية لا برية. وتقول ستيوارت: «إن أفغانستان كانت أكثر أهمية عندما كان الناس يعتقدون أن العالم مسطح لا كروي.» فبمجرد ظهور القوة البحرية العالمية كنِدّ للقوة البرية (لم تكن قوة الطيران قد ظهرت في ذلك الوقت) تحولت النظرة إلى أفغانستان من معبر حيوي يربط بين الحضارات إلى مكان يفضل أن يظل أرضًا لا يملكها أحد. لقد ظلت أفغانستان منطقة مهمة من وجهة نظر الإمبراطوريات العظمى ولكن هذه المرة بالسلب وليس بالإيجاب. ففي القرن التاسع عشر تنافست أعظم دولة بحرية مع أعظم دولة برية للسيطرة عليها في مباراة حرب باردة عرفت باسم «اللعبة الكبرى» فقد كان لهذه البلاد أهمية قصوى للقوتين المتصارعتين ولكنهما حرصتا على ألا تمتلك

تلك الدولة قوة ذاتية تتحكم بها في مصيرها منفردة، بل تبقى دويلة حدودية عازلة بين منطقتي نفوذ هاتين القوتين. وبالطبع في خلال القرنين الماضيين لم يَجْنِ المشاركان في هذه اللعبة الكبرى — وهما بريطانيا وروسيا أو (الاتحاد السوفييتي) — من جراء هذا القتال سوى الخسائر الجسيمة.

لا يكمن تفرد أفغانستان فقط في موقعها بين هذه الإمبراطوريات المتصارعة، فالأراضي المنبسطة في شمال بولندا ووسط العراق كانت أيضًا مسرحًا للجيوش المغيرة، بل تَميُّزها يكمن في أن تاريخها الذي امتلأ دائمًا بالعنف ارتبط أساسًا بطبيعة أرضها التي أثرت بدورها في طبيعة شعبها. وبصرف النظر عن الجاذبية الاستراتيجية التي تتمتع بها ممراتها الجبلية الضيقة، ووديان أنهارها، فإن معظم أراضيها وعرة شديدة القسوة. وهي تنقسم إلى قسمين: أحدهما سلسلة مرتفعات صخرية وعرة، والآخر صحراء قاحلة شديدة الاتساع. ومن ثَم تميز شعب هذه البلاد الوعرة بقدرته على الدفاع عن أرضه سواء على المستوى القومي أو الإقليمي أو المحلي؛ فهي أرض يسهل اجتياحها ولكن يصعب تمامًا السيطرة عليها.

وفي المناطق الجبلية النائية لا تزال توجد قبائل يحكمها النظام الإقطاعي لم تتعرض لأي غزو أو تقع تحت سيطرة أي حكومات وطنية، وقد تمر بمعابرها بعض الجيوش المغيرة، فتأسر في طريقها بعض الجماعات المقيمة، وإن كان هذا في أفغانستان يشكل استثناء لا قاعدة، في حين توجد قبائل أخرى في المرتفعات النائية والوديان العميقة حافظت على استقلالها لآلاف السنين. ولا يعني هذا أن جبال هذه البلاد تقطنها مجموعة من النساك أو المواطنين المسالمين، فكثيرًا ما كانت هذه القبائل تهبط من موطنها في الجبال لتشارك في صد عدوان على البلاد، أو في حروب أهلية أو غزوات للسلب والنهب. ومن الملاحظ أنه حين كان الأفغان يتكتلون حول قضية وطنهم — الذي كان دائمًا محل نهب أو تخريب — لم تستطع أي قوة غازية السيطرة عليهم، بل العكس هو الصحيح؛ فالدلائل تشير إلى أن الشعب الأفغاني لا يتحد إلا إذا وُوجه بتهديد قوة أجنبية، فإذا ترك لشأنه فإنه ينغمس في معارك داخلية أو يمارس حياته بحرية، ليس من خلال ما تنص عليه الماجنا كارتا أو وثيقة حقوق الإنسان أو المانيفستو الشيوعي، بل من خلال أصول وموروثات قديمة لا دخل لأية حكومات بها.

وأفغانستان الحديثة بيضاوية الشكل إلى حد ما، تميل إلى الانحدار، وتحدد أربع مدن استراتيجية مهمة شكلًا رباعي الأضلاع يحيط بسلسلة جبال الهندوكوش: ففي الغرب تقع هرات في واد خصيب على مقربة من الحدود الإيرانية الحالية، وفي الجنوب توجد قندهار التي يربطها بهرات طريق يسهل الوصول إليه من الهند من خلال ممرات جبلية، وفي الشرق تقع كابول التي يربطها بقندهار طريق يمكن المرور فيه (في غير فصل الشتاء) أما في منتصف الجزء الشمالي من البلاد، وعلى مقربة من هرات فتقع مزار شريف التي يسهل الوصول إليها من كابول عن طريق ممرات عبر جبال الهندوكوش، وإلى الغرب من مزار ترقد أطلال بلخ الغامضة (التي تعرف باسم باكترا عند اليونانيين، وزارياسبا عند الفرس). أما العرب فيطلقون عليها «أم المدن»، ولآلاف السنين كانت بلخ — وهي المدينة الأسطورية التي ولد بها زاردشت وشهدت زواج الإسكندر الأكبر، وهي واحدة من أكبر المدن التي شهدت فظائع جنكيز خان — واحدة من أعظم وأجمل المدن في الإقليم. أما الآن فهي ليست سوى قرية صغيرة مهملة بالقرب من مجموعة ضخمة من الأطلال التي تداعب أحلام علماء الآثار.

ومع أن أهم مدن أفغانستان قد تغيرت خلال القرون السابقة، فإن المنطقة المحيطة بكابول هي المفتاح الحقيقي لأفغانستان، فالعاصمة الحديثة كابول تستقر في وسط مربع استراتيجي يحيط بها. أما باجرام السابق ذكرها فهي تقع على بعد خمسة وأربعين ميلًا من الشمال في سفح وديان فلها أهميتها الاستراتيجية الخاصة أيضًا، ويوجد طريق مرتفع من العاصمة إلى الغرب يؤدي إلى باميان في وسط جبال الهندوكوش تتفرع منه ممرات إلى الشمال وإلى هرات. وعلى بعد نحو ثمانين ميلًا جنوب كابول في اتجاه قندهار تقع غزنة التي كانت في يوم ما مركزًا لإمبراطورية أفغانية كبيرة، أما في الشرق وعلى بعد ثمانين ميلًا فتوجد جلال أباد على رأس ممر خيبر وهو الطريق المضلل الشهير الذي يؤدي إلى بيشاور في باكستان ومنها إلى الهند. إن الاستحواذ على كابول لا يعني السيطرة على البلاد بأكملها ولكن لا يستطيع أحد أن يحكم أفغانستان دون أن يحكم سيطرته تمامًا على كابول.

ومن المهم أن نلاحظ أن الحدود الحالية لأفغانستان الحديثة لم توضع إلا منذ قرن مضى مما يعني أن أي إشارة لكلمة «أفغانستان» أو «أفغان» في الأزمنة السابقة تحتاج إلى شيء من المرونة في تقديرها، فكلمة «أفغان» نفسها

لم تظهر في أية كتابات فارسية قبل القرن الثالث الميلادي. ومما يريبك البعض أن الكلمة تعني في الفارسية القديمة «ذو ضجيج» أو «الجامح» أو «العاصف» أو إذا أردنا تخفيف الكلمة تصبح «غير متزن». حين زار المؤرخ البريطاني الدبلوماسي ماونت ستيوارت إلفنستون Mountstuart Elphinstone البلاد عام ١٨٠٩م لاحظ أن المواطنين لا يطلقون على بلادهم اسم «أفغانستان» ولكنهم يعلمون أن الآخرين يطلقون عليهم هذا الاسم. ويصف إلفنستون الأفغان بأنهم مجموعة شعوب عرقية من البشتون تنقسم إلى جزأين، يعيش جزء منها في الشرق (باكستان حاليًّا) والجزء الآخر يقطن الغرب، وأشار إلفنستون إلى أن أجزاء أخرى من الكيان السياسي الحديث مثل الهازارات في وسط جبال الهندكوش، بالإضافة إلى أن كل الأراضي الأخرى الواقعة شمال هذه الجبال؛ تعتبر خاضعة أو تابعة «لمملكة كابول».

وفي نهاية القرن التاسع عشر خطَّط المراقبون الأوروبيون حدود البلاد بهدف خلق دولة نموذجية من وجهة نظرهم تقع على الحدود بين الهند البريطانية وبين المد أو التيار الجارف القادم من روسيا في وسط آسيا. ولذلك نجد أن الحدود الأفغانية تتبع نهر أوكسس (آمودريا (جيحون)) في الشمال وهاري رد في الجنوب في مواجهة إيران. وفي المساحة بينهما عمد الروس إلى القيام بمناورة عسكرية تستهدف الاستيلاء على واحة مهمة قبل موافقتهم على خط ثابت للحدود. أما في الجنوب فلم يكن هناك أي جدال حول الحدود الأفغانية مع بلوخستان التي تقع في باكستان الحديثة حيث إن المنطقة بأكملها ليست أكثر من صحراء قاحلة تعتبر مصيدة موت لأية جيوش تخترقها، ولا تناسب سوى الرجال الأشداء الذين اختاروا العيش فيها. وفي الشرق بذلت بعثة بريطانية برئاسة سير مورتيمر دوراند Mortimer Durand جهدًا كبيرًا في تحديد خط يمر في وسط جماعة البشتون العرقية بهدف التقليل من أهمية أفغانستان السياسية مع تحقيق أكبر فائدة جغرافية للمدافعين البريطانيين عن التاج البريطاني (الراج).

وقد أسفر هذا التخطيط عن أن الحدود الحالية لأفغانستان في الشرق — وأغلبها لا يوجد واقعيًّا على الأرض بل نظريًّا فقط على قمم الجبال — أصبحت أحسن سبل الدفاع عن جوهرة التاج البريطاني. ولم يتخيل دوراند أنه سنة ١٩٤٧م سوف يجلو البريطانيون عن الهند بل ولم

يتخيل أيضًا أنه ستكون هناك دولة تسمى باكستان. ومع ذلك فإن البريطانيين والروس رسموا خريطة أفغانستان كدولة واسعة تبلغ مساحتها ٢٥٠٠٠٠ ميل مربع (مثل حجم ولاية تكساس تقريبًا) تهيمن عليها جبال الهندوكوش في الوسط وتقطنها مجموعات عرقية مختلفة على جانبيها. أما إصبع الأرض الأفغانية الذي يمتد ليصل إلى الصين في الشمال الشرقي في أراض لا قيمة لها تمتد نحو خمسين ميلًا وتعتبر شوكة في ظهر البلاد؛ فقد فرضه البريطانيون على أفغانستان حتى لا تمتد الأراضي الروسية إلى حدود الهند.

وقد أسفرت مجهودات المراقبين الأوروبيين على وجه الخصوص عن حروب داخلية لا تهدأ بين الجماعات العرقية التي يتكون منها الشعب الأفغاني؛ فقد ظل الأوزبك والطاجيك والتركمان في شمال الهندوكوش وأيضًا الهازارا الذين يقطنون الجبال في مقاومة دائمة لحكم البشتون في الجنوب، وكذا العكس، ويمثل هؤلاء ما يزيد عن ٤٠٪ من شعب أفغانستان ولكنهم يستمدون قوة مماثلة عن طريق الدعم النفسي الذي يأتيهم عبر الحدود الهشة مع باكستان، وقد أظهرت الحرب الأمريكية الأخيرة كيف يمكن للتحالف الشمالي بين الأوزبك والطاجيك أن يقاوم حكومة يقيمها البشتون مع أن باكستان سلحت الكثير من جنودهم، ووفرت المأوى والحماية للفارين منهم حين لاحت بوادر انتصار الشمال الذي تسانده الولايات المتحدة. وقد تعرضت باكستان خلال هذا الصراع، وأيضًا خلال الغزو السوفييتي وما تبعه من حروب أهلية؛ لمأزق كبير حاد.

ومما لا شك فيه أنه لو كان لدى البريطانيين في القرن التاسع عشر تصور حول إقامة دولة من البشتون في القرن التاسع عشر؛ لكان من الممكن أن توجد الآن دولة متجانسة إلى حد بعيد لا يقلقها التنافس العرقي إن لم يكن القبلي، دولة آمنة بعيدة عن الصراعات الحديثة تشارك في الاقتصاد العالمي، ولكن إذا ما تخيلنا إعادة رسم الخرائط الاستعمارية في العالم لقلنا إن أفريقيا بأكملها — هي وكثير من دول العالم — بحاجة إلى إعادة ترتيب نفسها عرقيًّا حتى في ضوء تبني الحضارة الغربية مفهوم التنوع تحت راية الفردية. ولكن حتى كتابة هذه السطور لا يبدو أن هذه الدول بصدد اتخاذ مثل هذا القرار في وقت قريب. ففي التسعينيات انقسمت يوغوسلافيا القديمة انقسامًا عنيفًا بسبب العرقية، فقد رفض السلوفينيون أن يعانوا معاناة الكرواتيين تحت حكم يوغوسلافيا، وفي البوسنة والهرسك سفك المسيحيون والمسلمون دماء

بعضهم بعضًا لأن كلًّا منهما أراد أن يقيم دولته الخاصة، وهو ما يعد نذير شر لأفغانستان.

والتجربة البلقانية التي تلازمت مع سفك الدماء العرقية في وسط أفريقيا بالإضافة إلى استمرار الحرب الضروس في أفغانستان تنبئ بتحد كبير سوف يظهر في القرن الحادي والعشرين، يحتاج إلى أن تتعامل معه قوى أكثر ثباتًا واتزانًا، وهذا التحدي هو بالطبع السبب الرئيسي في إغارة الطائرات الأمريكية بي-٥٢ (B-52) على كابول.

ويبقى هنا سؤال: إذا كانت الحدود السياسية لأفغانستان الحديثة هي اختراع حديث فماذا كانت تعني كلمة «أفغانستان» في العصور الماضية؟ والأهم من هذا من هم «الأفغان» وماذا كانوا؟

لقرون عدة ساد الاعتقاد بأن الأفغان الأصليين كانوا إحدى قبائل بني إسرائيل المفقودة، لكن هذا الموروث فقد مصداقيته حين أقيمت دولة إسرائيل الحديثة في أعقاب الحرب العالمية الثانية. يذكر علماء اللغة والآثار أن هذه المنطقة قد اجتاحتها الشعوب الهندوآرية في الألفية الثالثة قبل الميلاد وبالتحديد الشعوب التي كانت تتحدث لغات المجموعة الإيرانية والتي هاجرت جنوبًا من وسط آسيا، ثم طردت الأقليات الدرافيدية التي تدفقت بعيدًا صوب الجنوب إلى شبه القارة الهندية. وحاليًّا لا تزال أقلية درافيدية يطلق عليها البراهوي تتناثر على الحدود بين جنوب أفغانستان وبلوخستان تثير حيرة علماء الأنثربولوجيا، ومن المحتمل أن تكون هذه الأقلية قد نجحت في الفرار متجنبة أمواج الغزو الأولى ثم عادت بعد ذلك إلى الصحراء مرة أخرى بعد أن تيقنت أنها أصبحت آمنة، أو من المحتمل أيضًا أن يكون الغزاة قد احتفظوا بسكانها في الإقليم كعبيد لهم. وقد انقسمت الشعوب الهندوآرية إلى مجموعات عديدة بعضها يعمل بالزراعة والبعض الآخر تحول إلى رعاة متنقلين، لكن هذه الجماعات الأولى التي ارتبطت بجماعات أخرى كانت تقطن الهضبة الإيرانية التي تمتد جنوبًا حتى نهر تيجريس؛ هي التي تكون منها الشعب الأفغاني، بالإضافة إلى بعض الأجناس الأخرى التي ولدتها أمواج الغزو المتكررة.

وحتى نهاية الحقبة الاستعمارية، ظل تاريخ أفغانستان متشابكًا مع تاريخ جيرانها: الفرس في الغرب، والهنود في الشرق، والمحاربون البدو في السهول الجرداء إلى الشمال. وكانت الحروب في العصور القديمة بين ملوك

الفرس واليونان حول أفغانستان صراعًا متلازمًا مع حروبهما ضد قبائل السيثيان في الشمال في سوجديا القديمة، وتمثل هذه الحروب أهمية خاصة؛ لأنه في القرن الذي سبق ظهور المسيح (أو ٧٥٠ عامًا قبل محمد) اضطر السيثيان إلى الرحيل من السهول الجرداء في مجموعات ضخمة ليستقر أغلبهم في جنوب جبال الهندوكوش، في قوس يمتد من سيستان في إيران عبر جنوب أفغانستان والسند الحديثة ومنها إلى وادي بيشاور، وهي نفس المنطقة التي يحتلها البشتون الآن، ويعتقد الباحثون أن الفترة التي أعقبت هذه الهجرة شهدت ظهور هذه الطائفة العرقية ولغتها الخاصة. وكما يصف المؤرخ الدبلوماسي أولاف كارو Olaf Caroe فإن لغة البشتون هي بالضبط ما يمكن أن نتوقعه نتيجة تأثر وامتزاج اللغة الإيرانية القديمة باللغة الفارسية والهندية عبر الزمان. أما البشتون الذين لا يمكن أن نغفل عن ثقافتهم الحربية العنيفة، فإن الصفة الغالبة على مؤثراتهم العرقية العديدة قد تكون ما أسماه القدماء السيثيانية (وهي تعني القتل بالمنجل). وحين مات قورش العظيم ملك الفرس في ظروف مريبة على ضفة نهر الياكسارتس فمن الممكن أن يكون قد وقع بين أيدي من نطلق على سلالتهم الآن الأفغان.

وإلى أن بدأ البريطانيون في رسم خرائطهم ورسوماتهم البيانية على الحدود الشرقية، كان الأفغان يشكلون قوة كبيرة في باكستان أو الهند كما كان يطلق عليها قبل عام ١٩٤٧م (ويقال إنه طبقًا للمؤشرات القديمة، فإن باكستان لها الأحقية الأولى في أن يطلق عليها «الهند» أكثر من جارتها خاصة مع وقوع نهر السند في أراضيها)، وحتى القرن التاسع عشر كانت بيشاور تضاهي في أهميتها — بوصفها مدينة أفغانية — أهمية كابول، بل كانت تعتبر العاصمة الشتوية لأفغانستان، وكذلك كانت كويتا التي تقع في أسفل ممر بولان تعتبر مدينة أفغانية، أو على الأقل باشتونية، بالإضافة إلى أراضٍ أخرى في السند والسوات وكذلك كشمير (عن طريق الغزو)، وأيضًا المقاطعة الواقعة على الحدود الشمالية الغربية بأكملها. ويختلط الأمر على الكتاب القدامى في التمييز بين الهند وأفغانستان خاصة عند الإشارة إلى «الهنود الجبليين» أو إلى شعب مثل الباراباميسيداي وهم الهنود الذين عاشوا في باراباميسوس، وهي كلمة فارسية تعني الهندوكوش.

ومع توالي العصور بدأت الإجابة عن سؤال: «من هو الأفغاني؟» تتضح قليلًا في ضوء توقف حركة الهجرة والانتهاء من وضع الحدود السياسية، وإن كانت تفسيراتها تبدو معقدة بعض الشيء. فنحن الآن نعرّف الأفغاني بأنه الشخص الذي يأتي من أفغانستان، ويشمل هذا التعريف طائفة البشتون، والأتراك (الأوزبك، والطاجيك، والتركمان)، ومغول الهازارا، والنوريسستانيين ذوي الشعور الحمراء، والبراهمة ذوي البشرة الداكنة، وعددًا آخر من الجماعات. لكننا حين نصف الباكتريانيين أو الغزنويين مثلًا — وكلاهما لم يعد ضمن الكيان السياسي الأفغاني الحالي — أو اليونانيين والبارثيانيين الذين عاشوا بعيدًا وإن كانت لهم نفس المعتقدات؛ فنحن إنما نشير إلى عناصر من أجناس تشكل آخر الأمر أفغانستان، تلك الأرض القديمة التي استقرت أخيرًا على حدودها الثابتة.

يعتبر بزوغ الإمبراطورية الفارسية سنة ٥٥٠ قبل الميلاد بداية التاريخ المدون، ليس فقط لأن الفرس سجلوا تاريخهم (مع أنه ما كان إلا قوائم منحوتة في الصخر تستعرض في زهو مراسيم وأوامر) بل لأن الإغريق قد حذوا حذوهم بعد أن كانوا يراقبون إمبراطوريتهم عن كثب، ولذلك يمكننا القول إن الإغريق ومن بعدهم الرومان الذين استندوا إلى المصادر اليونانية الأساسية كان لهم الفضل فيما نعرفه اليوم عن أفغانستان في الزمن القديم. ولا يزال الأثريون المحدثون يدرسون بعض النتائج التي توصل إليها الإغريق والرومان، لكن التاريخ الذي تأسس على المعرفة اليونانية يعتبر أحسن نقطة بداية لدراسة التاريخ القديم لأفغانستان.

ويذكر المؤرخ الروماني آريان Arrian أن كلًّا من الآشوريين والميديس سبقوا الفرس إلى نهر السند، ولكن لا يدعم هذا القول أي دليل أثري أو مكتوب. وقد يكون الآشوريون قد وصلوا في مسيرتهم عام ٧٠٠ قبل الميلاد إلى المنطقة المحيطة بقندهار أو ربما تجاوزوها، لكن هذا لا يعني أنهم غزوها، وربما كان الميديس أيضًا قد كونوا علاقات مع سكان المناطق المحيطة بهرات وبلخ لكن ليس طمعًا فيها؛ فقد كان اهتمامهم منصبًّا على خصومتهم مع إمبراطورية ليديا والإمبراطورية البابلية في الغرب. وإن كان الأفغان قد استسلموا لغزو الآشوريين أو الميديس بالفعل فإن هذا لم يدم إلا لفترة قصيرة، ولذلك فإن هذه البلاد لم تعرف وتشتهر إلا بعد غزو الفرس لها.

ومن المعروف أن قورش العظيم مؤسس الإمبراطورية الفارسية كان يطمع في أفغانستان، ولذلك حاول غزوها مرتين مختلفتين، لكنه على الأرجح لم ينجح في عبور جبال الهندوكوش، ففي الغزوة الأولى تعثر الجيش في ماشتي داجو (صحراء الموت) ووصل إلى حالة مزرية أنقذتهم منها طائفة تدعى الأرياسبيان الذين كانوا يعيشون على ضفاف نهر هلمند وقد أسماهم قورش «المحسنون»، وبعدها تقدم قورش شمالًا إلى وادي نهر كابول مخترقًا قندهار. وفي سفح الهندوكوش بالقرب من باجرام أقام حامية في بلدة كابيش كانيش أو كابيسا، لكنه ليس من المعلوم هل عبر الجبال أم لا.

أما الدلائل التي تشير إلى استيلاء قورش على شمال أفغانستان أو باكتريا فتكاد تكون منعدمة، ولكن واحدة من أوائل غزواته — ومن المؤكد أنها كانت الأخيرة — كانت ضد قبائل السيثيان الذين يعيشون في المنطقة الواقعة بين نهري الأوكسس والياكسارتس، وهناك أسس حدود إمبراطوريته بعد تعزيزها بسلسلة من سبع مدن حصينة كانت أكبرها سيروبوليس. ومن المستبعد تمامًا أنه كان سيبذل جهدًا كبيرًا في الإغارة على ما كان يعرف بالجمهوريات السوفييتية في تركمانستان، وأوزباكستان، وطاجيكستان دون أن يؤمن الأراضي الواقعة بين نهر أوكسس وجبال الهندوكوش بالإضافة إلى الأراضي الخصبة والحضارات المزدهرة حول بلخ وهرات الحديثة.

وبعد غزواته وانتصاراته في جميع الأراضي الممتدة من أفغانستان وحتى فلسطين قُتل قورش أثناء معركة شرسة مع قبيلة من قبائل البدو تدعى ماسيجاتاي بالقرب من نهر الياكسارتس. ويشير بحث حديث عن هذه المعركة إلى أن ملكة ماسيجاتاي — توميريس — قالت إن قورش كان «لا يشبع من الدماء» وبناء عليه أغرقت رأسه في آنية مملوءة بالدم (وقد يبدو هذا التصرف لا معنى له، لكنه كان مصدر إلهام للعديد من الفنانين في العصور الوسطى). وبعد وفاة قورش لم يحاول ابنه قمبيز أن يقترب من الشرق، بل حصر كل جهوده الناجحة خلال سنوات ملكه القصيرة في غزو مصر مع بعض محاولات الاتجاه إلى الحبشة. ولذلك فإن أدق ما وصل إلينا من معلومات عن انتصارات قورش كان من خلال داريوس الأول Darius I، ثالث ملوك الأكامينيد الذي سجل قائمة بالأراضي التي ورثها على وجه صخرة في بيهيستون، وتشمل هذه الأراضي باكتريا (بلخ) في الشمال، وآريا (هرات) في

الغرب، وأراكوزيا (قندهار) في الجنوب، بالإضافة إلى جاندهارا التي تُكَوِّن مع باروامسيداي امتداد الأرض بين كابول وبين وادي بيشاور دون أن تتخطاها إلى نهر السند.

وتعتبر قائمة بيهيستون (٥٢٠ سنة قبل الميلاد) أقدم وصف مكتوب لأفغانستان، وكان من الممكن أن تكون المعلومات الواردة بها ضئيلة إلى حد افتقادها لأي معنى، لولا أن المؤرخ اليوناني هيرودوت Herodotus — الذي اتسعت رحلاته وكانت له مصادره الخاصة — أضاف إليها الكثير من التفصيلات؛ فعن طريق هيرودوت الذي لقب «بأبي التاريخ» نتعرف على طائفة الباكتويكي، وهم الهنود الذين كانوا يقطنون أقصى الشمال، وعُرِفَ عنهم أنهم من أشد المحاربين صلابة، وكانوا يلبسون ويتسلحون مثل الباكتريانيين، وعن طريق هيرودوت أيضًا نعرف أن داريوس أرسل بعثة بحرية لتستكشف الهند حتى آخر حدودها الطبيعية، وقد اتجهت هذه البعثة أولًا تحت قيادة أيوني إغريقي يدعى سكايلاكس Skylax شرقًا عبر نهر كابول، ومن المرجح أنها بدأت بالقرب من بيشاور، جنوبًا في اتجاه بحر العرب، أو ما يعرف الآن بكراتشي، وفور استلام داريوس تقرير البعثة أغار على المنطقة — السند حديثًا — ووصل حتى نهر السند. وفي نقوشه اللاحقة لغزواته، نجد أنه يشير إلى الإقليم الجديد تحت مسمى «الهندوش»، وتعتبر هذه هي المرة الأولى التي يُمَيَّز فيها بين الشعبين اللذين نعرفهما الآن باسمي الهنود والأفغان، وقد فرض داريوس على سكان هذه المنطقة «التي تضم أكبر عدد ممكن من سكان العالم» دفع جزية تقدر بـ ٣٦٠ طالين من الذهب، في حين فرض على الإقليم المحيط بجاندهارا بما فيها باكتوان ضريبة تقدر بـ ١٧٠ طالين فضة أو ما يعادلها.

ومع أن الفرس أسسوا أعظم إمبراطورية في العالم القديم فإن الإغريق — الذين كانوا يتميزون بديناميكية ثقافتهم إلى جانب انغماسهم في المعارك السياسية — تفوقوا عسكريًّا في القرن الخامس قبل الميلاد حتى تخطت مستعمرات بعض حكامهم الأراضي الفارسية. وعندما كان الفرس يرسخون إمبراطوريتهم في بلاد الرافدين الوديعة، كان تطور فنون الحرب عند الإغريق في أوجه. وكانوا يختبرونه في معاركهم مع الولايات الأخرى باستخدام الحراب ومواجهة الخصم وجهًا لوجه وهو أسلوب لم يكن مألوفًا

لدى الفرس. وفي المناطق الواسعة في آسيا كان القوس هو أهم الأسلحة بالإضافة إلى الرمح ثم سلاح الفرسان. أما في المناطق الجبلية المكتظة بالسكان فقد كانت الأسلحة بعيدة المدى والمناورات التكتيكية التي تتسم بالمرونة غير عملية إلى جانب عدم توافر الخيل بها. فظهر أسلوب المواجهة المباشرة أو «الصدمة» يمارسه مواطنون مدججون بالسلاح أطلق عليهم «الهوبلايت» (حاملو الدروع)، ولتحقيق مزيد من التطوير في هذه النوعية الشرسة من القتال قام اليونانيون بعملية تزاوج بين المعارك وجهًا لوجه وبين نظام صارم يعتمد على تشكيل خطي يسمى «الفالانكس» حيث يحتمي كل محارب بدرع من يجاوره. ومع أن الإغريق ظلوا يمجدون صورة البطل الأوحد في حرب طروادة التي كانوا يحتضنونها ويدرسونها منذ طفولتهم، فإنه في الواقع العملي تقهقرت فكرة الفردية أمام مفهوم النظام الجماعي، بحيث كان نجاح أو فشل هؤلاء المقاتلين يرجع إلى الكل وليس إلى فرد واحد. ولأنهم كانوا بحّارة مهرة، بفضل وقوع بلادهم في مركز التجارة في البحر المتوسط؛ فقد كانوا أكثر اتصالًا بالعالم من الفرس، وكانت دروعهم مصنوعة من البرونز لتعطيها نوعًا من المرونة، أما أسلحتهم الحديدية أو التي كانت أطرافها مصنوعة من الحديد فقد كانت أكثر تفوقًا من أسلحة العدو، بحيث كان من الصعب على حامل القوس من الفرس أن يصيب واحدًا من هؤلاء الهوبلايت اليونانيين الذين تغطي أجسادهم الدروع ويبرعون في استخدام دروعهم الدائرية الكبيرة، وكان اقتراب واحد من هؤلاء المقاتلين بحربته التي يبلغ طولها نحو ستة أقدام من أي جندي فارسي يعني الهلاك.

وفي عام ٤٩٠ قبل الميلاد أرسل داريوس قوة لإخضاع شبه الجزيرة اليونانية، لكنها تعرضت لهزيمة نكراء في معركة ماراثون، واضطر سلاح المشاة الفارسي إلى التقهقر والعودة إلى أسطوله، وكان اليونانيون قد هجموا في اللحظة التي كان فيها الجنود المشاة من الفرس في مهمة بحثية، لكن سلاح الفرسان الشرقي ظل مصدر تهديد حقيقي لليونانيين حيث كانت نقطة الضعف في الفالانكس تتمثل في جناحيه وظهره.

بعد عشر سنوات قام زيركسس الأول Xerxes I خليفة داريوس بعملية غزو كاملة لليونان على رأس أكبر جيش عرفه التاريخ في ذلك الوقت، وكانت إحدى نتائج هذا الغزو أن سنحت لهيرودوت الفرصة لمزيد من الدراسة لمكونات

الإمبراطورية الفارسية فيشير إلى أن الباكتريانيين كانوا يرتدون قبعات من الفل مثل الميديس والفرس كما كانوا يحملون أقواسًا من الخيزران وحرابًا قصيرة، أما السيثيانيون فكانوا يرتدون قبعات مدببة الأطراف وسراويل، كما كانوا يحملون معهم الخناجر والفئوس. وكانت القوتان تحت قيادة شقيق زيركسس وهو ابن لداريوس وزوجًا لواحدة من بنات قورش، ومما يثير الانتباه أن حاكم ولاية باكتريا كان أعلى رتبة في الأمراء في العائلة الأكامينيدية، وغالبًا كان هو ولي العهد.

وهذا وصف هيرودوت للإيرانيين الذين جاءوا من غرب أفغانستان الحالية: «كانوا يتمثلون في تسليحهم بالباكتريانيين، فيما عدا الأقواس التي يحملونها فقد كانت تمثل النموذج الميديسي.» وكانت شعوب جاندهارا العظيمة مثل البارثيانيين والكورازميين الذين كانوا يعيشون بجوار بحر قزوين يرتدون نفس الملابس التي كان يرتديها الباكتريانيون. أما الباكتوان فيقول عنهم إنهم كانوا يرتدون عباءات جلدية ويحملون معهم الأقواس والخناجر المعروفة في بلادهم. في حين كان الهنود يلبسون ملابس قطنية ويحملون أسهمًا وأقواسًا مصنوعة من الخيزران ذات رءوس حديدية. وقد شارك الباكتريانيون والسيثيانيون والباكتوانيون في الحرب بسلاح من الفرسان يحملون نفس الأسلحة التي يحملها زملاؤهم في سلاح المشاة.

أما أكبر فصيلة في سلاح الفرسان التي كان يبلغ عددها ثمانية آلاف مقاتل فقد كانت مؤلفة من الساجارتيانيين الذين يصفهم هيرودوت بأنهم شعب من البدو من أصل فارسي يتحدث الفارسية ولكنهم يرتدون ملابس هي مزيج من النمط الفارسي والباكتويكي، ويضيف إنهم لم يكونوا يحملون أية أسلحة من البرونز أو الحديد، بل يكتفون بالخناجر ويعتمدون على حبال جلدية ذات عقدة في أحد أطرافها. ومن الواضح أنهم كانوا يحاربون مثلما يفعل الآن لاعبو الروديو. ولم يأت ذكر الساجارتيانيين إلا في واحدة فقط من قوائم داريوس التي تضم الشعوب التي انتصر عليها، وبعد الغزو لم يأت ذكرهم في أية كتابات يونانية أخرى، وربما كانوا قد تمردوا على السلطة الفارسية أو ربما لكونهم بدوًا رحلًا كان من الصعب أن يستقروا بأرض واحدة فتفرقوا في مناطق أخرى. ويدلي كارو بنظرية أخرى وهي أن هذا الشعب — الذي نصفه من الفرس والنصف الآخر من الباكتوان — ربما انحدرت من نسله قبيلة

أبدالي التي سميت فيما بعد قبيلة دوران وظلت لقرون عدة القبيلة الرئيسية في غرب أفغانستان.

كانت بداية المعركة عنيفة من جانب جيش إسبرطة عند ممر ثيرموبيلاي قبل أن يلتحم الجيشان ومن ثم يُباد جيش زيركسس كله وعدده ثلاثمائة جندي. واستمر الفرس في الزحف نحو مدينة أثينا، لكن الأثينيين نجحوا في تدمير أسطولهم على شاطئ جزيرة سالاميس القريبة. ويعتبر انتصار اليونانيين في هذه الجزيرة حدثًا بارزًا في التاريخ حيث إنه أجبر زيركسس وأغلب جيشه على التقهقر. وبعد أن فقد الملك العظيم تفوقه البحري اضطر إلى العودة سريعًا إلى وطنه قبل أن يعبر الأسطول اليوناني بحر إيجة ليعترضه في هلزبونت ولكنه ترك قوة كبيرة بقيادة أقرب قادة جيشه إليه — ماردونيوس Mardonious — ليستأنف القتال، وكان جيش ماردونيوس يضم أبرز المحاربين في الولاية وكان اختياره الأول هو رجال الحرس الشخصي للملك، أو من يطلق عليهم العشرة آلاف الخالدون، بالإضافة إلى وحدة كاملة التسلح تضم ألفًا من الفرسان. وكما يقول هيرودوت «ثم قام بعد ذلك بتجميع فرق المشاة والفرسان الذين وفرهم الميديس، والسيثيان، والباكتريان والهنود. وكان يختار كل رجل منهم بطريقة عشوائية، ولكنه كان في كل مرة ينتقي قليلًا من فرسان حلفائه الآخرين، متوخيًا المكانة أو الكفاءة كأساس لاختياره.»

وفي الشهور التي تلت ذلك دُعِّمت قوات ماردونيوس من قبل اليونانيين المتحالفين معه ومنهم الهوبلايت الذين جاءوا من مدينة طيبة اليونانية. وفي ربيع عام ٤٧٩ قبل الميلاد، هاجم الجيش الفارسي أثينا للمرة الثانية ثم واتيكا وهي المنطقة التي تحيط بها. واجتاح فرسان الأعداء البلد مع أن مراسلنا الحربي الأول هيرودوت فشل في التمييز بين بطولات الباكتريانيين والسيثيانيين وربما فشل في التمييز بين الساجارتيانيين وبين قوات المشاة الفارسية بصفة عامة.

وحين التحم الجيشان المتحاربان بعد تسعة أشهر من المناوشات في معركة بلاتيا تساوت هذه المعركة مع معركة سالاميس من حيث دورها الهام في مستقبل الحضارة الإغريقية، وفي وصف مثير لهذا القتال الذي ظلت نتائجه غير محسومة حتى النهاية، يذكر هيرودوت أن الباكتريان والهنود والسيثيان واجهوا قوات من الولايات اليونانية الصغيرة في الوسط. أما قوات إسبرطة فقد واجهت مجموعة الفرس «الخالدين» على اليمين في حين كان الأثينيون يواجهون

جنود طيبة وقوات التحالف من «الهوبلايت» على اليسار. أيام طويلة استهلكت في المناورات قبل المعركة، إذ كان اليونانيون يتحصنون بالتلال كي يتجنبوا هجمات خيالة الفرس. وأخيرًا ظهرت فرق مشاة الفرس في الميدان المفتوح لتلتحم معهم بعد أن قامت بقطع السَّبيل إلى المياه عنهم، وكانت المعركة شرسة من الجانبين، وربما كانت خسارة الغزاة تفوق خسارة المدافعين، يقول هيرودوت:

«كان الفرس والإغريق متعادلين في الشجاعة والقوة، لكن الفرس لم يكونوا يرتدون أي دروع، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يفتقدون الخبرة والمهارة التي تحلى بها خصومهم، كانوا يندفعون إلى الأمام الواحد تلو الآخر، وأحيانًا في مجموعات من عشرة محاربين يهاجمون جيش إسبرطة ليلقوا مصرعهم.»

كان ماردونيوس يعتلي حصانه الأبيض وسط المعركة، وقد أحاطت به فرقته الخاصة المختارة من ألف جندي من الجنود الأشداء الأقوياء، وكان ظهوره يحفز الجند على مواصلة القتال بشجاعة مما كان يصعب الأمر على أعدائه، ولقي الكثير من الإسبرطيين مصرعهم.

لكن ماردونيوس قُتل أخيرًا على يد واحد من جنود إسبرطة فانهار الجيش بعدها، وانقطعت أخبار سلاح الفرسان من جيش الفرس بعد ذلك. وربما يكونون قد نجحوا في الفرار من ملاحقة فرق المشاة اليونانية لهم. يقول هيرودوت إن الخسائر في المعركة بلغت ٢٥٧ ألف قتيل من الجانب الفارسي، في مقابل ٩١ من الإسبرطيين منهم ١٦ من مدينة تيجا بالإضافة إلى ٥٢ من أثينا. وتعتبر هذه واحدة من قصص المعارك التي يرويها اليونانيون ويعددون فيها الخسائر التي يصعب تصديقها، فالعلماء المحدثون يقدرون أن القوتين المتصارعتين في بلاتيا كانتا متكافئتين وأن عددًا غير قليل من الجنود الفرس تقهقروا حين بدأت الدائرة تدور عليهم. وإن كان من الواضح أنهم لاقوا وقتًا عصيبًا خلال تراجعهم إلى آسيا واصطدامهم بالبواتيانيين والثيساليانيين والمقدونيين والثراسيانيين في شمال شبه الجزيرة الذين انقلبوا على الجانب الآخر حين أدركوا أن الانتصار أصبح حليفا للهيلينيين وليس للفرس. ولم يعد إلى آسيا إلا فلول متناثرة من بقايا ذاك الجيش.

ومن حسن حظ الفرس أن الإغريق لم يتمكنوا من تحقيق وحدة داخلية بين الولايات، فبعد عدة عقود من التحالفات التي استهدفت تخريب أراضي الفرس وقعت معركة طاحنة بين الأثينيين والإسبرطيين في الأراضي اليونانية أسفرت عن عجز اليونانيين عن القيام بأي غزو خارجي. فقد أضعفت الحرب البلوبونيزية التي نشبت بين عامي ٤٣١-٤٠٤ ق.م الولايات المختلفة، ولكن بعد فترة قصيرة تمكن عشرة آلاف من الجنود المرتزقة اليونانيين من اختراق قلب الإمبراطورية الفارسية بسهولة، معلنين بذلك عودة تفوق الجيش اليوناني، كما أنه في القرن الرابع قبل الميلاد نادى الفيلسوف اليوناني سقراط بتجهيز حملة كبيرة يهب فيها اليونانيون جميعًا للتغلب على الفرس.

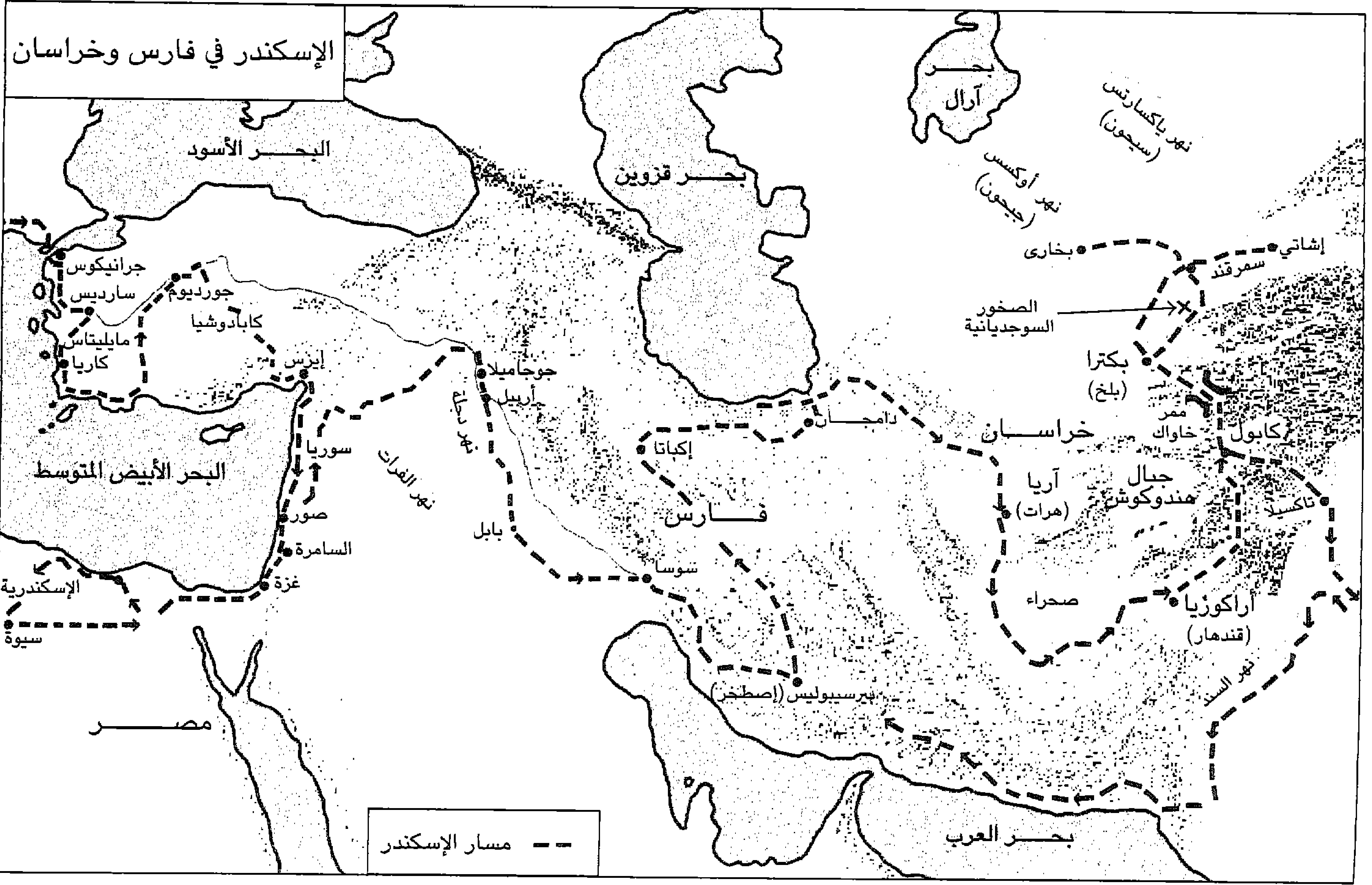
وقد تحققت آمال سقراط في النصف الثاني من القرن الرابع ليس عن طريق المدن المستقلة الشهيرة في كلاسيكيات اليونان ولكن بواسطة ولاية مقدونيا، وهي أرض جبلية جزئيًا يقطنها يونانيون أشداء تقع بجوار هضبة البلقان. ففي عام ٣٥٩ ق.م تولى العرش ملك شاب نابه يدعى فيليب الثاني Phillip II، نجح في التغلب على القبائل التي تسكن الجبال المحيطة بمقدونيا، وفي عالم اليونان الذي كان يسود فيه نظام المدن المستقلة التي يرتبط بعضها ببعض من خلال أحلاف وتكتلات؛ أصبحت مقدونيا أول دولة كاملة، ووصل عدد سكانها إلى أربعة ملايين نسمة تقريبًا، وكانت تشمل مساحة كبيرة من الأراضي الغنية بالأخشاب والمعادن. ومن المثير للعجب أنه مع تزايد القوة العسكرية لمقدونيا تمكنت أيضًا من اكتساب المزيد من الثقافة الهيلينية فقد بدأت تجتذب إليها الفنانين والعلماء من البلاد الأخرى، وعهد إلى أرسطو بمهمة تعليم ابن الملك وبعض النبلاء الآخرين، في حين تحول البلاط الملكي في بيللا إلى مغناطيس يجذب المنفيين من اليونانيين والفرس الذين كانوا يطلبون الحماية ويبحثون عن النفوذ لدى تلك القوة الشابة الناشئة.

استخدم فيليب الثاني توسعاته في الأراضي وتزايد ثروته ليشكل أقوى جيش عرفه العالم. وفي بداية حياته عاش فيليب في طيبة التي ازدهرت وتسيدت شبه الجزيرة الجنوبي في ظل حكم إيبامينودس Epaminodes العظيم الذي نجح في هزيمة الإسبرطيين في انتصارات مذهلة. وكان التخطيط الذي ابتدعه إيبامينودس هو استخدام الجبهة الأمامية القوية من الفالانكس ليخفي قوته الحقيقية في نقطة ما، مستحدثًا بذلك نمطًا من المرونة في أسلوب المعارك أصبح

بعد ذلك طقسًا من طقوس الحرب. بالإضافة إلى استخدام سلاح المشاة المدرب جيدًا لنوع من الحراب الطويلة اسمها «ساريسا» تفوقت تكتيكيًّا على أسلوب «الهوبلايت» اليوناني التقليدي. كما عمد المقدونيون أيضًا — بالتحالف مع الثيساليانيين — إلى إعداد تشكيلات كبيرة من سلاح الفرسان الثقيل الذي لم يكن متوافرًا لدى الهيلينيين. وجغرافيا نجد أن مقدونيا تشكل جسرًا بين اليونان والفرس، وكان امتزاج نظامها السياسي الأوتوقراطي بتطلعاتها إلى الثقافة الهيلينية يضعها في موقع متميز يمكنها من الانتصار على الهيلينيين والفرس.

وفي عام ٣٣٨ ق.م اتجه الجيش المقدوني جنوبًا ليقهر التحالف بين أهالي طيبة والأثينيين في معركة شارونية، وتمثلت أروع مناورة في ذلك الوقت في هجوم سلاح الفرسان بقيادة ابن فيليب المراهق على القوة المعادية الأخرى من الصفوة التي يطلق عليها «جماعة طيبة المقدسة». ومن بين ثلاثمائة محارب كانوا مقسمين إلى مائة وخمسين زوجًا من الشواذ جنسيًّا، لم ينجُ سوى ستة وأربعين استسلموا للغزاة. وكانت نتيجة هذه المعركة أن أرغم فيليب اليونانيين على الدخول معه في تحالف أسماه حلف كورنثيا، رأى أنه سوف يدعم طموحه الثاني وهو غزو الشرق.

قتل فيليب الثاني عام ٣٣٦ ق.م في عشية حملته الهيلينية الشاملة ضد الإمبراطورية الفارسية. وفي ذلك الوقت كان بارمينيو Parmenio — وهو من أكفأ قادة جيشه — قد وصل إلى هيليزبونت في آسيا الصغرى حيث عسكر هناك منتظرًا الجيش. ولكن فور قتل فيليب الثاني ثارت العديد من الولايات التي كان قد استولى عليها، دون أن يجول بخاطرهم أن وريثه الذي يبلغ العشرين من عمره لا يقل عنه قوة، بل سوف يبرهن على أن طموحه قد تخطى طموح وأطماع والده. وكان الأمير الشاب قد اتجه بقواته إلى الشمال متغلبًا في طريقه على قبائل الإليريان والثراسيان التي تسكن الجبال في شمال اليونان وألبانيا الآن، ثم قفل راجعًا ليخمد ثورة هيلينية اندلعت في مدينة طيبة، فدمر المدينة بالكامل بعد أن قتل كل رجالها وسبى نساءها وأطفالها. وبعد هذا الاستعراض المرعب للقوة المقدونية بدأت الحملة التي خطط لها طويلًا ضد الإمبراطورية الفارسية في آسيا، وبعد ذلك لم يكتف الابن بانتصاره على الفرس بل حاول أن يسعى بجيشه إلى نهاية الأرض التي ظن خطأً بأنها تقع فيما وراء أفغانستان.



الإسكندر في فارس وخراسان
البحر الأسود
بحر قزوين
بحر آرال
نهر ياكسارتس (سيحون)
نهر أوكسس (جيحون)
بخارى
إشاتي
سمرقند
الصخور السوجديانية
بكترا (بلخ)
ممر خاواك
كابول
خراسان
جبال هندوكوش
آريا (هرات)
تاكسيلا
صحراء
أراكوزيا (قندهار)
نهر السند
دامجان
إكباتا
فارس
جوجاميلا
أربيل
نهر دجلة
نهر الفرات
بابل
سوسا
بيرسيبوليس (إصطخر)
جرانيكوس
ساردیس
جورديوم
كابادوشيا
مايليتاس
كاريا
إيزس
سوريا
البحر الأبيض المتوسط
صور
السامرة
غزة
الإسكندرية
سيوة
مصر
بحر العرب
مسار الإسكندر

الفصل الثاني

الإسكندر الأكبر

عام ٣٢٩ ق.م تطلع المشاهدون للوادي الذي يقع بين السفوح الجرداء لجبال الهندوكوش إلى موكب مهيب من الغزاة يتقدمه مجموعة من الفرسان، وكانوا بين كل فينة وأخرى يتقهقرون إلى الخلف في تشكيلات أحادية وثنائية تجاه قائد هذا الموكب، وكان هناك مجموعة من الرماة الراجلين يقومون بمسح المرتفعات بمحاذاة جناحي الجيش، وعلى الطريق في سفح الوادي وعلى بعد ما ترى العين امتد حشد ضخم من الفرسان والمشاة المدججين بالسلاح، كانت وجوههم قد لفحتها الشمس، ودروعهم تلمع كشريط من النار لا نهاية له، وبخلاف الفرس لم يكن مع هؤلاء القادمين الجدد إلا قليل من المتاع وبعض الخدم، ولكن كان من الواضح أنهم من المحاربين الأشداء.

ولم يكن من الصعب تمييز قائد هذا الموكب، لكن مظهره كان مفاجئًا لمن رآه. كانت طليعة الموكب تضم مجموعة من الرجال ضخام الجثة يرتدون خوذات يزينها الريش، وعلى أجسادهم سترات قرمزية اللون بلا أكمام، وكان لأغلبهم لحى طويلة شهباء، ويسيرون بخيلاء كأنهم ملوك، ولكن حين توقف الموكب تمحورت الحركة كلها حول شخص واحد، شاب مفتول العضلات في منتصف العشرينيات من عمره، متوسط الطول ذي بشرة حمراء وردية، ووجه حليق يحيطه شعر متموج يطول حتى ينسدل على كتفيه تقريبًا. وكان يتحرك بسرعة ورشاقة الرياضيين، ويبث فيمن حوله قوة تشوبها الحدة والتوتر، وصوته الأجش الحاد بعض الشيء يتردد بين التلال وهو يعطي أوامره بسرعة. وكان من الممكن في لحظة ما أن تلتقي نظرات المتطلعين إلى هذا المشهد من أعلى الوادي بنظرات قائد هؤلاء الأعداء وهو يجول ببصره في الأراضي المحيطة به، وقد مال برأسه قليلًا جانبًا بطريقة فيها شيء من الغرابة، وفي هذه الحالة

كانوا سيواجهون ولو للحظة خاطفة واحدًا من أبرز الشخصيات التي ظهرت في التاريخ.

يعد الإسكندر الأكبر من أنجح الغزاة الفاتحين في الزمن القديم، بل ربما كان أهم قائد عسكري في التاريخ. فلم يتمتع أي من القواد الذين يماثلونه فيما حققه من نجاحات وانتصارات بهذه الدرجة من التكامل في الشخصية العسكرية، بدءًا من القدرة على التخطيط الاستراتيجي إلى براعة التكتيك ثم الشجاعة في ميدان القتال. وقد قيل إن يوليوس قيصر بكى وهو يقترب من سن الأربعين حين شاهد تمثال الإسكندر؛ لأنه حتى هذه اللحظة لم يكن قد حقق سوى القليل من أحلامه، في حين أن هذا المقدوني قهر العالم وهو في العشرينيات من عمره.

كان في شخصية الإسكندر جانب ديني أو روحاني يثير اهتمام مترجمي السير الذاتية، فقد كان يعتقد منذ صغره أنه ينحدر من نسل هرقل من جهة الأب، ومن نسل أخيل من جهة الأم أو على وجه التحديد من زواج ابن أخيل نيوبوتولوس بأندروماك أرملة هكتور بطل طروادة. وكانت إحدى عينيه ذات لون أزرق يميل إلى الرمادي في حين كانت الأخرى بنية اللون وهي مفارقة غريبة لها مغزى خاص عزز اعتقاده. وقبل غزوه آسيا أخبرته أمه أنه ابن الإله زيوس مباشرة، وهي مقولة يمكن للقارئ الحديث أن يتلقفها كيفما يشاء، لكن الإسكندر آمن بها تمامًا. ومع تزايد قوته تزايد أيضًا هذا الجانب الروحاني الغامض في شخصيته خاصة وأن الحظ (وهو إله يوناني) كان يسانده في كل تحركاته، وبلغ من إيمانه بهذه المقولة أن أصبحت قوة مقدونيا السياسية لا تهمه في شيء بعد أن تصور نفسه يحكم عالمًا متحدًا، لكنه كان عليه لتحقيق ذلك أن يقهر الإمبراطورية الفارسية أولًا.

بدأ غزو المقدوني لآسيا في ربيع عام ٣٣٤ ق.م تحت رعاية هيلينية شاملة، لكن الإسكندر بعد عبوره هيلزبونت توقف عند إيليوم — وهي ما كانت تعرف قديمًا بطروادة — ليستولي على درع أخيل الذي كان محفوظًا في محراب. وبعد ذلك كان عليه أن يخوض ثلاث معارك كبرى ضد الفرس في ساحات قتال مفتوحة، وكان خصم الإسكندر في هذا الصراع هو داريوس الثالث Darius III الذي كان محاربًا طويل القامة وسيمًا ينحدر من سلالة الأكامينيد، وكان قد

دُفع به إلى العرش بسرعة حتى يمكنه الدفاع عن إمبراطوريته ضد التهديد الإغريقي.

كانت المعركة الأولى عند نهر جرانيكوس في شمال غرب تركيا بعد وصوله آسيا مباشرة، وكان حكام الأقاليم الفارسية قد حشدوا جيشًا كبيرًا ضم الحامية الملكية والهوبلايت اليونانيين والمجندين المحليين، بالإضافة إلى ألفين من الفرسان الباكتريانيين جاءوا من مسافة ألفي ميل هي بعد موطنهم عن ميدان المعركة. وكان لهؤلاء الخيالة تقدير خاص في العالم القديم، وقد استخدمهم ملوك الفرس بوصفهم قوات متحركة خاصة ذات تدريب راق، أما الفرق اليونانية، سواء من المواطنين أو من الجند المأجورين، فقد كانت أقوى عناصر الجيش، وكان يقودها قائد بارز من روديسيا يدعى ممنون Memnon، وفيما عدا المواطنين المحليين من اليونان كانت آسيا الصغرى قد تعرضت قبل ذلك لغزو جيوش من أثينا ومن إسبرطة، ومن ثم لم يكن هذا الغزو بالشيء الجديد عليهم؛ فقد سبق لهم الاشتباك مع قوات من مقدونيا بقيادة بارمينيو مدة عام حققوا خلالها بعض الانتصارات، فلم يجدوا أي مبرر هذه المرة للتخوف من ملك شاب في الثانية والعشرين من عمره يتميز بالتهور والاندفاع. ولذلك اتخذ الفرس مواقعهم خلف ضفاف نهر جرانيكوس الشديدة الانحدار، وفي وقت متأخر من بعد ظهر أحد أيام شهر مايو/أيار وصل الجيش المقدوني إلى الشاطئ البعيد على الجانب الآخر.

بدأت المعركة بعبور الخيالة بقيادة الإسكندر ورفاقه المختارين من الفرسان مندفعين نحو النهر. وهنا تختلف الروايات القديمة عن سير المعركة بعد ذلك، فالبعض يصفها بأنها كانت معركة أرضية، في حين يقول آخرون إن حائطًا من فرسان الأعداء اصطف على الشاطئ البعيد ليجبر المقدونيين على القتال في النهر، وقد قتل خمسة وعشرون من رفقاء الإسكندر في هذه الطلعة الأولى، لكن المقدونيين — حسبما قال المؤرخ ديودوروس Diodorus — تمكنوا في اليوم التالي من عبور النهر ليبدأ القتال على أرض صلبة تحت أقدامهم.

لكن جميع المصادر قد اتفقت في وصف حالة الإسكندر وهو في ذروة هذه المعركة، فحين انكسر رمحه استعار رمحًا آخر من أحد جنوده، وفي تلك اللحظة شاهد زوج ابنة داريوس — ميثيريداتس Mithridiates — وهو يقبل عليه على رأس قوة من خيالة الفرس، فاندفع الإسكندر إلى الأمام بعيدًا عن

رفاقه، وألقى برمحه في وجه ميثيريداتس فطرحه أرضًا، وهنا هاجمه أحد نبلاء الفرس ويدعى رويزاسيس Rhoesaces فضرب خوذته بسيفه وكسر جزءًا منها، ومع أن الإسكندر فقد اتزانه للحظات فقد تمكن من طعن عدوه في صدره. وفي هذه اللحظة جاء سبيثريداتس Spithridates حاكم ليديا وإيونيا من خلف الإسكندر وقد شهر سيفه ليقتله، فرآه كلايتوس Cleitus — أحد رفقاء الإسكندر — فهجم عليه وبتر ساعده.

ومع تزايد مجموعة الفرسان والقوات الخفيفة التي انضمت إلى القتال بدأت خيالة الفرس التي كانت في وسط الجيش في الفرار من المعركة وتبعها الجناحان، أما الجزء الأعظم من الخيالة فقد فروا دون أن يطاردهم جيش الإسكندر، حيث كان اهتمامه منصبًّا على قوات المشاة اليونانية المتحالفة مع الفرس، التي كان عددها حوالي عشرين ألفًا من المحاربين الأشداء الذين ظلوا صامدين في المعركة. وحسبما يقول آريان: «لم يكن هذا لأنهم كانوا مصممين على الصمود، ولكن لدهشتهم غير المتوقعة من نتيجة المعركة. وهنا تقدم الإسكندر على رأس قواته من الفالانكس وأمر فرسانه بتطويقهم من كل جانب، وقتلهم جميعًا فيما عدا هؤلاء الذين نجحوا في الاختباء بين جثث القتلى، وأُسِرَ نحو ألفي محارب في هذه المعركة.»

أما من الناحية الاستراتيجية فقد واجه الإسكندر أعظم خطر داهمه حين بدأ يتوغل في عمق آسيا متجهًا إلى سوريا، فقد علم أن الملك العظيم داريوس قد بدأ استعداداته للحرب من بابل بعد أن جمع جيشًا جرارًا في طريقه من البلاد المختلفة التي كانت تحت سيطرته. ثم عهد إلى ممنون بقيادة القوات الموجودة في البحر المتوسط وكذلك الأسطول الفارسي. وقد وضع ممنون استراتيجية تحالف بين الإمبراطورية الفارسية واليونان الهيلينية للقضاء على المقدونيين المغرورين. وهي استراتيجية سبق تطبيقها بنجاح مرتين في التاريخ العسكري للفرس. ففي خلال الحرب البيلوبونيزية كان الفرس قد دفعوا بإمدادات إلى إسبرطة لفك سيطرة الأثينيين على الشاطئ الأيوني. وبعد أن قويت إسبرطة قام الفرس بتقديم المعونة إلى أثينا وطيبة للتحرر من قبضة إسبرطة، وفي كلتا الحالتين اضطرت القوات المغيرة إلى الانسحاب من آسيا الصغرى لإخماد التوترات والتمرد في اليونان، ومع عمق توغل الإسكندر في آسيا، لجأ الفرس مرة ثانية إلى إرسال الذهب، بالإضافة إلى قوات عسكرية إذا لزم الأمر إلى

الولايات اليونانية القوية في الجبهة الخلفية. فقد كان الفرس في ذلك الوقت ما زالوا يملكون النقود والكثير من البدائل.

استمر الإسكندر في التوغل داخل آسيا الصغرى تاركا وراءه أنتيباتير Antipater حاكم مقدونيا ومعه الآلاف من المقاتلين ليقمع أي ثورة، وكان على ثقة من مقدرته الخاصة على القضاء على أي هجوم مضاد. وبعد جرانيكوس وصل الإسكندر إلى بلدة تدعى جورديوم كانت تمتلك عقدة شهيرة ترتبط بأسطورة مفادها أن من يستطيع حل هذه العقدة سوف يحكم آسيا. وبعد تفكير في كيفية حل هذه المشكلة أخرج الملك المقدوني سيفه ببساطة وقطعها نصفين، وفي السنة التالية جاءت ضربة حظ أخرى للإسكندر حين مرض ممنون وتوفي بعد أن انتصر جيشه في كيوس ولسبوس وبذلك رحل القائد الوحيد الذي أعلن الحرب على الملك المقدوني حين قام بتهديده.

ورغم أن مكائد الفرس ورِشاهم ومناوراتهم البحرية هددت جبهة الإسكندر الخلفية فإن مشكلة أخرى عاجلة برزت أمامه في المنطقة التي تتلاقى فيها تركيا الحديثة مع سوريا. ففي لعبة القط والفأر بين المقاتلين كان جيش داريوس الثالث قد اخترق الممرات التي تفصل بين شاطئ البحر المتوسط وآسيا الكبرى ليهاجم المقدونيين من الخلف، وكان الإسكندر قد ترك جرحاه ومرضاه في قرية تقع على شاطئ البحر تدعى إيسوس، فهاجم الفرس المعسكر وقتلوا كل من فيه ومثلوا بهم. وبعدها استعد داريوس للمعركة معسكرًا بقواته خلف نهر بيداروس الذي يخترق سهلًا ضيقًا بين جبال سيليسيان والشاطئ. فاستدار المقدونيون واتجهوا صوب هذا الموقع. وكان الملك العظيم قد أقام تحصيناته في بعض نقاط على النهر، وهو الأمر الذي عده المقدونيون دليلًا على خوف الفرس منهم.

وكان جيش داريوس يتفوق عدديًّا على جيش الإسكندر الذي كان يضم ٤٨٠٠٠ مقاتل لكن اختياره لميدان المعركة الضيق ذاك أضعف كثيرًا من تفوقه. وتشكلت قوات الفرس من المقاطعات الغربية للإمبراطورية. يقول المؤرخ الروماني كيرتيوس Curtius: «أما بخصوص الجنود من الباكتريان، والسوجديان، والهنود وبقية الجيش ... وهي أسماء كانت مجهولة حتى بالنسبة لداريوس، فقد حالت سرعة تحرك الجيش دون استدعائهم»، وكان داريوس يمتلك قوتين أساسيتين، فبالإضافة إلى جيش الإمبراطورية كان قد

جمع كل جنود الهوبلايت الأشداء من اليونانيين، وعددهم حوالي ثلاثين ألفًا عدا الفرسان الذين بلغ عددهم عشرين ألفًا بالمقارنة بجيش الإسكندر الذي كان يضم ستة آلاف وخمسين جنديًا فقط. كما كان لدى الفرس حاجز دفاعي يتمثل في النهر بشاطئه المنحدر في أجزاء والمحصن في أجزاء أخرى.

وفي أكتوبر/تشرين الأول سنة ٣٣٣ ق.م في بلدة إيسوس بدأ المقدونيون يتقدمون ببطء نحو خطوط الأعداء، وكان الجناح الأيمن بقيادة الإسكندر يلتزم سفح الجبال في حين أن بارمينيو كان يقود الجناح الأيسر على امتداد الشاطئ. وفي اللحظة الأخيرة لمح الإسكندر قوة كبيرة من خيالة الفرس على امتداد الشاطئ، فأسرع بإرسال فرسانه من الثيساليان — مثلما يفعل المهاجمون في لعبة كرة القدم الأمريكية — خلف خطوطه من اليمين وحتى أقصى الشمال بعد أن اختفت تحركاتهم وراء المشاة الفلانكس المتجمعين بكثافة في الجبهة الأمامية. وبعدها بدأ الجناح الأيمن للمقدونيين في الهجوم.

قاد الإسكندر الهجوم وهو على رأس سلاح فرسانه معتمدًا على السرعة ليضعف من تأثير سهام الفرس التي انهالت عليهم، ومتفاديًا قذائفهم بعد أن غطى رأسه بدرعه، فوصل إلى خط رماة السهام الذين تملكهم الرعب فور رؤيته فانهاروا فورًا، ولم يستطع الفرس على الجانب الأيسر مقاومة فرسان الإسكندر ومن تبعهم من المشاة، فانهار الجناح الأيسر من جيشهم، أما في الوسط فلم تتقدم قوات المشاة الفلانكس لمواجهة اليونانيين من جيش داريوس الذين كانوا يتخبطون في النهر وقد تمزقت ملابسهم، في حين ظل المشاة الهوبلايت اليونانيون صامدين في مواقعهم. وعلى جانب الشاطئ بدأ هجوم خيالة الفرس عبر النهر ليضغطوا على بارمينيو الذي لم يكن لديه فرصة للمناورة، إذ كانت التعليمات الصادرة إليه أن يبقي جناح جيشه مواجهًا للبحر.

وكان النجاح الوحيد الذي حققه المقدونيون هو ما فعله الإسكندر في يمين الجيش، فبعد فرار قوات الفرس من هذا الجانب استدار بفرسانه إلى حيث يوجد اليونانيون في الوسط، فهاجمهم من الجناح والخلف متجهًا إلى الوسط حيث كان داريوس. ويقول كورتيوس: «وهنا ظهرت أبعاد هذه الملحمة العظيمة، فحول عربة داريوس استلقت جثث أشهر قادة جيشه الذين استسلموا للموت أمام أعين مليكهم وقد أثخنت الجراح أجسادهم.» وحين بدأ

اليونانيون في الاستسلام، وانهار الجنود الفرس الذين كانوا يحرسون الملك، كان على داريوس أن يتخذ قرارًا سريعًا: إما أن يُقتل أو يُؤسر في أول معركة مع الإسكندر، أو يتقهقر وينقذ إمبراطوريته. وحين بدأ الإسكندر هجومه على اليونانيين اختار داريوس أن يعيش، فهرب من المعركة.

بعد فرار الملك العظيم، أصبح جيشه من الجنود اليونانيين المأجورين في حالة فوضى عارمة، فرغم أنهم صمدوا في موقعهم في الوسط فإن المقدونيين كانوا خلفهم من اليسار، فساد الارتباك صفوفهم وبدأ الجيش في الانفراط ثم الهروب. وعلى الجانب الأيمن كان واضحًا أن الجيش الفارسي قد بدأ يتراجع، وأن قواته قد خسرت المعركة. وفي إيسوس كان المقدونيون يذبحون جنود الجيش المتقهقر، ربما لأن الفرسان — وهم آخر من تراجع — كانوا يطئون مشاتهم بأقدامهم. وفي الممرات الضيقة التي كانت المهرب الوحيد أمامهم اختلطت قوات الجيش المندحر بعضها ببعض، يقول المؤرخ بطليموس الذي أصبح فيما بعد ملكًا، والذي كان بجوار الإسكندر: «إن الرجال الذين كانوا معهم يتبعون داريوس عبروا الوادي الضيق على جثث القتلى.»

بعد المعركة استولى الإسكندر — الذي كان قد جرح في فخذه — على مركبة داريوس الملكية، وعلى الخيمة الرئيسية التي كانت تضم زوجته وأولاده وأمه. كما استولى أيضًا على كمية كبيرة من الذهب، وأرسل بارمينيو بسرعة إلى دمشق ليستحوذ على المزيد من الثروة الملكية.

وحتى هذه اللحظة كان الإسكندر — مثل أبيه — يتحرك في أضيق الحدود، أما بعد ذلك فقد وضع في أولوياته أن يتجه صوب شاطئ البحر المتوسط عازمًا أن يقضي في طريقه على الأسطول الفارسي، وأن ينهي أي إمكانية للفرس لمساعدة أي تمرد في اليونان. وبعد محاصرته بلدتي تاير وغزة وصل إلى مصر حيث استقبل استقبال الفاتحين وتوج فرعونًا. وأثناء وجوده في مصر شيد مدينة الإسكندرية، وقام برحلة غامضة في الصحراء إلى معبد الإله آمون ليستشيره — ويعتبر اليونانيون الإله آمون قرين الإله زيوس. وفي معبد آمون تلقى الإسكندر نوعًا من التشجيع الغامض ليزداد إيمانه بأنه فعلًا سليل الآلهة.

وحين غادر الإسكندر مصر عائدًا إلى آسيا في أوائل عام ٣٣١ ق.م أرسل له داريوس يعلمه برغبته في السلام، وقد عرض الملك العظيم على اليونانيين

كل الأراضي الواقعة غرب نهر الفرات، كما عرض ١٠ آلاف طالين ذهبًا كجزية بالإضافة إلى فدية ليطلق سراح أسرته. وقد أيد بارمينيو — وهو اليد اليمنى للإسكندر وأفضل قادته — هذا العرض، وقال له: «لو كنت الإسكندر لقبلت هذا العرض.» وكان رد الإسكندر: «ولو كنت أنا بارمينيو لقبلته أيضًا.» واستمر الجيش المقدوني في التقدم فعبر نهر الفرات ثم نهر تيجريس. وكان الخيالة الفرس يتساقطون أمامه وهو في طريقه، وخلال ذلك كان الإسكندر يقوم بجمع المعلومات فيرسل فرسانه أولًا لتقييم الموقف حتى يمكنه التعامل معه. وفي المرة الأخرى الوحيدة التي اتجهت فيها قوات يونانية إلى بلاد الرافدين عام ٤٠١ ق.م كان جنود إسبرطة «العشرة آلاف» قد هزموا مشاة الأعداء بسهولة. وكان الإسكندر قد تأكد من وجهة نظر زينوفون Xenophon بأن المجندين البابليين ليسوا على مستوى القوات النظامية المسلحة جيدًا القادمة من الغرب.

شعر الإسكندر بشيء من القلق حين وصل في سبتمبر/أيلول عام ٣٣١ ق.م إلى ربوة صغيرة ولمح منها الجيش الجديد الذي أعده داريوس الثالث، وكان داريوس قد بدأ تحركه ونشاطه خلال العامين اللذين قضاهما الإسكندر في فلسطين ومصر. فبعد تنازله عن أراض كثيرة في الغرب بدأ في استدعاء قوات من الولايات الشرقية لصد الغزو المتوقع، ولم تكن القوات الجديدة تضم أفرادًا مجندين إجباريًّا من مزارع بلاد الرافدين، بل كانوا فرسانًا مقاتلين من أفغانستان والأراضي المجاورة لها، من البكتريان، والسيثيانيين، والبارثيانيين، والأراكوزيانيين، والأريانيين والهنود. وكان الاستنزاف الذي حدث في قوات الإسكندر قد تم تداركه في مقدونيا، إذ وصل جيشه إلى ٤٨٠٠٠ جندي منهم حوالي ٧٠٠٠ من الفرسان. لكن سلاح الفرسان التابع لداريوس كان يضم ٣٥٠٠٠ فارس، وكان ما زال يحتفظ بفرق المشاة الهوبلايت بالإضافة إلى العشرة آلاف الخالدين المدججين بالسلاح، وأيضًا قوات أخرى مدربة مع مجموعة ضخمة من المجندين أضفت على جيش الفرس ضخامة إن لم يكن نظامًا.

كان داريوس قد تعلم ألا يحتفظ بقواته الكبيرة العدد في مكان ثابت؛ فيقلل من كفاءتها كما حدث في إيسوس، أو خلف مواقع ثابتة أيضًا كما حدث في جرانيكوس. ففي كلتا الحالتين فقد سلاح الفرسان ميزته في الحركة فتشتتت القوات. ويبدو أن داريوس قد استشرف — إن لم يكن قد وعى

جيدًا — مستقبل فنون الحرب في آسيا في العصور اللاحقة التي سوف تستمر حتى اختراع البارود. فترك لجنوده من حملة الرماح والأسهم حرية الحركة، وهو الحل الأمثل لتنظيم فرق المشاة في اليونان (والرومان). ورغم أنه في المعركة التالية حاول داريوس أن يعطي مساحة واسعة لمناورات الفرسان، فإنه ظل متمسكًا أيضًا بمفهوم المواجهة في المعارك.

جهز داريوس ساحة قتال تغطي امتداد شريط طويل من سهل يقع بجوار قرية جوجاميلا على بعد سبعين ميلًا من الشمال الغربي لبلدة أربيل في العراق حاليًّا. وكان مهتمًّا بصفة خاصة بالطرق التي يمكنه أن يسيِّر فيها مائتين من مركبات الحرب المجهزة بمناجل طويلة تبرز من الجانبين لا تستخدم في القتال ولكن كأداة تعطيل، إذ إن المركبات كانت هي في حد ذاتها السلاح الرئيسي. ولأنه تعلم أن الإسكندر كان دائمًا يهاجم من اليمين فقد وضع مائة مركبة على هذا الجانب، وخمسين في الوسط، والخمسين الأخرى إلى يسار الجيش المقدوني.

كان مازيوس Mazaeus، حاكم سوريا على رأس قوات اليمين. أما إلى اليسار — في مواجهة الإسكندر — فقد كانت بقيادة بيزوس Bessus حاكم باكتريا. وقد وضع بيزوس وحدات من فرسانه مع السيثيانيين في مقدمة القوات الرئيسية الراكبة التي كانت تضم جنودًا من الباكتريان، والأراكوزيان، والداهاي (إحدى قبائل السيثيان) وغيرهم. أما الخط الأمامي للجيش فقد كان يموج بالفرسان، وفي الوسط تمركزت فرق المشاة المدربة المدججة بالسلاح. أما المجندون المشاة فقد وضعوا في صفوف متوازية كل منها إلى يمين أو يسار الصف الذي يتقدمه بحيث يتخذ المجموع شكل درجات السلم، وإن كان المظهر العام يوحي بمجاميع تفتقد التنظيم.

حين وصل الإسكندر إلى الموقع بدأ يتحرك في حذر، بل إنه في واقع الأمر انتظر أربعة أيام، ولأنه كان قد عزز إمداداته فقد يكون تأخيره راجعًا إلى محاولته إضعاف القوات الفارسية الكبيرة من خلال تجويعهم ومن ثم تحطيم معنوياتهم. وفيما عدا ذلك كانت مشكلته أن قواته غير متعادلة مع القوات الفارسية الضخمة التي اصطفت في مقدمة ميدان القتال الواسع، ومع معرفته بتفوق خيالة العدو أدرك الإسكندر من البداية أنه سوف ينهزم. وكان الحل أمامه أن ينظم جيشه على شكل مستطيل تقريبًا، ثم صف سلاح

المشاة الثقيل في المقدمة، في حين جعل مجموعة رفاقه من الفرسان إلى اليمين، والخيالة من الثيسياليين بقيادة بارمينيو إلى اليسار. وأضاف بعض القوات إلى جناحي الجيش في وضع مائل إلى الخلف، كما استحدث خطًا إضافيًا آخر في مؤخرة الجيش يضم المشاة من التحالف اليوناني (وتعتبر هذه الحالة الأولى في استخدام قوات احتياطية في الجيش)، وبعد ذلك خطط لمناورة عبقرية.

في اليوم الأول من شهر أكتوبر/تشرين الأول سنة ٣٣١ ق.م بدأ الإسكندر المعركة، وكما سبق أن حدث في إيسوس فقد تقدم بالجناح الأيمن مع سحب الجناح الأيسر بقيادة بارمينيو، لكن الجيش بأكمله أيضًا انحرف ناحية اليمين وكان يهدف من وراء الانحراف إلى الأمام إلى إجبار الفرس على ملاقاة الجناح الأيمن وإيهامهم بأن المكان والفرصة متاحان لجيش الفرس للتدفق من الجانب الأيسر. أما الإسكندر فقد أبقى «الفرسان الرفقاء» بجواره في انتظار الارتباك المحتوم الذي توقع أن يسود خطوط الأعداء. وكان هدفه منذ البداية إيجاد نقطة ضعف في وسط الجيش الفارسي الذي يعلم — حسب التقاليد — أن داريوس يتخذه موقعًا له.

تقدم المقدونيون كنذر شرٍّ إلى الأمام في ساحة القتال، وحين بدأ جيشهم الصغير في الميل جانبًا بدأ الجناح الأيسر للفرس يفقد كفة الرجحان، في حين اكتسب الجناح الأيمن تميزًا واضحًا بل إنهم نجحوا في واقع الأمر في إحداث ثغرة في جانب قوات بارمينيو، لكن تقدم القوات المقدونية بانتظام سرعان ما هدد بالوصول إلى حافة ساحة القتال الخالية، مما اضطر داريوس إلى القيام برد فعل سريع، فأمر الآلاف من الخيالة الباكتريان والسيثيان المتمركزين في اليسار بالانقضاض على الجناح الأيمن لجيش الإسكندر حتى يوقف تحركه. وحين بدأ جناح الجيش في الاهتزاز أطلق داريوس العنان لمركباته لتهاجم مقدمة جيش الأعداء.

كانت العجلات الحربية — حتى تلك التي يمتلكها الفرس — قد أصبحت وسيلة حربية عفا عليها الزمن بالنسبة لليونانيين، لذلك وجد الفرس أنفسهم في مهمة انتحارية لا يحسدون عليها. فقد كانت العجلات بحاجة إلى سرعة عالية، ودعم من القوات المصاحبة لها التي لا تستطيع أن تجاريها في السرعة. لذلك وقعت عليها مهمة القيام بالهجوم وحدها على آلاف الجنود المقدونيين المسلحين جيدًا. وكان الإسكندر قد توقع استخدام

الفرس للمركبات فوضع حاملي السهام والحراب في مقدمة الصفوف الأولى لتمطر الأحصنة والمركبات بوابل من أسلحتها. وتوقفت بعض المركبات، ومال البعض الآخر، وانقلب الكثير منها في الساحة المفتوحة. أما أولئك الذين تقدموا ليخترقوا صفوف جيش الإسكندر حيث فتح لهم الجنود طريقًا لسيرهم فقد أحاط بهم الجنود من الخلف لينقضوا عليهم ويقتلوهم. وكان من المستحيل عليهم أن يستديروا عائدين — دون حماية لظهورهم — ليصلوا إلى خطوطهم.

وعلى الجانب الأيمن من الجيش المقدوني نجح الفرسان الباكتريان والسيثيان المسلحين جيدًا في التغلب على دفاع هذا الجناح، ولأن النجاح يولد النجاح فقد تدفق الجناح الأيسر من الجيش الفارسي تجاه اليمين، لكن الإسكندر كان قد وضع فرقة مشاة خلف الجناح الأيمن ولذلك ظل الجناح ثابتًا. أما في الجناح الأيسر الذي كان مفتوحًا أمام الفرس فقد كان بارمينيو يعاني مشكلة حادة. فقد شن عليه عدد كبير من الفرسان هجومًا ضاريًا التهم قوات غفيرة من المشاة. وفي الوسط تقدم الفالانكس ليشتبكوا مع نظائرهم من المقاتلين الخالدين. وعندما بدأ الجناح الأيسر من الجيش المقدوني في التكتل لمقاومة الأعداد الضخمة التي هاجمته، فُتحت ثغرة بين بارمينيو ووسط الجيش اندفع إليها الآلاف من خيالة الفرس والهنود يهاجمون أمتعة المقدونيين، حتى انشغلوا بأعمال السلب والنهب.

وتقول إحدى أساطير الإسكندر إن أم داريوس — الملكة سيسي جامبيز Sisygambis رفضت أن يطلق مواطنوها سراحها. لكن المصادر التاريخية القديمة عجزت عن التمييز بين موقع قاعدة الإسكندر العسكرية التي كان يحتفظ فيها بالأسرة الملكية الفارسية (مع كنوزه الخاصة) وبين المكان المعتاد المخصص لأمتعة الجيش. وفي ذلك الوقت كانت أمتعة الجنود المقدونيين الممتلئة بالغنائم التي نهبوها في غزواتهم من آسيا الصغرى وحتى مصر، تستحق الاهتمام أكثر من أي شيء آخر. وإذا ما تذكرنا الأيام السابقة التي قضاها الجيش في انتظار المعركة فمن الأرجح أنهم كانوا في أشد الحاجة إلى الطعام أيضًا. وعلى أية حال إذا كانت الملكة الأم قد رفضت أن يطلق سراحها وسط المعركة بواسطة فرسان منهكين زائغي البصر فقد كان قرارها هذا يدل على حكمة أكثر مما يدل على مشاعر ودٍّ تجاه خاطفها.

وفيما كان الجناح الأيمن يقاتل في مواجهة ضغط متزايد عليه والجناح الأيسر عاجز بقيادة بارمينيو على الصمود والمقاومة، وجد الإسكندر فرصته الكبرى. كان الفرس قد هاجموا بارمينيو بجموعهم الكبيرة في أرض مفتوحة، وكان فرسان الجناح الشرقي إلى يسار الفرس قد تدفقوا إلى يمين الجيش المقدوني بعد أن ظهرت بوادر كسب المعركة، فانفتحت ثغرة بين وسط ويسار جيش داريوس، ولم يكن الإسكندر أو قواته من الفرسان حتى تلك اللحظة قد ظهروا في المعركة، وهنا تحرك الإسكندر ليشن هجومًا مباشرًا بفرسانه المدججين بالسلاح من جناحه الأيمن ويتجه صوب داريوس وتبعه الفالانكس.

وربما شعر الملك العظيم وهو في وسط جيشه — وقد أعماه الغبار وأصمت الضوضاء أذنيه — أن خطته قد نجحت، وهو ما حدث بالفعل. فقد كانت صفوف المقدونيين محاصرة من الجانبين ومخترقة من اليسار لكنه فجأة وجد حرسه الخاص قد بدأ ينهار من جراء هجوم غير متوقع. وكان يمكن لداريوس أن يستمر في القتال لو تمكن من التعرف على عدوه لكنه وجد نفسه محاطًا بمجموعة من الجنود يتساقطون من حوله أو يفرون هاربين، ثم أدرك أن الإسكندر بدأ يخترق طريقه ويتجه مباشرة إليه حين تناهت إلى أسماعه أصوات احتكاك سنابك الخيل، وصليل السيوف والصيحات التي انبعثت من عن يساره.

من الصعب تصديق ما قاله آريان عن أن داريوس كان أول فارس فر من المعركة. أما القصة الأخرى التي رواها كيرتيوس Curtius — وهي الأرجح — فهي أن سائق عجلة داريوس الحربية أصابته حربة مما أفقد بقية الجند شجاعتهم لظنهم أن الملك العظيم قد مات، وكانت أذنا داريوس لاتسمعان إلا الصراخ، وكان حراسه الأشداء الأقوياء يتهاوون أمامه في بركة من الدماء، وفي هذه اللحظة واجه داريوس في جوجاميلا — كما حدث سابقًا في إيسوس — عدة خيارات مختلفة، إما أن يموت أو يستسلم أو يتقهقر ليحافظ على الإمبراطورية الأكامينيدية. وربما يكون الرعب قد دب في قلبه — لكن التاريخ كان سيكون أكثر شفقة به لو كان قد ثبت في موقعه مهما حدث، ولكن داريوس قرر أن يهرب.

وليس من المعروف ما إذا كان داريوس قد تقابل وجهًا لوجه مع الإسكندر في جوجاميلا أم لا، والأرجح أن الإسكندر هو الذي رأى الملك العظيم في عجلته

الحربية الجميلة محاطًا بحراسه. ومن المحتمل أيضًا أن يكون داريوس قد رأى الإسكندر — وسط غبار المعركة — كمجرد واحد من الفرسان يقاتل ويصارع في جميع الاتجاهات وهو يشق طريقه إليه. ومع ذلك فحين استدار داريوس ليهرب طارده الإسكندر لبضعة أميال قبل أن يقال له إن المعركة الأهم ما زالت تدور رحاها وراءه.

بعد انهيار الجزء الأوسط من خطوط الجيش الفارسي، اكتشف بيزوس الذي كان يقود الجناح الأيسر من جيش الفرس، أنه يجب أن يكف عن القتال، فأمر الفرسان من الباكتريان والأراكوازيان والسيثيان بتخفيف الضغط على جناح الجيش المقدوني وتراجعوا، وترامت هذه الأنباء إلى الجناح الأيمن لجيش الفرس، الذي كان منتصرًا إلى حد ما، فبدأت القوات تكف عن القتال مخففة الضغط على بارمينيو. ويقال إن الفرسان الثيساليان بدءوا هجومًا مضادًا كبيرًا أسفر عن هروب الأعداء من هذا الجانب.

حين عاد الإسكندر إلى ساحة القتال بعد مطاردته لداريوس، قابله تشكيل منظم من قوات الفرس والبارثيان والهنود أثناء تراجعهم، وفوجئ الإسكندر بهم واضطر إلى الاشتباك معهم في أصعب قتال له في ذلك اليوم، فقد قتل حوالي ستين من رفقائه ليس من خلال تكتيك حربي من قبل الفرس، ولكن من منطلق إحساسهم باليأس. يقول آريان: «إنهم لم يعتمدوا على القتال بالرماح القصيرة أو حسن استخدام الخيل كما هو معهود في حرب الفرسان.» وهي مقولة تلقي الضوء على نوعية القتال الذي نشب في هذه المعركة، فقد كان شاغلهم الأول هو بقاؤهم على قيد الحياة، فقد كانت مهارة الإسكندر في القتال هي ما جعلهم يحومون حول جيشه وهم يقاتلون ولا يخترقونه في العمق.

وكعادة المؤرخين اليونانيين في تقديم تقديرات مثيرة للريبة لخسائر المعارك، ذكروا أن عدد القتلى من الفرس بلغ ٣٠٠٠٠٠ في مقابل ١٠٠ من المقدونيين. لكن واقع الأمر أن فلول جيش الفرس لم تجد أية صعوبة في التخلص من مطارديها المقدونيين منهكي القوى، الذين كان حريًّا بهم ألا يتتبعوهم حتى لا يصبحوا ضحايا لرماحهم، ومن المؤكد أن المجندين المشاة من المواطنين الذين اختارهم داريوس لتعظيم عدد جيشه قد تحملوا الكثير وأنهم أثناء محاولتهم الفرار عبر السهل المفتوح وقع منهم المئات فريسة

للفالانكس المنتشين بدماء النصر. لكنه على الجانب الآخر نجد أن معظم الآريان، والأراكوزيان، والباكتريان والسيثيان الذين نجوا من المعركة عادوا إلى بيوتهم حين بدأ الجيش يفقد تماسكه، وكان يمكن للمقدونيين أن يستمروا في اقتفاء أثرهم فترة يقتلون أكبر عدد منهم، لكنهم اكتفوا باستسلام الآلاف من فلاحي الإمبراطورية الذين كفوا عن المقاومة.

بعد هروب الإسكندر الصعب من خيّالة أعدائه، واصل اقتفاء أثر داريوس خلال الليل، فوصل إلى مدينة أربيل (التي أحيانًا ما تسمى المعركة باسمها) في اليوم التالي، لكن داريوس كان قد غادرها بعد أن توقف فيها فترة. وللمرة الثانية يكتشف الإسكندر مركبة داريوس الحربية بعد أن تركها ليتجه شمالًا وبرفقته بيزوس وسلاح الفرسان من الباكتريان بالإضافة إلى بضعة آلاف من المشاة الإيرانيين والفرس، الذين كانوا قد تقهقروا بانتظام. ومن سوء الحظ أن الإسكندر لم يتمكن من قتل أو أسر الملك العظيم، لكن عزاءه كان القضاء على أكبر جيش للإمبراطورية الفارسية، لتصبح الإمبراطورية بعد ذلك ملكًا خالصًا له.

اتجه داريوس شمالًا ترافقه قوات بيزوس من الباكتريان ورجاله المخلصون من اليونانيين، في حين ذاب بقية الجيش فور زوال سلطته. وفيما عدا هذه القوات بقيادة بيزوس فمن المؤكد أن سلسلة طويلة من المقاتلين اتجهت إلى الطرق المؤدية إلى أفغانستان وسوجديا والهند. ولأن داريوس كان في طريقه إلى الهروب فقد اتجه صوب الشمال حيث لا جدوى من متابعة عدوه له بعد أن أصبحت بقية الإمبراطورية ملكًا له.

تقدم الإسكندر جنوبًا إلى بابل، المركز الإداري والتجاري للإمبراطورية الفارسية، ومكث فيها ما يزيد على شهر. ومن شدة عجبهم مما رأوا من شأن هذه البلاد ظن الجنود المقدونيون أنهم إما في الجنة أو في الجحيم. وقد كتب كيرتيوس مصدومًا يقول: «كانت النساء يحضرن حفلات العشاء، وكن في البداية يرتدين ملابس محتشمة، ثم لا يلبثن أن يبدأن في خلع الجزء الأعلى من ملابسهن ليفقدن احترامهن.» اتجه الجيش بعد ذلك إلى سوسة التي لم تقل عجبًا في أعينهم عن بابل. كان ثراء بلاد الرافدين يفوق خيال الجندي المقدوني الذي نشأ على ما كان الإغريق يعتقدون أنه عيش رغد، لكنه كان

بالنسبة إلى الفرس نوعًا من الحياة المتقشفة. وكان من الواضح أن طراز المباني ونوعية الطعام وأنواع الأقمشة والنساء تثير دهشة جيش الإسكندر الذي درج على الحياة العسكرية الخشنة.

وفي أوائل عام ٣٣٠ ق.م سار الإسكندر بجيش من سوسة إلى برسيبوليس عاصمة الفرس التي تقع في جبال زاجروس النائية (جنوب غرب إيران حاليًّا). وفي طريقه قابله الأهالي الذين يقطنون الجبال ويطلق عليهم الأوكسيانز، وطالبوه بدفع رسوم للسماح له بالمرور عبر ممراتها، لكن الإسكندر سرعان ما اجتاح قراهم في السفوح ونجح مع قوات قليلة من المشاة في أن يدور حول ممراتهم الجبلية. ثم فرض على من تبقى من أهلها ضريبة سنوية تقدر بثلاثين ألفًا من الأغنام، بالإضافة إلى حيوانات أخرى. حين وصل الإسكندر إلى أرض الفرس حدثت مواجهة مع أريوبارزانس Ariobarzanes حاكم الإقليم الذي قاوم الغزو بشجاعة. كانت أيام تحرير الشعوب من قهر الفرس قد انتهت، وصار على الإسكندر أن يواجه مقاومة شعبية من الأهالي، فقسم قواته ودمر مقاومة الفرس بهجوم ثلاثي نافذ.

وحين وصل الإسكندر ومعه جيشه المنهك إلى برسيبوليس في نهاية شهر يناير/كانون الثاني أو أوائل فبراير/شباط عام ٣٣٠ ق.م أصابتهم جميعًا مشاعر ذهول وجزع؛ كانت المدينة رائعة، تقع على هضبة تحوطها الجبال الشاهقة وتضم مجموعة من القصور الفخمة ذات الزخارف الجميلة والمباني الضخمة ولكنها لم تكن مدينة بالمعنى المفهوم. فقد صب الفرس كل ما يملكونه من مهارة فائقة في الطرز المعمارية على هذه المنطقة المتجمدة في حضن زاجروس حيث لا تجارة أو ضجيج أو تحركات بشرية. وكان الإسكندر يعتقد أنه بعد أن قاد جيشه إلى برسيبوليس مقر الإمبراطورية فإنه يمكنه أن يقضي الشتاء في راحة ورفاهية. لكن المدينة كانت قليلة السكان ومن فيها يمثلون فقط خدم الملك العظيم. وفيما عدا ذلك كانت مدينة أشباح تمتلئ فقط برموز ضخمة تمثل العظمة الفارسية. لقد أخطأ الإسكندر وقاد رجاله إلى مأزق وإلى طريق مغلق.

وبخلاف ما جرى في بابل وسوسة، أعطى الإسكندر الحرية لرجاله ليسلبوا وينهبوا ما شاءوا من المدينة، فيما عدا القصور. فانطلقوا ينهبون الضياع الخالية إلا من الخدم الذين كانوا يعيشون فيها طوال العام. وقد ظل الجيش

المقدوني في برسيبوليس مدة أربعة أشهر، فقد أغلقت ثلوج الشتاء ممرات زاجروس ولم يستطيعوا المغادرة.

أما الإسكندر نفسه فقد زار مدينة باسارجادي، وهي العاصمة الأصلية لقورش العظيم على بعد أربعين ميلًا من برسيبوليس وتقع على ارتفاع أعلى منها، بالإضافة إلى أنها أشد برودة، وكانت مهجورة أيضًا من السكان في الشتاء. وأمام قبر قورش قدم الإسكندر له كل التعظيم والاحترام. وفي وقت آخر اتجه بفرقة من المشاة الخفيفة إلى الشمال، بزعم قمع القبائل الجبلية، وإن كان السبب الأصلي هو محاولة استكشاف مخرج لهم من زاجروس. وقد روي أن قواته وصلت إلى ممر أغلقته الثلوج فترجل الإسكندر عن حصانه، وأمسك بفأس يزيح به هذا السد الجليدي. وفي هذه الحملة صادف بعض رجاله أناسًا يرتدون الفراء من القاطنين في كهوف البلاد فقاتلوهم وإن كان هؤلاء قد فروا هاربين فور رؤيتهم للمقدونيين. وعاد الإسكندر متثاقلًا متجهما إلى برسيبوليس بعد هذا النصر الذي هز كبرياءه أكثر مما أضاف إليها.

من الأحداث التي مرت في حياة الإسكندر وأثارت جدل المؤرخين منذ الأزمنة القديمة وحتى الآن، أسباب حرقه وتدميره لمدينة برسيبوليس قبل مغادرته لها في ربيع عام ٣٣٠ ق.م، والسبب في هذا بسيط، وهو أن الإسكندر ومعه كل جنوده قد كرهوا تلك المدينة كراهية شديدة، ففي خلال أشهر الشتاء، بدلًا من الاستمتاع بغنائم النصر، كانوا قد أجبروا على حياة بائسة وسط أشباح من الحجارة والرخام. وحين كانت برسيبوليس تحت حكم الأكمينديين كان سيل الإمدادات المختلفة لا ينقطع عنها، لكن الإسكندر كان قد أطاح بهذه البنية الأساسية ولم يتبق للمقدونيين سوى ثلاثين ألفًا من الأغنام استولوا عليها من الأوكسيانيين. وحين كان الفرس ينعمون بالدفء والتجارة والغذاء الطيب والعلاقات الإنسانية في الأراضي التي تبقت لهم من الإمبراطورية، كان جيش المقدونيين الغزاة كقطيع من الريفيين الأغبياء يقضون الشتاء في عاصمة هي ليست بعاصمة.

وأثناء محاولات الإسكندر المجدية أحيانًا لاكتشاف ممرات تؤدي به إلى خارج المدينة، من المؤكد أنه تجول في أراضي برسيبوليس وفي كل مكان كانت تطالعه دلائل عظمة الفرس بدءًا من السلسلة الطويلة من الشعوب المندحرة التي كانت تقدم له الجزية ونهاية بصور ملوك الفرس على أفاريز المباني.

وحين كان الظلام يحل مبكرًا، كانت أشباح قورش وداريوس الأول وزيركسس تتراءى له في ضوء المشاعل تسخر منه من وراء قبورها. فقد كان الإغريق سابقًا ينظرون إلى الفرس نظرتهم إلى شعب لين العريكة معتاد على الترف المفرط، لكن الإسكندر حين وصل إلى قلب الأراضي الفارسية اكتشف كم هي قاسية باردة.

في أواخر شهر مايو/أيار تسلم الإسكندر تقارير تفيد بأنه قد تم تجميع مؤن كافية لتحرك القوات، وأن ممرات زاجروس قد ذابت ثلوجها وأصبح من الممكن المرور خلالها. وبعد ليلة طويلة حفلت بالشراب في برسيبوليس، أمسك الإسكندر بأحد المشاعل، بتشجيع من الآخرين، وقذف به قصر الأكمينيد.

حين رأت القوات المقدونية النيران تشتعل في القصر هرعوا إليه بدلاء مملوءة بالمياه لإطفائها، لكنهم حين رأوا الإسكندر نفسه يواصل إضرام النيران، بدأ الجيش كله يشترك معه بسعادة. وعندما بدأ سقف القصر المصنوع من خشب الأرز يتهاوى، شاهد المقدونيون، وسط الانفجار واللهب والدخان والنيران، أعظم مشهد لتهاوي أعظم مبنى في التاريخ القديم، لقد كان عملًا تخريبيًا هائلًا، وعلى الفور قال كاليستنيين Callisthenes — مؤرخ البلاط في عهد الإسكندر — وهو ابن شقيق أرسطو، إن الإسكندر قد انتقم لتدمير زيركسس لأثينا عام ٤٨٠ ق.م، لكن حقيقة الأمر أن الإسكندر ورجاله كانوا يعبرون عن مشاعر السخط والإحباط التي تملكتهم وهم محتجزون ما يزيد عن أربعة أشهر بائسة.

في الوقت الذي كان فيه الإسكندر حبيسًا في برسيبوليس كان داريوس يقضي فترة شتاء مريحة في إكباتانا Ecbatana (همدان الآن) في انتظار ذوبان الجليد على الجبال الواقعة شمال ميديا. وفي أوائل شهر يونيو/حزيران بدأ السباق من جديد وفر داريوس إلى الشرق ومعه ثلاثة آلاف من الباكتريان بقيادة بيزوس، وستة آلاف من المشاة الإغريق والفرس. وقد وصل الإسكندر إلى إكباتانا بعد أن قطع مسافة ٢٦٠ ميلًا في أحد عشر يومًا، وهناك انضمت إليه عناصر من الجيش كان قد تركها في سوسة. وفي إكباتانا نمى إلى علمه أن أنيتباتر — الوصي على العرش — قد أخمد تمردًا في اليونان قاده الإسبرطيون، فقام الإسكندر بفض التشكيلات المتحالفة داخل جيشه، ومن ضمنها سلاح الفرسان الثيسليان بقيادة بارمينيو، وكافأ كل رجل من الجيش مبديًا استعداده

لتأمين عودتهم إلى ديارهم، لكنه في نفس الوقت أعلن عن استعداده لمكافأة الرجال الذين يعاودون الالتحاق بالجيش على شريطة أن يكون الولاء للإسكندر وليس للدولة. وبذلك انتهت الحملة الهيلينية الشاملة أو ما كانت تسمى بهذا دون وجه حق. ومنذ ذلك الوقت أصبحت كل فروض الطاعة والولاء تقدم للإسكندر فقط.

تمكن الإسكندر أخيرًا على رأس ستين فارسًا من المحاربين المجهدين من اللحاق بداريوس بعد مطاردته جنوب بحر قزوين، وهناك وجد الملك العظيم مقتولًا في عربة وقد قيدت يداه بسلاسل من ذهب بعد طعنه بالرماح وبجواره عبدان قتيلان وكلب صغير حي. وكانت هذه صدمة مروعة للإسكندر الذي كان يسعى إلى الشرعية كما يسعى إلى السلطة. أما أن يرث الإمبراطورية من ملك بائس مقتول فهذا أمر مهين غير مشرف. وكان هذا سبب مقتل الملك العظيم على يدى قواده السابقين المخلصين له بعد أن تلاشت قوته واعتبر مهزومًا، كما أن نبلاء باكتريا والشرق رفضوا استمرار تبعيتهم لداريوس. أما إذا رغب الإسكندر بعد ذلك في الاستمرار في حملته فليكن ذلك ضدهم وليس ضد الملك العظيم سيئ الحظ.

بعد أن وجد داريوس مقتولًا سرت إشاعة داخل الجيش المقدوني أن الحملة قد انتهت، وحين استيقظ الإسكندر صباح أحد الأيام وجد قواته قد حزموا أمتعتهم واشتعل حماسهم للعودة إلى بلادهم وليس لاستمرار القتال. وكانت أزمة حادة يواجهها الإسكندر فخطب في قواته بأن مهمتهم لم تنته بعد، وأن كل ما حققوه سوف يكون دون جدوى إذا ما انسحبوا عائدين. ووافق الجيش على أن يتجه شرقًا. وحتى يعوض الإسكندر الجند عن غيبتهم الطويلة عن عائلاتهم أباح لهم الزواج من نساء البلاد التي يغزونها. ومن قبل كان الجيش المقدوني يسير عادة بدون أعداد كبيرة من غير المحاربين خلفه، مما كان أحد العناصر الفعالة في سرعته ونجاحه. لكنه بعد عرض الإسكندر استغل عشرة آلاف من جنوده الفرصة وفي غضون عام تسبب عدد كبير من الأطفال في زيادة رقعة الجيش.

لم يكن لهذه الرفاهية نفعًا في نظر الإسكندر، فبعد مسيرة قليلة للجيش أمر بتدمير كل المركبات وضرب المثل أمامهم بحرق متاعه هو. ورغم حرصه على توفير الراحة لقواته لكن التزامه الأول كان الاحتفاظ بجيش خفيف قادر

على الحركة، وحين خطب في جيشه يشجعه على الاستمرار في مسيرته، ادعى أن الحرب سوف تنتهي بعد أربعة أيام فقط، وربما كان مؤمنًا بذلك فعلًا ولكن ما لم يفصح عنه لقواته هو أنه كان يقودهم إلى نهاية مجهولة بالنسبة للإغريق، وإلى أرض أكثر قسوة من أي بقعة أخرى، إلى منطقة يطلق عليها الآن أفغانستان.

في المقاطعات الشرقية للإمبراطورية كان ثلاثة من قاتلي داريوس وهم بيزوس حاكم باكتريا، وساتيبارزانيس Satibarzanes حاكم آريا، وبارسياينتس Barsaentes حاكم أراكوزيا قد عادوا إلى عاصمتهم في أفغانستان الحديثة انتظارًا للجيش المغير في حالة حضوره. وسرعان ما تلقى الإسكندر معلومات تفيد بأن بيزوس سليل الأكامينيد الذي كان يتولى قيادة ميسرة الجيش الفارسي في جوجاميلا قد رفع إكليله إلى مقدمة رأسه دلالة على تنصيبه ملكًا، كما أنه أطلق على نفسه الاسم الملكي أرتاكزيركسس Artaxerexs. وكان من الواضح أن الإسكندر قد رحب بهذا التطور الجديد وأنه بذل جهده لإشاعة هذه الوقاحة التي ارتكبها بيزوس في جيشه. فقد أصبح المقدونيون الآن لا يقاتلون بقايا إمبراطورية بل خصمًا يدعي أنه ملك عظيم.

أما بيزوس فقد كان يعتمد من جانبه على تحالف حكام الأقاليم — التي تضم أفغانستان الآن والسوجديان والسيثيان شمال نهر أوكسس وربما أيضًا الولايات في شرق الهند — للانضمام إليه في مقاومة الغزاة. كما اعتمد أكثر من ذلك على أن المقدونيين سوف يحاربون في مناطق مجهولة لديهم جغرافيًّا، وإذا كانت أي جيوش في التاريخ قد غالت في توسعاتها، فبالتأكيد سوف يكون جيش الإسكندر واحدًا منها، ومن ثم سوف يكون الغزاة اليونانيون منهكي القوى أثناء القتال.

أما الإسكندر فقد كان يمتلك معلومات كافية عن الطريق الذي سوف يسلكه الجيش في الغرب، من خلال خبرات سابقة لليونانيين، وأيضًا بدعم من شبكة الطرق الملكية التي أنشأها الفرس. أما في الشرق فسوف يسلك اليونانيون طريقًا إلى المجهول. ولأن بيزوس فضل الاعتماد على عامل الزمن أكثر من اعتماده على عامل المكان فقد توقع أن المقدونيين سوف يهلكون في المناطق الصحراوية، أو أثناء عبورهم سلسلة الجبال الشاهقة التي بالقطع

سوف تُعجز الجيش إذا ما فكر في اجتيازها في الوقت الخاطئ من السنة. ومن المفارقة أن بيزوس حين نصب نفسه ملكًا أعطى المبرر المنطقي للإسكندر لزحفه إليه، كما أنه أساء تقدير عدوه. ومن العوامل التي حيرت الباحثين المعاصرين أن الملك الشاب كان خبيرًا بالقواعد اللوجستية والاستخباراتية إلى جانب شجاعته في المعارك. فلم يتدفق المقدونيون فورًا على أفغانستان، بل تقدموا بانتظام وهم يؤمنون الإمدادات في كل منطقة يتوقفون فيها، معولين على المعلومات المستقاة من الأهالي في طريقهم. ففيما عدا الاشتباكات في المعارك التي كان الإسكندر خلالها يتسم بالاندفاع والتهور غافلًا تمامًا عن سلامته الشخصية، كان الملك الشاب حريصًا في تخطيطه للغزو إلى درجة التدقيق في كل صغيرة وكبيرة.

في صيف عام ٣٣٠ ق.م كان الإسكندر الأكبر قد نال قسطًا من الراحة وأعاد ترتيب جيشه جنوب شرق بحر قزوين، وأقيمت المباريات الرياضية بكثرة في تلك الفترة، كما جاءت ملكة الأمازون من الشرق على أمل أن تنجب طفلًا من الفاتح العظيم. وقد شك المؤرخون لقرون طويلة في صحة هذه الرواية، لكن علماء الآثار المحدثين اكتشفوا نقوشًا بها دلالات كافية على وجود ثقافة المرأة المحاربة في السهول الجنوبية من أوراسيا، وتوازنًا مع ما قيل فإنه يجب تقبل ما رُوي قديمًا عن محاربات الأمازون، رغم أنه من المحتمل أن قبائل السارماثيان الأشداء — وهم من أقارب السيثيان — استخدموهن في أغراض دبلوماسية. أما بالنسبة لما ورد عن فكرة إنجاب الإسكندر لطفل فقد قيل إن ذلك استغرق ثلاثة عشر يومًا وهي مدة تدل على أن حماسه لهذه الفكرة لم يكن على قدر الصعوبات التي لقيها منها.

حين استولى المقدونيون على آريا — وهي منطقة تقع قرب هرات — قام الحاكم ساتيبارزانس بتسليم نفسه ليعاد تنصيبه من جديد في نفس الموقع. فقد كان الإسكندر يرحب دائمًا بمظاهر الخضوع والإخلاص من جانب النبلاء الفرس، حيث كان يعتمد على خبرتهم في حسن تسييرهم لأمور الدولة. ورغم أن الجيش المقدوني في ذلك الوقت كان أشبه بمقعد حكم متنقل فإنه لم يكن يمتلك المهارة أو المعرفة بالظروف المحلية ليحل محل البيروقراطية الفارسية. وقد ترك الإسكندر أربعين من الفرسان من حملة الرماح بقيادة أحد الضباط ويدعى أناكسيبوس Anaxippus ليرابطوا في إقليم أرتاكونا عاصمة مقاطعة الآريان.

وفي طريقهم إلى باكتريا نمى إلى علم المقدونيين أن ساتيبارزانس قام بثورة قتل فيها أناكسيبوس والفرسان الذين معه. فأخذ الإسكندر وحدات من نخبة الجيش وعاد مسرعًا إلى أرتاكونا بعد أن قطع سبعين ميلًا في يومين. وذعر ساتيبارزانس من عودته السريعة فهرب متجهًا إلى باكتريا ومعه من استطاع جمعهم من الفرسان. أما بقية جيش الإسكندر بقيادة كراتيروس Craterus فقد حاصر ثلاثين ألفًا من الآريان الذين فروا يحتمون بأرض صخرية بارزة ذات أجراف شاهقة على الجانب الغربي وأقل انحدارًا في شرقها. وكانت منطقة تملؤها الغابات ويمتد الربيع فيها طوال العام. وفي البداية استعصت هذه القلعة الطبيعية على المقدونيين لكن الإسكندر كان — كما قال عنه كيرتيوس: «يمتلك عقلية قادرة دومًا على حل أية معضلة. وبينما هو في هذا المأزق الذي وجد نفسه فيه، إذ بأمر حدث مصادفة يلهمه بخطة عبقرية حلت له تلك المشكلة.» كان جنوده يقطعون الأشجار ثم يكومونها في سفح الجرف وخلال شهر أغسطس/آب الحار أحالتها ريح جنوبية عاصفة إلى مادة سريعة الالتهاب. وعند هذه النقطة تختلف المصادر القديمة في تفسير ما حدث فالبعض يقول إن هذه الأشجار اشتعلت بمحض الصدفة والآخرون يقولون إن الإسكندر جمع هذه الأشجار وأشعل فيها النيران وكانت النتيجة اشتعال قمة الجبل بأكمله وهلاك كل المدافعين عنه.

وإذا قرأنا ما بين السطور نتساءل هل هلك الآريانيون بأكملهم في الحرائق التي هبت، أم أن الإسكندر أعلن ببساطة عن انتصاره وقفل عائدًا في طريقه. فقد كان من الصعب عليه أن يعترف بأن صخرة هزمته، وفي الوقت نفسه يظل في مكانه وسط جموع من الهاربين المذعورين حين كانت أمامه أولويات أكثر أهمية. وقد تكون النار المشتعلة قد أتت على كل المدافعين عن الصخرة، ولكن لا يعني هذا أنها حين خمدت تمامًا لم يتبق منهم أحياء زحفوا إلى الجرف ليجدوا أن المقدونيين قد غادروا المكان فتنفسوا الصعداء.

وحتى الآن لم يستطع الأثريون تحديد مكان أرتاكونا ليظل موقع هذه الصخرة العظيمة محل تساؤلات. يقول دونالد إينجلز إنها صخرة «كالاتي ناديري» أو جبل طارق الفارسي التي كانت قارب نجاة للسكان المحليين في مواجهة الغزو الأجنبي، وفي القرون التالية، كانت الموقع الوحيد الذي قاوم

حصار تيمورلنك، وإذا صحت الرواية السابقة، فيمكن إضافة ميزة جديدة لها، وهي أنها القلعة الوحيدة التي صمدت أمام هجوم الإسكندر.

بعد إخماده ثورة الآريان قام الإسكندر بتغيير خططه، فقد كان في نيته الاتجاه صوب باكتريا لكنه بعد اضطراره إلى العودة ليتعامل مع الآريان، قرر أن يستمر جنوبًا. فقد نمى إلى علمه أن إقليم أراكوزيا (جنوب أفغانستان) يعاني بعض الاضطرابات والقلاقل، وربما كانت أمامه مؤشرات أيضًا أنه في باكتريا قد يشكل الطعام عائقًا أمامه، والجيش الذي كان بحاجة إلى أن يعيش على ناتج الأرض الزراعية نادرًا ما يستطيع عبور نفس المكان مرتين متعاقبتين. كما أن فرسان بيزوس كانوا قد خلفوا وراءهم خلال فترة قتالهم أراض محترقة. وكالعادة كان الإسكندر يعتبر عدوه الأكبر ليس جيوش الأعداء ولكن الجوع والعطش وعناصر الطبيعة، خاصة وهو يزحف نحو أراض مجهولة لديه.

وفي طريقه نحو الجنوب الشرقي توقف الإسكندر ليؤسس مدينة محصنة أطلق عليها الإسكندرية — آريا وربما تكون هي هرات حاليًّا. وبعد مسيرة مائتي ميل جنوبًا استراح الجيش في منطقة فرادي (فرح حاليًّا) عاصمة درانجيانا. وحين غادرها الإسكندر كان قد غير اسمها إلى بروفيسيا وهو الترجمة الإغريقية لكلمة «النبوءة» حيث إنه اكتشف في هذه المدينة مؤامرة لاغتياله.

بدأت الدراما بطريقة غير مؤذية في بادئ الأمر حين اقترب أحد الخدم من فيلوتاس Philotas، قائد «الفرسان الرفقاء» وأخبره أن صديقه، وهو من حرس الإسكندر الخاص منغمس في مؤامرة لقتل الملك، لكن فيلوتاس رغم التقائه بالملك عدة مرات بعد ذلك لم يبلغه بأمر هذه المؤامرة قط، وحين أعاد الخادم هذه القصة على الإسكندر تعامل الملك فورًا مع هذه المعلومات وقبض على المتآمرين، واعتذر فيلوتاس بشدة لأنه لم يأخذ الموضوع مأخذ الجد ويخبر الملك، فسامحه الإسكندر. وفي نفس الليلة عقد الإسكندر اجتماعًا مع قواده المقربين الذين أدانوا فيلوتاس بشدة. ولكن لم يشر أحد من المتآمرين إلى أنه كان ضالعًا في المؤامرة، بالإضافة إلى أن صمت فيلوتاس مدة يومين، كما قال هو بنفسه، يشير إلى براءته أكثر من إدانته. ورغم أنه لسوء حظه لم يأخذ فكرة المؤامرة مأخذ الجد فإنه أيضًا لم يتخذ أي إجراء ضد المبلغ ولو كان مشتركًا في المؤامرة لكان قد تصرف بطريقة أخرى.

وقد حير صمت فيلوتاس الغامض مدة يومين، ومدى صحة اشتراكه في المؤامرة؛ كل مؤرخ تناول تاريخ الإسكندر منذ ذلك الوقت، وكانت هناك حقيقة غائبة عن الأذهان وهي أن شقيق فيلوتاس الوحيد، نيكانورNicanor، قائد فرقة الحرس الخاصة قد توفي منذ أسابيع قليلة في آريا نتيجة مرض أصابه، في حين أن أخًا ثالثًا له هو هكتور Hector، كان قد توفي في حادث انقلاب قارب في النيل. وكان الإسكندر على عجلة من أمره في آريا، فلم يحضر جنازته ولكنه ترك فيلوتاس ومعه قواته الخاصة وقوامها ٢٦٠٠ رجل ليتمموا واجب العزاء. وقد يبدو هذا العزاء لائقًا (ومن جانبه قال كيرتيوس: «إن الإسكندر كان أكثر الناس حزنًا عليه.») ولكن النوايا الحقيقية قد تظهر أحيانًا في أحاديث شخصية تختفي خلف التفاصيل الكبيرة، حيث تكون هزة كتف أو ابتسامة متكلفة أو حتى حركة تثاؤب لها أهميتها الكبرى ومغزاها الحقيقي. فعقب وفاة شقيقه، كان من الممكن أن يكون فيلوتاس متذبذبًا في موقفه من الملك. فإذا سمع أن بعض الشخصيات الثانوية يدبرون مؤامرة لقتل الملك، كان يصدق عن اقتناع أنها إشاعة سخيفة؛ ومن ناحية أخرى، عندما يكون في مزاج سيئ، كان جزء صغير منه يتمنى لو أنها حقيقية.

وقد تولى أصدقاء الملك هيفاستيون Hephaestion، وكراتيروس Craterus، وبيرديكاس Perdiccas، وكويناس Coenus مهمة تعذيب فيلوتاس الذي ما إن رأى آلات التعذيب حتى صرخ قائلًا: «كراتيروس أخبرني بما تريد أن أقوله.» ولكن كراتيروس ظن أنه يسخر منه فبدأ في تعذيبه حتى اعترف ليس فقط باشتراكه في محاولة اغتيال الملك وإنما بكل الذنوب التي جالت بذهنه وقتها، فقط حتى يتوقفوا عن تعذيبه. وبعد ذلك أذيع اعترافه على الجيش ثم قتل بالحراب.

كان الشيء الأكثر حساسية في هذه المؤامرة المزعومة أن فيلوتاس ونيكانور وهكتور كانوا أبناء بارمينيو القائد الثاني في جيش الإسكندر وجيش والده من قبل. وكان فيلوتاس، بصفته الابن الوحيد لبارمينيو الذي ظل على قيد الحياة، قد أصبح الحلقة الوحيدة التي تربط عائلته بمنصب القيادة في جيش الإسكندر، وآخر من خدم من قواد فيليب الثاني في جيشه. لكن داخل الجيش ظهرت فجوة واضحة بين قدامى المقدونيين، ممن خدم تحت إمرة الملك فيليب، وبين الجيل الجديد الذي يدين بالولاء للإسكندر، وتجلت هذه الفجوة أيضًا

بين بعض القوات التي احتفظت بتقاليدها وملابسها، وبين الإسكندر وحاشيته الذين بدءوا يتبنون بعض مظاهر الترف التي عرفت عن الفرس بالإضافة إلى ملابسهم وعاداتهم الشرقية، وكان معظم التذمر قائمًا على أساس أن الهدف من هذه الحملة هو الانتصار على الفرس لا التشبه بهم. كما كان الكثيرون أيضًا يتوقون إلى وضع نهاية لهذه الحملات، فمنذ انتصاراتهم في بلاد الرافدين لم يواجهوا سوى تقلص فرص عودتهم إلى وطنهم، كما كانوا مهددين بالمخاطر التي يمكنها أن تنسف كل انتصاراتهم ومكاسبهم.

بعد مقتل فيلوتاس بقيت أمام الإسكندر مهمة واحدة ينهيها: قام مجموعة من الرجال المخلصين له بالتنكر في ملابس المواطنين المحليين، وامتطوا جمالًا سريعة العدو إلى إكباتانا حيث كان الإسكندر قد ترك بارمينيو حاكمًا لهذه الولاية، وقطعوا الطريق مباشرة من اليونان إلى أفغانستان. وكان معهم خطابان للقائد العجوز أحدهما من ابنه والثاني من الإسكندر، واستقبلهم بارمينو بابتهاج وسألهم عن صحة الملك، ووقف السفاحون أمامه وهو يقرأ خطاب الإسكندر وسمعوه يعلق على ما جاء به قائلًا: «إن الملك يعد حملة ضد أراكوزي، يا له من رجل ذو طاقة هائلة، إنه نادرًا ما يرتاح.» وحين بدأ يقرأ خطاب فيلوتاس عاجله رجال الإسكندر بطعنات السيوف حتى مات. لكن القتلة عانوا كثيرًا من قوات القائد الغاضبة التي سرعان ما حاصرت القصر، لكنها بعد ذلك استسلمت لهم شريطة إعطائهم جسد بارمينيو، في حين هرع القتلة برأسه إلى أفغانستان، وحين سمع أنتيباتير في مقدونيا — وهو آخر جنرالات فيليب الثاني — بالجريمة التي ارتكبت لم يملك سوى أن يقول: «لترحم السماء بارمينيو إذا كان مذنبًا، أما إذا كان بريئًا، فلترحمنا السماء جميعًا.»

ومن بروفيسيا تقدم الإسكندر إلى الوادي الأسفل لنهر هلمند حيث تقابل هناك مع من أُطلِق عليهم «المحسنون» (Euergetae باللغة الإغريقية) والذين كانوا قد أعطوا مؤنًا وطعامًا إلى جيش قورش العظيم بعد وصوله من الصحراء منذ قرنين ماضيين. وحسبما يذكر آريان أن الإسكندر اكتشف أن هؤلاء الأشخاص «يتمتعون بنظام حكم يختلف تمامًا عن بقية البرابرة الآخرين الذين يعيشون في هذا الجزء من العالم، فهم يطبقون العدالة مثلما يطبقها أفضل الإغريق». ولأن الإسكندر كان يوقر سلفه العظيم، فقد ترك المحسنين

يمارسون حكمهم بحرية، بل وعرض عليهم أية أراض أخرى مجاورة لهم يريدونها ومع ذلك «فإنهم لم يطلبوا الكثير».

وفي الأسابيع الأولى من عام ٣٢٩ ق.م دخل الجيش المقدوني أراكوزيا، وفر حاكمها بارساينتيس عبر الجبال إلى الهند، لكن الهنود أعادوه إلى بلده حيث أُعْدِمَ. وفي أراكوزيا أنشأ الإسكندر مدينة أخرى أسماها أيضًا الإسكندرية في موقع قندهار حاليًّا أو بجوارها. وفي الأزمنة القديمة — بخلاف الآن — كان الإقليم الممتد من «فرح» إلى بحيرة سيستان وعلى امتداد وادي نهر هلمند يمتاز بالخصوبة، وكان مأهولًا بالسكان رغم «رياح الـ ١٢٠ يومًا» التي كانت تعصف كل صيف من الشمال الغربي. وقد توقف الجيش حول قندهار في انتظار انقضاء الشتاء وقام خلال تلك الفترة بجمع الطعام قبل أن يتجه إلى الشمال.

وأثناء وجود الجيش في معسكره تواترت الأنباء بأن ساتيبارزانس، معززًا بقوات من فرسان باكتريا، قد عاد إلى آريا ليشعل ثورة جديدة. كما أن بيزوس أرسل أيضًا قوات من الفرسان غربًا ضد خطوط إمدادات الإسكندر وعين أحد ثواره حاكمًا جديدًا لبارثيا. فأرسل الإسكندر قائدًا اسمه أريجيوس على رأس قوات من الفرسان وقوات أخرى إلى آريا ليقمع هذه الثورات. كما أرسل أيضًا أربعة آلاف من المشاة وستمائة من الفرسان ليهدئ من القلاقل في أراكوزيا. وفور الانتهاء من جميع إمدادات الطعام تقدمت قوة الجيش الرئيسية صوب الهندوكوش.

سجل المؤرخون القدامى بوضوح المواقف الصعبة التي تعرض لها جيش الإسكندر منذ خروجه من قندهار وحتى وصوله إلى وادي كابول، فيقول كيرتيوس:

> «تقدم الإسكندر بجيشه نحو أراضي قبيلة مجهولة حتى بالنسبة لجيرانها، فلم يكن لديها أي اتصالات تجارية مع أي بلاد أخرى، وكان يطلق على سكانها البارباميساداي وهي قبائل متخلفة حتى بالمقارنة بالبرابرة، وقد أضفت قسوة الطبيعة على سكانها غلظة وقوة ... وكانوا يبنون أكواخهم من القرميد، ولأن البلاد كانت تفتقر إلى الخشب (حتى إن قمم الجبال كانت عارية) فقد استخدموا

القرميد أيضًا في بناء أسقف مبانيهم ... وكان الثلج من الكثافة على الأرض بحيث تحول إلى جليد وصقيع دائم إلى الدرجة التي حالت دون وجود أي حياة لطيور أو حيوانات برية، وكانت السماء، أو بالأحرى ما يرى منها، بالنهار ملبدة بغيوم تقترب من الأرض وتجعل الجو أقرب إلى الليل، حتى إن المرء لا يرى ما حوله.»

زحف الجيش المقدوني في مشارف الربيع، أواخر شهر مارس/آذار أو أوائل شهر أبريل/نيسان، ولم يكن الطريق بين قندهار وكابول صعبًا في هذه الفترة من السنة، وتعتبر هذه إحدى الحالات النادرة التي صادف فيها سوء الحظ الإسكندر. ومثلما حدث مع نابليون في موسكو فربما خدع الإسكندر ببعض أيام متتالية من الدفء أعقبتها سلسلة من العواصف المتتالية كبدته خسائر جسيمة. ولو كان قد تخلف بضعة أسابيع بالقرب من قندهار لكان أسهل عليه أن يتقدم بجيشه شمالًا، لكن كان من الواضح أنه توغل شرقًا أكثر مما يلزم سواء كان ذلك عن عمد أو مصادفة، ليصل إلى وادي كابول المأهول بسكانه. وكل ما نعرفه الآن أن الجيش المقدوني قد وقع في هذا الشرك ودفع ثمنًا باهظًا لقاء هذا، ويضيف كيرتيوس قائلًا:

«كان الجيش معزولًا في هذه المنطقة التي كانت خالية من أي مظاهر الحياة الإنسانية، فواجه كل الصعاب والمشقات التي يمكن أن يتحملها، كقلة المؤن، والصقيع الذي لم يكونوا يألفونه، حتى إن بعض الجنود أصيب بقضمة الصقيع، وبعضهم أصابته الثلوج بالعمى. ولقد كان هذا أمرًا قاتلًا لرجال يعانون الإرهاق ...»

«كانت النجاة تكتب لمن يستطيعون الوصول إلى أكواخ البرابرة، لكن الظلمة الكثيفة كانت تحول دون رؤية هذه الأكواخ إلا من خلال الدخان المتصاعد منها. أما قاطنوها فلم يكونوا قد رأوا أي غرباء أو أجانب في أراضيهم من قبل، لذلك فقد أصابهم مرأى الدخلاء المسلحين بالذعر والفزع ... كان الملك يتفقد قواته وهو سائر على قدميه، ينهض بعض الجنود الذين سقطوا من فرط إعيائهم على الأرض، ويساعد البعض الآخر ممن يتحاملون على أنفسهم كي يواصلوا السير. كان في لحظة ما يُشاهَد في المقدمة ثم في لحظة

أخرى يُرى في وسط الجيش أو في مؤخرته مضيفًا بذلك على نفسه أعباء إضافية.»

وتثير هوية هؤلاء الباراباميسيداي البدائية الفضول، حيث يصفهم آريان بأنهم هنود ربما لظنه أنهم مثل «هنود الجبل» الذين وصفهم في جوجاميلا. ولكن إذا كان كيرتيوس صادقًا فيما يقوله عن عزلتهم الشديدة فإنه من الممكن أن يكونوا من سكان البلاد الأصليين القدماء الذين عاشوا في تلك المنطقة، وهي سلسلة جبال سليمان حاليًّا أو الجبال البيضاء، ولم تختلط بهم ثقافات شعوب أخرى كالإيرانيين أو الهنود.

وفي أرض كابول الخصبة وجد الجيش ما يقيم أوده، ليس بسبب قيادة الإسكندر المتهورة، بل بسبب جوها الدافئ ومحاصيلها اليانعة. لكن المقدونيين كانوا قد وصلوا إلى سد آخر منيع يعيق تقدمهم، وهو سلسلة جبال الهندوكوش التي أطلق عليها جيش الإسكندر «القوقاز». وقد أخطأ قدماء الإغريق حين اعتقدوا أن سلسلة الجبال الطويلة تقسم سهول العالم المنبسطة إلى الشرق والغرب، وأن منطقة القوقاز تمتد من جبال طوروس في آسيا الصغرى إلى الهند (لم ير الإسكندر أبدًا ما نطلق عليه الآن بلاد القوقاز التي تنحصر بين سواحل البحر الأسود وبين بحر قزوين).

يبدو غرور الجغرافيين الذين يتشيعون للإسكندر والذين زعموا أن نهر ياكسارتس حيث مات قورش — الذي يسمى سيردريا الآن وإن كان اليونانيون يسمونه تانايس — كان أحد روافد نهر الدون الحديث الذي يصب في بحر آزوف. ويقول روبن لين فوكس إن الجيش المقدوني ما إن وصل إلى أفغانستان حتى ضل طريقه وصار يسير على غير هدى ولم يكن على علم بالمسافة التي قطعها منذ مغادرته بلاده، ولا شك أن قوات الجيش بمختلف قياداته التي زحفت لأشهر طويلة قابلت خلالها صعوبات جمة لتصل إلى أراض صعبة وجو قاس لن تختلف مع هذه المقولة على الإطلاق. ولكن يبقى السؤال الحقيقي وهو ما الذي كان يعرفه الإسكندر في ذلك الوقت؟ وهو الذي كان يرشو أهم صناع الخرائط والجغرافيين في الإمبراطورية الفارسية. وربما كان — أو لم يكن — لديه خبراء يملكون معلومات دقيقة، أو قد يكون ذلك راجعًا إلى وطنية الفرس أو عدم كفاءتهم في الفترة الأخيرة من حكم الأكامينيد. ولكنه

كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأن الأقاليم الشرقية للإمبراطورية هي مفتاح الوصول إلى طموحه الأكبر وهو الهند، وأنه بعد الهند لا يوجد سوى المحيط ونهاية العالم. وكان من صالح الإسكندر، ومعه جيشه الذي بدأ التوتر يسوده، أن يسمى الهندوكوش بالقوقاز، ونهر ياكسارتس بتانايس ليؤكد بذلك لجيشه أنهم ليسوا ببعيدين عن أوروبا والعالم الذي يعرفونه.

وفي سفح جبال الهندوكوش أسس الإسكندر مدينة جديدة «الإسكندرية في بلاد القوقاز» وربما كان ذلك في موقع كابيش كانيش الفارسية بالقرب من باجرام الحديثة. ويعتبر الإسكندر واحدًا من أشهر بناة المدن في التاريخ، حيث أنشأ عشرين مدينة على الأقل خلال حكمه (يقول بلوتارخ إنها سبعون)، ونالت أفغانستان نصيب الأسد. وكان الإسكندر يهدف من ذلك إلى أمرين هامين: أولهما أنه كان يحتاج إلى مدن عسكرية ذات اكتفاء ذاتي ترابط فيها قواته اليونانية أو المقدونية بحيث يتسنى لها السيطرة على الأراضي البعيدة بعد غزوها. وثانيهما أنه في خلال زحفه بجيشه كان يحتاج إلى التوقف عدة مرات ليترك وراءه الآلاف من الجرحى والمرضى أو القوات منهكة القوى والذين يعجزون عن الاستمرار في مسيرة الجيش. وكان الجيش المقدوني قويًّا خفيفًا يعتمد على السرعة في زحفه، ولم يكن يحمل أدوية أو أي وسائل علاج، لذلك فمن المتوقع مثلًا أن الحامية الأساسية التي تركها في إسكندرية القوقاز تضم في غالبيتها رجالًا أعجزتهم قضمة الصقيع. بل إذا أصيب أي جندي بالتواء كان يجد نفسه مرحلًا إلى عاصمة جديدة ولو بصفة مؤقتة. وفي بعض الحالات، مثل ما حدث في أراكوزيا، حين كان عدد المرضى قليلًا؛ ترك الإسكندر بعض قواته كحامية حتى لا يترك البلد دون أن يكون تحت حماية النخبة العسكرية من المقدونيين. وفيما عدا مدينة الإسكندرية في مصر فلم يكن هناك أي دافع لإنشاء مدن جديدة وسط بلاد مأهولة بالسكان. غير أن المبررات السابق ذكرها تزايدت بزيادة توغله في بلاد الشرق. وكلما تقدم الجيش في سيره، زاد عدد المدن، رغم أنها لم تدم فترة طويلة. وحتى اليوم لا يزال الأثريون يحاولون تحديد عدد الإسكندريات التي أنشأها الإسكندر في أفغانستان وما حولها، وإن كانوا أحيانًا يقومون بهذا الأمر كنوع من الرياضة.

بعد توافر الإمدادات استأنف الجيش زحفه عبر الهندوكوش إلى باكتريا. وقد استغرق هذا العبور سبعة عشر يومًا، وقد اختار الإسكندر ممر خاواك في

أقصى الشرق مخترقًا الجبال على أمل أن يتفادى بيزوس. كان فرسان باكتريا قد قاموا بتخريب الأرض الواقعة أمام الممرات الأخرى وكان من الممكن أن يفعلوا ذلك أيضًا عند ممر خاواك، وحين شرع المقدونيون في اختراق الممر كانت إمداداتهم متوفرة، ولكن عند خروجهم من الطرف الآخر كان الجوع قد نهشهم دون أن يجدوا أي طعام. وكانت الدواب خائرة القوى، وحتى يظل الجنود على قيد الحياة لجئوا إلى أكل خيولهم، وحميرهم أو بغالهم. ولم تكن الأخشاب التي يشعلونها متوافرة لديهم، فكانوا يأكلون الطعام نيئًا ويصطادون الأسماك من الجداول والأنهار، كما وجدوا أيضًا بعض جذور الأسفيتيفويدا في الأرض.

قدر إنجلز عدد قوات الإسكندر في هذه المرحلة، استنادًا إلى السبعة عشر يومًا التي عبر فيها الجيش الممرات الضيقة لمعبر خاواك بـ ٦٤٠٠٠ من القوات و١٠٠٠٠ من الفرسان، بالإضافة إلى نصف العدد المذكور والذي يشمل المصاحبين للجيش من الخدم والأتباع، وقد اعتمد في هذا التقدير رغم صعوبته على عنصري المكان والزمان أثناء تقدم الجيش.

وصل الإسكندر إلى درابساكا (قندوز حاليًّا) ثم استدار غربًا مخترقًا أورنوس (خلم) ليستولي على باكتريا العاصمة. وفي ذلك الوقت كان الجيش قد استعاد دفئه وتزود بالمؤن التي كان يستولي عليها بالقوة من أية مدينة أو قرية يصادفها في طريقه. ويصف كيرتيوس بصورة حية بالغة هذه الأراضي كما كانت في العصور القديمة قائلًا:

«إن طبيعة جغرافية الأرض في باكتريا متغيرة الخواص والعناصر، ففي بعض المناطق نجد كثيرًا من الأشجار والكروم تغل محاصيل وفيرة من الفاكهة حلوة المذاق. أما الأرض الغنية فترويها الينابيع العديدة، وبقية الأراضي الخصبة مزروعة بالقمح الذي يترك المواطنون بقاياه لرعاية الماشية. أما بقية الأراضي الأخرى فتغطيها مساحات ضخمة من رمال الصحراء، وهذه المنطقة المهجورة الجدباء لا يوجد بها أي حياة بشرية أو أية مزارع أو نباتات، والأرض الخصبة بها تؤوي أعدادًا كبيرة من البشر والخيل. ولذلك يمكن تقدير عدد فرسان باكتريا بثلاثين ألفًا.»

وفي بلخ علم الإسكندر بالأخبار الأخيرة عن آريا التي كان قد بعث أريجيوس إليها ليقمع التمرد الذي قاده ساتيبارزانس. فقد تقابل الجيشان في معركة لم تسفر عن انتصار أحدهما، وأخيرًا اخترق ساتيبارزانس صفوف الجيش وخلع خوذته وعرض إنهاء المعركة شخصيًّا مع أي بطل يقدمه المقدونيون. وتجاوب أريجيوس، الذي كان قائدًا لسلاح الفرسان اليوناني، وخلع خوذته بدوره ليكشف عن «شعر أبيض كثيف» وواجه خصمه، وتصارع الرجلان بين صفوف الجيش فرمى ساتيبارزانس رمحه لكن أريجيوس تفاداه ثم طعنه برمحه في رقبته فأوقعه من فوق حصانه، واستمر الفارسي يقاتل فسحب أريجيوس السلاح ووجه له طعنة قاتلة في وجهه، وهنا استسلم المتمردون الآريان وعاد أريجيوس إلى قواعده في الجيش ليقابل بالتهليل والإكبار، ورغم أن ملحمة الإلياذة قد مضى عليها ما يقرب من ألف عام، فإن ثقافة البطل الأوحد كانت أصداؤها ما زالت تغلب على الجيش المقدوني بل وعلى الإسكندر نفسه.

كان بيزوس قد أضاع فرصة الهجوم على المقدونيين بعد أن عبروا الهندوكوش وهم في حالة إعياء وضعف، وبدلًا من محاربتهم فإنه فور وصولهم غير المتوقع فر هاربًا مع سبعة آلاف من الفرسان عبر نهر الأوكسس بعد أن أحرق جميع القوارب خلفه. شرع الإسكندر في مطاردته ولكن كان شهر يونيو/حزيران قد حل، ومجددًا أخذته طبيعة أفغانستان الجغرافية على غرة، فما بين واحة بلخ الخصبة ونهر الأوكسس كانت الصحراء تمتد على مدى ٤٠ ميلًا اضطرت جيوش الإسكندر إلى اختراقها دون ماء كافٍ. وأصبح الرجال الذين لم يبرءوا من قضمة الصقيع بعد يحترقون الآن في رمال الصحراء. ولجأ البعض منهم إلى شرب النبيذ الذي زاد من شعورهم بالجفاف. وعند وصولهم إلى النهر أسرع الكثير منهم إلى إرواء عطشهم بسرعة ليعاجلهم الموت، ويتسبب في زيادة عدد قتلى هذه المعركة عن أي معركة أخرى، وفي تلك الليلة أمر الإسكندر بإضاءة المشاعل على التلال المجاورة ليرشد آلاف الجنود المتعثرين إلى معسكراتهم.

بعد وصولهم إلى نهر الأوكسس قام الإسكندر بتسريح تسعمائة من قدامى المحاربين المقدونيين طالبًا منهم العودة إلى منازلهم وإنجاب الأطفال، والأهم من ذلك أنه قام أيضًا بتسريح سلاح الفرسان الثيسالياني بأكمله والذي كان قد انخرط في الجيش في إكباتانا. وقد يبدو غريبًا أن يبعد الإسكندر أحد أهم

وحدات جيشه المختارة وهو على وشك شن هجوم عبر مساحات شاسعة على فرسان باكتريا وسوجديا وسيثيا. لكن الثيساليان كانوا قد خدموا تحت إمرة بارمينيو منذ مدة طويلة وكانوا مخلصين له بقدر إخلاص فرسان الإسكندر لقائدهم، وربما كان الإسكندر قد لاحظ خلال مسيرة قواته شيئًا من التذمر بعد مقتل بارمينيو وابنه، ولذلك، ورغم أهميتهم له، فإنه أحس أنه سوف يكون بمأمن إذا أبعدهم عنه.

بدأ الجيش في إعداد ألواح من الخشب لاستخدامها في العبور بعد أن ملأ الخيام بالقش الجاف وخاط الجلود بإحكام، وبعد خمسة أيام من العبور، اتجه الجيش بسرعة شمالًا إلى سوجديا، وهي المنطقة التي تشغلها اليوم دولتا «أوزباكستان وطاجيكستان» وهما من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق. وهناك علم أن اثنين من نبلاء سوجديا — سبيتامينيس Spitamenes وأوزيارتس Oxyartes — قد قبضوا على بيزوس ويرغبان في تسليمه إليه. فأبطأ الإسكندر من سرعة الجيش وأرسل فورًا بطليموس على رأس قوة ليسارع بالقبض عليه. وقد قال بطليموس بعد ذلك إنه قبض عليه بعد قتال سريع، ولكن حسب رواية أخرى أن سبيتامينيس سلمه الأسير وهو سعيد. وقد طلب الإسكندر من بطليموس أن يرسل إليه بيزوس عاريًا محاطًا بقيد خشبي حول عنقه في الطريق الذي سوف يسلكه الجيش. وهناك جلد عدة مرات قبل أن يرسله الإسكندر إلى بلخ ليجدع أنفه ويقطع أذنيه ثم يعود إلى إكباتانا حيث نفذ حكم الإعدام فيه بقسوة، طبقًا لتقاليد الفرس في التعامل مع المغتصبين.

جاءت ذروة حكم بيزوس القصير حين أطلق على نفسه اسم «أرتازيركسس» في العام الذي سبق القبض عليه، حين توقف زحف الجيش المقدوني فجأة وهو في طريقه إلى باكتريا وعاد القهقرى لإخماد أول ثورة للآريين، وبعدها زحف إلى الجنوب كأنما تخلى عن فكرة غزو باكتريا. وبدا واضحًا أن الإسكندر اختار طريقًا سهلًا لا يجابه فيه بأية مقاومة، ولذلك بدا وكأنه سوف يستمر في زحفه إلى الهند عن طريق آراكوزيا. وفي هذا الشتاء الرائع كان بيزوس قد عين حاكمًا جديدًا لبارثيا، وساهم في ثورات أخرى أيضًا في آريا كما حاول أن يدعم تحالفاته مع الولايات في شمال نهر أوكسس. ولنا أن نتخيل ما أصاب بيزوس من رعب حين بدأ جيش المقدونيين، وهو

أقوى جيش في التاريخ في ذلك الوقت، يتدفق من الممر في أقصى شرق جبال الهندوكوش في ربيع سنة ٣٢٤ ق.م، وهو نفس الشعور الذي ساد في سوجديا حين بدأ الإسكندر في عبور الأوكسس وهو يطارد غريمه.

لم يبالغ مؤرخو الإسكندر في نقد بيزوس بل كانوا يعتبرونه أكثر حيوية من داريوس. لكن محاربي شمال الأوكسس تصرفوا بحكمة وهم يسلمونه إلى الإسكندر على أمل أن ينالوا رضاه فيرحل بعيدًا عنهم. لكن الإسكندر، بدلًا من ذلك، كان يدرك تمامًا أن حدود إمبراطورية قورش تمتد بعيدًا شمالًا عند ياكسارتس، وكان في نيته غزو جميع الأراضي الواقعة بينهما، وكان يلزمه سنتان لتحقيق هدفه يتنافس خلالهما مع أقوى خصم قابله: سبيتامينيس.

بعد أن قام فرسان الإسكندر بالطواف حول المنطقة بحثًا عن تعويض ما فقدوه من خيل وهم في الطريق الوعر إلى أفغانستان، قاد الإسكندر جيشه شمالًا تجاه ماراساندا (سمرقند) عاصمة سوجديا. ومن هناك اتجه إلى ياكسارتس (سيردريا الآن) التي كانت تعتبر آخر حدود الحضارة حيث تقع خلفها أراض يقطنها البدو السيثيان، ولا شيء بعدها يستحق الغزو. وكان أغلب الإغريق يعتقدون أن حافة العالم تقع خلف الأفق الأسيوي، وأن الأجساد تبدأ في التحلل كلما اقتربوا منه. وكان قورش قد أسس على ضفاف نهر ياكسارتس سلسلة من المدن المحصنة ليصد أي غزو أو غارات من قبل السيثيان.

وبينما كانت فرقة من المقدونيين تجول في المنطقة تعرضت لهجوم بعض القبائل فقتل منهم البعض وأسر البعض الآخر، فاندفع الجيش وحاصر المهاجمين على جبل شاهق شديد الانحدار، وفي البداية تراجعوا خلف وابل من الرماح التي أمطرهم بها المعتدون. وكان الإسكندر كعادته في المقدمة فأصابه رمح في ساقه تسبب في كسر عظمة الساق الخارجية ورغم ذلك هاجمت قواته الجبل وقتلت الآلاف من المهاجمين.

وفي ياكسارتس كان الإسكندر قد قرر أن يشيد مدينة أخرى ليسميها «الإسكندرية البعيدة» في موقع خوجند الحالي لكنه علم بقيام ثورات ضده في جميع الأراضي الممتدة من ياكسارتس وحتى الهندوكوش. وأن الحامية المقدونية التي تركها في المدن السبع المحصنة التي أنشأها قورش قد ذبحت، وكان سبيتامينيس قد أغار على ماراساندا على رأس قوات كبيرة من الفرسان

معززة بفرق من السيثيان من قبائل الـ«داهاي»، وهي كلمة فارسية تعني «اللصوص»، أما قادة باكتريا فبعد استدعائهم لاجتماع في بلخ اشتموا رائحة خيانة فتمردوا بدورهم.

أرسل الإسكندر قوة ضمت ١٥٠٠ من المشاة وثمانمائة من الفرسان وستين من «الرفاق» بقيادة فارنوكيس Pharnuches جنوبًا إلى ماراساندا لتتعامل مع سبيتامينيس، ثم قاد بقية جيشه، ودمر حصون قورش الواحد تلو الآخر بعد أن عجزت أسوارها المشيدة من الطمي ومن القرميد على مقاومة أسلحة الحصار، وفي كل مدينة كان يذبح الرجال ويسبي النساء والأطفال. لكن أسوار أكبر مدينة هي سيروبوليس (كوركات) كانت منيعة فاستعصت عليه واستطاعت صد هجومه، ولهذا السبب استقطبت عددًا كبيرًا من المدافعين عنها من أنحاء المنطقة بلغ خمسة عشر ألفًا. وحاول المقدونيون البحث عن ثغرة أو نقطة ضعف يتسللون منها إليها فاكتشفوا وجود ممر مائي يقع تحت الأسوار، وأن مياهه تنخفض إبان الأشهر الأخيرة من الصيف ومن ثم يمكن عبور هذا الممر وهم جاثمون. وهنا أمر الإسكندر بشن هجوم على الجانب الآخر من المدينة حتى يحول الأنظار عن تلك البقعة، في حين تسلل هو من خلال هذه الثغرة على رأس مجموعة من حرسه وخيرة جنوده، ثم تمكن من الدخول إلى المدينة واستولى على بوابة منها ليسمح للقوات المقدونية بالتدفق خلالها. ولكن ما إن ترك السوجديانيون مواقعهم على الأسوار حتى اندفعوا نحو الغزاة بالداخل وجرح كراتيروس بسهم، كما تلقى الإسكندر ضربة على رأسه من حجر أفقدته بصره وقدرته على الكلام للحظات. لكن المقدونيين سرعان ما استعادوا تفوقهم وذبحوا المدافعين عن سيروبوليس بوحشية.

عاد المقدونيون يشيدون «الإسكندرية البعيدة» بمحاذاة أحد معسكراتهم وعلى مساحة قطرها خمسة أميال ونصف الميل. وتوزع العمل بين الوحدات المختلفة من الجيش بحيث أسفر هذا التنافس عن تشييد المدينة في عشرين يومًا. وخلال ذلك وصل السيثيان إلى الجانب الآخر من النهر وبدءوا يستفزون المقدونيين أثناء عملهم. وفكر الإسكندر، وكان محقًّا، أنه لو ترك هؤلاء المحاربين البدو دون أن يردعهم، فسوف يتزايد عددهم وسوف تدمر المدينة فور مغادرتهم لها. فوضع المنجنيق بمحاذاة الشاطئ، وبرمية حالفها الحظ قتل أحد قادتهم من مسافة لم يعهدها السيثيان من قبل. وحين تراجعوا شن

الإسكندر عليهم هجمات برمائية، فتقدمت القوارب ومعها المنجنيق في المقدمة، فيما هاجم المشاة الضفة البعيدة، وتبعهم الفرسان.

وعلى الجانب البعيد من ياكسارتس، تقدمت عناصر الجيش المقدوني إلى الداخل بسرعة أكثر من اللازم، فأحاط بها السيثيان يدورون حولها بخيولهم وأقواسهم في حلقات دائرية وهو نفس الأسلوب الذي اتبع بعد ذلك بألفي سنة في غرب أمريكا أثناء مهاجمة القطارات. لكن جيش المقدونيين كان جيش مواجهة أكثر من كونه جيشًا يعتمد على القذائف البعيدة المدى، وحين وصل الإسكندر إليهم وجد حلًا للموقف، فقد هاجم السيثيان بجناحي جيشه في حين كان هو على رأس الفرسان الرفاق من اليمين. ولم يستطع السيثيان القيام بأية مناورة، فقد كانوا محاصرين بقوات متقاربة بعضها بالقرب من بعض، وقتل منهم الآلاف وأسر حوالي ١٥٠ جنديًا. ولم يتوقف الإسكندر عن مطاردة الباقين إلا حين أصابه مرض الديسنتاريا بعد أن شرب ماء ملوثًا. وبعد ذلك عاد المقدونيون إلى ياكسارتس.

لم يلبث المقدونيون أن تلقوا أخبارًا عن كارثة. فقد نجحت القوات التي سبق للإسكندر أن أرسلها إلى ماراساندا في فك حصار سبيتامينيس عن قلعة المدينة، لكن بعد مطاردتهم للثوار في المناطق الريفية وقعت قوات الإغاثة في مصيدة، وهي مناورة مألوفة بالنسبة لمقاتلي السهول، تتمثل في التظاهر بالتقهقر حتى تظل القوات الغازية تطاردهم إلى أن تشعر بالإنهاك، ثم ينصبون لها كمينًا على حين غرة. وهنا قام الإغريق بتشكيل مربع بجوار شاطئ نهر زارافشان لكنهم قرروا بعد ذلك أن ينطلقوا نحو النهر لمزيد من الأمان، يقول آريان:

> «تبعهم المشاة دون أوامر صادرة إليهم بعد أن أصابهم الذعر والهلع، فرموا بأنفسهم في النهر دون انتظام وكانت ضفتا النهر شديدتي الانحدار. وحين أدرك البرابرة الخطأ الذي وقع فيه المقدونيون، اندفعوا بدورهم يخوضون النهر وراءهم بخيولهم، وقام بعض منهم بالإمساك بمن عبروا إلى الضفة الأخرى وأوشكوا على الفرار، والبعض الآخر كان قد ظل ثابتًا في موقعه على الشاطئ في مواجهة الجنود الذين كانوا بصدد العبور. فدفعوهم إلى النهر مرة ثانية، فيما أطلق الباقون سهامهم عليهم من الجانبين. وهاجم آخرون الباقين الذين

كانوا يهمون بإلقاء أنفسهم في النهر. كان المقدونيون محاصرين من جميع الجهات، فاضطروا إلى الفرار نحو جزيرة في النهر لكن السيثيان وفرسان سبيتامينيس أحاطوا بهم وقتلوهم جميعًا بالسهام فيما عدا بعضًا منهم أسروهم كعبيد ثم قتلوهم بعد ذلك.»

وتروي قصة أخرى أنه من قوة بلغ عددها ألفين وأربعمائة، تمكن ثلاثمائة من المشاة وأربعون من الخيالة، وليسوا من الضباط؛ من النجاة. وبعدها حذر الإسكندر بشدة الهاربين من المعركة من الحديث عن هذه الكارثة حتى لا يفت ذلك في عضد بقية الجيش. أما هو فقد بدأ في الزحف جنوبًا فورًا. وكان سبيتامينيس قد عاود حصاره لماراساندا ولكنه تركها مرة ثانية حين اقترب الجيش المقدوني القوي. وأثناء المطاردة وصل الإسكندر إلى ساحة المعركة وهو في حالة شديدة من الثورة والغضب. ولنا أن نتصور المذبحة التي جرت والتي تفوقت في قسوتها على المعركة الأخيرة لكاستر Custer، ولأن السيثيان كانوا يمارسون عادة سلخ فروة الرأس ويحملون قتلاهم معهم ويستولون على أسلحة القتلى من العدو، فمن الممكن أن تكون مثلها. وبعد أن سارع المقدونيون إلى دفن موتاهم بدءوا يطاردون العدو حتى حافة الصحراء، لكنهم أدركوا أن سبيتامينيس قد نجح في الفرار. وهنا صب الإسكندر جام ثورته وغضبه على المنطقة حول ماراساندا فخربها ودمرها، ودفع سكانها حياتهم ثمنًا لهذه المعركة سواء كانوا قد دعموا هذا التمرد أم لا. لكن هذا الانتقام لم يكن يجسد فقط غضب الإسكندر، فكما سبق للفرس تبني سياسة إحراق الأراضي في مواجهة غزو الإغريق، كذلك قام الإسكندر بنفس التكتيك حتى يحبط أي ردود فعل أخرى من جانب سبيتامينيس.

ظلت باكتريا تمثل مشكلة، وعاد الإسكندر إلى بلخ شمال أفغانستان في شتاء عام ٣٢٩–٣٢٨ ق.م، وكان التوتر يسود آريا، واستقبل الإسكندر هناك حاكمها السابق بارازانيس وهو مكبل بالقيود، وفي الليالي التالية التي حفلت بالشراب، ظهر بوضوح ميل الملك إلى تناسي جذوره والأخذ بمظاهر الحياة الشرقية في ملبسه وعاداته ومسلكه ككل، مما أثار القلق في نفوس معاونيه من المحاربين القدامى ودارت بينهم عدة مناقشات حول علاقة هذا بصالح الجيش. اتُخذ قرار بعدم محاولة العودة إلى الصحراء بين بلخ ونهر الأوكسس في الربيع، بل الاتجاه شرقًا لتهدئة البلاد، ومن ثم عبور النهر بسهولة بعد ذلك.

وفي ربيع عام ٣٢٨ ق.م أعاد المقدونيون غزو الأراضي شمال نهر الأوكسس، وفي هذه المرة قسم الجيش إلى خمس فرق سريعة. كما شيدوا حاميات على الهضاب بين كل مسافة وأخرى في محاولة تشبه استراتيجية سد المنافذ التي اتبعتها بريطانيا لحجز الكوماندوز من البوير في جنوب إفريقيا.

وفي منتصف أشهر الصيف تقرر أن تتقابل فرق الجيش الخمس في ماراساندا لبدء المرحلة الثانية من الحملة، لكنه في خلال تلك الفترة تسلل سبيتامينيس في غفلة منهم وأعاد غزو باكتريا. وكان سبيتامينيس قد وجد حلفاء جددًا في ماسجيتاي وهي قبيلة لها شهرة خاصة (كما يقول هيرودوت) لأنها قتلت قورش العظيم. ولم يؤكد آريان ما إذا كانت هذه القبيلة جزءًا من مجموعة قبائل السيثيان، تاركًا الاحتمال قائمًا أنهم قد يكونون بدوًا من الشعوب التي تتكلم التركية والتي تقطن الشمال الشرقي. أو يكونون من السامارتيان في أوكرانيا الذين يظهرون بين وقت وآخر على حدود الإمبراطورية الفارسية.

عبر سبيتامينيس مع قواته الجديدة نهر الأوكسس خلف الإسكندر واستولى على قلعة على الحدود. ثم أحاط بعد ذلك بالعاصمة في بلخ، ولكن لم يكن في مقدرة هؤلاء الخيالة حصار المكان، فاكتفوا بسلب ونهب المناطق المجاورة. ومن بلخ انطلق بعض من كانوا لا يزالون يتعافون من جراحهم من المقدونيين بالإضافة إلى فرق من الحامية إلى المعركة يقاتلون بشجاعة، لكن الهزيمة لحقت بهم وخسروا خسائر جسيمة. وفي ذلك الوقت وصلت قوات كراتيروس إلى مسرح الأحداث فتقابلت مع قوات سبيتامينيس على حافة الصحراء وقتل ١٥٠ من المراوغين في حين فر الباقون.

أمضى الإسكندر شتاء ٣٢٨–٣٢٧ ق.م في ماراساندا حيث كان تذمر الجنود قد بلغ حدًّا خطيرًا. ففي إحدى الليالي التي حفلت بالشراب — وهو ما صار عادة في القيادة العليا للجيش المقدوني — نشب جدال مباشر بين الإسكندر وكلايتوس، كانت الشرارة التي أشعلت هذا الجدال هي سخرية الإسكندر من الضباط الذين قتلوا في مذبحة زيرافشان، وبطريقة ما حين زاد الحضور في سكرهم أشار كلايتوس دون أن يعي إلى حنينه إلى والد الإسكندر فيليب الثاني. وكلايتوس الذي أنقذ حياة الإسكندر في جرانيكوس، والذي كان قائدًا لنصف فرقة الفرسان التي ترافقه، إضافة إلى أن الإسكندر عينه

حاكمًا لباكتريا؛ كان قد أثقله الشراب فقال إن فيليب حقق انتصارات أكثر من ابنه، وهنا انفجرت ثورة الإسكندر وأخذ يسبه بألفاظ مقدونية بذيئة، وانتهى الجدال بأن سدد الإسكندر حربته إلى صدر كلايتوس فقتله، لكنه بعدها ندم على فعلته وحزن حزنًا شديدًا وصام عن الطعام لعدة أيام.

كان الإسكندر لا يزال يحظى بالولاء الكامل الذي يكاد يصل إلى مرتبة التقديس من أغلب رجاله، وكانت ذكريات استقبال جيشه كجيش محرر في مصر وبلاد الرافدين ما زالت في ذاكرته، وكذلك في بابل حيث فرش طريقه بالورود. وفي المقابل فمنذ أن غادر الجيش فارس، وفي الوقت الذي لم يتجمد أفراده في الجبال أو يحترقوا بنار الصحراء؛ كانوا ينخرطون في معارك ضد أعداء لا يريدون الانسحاب، ومن أجل ماذا؟ فلو كانوا حقًّا إغريقًا فإن الإغريق لهم حرية الاختيار الشخصي وليسوا مجرد آلات مسخرة. وبالنسبة للإسكندر كان تبنيه للعادات الشرقية يتزايد، كما أصبح أيضًا أكثر تسلطًا في أساليبه بحيث أصبح أغلب قواده يخشون النقاش معه.

في أوائل عام ٣٢٧ ق.م انتشرت قوات الجيش في ساحة القتال، وفي هذه المرة انتصرت الفرقة التي يقودها كوينوس على سبيتامينيس الذي كان على رأس ثلاثة آلاف مقاتل، وقتل من جيش سبيتامينيس ثمانمائة. وبعدها انسحب الماساجيتا من الجيش وقبضوا على سبيتامينيس وقطعوا رأسه وقدموها إلى الإسكندر كبادرة للسلام. وبمجرد أن زال هذا التهديد من طريق الإسكندر، تفرغ المقدونيون خلال بقية العام لتطهير الحصون المقامة على الجبال التي كانت قد صمدت ضد الغزو. وكانت أشهر معركة قتال تلك التي نشبت على «صخرة سوجديان» وهي جرف لا يمكن الوصول إليه، كان أوزيارتس — النبيل الباكترياني — قد احتمى به مع آلاف من جنوده ومعه مؤن تكفيه عشر سنوات. وحين وصل الإسكندر طالبه بالاستسلام فكان رد أوزيارتس أنه كان من الأولى به أن يأتي بقوات ذات أجنحة لأنه بدون ذلك لن ينهار هذا الحصن أبدًا.

بحث الإسكندر في جيشه عن متسلقين للجبال، وحين وجد ثلاثمائة منهم أمرهم بتسلق المنحدرات الشاهقة خلف الصخرة واعدًا إياهم بمكافآت جزيلة. ومن هؤلاء الثلاثمائة سقط ما يزيد على الثلاثين متسلقًا فلقوا مصرعهم. لكن في الصباح الباكر نظر أوزيارتس إلى أعلى فطالعته قوات من الإغريق فوقه ومن

خلفه وقد امتلكوا اليد الطولى عليه. وكان من الواضح أن الإسكندر لديه فعلًا «رجال ذوي أجنحة» ولم يجد أوزيارتس مفرًّا من الاستسلام. وتقبل الإسكندر استسلامه بشهامة. وفي غضون ذلك لمح فتاة جميلة من بنات أوزيارتس اسمها روكسان Roxane.

قرر الملك الأعزب أن يتزوج روكسان، وأقيم حفل الزفاف في أواخر ربيع ٣٢٧ ق.م في بلخ. ويقول مؤرخو الإسكندر معبرين عن رأي من حضروا حفل الزواج إن روكسان كانت أجمل امرأة في العالم ولا تفوقها إلا ستاتيرا Stateira زوجة داريوس الثالث، وكان في هذا التعليق شيء من المبالغة كان من الممكن أن يصححها الإسكندر لو كان العمر قد امتد به أكثر من ذلك. لقد كان زواج الإسكندر من روكسان ذا هدف مزدوج، فمن ناحية كان يرغب في تدعيم حلفه مع باكتريا والأقاليم الشرقية، وعلى جانب آخر كانت روكسان امرأة جميلة بكل المقاييس، هادئة الطبع وتتميز بذكاء حاد (وهو ما ظهر فيما بعد حين قامت بقتل زوجة الإسكندر الثانية ابنة ستاتيرا)، وسبب ثالث هو أنه بعد الحملات في أفغانستان وشمال نهر أوكسس كانت فترة الشباب الثائر في عمر الإسكندر قد ولت، حيث كان قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره، ولم يبق في جسده موضع لم يصب فيه بجرح. وفي ضوء الانقسام والخلاف الذي أصاب جيشه، أحس بأنه من الواجب عليه أن يخلد اسمه وليس فقط انتصاراته.

بعد زواجه من روكسان بدأ الإسكندر يعد العدة لغزو الهند، فعهد إلى عشرة آلاف من المشاة، وثلاثة آلاف وخمسمائة من الفرسان بالبقاء مع أمينتاس نائبه في باكتريا. وفي نفس الوقت ضم إلى جيشه فرسانًا من باكتريا ومن سوجديا ليملئوا هذه الفجوة من ناحية، ومن ناحية أخرى ليسحب الشباب المحارب من الأرض التي انتصر عليها، مما يقلل فرصة حدوث تمرد آخر أو ثورة أخرى. وبالإضافة إلى ذلك كان قد أمر بتجنيد ثلاثين ألفًا من الشباب من الأراضي الشرقية لتدريبهم كمشاة طبقًا للأسلوب المقدوني. وبالطبع لم تُرض هذه التحركات قدامى المحاربين المقدونيين. وفي بلخ كُشف عن مؤامرة أخرى لقتل الإسكندر بعد تجربته التي تفتقد إلى الحكمة لإدخال سلاح البروسكينيسس — وهو نوع من الأقواس كان يستخدمه ملوك الفرس — إلى الجيش المقدوني. وأُعدمت مجموعة من خدم الإسكندر ومعهم كاليسثينيس مؤرخ البلاط وابن أخ أرسطو الذي كان دائمًا يتغنى بمآثر الإسكندر، لكنه

كان مستاءً من توجه الإسكندر نحو تبني العادات الشرقية إلى درجة أنه رفض ذات مرة — على مسمع ومرأى من الملأ — قبلة ملكية، وبصفته معلم الخدم فقد كان مسئولًا عن سلوكهم ولهذا أعدم معهم.

وفي أوائل الصيف عاد الإسكندر ليعبر جبال الهندوكوش مرة ثانية، ولكن لأنه في هذه المرة لم تكن أمامه أي خطط ملحة، فقد اختار أسهل الطرق، ومن المحتمل أنه اتجه صوب ممر سالانج الذي يحتل موقعه الآن نفق حفر إبان العهد السوفييتي (ويعتقد البعض أنه اخترق ممرات باميان). وتوقف الجيش عند إسكندرية القوقاز ليقابل سفراء من الهند. كانت الفرس في فترة ما قد حكمت الأراضي الممتدة شرقًا حتى نهر السند وجنوبًا حتى بحر العرب. لكن الأكامينيد فقدوا سيطرتهم عليها، وانقسمت المنطقة إلى ممالك مستقلة. قدم ملك تاكسيلا، وهي إحدى تلك الممالك المستقلة، فروض الولاء إلى الإسكندر، فقد كان يطمع في الاستعانة به ضد خصمه ومواطنه بورس الذي كان يحكم مملكة قوية تقع خلف جيلوم.

هاجم الإسكندر الهند بقوتين، قاد إحداهما صديقه هيفاستيون Hephastion وكانت مؤلفة من أغلب الجيش، والحرس الملكي وأتباع المعسكر، وسار بحذاء نهر كابول ومنه اخترق ممر خيبر ليصل إلى الأراضي المنبسطة الخصبة التي تعرف اليوم باسم باكستان. أما الإسكندر فأخذ قوات الجيش الخفيفة، واختار نخبة منها ليعبر ممر نهر نهاواك إلى أقصى الشمال، وفي طريقه مر بمنطقة مليئة بالغابات حيث ينمو شجر اللبلاب. تقول الأساطير اليونانية إن ديونيسيوس بدأ انتصاراته من الهند، ويقال إن رجال الإسكندر توقفوا ليقيموا حفلًا لباخوس إله الخمر لاعتقادهم أنهم وجدوا الأرض التي وطأها ديونيسيوس، وأطلقوا على هذا المكان اسم «نيسا» تيمنا باسم مرضعة الآلهة. وبعد ذلك عسكر الإسكندر في المنطقة المسماة حاليًّا سوات وباجور. وبعد أن انتزع إعجاب السكان الوطنيين بقصصه الخيالية عن المدن التي حاصرها والعقبات التي صادفها — والتي في تاريخ الإغريق، لم يتغلب عليها سوى هرقل وديونيسيوس — لحق الإسكندر بباقي جيشه في سهول السند.

خاض الإسكندر آخر معاركه العظيمة عند نهر جيلوم ضد بورس الذي حشد عددًا ضخمًا من الأفيال بالإضافة إلى المشاة والفرسان، جاعلًا

الإسكندر يدخل في معركة قيل عنها إنها الأصعب في تاريخه. ومع ذلك انتصر الإسكندر، وخلال القتال بلغ إعجابه بشجاعة بورس أن أعاد تنصيبه ملكًا على المنطقة. استأنف الجيش بعدها مسيرته صوب ما يعرف اليوم بنهر بيس، لكن القوات المقدونية كانت قد نالت كفايتها من الحروب فرفضت التوغل أكثر من ذلك.

كان الإغريق يعتقدون أن الهند عبارة عن خط رفيع يفصل اليابسة عن المحيط، الذي هو مساحة هائلة من المياه تحيط بالأرض. أما بالنسبة للإسكندر فقد كانت الهند تمثل المرحلة الأخيرة من غزو العالم. لكن الجيش كان لديه معلومة أخرى خاصة به، وهي أن البنجاب ليست نهاية الأرض، وأنه سوف يعقبها قتال، وصعاب ومسيرات أخرى لا تنتهي. ظل الإسكندر متجهمًا لأيام لكن قادة الجيش وجنوده أكدوا له هذه الحقيقة. وكان من الواضح أنهم علموا من السكان المحليين أن الهند أكبر بكثير مما يعتقد الإغريق، وربما يكون قد تناهى إلى مسامعهم أيضًا معلومات عن مدى امتداد جبال الهيمالايا الضخمة وأنه خلفها تقع أرض أخرى واسعة لم يتم غزوها بعد وهي الصين.

ورغمًا عنه اضطر الإسكندر إلى أن يتخلى عن فكرة المضي في انتصاراته شرقًا، ولأول مرة في حياته بدأ يتراجع، وكان أفضل سبيل لذلك أن يعود من نفس الطريق الذي جاء منه. وفعلًا أرسل كراتيريوس مع قوات كبيرة إلى أراكوزيا، لكن الإسكندر، رغمًا عن ذلك، كان لا يزال يتطلع إلى بلاد أخرى يغزوها، ولذلك بينما كان يتقهقر راجعًا، قرر أن يعبر الأراضي بمحاذاة بحر العرب جنوب أفغانستان، وكانت النتيجة أنه فقد ثلاثة أرباع جيشه من جراء شدة الحرارة والجفاف والإرهاق الذي أصاب الجنود في مسيرتهم القاتلة عبر صحراء جدروسيان في بلوخستان الحديثة وشرق إيران.

بدأ سوء الحظ منذ ذلك الوقت يطارد الإسكندر، فقد كان الصراع مع الإنسان والطبيعة تحت ظلال الهندوكوش قد امتص كل الحيوية التي كانت تدفعه هو وجيشه إلى الانتصارات المذهلة التي حققها ضد الإمبراطورية الفارسية، وعاد الإسكندر إلى بابل، المدينة الأولى في إمبراطوريته العظمى. لكنه توفي بعدها وهو يخطط لحملات جديدة في بلاد العرب، وقرطاجنة، وربما أيضًا السهول الشمالية. وحين وقع فريسة الحمى لم يكن قد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره.

الفصل الثالث

غنيمة النصر

مثل الشهاب الذي يضيء في لحظة كل ما في طريقه ثم يختفي، ألقى جيش الإسكندر نظرات خاطفة على أحوال أفغانستان في أواخر القرن الرابع ق.م، لكن هذا الضوء انطفأ بعد أن انتهى زحف الجيش. وخلال الألف عام التي توالت بعد ذلك حرم التاريخ من ثروة المعلومات التي تدفقت في الفترة ما بين عامي ٣٢٩ و٣٢٧ ق.م. ومن المفارقات الغريبة، أن المعارك العنيفة التي اندلعت في باكتريا وأراكوزيا وجاندهارا ثم آريا تزايدت حدتها وكثافتها في العصور التي توالت بعد الإسكندر، لكنها كانت بعيدة عن الحضارة الوحيدة المعاصرة التي يمكنها تسجيل التاريخ. فلم يسجل الهنود أو الفرس أو السيثيان أو أولئك البدو المغيرون القادمون من آسيا الوسطى أية أحداث بتفصيلاتها، مثلما فعل العلماء الإغريق الذين ساروا على خطى هيرودوت. ولهذا فليس أمامنا إلا أن نعتمد على علماء الآثار وعلماء المسكوكات وعلماء اللغة لتتبع تاريخ تلك البلاد حتى ظهور الإسلام الذي أوجد ثقافة مدونة سادت أفغانستان بعد آلاف السنين من انتصار المقدونيين. ومثلما احتاج العرب إلى عقود طويلة ليهيمنوا على أفغانستان، كذلك استغرقت الهيلينية فترة طويلة كي تلفظ أنفاسها الأخيرة عبر مراحل متقطعة وموجعة أحيانًا.

حين كان الإسكندر على فراش الموت، التف حوله قواده يسألونه عمن سيرث إمبراطوريته، ويقال إن الملك همس لهم قائلًا: «هي للأقوى.» وإذا صحت هذه الرواية فمعناها أن الملك أنهى بنفسه سلالة الأرجيد التي كان يمثلها طفله الذي كان في رحم روكسان ولم يولد بعد، وأخوه المعاق ذهنيًّا أرهيديوس الذي كان قد تركه في مقدونيا. ومع ذلك فإن قادة مقدونيا بذلوا جهدًا خالصًا لاستمرار بقاء الإمبراطورية، ولانعدام الثقة فيما بينهم حاولوا الإبقاء على وحدتها من

خلال مساندتهم لشخص من نسل الملك بصرف النظر عن مدى ضعفه. ولذلك كان أصدقاء الملك والفرسان الذين انضم إليهم عديد من الباكتريان والمجندين من دول آسيا يريدون مناصرة ابن الإسكندر، لكن قدامى العسكريين من سلاح المشاة كانوا رافضين نزوع الملك إلى العادات الشرقية ومن ثم عارضوا فكرة أن يحكمهم ابن امرأة من البرابرة. وأخيرًا توصلوا إلى تسوية مفادها تنصيب طفل الإسكندر ملكًا وتسميته «الإسكندر الرابع» وتسمية أرهيديوس «فليب الثالث» على أن يشاركه في حكم البلاد. وقد ظل هذا الاتفاق ساريًا مدة سنتين وسط طموحات القادة التي كانت لا تهدأ، إلى أن تحققت القاعدة التي أرساها ييتس بعد ذلك: «إذا تداعى ما حول المركز فلا بد للمركز أن يتداعى.»

قتلت روكسان زوجة الإسكندر الأولى زوجته الثانية — ابنة داريوس الثالث — وقتلت هي بدورها مع طفلها الإسكندر الرابع الذي كان في الحادية عشرة من عمره على يد كاسندر — ابن أنيتباتير الذي كان حاكمًا لمقدونيا. أما أم الإسكندر أوليمبيا فإليها يرجع الفضل في مقتل أرهيديوس (بالإضافة إلى آخرين) وانتهى الأمر بها أن قتلت هي أيضًا بطريقة قاسية — ربما تستحقها.

وانتهى بذلك نسل أرجيد، ومن الغريب أن الإسكندر الذي كان يتسم بالواقعية، أهمل تمامًا تحديد من يخلفه. يمكننا أن نستنتج أن اعتقاد الإسكندر بأنه إله أو ابن إله جعله لا يهتم على الإطلاق بأسرته، فيما عدا أمه. ويبدو أن الفكرة الوحيدة التي كانت في ذهنه هي تولي صديق عمره هيفاستيون العرش من بعده. وفي الواقع فإن روكسان لم تصبح حاملًا إلا بعد وفاة هيفاستيون (يمكن أن نطرح جانبًا النظريات التي تقول إن الإسكندر مات مسمومًا لو أن هيفاستيون لم يمت بنفس الأسلوب إثر حمى طويلة أصابته بعد تجرعه نبيذًا خالصًا في العام الذي سبقه.)

ولكن أن يقال إن إمبراطورية الإسكندر تهاوت بعد موته، فإن هذا يغفل حقيقة هامة، وهي أن انتصارات الإسكندر سببت امتداد العصر الكلاسيكي الإغريقي ليشمل عصرًا هيلينيًّا طويلًا صمدت خلاله القيم الإغريقية لمئات السنين، عبر حضارات قديمة امتدت من الهند وحتى مصر. وإذا كان من المتعذر حكم هذه الأراضي الواسعة في العالم القديم بنظام أحادي، فهذا يعتبر واحدًا من سمات العصر الهيليني. فاليونان نفسها لم تستطع أن تتوحد تحت حكم ملك واحد أبدًا.

تُركت الإمبراطورية تحت سيطرة القادة المقدونيين، وبعد عشرين عامًا من السياسات الفاسدة والمعارك الممتدة تفتتت إلى ممالك متفرقة. وكان بطليموس أول المطالبين بحقه، وبصفته حاكمًا لمصر تمكن من الاستقلال بها وجعل ملكها وراثيًّا بشكل استمر إلى أن أتى عهد كليوباترا. كما قام بطليموس أيضًا باختطاف جسد الإسكندر الذي كان في طريقه إلى مقدونيا. وقام بتهريبه إلى مصر ليرقد مسجًّى هناك حيث رآه الآلاف من الزائرين. (واكتشاف جسد الإسكندر — الذي استفاد بدون شك من أسلوب التحنيط عند القدماء المصريين — ما زال أملًا أمام علماء الآثار ليكون أهم اكتشاف أثرى حديث في القرن الحادي والعشرين. ولكن لأن مربع القصور الملكية للإسكندرية القديمة ما زال غارقًا تحت المياه فمن البديهي أن يكون نائمًا هناك مع الأسماك.)

وفي بابل تمكن جنرال يدعى سيلوكوس Selucus من السيطرة على الأراضي الوسطى والشرقية من الإمبراطورية الفارسية السابقة. ولا يكاد اسم سيلوكوس يذكر في الروايات التاريخية حين كان الإسكندر على قيد الحياة، ولكنه عند وفاة الإسكندر كان قائدًا لفرقة «حاملي الدروع» وكان من الواضح أن نجمه قد بدأ يبزغ. وحين طلب الإسكندر من ثمانين من ضباطه أن يتزوجوا من النبيلات الفارسيات، كان اختيار سيلوكوس غريبًا بعض الشيء، فقد تزوج من أباما ابنة سبيتامينيس، ورغم أن عقد زواج الكثيرين من الإغريق انفرط بعد موت الإسكندر، فإن زواج أباما وسيلوكوس ظل قائمًا. ورغم أن مصر ومقدونيا (اليونان) كانتا تعتبران الجائزة الكبرى التي يمكن اقتطاعها من إمبراطورية الإسكندر، فإن سيلوكوس استولى على الجزء الأكبر وهو مليون ونصف مليون ميل مربع في المساحة، وثلاثون مليونًا من السكان، في مقابل ستة أو سبعة ملايين من السكان في مصر وفي شبه جزيرة البلقان.

وهذه المساحات الواسعة من الإمبراطورية التي استولى عليها سيلوكوس سببت له كثيرًا من المتاعب، فقد اضطر إلى إعادة غزو كثير من أراضيها بحيث استحق لقب سيلوكوس نيكانور الأول (المنتصر)، وكانت أولى مشكلاته هي الإبقاء على الحاميات في أفغانستان وفي الشرق، حيث إن أغلب الإغريق الذين تركهم الإسكندر هناك تمردوا على عزلتهم، كما أن القوات البالغ عددها ثلاثين ألفًا التي كانت مرابطة في باكتريا حاولت العودة إلى موطنها عام ٣٢٥

ق.م بمجرد أن سرت إشاعة عن موت الإسكندر. وعندما تأكدوا من موته فعلًا ثاروا مرة أخرى مما اضطر برديكاس Perdiccas إلى قمع هذه الثورة بعنف.

كان رد فعل سيلوكوس تشكيل حملة استعمارية ضخمة تشكلت من الفقراء أو الطموحين من أهالي المدن الإغريقية حتى يمكنه إحداث توازن مع السكان الهيلينيين في الشرق. وقد علق المؤرخ مايكل جرانت على ذلك بقوله: «كان ما حدث هو أكبر مقامرة في التاريخ القديم حتى إنها تفوقت على الحركات الاستعمارية اليونانية في العصور القديمة من ناحية حجم الأراضي التي استعمرتها. والواقع أن الإسبان فقط هم الذين تساووا معها في استعمارهم لأراضي المكسيك وبيرو — ومثل ما حدث مع أمريكا الإسبانية كانت المنطقة الشرقية مفتوحة أمام أي مغامر يريد أن يأخذ فرصته.» وقد تطورت مناطق الحاميات القديمة لتصبح مجتمعات كان الإغريق يقومون فيها بدور أسياد السكان المحليين والمدافعين عنهم.

وفي عام ٣٠٥ ق.م ظهرت قوة أخرى جديدة في شبه القارة الهندية قادها شاندرجوبتا موريا Chandragupta Maurya. فبعد ابتلاعه المدينة الإغريقية الضعيفة التي كانت هناك محاولة لإنشائها في «البنجاب حاليًّا»، زحفت الجيوش الهندية لتعبر سلسلة جبال سليمان وتهزم سيلوكوس في أراكوزيا. ومن الغريب أن كلا الجانبين بعد ذلك وصلا إلى اتفاق ودي، تبسط من خلاله الإمبراطورية الموريانية سيادتها على جنوب أفغانستان فيما قبل قندهار، وهو الذي يعادل في أهميته بالنسبة للإغريق إسكندرية أراكوزيا. وفي المقابل تسلم سيلوكوس خمسمائة فيل يمكن أن تساعده في معاركه في الغرب.

وفي عام ٣٠١ ق.م كانت حروب خلف الإسكندر من الملوك (الديادوشي) في أوجها. وفي ذلك الوقت كانت إمبراطورية الإسكندر قد انقسمت إلى خمسة أجزاء. فكان كاسندر Cassander يحكم مقدونيا واليونان، وليسيماخوس Lysimachus يحكم ثرايس، وبطليموس يحكم مصر، أما الأراضي الشرقية الممتدة من نهر الفرات حتى نهر الأوكسس فقد كانت تحت سيطرة سيلوكوس وهو في بابل. ولكن الخطر الأكبر أمامهم جميعًا كان يمثله أنتيجونوس Antigonus «ذو العين الواحدة» وابنه القوي الممتلئ بالحيوية والنشاط ديميتريوس Demetrius، وكان الاثنان يطمعان في إعادة توحيد الإمبراطورية

انطلاقًا من مكان مملكتهما القائمة في آسيا الصغرى وسوريا. وفي معركة إيبسوس اتحد سيلوكوس وليسيماخوس ضد أنتيجونوس. وكانت القوتان متعادلتين، تضم كل واحدة منهما ٧٥٠٠٠ مقاتل، لكن أفيال سيلوكوس هي التي أنهت المعركة لصالحه، فقد هاجمت الأفيال كتيبة الجيش ووطئت فرسانه. وبعد مطاردة لمسافة ميل كان جيش أنتيجونوس قد تقلص إلى ثمانية آلاف جندي.

غير أن الستار لم يسدل عن حروب «الديادوتشي» إلا بعد عشرين عامًا حين تقابل سيلوكوس مع ليسيماخوس في معركة كوروبيديون في آسيا الصغرى. والتقى المحاربان الكهلان بعد أن تجاوز عمرهما ثمانين عامًا، ليتصارعا وجهًا لوجه أمام جنودهما الذين وقفوا يرقبون المعركة في فضول. وانتهى الصراع بمقتل ليسيماخوس، وهزيمة قواته. وفي غضون عام توفي سيلوكوس أيضًا. وبموت آخر الورثة انقسمت إمبراطورية الإسكندر إلى ثلاثة أقسام: المملكة اليونانية تحت حكم نسل أنتيجونوس (مرة أخرى) ومصر تحت حكم البطالسة، والشرق تحت سيادة أبناء سيلوكوس. أما آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين فلعقود طويلة ظلت مسرحًا للمعارك يحكمها «الأقوى»، تمامًا كما أراد الإسكندر.

وفي أفغانستان استمرت الإمبراطورية الموريانية في التوسع بعد أن استولت على مناطق قندهار وغزنة وكابول وامتدت توسعاتها حتى سفوح الهندوكوش. وقد خلف شاندراجوبتا ابنه القوي بندوسارا Bindusara، وقام الموريان — وهم المحاربون من الهنود البراهمة — بمد سيطرتهم عبر أغلب شبه القارة الهندية، وفي عام ٢٦٨ ق.م ورث العرش أسوكا Asoka ابن بندوسارا وكان ما زال فتى مراهقًا، ولكنه استمر في الاستيلاء على أراض جديدة، لكنه بعد حصار مرعب نصبه حول مدينة كالينجا (أوريسا حاليًّا في الجنوب الشرقي من الهند) قتل فيه جيشه مائة ألف إنسان وشرد مائة وخمسين ألفًا آخرين وقع أسوكا فريسة هزة نفسية عنيفة، فقد استولت عليه حالة من القلق النفسي من جراء المذابح التي تسبب فيها فاعتنق مذهب البوذية.

ولأنه كان ذا شخصية تتسم بالقوة والحيوية، فقد مضى ينشر فلسفته الداعية إلى احترام جميع مظاهر الحياة بنفس القوة التي كان يدعو بها إلى معاركه الحربية، فنقش بعض التعاليم التي أطلق عليها «أعمدة الفضيلة»

على الأحجار في كل أنحاء إمبراطوريته وبلغات مختلفة هي السنسكريتية، والفارسية والإغريقية، وقد وجد البعض منها في أفغانستان. واستنادًا إلى ما يقوله لويس دوبريه Louis Dupree فقد وجد أحد هذه الأعمدة وعليه حروف إغريقية عام ١٩٥٨م في موقع معد للبناء في قندهار. وكان العمال على وشك تدميره لاعتقادهم بأن الكلمات التي حفرت عليه كلمات إنجليزية تمجد انتصارات البريطانيين في القرن التاسع عشر، لكن أحد مديري المدارس المحلية قام بإبلاغ مدير الجمعية التاريخية في أفغانستان.

واليوم يتذكر العالم أسوكا كأول نبي عظيم للبوذية يستخدم وسائل تعليمية لينشر رسالة كانت في السابق تنتقل شفاهة، وبعد وفاته عام ٢٣٢ ق.م بدأت الإمبراطورية الموريانية في الانهيار حيث إن البحث عن السلام الداخلي لا يتوافق مع ضرورة الدعوة المستمرة إلى الحرب.

بدأت مملكة السيلوكيد تفقد سيطرتها على الأراضي الشرقية حوالي ٢٥٠ ق.م، بسبب حادثتين مترابطتين: الأولى أن البارثيانيين — وهم شعب يسكن السهول وذوي قربى بالسيثيانيين — بدءوا في التدفق جنوبًا من موطنهم الأصلي شرق بحر قزوين. والثانية أن ديودوروس حاكم باكتريا، بدافع من عصر طويل من العداء لآل سيلوكوس والغزو البارثياني، بدأ يؤكد استقلال المملكة الإغريقية الباكترييانية — التي أصبحت حقيقة تحت حكم ابنه ديودوروس الثاني.

ويمكن لنا أن نتخيل أن الغزو البارثياني لم يكن في البداية حملة منظمة ولكنه كان مجرد حشد من محاربي السهول يشقون طريقهم سنة بعد أخرى خلال جسد الإمبراطورية الفارسية القديمة، وبعد أن يستولون على مدينة ما ويمتصون كل مواردها، كانوا ينتقلون إلى مدينة أخرى. لكنه مع تزايد قوتهم نتيجة فرضهم الجزية وإخضاع الشعوب التي يحتلونها في طريقهم إلى الثروة الهائلة في بلاد الرافدين، بدأت الهجرة المسلحة تتخذ شكل غزو منظم. لكن بالنسبة للباكتريانيين كان خطر البارثيانيين عليهم عظيمًا منذ البداية. فالطرق الملكية القديمة التي كانت تربط بلادهم بالغرب امتلأت بحشود تسعى وراء نهب الغنائم. لكن مملكة السيلوكيد — التي ظلت عقدًا كاملًا من الزمن منقسمة على نفسها نتيجة التنازع حول وراثة الحكم — لم يكن في مقدورها أن تبسط نفوذها على الشرق، فقد كان من المتعذر مرور التعزيزات والبضائع

وحتى الخطابات، وفي نفس الوقت كان الإغريق المحاصرون بالأعداء في باكتريا من كل جانب، على غير استعداد لتلبية مطالب السيلوكيد التافهة.

وهكذا ولدت مملكة الإغريق — الباكتريانية وهي دولة مميزة عجيبة استمرت في أفغانستان مدة ثلاثة قرون في عزلة تامة عن بقية العالم الهلينستي. ولم يُضع يوثيديموس Euthydemus خليفة ديودوروس الثاني وقتًا حتى بدأ في تطبيق سياسته الخارجية، فبدأ أولًا بالهجوم غربًا على البارثيانيين واستعاد هرات (الإسكندرية-آريا) ثم أرسل حملة تأديبية إلى الشمال اخترقت الأراضي السيثيانية لتعبر نهر ياكسارتس ثم تستأنف مسيرتها حتى مقاطعة زيانجنج في الصين.

ومع ذلك لم ينته السيلوكيد تمامًا، ففي عام ٢٠٩ ق.م جاء الملك أنتيوخوس الثالث Antiocus III وكان شابًا شجاعًا فاكتسح إمبراطورية البارثيان الناشئة وبدأ في السير على خطى الإسكندر في الشرق، فاجتاح آريا، وأراكوزيا وتسلق جبال الهندوكوش إلى أن وصل إلى باكتريا. لكن أنتيوخوس التقى بيوثيديمس وأمكن من خلال هذا اللقاء التوصل إلى تسوية نزعت فتيل الحرب بين الباكتريان الإغريق بقوة فرسانهم والمملكة الأم، فقد اتفق الملكان على إقامة دفاع مشترك عن الهيلينية ضد جميع أعدائها الجدد، وعلى أن يمارس كل منهما ضغطًا على البارثيانيين إذا ما احتاج الطرف الآخر إلى ذلك. وحقيقة الأمر توضح أن أنتيوخوس قد رأى بعد عبور أراضيه الشرقية أن اتساعها سيمثل له عبئًا إذا ما حاول أن يحكمها من عاصمته الجديدة سيلوسيا في شمال بابل، ولذلك فقد استدار نحو الغرب تاركًا المملكة اليونانية الباكتريانية دون أن يقترب منها، في حين بدأ البارثيانيون في الإطباق عليه من الخلف بعد ذلك. وفي الغرب كان لجهود أنتيوخوس تأثيرها الفعال، فعام ٢٠٠ ق.م تمكن من انتزاع فلسطين من أيدي البطالسة المصريين، وفي عام ١٩٦ ق.م اتجه إلى أوروبا عازمًا على غزو اليونان.

قبل ذلك بسنوات قليلة كانت روما القوة الناشئة الجديدة في البحر المتوسط قد انتصرت على فيليب الخامس ملك مقدونيا. وأثناء الاحتفالات بالألعاب الأوليمبية التي جرت بعد ذلك أعلنت للجماهير المحتشدة إعادة نظام المدن الإغريقية المستقلة. وكرد على الغزو الذي قام به أنتيوخوس، أرسلت روما حملة أخرى بعد أن أثار غضبها أن القائد القرطاجي هانيبال

Hannibal أصبح المستشار العسكري لأنتيوخوس، وانتصر الرومان على جيش السيلوكيد في معركة ترموبيلاي عام ١٩١ ق.م، ثم طاردوه حتى سوريا. وفي معركة ماجنيسيا في العام التالي واجه أربعون ألفًا من المحاربين بقيادة سيبيو أفريكانوس Scipio Africanus — الذي انتصر على هانيبال في معركة زاما — جيش أنتيوخوس المكون من ثمانين ألف محارب. وكان السيلوكيد ما زالوا يستخدمون الأفيال في معاركهم منذ حصولهم عليها من الموريانيين، لكنه في وسط المعركة فرت الأفيال مذعورة أمام الفرسان الرومانيين ووطئت قوات السيلوكيد تحت أقدامها. وهنا هجم مشاة الرومان خلال ثغرات جيش العدو ليهزموهم شر هزيمة، وكجزء من شروط اتفاقية السلام التي عقدت بعد ذلك طالب الرومان بتسليم هانيبال، لكنه تمكن من الفرار ليصبح بعد ذلك هدفًا لمطاردة لا تهدأ أو تلين من قبل الرومان عبر بحر إيجة.

وحين لفظت مملكة السيلوكيد أنفاسها الأخيرة أصبحت المملكة الباكتريانية اليونانية أكثر استقلالًا من ذي قبل. ومع ذلك فإن تلك الولاية التي زرعت في الغرب لم تركن إلى الخمول. فقد اجتاح ديميتريوس الأول، ابن يوثيديموس؛ أراكوزيا مرة ثانية، وبذلك أصبحت كل أفغانستان الحديثة تحت حكم اليونانيين. ثم انتهز ديميتريوس تفكك الإمبراطورية الموريانية وعبر ممر خيبر ليستولي على قندهار. وفي عقود لاحقة عبر الإغريق نهر السند، واستمروا في مسيرتهم حتى وصلوا إلى عاصمة الموريان التي تسمى اليوم باتنا وتقع شرق الهند على ضفاف نهر الجانج. ثم سيطرت المملكة الباكتريانية اليونانية على المناطق من ميرف (في تركمانستان حاليًّا) إلى أفغانستان ومنها إلى تاكسيلا شرق نهر السند. لكن تركيز هذه المملكة كان يتجه شيئًا فشيئًا نحو الهند وقائدها العظيم ميناندر Menander الذي أصبح ملكًا عام ١٥٥ ق.م، والذي خلده البوذيون تحت اسم (ميليندا Milinda) ودونوا سلسلة من الحوارات التي أجراها مع أحد حكماء بوذا. ويعد ظهور ميناندر في الأدب الشرقي أمرًا جديرًا بالذكر لأن تاريخ المملكة الباكتريانية اليونانية مسجل فقط في العملات التي عثر على الآلاف منها في أفغانستان. والمفارقة هنا تكمن في أن هذه النقود تركت لنا تسجيلًا مصورًا للملوك الباكتريانيين الإغريقيين يماثل تمامًا الصور الحديثة. ولكن حين اختفى الإغريق من أفغانستان لم يخلفوا شيئًا وراءهم.

وفي بقية أنحاء العالم، كانت أحداث أخرى كبيرة تتوالى، فعام ١٦٨ ق.م سحقت روما أخيرًا قوة المقدونيين في معركة بيدنا. والعجيب أن الرومان قد تشربوا الثقافة الهيلينستية التي أصبحوا يسيطرون عليها، بل إنهم في الواقع لبسوا عباءة الإسكندر في نشر القيم والثقافة الإغريقية في أنحاء العالم. وبدرجة أقل استولى البارثيانيون على بقايا المملكة السيلوكيدية واحتلوا بابل. وأصبحت إمبراطوريتهم — التي بلغ اتساعها نصف مليون ميل مربع والتي تمتد من بلاد الرافدين إلى أفغانستان — هي المنافس الوحيد لقوة الرومان في ذلك الوقت. وفي منتصف القرن الأول ق.م طغت شهرة ثلاثة مواطنين من الرومان على الجمهورية الرومانية، كان أولهم بومباي العظيم Pompey the Great الذي وجه الضربة القاضية إلى شجرة المملكة السيلوكيدية في سوريا عام ٦٨ ق.م، وبعدها بسنوات وضع يوليوس قيصر Julius Caesar النهاية لحكم البطالسة في مصر، رغم إغراءات ملكتها كليوباترا السابعة Cleopatra VII التي حاولت استغلال أنوثتها في التأثير عليه وعلى مارك أنطونيو Marc Antony لتبقي حكم الإغريق. وفي عام ٥٣ ق.م زحف كراسوس Crassus — وهو الشخصية الثالثة في هذا الثالوث الذي كان يتطلع بشدة إلى نصر عسكري إلى جانب ثروته الطائلة — إلى بارثيا، لكن جيشه دُمر تمامًا في معركة كارهاي.

كان البارثيانيون يتبعون أسلوب حرب تقليدي يمارسه سكان السهول، فقد كان جيشهم يتكون من حملة السهام الراكبين، مع بعض التشكيلات المسلحة بالرماح الطويلة التي كانوا يستخدمونها ببراعة (والتي سيستخدمها الفرسان الأوروبيون لاحقًا). وضعت معركة كارهاي النهاية لتفوق التكتيكات الحربية المنظمة لفرق المشاة والتي استخدمها اليونانيون في معارك المواجهة المباشرة لأكثر من خمسة قرون وأتقنوها ونقلوها إلى العالم كله. استُدرج كراسوس إلى أراض قاسية جدباء، أحاط بها خيالة مراوغون برزوا على حين غرة وأخذوا يمطرون قواته بالسهام من كل جانب. حاول ابن كراسوس ومعه فرقة من النخبة المدربة جيدًا قوامها ألف وثلاثمائة مقاتل من الفرسان والقوات الخفيفة أن يَنْفُذ خلال هذه الدائرة الجهنمية، ولكن بدلًا من ذلك حوصر على الجبل وعندما أرسل يطلب النجدة — كان كراسوس على وشك الإسراع إليه — لكنه فوجئ ببعض المحاربين البارثيانيين يتجهون إليه وهم يلوحون برأس ابنه على أسنة الرماح. اهتزت أعصاب كراسوس بشدة ولم يدر

ماذا يفعل، فعرض عليه الملك البارثياني اللقاء والتفاوض، وتردد كراسوس، لكنه تحت ضغط مشاعر التمرد التي بدأت تسري بين قواته اضطر إلى قبول الدعوة. وفي ذلك اللقاء، قتل كراسوس وجميع من حضر معه وانهار الجيش بعد ذلك.

ورغم أنه كان من الممكن أن يجد قيصر أو بومباي حلًّا لهذه السلسة من المآزق التكتيكية التي واجهها كراسوس في كارهاي، فإن هذه الهزيمة عززت موقع بارثيا كسد منيع قوي بين روما والشرق. وفي الواقع، بعد تأمين الحدود الغربية عاد البارثيانيون إلى الشرق — إلى أفغانستان. وكما يقول كارو: «كانت معركة كارهاي واحدة من المعارك الفاصلة في العالم، وقد انتصر فيها رجال عاش أحفادهم بعد ذلك على الحدود الشمالية الغربية.» وكانت نتيجة هذه المعركة نذير شر للسكان المقيمين في كل مكان، حيث كان البارثيانيون أول جماعات البدو الرحل ممن يقطنون السهول الذين يحاربون بالخيل والرماح والذين تمكنوا من تشييد إمبراطوريات في العالم المتحضر — ولسوف يلحق الكثيرون بهم بعد ذلك.

في ذلك الوقت، لم يكن الباكتريانيون الإغريق أو الرومان أو حتى الهنود يعلمون أن هناك حربًا شرسة تدور رحاها في المناطق التي تعرف اليوم بأسماء سيبيريا، ومنغوليا في شمال غرب الصين. ففي نهاية القرن الثاني ق.م حدث اتفاق بين قبائل البدو الذين يسكنون سهول آسيا الوسطى على أن يتجهوا إلى الجنوب الغربي صوب أفغانستان. كان الصينيون يطلقون على هؤلاء الشعوب اسم يو-تشي ولكن الغرب عرفهم باسم الكوشان، وهو اسم أكبر قبيلة من القبائل الخمس المكونة لهذا التحالف. قد يكون انتقالهم راجعًا إلى طبيعة الجو في الشمال — سواء بسبب القحط أو قسوة الشتاء — أو ربما كان ذلك راجعًا إلى بناء الصينيين للسور العظيم الذي بدأ إنشاؤه عام ٢١٤ ق.م، والذي أصبح بعد ذلك من أعجب ما شيد الإنسان على ظهر الأرض. لكن هذا البناء في ذاك الوقت تسبب في خلق مشكلة كبرى لدى البدو، حيث تدفق مئات الآلاف من العمال والجنود الذين ينتمون إلى أسرة هان الحاكمة إلى المناطق الحدودية في مهمة قومية هدفها إجلاء البرابرة عن هذه الأرض. وكان من نتيجة هذا أن تضاءلت فرص النهب والسرقة التي كانت متاحة للبدو من قبل، وازدحمت الأراضي الرعوية التي يعيشون عليها،

مما نتج عنه حدوث نزاعات بين أفراد القبيلة الواحدة ومن ثم كانت هجرة الكوشان.

واحد من الآثار التي وقعت على أفغانستان جراء هذا الأمر، هو أن قبائل السيثيان (تسمى بالفارسية ساكا أو ساكاي)، التي ظلت لقرون عدة تقض مضاجع حكام المجتمعات المتحضرة، تدفقت بكثرة عابرة نهري ياكسارتس وأوكسس. في البداية اتجهوا غربًا، لكن بني أعمامهم من البارثيان، الذين كانوا قد أصبحوا قوة لا يستهان بها، تصدوا لهم بحزم. غيّر الكثيرون منهم خط سيرهم فاتجهوا جنوبًا نحو آريا حتى وصلوا إلى درانجيانا التي أسموها ساكاستان (تسمى اليوم سيستان)، ثم بعد ذلك عبروا قندهار التي تقع في جنوب أفغانستان حتى وصلوا إلى الهند. أما من تبقى من السيثيان فقد عبروا نهر الأوكسس متجهين صوب شمال أفغانستان، مكتسحين في طريقهم المملكة الباكتريانية الإغريقية.

لا تشير المسكوكات القديمة إلى تلك المعارك الضارية التي خاضها الإغريق ضد البدو الرحل من السيثيانيين، الذين لم يعد هدفهم من القتال مجرد الإغارة والسلب بل كانوا يستميتون في الحصول على النصر، وكانوا يصطحبون معهم نساءهم وأطفالهم وكل متعلقاتهم إلى ساحة المعركة. الواقع أنه من الصعب تحديد أعدادهم وكذلك أقسام جيوشهم. ونتساءل هنا هل هب المواطنون الباكتريانيون لمناصرة الطبقة الحاكمة اليونانية؟ وهل وجد السيثيانيون عونًا من رفاقهم الذين يتحدثون الإيرانية مثلهم والذين كانوا يعيشون كمواطنين من الدرجة الثانية في بلادهم، بحيث كانوا على أتم استعداد للمساعدة في تطهير أرضهم من الهيلينيين؟ ففي مملكة السيلوكيد لم يقدر لحلم الإسكندر بصياغة ثقافة مشتركة بين الشرق والغرب، الاستمرارية بعد موته، حيث عاد خلفاؤه من المقدونيين والإغريق إلى عاداتهم التقليدية في الملبس والعادات واضعين حدًّا فاصلًا بين الغزاة ومن تم غزوهم. أما في مملكة الباكتريان الإغريقية فلنا أن نتساءل هل كان الهيلينيون يعاملون المواطنين كعبيد؟ أم اندمج العنصران معًا؟ ولأن مملكة الباكتريان الإغريق دمرت تمامًا دون أن تترك أي سجلات مكتوبة، فمن الصعب أن نعثر على الإجابة.

بعد حكم ميناندر الرشيد للباكتريان الإغريق، أو بدقة أكثر بعد أن تحول مركز الجاذبية إلى مملكة الإغريق-الهندية، انقسم الهيلينيون إلى شراذم متفرقة

في حركة تزايدت مع هجوم السيثيانيين عليهم من كل جانب، إلى الحد الذي ظهرت فيه أسماء أربعين من الملوك على العملات النقدية في فترة لم تتجاوز السبعة عشر عامًا. ومع هذا، وكما تتقلص العضلات في الجسد الجريح، استمر الإغريق في القتال، وتمكن أحد حكامهم ويدعى أمينتاس Amyntas — من المحتمل أن يكون من إسكندرية القوقاز — من هزيمة شعوب المنطقة الممتدة من كابول الحديثة إلى غزنة. وقد كان الاسم الذي اختاره هذا الملك ليتم سكه على العملات النقدية أمينتاس نيكانور. بعد ذلك بسنوات تمكن السيثيانيون الذين كانوا قد انتصروا على السند — من الهجوم شمالًا ليجتاحوا الولايات اليونانية في الهند. وكان آخر من عرف من ملوك الباكتريانيين الإغريق هو هرمايوس Hermaeus الذي خلف والده أمينتاس عام ٤٠ ق.م، وحاول في وقت ما مواصلة القتال تجاه نهر السند مرورًا بوادي نهر كابول، ولكنه كان آخر من حكم هذه الدول التي لفظت أنفاسها الأخيرة بعد ذلك، وبعد سنوات قليلة توقفت السجلات التي تؤرخ لعلم المسكوكات اليونانية القديمة فجأة. أما القطع النقدية التي عرفت بعد ذلك فقد كانت تحمل صور الملوك السيثيانيين.

وبذلك، فبينما كان القيصر أغسطس Augustus Caesar يحكم روما القوية البالغة الاتساع في الغرب، كانت المملكة الهيلينية في الشرق، التي كانت منعزلة وفريسة سهلة لمقاتلي السهول الأميين من كل جانب، تلفظ أنفاسها الأخيرة، فقد كانت كشجرة تتهاوى في الغابة، كانت مملكة معروفة لكن مصيرها كان مجهولًا غامضًا.

ولقرون ظل السؤال الحائر الذي لا ينفك يطرح نفسه: هل اكتسب اليونانيون في أفغانستان نمط الحياة الهيلينية خلال فترة حكمهم، وهل اندمجوا في الشعوب الإيرانية ليخلقوا ثقافة مهجنة لا يعرفها الغرب؟ كانت المشكلة الكبرى التي واجهها علماء الآثار في أفغانستان هو أنه خلال تاريخ المنطقة الذي يمتد لآلاف السنين كانت معظم المباني تشيد من الطوب اللبن الذي يتحلل بعد ذلك إلى مادة مترسبة، وبمجرد أن تتلاشى تلك المباني يصبح من العسير تمييز بقايا المملكة الأكامينيدية القديمة عن الكوشانية أو الغزنوية، أو حتى عن بقايا قلعة دورانية شيدت في القرن الثامن عشر. ورغمًا عن ذلك ففي بداية عام ١٩٢٢م صممت جماعة من الأثريين الفرنسيين على العثور على آثار مدينة يونانية في أفغانستان. ومن المثير للاهتمام أن جهودهم في

بلخ – التي شملت اختبار ما لا يقل عن مائة موقع حفائر – لم تسفر إلا عن العثور على بعض شظايا أثرية من أوان فخارية. وظلت مئات من بقايا المدن والقلاع والآثار في البلاد صامتة لا تفصح عن شيء. ولولا تلك العملات الأثرية لما عرف أحد أن الإغريق قد عاشوا في تلك المناطق أبدًا.

وأخيرًا في عام ١٩٦٣م وجد الفرنسيون مدينتهم المفقودة، «آي خانوم» وتعني في لغة الأوزبك «امرأة القمر» شمال شرق أفغانستان عند التقاء نهر كوكشا مع أعلى آمودريا (جيحون). وربما كانت هذه هي «الإسكندرية في أوكسس». وقد وجد الفرنسيون تحت ترسبات قرون عدة مدينة اكتملت فيها كل عناصر المدن اليونانية التقليدية من مسرح إلى جيمنازيوم (مقسم إلى جزئين للعناية بالصحة الجسمانية والعقلية)، إلى أضرحة أبطال إغريقيين، وأخيرًا معبدًا للإله زيوس. وبين الأعمدة العديدة التي شيدت على الطراز الكورنثي، وبقايا بعض التماثيل المحطمة أو التي لم يكتمل بناؤها؛ عُثر على كتابات مقتبسة من تعاليم كهنة معبد دلفي في اليونان كتب فيها: «في الطفولة: الجاذبية، وفي الشباب: ضبط النفس، وفي منتصف العمر: العدالة، وفي الشيخوخة: الحكمة، وفي الموت: نهاية الألم.»

كما وجد الأثريون أيضًا دلائل واضحة تشير إلى أن هذه المدينة قد دمرتها النيران في القرن الثاني ق.م ويمكن أن نستنتج أن بعض بقايا الرماد تمثل مخطوطات سجل عليها تاريخ المدينة – إن لم يكن تاريخ المملكة الباكتريانية الإغريقية بأكملها – والتهمتها النيران بينما كانت المدينة تتهاوى. ومع ذلك، فإن اكتشاف مدينة في أفغانستان تماثل أثينا، يعتبر خطوة كبيرة تثبت أن أولئك الذين صاحبوا الإسكندر في غزواته ظلوا يونانيين حتى آخر لحظة. وفي عام ٢٠٠٠م طُمست معالم هذا الموقع الأثري تمامًا بواسطة جرافات حركة طالبان.

غير أن هناك آثارًا أخرى تركها الإغريق في هذه البلاد، فحتى يومنا هذا هناك جماعات قديمة، يتميز أفرادها بشعورهم الشقراء وعيونهم ذوات اللون الأزرق أو الأخضر، تعيش في وديان جبال شمال شرق أفغانستان النائية. وحتى نهاية القرن التاسع عشر كانت هذه الشعوب تعتنق ديانة تؤمن بتعدد الآلهة وهي ديانة لا تختلف كثيرًا عن المعتقدات الأسطورية اليونانية التي يمكن أن تكون قد تطورت خلال عزلتها عبر آلاف السنين. من المرجح بنسبة كبيرة أن هؤلاء الناس ينحدرون من نسل رجال الإسكندر، لكن لغتهم تنطوي

على مفردات تنتمي إلى أصول تسبق زمنيًّا اللغات الآريانية الهندية، مما يؤدي بالعلماء المعاصرين إلى الاعتقاد بأنهم قد يكونون من سكان البلاد الأصليين القدماء الذين عاشوا بعيدًا عن العالم، إلى الدرجة التي غفلوا فيها عن موجات الهجرة إلى أوروبا التي حدثت في عصور ما قبل التاريخ. لكننا إذا ربطنا حلًّا ما بلغز من ألغاز التاريخ فهذا لا يقودنا بالضرورة إلى الحقيقة، ولكن أحيانًا يقودنا حدسنا إلى مجموعة من العوامل التي قد تشكل حلًّا.

من المعلوم أنه في وقت ما زال حكم الإغريق لأفغانستان، وربما لم تكن القبائل البدوية فقط هي التي أزالت حكمهم، بل ربما ساهم المواطنون المحليون في ذلك من خلال ثوراتهم على الحكام. واضطر الإغريق حينها إلى الفرار نتيجة لذلك واللجوء إلى المناطق النائية في البلاد، خاصة إذا كان ساكنو وديان الجبال شعوبًا لا تختلف عنهم كثيرًا. ولكن ليس من السهل تصور أن يحاول هؤلاء الفارون المذعورون أن يزرعوا ثقافتهم الهيلينية في شعوب هذه المنطقة، بل الأصح أن يحاولوا هم أن يمتزجوا بمواطني هذه البلاد. ويمكننا أيضًا أن نتخيل آباء هؤلاء اللاجئين الفارين من المقاتلين الأفغان وهم يتركون صغارهم في هذه الوديان المخبأة بحثًا عن الأمان.

وحتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت هذه المناطق النائية تدعى «كافيريستان» بسبب ديانتها الملحدة. ولكن بعد أن تحولت شعوبها إلى الإسلام بالقوة، أصبحت المنطقة تعرف باسم نوريستان أو «أرض النور». وليس من المستبعد أن تكون سلالة المملكة الباكتريانية الإغريقية أو سلالة الإسكندر قد استوطنت هذه المناطق.

عبر قرن كامل من الزمان، سيطر السيثيانيون على معظم أراضي أفغانستان حاليًا وأغلب أراضي باكستان. وفي القرن الخامس الميلادي — بعد أن أحبطوا كل طموحات الرومان في التوسع إلى ما بعد نهر الفرات، قام البارثيانيون بإرسال جيوشهم شرقًا لتأكيد سطوتهم على السيثيانيين. ولا داعي لأن نتصور معارك ضارية جرت بين هذين الشعبين قريبي الصلة بعضهما ببعض، أو أن نتخيل سلسلة من المعارك كالتي فرضت، كما هو واضح، على الإغريق. بل العكس هو الصحيح، إذ إن هؤلاء البارثيانيين، محدثي النعمة، قدموا إليهم بكل قوتهم، وتحت قيادة مليكهم المقاتل ميثريداتيس الثاني Mithridates II

ليبسط حكمه على أقاربه الأقل حظًّا. فترك النبلاء السيثيانيون في مواقعهم، بل إنهم احتفظوا باستقلاليتهم في المناطق الجنوبية الشرقية والتي لم يُعنَ البارثيانيون بالذهاب إليها. وبذلك اتجه البارثيانيون إلى جنوب الهندوكوش بدلًا من الشمال — الذي كانت دفاعاته قليلة — حيث بدأ الكوشان يمارسون ضغوطًا على الحدود البارثيانية.

كان لغزو السيثيانيين، بتعزيز من البارثيانيين، نتائج بعيدة المدى، فقد كانت قبائل السيثيان — منذ بداية كتابة هيرودوت لتاريخ العالم — تشكل التهديد الأقوى للبلاد المتحضرة التي تقع جنوبهم، لكنهم أخيرًا طردوا من المناطق البدوية الشاسعة بفعل قوة ضخمة اجتاحت سهول آسيا الوسطى. وفي القرن الثاني قبل الميلاد، اختفى السيثيانيون من ملعب الأحداث، والأرجح أن بقايا قبائلهم تتناثر حاليًّا وسط المجتمعات المقيمة في شرق أوروبا وأوكرانيا، أو ربما تكون قد تلاشت ضمن الاكتساح العظيم لقبائل البدو الرحل مثل قبائل الهون التي جاءت بعد ذلك. أما السيثيان الشرقيون فقد تلاشوا تمامًا بعد أن تدفقوا في مجموعات هائلة على أفغانستان والهند، لكن السيثيانيين أنفسهم لم يختفوا. ففي ذلك الوقت بدأت مجموعة عرقية جديدة تتشكل داخل أفغانستان جنوب الهندوكوش، وأيضًا في باكستان حاليًّا عبر سلسلة جبال سليمان أو الجبال البيضاء؛ تضم رجالًا شديدي النحول، ذوي عيون سوداء وذقون كثيفة الشعر، محاربين أشداء يسيطر عليهم حب الحرية الشخصية، ويتكلمون بلغة تنتمي إلى مجموعة اللغات الإيرانية القديمة، وإن كان قد تسلل إليها عبر القرون تأثير من بعض لغات الهند وبعض من لمحات الفارسية القديمة والآرامية واليونانية. وقد تشربت هذه المجموعة العرقية ثقافة الأهالي الوطنيين في نفس الوقت الذي غرست ثقافتها الخاصة في الثقافة المحلية بقدر أكبر، وهذه الشعوب تعرف حاليًّا باسم البشتون.

أسس ميثريداتيس عاصمته الشرقية في تاكسيلا بالقرب من نهر السند، لكن حكم البارثيانيين لهذه المنطقة كان قصيرًا، فعام ٣٠ ق.م بدأ الكوشان في التقدم نحو نهر الأوكسس، ومع تزايد أعدادهم هجموا على ممرات الهندكوش. وفي عام ٦٠ بعد الميلاد أمكنهم الاستحواذ على وادي كابول بأكمله. وحين أغارت قبائل الكوشان بكل قوتها حلت محل البارثيانيين والسيثيانيين، ودمرت

تاكسيلا عام ٧٥ ميلادية، وتقلص الحكم البارثياني في أفغانستان لينحصر في المناطق المزدهرة في الغرب. وامتصت القوة الجديدة الصاعدة القبائل والمحاربين الذين كانوا يعيشون في المنطقة.

وليس من المعروف على وجه الدقة الأصل العرقي للكوشان فيما عدا أنهم من القوقاز، ومن المحتمل أنهم كانوا يتحدثون اللغة الإيرانية. أما التأثير التركي على لغة البشتو (وهي لغة قبائل البشتون التي تنتمي إلى مجموعة اللغات الإيرانية) فهو لم يحدث إلا بعد ذلك بقرون. وبذلك — فيما عدا الغزو الإغريقي الذي قدم من أوروبا، والحكم القصير للإمبراطورية الهندية الموريانية — يمكن القول بأن أغلب الشعوب التي تدفقت، وهي الساكا والبارثيانيون والكوشانيون؛ يمكن أن يندرجوا تحت مسمى الشعب السيثياني: وهم الهنود الآريون القادمون من السهول والذين يتحدثون لغة ليست هي الإيرانية ولكن ذات علاقة وثيقة بها شكلًا وثقافة. أما الشعوب المقيمة حول الوديان الخصبة في أفغانستان فقد كانت تحاول أن تتفاعل مع هذه الحشود الجديدة في نفس الوقت الذي تحافظ فيه على نمط حياتها العادية. وبين الجبال، كان من الممكن أن يراقب البدو الرحل هذه التحركات دون أن يتعرضوا للغزو، وإن لم يكن لديهم مانع من المشاركة في أي تحالف يعود عليهم بالفائدة. ولم يكن لدى الكوشان لغة مكتوبة أو موروثات ثقافية جامدة يفرضونها على المنطقة، ومثل أسلافهم من البدو الرحل، كانوا متسامحين في مسألة العادات المحلية والدين.

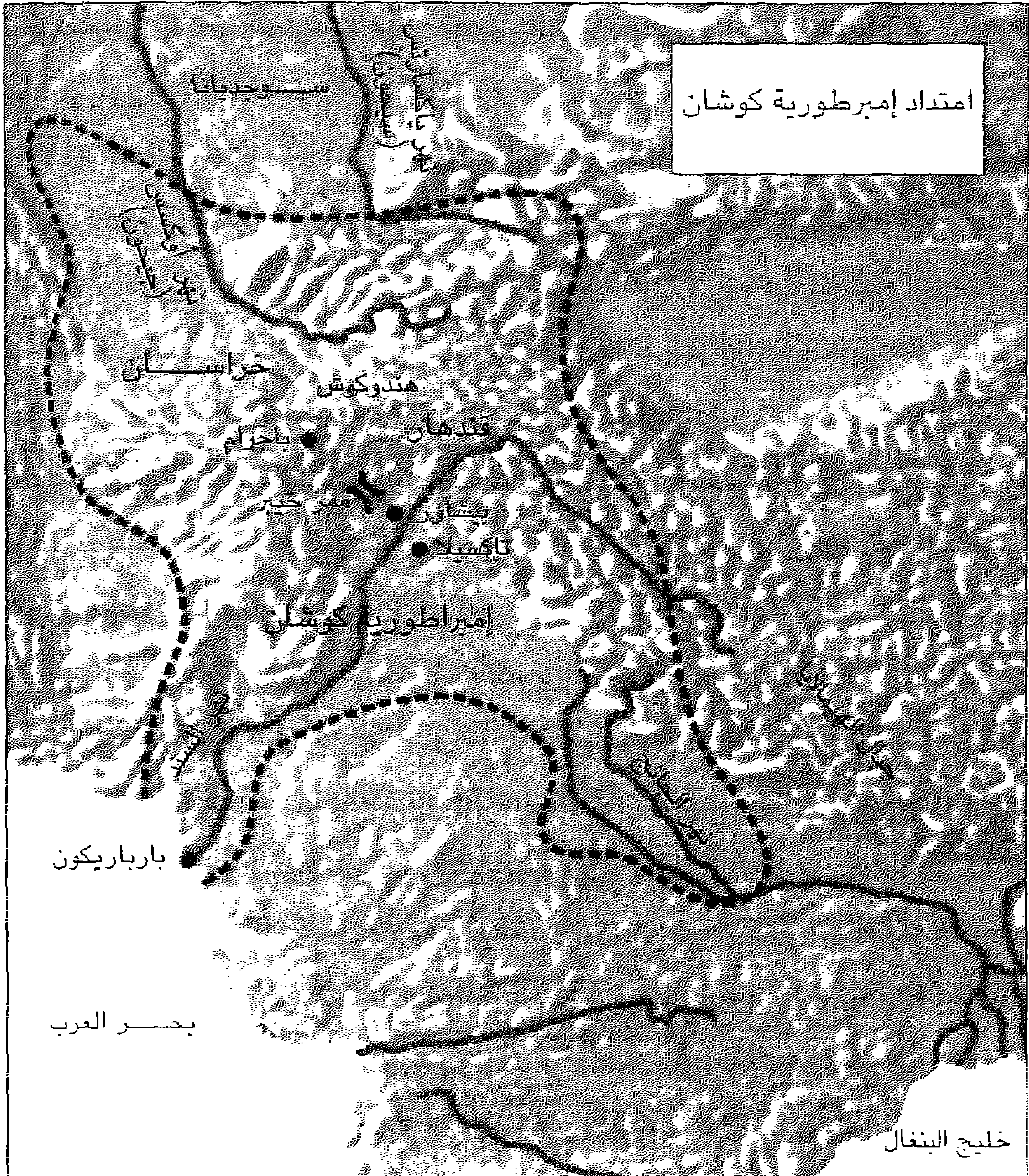
أما بالنسبة لتأثيرهم الجيوبوليتيكي فقد كان هائلًا، فمدة قرنين من الزمان، كان البارثيانيون يقفون كسد منيع على الحد الشرقي للإمبراطورية الرومانية، عازلين بذلك ليس فقط مملكة الباكتريان الإغريقية ولكن الهند والصين أيضًا من الجنوب. ولكنهم حين بدءوا يفقدون قوتهم العسكرية تدريجيًّا، وحين بدأت إمبراطوريتهم تضمحل معنويًّا وتتمركز فقط في بلاد الرافدين، بدأت إمبراطورية الكوشان المتقدة الحيوية تتسع من بحر قزوين إلى بحر العرب لتصل إلى الهند، ومع ممارستها ضغوطًا إرهابية على الجناح الشرقي للبارثيانيين، فتحت طرقًا بحرية وبرية للتجارة إلى روما. وفي ذلك الوقت كان الطريق الحريري من الصين قد بدأ يتشكل مارًّا بالأراضي الكوشانية شمال الهندوكوش. ومن الممكن تصور القوافل التي كانت تتجه بعيدًا نحو الجنوب تحت حماية الكوشانيين في الوقت الذي كان فيه البارثيانيون عازفين

أو غير قادرين على التدخل حتى تصل البضائع إلى قبضة المقاطعات الشرقية الآمنة في أوروبا.

وفي حوالي عام ١٢٥م جلس كانيشكا Kanishka على عرش الكوشان وبدأ في تغيير الكثير في خريطة العالم. كان رجلًا عسكريًّا متميزًا فضم إلى مملكته أراضي من وادي نهر الجانج، ومن الأراضي البارثيانية في الغرب. وكانت العاصمة المركزية لإمبراطوريته تقع بالقرب من بيشاور على الجانب الباكستاني من ممر خيبر، أما عاصمته الصيفية فكانت في باجرام التي تأسست في موقع كابيش كانيش القديمة، والتي أصبحت فيما بعد إسكندرية القوقاز، في حين كانت العاصمة الشتوية مدينة ماثورا في الهند. وقد قام كانيشكا بتعزيز طريق التجارة البري الذي يربط بين روما والصين، والطريق البحري الذي يربطها بالهند من خلال الإسكندرية في مصر.

سار كانيشكا على درب أسوكا واعتنق البوذية، ولأنه كان رجلًا متنوع الثقافة ويمتلك موهبة فنية اكتسبها عندما كان يعيش في مدينة جاندهارا في وسط الإمبراطورية الكوشانية — فقد أصبح المسئول الأول عن نشر البوذية في الشرق. قبل كانيشكا كانت البوذية تتمثل في مجموعة من المفاهيم الفلسفية التأملية وبعض الرموز الدالة عليها (كان أحد هذه الرموز الصليب المعقوف). أما في عهده فقد اتخذ بوذا شكلًا آدميًّا بعد أن ساهمت الفنون الهندية والإغريقية والرومانية في تصويره. لا يزال المفهوم الأول للبوذية أو «المدرسة التقليدية» موجودًا في سري لانكا وبعض أجزاء جنوب شرق آسيا. أما «المدرسة الليبرالية» أو المهايانا كما اعتنقها كانيشكا فقد انتشرت في أفغانستان والهند واخترقت الصين لتمتد إلى اليابان.

لم تقف براعة الفنون في الإمبراطورية الكوشانية عند حد الصور المتعددة لبوذا، ففنون قندهار لا تزال حية حتى اليوم تعكس أسطورة رائعة لحضارة قوية قديمة، لكننا لسوء الحظ لا نعرف الكثير عن التاريخ السياسي والعسكري لهذه الإمبراطورية. يقول كارو في هذا الصدد: «إن عجزنا عن تتبع تاريخ الكوشان إنما هو راجع إلى أن جل تعاملاتهم وعلاقاتهم كانت مع أهل الهند، وهم أقل شعوب العالم القديم إدراكًا لأهمية التاريخ.» تشير الوثائق إلى ثلاثة ملوك خلفوا كانيشكا بعد وفاته عام ١٥٠م، لعل أشهرهم هو الملك الثالث فاسوديفا Vasudeva، وهو اسم ذو طابع هندوسي. وكعادة الأبناء في رفض



أساليب آبائهم، لم يقتنع خلفاء كانيشكا بفلسفة البوذية، فقد اتجه آخر ملوك الكوشان إلى البراهمة الهنود حيث وجد في ديانتهم قاعدة فلسفية عملية يمكن أن ترتكز عليها إمبراطوريته. لكن الوقت كان قد فات، فعام ٢٢٥م بدأ الكوشانيون في التفتت، وبدأ أولئك القوم الذين أطلق عليهم الصينيون في البداية «يو-تشي»، والذين — إن أردنا الدقة — أسميناهم السيثيانيين المحدثين، في الاختلاط والتزاوج مع السكان الذين كانوا فيما سبق محكوميهم.

لكننا لن نغالي في أسفنا لانتهاء عهد الكوشانيين، فنحن لا نعرف سوى القليل عن حكمهم لأفغانستان — ومن المحتمل أن يكون حكمًا جائرًا استبداديًّا، لكن ما لدينا من الدلائل يشير إلى ازدهار عظيم للفنون إبان

فترة تسيدهم، وانتشار لفلسفة مسالمة لا تدعم القوة العسكرية الغاشمة. بالإضافة إلى أن الكوشانيين فتحوا الأبواب أمام العالم المتسع من موقعهم الجغرافي ليتحولوا إلى قنوات حيوية تربط ما بين الشرق والغرب. وفي ذروة توهج هذه الإمبراطورية، كانت أفغانستان تطل على جميع الإمبراطوريات العظمى في العالم القديم — الفارسية، والهندية، والصينية، والرومانية الإغريقية. وكان يمكن للإمبراطورية الكوشانية أن تتبوأ مكانها وسط هذه الحضارات لكنها لم تستمر طويلًا.

إن ما تسبب في انهيار الدولة الكوشانية لم يكن له أي علاقة بالهند، فسلطتهم في الهند كانت أقوى من أن تهتز، وإنما كان الفرس في الغرب هم من تسببوا في ذلك بعد أن استعادوا قوتهم. كان البارثيانيون قد أسسوا دولة قوية استمرت أربعة قرون في المنطقة الوسطى للإمبراطورية الفارسية، لكن قوة الإمبراطورية بدأت تضمحل، وفي عام ٢٢٥م قام أحد الفرس ويدعى أرداشير Ardashir — وهو أحد أحفاد ساسان Sassan؛ بثورة وطنية، مدعيًّا أنه من سلالة الأكامنيد القدماء، ومعتنقًا ديانة النار الزارداشتية، وتمكن من الإطاحة بالملك البارثياني العجوز. بعد أن ثبت هذا الملك ملكه كان هدفه الأول هو إعادة غزو الشرق.

اجتاحت جيوش الساسانيين أفغانستان، واستمرت في تقدمها حتى وصلت إلى نهر السند الذي كان يمثل حد الإمبراطورية الفارسية. وكانت المناطق التي تقع شمال الهند وشمال الهندوكوش وحول وادي كابول ما زالت تحت حكم الكوشان المهلهل. قام الساسانيون بتعيين حكام لهذه الأراضي الجديدة من بين رجال الأقاليم الأشداء، فتجنبوا بذلك حدوث أية زعزعة مفاجئة في نمط الحياة المحلية. وكان التغير الأكبر الذي حدث في المنطقة — الذي من الممكن أن يكون قد لقي ترحيبًا لدى الأهالي الذين عاشوا لقرون طويلة حول نهر هلمند، ووادي هرات ومناطق أخرى — هو أن أفغانستان بعد قرون من الحكم اليوناني، والسيثياني والكوشاني قد عادت مرة ثانية إلى أحضان الفرس.

لكن أكبر موجة عنف تفجرت بعد قيام الإمبراطورية الساسانية كانت في الغرب وضد الرومان. وكان الرومانيون قد وعوا جيدًا الدرس، وتعلموا ألا يحاربوا في الأراضي الواسعة شرقًا ضد محاربي السهول مثل البارثيانيين،

ولذلك اكتفوا بمراقبة تدهور هذه الإمبراطورية بسعادة في ذات الوقت الذي كانوا يشاركون فيه مع الكوشان في علاقة تجارية ودية. وفي منتصف القرن الثالث، بدأت قوة الرومان تضعف قليلًا من جراء المشاكل الداخلية التي كانت تعانيها. ثم ظهر الساسانيون، وقد تشبعوا بإحساس قوي بأن القتال هو قدرهم، وبدءوا يهاجمون المقاطعات الرومانية في أرمينيا وسوريا. وردًّا على ذلك قام الإمبراطور فاليريان Valerian بالزحف شرقًا ليتقابل مع جيش الساسانيين عام ٢٦٠م في معركة إديسا جنوب تركيا الآن. وكان شابور Shapur — ابن أرداشير — قد نصب لهم كمينا بجيشه الذي كان يضم قوات ضخمة من المشاة وقوات أكبر من رماة الرماح الخيالة من محاربي السهول. وكان نتيجة هذا أن هُزم الرومانيون هزيمة نكراء، وتم أسر فاليريان — وكان أول إمبراطور يقع في الأسر — ثم مات بعد ذلك في أسره. ومرة أخرى انتهت إمكانية امتداد النفوذ الروماني إلى الشرق نهاية مأساوية.

العجيب أن اليونانيين نجحوا في الزحف بكل قوتهم عبر بلاد فارس إلى الهند، في حين أن خلفهم الرومان الأقوياء لم يتمكنوا من تحقيق ذلك. وإذا نظرنا إلى التاريخ من أبوابه الواسعة يمكننا القول إنه كان في إمكان الإسكندر أن يقوم بحملته الهيلينية الشاملة في ذلك الوقت، ففرق المشاة المدربة جيدًا، وأساليب المواجهة المباشرة التي كانت سائدة في العصور القديمة أثبتت نجاحها مع ملوك بابل وبرسيبوليس، لكن العصور اللاحقة كان التفوق العسكري فيها من نصيب محاربي آسيا الوسطي الذين تدفقوا من السهول بأعداد ضخمة بعد زحف الإسكندر. وكان في إمكانهم — ليس فقط هزيمة الشرق الأوسط بل اكتساح أوروبا أيضًا. ومن الطبيعي أن أفغانستان — بصفتها المحطة الأولى في آسيا الوسطى ومركز الثروات في حضارات العالم القديم — سوف يقدر لها أن تكون ساحة القتال لجميع هذه المعارك العنيفة.

وفي السهول العليا من آسيا الوسطى، استمر الصينيون في قتالهم المرير ضد محاربي قبائل البدو الرحل الذي استمر لقرون عديدة. وكان سور الصين العظيم — على الرغم من تكلفته الباهظة — الحل الأمثل لإبعاد البرابرة عن أراضي الشرق المتحضرة (مع أن أسرة هان نفسها كانت قد انتهت). كان أكبر تحالفات قبائل البدو هو تحالف زيونج-نو الذي يرجح أنه هو الذي طرد

الكوشان بعد حرب ضروس خاضها ضدهم، ثم لم تلبث قبائل هذا التحالف أن غادرت هي أيضًا منطقة السهول الشرقية. ورغم أن الباحثين عادة ما يرجعون أسباب الغزو أو الهجرة من آسيا الوسطى إلى صعوبة الحياة في السهول، فإنه من المحتمل أن المشكلة كانت تتمثل في رفاهية العيش، فالمناخ الجيد بالإضافة إلى عوامل إيجابية أخرى أدت إلى ازدياد في عدد السكان، أو بعبارة أخرى: انفجار سكاني. وعلاوة على هذا، اكتشف أولئك البدو كما اكتشف اليونانيون قبلهم والأوروبيون بعدهم، أن أكثر ما يكبدهم الخسائر هي تلك المعارك التي تنشب فيما بينهم، وأنهم حين يغادرون وطنهم الذي يرتبطون به لمواجهة شعوب أجنبية أخرى، كانوا يجدون أنفسهم متفوقين عسكريًّا.

في منتصف القرن الرابع الميلادي، عبرت حشود جديدة من محاربي الجبال نهر الأوكسس إلى أفغانستان. ومرة ثانية كان الصينيون هم أول من شهدهم، وطبقًا لما يقوله لويس دوبريه، أطلق الصينيون عليهم اسم يي-تي-أي-لي-دو Ye-ti-i-li-do وهو اسم أرهق المترجمين البيزنطيين وانتهى بهم الأمر إلى تسميتهم «الإفثالايت أو الهفثالايت». أما الفرس فأطلقوا عليهم اسم «الهياطلة أو الأياطلة» (وهو مصطلح قد يشير إلى الملك أتيلا Attila)، ولكن الاسم الذي اشتهروا به بعد أن غزوا أفغانستان هو «قبائل الهون البيضاء».

في هذه الآونة لم تعد أفغانستان مجرد معقل حروب بين شعوب إيرانية تربطها معًا قرابة ما، أو جيوش زاحفة من حضارات إغريقية أو هندية متقدمة. فمع هذا الانفجار الجديد الآتي من عمق آسيا الوسطى، تصاعد مستوى العنف بشكل كبير. فقد كان الغزاة الجدد محاربين أشداء أتوا من أراض شمالية جرداء ذات طقس شديد البرودة، وقد صقلت مهاراتهم الحربية من خلال المعارك القبلية التي نشبت فيما بينهم. والأغلب أن قليلًا منهم فقط شاهدوا مدنًا أو عرفوا معنى الحياة الحضرية قبل أن يغادروا السهول الجرداء، ولا بد أن غريزتهم كانت تدفعهم إلى تدمير أي مجتمعات مستقرة فور رؤيتها. ولذلك كان غزو هؤلاء الهياطلة أو «الهون البيض» لأفغانستان أمرًا مروعًا.

وإذا كان أصل الكوشان على قدر من الغموض، فإن أصل قبائل الهون البيضاء يمثل لغزًا محيرًا، ويشك العلماء المحدثون — استنادًا إلى ما ذكره

الصينيون — في أنها كانت قبيلة من قبائل المغول تعيش في حماية شعوب الآفار التي سوف تدخل بعد ذلك في التحالف الذي سوف يتبع أتيلا في أوروبا. (وفي بيزنطة يعتقد البعض أن الآفار لم يكونوا إلا موجة أخرى من موجات غزو قبائل الهون). كان جيش أتيلا يتكلم اللغة التركية وإن كان من المحتمل أنه كان يضم جماعات أخرى. ويأتي تفرد الهياطلة من خلال ما ذكره المؤرخ الروماني بروكوبياس Procopius الذي كتب في منتصف القرن السادس يقول: «إنهم من قبائل الهون اسمًا وانتماء. ولكنهم لم يختلطوا بقبائل الهون الأخرى التي نعرفها، فهم يتميزون بأجسامهم البيضاء وملامحهم غير القبيحة.»

وبطبيعة الحال فإن الاحتمال قائم في كونهم الجماعة الأخيرة من السيثيانيين — الذين حين بدءوا يحسون وهم في السهول أنهم مثل السمك حين يخرج من الماء؛ تبعوا أقاربهم من الكوشان الذين نجحوا في عبورهم نهر الأوكسس. لكن بعض الباحثين المعاصرين يصف هؤلاء الهياطلة بأنهم كانوا يتميزون «بالقبح وقصر القامة»، وهي الصورة التي تصف بها الشعوب المتحضرة المعتدين من المغول الأتراك الذين هاجموهم. ورغم أن «الهون البيض» أدخلوا بعض المصطلحات الجديدة في اللغة الأفغانية مثل «خان» و«أولو»، فإن انتصاراتهم لم تتمخض عن تأثير تركي عميق في الثقافة الأفغانية، رغم أنه كان معروفا في مناطق السهول أن ثقافة القبائل الكبيرة تبتلع ثقافة القبائل الصغيرة في طريقها، وأن أسلوب الحياة الوافدة يتخطى كل الفروق العرقية واللغوية. وفي ضوء كل هذه التقديرات يمكن اعتبار «الهون البيض» هجين من شعوب وسط آسيا مع عناصر كبيرة متداخلة من الهنود الآريانيين، لكنهم في نفس الوقت يختلفون تمامًا عن سابقيهم الذين أتوا من نفس المنطقة قبل ذلك في أنهم أكثر شراسة وعنفًا.

أما ما ذكر عن «قبح» هؤلاء الغزاة الهون، فلا يجب أن يؤخذ على أنه ذم لهم، فذاك المظهر المتفرد كان الهون يتعمدون الظهور به، فقد كانوا يربطون رءوس أطفالهم بحيث تتشكل جماجمهم عند البلوغ على هذه الصورة المتنافرة الغريبة، التي تظهر في بعض المسكوكات التي تعود إلى فترة الهياطلة. ويقول المؤرخ اليوناني أميانوس مارسيلينوس Amianus Marcellinus في هذا الصدد: «يقوم هؤلاء الهون بإحداث جروح بالغة في خدود أطفالهم فور ولادتهم، بحيث لا ينمو الشعر بعد ذلك في أجزاء معينة من وجوههم وتحل محله ندوب

مجعدة قبيحة.» لقد كانوا يهدفون من هذا إلى إثارة الخوف والفزع في نفوس الأعداء بأكبر قدر ممكن.

حين تعرف الغربيون على هذه القبائل لأول مرة، لم يستطيعوا أن يحددوا إذا ما كان هؤلاء الغزاة بشرًا أم لا. فمنذ العصور القديمة تعرف الآريون الهنود على الإثيوبيين، والصينيين واستنتجوا حينها أن أنواع الكائنات تتباين، ثم جاء اكتشاف الأقزام في إفريقيا بواسطة أحد المكتشفين الأكاميديين ليحدث صدمة كبرى، لأولئك الذي صدقوه، ناهيك عن القصص التي كانت تروى عن محاربات الأمازون. وبالقطع كانت دهشة العالم الغربي والفرس سوف تكون أقل لو كان هؤلاء المغيرون ذوي ذيول أو قرون، أو يأكلون أطفالهم، أو يمشون على أربع حين لا يمتطون الخيول. ولقد رجحت قوتهم الحربية الخارقة وعدم القدرة على التصدى لهم في المعارك الرأي القائل بأنهم ليسوا من بني البشر.

ومع غزو «الهون البيض»، دفعت أفغانستان ثمنًا باهظًا لموقعها الجغرافي قياسًا بالفائدة التي جنتها من حكم الكوشان. فهذه الأرض لم تكن فقط أرضًا محورية بين الحضارات الكبرى في الشرق والغرب والجنوب، ولكنها كانت أيضًا الممر الأول الذي يخترق جبال الهيمالايا بالنسبة لمحاربي السهول من البرابرة الذين يغيرون من الشمال.

تلاحقت الأحداث بعد ذلك تباعًا. فحين عبر الهون نهر الأوكسس، حلوا محل مملكة الكوشانيين التي كانت قد نجحت في تجنب سيطرة الساسانيين، وتقهقر هؤلاء الكوشانيون — بقيادة ملكهم كيندارا Kindara — إلى وادي كابول عبر الممرات الجبلية بعد انتصارهم عليها، ثم مدوا سيطرتهم على قندهار. وهذه الغزوة الأولى جنوب الهندوكوش، التي يطلق عليها أحيانًا كيندارايتس؛ تعتبر أول مد للغزو الهوني.

أما الهون البيض أنفسهم فقد استولوا على باكتريا ثم قضوا على الفرس. وفي عام ٤٢٧م نصب أحد الملوك الساسانيين، ويدعى باهروم جور Bahrum Gur، كمينًا لقوة مهاجمة من البدو وقضى عليها بأكملها، مما أنقذ الإمبراطورية الساسانية لبعض الوقت. لكن الهون تزايد عددهم وبدءوا في اجتياح الجنوب والغرب، وحين حل عام ٤٥٥م كانوا قد استولوا على وادي كابول وجاندهارا. وفي عام ٤٨٤م استعان بهم أحد الأمراء الساسانيين في تصرف بعيد عن الحكمة ليدعموه في إحدى معاركه الداخلية حول وراثة العرش فقتلوا الملك

الفارسي بيروز Peroz، واستولوا على هرات وميرف، وفي العقد التالي اجتاحوا خراسان وبعض الأراضي الساسانية الأخرى جنوب بحر قزوين. وكان من الممكن أن يقضوا تمامًا على الساسانيين لولا أن غنيمة أخرى كانت تلوح أمامهم في الشرق، فاتجهت جحافلهم إلى الهند.

في القرن الخامس الميلادي كانت إمبراطورية جوبتا قد ظهرت في الهند كمنافس قوي للساسانيين للاستيلاء على أفغانستان، لكن بعد وفاة ملكهم القوي سكانداجوبتا Skandagupta، هاجم الهون بكل شراسة، وكان واضحًا أن محاربيهم ممتلئون حماسة لاجتياز جبال الهندكوش الصعبة وسلسلة جبال سليمان ليتدفقوا على سهول البنجاب المنبسطة. وبعد أن وصلوا إلى نهر الجانج تقدموا إلى الوادي، وفي طريقهم قاموا بذبح البوذيين وتدمير معابدهم.

لا توجد أي سجلات تصف المعارك التي خاضها «الهون البيض» قبل وصولهم إلى الهند. ولكن يمكننا فقط تصور القتال الذي دار بين الرجال السيثيانيين أو الكوشانيين الأقوياء في أفغانستان — وهم من القادمين الجدد من السهول — وبين الهون البيض. ربما أدرك الغزاة الجدد عدم جدوى القتال في الأراضي الجبلية حيث يكونون في الموقف الأضعف. وربما كانت القبائل في الجبال تكتفي بمشاهدة الجموع المغيرة وهي تمر عبر نهر السند. وحين حان الوقت الذي طُرد الحكام الساسانيين، تمكن الغزاة والمدافعون من البدو الرحل من الوصول إلى اتفاق يشمل مبدأ «عش ودع الآخرين يعيشون أيضًا». أما الثمن الأكبر، فقد دفعه الأهالي المدنيون الذين وقعوا بسهولة فريسة لجيوش البرابرة. وهنا يمكننا أن نشعر بالخوف على مصير الآرياسبيانيين (أو المحسنين) الذين سبق لهم مد يد العون لقورش وللإسكندر حين وصلا إلى وادي نهر هلمند. ولأن الهون لم يألفوا مفهوم الجماعات المدنية، فقد كان من المنطقي بالنسبة لهم أن يعتبروا تجمعات الأهالي هذه عقبة تصدهم عن المضي قدمًا في طريقهم، وأن يعتبروا مقاومة هؤلاء الأهالي الضعيفة — والتي كانت حدثًا غير معتاد في هذه المنطقة — دافعًا لهم لتأكيد قوتهم العسكرية، وزيادة فرصتهم لسفك الدماء.

ومع مرور الوقت بدأ الهياطلة في الإعجاب بهذه الأرض الجديدة بدلًا من محاولة تدميرها. وبدءوا يتكيفون مع بيئتها الجميلة ويندمجون فيها، فصكوا العملات، وأحيانًا كانوا ينقشونها في محاولة أولية لتقليد اليونانيين،

وفيما عدا ذلك لم يكن لهم أي تأثير ثقافي على الأرض الجديدة. بل الواقع أن ملوكهم — الذين تمركزوا فيما يعرف الآن بأفغانستان الشمالية — لم يهجروا قط أسلوب الحياة الذي تميز به سكان السهول المفتوحة. ذكر اثنان من الرحالة البوذيين هما: سونج يون Sung Yun، وهوي شنج Hui Sheng هؤلاء القوم فيما كتباه عام ٥٢٠م قائلين: «إن الهياطلة لا مدن لهم، ولكنهم يتجولون بحرية ويعيشون داخل خيام، ولا يقطنون أي مدينة، بل إن العرش الذي يحكمهم ما هو إلا خيمة متحركة. وهم يتنقلون بحثًا عن الماء والمرعى، وفي الصيف يتجهون إلى الأماكن الباردة، في حين يبحثون في الشتاء عن المناطق الدافئة. وهم لا يؤمنون بقوانين البوذية بل إنهم يعبدون عددًا كبيرًا من الآلهة.»

ورغم أنهم في البداية قاموا بتدمير معابد البوذيين — التي ربما ظنوا خطأً أنها حصون أو أنها قلاع تمثل تهديدًا لهم — فقد تبين بعد ذلك أنهم يتسامحون مع الديانات الأخرى كما تفعل معظم الشعوب الوثنية التي تعيش في السهول عندما تلتقي بشعوب أخرى متحضرة للمرة الأولى. ففي وسط أفغانستان، وفي وادي خصيب يقع بين جبال الهندوكوش، عاشت جماعة بوذية بسلام وأمان في مدينة باميان. وفي القرن الثالث الميلادي قام البوذيون بنحت تمثال ضخم لبوذا في جانب أحد الجبال. وفي القرن الخامس نحتوا تمثالًا آخر يبلغ طوله مائة وخمسين قدمًا. أما المنحدرات الصخرية الشاقة فكانت مكتظة بالكهوف حيث كان يعيش ويتعبد فيها حوالي ثمانية آلاف من الرهبان البوذيين.

وفي بلاد الفرس، كان الساسانيون يتراجعون أمام الهون البيض هاربين بالكاد من مذابحهم بعد أن قرر أعداؤهم التوغل شرقًا خلال أفغانستان والهند. لكن بحلول منتصف القرن السادس، كان الساسانيون قد نجحوا في تجميع قواهم، بل واستعادوا ثقتهم بأنفسهم بعد سلسلة من الحروب خاضوها ضد البيزنطيين على الحدود. وكان الفرس خلال هذه الفترة يتحينون الفرصة للعودة إلى أفغانستان، بيد أنهم كانوا يترددون في بدء هجوم مضاد. لكن في النهاية نجحوا في استقطاب بعض الحلفاء. ففي شمال الأوكسس وصلت حشود جديدة من البدو الرحل القادمين من سهول آسيا الوسطى — وهؤلاء كانوا بلا شك يتحدثون اللغة التركية. تزوج الملك الساساني كسرى Chosroes من ابنة الملك التركي سينجيبو Sinjibo، ثم قام الاثنان بهجوم مشترك على الهون

البيض. وكما حدث من قبل وسوف يتكرر بعد ذلك في تاريخ أفغانستان، شهدت هذه الحرب تحولًا كاملًا في ولاء المقاتلين من جانب إلى آخر، بعد أن انضم محاربو الجبال إلى الغزاة بدلًا من محاربتهم. ويسجل التاريخ أن الهون البيض هزموا هزيمة نكراء من جراء هجمتين نزلتا عليهما من شمال وجنوب الهندوكوش، وهو ما يدعونا إلى الاعتقاد أنه كان هناك طابور خامس داخل جيشهم.

وكما حدث مع من جاءوا قبلهم من السيثيانيين، فقد اختفى ملوك الهون البيض، بينما ظلت بقايا من شعوبهم تعيش على أرض أفغانستان. لم يسبق في تاريخ أفغانستان أن استطاع جيش غاز أن يخضعها معتمدًا فقط على قوته العسكرية، فلم يكن هناك سبيل إلى هذه الغاية إلا بتجنيد بعض أمراء الحرب أو الزعماء المحليين لتنفيذ مخطط المحتل. وكما سبق أن رأينا فإن بعض القبائل في أفغانستان لم تقع أبدًا في قبضة الغزاة، وإن كانت قد تظهر ولاء لسلطة معينة ولكنها في مقابل هذا الولاء تنال قدرًا كبيرًا من الحرية. ومع هلاك قبائل الهون البيض، يمكننا أن نتخيل حدوث ذلك السيناريو الذي يتكرر كل مرة: رجال أقوياء يسيطرون على مجموعة من المحاربين الأشداء يقدمون الولاء إلى قوة جديدة تُغير عليهم لتطرد القوة القديمة، وفي المقابل يتركون لحال سبيلهم.

وفي أفغانستان حاليًّا، من العسير تحديد الآثار التي تركها الهون البيض، أما عمن ينحدرون من نسلهم فهم يتركزون بشكل كبير في البنجاب وراج بوتانا، وكذلك في شرق الهند الحالية. حيث ما زال الجوجار — وهم عبيد كان الهياطلة قد اصطحبوهم معهم من السهول — يقومون بفلاحة الأرض. وتعني كلمة راج بوت «ابن الملك» مما يدل على أن فترة حكم الهياطلة لا تزال راسخة في ثقافة هؤلاء المحاربين القدامى التي تعود إلى ١٥٠٠ عام. ربما كان سيسهل تحديد من ينحدرون من نسل الهون البيض في أفغانستان لولا أن أصول بعض قبائل الجبال لا تزال غامضة. لكن الأرجح هو أن القبائل السيثيانية والبارثيانية والكوشانية — التي لم تكن غريبة عن فنون الحرب — قد حاربتهم وطاردتهم حتى الأراضي السهلة في شبه القارة.

ومع إطلالة القرن السابع، كان الساسانيون الفرس قد بسطوا سيطرتهم مرة أخرى على أفغانستان، وقامت مملكة جوبتا في الهند بتعزيز دفاعاتها على

طول حدودها مع الفرس عند نهر السند. وإذا ما حاولنا استقراء الأحداث فسندرك أن الساسانيين، في محاولتهم لاستئصال شأفة الهون البيض عن طريق منح قبائل البدو الأتراك مزيدًا من الدعم — قد خلقوا قوة لن يستطيعوا السيطرة عليها بعد ذلك. لكن المشكلة الثانية التي واجهت الساسانيين لم تكن مدًّا آخر من رماة الرماح الخيالة القادمين من الشمال، وإنما جيوش أخرى تدفقت من الجنوب بهدف معين. جاءت هذه الجيوش الجديدة التي اجتاحت بعد ذلك أفغانستان وبلاد فارس من شبه الجزيرة العربية، وكانت — إلى جانب تسليحها العسكري — مسلحة بمبادئ عقائدية. ومن الواضح للجميع أنه حتى يومنا هذا لم يستطع أحد أن يوقف تقدمها.

في عام ٦٣٢ توفي الرسول محمد في بيت المقدس تاركًا وراءه جيشًا من المسلمين المتحمسين لنشر رسالته. أدرك الفرس أن هجوم المسلمين عليهم سوف يكون وشيكًا، ولذلك ففي ربيع عام ٦٣٧ جهزوا جيشًا ضخمًا مكونًا من ١٠٠٠٠٠ مقاتل ومعهم أفيالهم، فعبروا نهر الفرات كي يَسْتَبِقوا هجوم المسلمين. وفي قرية القادسية (في العراق حاليًّا) تقابلوا مع قوات عربية خفيفة قوامها ثلاثون ألف محارب. وبدأ العرب بالهجوم محاولين اختراق خطوط الفرس بهجمات من فرسانهم، لكن الساسانيين قاموا بهجوم مضاد بأفيالهم أثار ذعر خيول العرب، الذين عانوا كثيرًا حتى استعادوا تماسكهم. وفي اليوم التالي، كان العرب أكثر حذرًا، فنجحوا في شن هجمات سريعة أسفرت عن وقوع العديد من القتلى في كلا جناحي الجيش الفارسي، وفي اليوم الثالث تلقى العرب تعزيزات من الجيش السوري صاحب الخبرة الكبيرة في قتال الأفيال. وفي تلك المعركة أصيبت الأفيال جراء قذائف نارية أطلقت عليها فتفرقت وتراجعت مذعورة إلى صفوف الساسانيين تطؤهم بأقدامها، فاندفع الفرسان العرب مخترقين جيش الأعداء الذي تشتتت جبهته، وطوال الليل أخذ العرب يطاردون الجيش المنسحق مرتكبين كثيرًا من المذابح. أما رستم Rustam، قائد الساسانيين والوصي على الإمبراطور يزدجرد الثالث Yazdegred III، فقد أسر وهو يحاول عبور إحدى القنوات ليصل إلى مكان آمن، ثم قطعت رأسه.

وفي أواخر نفس العام، هزم العرب جيشًا آخر من جيوش الساسانيين في معركة جالولاء، وفي عام ٦٤٢، حاربوا يزدجرد في نهاوند جنوب همدان بعد

أن جمع كل ما تبقى من جيش إمبراطوريته الذي كان يفوق جيش العرب عددًا وعدة، ولكنه لم يستطع الصمود أمام هجومهم الكاسح. وحين دُمِّر جيشه فرَّ يزدجرد إلى الجبال حيث لقي مصرعه، ولجأ ابنه بيروز — وهو آخر حكام الساسانيين — إلى الصين طلبًا للحماية.

في أواخر القرن السابع الميلادي، توغل العرب في أفغانستان، فتقدمت فرقة من سيستان واستولت على قندهار، في حين استولت فرقة أخرى على هرات وبلخ، التي أطلق عليها العرب «أم المدائن». وهي المدينة التي شهدت مولد زرادشت Zoroaster، وكانت تضم مائة معبد بوذي. ثم تقدمت قوة من قندهار نحو كابول التي كانت تحت حكم الهندوشاهيس، وهم سلالة حاكمة من الهنود، ولكن بدلًا من احتلال المدينة قام العرب بتعيين حاكم عسكري عليها وجاب للجزية.

لم تعتنق أفغانستان في مجملها الإسلام على الفور، والواقع أن الغزاة العرب اضطروا لحصر نشاطهم في المدن الرئيسية مع محاولة التقرب من البلاد المجاورة، واستمرت القبائل الجبلية في اعتناق عقائد الزاردشتية، أو البوذية، والديانات الوثنية لعقود طويلة، ثم تحولت إلى الإسلام تدريجيًّا، سواء من خلال إرادتهم الحرة أو بالقوة. وكان من بين العوامل التي هيأت لهم الطريق أنه تحت حكم الخلفاء العباسيين في بغداد في القرن الثامن (الذين جاءوا بعد محمد)، تمتعت المنطقة بفترة سلام ونهضة علمية. وعلى الجانب الثقافي أفرز التزاوج الذي حدث بين الحضارة الإسلامية والفنون الفارسية أعمالًا ضاهت في روعتها الأعمال التي نتجت عن تزاوج الفن الإغريقي مع البوذية في جاندهارا. وانتشرت المساجد والقصور الفخمة في مدن هرات، وبلخ، وبخارى، وسمرقند، وبلغت فنون الشعر، وصناعة الفخار ونحت البرونز درجة عالية من التميز والإتقان.

بدأت الدولة العباسية تضعف في منتصف القرن التاسع الميلادي، وتزامن ذلك مع ظهور جماعات أخرى من بدو السهول المتحدثين باللغة التركية. وقد أسست إحدى هذه السلالات الحاكمة التركية إمبراطورية في بلاد ما وراء النهر هي الإمبراطورية السامانية، واختارت بخارى عاصمة لها، ثم قامت بسلسلة من الغارات على نطاق واسع يمتد من الهند حتى يكاد يصل إلى بغداد. وفي وادي كابول تراخت قبضة العرب ليحل محلها حكم السامانيين الذي اتسم

بالفوضى، مما سمح لهندوس البنجاب بالتوسع في الاستيلاء على الأراضي، لكنه في القرن التالي طُردوا بحملة انتقامية.

في عام ٩٧٧م حاول أحد العبيد الأتراك ويدعى آلتيجين Alptigin توجيه ضربة ضد أسياده من السامانيين في بيشاور (كان العبيد في الإسلام يستخدمون كمحاربين، وفي عصور لاحقة وصلت طوائف منهم إلى السلطة كما حدث مع المماليك والانكشاريين). وحين فشل آلتيجين في محاولته، فر هاربا مع أتباعه إلى جنوب الهندوكوش وأقام مركزًا لعملياته العسكرية في غزنة. كان الأتراك الغزنويون قد تحولوا إلى مناصرة الإسلام بقوة، وسرعان ما بسطوا سلطانهم ونشروا دينهم عبر أفغانستان. أما عن السامانيون — الذين تعرضوا لهجمات جحافل جديدة من البدو هجمت عليهم من الشمال، فكانوا أيضًا موضع هجوم من الغزنويين من الجنوب. وقد تمكن آلتيجين وخلفاؤه من بعده من مد نفوذهم حتى نهر الأوكسس، ثم إلى خراسان وحتى بحر قزوين.

تولى الملك محمود، ثالث ملوك الغزنويين، العرش عام ٩٨٨م، وأصبح أقوى ملوك الغزنويين قاطبة، فبعد اتجاهه شمالًا ليسحق البدو المحتشدين على حدود مملكته، اتجه إلى حيث توجد حضارة الهند القديمة مغيرًا على كل ما في طريقه، وكما قال و. ك. فريزر تيتلر W. K. Fraser-Tyttler «لقد امتزج بداخله حماسه الديني الذي يحثه على تحطيم الأصنام مع غريزة زعماء أهل الجبال المحبين للسلب والنهب.» وقد بلغ عدد غزواته سبعة عشر في مجموعها، قام خلالها بنهب العديد من المدن والمعابد الهندية، وفي كل مرة كان ينهب من الثروات ما يستطيع حمله إلى غزنة. وفي عمق توغله في الهند وصل إلى كاثياوار واستولى على بوابات سومناث وعلى تمثال الإله من معبده المقدس.

وفي ذلك الوقت كانت غزنة مدينة رائعة، تحفل بالغنائم التي سُلبت من الهند وتزخر بالفن الإسلامي والثقافة الإسلامية. وبدعوة من محمود حضر الشاعر الفارسي الفردوسي والمؤرخ البيروني ومكثا زمنًا في بلاطه. وقد اكتشف علماء الآثار المحدثون أن درجات سلالم أكبر مساجد غزنة بنيت من الأوثان الهندية، وقد بليت جوانبها الرخامية من أثر أقدام المسلمين. وبالإضافة إلى المساجد والقصور الفخمة قام محمود بتشييد مئذنتين ضخمتين أسماهما «برجي النصر».

ومع أن الإمبراطورية الغزنوية لا يمكن اعتبارها إمبرطورية أفغانية وطنية — حيث إن الدور الذي لعبه الأهالي من غير الأتراك في هذه الحضارة غير واضح — لكنها لعبت دورًا رئيسيًّا في توحيد بلاد الهندوكوش من خلال الإسلام. وكان الهندوس قد طردوا من البلاد إلى غير عودة، وملالي محمود قد نجحوا في هداية معظم سكان بلاد البنجاب إلى الإسلام ممهدين الطريق بعد ذلك إما لتوثيق علاقتهم بها أو لمهاجمتها وسلبها في المستقبل. وبعد وفاة محمود عام ١٠٣٠م بدأت الإمبراطورية في الترنح، في حين كان البدو الأتراك القادمون من السهول يزدادون قوة، أما خليفته مسعود فقد سيطرت عليه اهتماماته بالهند.

وجاءت الضربة القاضية للإمبراطورية من قوة غامضة أخرى داخل أفغانستان وهي طائفة الغور، فمن الوديان النائية في وسط الهندوكوش ظهرت هذه الجماعة الجديدة. قد يكون هؤلاء الغور من الكوشان أو من مناطق أخرى عاش فيها الهياطلة، لكن المؤكد أن محمود كان قد حاول غزوهم مرة، وحين بدأت قوتهم تزداد كان ذلك إبان فترة حكم الأتراك. ولأغراض توسعية خرجت هذه الطائفة من الجبال لتؤسس إمبراطوريتها في هرات.

في عام ١١٤٠م هاجم علاء الدين ملك الغور غزنة وأحرقها. وبعد ذلك استولى الغور على أراض تبلغ ضعف الأراضي التي استولى عليها الغزنويون شرقًا وغربًا. وفي عام ١١٨٦م طاردوا آخر ملوك الغزنويين، وكان يقيم في لاهور فقتلوه. لكن إمبراطورية الغور لم تتمكن من الصمود أمام قوة الأتراك المتصاعدة في بلاد ما وراء النهر. وحوالي عام ١٢٠٥م هزم الغور، وفي العقد الذي تلاه كانوا قد اندمجوا في الإمبراطورية الخوارزمية الجديدة. أما الدلائل التي تشير إلى وجود الغور الذين ظهروا ثم اختفوا بسرعة فهي ضئيلة إلى حد كبير، ويعود الفضل في العثور على ما يشير إلى هذه الإمبراطورية إلى اختراع الطائرة، فعام ١٩٤٣م كان أحد الطيارين يقود طائرته فوق جبال الهندوكوش حين لمح مبنى غريب يرتفع وسط وادي جبلي مهجور بالقرب من جام، ولم يكن هذا المبنى إلا مئذنة يبلغ إرتفاعها ١٨٠ قدمًا، ولأنها بنيت في منطقة مهجورة فقد ظلت مجهولة، دون أن يقترب منها أحد عبر مئات السنين التي حفلت بالحروب المدمرة في أفغانستان. وقد أكد علماء الآثار أن هذا البناء هو برج النصر الذي بناه الغور.

كانت أمواج البدو التي تدفقت عبر السنين على نهر ياكسارتس من قبائل الأوجوز التركية التي انقسمت إلى جماعتين رئيسيتين: السلاجقة نسبة إلى أحد قوادهم، والثانية عرفت باسم التركمان. وقد تقدمت قوات السلاجقة حتى البحر المتوسط حيث شكلت بعد ذلك القوة المقاومة للفرسان الصليبيين القادمين من أوروبا، ثم أسسوا الإمبراطورية العثمانية في تركيا. أما بقية القادمين الأتراك فقد كانوا عماد الدولة الخوارزمية التي أصبحت بعد ذلك ولفترة وجيزة أقوى دولة إسلامية في العالم.

في هذه الآونة لم يكن الخليفة العباسي في بغداد يتمتع بأي سلطة فعلية على البلاد الإسلامية، حيث انتزع السلاجقة القوة العسكرية من قبضته، كما نافسوه أيضًا من خلال النهضة الثقافية والعلمية التي كانت سائدة في بلاد ما وراء النهر. وفي الوقت الذي لم يتبق له سوى السلطة المعنوية، بدأ السلاجقة أيضًا في التشتت وتوسعت خوارزم وامتلكت جيشًا كبيرًا وأراض واسعة. وفي عام ١٢١٩م بسطت الجيوش الخوارزمية سلطانها كاملًا على أفغانستان وعين جلال الدين، ابن الشاه محمد الثاني حاكمًا. ومن عاصمته في سمرقند تمكن الشاه الخوارزمي من إقامة جسر تجاري بين الصين وبلاد فارس والهند مما زاد ثروة بلاده وأعطاه القدرة على توسيع رقعة أراضيه.

تركزت المشكلات الرئيسية في: أولًا أن الغالبية العظمى من السكان الفرس (أو من اكتسبوا الهوية الفارسية) كانوا يعانون تحت حكم الطبقة العسكرية التي تهيمن على الجيش، فقد كان جيش الإمبراطورية يتعامل معهم كقوة محتلة أكثر من كونها المسئولة عن الدفاع عن الدولة، وهو وضع ساهمت والدة الملك محمود الثاني في تفاقمه، فقد كانت تتمسك بأجدادها الأتراك حتى كادت تقيم حكومة موازية لحكومة الشاه. بالإضافة إلى أن الخوارزميين كانوا في نزاع مع الخلافة التي أثارت قوةُ وطموح محمد الثاني مخاوفَها. وسوف يكون لهذه الانقسامات السياسية داخل الدولة الإسلامية نتائج عنيفة بسبب المشكلة الثالثة التي سوف تواجه الدولة الخوارزمية، فقد كانت جماعة جديدة من محاربي السهول على وشك أن تطل عليهم من الشرق، لكنها أخطر هذه الجماعات على الإطلاق.

الإمبراطورية المنغولية

المجر
والأشيا
كييف
فلاديمير
روسيا
قبجاق أو القبيلة الذهبية
سراي
منغوليا
كاراكورام
خانية جاكاتاي
خانية الخان العظيم
خانبالبج
الموصل
بغداد
الخانية الثانية
أصفهان
شيراز
هرات
نيسابور
مرو
بخارى
سمرقند
بلخ
غزنة
التبت
سلطنة دلهي
نيبال
كايفنج
(الصين)
لنان
شينجتو
كوانجتشاو
بحر العرب

الفصل الرابع

المغول

عندما اكتسحت قبائل المغول جنوب آسيا في القرن الثالث عشر الميلادي، خلفت وراءها طريقًا موحشًا من الدمار والخراب ما زالت آثاره باقية حتى الآن. فعلى امتداد نهر هلمند في جنوب أفغانستان يوجد عشرات بل المئات من بقايا مجتمعات زالت وانتهت ولم يتبق منها سوى طرق وعرة تهاوت مبانيها من الطوب اللبن لتتوارى في الأرض كشاهد صامت على الرعب والفزع الذي لا بد أنه اجتاح الآلاف من سكانها منذ سبعمائة عام مضى. والواقع أن أجزاءٍ من شرق إيران وبلاد ما وراء النهر — اللتين كانتا مركزًا لحضارة إسلامية جديدة متوقدة — لم تتعافَ من آثار الغزو قط، فواحة ميرف التي استوحيت منها قصص «ألف ليلة وليلة» لا تثير الآن سوى اهتمام علماء الآثار، وفي أفغانستان فإن «مدينة التنهدات» في باميان تشرف على الوادي الخالي كمدينة تسكنها الأشباح في حين أن بلخ «أم المدن» التي كانت أكثر اتساعًا وأكثر أهمية لم تستطع أن تسترجع عظمتها السابقة.

في عام ١٢٢١م حل جيش المغول بأفغانستان كقوة عاتية مدمرة من قوى الطبيعة أو حسب ما قال دوبريه: «كان جيش المغول في ذاك العصر كالقنبلة الذرية في عصرنا.» ولكن يستطرد دوبريه قائلًا: لكن في حين استطاعت هيروشيما ونجازاكي أن تبنيا نفسيهما من جديد لم تستطع مجتمعات كثيرة في أفغانستان أن تعود إلى سابق عهدها. وواقع الأمر أن كون أفغانستان الآن أرضًا قاسية صعبة المراس نزاعة إلى الحروب والقتال أكثر من اتجاهها إلى المقاومة السلبية؛ يرجع إلى الدمار الكامل الذي حل بها في ذلك الوقت، فالمدن والمزارع التي تأسست على الزراعة لقرون طويلة تركها معظم أهلها البدو وفروا إلى التلال هاربين من أمام جحافل المغول، خاصة أن المغول — كما تقول

ريا تالي ستيوارت: «لم يقتلوا السكان فقط، بل دمروا نظم الري التي أقاموها، ولم يبق أحد ليعيد إقامتها مرة ثانية. وأفغانستان بلد يتميز بالجفاف، وعادة ما تخلف ثلوج الشتاء القاسي رطوبة كافية تستمر طوال العام. أي أن الري يعني الحياة ... ولكن الأراضي غدت مالحة. ومن بين جميع المدن التي دمرت، لم تستطع أي مدينة أخرى أن تعيد بناء نفسها إلا هرات، وذلك لأنها تقع في واد خصيب.» قبل هجوم المغول، لم تتعرض المجتمعات القائمة في أفغانستان لمثل هذا الدمار والخراب المنظم من قبل، ومن بعد المغول، لم يتكرر هذا التدمير للحياة وللبنية الأساسية بهذه الصورة، وعلى هذا النطاق إلا مع مطلع القرن العشرين. وحين أغار المغول على أفغانستان في المرة الأولى لم يكن لديهم أي نية للسيطرة عليها، بل كان هدفهم ببساطة هو تدمير البلاد عن آخرها.

يرتبط ظهور المغول بتاريخ ظهور تيموجين Temujin واسم هذا الرجل من مشتقات كلمة الحديد باللغة المغولية، والأرجح أنه يعني «حدادٌ»، ولأن أباه كان أحد صغار زعماء القبائل، فقد أمضى معظم حياته منغمسًا في سلسلة من الحروب ضد قبائل السهول الأخرى حتى نجح في توحيد بدو المغول مع بدو الأتراك وشكل منهم وحدة واحدة قوية. وفي اجتماع لزعماء البدو عام ١٢٠٦م نُصِّبَ حاكمًا «لجميع القبائل التي تعيش في خيام من اللباد». وطبقًا لما جاء في كتاب The Secret History of the Mongols الذي استقاه الصينيون من مصادر تعود إلى زمن ذاك الحدث، كتب النبلاء مبايعة جاء فيها: «نحن ننادي بك خانًا، ولكونك الخان، فنحن كطليعة جيشك سوف نطارد أعداءك، وسوف نأتيك بعذارى فتياتهم الجميلات، وسيدات قومهم النبيلات ... وفي أيام الحرب — إذا ما عصينا أمرك — فلك أن تبعدنا عن أقاربنا وعن زوجاتنا، وتلقي برءوسنا السوداء على الأرض.» وبهذه الكلمات الملهمة، مُنح تيموجين اسمه الجديد جنكيز خان.

كلمة جنكيز أو «شنكيز» تعني «المحيط بكل شيء» أو «المطلق»، وقد ثبتت صحة الكلمة من خلال القوة العسكرية التي استطاع تيموجين أن يجمعها، والتي اعترف العالم أجمع بأنها لا تقهر. لم يكن المغول متفوقين كثيرًا عن شعوب سهول وسط آسيا في تسليحهم أو في خططهم الحربية، بل إنهم في جميع الحروب الكبرى التي خاضوها كانوا دائمًا أقل عددًا من خصومهم، لكن قيادة جنكيز خان هي التي صنعت الفرق، فهو لم ينجح فقط في رفع

شأن المغول في مناطق السهول، وإنما أمام العالم كله، ويتمثل هذا في ثلاثة عناصر رئيسية تعكس كلها عبقرية جنكيز خان الشخصية.

العنصر الأول أنه بنجاحه في توحيد البدو الرحل من المغول الترك استطاع أن يخلق جيشًا قويًّا في مناطق السهول لم يوجد منذ زمن الهون في القرن الخامس الميلادي. ومنذ حكم البارثيانيين عام ٢٥٠ ق.م وحتى السلاجقة الأتراك ثبت أن محاربي السهول تفوقوا في فنون الحرب على المشاة المسلحين أو الخيالة من الشعوب المقيمة. أما من الناحية الاستراتيجية فقد ظل البدو الرحل يحتفظون بميزتهم التقليدية في أنهم لا يملكون ما يدافعون عنه، وأنهم لا يبدءون بالحرب أبدًا، لكن نقطة ضعف هذه القبائل هي أنها دائمًا ما كانت تأتي من السهول على شكل قبائل منفردة الواحدة تلو الأخرى، مما كان يسهل استيلاء أي حضارة جديدة عليها. وفيما عدا ذلك كانوا مجرد قبائل مغيرة. لكن حين جاء جنكيز خان خلق منهم اتحادًا قويًّا يصعب إخضاعه، بل العكس هو الصحيح، فقد كانت البربرية تغلب على نظام حكمه بشكل أكبر من الحضارة.

والعنصر الثاني، أنه مثل أي عبقرية عسكرية، كان جنكيز خان أول من استحدث فكرة التنظيم سواء في مجال الإصلاح الاجتماعي أو في ساحة القتال. فقد قام بجمع المعتقدات المبعثرة التي كانت تشكل قانون السهول ليصوغ منها مجموعة من القوانين الصارمة أطلق عليها اسم «ياسا» التي كانت تحظر السرقة (وخاصة فوضى ممارسة سرقة الزوجات) بالإضافة إلى جرائم أخرى. وقد فرض بعض قوانين الشامانية (وهو دين بدائي يتميز بالاعتقاد بوجود الآلهة والشياطين)، واقتبس من قبائل ييجور حروفًا أبجدية حتى يتمكن من كتابة ونسخ اللغة المنغولية، ومن الكيرايتس تبنى تنظيمًا عسكريًّا كفئًا يعتمد على الطريقة العشرية. بمعنى أن أكبر وحدة في الجيش المغولي تتكون من عشرة آلاف رجل تسمى «تومين» تنقسم بدورها إلى وحدات كل وحدة تعدادها ألف رجل تدعى «منجهان»، وتلك التي تتشكل من مائة جندي هي «الجاجون»، والتي تتشكل من عشرة رجال تسمى «آمبان». كما زرع بينهم فكرة «روح الجماعة» ابتداء من الجماعة الصغيرة إلى الفرقة بأكملها، وقام بتطبيق مبادئه بصرامة. فلو تقهقر واحد من الجنود من الآمبان في أحد المعارك فإنه يتم إعدام العشرة جميعًا. ورغم أن قبائل المغول اعتبرت من أكثر قبائل السهول

همجية حيث لم تتعرض لأقل القليل من الحضارة، فإنها تحت قيادة جنكيز خان خضعت لنظام صارم لم تعرفه أي قبيلة أخرى من قبل، وقد كان هذا المزيج من الهمجية والصرامة مزيجًا مرعبًا للغاية، استخدمه بعد ذلك الخمير الحمر في كمبوديا في القرن العشرين.

شيء آخر اقتبسه المغول عن غير عمد من إحدى القبائل المجاورة هو اسم «التارتار» أو «التتار». قبل ظهور جنكيز خان كان التتار من أكبر وأشرس القبائل في شمال الصين، وقد ذبح جنكيز خان أغلب سكانها حين سنحت له الفرصة انتقامًا منهم لقتل أبيه. ومع ذلك ففي السنوات التالية صار العالم كله يطلق على المغول اسم التتار، تمامًا كما فعل أناس كثيرون في الأزمنة القديمة مع الفرس حين سموهم «الميديون».

والعنصر الثالث الذي ساهم في تفوق المغول العسكري، هو استفادتهم من مجموعة نادرة من المواهب العسكرية الفذة، فجنكيز خان لم يكن وحده يقود جحافل المغول، بل إنه كان يقود مجموعة من القادة العسكريين المتازين الذين تصادف وجودهم في وقت واحد وفي موقع واحد، وهي ظاهرة يلاحظ تكررها في التاريخ العسكري لبلاد كثيرة وتتمثل في النجاح المفاجئ لمهارة عسكرية في دولة ما، فتزيح القيادات العسكرية القائمة وتحل محلها، وعندئذ تتغلب الكفاءة على الأقدمية أو المركز الاجتماعي. والأمثلة أمامنا كثيرة في التاريخ بدءًا من الجيش المقدوني الجديد الذي كونه الإسكندر الأكبر (بارمينيو، هيفاستيون، كراتيروس، برديكاس) إلى مارشالات الثورة عند نابليون (ماسينا، دافو، ناي، مورا) إلى الجيش الألماني عام ١٩٤٠–١٩٤١م (مانشتاين، جودريان، رومل، موديل) وفي التاريخ الأمريكي تبدو هذه الظاهرة بوضوح في جيش روبرت لي Robert E. Lee في شمال فرجينيا (جاكسون، لونج ستريت، ستيوارت هيل) الذي حقق نجاحًا كبيرًا في الحرب الأهلية. فقد تميز روبرت لي بقيادته واستراتيجيته الخاصة، وكانت لديه القدرة على حسن اختيار القيادات العسكرية، ولكنه استفاد أيضًا من تصادف وجود نخبة متميزة من المواهب ما كان من الممكن أن يذكرها التاريخ لولا الحكم الجديد الذي حل محل مرحلة قديمة وأفسح المجال لظهور الموهبة المحلية.

في الواقع، إنه من الصعب بمكان أن نذكر أي جيش تميز بهذه الثروة الهائلة من القيادات العسكرية الفذة غير جيش المغول في القرن الثالث عشر.

فقد كان من الممكن لجنكيز خان أن يعتمد على أبنائه جاجاتاي Jagatai، وأوجادي Ogadei، وتوليو Toliu وجوشي Juchi (وإن كان من المحتمل ألا يكون ابنًا من صلبه)، بالإضافة إلى بعض القيادات الأخرى المتميزة مثل سوباداي Subadei وموكالي Muqali وجيبي Jebe، وقد علم جنكيز خان هؤلاء القادة واحتضنهم واعتمد على مهارتهم. وحين وصل جنكيز خان إلى أفغانستان عسكر هناك ومعه قافلة تموينية، وبدأ يشرف على غزوات قادة جيشه. أنجب الخان كثيرًا من الأبناء استعان بهم في حروبه لكنه كذلك استفاد من مهارة قادة أكفاء ليسوا من صلبه مثل جيبي وسوبادي وآخرين غيرهما. ويعتبر جيبي حالة خاصة، فقد حارب قبل ذلك ضد المغول — بصفته عضوًا في قبيلة أخرى — وقتل أحد خيول جنكيز خان المفضلة، وهو حصان كستنائي أبيض الخطم. وبعد أسره، أحضروه إلى جنكيز خان حيث اعترف بقتله الحصان، لكن جنكيز خان أعجب بالشاب، وأطلق عليه اسم جيبي (وتعني السهم)، وأصبح منذ ذلك الوقت من أبرز القواد الفرسان في التاريخ. ومع تواصل نجاحات المغول في اجتياح الإمبراطوريات والحضارات، بدا أن استراتيجيتهم كانت أشبه بهجوم الأخطبوط، فقد كانوا يشنون هجمات متعددة الجوانب تحت قيادة قادة موهوبين على رأس كل جيش.

كان جنكيز خان في شبابه محاربًا شجاعًا، ذا حضور طاغٍ، بالإضافة إلى أنه كان مخططًا بارعًا لفنون الحرب، وله رؤية ثاقبة هادئة. وقد أطلق على نفسه بعد ذلك «إمبراطور كل الرجال» ومع تزايد قوته وسلطته أصبح يفضل تخطيط المعارك لا أن يشارك بنفسه في خضمها حاملًا قوسه وسيفه. ولد جنكيز خان عام ١١٦٢م، وكان في منتصف العمر حين تمكن من توحيد قبائل السهول ليخلق نواة إمبراطوريته، وبسبب براعته الحربية التي نجح في زرعها في أبنائه وقادة جيشه استطاع أن يحقق حلمه بقهر العالم حتى بعد وفاته. وربما كان أعظم نجاحاته هو خلق «ثقافة الانتصار» ونشرها بين جنود جيشه المغولي التركي الذي كونه. فلم يكن هناك فرد واحد في الجيش حتى أقل الجنود رتبة يقر الفشل. وفي واقع الأمر لم يكن هناك سبب يدفع جيشًا كهذا إلى الفشل. فقد خلق جنكيز خان ثقافة انتصار تجاوزت شخصيته ذاتها. وفي حين انهارت إمبراطورية «الهون» سريعًا بعد موت أتيلا،

لم تصل إمبراطورية المغول إلى قمة مجدها إلا بعد موت جنكيز خان بسنوات طويلة.

كان التطور الكبير الذي أحدثه المغول في حروب السهول هو النظام القاسي الذي كان الجنود يخضعون له، والذي امتزج مع المهارة المعروفة عن البدو في المناورة والقتال بضراوة. وعلى الرغم من أن أسلحة القتال لم تتغير كثيرًا على مدى آلاف السنين فمن المفيد أن نتعرف على الأسلحة التي استخدمها المغول. عام ١٢٤٦م بعد حوالي تسعة عشر عامًا من غزو جنكيز خان لأفغانستان طلب البابا إنوسنت الرابع Innocent IV من أحد الرهبان ويدعى جون John أن يزور أفغانستان في مهمة ظاهرها التبشير وباطنها الجاسوسية، فكتب هذا الراهب يقول:

> «كان كل فرد في هذه البلد يحوز هذه الأسلحة على الأقل: قوسان أو ثلاثة، أو على الأقل قوس واحد جيد، وثلاثة جعب ملأى بالسهام. ثم فأس يستخدم في الحرب، وحبال لجر الآلات. أما الأغنياء فكان لديهم سيوف حادة الأطراف مشحوذة من أحد جوانبها فقط ومقوسة إلى حد ما. كما كان لديهم دروع للخيل وللأرجل، وخوذات ... وبعض منهم كان لديهم رماح بها خطاطيف في أعناقها الحديدية تمكنهم من جذب الرجال من فوق ظهور الخيل ... وكان طول سهامهم قدمين، وذات رءوس حادة، وقد شحذت من الجانبين مثل سيف حاد النصل ... كما كان على خوذة التتار تاج مصنوع من الحديد أو الصلب. أما الجزء الذي يلتف حول العنق فقد كان مصنوعًا من الجلد.»

واستخدم المغول مجموعة من الأقواس المصنوعة من الخشب والقرون والأوتار يبلغ مداها مائتي ياردة، لكن فاعليتها تبدو عند ستين ياردة. وفي حملاتهم كان كل جندي يصطحب معه ثلاثة أو خمسة من خيول بحيث يتسنى له تغييرها — وكبدو رحل كانت لديهم دراية غريزية بمتطلبات الإعاشة والتنقل. ولأنهم قضوا معظم حياتهم بين عناصر الطبيعة القاسية في سهول آسيا فقد كانوا قساة وشديدي الغلظة. وقد لاحظ المؤرخ إريك هيلدنجر Erik Hildinger هذا الأمر حين قال: «لم يصل أحد من الأطفال الضعفاء البنية إلى

مرحلة البلوغ أبدًا.» أما الراهب جون فلم تكن لديه فكرة جيدة عنهم، فقد كتب يقول:

«التتار أشد شعوب الأرض كِبْرًا، يحتقرون كل من سواهم، بل إنهم في واقع الأمر لا يقيمون لغيرهم وزنًا سواء أكانوا من النبلاء أم من الطبقة الدنيا ... وهم قذرون في ملبسهم ومأكلهم وكل حياتهم. ويتميز هؤلاء القوم بقدرتهم الكبيرة على إضمار الشر الذي يريدونه بالآخرين في أنفسهم، حتى لا يتخذ ضحاياهم حيطتهم أو يجدون من طمعهم مهربًا ... كما أنهم غيورون جشعون، كثيرو السؤال، شحيحو العطاء، يسهل عليهم قتل من ليس منهم دون أن يطرف لهم جفن، لقد كان شرهم هذا هو ما أعجز الآخرين عن إخضاعهم.»

بعد توحيد قبائل السهول كانت مهمة جنكيز خان الأولى هي غزو الصين التي كانت في ذلك الوقت مقسمة إلى ثلاث ممالك: ففي الشمال كانت توجد إمبراطورية «شين»، وإلى الجنوب «سانج»، وفي الشمال الغربي هسي-هسيا (أو زيزيا)، وكانت هي أضعف هذه الثلاث. وقد اختار جنكيز خان أن يهاجم «هسي هسيا» والتي كانت تحكمها قبيلة من التبت الصينيين تدعى تانجوتس، وفي المعارك الأولية كان المغول — كما كانت جيوش الخيالة من البدو الرحل سابقًا — يجدون صعوبة في حصار المدن حيث كان ينقصهم المهندسون. وفي إحدى المعارك في نينجسيا — وهي إحدى عواصم تانجوت — حاولوا حجز مياه النهر بسدود حتى يغرقوا البلد، ولكن حدث خطأ ما فغرقت معسكراتهم، لكنهم فيما بعد أتقنوا هذا التكتيك — ولأن جيش هسي هسيا كان يضم محاربي السهول السابقين الذين لم يلبثوا أن انتقلوا إلى الجانب الآخر وقاتلوا في صف الغزاة، فقد سقطت الإمبراطورية بسرعة.

بعد ذلك هاجم جنكيز خان إمبراطورية «شين» وهي كبرى إمبراطوريات الصين وأقواها. وبعد خمس سنوات تقريبًا من الحروب، عاثت جحافل المغول في قرى هذه الإمبراطورية تخريبًا وفسادًا، وسقطت عاصمتها التي تحتل مكانها اليوم مدينة بكين عاصمة الصين. وللمرة الثانية استفاد المغول من أخطاء العدو، فقد عرض جنكيز خان السلام على إمبراطور شين، مقابل أن يحكم فقط ولاية هونان وينادى: «ملك هونان» ويتنازل عن لقب إمبراطور.

غير أن الإمبراطور عزيز النفس أبى، وهو ما أدى إلى زوال ملكه كلية. وفي ذلك الوقت كان المغول قد استولوا على غنائم وعبيد فاقت كل خيالهم. ولأن جنكيز خان كان همه الأول كقائد هو إثراء قبائل المغول، وهو ما تحقق بالفعل، فقد قفل راجعًا إلى منغوليا عام ١٢١٥م. ذكر المؤرخ ليو دي هارتوج Leo de Hartog أن المغول لم يعبئوا كثيرًا بتحصين الأراضي التي اغتصبوها فيما عدا بكين، وقال في هذا الصدد: «لم يدرِ المغول ماذا يفعلون بها، فقد كانت نظرتهم إليها كمجرد مستودع للغنائم.» وعاد جنكيز خان ومعه جيشه الرئيسي إلى السهول وترك موكالي وهو أحد قادة جيشه ليستأنف القتال، ويحافظ على تدفق الثروة إلى السهول، ولكي يقمع أي ثورة يقوم بها الشينيون. فيما بعد سنجد أن جنكيز خان سوف يعود ليقضي تمامًا على «الشينيين» ولتسقط الصين بأكملها في قبضة خلفائه بعد ذلك.

كان الاعتقاد الذي يعتنقه المغول هو أن قدر شعبهم أن يحكم جميع البشر وأن جنكيز خان هو «قاهر العالم». ومع ذلك فإن العالم بالنسبة لهم كان ينحصر في مناطق السهول في آسيا والصين. أما بالنسبة لمحمد الثاني ملك خوارزم فقد كان العالم يبدو مختلفًا تمامًا؛ فهو سيد العالم — وليس زعيم البدو البرابرة ذاك. ومع ذلك فحين تناهت إلى مسامع الخوارزميين أنباء سقوط بكين في أيدي المغول، انتاب محمد الثاني الفضول تجاه منافسه المحتمل ذاك، فبعث وفدًا إلى جنكيز خان في بكين بعد سقوط المدينة مباشرة، وحين استقبل جنكيز خان الوفد عرض عليهم ابن إمبراطور الصين ومعه كبير الوزراء وهم مقيدون في الأغلال. وقد أحدث ذلك التأثير المطلوب في نفوس سفراء محمد الثاني، وفيما عدا ذلك كان الإمبراطور لطيفًا معهم، وأخبر الرسل أن يقولوا لمولاهم إنه يعتبره حاكم الغرب ويعتبر نفسه حاكم الشرق، وأن السلام يجب أن يسود بينهما ليسمح للتجارة أن تتدفق بين الإمبراطوريتين.

وفي المقابل استقبل محمد الثاني رسلًا من الخان العظيم كان من بينهم رجل مسلم ولد في خوارزم اسمه محمود يالافاتش. وجه محمد الثاني إلى هذا الرجل مجموعة من الأسئلة ليستشف نوايا جنكيز خان، فأكد له محمود أن جنكيز خان ليس لديه أية خطط لمهاجمة السلطان، وأن جيوش المغول أقل عددًا من جيوشه.

ورغم أن السلطان محمد الثاني وافق على السلام بينه وبين المغول، فقد كان يشك في إمكانية إقامة علاقات تجارية بين الإمبراطوريتين. إذ كان يعتبر أن أي رسول يأتي من قبل جنكيز خان هو جاسوس (وكذلك كانت رسل محمد الثاني أيضًا) ثم لماذا يهتم المغول كثيرًا بالتجارة مع خوارزم في هذا الوقت بالذات في حين أن لديهم موارد الصين؟ وفي عام ١٢١٨م بعد فترة قصيرة من بعثة محمود، اشترى جنكيز خان بضائع من تجار مسلمين في مدينة خيوة، وفي المقابل أرسل قافلة مكونة من خمسمائة من الجمال محملة ببضائع غالية الثمن بصحبة أربعمائة وخمسين مسلمًا من رعاياه، وحين وصلت القافلة إلى حدود مدينة أوترار على شاطئ نهر سيردريا (سيحون) أسر حاكم الإقليم إينالشوك Inalchuq التجار، وصادر بضائعهم، ثم بعث برسالة إلى محمد الثاني تفيد بأن الأسرى كانوا جواسيسًا وطلب الموافقة على إعدامهم. ووافق محمد الثاني على إعدامهم، إما لشكه في أنهم جواسيس حقًا وإما لطمعه في البضائع الثمينة التي كانت معهم. لكن واحدًا من الأسرى من راكبي الجمال استطاع أن يهرب ليعود إلى جنكيز خان ويخبره بما حدث.

ربما يكون جنكيز خان قد خطط لغزو خوارزم، لكنه من المؤكد أنه كان يضمر الشر تجاه كوشلوج Kuchlug حاكم كرا كيتاي الذي كانت مملكته تقع بين الإمبراطوريتين. ومن الممكن أن نتصور أنه لو كان محمد الثاني قد سمح باستمرار تدفق الجواسيس إلى مملكته دون رادع فإن ذلك كان سيعني تهيئة الطريق لغزو محتم. ولذلك فقد أظهر قتله للقافلة بدون رحمة مدى قوته وثقته بنفسه، بل وربما يكون قد أخاف المغول حينها وأثناهم عن مهاجمة مملكته. ولقد كان رد فعل جنكيز خان متخاذلا بعض الشيء، فقد اكتفى بأن أرسل وفدًا آخر صغيرًا مكونًا من مسلم واثنين من المغول يطلب رأس إينالشوك. فما كان من محمد الثاني إلا أن قتل الرجل المسلم وحلق لحيتي المغوليين وردهما إلى زعيمهما. والواقع أن إمبراطورية خوارزم لم تكن تنوي الشر وهي تتخذ هذا الموقف المتشدد من غاصب محتمل. ولكن كما نعرف الآن ارتدت الرصاصة إلى صدر من أطلقها، وسوف تمتد تبعات هذا الأمر وعواقبه الوخيمة إلى ما بين دلهي ونهر الدانوب، وسيتم تدمير أفغانستان بالكامل، وستقع روسيا تحت نير الغزو التتري، ولسوف يسمع نصف العالم الإسلامي «صمت القبور»، فعام ١٢١٩م بدأ المغول في حشد قواتهم.

قرر جنكيز خان الهجوم أولًا على كاراكيتاي وعلى قبيلة مركيتس البدوية التي تقع شمال مملكته حول بحيرة بلكاش، كي يمهد الطريق أمام جيوشه. كان بينه وبين هاتين المملكتين عداوة قديمة تعود إلى أيام الحروب القبلية الداخلية، ولهذا فقد أرسل سوباداي مع ابنه الأكبر جوشي ليغير على مركيتس، ثم أرسل جيبي ليهاجم كاراكيتاي. وكان الاثنان على رأس قوتين قوام الواحدة منهما عشرة آلاف مقاتل. كان حاكم كاراكيتاي كوشلوج قد دأب لزمن طويل على إرهاب المسلمين في مملكته، ولهذا فقد تلقى جيبي أوامر صارمة بأن يحترم السكان المحليين وممتلكاتهم. هُزم كوشلوج في المعركة، وحين وجد نفسه محاصرًا من جميع الجهات فر جنوبًا إلى باداكشان التي تقع في شمال شرق أفغانستان، وأجبر جيبي على أن يطارده مسافة ٣٠٠ ميل. وأخيرًا تمت محاصرته في واد جبلي بين مطارديه ومجموعة من الصيادين لم يلبثوا أن أسلموه إلى المغول. وبعد قتله، سار المغول برأسه مهللين في أنحاء إمبراطوريته السابقة.

لم يجد سوباداي أيه صعوبة في هزيمة قبيلة مركيتس، وبينما كان يطارد فلولهم صادف قوة كبيرة من الخوارزميين يقودها محمد الثاني بنفسه، كانت تتفقد منطقة شمال سيردريا (سيحون)، فنشب قتال بين الفريقين استمر طوال اليوم دون أن يحسم أي الطرفين المعركة لصالحه، وبعد حلول الظلام انسحب المغول. ترك هذا اللقاء الأول مع المغول أثرًا عميقًا في نفس محمد الثاني، فقد كانت أسلحة فرسانه الأتراك لا تختلف عن أسلحتهم، كما كانوا يمارسون نفس أسلوب حرب السهول الذي كان يحارب به المغول، لذلك كان من المحتمل أن التنظيم الذي يميز قتال هؤلاء المغيرين وتماسك وحداتهم هو الذي أبقاهم صامدين. حين تقابل الأوروبيون بعد ذلك مع المغول، أدهشهم أسلوب المناورات الصامتة الذي يتبعه المغول باستخدام الرايات في وضح النهار والمشاعل الملونة في الليل. وبخلاف القتال الذي خاضه مع المغول قد تكون أنباء اجتياح جيبي لكاراكيتاي أرض عدوه اللدود هي أكثر ما أثر في نفس محمد الثاني. وفي الواقع، إنه حتى جنكيز خان نفسه أعجب بانتصار جيبي، فأرسل إليه يطلب منه ألا يغتر بنفسه، وكان رد جيبي أن بعث إليه بهدية عبارة عن ألف من الخيول كلها كستنائية بيضاء الخطم.

في خريف عام ١٢١٩م وصلت قوات جيش المغول الرئيسية إلى حدود خوارزم عند سيردريا (سيحون)، وقدر قوام الجيش بعدد يتراوح ما بين

٩٠٠٠٠ و٢٠٠٠٠٠ مقاتل، بينما كان جيش الإمبراطورية الخوارزمية يضم نحو ٤٠٠٠٠٠ مقاتل، لكن أغلبه كان منتشرًا في أرجاء الإمبراطورية كحاميات، وكان محمد الثاني حكيمًا فاختار ألا يبادر بمهاجمة قوات المغول التي تحاصر دولته. لكن حكمته قد خانته عندما ظن أن محاربي السهول الآسيويين غير قادرين على حصار المدن، فقد اكتشف بعد ذلك أن جيش جنكيز خان كان يصطحب معه الآلاف من مهندسي الحصار الصينيين الذين تمكنوا من بناء مدكات أسوار، ومجانيق وقاذفات نيران.

وعند سيردريا (سيحون) أرسل جنكيز خان عددًا من السرايا تسير على امتداد النهر لتخضع المدن المحصنة في طريقها، كما أرسل ولديه جاجاتاي وأوجادي على رأس قوة أكبر لمحاصرة مدينة أوترار على الضفة الشرقية حيث حدثت مذبحة القافلة التي أشعلت الحرب، وقد قاتل الحاكم إينالشوك بضراوة طوال الأشهر الخمسة التي استغرقها الحصار، وبعد سقوط المدينة اعتصم إينالشوك في قلعته مع عشرين ألفًا من رجاله إلى أن سقطت القلعة وسط مذبحة بشعة. وحين أسر إينالشوك أخيرًا، أعدم بصب الفضة المذابة في عينيه وأذنيه.

بعدها بدأت قوة الجيش الأساسية تتجه مع جنكيز خان إلى الجنوب الغربي. وبدلًا من الاتجاه إلى عاصمة خوارزم في سمرقند، اخترق المغول بلاد ما وراء النهر في اتجاه صحراء كيزيل كوم، وتحت إرشاد دليل تركماني واصل الجيش مسيرته إلى بلاد نور مفاجئًا مواطنيها الذين لم يتوقعوا أي هجوم من ناحية الصحراء الغربية. ومنذ ذلك الوقت ولسنوات طويلة عرف هذا الطريق باسم طريق الخان، وربما لأن سياسة جنكيز خان الأساسية كانت عدم ترهيب الأهالي حتى لا يدفعهم هذا إلى المقاومة، فقد ترك أهل نور وشأنهم. لكنه مع تقدم حملته بدأ يتخلى عن هذا المسلك الرحيم.

وفي فبراير/شباط من عام ١٢٢٠م وصلت قوة الجيش الرئيسية إلى بخارى التي لم تكن تتوقع أن تُهاجَم قبل سمرقند. وبعد ثلاثة أيام من الحصار حاولت الحامية التركية التسلل من بين خطوط المغول تحت جنح الظلام، ونجح بعض منهم في النفاذ والوصول بأمان إلى آمودريا (جيحون)، أما أغلبهم فقد طاردهم المغول حتى أسروهم ثم ذبحوهم على رءوس الأشهاد في اليوم التالي. وقد احتاج المغول إلى اثني عشر يومًا آخرين ليسحقوا حوالي أربعمائة من المقاتلين العنيدين المعتصمين في قلعة المدينة، وعندها فتحت

بخارى على مصراعيها أمام عمليات السلب والنهب، وأمر السكان بالوقوف خارج الأسوار وهم مرتدين قمصانهم فقط لينالوا عقابهم من التعذيب، وكل من سولت له نفسه أن يختبئ في الداخل ذُبح. ذكر المؤرخ الفارسي علاء الدين أن جنكيز خان ألقى خطابًا على مجموعة من أثرياء بخارى قائلًا: «أيها الناس ... اعلموا أنكم قد ارتكبتم خطايا كبيرة، وأن كباركم هم الذين ارتكبوا هذه الخطايا. وإذا سألتموني دليل صحة ما أقول لأجبتكم بأني عقاب الله الذي نزل بكم فلو لم ترتكبوا هذه الجرائم لم يكن الإله ليعاقبكم بي.»

بعد أن ترك المغول بخارى وهي تشتعل بالنيران، اتجه جنكيز خان إلى سمرقند حيث لحق به جاجاتاي وأوجادي وقوات أخرى، وقد صحب الجيش مجموعات من الأسرى من بخارى وأورتار وكان يفرض عليهم الوقوف في تشكيلات معينة بحيث يبدو جيش المغول أكبر من حجمه الحقيقي. وخلال الهجوم كان الأسرى يوضعون في مقدمة قوات المغول حتى يتلقون الضربة الأولى.

في بداية المعركة تمكنت حامية سمرقند من الخروج وراء الأسوار وأجبرت شطرًا من جند المغول على الفرار، غير أن هذا الفرار لم يكن إلا تظاهرًا، فبعد أن استدرجهم المغول بعيدًا عن المدينة، أعدوا لهم كمينًا أطبق عليهم من الخلف، وقتل في هذه المعركة خمسون ألفًا. وبعد خمسة أيام فقط استسلمت حامية سمرقند فيما عدا القلة المدافعة الصامدة لآخر لحظة التي توجد في أي مدينة والتي ذُبحت كالعادة.

وكما حدث في جميع مدن إمبراطورية محمد الثاني السابقة، كان المغول يدخلون بيوت الأهالي الواحد تلو الآخر لينتقوا الصناع المهرة من بين جموع الناس. وكان الصناع ينجون من الموت، حيث كان المغول يستخدمونهم لأغراض حربية مختلفة في أثناء حملاتهم أو يبعثون بهم إلى منغوليا. وقد حاول الكثير من الجند الأتراك أن ينتقلوا إلى صفوف المغول لكن المغول كانوا يذبحونهم. ويعلق المؤرخ إريك هيلدنجر على ذلك بقوله: «رغم أن جنكيز خان قد استفاد من الخونة استفادة عظمى قبل ذلك فإن حامية سمرقند قد أثارت في نفسه الاحتقار.» وقد ترك المغول حوالي ربع الأهالي أحياء لمحاولة استعادة مواردها من جديد.

امتلأ محمد الثاني بالرعب بعد الانهيار الدموي لإمبراطوريته، فهرب هو وزوجاته وبعض أتباعه جنوبًا إلى بلخ ومنها غربًا إلى نيسابور. وأمر جنكيز

خان أعظم قائدين في جيشه — جيبي وسوبادي — بمطاردته على رأس جيشين قوام الواحد منهما عشرة آلاف مقاتل. لم تقاوم بلخ واستسلمت، فتركها المغول وشأنها لفترة، وواصلوا زحفهم الدموي عبر إيران لمطاردة السلطان الذي ما لبث أن مات إثر مرض لم يمهله طويلًا وهو في مخبئه في إحدى جزر بحر قزوين. ولقد تسبب السلطان محمد الثاني بدفعه المغول لمطاردته نحو الغرب في مأساة ألمت بملايين البشر. صحيح أنه من المحتمل أن المغول كانوا سوف يتوسعون غربًا في جميع الأحوال، لكن ما نعلمه على وجه التحديد هو أنه بعد اجتياحه لبلاد فارس، طلب جيبي الإذن بالاستمرار في التقدم، ليدور حول بحر قزوين ويعود إلى دياره عن طريق السهول الشمالية. وهذه المغامرة التي يطلق عليها «الغزو الكبير» سوف تتمخض عن موقعة كبرى ستقع عام ١٢٢٣م عند نهر كالكا في أوكرانيا، حيث دمر جيبي وسوباداي جيشًا مسيحيًّا قوامه ثمانون ألف جندي. وبعد موت جنكيز خان سنرى أن جيوش المغول الضخمة سوف تحذو حذو القائدين، فتتوغل في الشرق الأوسط وأوروبا بهدف احتلال بلادهما احتلالًا دائمًا.

أراح جنكيز خان جيشه في التلال الواقعة جنوب سمرقند خلال صيف ١٢٢٠م ثم أرسل أبناءه: جوشي، وجاجاتي، وأوجادي؛ إلى جورجانج (بالقرب من أورجنش حاليًّا) وهي مدينة تجارية كبيرة تقع في دلتا نهر آموداريا (جيحون). وانتهت ملحمة الحصار لهذه المدينة ليس فقط بالسلب والنهب والمذابح بل بتحويل مجرى آموداريا (جيحون) ليغرق المدينة وجميع من بها من بشر، فيخلق بذلك مستنقعًا تسبب في تهاوي البيوت الطينية. وبعدها أرسل الخان ابنه الأصغر «توليو» إلى منطقة خراسان، وبعد حصار أيام قليلة استسلم حاكم ميرف في مقابل الإبقاء على حياته وحياة رعاياه، لكن المغول خدعوه وذبحوا جميع من كان في المدينة، فقد عُهد إلى كل جندي بقطع رءوس ثلاثمائة أو أربعمائة من المواطنين، وبالطبع وقع العبء الأكبر على كواهل الجنود الأتراك ممن انخرطوا في صفوف المغول.

استمر توليو في زحفه نحو نيسابور، وكان المدافعون عن هذه المدينة قد قتلوا في معركة سابقة توكوشار وهو أحد قادة المغول، وهناك ارتكب توليو مذبحة أخرى، وسمح لأرملة توكوشار بأن تشرف على إبادة أهل نيسابور بنفسها، فقامت الأرملة ببناء هرم من رءوس القتلى، ورصت رءوس الرجال

والنساء والأطفال، كل في صف منفصل. وحين وصل توليو إلى هرات وجد لدى جند حاميتها التركية رغبة في القتال (ولم يكن هذا معتادًا)، لكن الأهالي فضلوا الاستسلام وفتحوا الأسوار أمام الغزاة، فأبقى المغول على حياتهم في حين ذبحوا الاثني عشر ألف جندي الذين هم قوام الحامية، ثم قام توليو بتعيين مجلس حكم مشترك بين المسلمين والمغول ليدير شئون البلاد.

وفي أوائل عام ١٢٢١م عبر جنكيز خان آمودريا (جيحون) ووصل إلى بلخ التي استسلمت له كما سبق أن استسلمت لجيبي وسوباداي، ورغم ذلك فقد أمر الخان بقتل عدد كبير من الأهالي. وهنا لنا أن نتساءل ما إذا كان تعمد ذبح الأهالي بوحشية يدل على قسوة شديدة أم نزعة سادية تفرق بين المغول وغيرهم من بقية الشعوب المحاربة. لا يتفق دي هارتوج De Hartog مع هذا الرأي ولكنه أيضًا لا يمتدح المغول عندما يقول: «لم يكن لدى جنكيز خان أو قومه المغول أدنى تقدير للحياة البشرية أو الحضارات المستقرة أو المجتمعات الزراعية، فقد كانوا فاقدي الاهتمام بأي شيء مغاير لحياة السهول التي أَلِفُوها. وبدون شك لم يقم المغول بعمليات القتل والسلب والاغتصاب بدافع من السادية، بل كانوا يمارسون هذه الأفعال لأنهم ببساطة لا يعرفون شيئًا غير ذلك.»

والسبب الثاني الذي يدفعهم لحرمان أراضي الأعداء من مواطنيها هو وضع حد لمقاومتهم أو تمردهم، فبالرغم من قوة وحدات الجيش المغولي الرئيسية فإنه على المستوى الفردي أو على مستوى الجماعات الصغيرة كان لمحاربي السهول نقاط ضعفهم، وعلى مستوى المواجهة الشخصية في الحروب (رجل لرجل) كان قوامهم أقصر من أعدائهم الجنوب آسيويين — لذلك كان التقليل من كثافة السكان في المناطق التي يستولون عليها سياسة واقعية وذات جدوى بالنسبة لهم. فضلًا عن أن الإرهاب، كما يقول هيلدنجر: «أصبح وسيلة فعالة في الحرب، فالإرهاب الموجه لغرض ما قد يغني عن حصار المدن، ويجنب المغول الكثير من الخسائر.» ومن المحتمل أيضًا أن إرهاب المغول كان له وقع أكبر في العالم الإسلامي عن أي مكان آخر، ولذلك كانوا يمارسونه بدرجة أشد. فخلال حملات جنكيز خان في الصين قتل الكثير من أهلها، لكن الصينيين كانت لهم خبرة بالبدو الرحل لقرون طويلة ولذلك لم يسهل خداعهم، أما في العالم الإسلامي، وكما حدث في روسيا بعد ذلك؛ كان الأهالي

أكثر بساطة وسذاجة ولم يستطيعوا استيعاب قسوة المغول. يتحدث الراهب جون عن هذا الأمر في كتاباته قائلًا:

«حين كانوا يقفون أمام الحصون كانوا يتحدثون بلطف مع الأهالي ويعدونهم بالخير إذا استسلموا، فإذا ما فعلوا ذلك كان التتار يطلبون منهم الخروج من مخابئهم حتى يحصوا عددهم كما هي عادتهم، فإذا ما استجابوا، كان التتار يسألون عن أصحاب الحرف منهم وينحونهم جانبًا، أما الباقون فكانوا يقتلونهم بالفئوس فيما عدا من يتخذونهم عبيدا.»

وفي أفغانستان الشمالية زحف جنكيز خان إلى طاليكان وهو حصن يقع على الطريق من بلخ إلى هرات حيث حاصرها دون أن يوليها اهتمامًا حقيقيًّا وأخذ يزجي الوقت في مراقبة نشاط أبنائه وقادته عن بعد، ثم لحق به توليو هناك بعد أن انتهى من عاصفة تخريب خراسان التي دامت ثلاثة أشهر، وكان الخبر السيئ بالنسبة لهم آنذاك أن جلال الدين — أقوى أبناء محمد الثاني — قد فر من جورجانج إلى أفغانستان التي كان يحكمها قبل الحرب.

ولأن قوات المغول كانت قد أغارت على إيران ودمرتها حتى القوقاز، فقد كان الملاذ الوحيد للأتراك والفرس الذين يريدون القتال هو المنطقة الواقعة جنوب الهندوكوش. لذلك نشر جنكيز خان عشرة آلاف مقاتل ما بين آمودريا (جيحون) وخراسان حتى يمنع تدفقهم. وبعد فرار جلال الدين من جورجانج قامت مجموعة من كشافة المغول بمطاردته، لكن جلال الدين ومعه ثلاثمائة من الفرسان نجحوا في تفادي قوة من المغول قوامها سبعمائة رجل، وأثناء ذلك كان إخوته — ومن بينهم ولي عهد خوارزم — قد ساروا في اتجاه آخر، لكنهم أسروا وقتلوا.

فقد المغول أثر جلال الدين بالقرب من «فرح» جنوب أفغانستان، واتجه الأمير صوب غزنة حيث تمكن من جمع بعض المهاجرين وقوات من الحامية التركية تضم فرقة بقيادة «تمير مالك» وهو واحد من القادة الخوارزميين، كان قد أبلى بلاء حسنًا في قتال المغول قبل ذلك. وكان ممن استجابوا لنداء جلال الدين أيضًا القبائل التي تسكن التلال في أفغانستان الذين هبطوا من تلالهم بجيوش قوية. وبذلك تشكل الجيش من سلالة السث+يانيين

والكوشانيين والهون البيض والأتراك الخلج وربما من اليونانيين أيضًا، وتهيأ الجميع للحرب بعد أن وصلت قوات جلال الدين إلى ستين ألفًا. وعندما وصلت الأنباء جنكيز خان طلب من جاجاتاي وأوجاداي اللحاق به وتجمع الجيش بالقرب من قندوز. وكانت خطة جنكيز خان أن يزحف بالجيش خلال الممرات إلى باميان، بينما أمر قائدًا آخر من قادة جيشه هو شيجي كوتاكو Shigi Kutaku بالتقدم نحو الجنوب وبصحبته ثلاثة عشر ألفًا من الجنود. وكان هذا القائد — وهو من التتار — قد تبناه جنكيز خان وهو صغير ثم زوجه إحدى بناته.

في ربيع عام ١٢٢١م تقدمت قوات جلال الدين لتشتبك مع دوريه استكشافية من جيش كوتاكو عند قرية تدعى فاليان على امتداد نهر جوري، وسُحقت الدورية فيما عدا قلة بقيت على قيد الحياة، ثم زحف جلال الدين صوب باروان التي تقع على بعد حوالي خمسين ميلًا شمال كابول في انتظار المعركة المحتومة. وكان كوتاكو — دون أن يتلقى أوامر بذلك على الأرجح — قد تقدم بعد هزيمة دوريته ليلاحقهم بجيشه المكون من ثلاثين ألفًا من المغول.

تقابل الجانبان في واد صخري لا تصلح أرضه لقتال الفرسان ومن ثم فقد أعاق كثيرًا من حركة الجيشين. وأخذ جلال الدين المبادرة التكتيكية، فأمر الجناح الأيمن المكون من الأتراك بقيادة تيمر مالك بأن يترجل حيث إن رامي السهم يستطيع أن يحكم تصويبه ويزيد رميته قوة وهو واقف على قدميه، وفي نفس الوقت لم يسمح هذا للمغول بأن ينفذوا خدعتهم المعروفة في بالتظاهر بالتقهقر مع إعداد كمين للانقضاض على العدو من الخلف. ومع ذلك استطاع المغول أن يصمدوا في اليوم الأول، على الرغم من أن الأفغان أنفسهم كانوا يشعرون بنقاط ضعف خصومهم فتسلقوا المرتفعات ليتمكنوا من تصويب سهامهم عليهم من أعلى بحيث تساعدهم الجاذبية الأرضية على زيادة قوة رميتهم وإحكام تصويبها.

وفي اليوم التالي تطلع جيش جلال الدين عبر الوادي إلى جيش المغول الذي بدا وكأن عدده قد تضاعف، لكن كانت خدعة من كوتاكو الذي صنع دمى من القش ألبسها ملابس المحاربين ووضعها على ظهور الخيل. حاول جلال الدين تهدئة روع قادة جيشه بينما ظل هو على حماسه لاستئناف القتال، وفي هذه المرة أمر الخط الأول من الفرسان بأكمله أن يترجل.

حين هاجم المغول الجناح الأيسر من جيش الأفغان، أمطرهم وابل من سهام جيش جلال الدين فأسرعوا بالتقهقر في فوضى، وحينئذ أمر القائد المغولي بالهجوم على الخطوط الأمامية للعدو. وكان من الممكن أن يقع المدافعون المترجلون فريسة سهلة لو تمكن الفرسان المغول من الإطباق عليهم، لكن المهاجمين كانوا مجبرين على اختراق حائط السهام الذي كان ينهال عليهم. وتدريجيًّا بدأ التنظيم المغولي الشهير في التخلخل وبدأ الجنود في التراجع، وهنا حانت الفرصة أمام جلال الدين فأحضر الخيل بسرعة، وطلب من رجاله أن يمتطوها، وشن هجومًا مضادًا. فوجئ المغول بما حدث وبدءوا في التقهقر من الوادي، لكن رجال جلال الدين لحقوا بهم، وفقد كوتاكو أكثر من نصف جيشه في هذه الموقعة. ويمكن لنا أن نتصور عدد القتلى الذين سقطوا عندما وقع المغول الفزعون في الشرك وأخذوا يفرون بحياتهم من الترك والأفغان الذين كانوا يطاردونهم.

كانت باروان المعركة الوحيدة التي خسرها الجيش المغولي أمام الخوارزميين، وكانت كذلك المعركة الوحيدة التي خسرها المغول خارج منطقة شرق آسيا خلال الثمانين عامًا التي تلتها. أما بالنسبة للخوارزميين فربما يكون هذا النصر قد جر عليهم وبالًا أكبر مما جلب لهم من خير؛ لأنه قبل أن يحشد جلال الدين جيشه في غزنة لم يكن من المؤكد أن المغول يطمعون في الوصول إلى جنوب جبال الهندوكوش، أما وقد هُزموا تلك الهزيمة النكراء، فقد عبر جنكيز خان بنفسه الممرات زاحفًا بجيش جرار يضم سبعين ألف مقاتل.

وصل الخان إلى باميان التي كانت فيما سبق مجتمعًا بوذيًّا يقع في وسط جبال الهندوكوش، لا بد أنه تعجب كثيرًا وهو يحدق في تماثيل بوذا الضخمة المنحوتة في الصخر، أضخم تماثيل وقعت عليها عيناه. لكن باميان استعصمت فضرب الخان عليها الحصار، وبينما كان في جولة استطلاعية لأسوار المدينة أصيب حفيده المفضل مويتيوكين Mo'etuken ابن أوجاداي برمية سهم أردته قتيلًا. وترتب على هذا أنه بعد أن سقطت المدينة بعد أسبوع من الحصار قام جنكيز خان بتدميرها بالكامل، ولم يكتفِ بقتل كل من فيها من بشر وإنما قتل كذلك القطط والكلاب، وحرّم على أي أحد أن يعيش فيها بعد ذلك. واليوم تعتبر باميان، مثل بقية الأماكن التي وطئها المغول، موضع اهتمام علماء الآثار.

وكما هو حال الأفغان في كل زمان، ما كاد جيش جلال الدين ينتصر، حتى انفرط عقده سريعًا. فقد زالت عن الأتراك نشوة الانتصار وأخذوا يتصارعون حول الغنائم (التي كانت في معظمها خيلًا وسلاحًا)، في حين كانت قبائل الأفغان رغم انتشائها بهزيمة المغول متخوفة من تبعات المعركة، فعادت إلى موطنها في الجبال. عندها لم يجد جلال الدين، الذي لم يتبق من جيشه سوى عشرين ألف رجل؛ حلًّا أمامه إلا أن يخترق سلسلة جبال سليمان التي تقع في باكستان متجها صوب نهر السند.

توجه جنكيز خان من الهندوكوش إلى وادي كابول ملتفًا حول باروان ليتفقد ساحة القتال حيث كانت جثث الآلاف من المغول منتشرة في الوادي في أكوام كبيرة متحللة، ولكن بدلًا من الشعور بالغضب، سار مع شيجي كوتاكو يشرح له الأخطاء التي ارتكبها. ورغم أن المغول لم يعتادوا الهزيمة تحت قيادة جنكيز خان، فإن الخان نفسه حين كان صغيرًا وملقبًا بتيموجين كان يعي تمامًا أنه في أي معركة لا بد من غالب ومغلوب، كما كان يعلم جيدًا المأزق الذي يمكن لقائد غير متمرس أن يضع نفسه فيه.

عندما وصل جنكيز خان إلى غزنة علم بتقهقر جيش جلال الدين، فقاد قواته في مطاردة لا هوادة فيها مدة يومين لم يتوقف خلالها للتزود بالطعام. وفي الجبال لحق بقوة من ألف رجل من مؤخرة الجيش الأفغاني وسحقها تمامًا. وبعد سباق عبر البنجاب، تقابل جنكيز خان مع جلال الدين عند نهر السند قبل أن يتمكن الأمير من عبوره. وكان جيش المغول منهكًا إلى جانب تناقص عدده خلال مسيرته، لكنه كان متفوقًا على خصمه في العدد. ويقول البعض إن جناحي الجيش اصطفا على النهر في تشكيل هلالي في حين حوصرت قوات جلال الدين في وسط هذا الهلال والنهر خلفهم، أما الجناح الأيسر فقد كان مصطفًا بمحاذاة سلسلة من الجبال.

في فجر اليوم التالي بدأ جنكيز خان الهجوم محتفظًا بقوات احتياطية خلف قلب الجيش. وقام تمير مالك وجنوده الأتراك بصد هجوم الجناح الأيسر للمغول في نفس الوقت الذي دفع فيه جنكيز خان بوحدات من قواته في اتجاه سلسلة المرتفعات التي تقع إلى يمينه، لكنه حين رأى بوادر انكسارها، أمر أحد قادته ويدعى بيلا نويان Bela Noyan بشن هجوم كاسح. في هذه الأثناء كان جلال الدين يقود هجومًا مضادًا تجاه قلب الجيش المغولي وكاد أن يخترقه،

لكن قوات بيلا نويان بدأت في التدفق من خلفه على امتداد سلسلة الجبال. أما في ميسرة الجيش المغولي، فيقال إن جنكيز خان قاد بنفسه هجومًا مضادًا على رأس قواته الاحتياطية التي صدت تمير مالك. وحين أحاط المغول بجناحي الجيش حُسمت المعركة لصالحهم، وهنا اخترق جلال الدين صفوف المقاتلين بعد أن خلع درعه وقاد حصانه عبر ضفة نهر السند مسافة ٢٠ قدمًا، في البداية انهالت عليه سهام المغول، مما يدل على أنه ظل يقاتل إلى آخر دقيقة، لكن جنكيز خان الذي كان يراقب شجاعة الأمير الصغير أمر رجاله بالكف عن مهاجمته، ووقع تمير مالك في الأسر ثم بعدها بفترة أُعدم في كوهات، في حين عاش جلال الدين ليعود للقتال مرة أخرى بعد أعوام قلائل.

بعد المعركة تحرك جنكيز خان نحو تخوم ما يعرف اليوم بمدينة بيشاور، وأرسل سريتان استكشافيتان إلى باجور ووادي كونار. وعبرت قوة تتألف من عشرين ألف مقاتل مغولي نهر السند ونهبت مدينة مولتان بعد الاستيلاء عليها، ولكن سرعان ما انسحبت بعد ذلك. ويبدو أن جنكيز خان وجد أن جو الهند غير ملائم لفرسانه القادمين من السهول الشمالية، كما علم أيضًا أن انتصار جلال الدين في باروان شجع على ظهور حركات تمرد وثورة في أفغانستان، فعاد أدراجه عن طريق ممر خيبر، وعسكر بجوار كابول طوال فصل الخريف، ثم أرسل ابنه أوجاداي ليدمر غزنة التي كان المغول قد مروا عليها في عجلة وهم يطاردون جلال الدين.

ثم حدث أن قامت حركة تمرد في هرات، وقتل الأهالي الحاكم المغولي فأُرسل جيش من المغول لمحاصرتها، وقاومت هرات مدة ستة أشهر، ولكن أسوارها سقطت في النهاية وقتل جميع أهل هرات في مذبحة دامت سبعة أيام كاملة، وبعد أن انتهت المذبحة ورحل المغول، عادت إحدى الكتائب إلى هرات لتفاجئ من اختبئوا وأفلتوا من المذبحة، فوجدت ألفين من الضحايا ضمتهم إلى أكوام جثث القتلى. وتمردت بلخ أيضًا بعد أن كانت قد أفلتت من عمليتي إبادة في مرتين سابقتين، وفي هذه المرة كانت المذبحة ساحقة حتى إن زائرًا صينيًّا مر بالقرب من أطلال المدينة لم يسمع فيها سوى صوت نباح الكلاب. ويقال إن أهالي أفغانستان أجبروا على أكل لحوم الكلاب والقطط ليبقوا على قيد الحياة، لكن أهل الجبال أنفسهم لم يكونوا غرباء عن هذه الأفعال، فقد ذكر سي. سي. واكر، وهو أحد كتاب سيرة جنكيز خان «أن خريف ١٢٢١م

كان واحدًا من أسوأ الفترات التي مرت بوديان أفغانستان، فقد تعرض رجال الجبال، وهم أنفسهم غزاة ذوي بأس شديد، لغزو على يد خبراء وضلعاء في الغزو. وفي منطقة استراتيجية وسط هذه البلاد كان يعسكر المغول الذين سلبوا ونهبوا نصف بلاد آسيا.»

وكما رأينا فإن الأهالي المقيمين في أفغانستان كانت معاناتهم شديدة، لكنه من المستبعد أن يكون البدو الرحل في السهول قد تعرضوا لهجمات خيالة المغول. وحين تحاور الراهب جون مع بعض المغول بعد موت جنكيز خان بتسعة عشر عامًا سمع قصصًا خيالية مثيرة عن هذه الحملة، ومنها قصة يبدو أنها صحيحة عن أفغانستان. فحسب ما قيل: «انطلق بعض المغول من جبال قزوين، وساروا مدة شهر عبر أرض جرداء حتى وصلوا إلى بلد مهجور لم يجدوا فيه إلا رجلًا وامرأته، فاصطحبوهما إلى جنكيز خان، وحين سألهما عن أهالي هذه البلدة قالا: «إنهم يعيشون تحت أرض الجبال»، فطلب جنكيز خان من الرجل والمرأة أن يأمرا الأهالي بالخروج من مخابئهم، ويبدو أنهما وافقا على ذلك، لكن هؤلاء الناس برزوا من مخابئهم التي تحت الأرض على حين غرة وانقضوا على التتار وقتلوا الكثير منهم.»

وما سمعه الراهب من المحاربين المغول يتشابه إلى حد كبير مع القصص التي تداولها الجنود السوفييت بعد حربهم في أفغانستان في ثمانينيات القرن العشرين. فنظام الري بالقنوات الذي يتطلب وجود آلاف الحفر والأنفاق بالقرب من التجمعات السكانية، وفر مخابئ ممتازة للمدافعين عن البلاد، هذا بالإضافة إلى الكهوف الطبيعية المحفورة في الجبال. ورغم أن جنكيز خان وخلفه من بعده لم يقوموا بتسجيل حملاتهم في سجلات مدونة، فإن هناك احتمال قائم بأن يكون تدمير نظام الري في أفغانستان الذي حدث وقتها متعمدًا، فقد يكون نظام الري قد فسد جراء الإهمال الذي لقيه بعدما قتل جميع سكان المنطقة، أو قد يكون أفسد عن عمد. ومن الممكن ألا يكون الجنود المغوليون قد أفسدوه بأنفسهم، وإنما قد يكونون قد أمروا المزارعين المذعورين بفعل هذا.

والجدير بالذكر هنا أن قافلة المؤن التي تركها جنكيز خان شمال الهندوكوش حين بدأ مطاردته لجلال الدين كانت كثيرًا ما تتعرض للإغارة والنهب في غيابه. فرغم أن الجماعات الأفغانية المستقرة كانت قد سقطت

وانهارت فإن قبائل البدو الرحل في التلال كانت حرة طليقة تشكل خطورة أيضًا.

أمضى جنكيز خان شتاء عام ١٢٢٢م في تخوم سمرقند، ثم أمضى العام الذي يليه غرب تركستان يمارس الصيد ويرفه عن نفسه. وفي ١٢٢٣م لحق به جيبي وسوبادي اللذان كانا عائدين من غزوتهما الكبرى التي وقعت بالقرب من بحر قزوين، والتي أبادا فيها جيوشًا كاملة من المسلمين والمسيحيين. وفي عام ١٢٢٧م توفي جنكيز خان وفاة طبيعية، وربما كان سقوطه من ظهر حصانه وهو يصطاد هو ما عجل بنهايته، ودفن في حجرة تحت الأرض جالسًا على عرشه يحيط به المقربون من زوجاته وخدمه، وبلا شك، دفن معه أيضًا قدر كبير من الأموال. وقد قتل المغول العبيد الذين قاموا بحفر المقبرة، ثم قاموا بتسوية الأرض فوقها، بل وزرعوا أيضًا بعض الأشجار في نفس الموقع حتى لا يقلق أحد الخان الكبير، وحتى الآن لم يعثر في منغوليا على المكان الذي رقد فيه جنكيز خان رقدته الأبدية. ولكن نظرة واحدة إلى أفغانستان تعطينا الدليل الحي الباقي على نجاحاته في حياته.

حين عاد الغزاة إلى منغوليا، لم يخلفوا وراءهم أي قوات، بل تركوا وراءهم مجموعة من الأهالي وسط دمار وفوضى سياسية، فقد تسبب تدمير غزنة وهي العاصمة السياسية والتجارية لشرق أفغانستان في خراب كبير. وكانت القوافل القادمة من الهند تمر في طريق خطر وسط جماعات من النهابين وقطاع الطرق وهي مجبرة على دفع رسوم مرور للمحاربين من أهل البلد، وكانت كل قبيلة جبلية تحكم سيطرتها على المنطقة التي تشغلها. وحين خرج جلال الدين من مأمنه في دلهي ربما يكون قد توقف أثناء عبوره ليشاهد الخراب الذي حل بغزنة وهو الذي سبق له أن حكم أفغانستان منها. وبعد ذلك استأنف طريقه إلى بلاد فارس حيث حاول إحياء الإمبراطورية الخوارزمية من جديد.

بعد وفاة جنكيز خان قسمت إمبراطوريته بين أولاده حيث أصبح أوجادي — طبقًا لوصية والده — الخان الأكبر الذي يسيطر على الجميع، وكانت هذه الوصية آخر شيء فعله جنكيز خان في حياته. تفكك اتحاد شعوب السهول بعد وفاة القائد الذي قام بتوحيدهم، لكن لسوء حظ الكثيرين قامت

الإمبراطورية المغولية واستمرت في التوسع. تولى توليو حكم الجزء الشمالي الشرقي من آسيا. أما باتو Batu (وهو ابن جوشي الذي توفي عام ١٢٢٧م) فقد عهد إليه بغرب آسيا ومعها روسيا، في حين منح جاجاتاي حكم إمبراطوريتي خوارزم وكاراكيتاي بما فيهما أفغانستان.

عقب وفاة جنكيز خان تمكن الصينيون من استعادة الكثير من أراضيهم الضائعة، في حين ظل المسيحيون الذين يقطنون غرب نهر دنيبر على سذاجتهم وعدم خشيتهم من خطر المغول. أما جلال الدين فقد أحرز تقدمًا ملحوظًا في إعادة بناء إمبراطورية خوارزمية جديدة واتخذ من أصفهان وتبريز في إيران عواصم لها. وفي خطوة غير حكيمة عاد إلى سابق عهد والده في مخاصمة الخليفة في بغداد وكأنه ظن أن لا عودة للمغول، وكان ظنه خاطئًا، فقد اجتمع المغول تحت قيادة أوجاداي وعادوا يهجمون في جميع الاتجاهات.

وفي عام ١٢٣٠م قامت ثلاث فرق قوام كل منها عشرة آلاف جندي تقريبًا (تومين) بإعادة غزو الفرس، وحاول جلال الدين الفرار، لكن المغول طاردوه كما سبق أن طاردوا أباه. وفي أثناء محاولته الاختباء في جبال شمال العراق لقي مصرعه على يد أحد الأكراد، وبسبب الغموض الذي أحاط بقتله حاول الكثيرون أن ينتحلوا شخصيته فيما بعد. وفي هذه الآونة قاد سوباداي جيشه لينهي حكم الصينيين، وقد كان، فتمكن من قتل الإمبراطور الصيني ونسله من الذكور، وسبي نساء الملك وإرسالهن إلى منغوليا كعبيد. بعد ذلك زحف المغول عبر سهول أوروبا الشاسعة تحت قيادة سوباداي وباتو. وبعد أن احتلوا روسيا، وهو الاحتلال الذي سيدوم مائتي عام، خاضوا معركتين في وقت واحد تقريبًا ضد الجيوش المسيحية حسنة التسليح في أوروبا. وفي أبريل/نيسان عام ١٢٤١م سحقت قوة من المغول بقيادة كايدو Kaidu حفيد جنكيز خان جيشًا مشتركًا من الألمان والبولنديين والفرسان التيوتونيين في لايجنتز. وبعدها بأيام أباد سوباداي وباتو خيرة فرسان هنجاريا في مدينة موهي بالقرب من بودابست، مخلفين وراءهم ٦٥٠٠٠ قتيل من المسيحيين في ساحة المعركة، وبعد كل هذه الانتصارات عاد المغول إلى آسيا؛ فقد مات أوجاداي وكانوا بحاجة إلى عقد اجتماع يختارون فيه الخان الأكبر الجديد فاختاروا جويوك Guyuk الذي جلس على العرش فترة قصيرة، خلفه بعدها مانجو Mangu الذي تطلع مرة أخرى ناحية بلاد الإسلام.

وفي عام ١٢٥١م زحف هولاكو Hulegu شقيق مانجو بجيشه إلى الجنوب ليضع حدًّا لطائفة متطرفة من متعاطي الحشيش عرفت في التاريخ باسم «الحشاشين»، ثم بعدها سار إلى بغداد وطلب من خليفة المسلمين أن يستسلم لجيشه، ولكن هذا الأخير رفض بعناد معلنًا أن العالم الإسلامي بأكمله سوف يقاوم هذا الغزو. وكانت النتيجة أن استولى المغول على بغداد وقتلوا الخليفة بعد أن لفوه في دثار وداسوا عليه بالأقدام، «فقد كانوا يتشاءمون من قتل من تجري في عروقه دماء ملكية.» وكانت زوجة هولاكو وأخواته مسيحيات نستوريات فطلبن منه أن يترفق بأخوتهن في الدين، وهكذا فقد تقدم المغول واستولوا على حلب ودمشق بالتحالف مع بعض حكام الممالك الصليبية المسيحية الذين كانوا سعداء للغاية بتلقي هذه المساعدة ضد المسلمين، ربما ظنوا أنهم عثروا أخيرًا على القديس يوحنا.

ازدادت أوضاع أفغانستان تدهورًا، حتى إن المغول أنفسهم عانوا من كثرة ما تحوي من لصوص وقطاع طرق. وكان من الواضح أنهم فقدوا أيضًا اهتمامهم بالهند منذ أيام جنكيز خان لأن مناخها لا يناسبهم، فلم يغيروا عليها إلا مرة واحدة فقط عام ١٢٤٠م لضرب مدينة لاهور. ومع ذلك فقد ترك المغول بعض الحاميات في أفغانستان في منطقة وسط جبال الهندوكوش. وكانت هذه الحاميات تسمى «الهازار» وهي الترجمة الفارسية لكلمة Ming المغولية والتي تعني ألف، ويعني هذا أن الهازار الموجودون حاليًّا كانوا في الأصل مغول منجهان، أو ينحدرون من سلالة فرقة مغولية تتألف من ألف رجل. والهازار الآن يتكلمون لغة الداري أو اللغة الفارسية، لكنه في أحاديث المسنين منهم يمكن أن نلمح آثارًا من اللغة المغولية. ويبدو أنهم وصلوا إلى هناك خلال حكم مانجو، لكن لا بد أن بعضًا من محاربيهم القدامى اشتركوا في الحملة التي قادها جنكيز خان فيما بين عامي ١٢١٩ و١٢٢١م.

خلال هذه الفترة كانت هرات تحت حكم رعايا المغول من الطاجيك الذين كانوا يحاولون بعث الحياة في هذه المدينة المتهدمة، وتشير الخرائط الإثنوغرافية المعاصرة إلى وجودهم في غرب أفغانستان. في عام ١٢٨١م ظهر اسم قندهار لأول مرة في مخطوطة تاريخية، وكانت مدينتا بلخ وغزنة في هذه الأثناء تحاولان النهوض من رقدتهما مرة أخرى. كما ظهرت مدينة جديدة على ضفاف أحد الأنهار في سفح جبال الهندوكوش الجنوبية هي كابول.

كان من العسير بمكان أن تظل تلك الإمبراطورية الشاسعة مترامية الأطراف وحدة واحدة إلى الأبد، لذا وكما هو متوقع انقسمت الإمبراطورية في أواخر القرن الثالث عشر إلى أربعة أجزاء: تولى قوبلاي خان Kublai Khan حفيد جنكيز خان حكم الصين بأسرها، حيث أوجد فيها سلالة اليووان الحاكمة. وفي سهول أوراسيا اندمج الكثير من الأتراك القبجاق ضمن القبائل الذهبية التي تستوطن تلك السهول حتى إنها سميت في النهاية، مملكة القبجاق. أما الأراضي المغتصبة من بلاد الفرس والشرق الأوسط فكانت تسمى مملكة إيل في حين أنه في الشمال الشرقي كانت توجد مملكة جاجاتاي التي تضم بلاد ما وراء النهر وأراضي مملكة كاراكيتاي السابقة. كذلك بدأ نوع من التغيرات أيضًا يطرأ على العلاقة بين الغازي ومن غزاهم، فرغم أن البدو الرحل من المغول والأتراك كانوا لا يزالون يحكمون سيطرتهم على البلاد، فقد فقدوا حماسهم لتدمير الأراضي التي أصبحت موطنهم، بل إنهم بدءوا يتطلعون إلى الاستقرار والعيش المرفه، وأصبحوا يعتنقون ثقافة أهل البلد، وأصبح الاثنان يعتمد أحدهما على الآخر في المعاملات التجارية، وبدأت همجية شعوب سهول جنوب آسيا تزول مع اعتناقهم للإسلام، مما يعتبر نوعًا من التكفير عما بدر منهم تجاه تلك الحضارة التي حاولوا تدميرها من قبل. ومع ذلك، فمن الناحية السياسية ظل البدو الرحل يكنّون نوعًا من التقديس لنسل جنكيز خان أو من كانوا يسمون بالخاقانات الحقيقيين. وكان من هم ليسوا بخاقانات يطلقون على أنفسهم لقب «الأمراء».

كانت أفغانستان في ذلك الوقت أرضًا لا يحكمها أحد تقع بين مملكتي جاجاتاي وإيل، إلى أن تخلت هذه الأخيرة عن بلخ وعن الشريط الذي يمتد من كابول عبر غزنة إلى قندهار لخلفاء جاجاتاي واكتفت بسيطرتها على هرات. وظلت كلٌّ المملكتين في صراع مع الأخرى. ولكن في أوائل القرن الرابع عشر تقلصت حدة الحروب بينهما لتتركز في الصراع ضد أمراء الحرب الأقوياء الذين كانوا يسعون إلى تثبيت ملكهم في الأراضي التي يحكمونها داخل الإمبراطورية القديمة. وبهذا تمتعت أفغانستان بفترة استردت فيها أنفاسها فيما عدا بعض المشاحنات الصغيرة بين القبائل، وأخذ الجنود المرتزقة يتدفقون على أفغانستان لدعم إمارات شبه القارة الهندية. وحين يظهر الفاتح الكبير بعد ذلك سوف تكون أفغانستان مصدر قوة بالنسبة له، لا مطمعًا لغزوه.

ولد تيمورلنك Timur-i-Leng — أو تيمور الأعرج — لقب بهذا الاسم نتيجة العرج الذي حدث له جراء جرح خطير أصاب قدمه وهو صغير — في بلاد ما وراء النهر عام ١٣٣٦م، وكان أبوه قائدًا صغيرًا في جيش المغول أو التتار، لكنه كان يدعي أنه أحد سلالة جنكيز خان، ولكن الكثيرين رفضوا تصديق الادعاء سواء في وقتها أو بعد ذلك. وبعد أن اعتلى الحكم عين كثيرًا من سلالة جنكيز خان ملوكًا على العروش التي استولى عليها، في حين أطلق على نفسه لقب «الأمير العظيم» ويعتبر تيمورلنك آخر الغزاة العظام من البدو الرحل، فقد تفوق على كل من سبقوه سواء في مدى اتساع الأراضي التي استولى عليها أو في القسوة والوحشية التي اتسمت بها أفعاله، وقد عرف في الغرب باسم تامرلين Tamerlane.

ومثلما فعل جنكيز خان خاض تيمورلنك سلسلة من الحروب الصغيرة والكبيرة قبل أن يظهر على مسرح الأحداث في العالم، كان عليه في البداية أن يصبح قائد قبيلته بلا منازع وهو ما فعله عام ١٣٦١م، ومع تزايد قوته من خلال المعارك التي خاضها أو من خلال إرهاب بعض القبائل كي تتحالف معه، شق طريقه ليصبح زعيمًا لبلاده: مملكة جاجاتاي. ومن الناحية الجغرافية كانت تلك الإمبراطورية تحتل نفس الموقع الذي كانت تحتله الإمبراطورية الخوارزمية التي دمرها جنكيز خان، فيما عدا أنه في هذه المرة كان البدو الرحل من المغول الأتراك يُحكمون سيطرتهم منذ البداية بكل خبراتهم العسكرية، وقسوتهم واحتقارهم للشعوب الأجنبية التي كانت يومًا ما تتسم بها قبائل المغول.

ولم تكن أفغانستان مسرحًا للحروب خلال أغلب سنوات حكم تيمورلنك، رغم أنه في عام ١٥٨٣م زحف جنوب هرات ليدمر نظم الري المنتشرة على امتداد نهر هلمند. ولأن هذه المنطقة أضعفَها تعرضُها للغزاة في فترات سابقة، انتهى بها الأمر إلى الانهيار، ولم يتبق الآن منها سوى أطلال تذكرنا بالمجتمعات التي كانت فيها في وقت ما. وقد اكتشف تيمورلنك أن شمال جبال الهندوكوش يصلح ملاذًا لقواته وفرسانه، فقام بتزويج أفراد عائلته وقواده المخلصين من سلالة جنكيز خان؛ ليخلق طبقة حاكمة اتخذ من كثيرين منها حكامًا لبلخ، وقندوز، وباجلان، وهرات التي نجح في إجلاء الكارتيين عنها. يذكر دوبريه أن جيش تيمورلنك كان يتألف أساسًا من الأوزبك، لكنه في حملاته البعيدة كان

يضم إليه عناصر من جنسيات أخرى تدعيمًا له. تذكر بياتريس فوربس مانز Beatrice Forbes Manz أن معاصري الحدث يصفون جيشه بأنه «كان خليطًا من أجناس مختلفة من البدو الرحل والبدو المقيمين، والمسلمين والمسيحيين، والأتراك والطاجيك والعرب والجورجيين والهنود.» لكنه كان يأبى أن يلحق بجيشه البدو الذين كانوا يتشبثون بولائهم لقبائلهم، وكان من بين هؤلاء البدو الكثير من الأفغان. ولأن حروبه كانت تمتد ما بين موسكو ودمشق فقد كانت القبائل الجبلية جنوب الهندوكوش خارجة عن نطاق اهتمامه.

لكن كانت هناك مرة وحيدة حارب فيها تلك القبائل في عام ١٣٩٨م، فتحت ادعاء حرب مقدسة زحف تيمورلنك نحو دلهي التي كان يحكمها في ذلك الوقت أحد السلاطين المسلمين، وكانت تعج بعدد كبير من السكان الهنود، وفي طريقه اشتبك مع مجموعات من الأفغان في ممرات الجبال، وأجبرهم على الاستسلام له بدلًا من أن يدفع لهم الرِّشا ليمر في طريقه، وحين وصل إلى دلهي هزم محمود شاه في معركة وقعت في شمال المدينة، ثم ترك جنوده يسلبونها وينهبونها ويضرمون فيها النيران بعد أن كوموا رءوس القتلى في أركان المدينة، وبعد أن قام بتعذيب كل من قابله من الهندوس في طريقه، دمر حصن ميروت أثناء عودته. ويعلق هيلدينجر على ذلك بقوله: «رغم ادعائه بأنها كانت حربًا مقدسة، فإنه دمر المدينة المسلمة ولم يفعل شيئًا فيما يتعلق بمستقبل هذه السلطنة ... ولم تكن هذه المهمة سوى غارة ضخمة بهدف السلب والنهب مثل أي غارة أخرى كان يمكن أن يشنها أي خان من شعوب السهول لو كان يملك القوة.» ومن أكبر الدلائل على أن قبائل الأفغان لم تحارب ضمن جيشه، أنه حاول الهجوم عدة مرات على مناطق الجبال أثناء حملته، وهو ما لم يحاوله حتى جنكيز خان نفسه. وفي طريق عودته إلى سمرقند حاول «الأمير العظيم» أن يكتشف وديان نوريستان البعيدة، حتى إنه في إحدى المرات اضطر إلى أن ينقل في سلة ليعبر جرفًا شديد الانحدار.

وليس من الضروري أن نذكر كل انتصارات تيمورلنك التي أثارت حيرة المؤرخين لعدة قرون بسبب غياب منطقها الاستراتيجي. فقد كان يحارب بدافع من نزواته، بل ويذهب إلى أبعد مدى في تحقيق ذلك حتى ليعبر الأراضي أكثر من مرة دون مبالاة بترك حاكم على الأقاليم التي يغزوها. ويمكن أن يقال إن أفكاره كانت تعكس فترة ما قبل جنكيز خان، بمعنى أن غرائزه كانت تعكس

شخصية بدو السهول الرحل في بدائيتهم، رغم أنه كان يحارب وهو على مشارف العصر الحديث، حيث كان من المتوقع أن تكون مفاهيم الإمبراطورية والتنظيم الاجتماعي لديه أكثر حكمة. وبالطبع فإن قسوته المروعة كانت أسطورية، فقد تساوت مذابحه مع ما فعله المغول الأصليون، وخاصة فيما يتعلق ببناء أهرامات من رءوس القتلى (كانوا يلصقون الرءوس بعضها ببعض باستخدام الصلصال)، أو تعليق الجماجم على الأسوار — ففي إحدى المرات، بعد غزوة لإحدى المدن التي كان يحميها مجموعة من الفرسان الهسبيتاريون على شاطئ البحر المتوسط؛ قدِم أسطول سفن لينقذ المدينة، فأمطره برءوس القتلى من الفرسان بعد أن علقها في المنجنيق، لكن هذا لا يعني أن تاريخ تيمورلنك المتلئ بالعنف لم يكن ذا فائدة للمسيحية.

وفي عام ١٤٠٢م حوصرت بيزنطة — وهي آخر معقل للمسيحية في الشرق، وآخر ما تبقى من الإمبراطورية الرومانية — وكانت على وشك السقوط تحت سيطرة الأتراك بقيادة القائد العبقري بايزيد الثاني Bayazet II الذي كان قد انتصر على جيش من فرسان الصليبين الغربيين في نيكوبوليس، وكان على وشك أن يسحق آخر الحواجز بين آسيا التركية وأوروبا. لكن تيمورلنك فاجأه بزحفه بجيش جرار من بلاد ما وراء النهر، وواجه قوات الترك بالقرب من أنقرة. وكان كلا الجيشين يضمان جنسيات مختلفة، فكان جيش بايزيد يشمل ليس فقط الأتراك العثمانيين ولكن اليانيساريين أيضًا (وهم العبيد المسيحيون الذين دُرّبوا منذ الصغر كي يكونوا جنودًا)، فضلًا عن التتار القادمين من السهول، والفرسان الصرب ذوي الدروع السوداء. وربما تكون معركة أنقرة — وهي أكبر معركة نفذت بأسلوب مقاتلي السهول وأشدها تدميرًا — قد وضعت نهاية لعصر كامل من الحروب. فقد انتصر تيمورلنك ووضع بايزيد في قفص، حمله معه في موكبه المنتصر عائدًا إلى بلاده. وكعادته لم يترك وراءه سوى فوضى وفراغ في السلطة. وعاشت بيزنطة بعد ذلك نصف قرن دون حروب، لكنها سوف تحاصر بعد ذلك، وسوف يكون الأتراك حينها مسلحين بمدافع ضخمة — فسوف ينتهي عهد تفوق شعوب السهول العسكري الذي امتد إلى قرابة ألفي عام في ساحة الحروب الأسيوية الأوروبية، ليحل محله عصر من التكنولوجيا الجديدة أعطى الشعوب المستقرة ميزة التفوق على البدو الرحل، وذلك من خلال اختراع البارود.

بعد انتصاره على جميع أعدائه الذين كانوا في طريقه بدأ تيمورلنك يخطط لاجتياح الصين، لكن القدر لم يمهله فتوفي عام ١٤٠٥م. وبسبب كل الفظائع التي ارتبطت بتاريخه لقيت إنجازاته الحضارية إعجابًا أكثر من انتصاراته، ومن هذه الإنجازات أنه — قبل قرن من مجيء كولومبوس — كان قد أعاد تحديد مركز العالم عند مفترق الطرق بين الصين والشرق الأوسط والهند. وفي خلال هذه الفترة شهد الطريق الحريري أكبر حركة عبور فيه، وأعيد بناء المدن الأفغانية من جديد. وبدأ الأمير العظيم يأخذ بمناحي الثقافة المختلفة الراقية، فبعد أسره للعديد من أحسن الحرفيين في جنوب آسيا، بدأ في تشييد المساجد والآثار التي خلدها التاريخ، فمقبرته الخاصة في سمرقند نسجت حولها أسطورة مفادها أنه إذا حاول أحد العبث بهذه المقبرة فسوف يحدث فيضان لم ير العالم مثله من قبل. وفي القرن العشرين تمكن بعض علماء الآثار السوفييت من فتح المقبرة ليشاهدوا تيمورلنك، وكان ذلك في ٢٢ يونيو/حزيران عام ١٩٤١م.

ومن حسن حظ أفغانستان أن أبناء تيمورلنك ورثوا عنه حب الثقافة ولم يرثوا عنه شغفه بإراقة الدماء. فتحولت هرات — تحت حكم شاه رخ Shah Rukh — إلى عاصمة للمملكة لوقوعها عند ملتقى بلاد فارس مع الشرق. وإبان عصر النهضة التيمورية أقيم العديد من المباني الفخمة في المدينة، وأغلبها كان لتمجيد عظمة الإسلام. وخلال حكم الأمير العظيم زاره أحد السفراء الإسبان ويدعى روي جونزاليز دي كلافيجو Ruy Gonzalez de Clavijo، ويصف هذا السفير البلاط الملكي قائلًا:

«كانت حوائطه مغطاة بستائر من الحرير الوردي، وهذه الستائر بدورها كانت مزينة بحلي فضية مطعمة بالذهب على صورة ورق شجر، وقد رصعت بالزمرد واللؤلؤ ومجوهرات أخرى ثمينة، وفوق هذه الزخارف شرائط من الحرير تحمل نفس الزخارف — وفي وسط القصر وقبل أن تصل إلى الأبواب توجد منضدتان من الذهب كل واحدة منهما ذات أربع أرجل وكلها تتشابه في زخارفها — وعليهما سبع قنينات رصعت اثنتان منها بحبات اللؤلؤ الكبير والزمرد والفيروز كما زينت كل واحدة منها بفص من الياقوت بجوار الفوهة.»

وحتى يومنا هذا لم تستطع آسيا الوسطى أن تستعيد مثل هذه الثروة، فبعد توقف العدوان على البلاد الأجنبية استدارت كل من أفغانستان وبلاد ما وراء النهر لتتصارعا بسبب تنافس النبلاء التيموريين مع نسل جنكيز خان على السيطرة على بلاد مثل بلخ وبخارى وكييف وسمرقند. أما في جنوب الهندوكوش فقد تطلعت القبائل الأفغانية أكثر نحو الهند، وفي عام ١٤٥١م تمكن أحد فروع قبيلة الجلزاي، وهو فرع اللوديين، من تأسيس سلالة حاكمة في دلهي.

مع إطلالة القرن السادس عشر، بدأت إمبراطوريات جديدة تتشكل في شرقي أفغانستان وغربيها، ففي بلاد فارس استطاع شاه إسماعيل سفافي، وهو قائد محارب؛ أن يكتسب قوة كبيرة مكنته من إقامة دولة عاصمتها أصفهان. ورغم أنه كان يتحدث التركية (وربما الكردية) فإنه نتج عن ذلك إعادة إحياء الإمبراطورية الفارسية القديمة بعد أن تشربت ثقافتها القديمة بالعادات والتقاليد البدائية لشعوب السهول.

وفي بلاد ما وراء النهر ظهر محارب آخر طموح يدعى زهير الدين محمد، اشتهر باسم بابور، بذل محاولات عديدة لتأسيس مملكة له. وقد ولد بابور في عام ١٤٨٣م في فرغانة وهي مدينة تقع في منطقة تدعى موجوليستان، تدخل حاليًّا ضمن حدود دولة أوزبكستان. وينسب بابور من ناحية الأب إلى جنكيز خان، وإلى تيمورلنك من ناحية الأم. لكنه بعد وفاة والده فجأة اغتُصب الحكم منه، فجمع رابطة من الأتباع حوله، وحاول مرارًا أن يستولي على سمرقند، لكنه كان يفشل في كل مرة، أو يفقدها مرة ثانية فور الاستيلاء عليها. وذات مرة بينما كان في طشقند وهو في هدنة من الحروب كتب في مذكراته التي أسماها «البابورناما» يصف إحدى الفترات التي مر بها بين محاولات استيلائه على سمرقند، فقال: «لقد عانيت الكثير من الفقر والإذلال — لم يكن لدي أي بلد أو أمل في بلد — وتفرق أغلب أتباعي، في حين عجز الباقون الذين ظلوا معي عن مناصرتي بسبب فقرهم المدقع.»

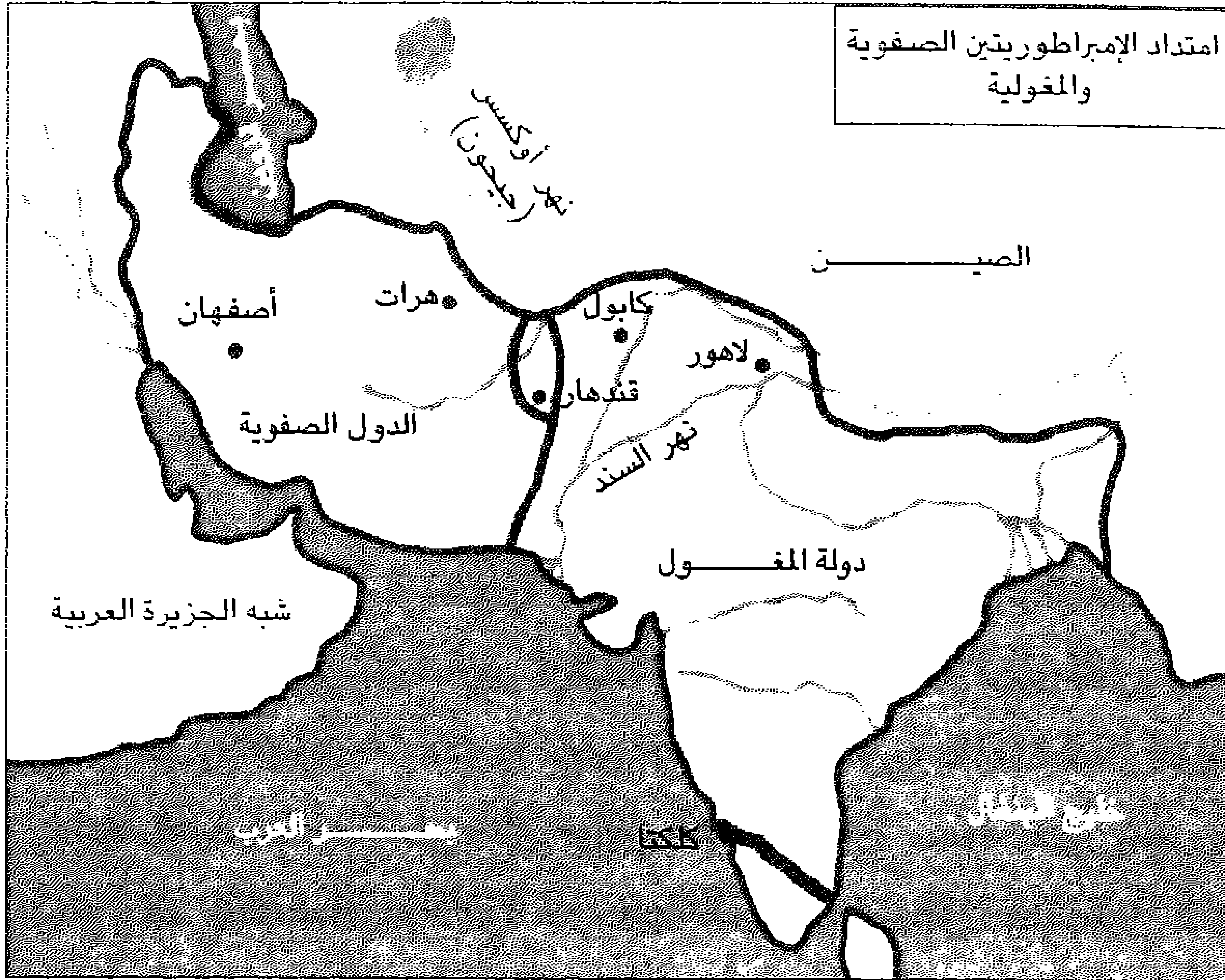
الجدير بالذكر هنا أنه رغم انتهاء حكم المغول الأتراك المركزي فإن الجيوش بعد قرابة ثلاثمائة عام كانت لا تزال تحتفظ بنفس أساليبها القديمة، وقد تحدث بابور عن هذا في مذكراته قائلًا: «لقد أرسى جنكيز خان قواعد القتال، وما زال المغول يتبعونها حتى الآن، فكل جندي يعرف مكانه في الجيش كما

كان أسلافه يقفون من قبل في ميمنة الجيش، أو في يسار الميمنة، أو في يسار قلب الجيش، أو في قلب الجيش بالضبط.» أما أكثر الرجال مهارة في الحرب فكانوا يقفون في أقصى جناحي اليمين واليسار. ويصف بابور خصامًا نشب بين اثنين من قادة أفرع الجيش لنيل شرف قيادة الجناح الأيمن فاستل كل منهما سيفه، ولم يهدأ الجدال إلا بعد أن اتُّفق على أن يشرف أحدهما على هذا الجناح خلال فترة الصيد، والثاني أثناء المعارك.

قرر بابور بعدها أن يتخلى عن فكرة تأسيس مملكة له في بلاد ما وراء النهر، لذا فقد اتجه جنوبًا مخترقًا جبال الهندوكوش واستولى بسهولة على كابول. وقد كتب يقول عن هذا: «في يوم ما أصدرتُ الأوامر لجناحي الجيش وقلبه بارتداء الدروع وإعداد الخيل لنقترب من المدينة ونظهر عتادنا الحربي حتى نزرع الرعب في قلوب من بداخلها.» وقد خرج بعض المحاربين من كابول للقتال، لكنهم سرعان ما تراجعوا، واستسلمت المدينة. كان عمْر بابور وقتها واحدًا وعشرين عامًا، وكانت فرحته بكابول غامرة ولم تفتر أبدًا، وكتب في مذكراته واصفًا بيئتها وما تحويه من حياة برية ونباتية، بل وكتب أيضًا واصفًا مقوماتها الاقتصادية فقال:

> «يوجد سوقان للتجارة يقعان على الطريق ما بين هندوستان وخراسان: الأول كابول، والثاني قندهار. وإلى كابول تأتي القوافل من كاشجار وفرغانة وتركستان وسمرقند وبخارى وبلخ وهيسار وبادكشان، أما قندهار فتفد القوافل إليها من خراسان. وتعتبر كابول مركز تجارة ممتاز ... فإليها يأتي قرابة سبعة أو ثمانية أو عشرة آلاف من الخيل سنويًّا — ومن هندوستان تأتي قوافل ويأتي معها ما بين عشرة آلاف وعشرين ألفًا من زعماء العائلات ومعهم العبيد والأقمشة البيضاء، وقصب السكر، والسكر المكرر والحلوى والأعشاب الطبية والعطور ... كما يمكن شراء منتجات خراسان والروم (تركيا) والعراق والصين منها، فضلًا عن منتجات هندوستان التي تنتمي كابول إليها.»

ويعتبر بابور أول من أرخ لأفغانستان منذ انتهاء عهد المؤرخين الإغريق، فقد ألقى الضوء على بعض ملامح أفغانستان في حقبة ما قبل العصر الحديث.



ويقر كارو بفضل بابور في رفع الستار التاريخي الذي كان يحجب الشعب الأفغاني، فهو قد ذكر أسماء بعض القبائل المعينة التي عاشت لعصور طويلة من قبل، ولم يرد لها ذكر في أية كتابات، مثل: الجلزاي، واليوزوفزاي، والأفريدي وغيرها. ولم يكن حب بابور لكابول شيئًا طارئًا حدث لكونها انتصاره الأول، بل إنه كذلك طلب أن يدفن فيها. وما زالت مقبرته في إحدى حدائق تلك المدينة المهدمة الآن.

وبعد محاولة أخيرة لا طائل منها للهجوم على سمرقند عام ١٥١٢م، حول بابور اهتمامه إلى الهند، فشن بعض الغارات الاستكشافية، ثم تقدم بعدها إلى دلهي. وعند بانيبات شمال المدينة التحم الجيشان في أبريل/نيسان عام ١٥٢٦م في معركة كان انتصار بابور فيها ساحقًا. وقدرت قوات جيشه بعدد يتراوح ما بين اثني عشر ألفًا وواحد وعشرين ألف مقاتل، في حين أن جيش إبراهيم الثاني حاكم دلهي المغولي اللودي كان يبلغ نحو مائة ألف مقاتل بالإضافة إلى خمسمائة من الفيلة، لكن بابور كان قد جلب معه بعض المدافع التي أبطلت فاعلية الأفيال. وكتب بابور يتحدث عما حدث بعد أن اخترقت قواته جناحي جيش الأعداء قائلًا: «كان جناحاه الأيمن والأيسر مكبلان إلى

الحد الذي لم يمكنهما من التقدم لقتالنا أو إيجاد منفذ لهم للفرار.» وانتهت المعركة في منتصف النهار وتم إرسال سرية لتأسر إبراهيم لكنه بعد الظهيرة وجد جسد الملك اللودي في ساحة المعركة تحت كومة من الجثث.

وفي العام التالي انتصر بابور على مملكة راجبوت شمال الهند، التي كانت تحت زعامة حكام من الأفغان. وفي عام ١٥٢٩م شن محمود لودي هجومًا مضادًا لكن بابور هزمه أيضًا عند نهر شاجرا بالقرب من مدينة باتنا. وبذلك تمكن هذا الأمير الذي لم يكن له وطن أو أرض من بسط سيطرته على الهند، ومن ثم خلق إمبراطورية مغولية دامت حتى منتصف القرن التاسع عشر. والمفارقة هنا تتجلى في أن بابور وخلفه من بعده — وهم آخر نسل جنكيز خان من البدو الرحل — شيدوا مبانٍ ذات فخامة وروعة منقطعة النظير، حتى إنها ظلت خالدة حتى الآن، وكان أشهرها تاج محل الذي شيد عام ١٦٣٢م. لقد انتهت الأيام التي كان فيها محاربو السهول يمتهنون تدمير الحضارات وتخريب المجتمعات المستقرة، وأصبحوا الآن يشاركون في بناء عظمتها ومجدها. ودليل آخر على تغير الأيام، هو أن مؤسس الحكم المغولي حين وصل إلى قمة سطوته كان عليه أن يخوض أكثر معاركه صعوبة ضد الأفغان.

الفصل الخامس

بزوغ أفغانستـــان

على مدى القرنين التاليين لعبت أفغانستان دورًا غريبًا في التاريخ العسكري لجنوب آسيا، فبالرغم من أنها لم تصبح دولة بالمعنى المتعارف عليه أو حتى على أقل تقدير أرضًا واحدة، فإنها كانت منبعًا للمحاربين الوطنيين الذين تمكنوا من قلب موازين القوى بين الإمبراطوريات التي تقع حولها. وفي أوروبا كانت سويسرا – وهي أقرب نظير لها – تلعب نفس الدور في إمداد الممالك المجاورة بالمقاتلين، لكن دوريهما اختلفا بعد ذلك اختلافًا شديدًا، فقد كان السويسريون من قبل، وهم أيضًا شعب عسكري متعدد الأعراق يتحصن في الجبال محاطًا بالإمبراطوريات العظمى؛ يخرجون من مآويهم إلى خارج أراضيهم للقيام بعمليات سلب ونهب في أغلب الأحيان، لحساب أو ضد أي مملكة أجنبية حسبما تقتضي مصالحهم، لكنهم في عام ١٥١٥م بدءوا في تبني سياسة «عدم الانحياز العسكري» حفاظًا على سلامتهم ووحدة أراضيهم رغم أن المرتزقة منهم كانت لهم مكانتهم الخاصة بين الدول الأجنبية عبر القارة. أما أفغانستان فقد تخلّفتْ عن هذا المسار الجديد. وكان تخلفها راجعًا إلى عدم قدرتها (آنذاك وحتى الآن) على توحيد فرقها المختلفة، أو على إيجاد نوع من التوافق بينها. هذا الأمر حققه السويسريون من خلال تبني مفهوم جديد للديمقراطية. وعلى الجانب الآخر، ففي وقت كان السويسريون في القرن السادس عشر قد بدءوا يغيرون من صورتهم كدولة معتدية، كانت قوة أفغانستان العسكرية لا تزال تلعب دورًا هامًّا في وسط آسيا.

ومن خلال مذكرات بابور نجد أنه ومِن قبله تيمورلنك وجنكيز خان فشلوا جميعًا في إخضاع القبائل الأفغانية. ورغم أن الغزاة نجحوا في غزو وتدمير مدن كبيرة مثل بلخ وقندهار وغزنة وكابول وغيرها، فإن ثقافة المحارب

الأفغاني ظلت باقية تتحدى الجميع. بل في واقع الأمر إنه حين اندمجت آخر قبائل بدو السهول الآسيويين في المجتمعات المتمدنة التي غزوها، زادت قوة قبائل الأفغان البدائية نوعًا ما. فبعد مغادرتهم السهول انصهرت تلك الشعوب البربرية في رفاهية الحضارة وما تفرضه من قيود. ولأنهم أصبحوا يمتلكون مدنًا هم ملتزمون بحمايتها فإن فرسانهم اضطروا إلى التنازل عن استراتيجية المبادرات الهجومية والأخذ بسياسة الدفاع عن الأراضي الثابتة. بل أكثر من ذلك، فخلال القرن السادس عشر كانت البنادق هي أداة القتال السائدة، وسوف تظل هكذا لتشكل انحرافًا عن الممارسة القديمة. وقد وجدت هذه الشعوب في الأسلحة النارية رادعًا للمحاربين المغول الأتراك الذين أصبحوا حكامًا لهم في جنوب آسيا. وبذلك توقفت هجمات البدو الرحل من الشمال بعد أن تغير ميزان التفوق العسكري ورجحت كفة أهل الحضارات المستقرة.

ومن هذا المزيج الجديد الذي تشكل من محاربي السهول القدامى الذين أصبحوا ملوكًا، والشعوب المتمدنة التي تحاول استمرار البقاء على قيد الحياة بزغ الأفغان الجدد الذين امتزجت فيهم غرائز البدو الرحل القبلية مع مقومات الحضارة الجديدة. وفي الواقع، يوجد عنصر هام أدى إلى ظهور نهم وشراهة الأفغان في هذه الفترة، يذكرنا بالمقولة التي كانت تتردد في غرب أمريكا: «إن الله لم يخلق الرجال أندادًا ولكن الكولونيل كولت هو الذي فعل ذلك.» ففي خلال العصور الوسطى كان محاربو تيمورلنك يجوسون خلال أفغانستان، وقد تدرعوا بالدروع المرنة المصفحة أو التروس المعدنية، وعلى رءوسهم خوذات متقنة الصنع تبعث الخوف في النفوس، ويحملون أجود الأسلحة، صنعها أمهر الصناع في آسيا. وكان هؤلاء المحاربون المحترفون يملكون أيضًا خبرات قتالية في المعارك الكبرى، بالإضافة إلى اتباعهم نظامًا حربيًّا جماعيًّا يفوق قدرات محاربي الجبال، لكن البنادق غيرت هذه المعادلة بالكامل. فالدروع بكل ما فيها من إتقان ودقة، أصبحت عديمة الجدوى تمامًا من الناحية العملية بعدما انتشرت الأسلحة النارية، فقد صار من الممكن أن يخر أي نبيل تركي ثري صريعًا بطلق ناري مثله مثل أي فلاح من رعاة الأغنام.

ومع توالي العقود تسبب انتشار الأسلحة النارية بالإضافة إلى انخفاض قدرة محاربي السهول القتالية؛ في اتجاه الأفغان نحو الغزو، فباستخدام المدافع في بادىء الأمر، ثم باستخدام البنادق ذات الفتيل وبنادق جنود المشاه بعد ذلك،

استطاع المقاتلون الأفغان أن يخرجوا من معاقلهم ويفرضوا سيطرتهم على أهل السهول الذين يعيشون على جانبي جبال الهندوكوش، وكأنما كان الأفغان وهم في أحضان الجبال المتوحشة يحاولون تجنب موجات الغزو البربرية، لكن ما إن استكان أولئك البدو البرابرة إلى الحضارة الجديدة، حتى عاد الأفغان إلى الظهور مرة أخرى متمسكين بأساليبهم الحربية القديمة، ولكن هذه المرة بأسلحة جديدة أفرزتها تكنولوجيا العصر الحديث. وبالرغم من أن امتلاك هذه الأسلحة الجديدة والتدرب على استخدامها تم بشكل تدريجي فإنه مع نهاية حقبة العصور الوسطى صار الأفغان أقوى محاربي هذه المنطقة قاطبة.

والمفارقة هنا تكمن في أن الأسلحة النارية كانت هي العامل الأساسي الذي دفع المحاربين السويسريين الذين كانوا يحاربون باستخدام الرماح في القرن السادس عشر إلى الكف عن الإغارة على البلاد الأخرى. أما بالنسبة للأفغان في منطقة جنوب آسيا التي طالما تعرضت للاجتياح والفوضى فقد كان الوضع معكوسًا. فحين نجحت الأسلحة النارية في صد هجمات جيوش فرسان السهول المغيرة من رماة السهام، بدأت القبائل الأفغانية المقيمة تحت جبال الهندوكوش في الخروج من مخابئها والإغارة على الآخرين.

توفي بابور عام ١٥٣٠م بعد أن أسس السلالة المغولية الحاكمة، وخلفه ابنه همايان Humayan الذي عجز عن البقاء في السلطة مدة طويلة، فقد استطاع أحد الأفغان الأقوياء ويدعى شيرشاه Sher Shah أن يحشد مجموعة من النبلاء اللوديين ويقيم بعض بؤر المقاومة ليستحوذ على عرش دلهي. وعند أحد الحصون قام بعمل مناورة تشبه عملية حصان طروادة، فقد جمع مجموعة من أقوى محاربي جيشه وألبسهم ملابس النساء ووضعهم في محفة اخترق بها أبواب المدينة، وهناك تغلبوا على الحامية الموجودة بها وفتحوا الأبواب. وحين فقد همايان سيطرته على شمال الهند أمام أحد حلفائه الأفغان، فر هاربًا إلى أخيه كامران Kamran الذي كان يحكم إقطاعية شبه مستقلة من كابول، لكن أخاه رفض أن يهب لنجدته، فاضطر إلى الهروب عبر بلاد السند والسيستان للبحث عن ملاذ عند الفرس.

استمر حكم شيرشاه في دلهي ستة عشر عامًا بنجاح يثير الإعجاب، لكنه فشل في مهمة رئيسية، وهي تأمين استمرارية عصره رغم محاولاته العديدة.

ويرى كارو أن شيرشاه يمثل الضعف والقوة في الشخصية الأفغانية البشتونية فيقول: «يبزغ نجم قائد يستطيع أن يجمع حوله الرجال، ويجعلهم ينسون خصوماتهم ونزاعاتهم الشخصية ولا يعنون إلا بالمجد الذي يحققونه كجماعة، ثم يموت القائد الملهم، وبموته يموت إلهامه أيضًا، ففي غياب الرجل الذي كان محل ثقة الجميع تبدأ النعرات القبلية في الظهور، وينهار كل ما بناه في حياته.» وهذه المقولة تنطبق على كل المراحل التاريخية التي مرت بها أفغانستان تقريبًا.

وفي حين عاد الأفغان إلى الشجار التلاحمي مرة أخرى، رجع هومايان إلى الهند حيث تمكن من إعادة إحكام سيطرة المغول على دلهي، ودام حكمه سنتين فقط، أثمرتا نجاحًا عظيمًا في عهد ابنه أكبر Akbar الذي خلف والده في عام ١٥٥٦م وحكم البلاد مدة نصف قرن، فكان أعظم أباطرة المغول على الإطلاق. في عام ١٥٨١م بنى الإمبراطور أكبر أول طريق خلال ممر خيبر، ودخل كابول في موكب ملكي. مكث هناك سبعة أيام كانت كافية لكي تؤكد سيطرته الإمبراطورية على أخيه غير الشقيق الذي كان لاهيًا منغمسًا في ملذاته، ثم عاد إلى الهند. وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي يطأ فيها الجيش المغولي أفغانستان دون أن يتجشم الصعاب في سبيل هذا.

في عام ١٥٨٦م قرر الإمبراطور أكبر أن يهزم كشمير ويخضع القبائل الأفغانية التي تقطن على امتداد حدودها الشمالية الغربية. وفي حين استطاع تحقيق هدفه الأول بسهولة، استحال عليه الهدف الثاني تمامًا. فقد تمكن أحد القادة المغول واسمه مان سينج Man Singh من اختراق ممر خيبر ليهاجم كابول، لكن الأفغان بقيادة قبيلة الأفريدي حاصروه من الخلف وهاجموا بيشاور، فقرر مان سينج القيام بهجوم مشترك بين قواته وقوات أخرى جديدة من السند حتى يسحق التمرد الحادث في الممر، لكن الأفريديين وضعوا المتاريس في ممر خيبر وهاجموا قوات سنج من المرتفعات، فأجبروها على التجمد في الموقع الذي كانت فيه في قرية «علي مسجد» أعلى التل، وظل المغول على هذه الحال إلى أن اقتربت قوات النجدة أخيرًا لتهاجم مؤخرة جيش الأفغان. أجبر حينها الجيش المشترك على اختراق الجيش الأفغاني متراجعًا إلى بيشاور مما كبده بخسائر فادحة.

وفي أقصى الشمال في باجور اشتبكت قوة من الأفغان بقيادة فين خان Fain Khan مع مجموعة من الأفغان بقيادة قبيلة يوزوفزاي، فأرسل الإمبراطور أكبر سريتين لنجدة الجيش لكنه كان قد تشتت تمامًا في الجبال حيث اصطف رجال القبائل أعلى الجبال يمطرونهم بالسهام والأحجار. استولى الرعب على قوات المغول، وحين حل الظلام لقي الكثيرون مصرعهم بعد سقوطهم من الأجراف أو في الممرات الضيقة حيث ذُبحوا. وقد تمكن فين خان الذي كان يقود القوات الخلفية من إنقاذ بقية الجيش، تاركًا وراءه ثمانية آلاف قتيل. وربما كانت حملة الإمبراطور أكبر هي كبرى الحملات التي شنت لإخضاع القبائل الجبلية التي تعيش شرق أفغانستان في عقر دارها، ولكن بسبب فشلها الذريع لم تتكرر هذه الحملة مرة أخرى خلال القرون الأربعة التي تلتها، فقد اعتمد المغول بعدها على ثرواتهم الضخمة — لا على قوة جيشهم — ليظل ممر خيبر وبقية الممرات الحيوية مفتوحة.

في القرن السادس عشر أصبحت البقية الباقية من الأراضي الأفغانية محل نزاع بين المغول في الشرق، والفرس والصفويين في الغرب، وانضم إلى الصراع طرف آخر ممثلًا في أسرة حاكمة أوزبكية كانت قد أحكمت سيطرتها على بلاد ما وراء النهر في الشمال واتخذت من بخارى عاصمة لها. أما هرات — عاصمة خلفاء تيمورلنك العريقة — فقد كانت لا تنفك تجذب إليها الغزاة، فقد حكمها الأوزبك في عام ١٥٠٦م، واستعادها الصفويين بعد ذلك بأربع سنوات، ومن بعدها كانت سدة الحكم فيها تتبدل مع كل جيل جديد. وكان الخط الذي يصل بين قندهار وكابول مخترقًا غزنة، هو نقطة الاتصال بين الصفويين والمغول الذين رفضوا السماح للفرس بامتلاك أي موقع هام يسمح لهم بمراقبة سهل الهندوس. أما في المواجهة فقد كانت قندهار هي النقطة المحورية التي شهدت تعاقب الحكام وهي تتأرجح ما بين سيطرة المغول تارة والصفويين تارة أخرى كلما عنَّ لواحد منهم أن يغير على حدودها.

وفي شمال الهندوكوش حاول المغول الاحتفاظ بسيطرتهم على بلخ، وقندوز وبعض المدن الأخرى، متخذين آمودريا (جيحون) حدًّا لمنطقة نفوذهم، كما هي الآن، لكن قواتهم الحامية كانت دائمًا تتعرض لهجوم أو محاولة عزل من قبل الأوزبك. لكنهم في عام ١٦٤٨م تخلوا عن محاولاتهم للبقاء في شمال الهندوكوش فيما كان يعرف قديمًا بمملكة باكتريا. وقرروا أن تكون الجبال

حدًّا بين الهند وخيالة بلاد ما وراء النهر. لكن كابول كانت لا تزال تحتفظ بأهميتها لدى المغول باعتبارها المكان الذي كان بابور يحط فيه للاستجمام، ولذلك فقد قاتلوا لاستعادتها بأي ثمن، حتى إنهم قاموا برشوة حراس ممر خيبر في سبيل ذلك.

وكان أهم تطور حدث خلال هذه الفترة هو ازدياد قوة الشعب الأفغاني الذي يعيش جنوب الهندوكوش، والذي كان ينقسم إلى قبائل وعشائر عدة، لكن كانوا يكونون معًا مجموعة عرقية واحدة تتحد في اللغة والثقافة، وهي البشتون (أو الباثان كما أطلق عليها الهنود) وفي ذلك الوقت كانت أفغانستان تتعرض لهجمات متكررة من قوى خارجية، فقد زرع الغزنويون والجور إمبراطوريات بها رغم أنها كانت تحت قيادة وحكم المحاربين الأتراك، وعلى الجانب الآخر كان الملوك الأفغان بدورهم يحكمون بلادًا خارج الهند. أما الآن فقد بدأت بوادر الإحساس بالوحدة الوطنية الأفغانية تتحرك بداخلهم وتتشكل، من خلال واحد من الشعراء المحاربين البشتونيين يدعى خوشال خان Khushal Khan وينتمي إلى قبيلة خاتاق Khatak. ولد هذا الشاعر في عام ١٦١٣م وقد حمل على عاتقه مهمة الذود عن معاقل الأفغان الجبلية ضد المغتصبين حتى شبه بويليام تل رغم أنه كالعادة كان أيضًا يحارب القبائل الأفغانية التي تنافس قبيلته. يقول هذا الشاعر في إحدى قصائده (التي ترجمها كارو):

إذا ما صمدت موجال فإن بشتون سوف تتحطم
وإذا كان الله قد قدر لنا الموت، فقد حان الوقت الآن
فالكواكب تتأرجح في أجواء السماء
فاليوم تزهر الورود، واليوم تخز الأشواك
ولا مجد بلا خطر يا رجال البشتون
واسم البشتون يعني الشرف والمجد
فإذا ما ذهب عنا الشرف كيف ستكون أفغانستان؟
ففي السيف وحده يوجد خلاصنا.

وقد استُخدمت لغة البشتون (أو البختون كما يسمونها في باكستان اليوم) لغة تخاطب منذ ما يزيد على الألف عام، لكنه في القرن السابع عشر بدأ

تدوين هذه اللغة. ولم يكن تزامن الحركة القومية الأفغانية مع بدء تدوين اللغة من قبيل المصادفة.

قام أورانجزب Aurangzeb وهو آخر الأباطرة المغول بتوحيد معظم أقاليم الهند لأول مرة منذ عهد الموريانيين. لكنه بعد وفاته في عام ١٧٠٧م بدأ نجم الإمبراطورية في الأفول. وفي ذلك الوقت كان يوجد ما يزيد على ثلاثمائة قبيلة أفغانية يمكن تسميتها، أهمها الجلزاي التي كان أهلها مبعثرون في أنحاء سلسلة جبال سليمان في الشرق، والأبدالي في الأراضي الغربية. وكانت قبائل الجلزاي تشرف على الطريق الذي يصل بين كابول وقندهار في الجنوب عبر غزنة، في حين أن قبيلة الأبدالي كانت تنتشر في المساحة الواقعة ما بين قندهار في الشمال الغربي وحتى هرات. وكانت قبائل الجلزاي في البداية تقاتل المغول (فقد كانت إحدى قبائلهم هي التي تحكم دلهي)، أما الأبداليون فكانت توجهاتهم فارسية كما كان أغلب نبلائهم يفضلون اللغة الفارسية «الداري» عن لغة البشتون.

وفي حين كان المغول والصفويين يتنافسان على جنوب أفغانستان، كان الجلزانيون والأبداليون يميلون تجاه الفرس الذين كانوا رغم اعتناقهم الإسلام على المذهب الشيعي الذي يتعارض مع المذهب السني السائد في أفغانستان — أكثر سماحة مع المعتقدات الدينية الأخرى. بالإضافة إلى أن الثقافة الفارسية القديمة كانت دائمًا ذات تأثير قوي في أفغانستان، ولأنها أعادت تأكيد نفسها في موطنها متغلبة على غلظة الغزاة الأتراك فقد أصبحت مفضلة على الثقافة المغولية الآتية من شبه القارة الهندية. كانت الهند دومًا هي التي تمتص هجمات الأفغان، وكانت لا تسمح بهجوم مضاد آت من ذاك الاتجاه مهما بدا من قوة المغول الأتراك.

غير أن جذوة الحرب اشتعلت مرة أخرى حين تولى الحكم قائد جديد من الصفويين هو السلطان حسين، الذي حاول أن يقضي على الممارسات الدينية المتمردة على حدود مملكته. فقام بتعيين حاكم جورجي متعصب اسمه عبد الله خان على قندهار، وكانت مهمته هي فرض المذهب الشيعي على الرعايا من المواطنين. وفي البداية هُزم عبد الله خان من جيش من البلوخيين اجتاحه من الجنوب. فبعث الفرس بقوات جديدة من جورجيا بقيادة محارب اسمه جيورجي. وقد قاتلت قبائل الجلزاي ضد وحشية القوة المحتلة، ولكن دون

تأثير يذكر، وأسر قائدهم ميرويس Mir Wais وأرسل إلى أصفهان عاصمة الصفويين. وقد كان من الأوفق لجيورجي أن يقتل القائد الجلزاني، إذ إنه خلال وجوده في أفغانستان تمكن — وهو رجل نبيل ثري — من إيجاد حظوة له عند سلطان الصفويين، وفي نفس الوقت أمكنه أن يتحسس نقاط الضعف في البلاط الفارسي، فصمم أكثر من ذي قبل على تعزيز وتغذية التمرد في بلاده.

وفي عام ١٧٠٩م عاد ميرويس إلى أفغانستان ليلملم فلول قبائل الجلزاي ثم يستولي على حامية جورجية في قندهار. فجمع السلطان حسين قوة مضادة تتكون من نخبة حراسة من القزلباش وضم إليهم عددًا آخر من الجورجيين بالإضافة إلى حلفاء من قبائل الأبدالي الأفغانية ليقمع هذا التمرد. فقابلهم ميرويس ومعه قواته من الجلزاي والبلوش بالقرب من مدينة فرح، لكن الأبداليين فجأة رفضوا القتال. ثم عادوا واستأنفوا الحرب بعد ذلك ولكنهم هزموا وهم يحاولون حصار قندهار، وفي ذلك الوقت كان الجلزاي يخربون المناطق الريفية ويقتلون أهالي جورجيا كلما أمكنهم ذلك، ثم في هجمة واحدة تمكنوا من هزيمة الأبداليين وقتل قائدهم. في عام ١٧١٥م توفي ميرويس وفاة طبيعية، لكن مآثره ظلت تمثل إلهامًا لقبيلته دفعهم لمواصلة القتال. ولم يمض عامان حتى ثار الأبداليون أنفسهم على الفرس في هرات. وكان الصفويين قد بدءوا يعون الدرس القديم جيدًا فمن السهل غزو أفغانستان، لكن إبقاءها تحت السيطرة أمر في غاية الصعوبة.

تولى شقيق ميرويس الحكم بعد ذلك، لكنه أظهر ميلًا للتحالف مع الفرس، فقتله محمود ابن ميرويس. واتجه الجلزانيون نحو الفرس ولكن بغرض الغزو لا التحالف، وكانت مهمتهم الأولى ملاقاة قبيلة أبدالي التي كانت أهم قبائل غرب أفغانستان. وفي ديلارام هزم محمود جيرانه من قبائل الأفغان وأرسل زعيم الأبدالي إلى السلطان حسين في أصفهان. وكان السلطان قلقًا من ثورتهم في هرات فأرسل إلى محمود يشكره ويمجده دون أن يخطر بباله أن الجلزانيين سوف يواصلون تقدمهم.

اندفع الجلزانيون نحو الأراضي الفارسية يجتاحون المدن في طريقهم، أو يقبضون الجزية من المدن ويتركونها حتى تلاقوا مع جيش السلطان في جلنباد. وكان عدد جيش الفرس يبلغ اثنين وأربعين ألف رجل، ومعهم أربعة وعشرون مدفعًا يحركها فيليب كولومب Philippe Colombe وهو محارب

مرتزق فرنسي. أما محمود فقد كان قوام جيشه مائتي ألف فارس. وفي المعركة انتصر الأفغان على سلاح المدفعية وتركوا خمسة آلاف من القتلى الفرس في ساحة المعركة، بينما لم يفقدوا إلا خمسمائة من رجالهم. بعدها تراجع الفرس واعتصموا داخل أصفهان عاصمتهم، وتحملوا ستة أشهر من الحصار مات خلالها نحو مائة ألف من أهل المدينة وأغلبهم قضى جوعًا. وحين دخل الجلزانيون المدينة في النهاية عاثوا فيها فسادًا وإرهابًا حتى إنها لم تستطع بعدها أن تستعيد ما كانت عليه من مكانة.

كان من الممكن أن يعتبر محمود بطلًا في تاريخ أفغانستان لولا أن تبين بعد ذلك أنه مصاب بالجنون، ولهذا فلم يدم حكمه للإمبراطورية الصفوية طويلًا. وحين هزم أصفهان عام ١٧٢٢م بدأ الشك ينتابه تجاه النبلاء الفرس، فدعاهم جميعًا إلى اجتماع، وما إن أغلقت عليهم الأبواب حتى قام جنوده بذبحهم جميعًا. وبعدها شك في أن أبناء السلطان حسين يحرضون على الفتنة والعصيان، فجمعهم في فناء القصر وبمساعدة اثنين من المحاربين قام بتمزيقهم أربًا. وحين احتضن السلطان العجوز اثنين من أطفاله الصغار شق محمود وجهه بسيفه، لكنه هدأ بعد ذلك. وذات مرة اعتكف لمدة أربعين يومًا في كهف للاتصال بالله، وحين خرج من عزلته كان الجنون باديًا عليه أكثر من ذي قبل. وكان رجاله على علم تام — مثل غيرهم — بجنونه، وفي عام ١٧٢٥م تمكنوا من قتله. وفي أواخر أيامه قام بجلد نفسه حتى تمزق لحمه مما يدل على أنه كان مريضًا بالفعل، وربما كان يعاني من حالة متقدمة من مرض الزهري.

خلفه في الحكم بعد ذلك قريب له يدعى أشرف، كان محمود قد قتل والده، لكنه لم يكن أكثر اتزانًا من سلفه، فقد قتل مستشاري محمود، كما قتل أيضًا حسين سلطان الصفويين السابق لأن الأتراك العثمانيين رفضوا الاعتراف به ملكًا على عرش الفرس طالما أن السلطان ما زال حيًّا. وفي تلك المرحلة بدأ الفرس يتذمرون من حكم الجلزانيين، وبدأ التمرد يظهر في صفوفهم. ثم تمكن أحد قطاع الطرق واسمه نادر خان من جمع بعض الأتباع، وعقد تحالفًا مع ورثة السلطان السابق، فهزم أولًا الأبداليين في معركة بالقرب من هرات (بعد أن انضم إليه الكثيرون منهم)، ثم اشتبك مع العثمانيين في الشمال الغربي، وأخيرًا زحف نحو أفغانستان بعد أن هزم أشرف في عدة معارك متتالية في

طريقه إلى المدينة. اعتصم أشرف في مدينته من جيش نادر خان، وفي تلك الفترة قام بقتل ثلاثة آلاف فارسي لخشيته أن يكونوا خونة. لكنه فر بعد ذلك هاربًا بحياته، غير أنه في أوائل عام ١٧٣٠م سقط في الأسر وقُتل.

بعيدًا عن المآسي الشخصية، كانت ضراوة وشراسة الأفغان قد تركت أثرها على الفرس كما فعلت مع الهنود، فبعد إحدى المعارك التي حارب فيها نادر شاه (وهو الاسم الذي صار يعرف به) الأفغان ممثلين في تحالف بين قبيلتي الجلزاي والأبدالي ضده؛ قام بضم الآلاف من قبيلة أبدالي ليكونوا صفوة حراسه. وفي عام ١٧٣٩م اكتسح أفغانستان، ثم استطاع بصعوبة أن يقوم بمراوغة عبر ممر خيبر وبمحاذاة نهر كابول ليصل إلى الهند. ثم عقد تحالفًا مع عدد من القبائل وتمكن من الهجوم على دلهي، حيث كان الإمبراطور المغولي قد أضعفته الحياة المرفهة الوادعة التي كان ينعم بها تمامًا كما حدث مع الصفويين من قبله. وبعد التحام قصير أدى إلى مقتل بعض قواته، قام نادر شاه بمذابح انتقامية بشعة في المدينة حتى إن لفظة «نادر شاهي» Nadirshahi دخلت لغة الهنود بمعنى المذبحة. أما فارس التي تحتضن عرش الطاووس، وماسة «كوهي نور» وكنوزًا أخرى لا تعد ولا تحصى، فقد كان جيشها دائمًا محل هجوم من جميع الجهات في ممر خيبر، ومع ذلك تمكن صفوة حراس نادر شاه من الأبداليين من اختراقه. وفي العام التالي انقض نادر شاه على هرات وضم عددًا آخر من الأبداليين إلى جيشه، ثم هاجم شمال آمودريا (جيحون) حيث مدن بخارى، وخيوة، وسمرقند الأوزبكية.

ولسوء الحظ بدأ نادر شاه، تمامًا مثل من سبقوه؛ يتحول إلى سفاح مجنون، فقد أمر بفقء عيني ابنه، وبدأ يقتل كل من يشك أنه يعارضه في عاصمته «مشهد». ويمكننا أن نلاحظ الفرق الحاد بين حكام الشرق في القرن الثامن عشر وحكام الغرب حين بدأت الشعوب المثقفة في الغرب تعتنق مبدأ الحرية الشخصية في مواجهة الحكم الملكي. وقد استخدم الغربيون الكتابة لتوحيد مجتمعاتهم بأكملها حول قضايا معينة، ناشرين مفاهيمهم ومعتقداتهم عن العدالة الموضوعية على مستوى عريض، حتى إن الحكام كانوا يخشون معارضتهم. أما في الشرق فقد ظلت أجواء الحروب والمؤامرات هي المسيطرة على مقدرات الشعوب.

كانت نهاية نادر شاه في معسكر في قوشان حين بدأ يشك في ولاء قادة جيشه، فأمر حراسه الأبداليين الأوفياء — وكان يرأسهم شاب صغير يدعى أحمد خان — بقتل معارضيه. لكن جنود الجيش علموا بنيته فقتلوه وتركوا رأسه منفصلة عن جسده حتى اكتُشفت في الصباح. ولم يتضح حتى الآن كيف ظل أحمد خان حرًّا طليقًا مع فرسانه الأفغان الأربعة آلاف، وإن كانت بعض الأقوال تشير إلى أن أحمد خان قاتل بشجاعة مدافعًا عن سيده. وربما كان المحاربون من القزلباش والأتراك من بقية الجيش قد واجهوا الأفغان ثم تركوهم ليهربوا بعد ذلك، أو ربما كان ذلك نتيجة اتفاق معهم، بعد ذلك طُورد الأفغان عبر خراسان، ويقال إن أحمد خان أرسل قوة إلى هرات استخدمها كطعم ليستدرج مطارديه القزلباش، في حين زحف الجزء الأكبر من جيشه نحو قندهار. وعلى أية حال فإن القوة العظمى التالية التي سوف تبزغ في جنوب آسيا سوف تكون أفغانية خالصة، وسوف يكون بطلها أحمد خان.

في عام ١٧٤٧م بالقرب من قندهار، عقدت قبائل الأبدالي اجتماعًا، أو كما يسمونه «جيرجا» لاختيار قائدهم التالي. وكان أحمد خان الذي لم يكن قد بلغ بعد الخامسة والعشرين أصغر المرشحين، وحسبما قالت بعض المصادر كان أضعفهم حجة في المطالبة بالقيادة. لكن أحد رجال الدين واسمه صابر خان، أعلن أن أحمد خان هو خير من يتولى الزعامة، ثم وضع حزمة من القمح على رأسه في تتويج رمزي. ووافق زعماء القبائل لأن أحمد خان كان ينتمي إلى فرع صغير من قبيلة السادوزاي وهي إحدى قبائل الأبدالي، ومن ثم فلن يسبب هذا تنافسًا بين القبائل الكبيرة، بالإضافة إلى أنه من جانب آخر قد أثبت جدارته كقائد عظيم في حروب سابقة. ثم أعلن رجل الدين أن اسمه منذ تلك اللحظة سوف يكون أحمد شاه «درّي-دوران» أو «درة الدرر». ومنذ ذلك الوقت أطلق الأبداليون على أنفسهم اسم الدورانيون.

بعد أيام من تولي أحمد شاه (أو ني خان) الحكم، كان من حظه الحسن أن جاءت إحدى القوافل المحملة بالنفائس من الهند إلى قندهار دون أن تدري أن نادر شاه قد لقي مصرعه. فاستولى أحمد على كنوزها، ووزع الكثير منها على أتباعه ليضمن دعمهم له. أما الجلزانيون الذين قد كانوا قد تشتتوا في آخر مراحل مغامراتهم الفارسية، فكانوا على استعداد للرضوخ لقيادة القائد

الدوراني. وبدأت هذه القبائل مجتمعة في القيام بأعمال سلب ونهب استمرت قرابة ربع قرن من الزمان.

كان أحمد شاه قد وضع أقدامه في منطقة يسودها فراغ في السلطة، فقد كانت القبائل الأفغانية تحتل الوسط، في حين كان المغول في اضمحلال تام عاجزين عن صد حملات السلب والنهب الأفغانية الآتية من الجبال، وضغط حركات التمرد المتزايد من الهنود في الجنوب. وكانت بلاد فارس في حالة فوضى تكاد تكون شاملة، وهي تحاول كبح جماح العثمانيين في الغرب وتنتظر الفارس الذي سيأتي ليعيد مجدها السابق الذي عرفته أيام الحكم الصفوي. وفي شمال آمودريا (جيحون) كان الأوزبك قد تحولوا إلى مجموعة من الإمارات الاستبدادية تعتمد في اقتصادها على السرقة والمتاجرة بالعبيد. وعندما كانت أوروبا تخطو نحو بداية الثورة الصناعية كانت المراكز الحضرية في آسيا الجنوبية قد بدأت تتهاوى، وصار اقتصادها لا يهدف إلا إلى الكفاف. وفي هرات — التي كانت دومًا فريسة لغزوات السلب والنهب — تحولت الضواحي والمزارع إلى خراب بعد أن هجرها أصحابها وتداعت أسوارها. ولقد تحولت بلاد الفرس كلها بفعل المذابح التي تعرضت لها إلى مدن أشباح بعد أن كانت فيما مضى حواضر عريقة.

يتمثل جزء هام من المشكلة في أن التجارة العالمية في القرنين السابع عشر والثامن عشر تحولت إلى الطرق البحرية، وفي ذلك الوقت أيضًا جذب العالم الجديد كثيرًا من النشاط التجاري الذي كان يتمتع به العالم القديم. وعلى الرغم من أن هذا العصر كان العصر الذهبي للقرصنة البحرية، فإن قبطان أي سفينة تجارية كان يفضل أن يواجه الصعاب في البحار المفتوحة على أن يحاول التسلل بقافلة بين إمارات بلاد ما وراء النهر التي يحكمها أمراء جشعون. وكان الطريق الحريري من الصين قد تحول إلى معقل لقطاع الطرق، وحلت محله موانيء ضخمة في مكاو وهونج كونج. أما مدن جنوب آسيا القديمة التي كانت تحتل مواقع حيوية تربط ما بين الحضارات العظمى من خلال الطرق التجارية، فقد تهاوت بعد أن فقدت أسباب وجودها. بالإضافة إلى أن النظم السياسية المحلية التي كان يسيطر عليها حكام طغاة، فشلت تمامًا في فرض القوانين، أو على الأقل في تحقيق الاستقرار الذي تحتاجه التجارة. وفي هذه الأجواء كان الأفغان في طريقهم إلى تحقيق أكبر توسع في تاريخهم.

بعد أن أسس أحمد شاه عاصمته في قندهار تقدم بجيوشه شمالًا ليستولي على غزنة وكابول. وكانت الأخيرة تحت سيطرة حاكم فارسي حاول بعد وفاة نادر شاه أن يتجه بولائه نحو المغول، وحين لم يجد أي مساندة منهم استسلم ببساطة للأفغان الذين كانوا يزحفون نحوه. بعدها تقدم أحمد شاه بقواته نحو البنجاب مطالبًا بالأراضي التي سبق أن تخلى عنها المغول لنادر شاه، لكن قواته المكونة من اثني عشر ألف فارس هُزمت في معركة مانوبور شرق نهر السند أمام جيش مغولي كبير يقوده القائد ميرمانو Mir Mannu.

وفي السنة التالية عاد الأفغان واستولوا على لاهور، ولأن المغول لم يكونوا راغبين في الاشتراك في حرب كبيرة على حدودهم الشمالية، فقد تخلوا عن البنجاب. سمح أحمد شاه لميرمانو بأن يظل في موقعه حاكمًا للمدينة شريطة أن يدفع الجزية. وفي طريق عودته إلى أفغانستان ضم أحمد شاه إلى جيشه مقاتلين جددًا من القبائل الشرقية. وبعد تجميع قواته في قندهار زحف بجيش قوامه خمسة وعشرون ألف مقاتل صوب هرات، لكن تلك المدينة التي تقع أقصى شرقي بلاد خراسان الفارسية، وأقصى غربي مواطن القبائل الأفغانية، والتي طالما تقاتل عليها المحاربون، لم تسقط في قبضة أحمد شاه إلا بعد حصار دام تسعة أشهر.

بعد ذلك زحف الدورانيون صوب العاصمة الفارسية «مشهد»، التي كان يحكمها آنذاك شاه رخ حفيد نادر شاه، الذي يبلغ التاسعة عشرة من عمره وكان قد أصابه أحد منافسيه على الحكم بالعمى. ومن المحتمل أن يكون أحمد شاه عرف شاه رخ عندما كان صبيًا، وعلى أية حال فقد كان واضحًا أنه يحمل له بعض المودة، فبعد أن استولى الأفغان على العاصمة عقب حصار قصير أُبقي على شاه رخ حاكمًا. وفي تلك الآونة كان الأفغان في نيسابور في أقصى الغرب قد لاقوا هزيمة اضطرتهم إلى تجميع قواتهم مرة أخرى في هرات.

عاد أحمد شاه إلى نيسابور في الربيع التالي، وفي هذه المرة اصطحب معه مدفعية ضخمة وقد انفجر أكبر مدفع تم تجميعه أثناء الحصار في أول مرة أطلق فيها، لكن قذائفه التي بلغ وزن الواحدة منها خمسمائة رطل أثارت الفوضى في المدينة بحيث استسلمت على الفور. وقد دفعتهم هزيمتهم

السابقة إلى إشاعة الدمار والخراب في المدينة، وقتل عدد كبير من الأهالي وأسر آخرين كعبيد لهم. وفي أثناء ذلك كان شاه رخ الصغير الأعمى قد قام بتمرد في خراسان، وعلى الرغم من هذا فإن أحمد شاه تركه مرة ثانية على عرشه بعد أن قمع ثورته، على وعد بأن يبقي هذه المنطقة جزءًا من الإمبراطورية الدورانية. وفي ذلك الوقت أرسل أحمد شاه قوات متحركة إلى شمال أفغانستان لتستولي على بلخ، ومزار شريف (التي ازدادت أهميتها في ذلك الوقت)، وطاليكان وقندوز ومدن أخرى كانت تحت سيطرة الأوزبك والطاجيك والتركمان الذين كانوا قد ارتحلوا إلى جنوب نهر الأوكسس.

وبينما كان أحمد شاه منغمسًا في معاركه في الغرب، كان ميرمانو قد فجر ثورة في البنجاب لحساب المغول. وفي عام ١٧٥٢م عاد الدورانيون ليعبروا نهر السند، وفي هذه المرة أحكموا قبضتهم على لاهور ومولتان، وبمساعدة قبيلة اليوزوفزاي الحدودية تمكنوا من الاستيلاء على كشمير. ومرة ثانية ينكر الإمبراطور المغولي أنه يتحصل على أي عوائد من مقاطعاته الجنوبية، ثم اضطر إلى عمل تسوية فدفع مبلغًا طائلًا من الضرائب المتأخرة ليبعد الدورانيين عن بلاده. ولقد تسبب حكم المغول للبنجاب لحساب الدورانيين في موقف عبثي حدث حين مات ميرمانو في عام ١٧٥٣م، فقد ولى إمبراطور المغول ابنه الذي كان عمره ثلاث سنوات الحكم، وعين ابن ميرمانو الذي كان عمره سنتين وزيرًا له. لكن على الرغم من هذا فإن السلطة الحقيقية كانت في يد أرملة ميرمانو التي تسببت في حدوث جو فوضوي ساد المملكة، بينما كانت هي تحكم من خلال غرفة نومها التي شاعت عنها الكثير من الفضائح. وفي عام ١٧٥٧م عاد أحمد شاه إلى بلاد البنجاب، وفي هذه المرة زحف إلى دلهي وسمح للإمبراطور المغولي ألامجير Alamgir أن يحتفظ بعرشه شريطة خضوع — كشمير والسند وليس فقط البنجاب — لسيطرة الدورانيين.

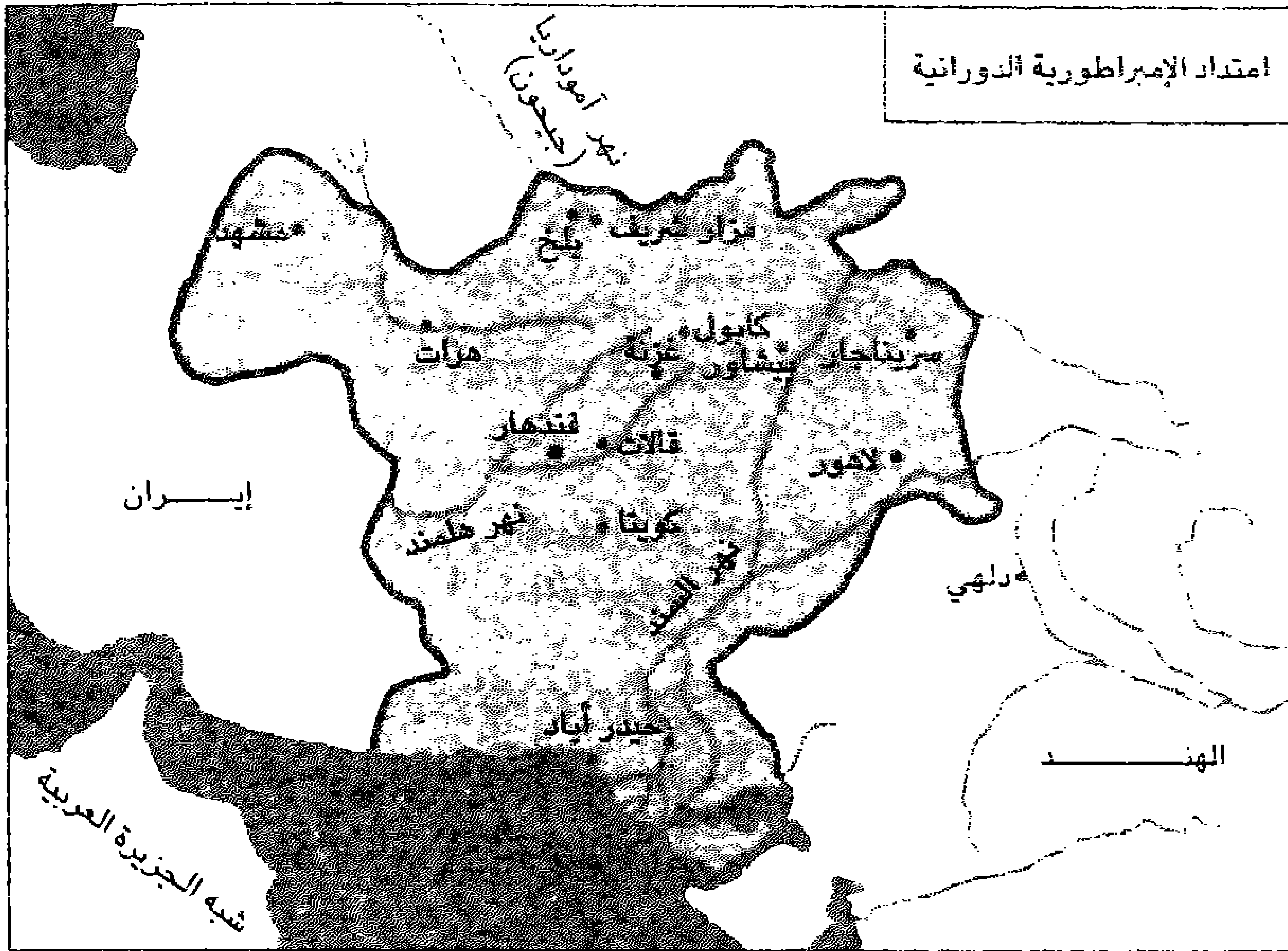
في ذلك الوقت لم تعد مشكلة الأفغان تتمثل في المغول، فهم على كل حال إخوانهم في الإسلام، وإنما كانت مشكلتهم الحقيقية هم الماراثانيون الأقوياء الذين تمكنوا من استغلال قوة الشعب الهندوسي الضخم في تكوين قوة كاسحة آتية من الجنوب. ومن عاصمتهم بونا التي تقع في الشرق الأوسط من الهند، احتل الماراثانيون أغلب أراضي الديكان ثم بدءوا يتوسعون شمالًا. ومنذ أواخر

عام ١٧٥٩م تصارع الأفغان معهم لأكثر من عام دون أن يستطيعوا إيقاف زحفهم إلى دلهي والاستيلاء عليها.

وفي عام ١٧٦١م زحف أحمد شاه من قندهار وعبر نهر السند للمرة الخامسة ليواجه الجيش الماراثاني في بانيبات وهي ساحة القتال التقليدية للمتنازعين حول حكم الهند الشمالية. وكان الفريقان متساويين في عدد المقاتلين الذي تراوح ما بين سبعين وثمانين ألف مقاتل. بعد أن بدأت المعركة مضت ساعات قلائل لم تحسم فيها النتيجة لأى طرف منهما، لكن أحمد شاه بعدها قاد بنفسه هجومًا مضادًا أدى إلى انهيار قلب جيش الماراثانيين، مما تسبب في مذبحة لجيش العدو وأتباع المعسكر. ترتب على هذه المعركة أمور كثيرة، فقد كان من المعروف أنه إذا ما تمكنت دولة هندية قوية من تثبيت حكمها في الهند، فسيعني هذا استحالة تعدي البحارة الأوربيون على هذه الأراضي. لكن الماراثانيين أصبحوا عاجزين بعد هذه المعركة، ولم يعد المغول بذات قوتهم السابقة، وكان الأفغان الذين لا يطيقون جوَّ الهند يركزون كل مواهبهم في القتال وليس في الحكم. وبذلك ساعدت هزيمة الماراثانيين على ظهور طائفة جديدة استحوذت على السلطة في البنجاب وهي جماعة السيخ.

توسعت الإمبراطورية الدورانية أكبر اتساع لها في عام ١٧٦٢م فشملت كل الأراضي التي تشغلها أفغانستان اليوم، بالإضافة إلى خراسان في إيران ومعظم باكستان تقريبًا وجزءًا من الهند ومقاطعة كشمير، وكذلك امتدت من آمودريا (جيحون) في الشمال حتى بحر العرب في الجنوب. أما الولايات الجنوبية فقد غنمها الدورانيون من خلال تحالفهم مع قبائل البراهمة والبلوخيين دون أن يضطروا إلى غزو تلك الأراضي القاحلة.

في الأعوام القلائل التي تلت ذلك، قاد أحمد شاه ثلاث غزوات أخرى في البنجاب ليواجه السيخ الذين أصبحوا خصومه الجدد. وكانت هذه الطائفة — التي تمارس مزيجًا من العقيدتين الإسلامية والهندوسية — قد ظهرت في القرن السادس عشر، وبعد عقود تعرضوا خلالها للاضطهاد تحول أفرادها إلى محاربين أشداء. حاول أحمد شاه سحق مدينتهم المقدسة أمريتسار مرتين لكنه في كل مرة كان السيخ يعودون فيستعيدونها حين يتركها الأفغان عائدين إلى موطنهم في الجبال صيفًا، وفي آخر غزوة له في عام ١٧٦٩م أدرك أحمد شاه أنه لن يستطيع الاستيلاء على البنجاب أبدًا.



توفي أحمد شاه في عام ١٧٧٢م عن عمر يناهز الخمسين عامًا، بعد معاناة من مرض رهيب يرجح أنه سرطان الجلد. وقد ذكر أحد الذين رأوه أنه في أواخر أيامه كان يضع أنفًا من الفضة لأن أنفه الحقيقي تآكل بفعل المرض، أو ربما قطع منعًا لانتشاره. ولكن بجميع المقاييس لم يكن أحمد شاه قائدًا عسكريًّا عظيمًا فقط، بل كان أيضًا زعيمًا محبوبًا. فعلى الرغم من تمتعه بهيبة واحترام من قبل الجميع فإنه كان دائمًا مهتمًّا بشئون رعاياه. وكبقية الزعماء الملهمين، مثل أتيلا، وجنكيز خان، كان متواضعًا في ملبسه ومسلكه، وكانت له قدرة فطرية تمكنه من دفع الآخرين إلى بذل أقصى ما في وسعهم.

يرى الكثير من الناس أن زعامته لقبيلة أبدالي عام ١٧٤٧م أذنت بميلاد الأمة الأفغانية، في حين يرى آخرون أن الإمبراطورية التي أسسها كانت كانت دورانية قلبًا وقالبًا ولم تكن أفغانية في انتمائها القومي، ولا تختلف في شيء عما سبقها من توسعات قامت بها بعض القبائل الأفغانية لفترة من الوقت ثم زالت سريعًا. والواقع أن كلا الرأيين يحمل جانبًا من الصواب، ففي شخصية أحمد شاه نرى البدوي السيثياني الرحال الذي يقود قبيلته في حملات غزو وسلب ونهب، ونرى كذلك الأفغاني الذي يضع مصلحة بلده قبل مصلحة

قبيلته بصورة لا تختلف كثيرًا عن مفهوم الوطنية الذي نعرفه في العصر الحديث. ونجد في إحدى قصائده التي كتبها عن وطنه ما يعزز وجهة النظر هذه، فهو يقول:

لحبك تراق دماؤنا
ولحياتك يفنى شبابنا
لا راحة لقلبي إلا في رحابك
وتنهش أفاعي الحزن قلبي لفراقك
عندما أرى عرش دلهي
أتذكر جبال بلدي أفغانستان، فلا أبالي
وإذا ما اضطررت للاختيار بين العالم وبينك
فلن أرضى أن يكون لغير بِيدِكِ الجرداء مآلي

وعلى الرغم من أن الغزنويين والغور كانوا قد أسسوا في عصور سابقة إمبراطوريات في أفغانستان فإن حكام تلك الإمبراطوريات كانوا أتراكًا لا أفغان. أما ما تحقق في عهد الدورانيين فهو أن الأفغان استطاعوا أن يتبوءوا مكانة في العام الإسلامي لم يدانيهم فيها إلا العثمانيون في أواخر القرن الثامن عشر. وللإنصاف نقول إن أحمد شاه لم يكن فقط زعيمًا قبليًّا، بل كان الرجل الذي تحولت أفغانستان تحت قيادته من مجرد بلد حدودي أو أرض مشاع تفصل بين إمبراطوريات أخرى؛ لتصبح كيانًا سياسيًّا مستقلًا جديرًا بالاحترام مثل زعيمه. وقد ظل نسله يحكمون أفغانستان حتى عام ١٨١٨م، ثم انتقل الحكم إلى فرع آخر من الدورانيين ليتولى الحكم حتى الانقلاب الشيوعي عام ١٩٧٣م. ولكن لا يمكننا القول إن الإمبراطورية استمرت في ازدهارها بعد وفاة أحمد شاه.

كان أعظم فشل لأحمد شاه في حياته هو أنه لم ينقل إلى من خلفوه روحه الملهمة، ولم يعلمهم الوسائل التي يستطيعون بها الحفاظ على ملكه بعد مماته. وتلك كانت مشكلة مزمنة لدى قبائل البدو الرحل، فعندما تحدث فترة ازدهار خلال حكم قادة أكفاء وأقوياء، لا تلبث بعدها أن تنتهي بوفاة هؤلاء القادة، وبالرغم من أن أفغانستان كانت تسعى لتكون دولة فإنها ظلت مجرد تحالف بين القبائل استمر حتى نهاية القرن الثامن عشر، واعتبر ظاهرة غريبة

في ذلك العصر. ففي جميع أنحاء العالم كانت النظم القبلية قد اندثرت أو استعمرت أو اندمجت في دول أو ولايات أكبر منها. وكانت المؤسسات الحاكمة في الغرب، التي تدعمها الشعوب المتعلمة في طريقها لتحل محل نظم الحكم الملكية. ومن المهم أن نلاحظ أن الإمبراطورية الدورانية كانت قامت على أكتاف البشتونيين وحدهم، ولم تكن متعددة الأعراق، وبالرغم من ذلك فإن أحمد شاه كان يضطر أحيانًا إلى دفع رِشا للأفريديين وغيرهم ليفتحوا له الطريق إلى الهند. وإذا وضعنا في الاعتبار أنه مع أن حدود أفغانستان الحالية ما زالت في حاجة إلى تحديد فإن دولة أحمد شاه استطاعت وضع حدود لها ألزمت بها الجميع حتى الإمبراطوريات الكبرى في العصر الحديث.

تفردت أفغانستان بثلاثة عوامل جعلتها بمنأى عن المد التاريخي: العامل الأول: أن طبيعة أرضها كفلت للقبائل أن تعيش مستقلة وسط جبال وعرة يصعب الوصول إليها، أي بمعزل عن أي إدارة مركزية، وفي نفس الوقت لم تمنعهم مناطق إقامتهم من نزولهم من أعالي الجبال ليشاركوا في أي حروب بهدف الدفاع المشترك. والعامل الثاني: أنها بسبب وقوعها في منطقة جنوب آسيا التي كانت أحوالها متدهورة، أصبحت أكثر انعزالية عن طرق التجارة العالمية الرئيسية، ومن ثم بعيدًا عن طريق الجيوش الأجنبية. وليس من قبيل المصادفة أن الإمبراطورية الدورانية ارتفع شأنها في الفترة التي كانت الإمبراطوريات الأخرى التي تجاورها قد بدأت تضمحل بسرعة؛ لذلك تمكن الأفغان من أن يعيشوا منعزلين في نطاق دولة منعزلة بدورها. والعامل الثالث: أنه في تلك الأراضي تكمن مفاتيح القوة لدى قبائل البدو الرحل لا لدى المجتمعات المدنية المستقرة التي كانت تتعرض للغزو عبر قرون طويلة؛ كانت فطرية الأفغان هي قوتهم. فقد ظلوا مقاتلين لهم أخلاقياتهم الحربية التي تدفعهم إلى قتال بعضهم بعضًا حين ينعدم أي تحد آخر أمامهم، وكانت النتيجة أنه في هذا العالم الذي كان يميل نحو تحقيق التقدم الاقتصادي، كان المحارب الأفغاني الذي يعيش خارج حيز التاريخ، من أشد محاربي الأرض قوة وصلابة.

وكان يمكن لأحمد شاه دوراني أن يصبح شخصية تاريخية أكثر شهرة لو كان قد أتم ما بدأه وكفل استقرار الإمبراطورية الأفغانية بعد أن جعل أهلها سادة أنفسهم. وبينما كان أحمد شاه في النزع الأخير من حياته، لا

شك أنه كان يأمل أن يسير أبناؤه وأحفاده على نهجه، خاصة أنه قد علم قبل وفاته أن بعض الأراضي التي كان قد غنمها قبل ذلك في غزواته ضاعت وهو لا يزال حيًّا. لكنه اتضح بعد ذلك أن اتساع دولته العظيم هو ما أدى إلى تقلصها، وكان من خلفوه حريصون كل الحرص على الحفاظ على وحدة القبائل الأفغانية أو لعلهم اضطروا إلى هذا، لكنهم في مطلع القرن التاسع عشر أصبحوا يواجهون عالمًا لم يكن أحمد شاه ليتخيله قط.

خلف أحمد شاه ابنه الثاني تيمور Timur الذي كان له جناح حريم كبير، ربما لكثرة عدد الزيجات السياسية التي رتبها له أبوه. وبدأ تيمور في عزل مؤيديه البشتون، فقام أولًا بتغيير العاصمة لتكون كابول بدلًا من قندهار التي كانت أقرب ما تكون إلى المدينة المختلطة بعيدًا عن تأثير أي قبيلة بعينها. وجعل تيمور مدينة بيشاور التي تقع على الجانب الهندي من ممر خيبر عاصمته الشتوية. ولأنه كان متهمًا بالتقارب مع الفرس فقد شكل فريق حراسة خاصًّا به من المحاربين القزلباش ولم يعتمد على رجال القبائل. وكان القزلباش أو «ذوي الرءوس الحمر» من المحاربين الأتراك الذين تجنسوا بجنسية الفرس، قد وصلوا إلى أفغانستان في أعداد كبيرة عقب الهزائم التي مني بها الفرس تحت قيادة نادر شاه؛ ولأنهم كانوا أكثر تعليمًا وتنظيمًا من الأفغان أنفسهم، فقد استخدمهم تيمور ليس فقط لفرض إرادته على أولئك الجاحدين، بل كخدم مدنيين أيضًا، وبالطبع كان البشتون يكرهونهم بشدة.

دام حكم تيمور عشرين عامًا، ولقد كان هذا راجعًا إلى الموقف الدولي أكثر منه إلى حكمه المتراخي، وفي الشمال كان أمير بخارى قد بدأ في توجيه ضرباته إلى الأراضي الدورانية الواقعة وراء جبال الهندوكوش، وفي الهند احتل السيخ جزءًا من الأراضي الأفغانية في البنجاب وقد حكم تيمور حتى عام ١٧٩٣م، وكان حكمه آمنًا مرفهًا، وإن كان قد عجز عن تحقيق مفهوم والده في تشكيل دولة أفغانية تتميز بالقوة والنشاط. وقد خلف تيمور وراءه ما يزيد على ثلاثين ابنًا عدا الأبناء غير الشرعيين، ومع ذلك لم يعن إطلاقًا بتسمية وريث له. وكانت النتيجة دوامة من الفوضى العارمة حدثت بعد موته.

استولى زامان Zaman — أحد أبناء تيمور — على السلطة في كابول، في حين ثبت ابنه الثاني محمود أقدامه في هرات. أما الثالث هومايان Humayan

فقد استولى على قندهار. قام زامان بسجن بقية إخوته من الأشقاء وغير الأشقاء، وفرض عليهم الخضوع له. ثم تمكن بعد ذلك من القبض على هومايان أكبر إخوته وفقأ عينيه. وقد حاول زامان أن يبسط سلطان الدورانيين على البنجاب للحصول على مزيد من الدخل لمملكته لكنه فشل، وفي عام ١٨٠٠م سجنه أخوه محمود وفقأ عينيه بدوره. وقد قتل محمود بعد ذلك على يد شوجا Shuja الأخ الشقيق لزامان والذي كان حاكما لبيشاور — وقد هزم شوجا في كابول أولًا ثم قندهار بعد ذلك. وفي أثناء ذلك حدثت اشتباكات دينية بين الشيعة والسنة في كابول، وعجز محمود عن السيطرة عليها. وفي عام ١٨٠٣م زحف شوجا مرة ثانية إلى كابول، وبعد معركة دامت يومًا كاملًا تمكن من الاستيلاء عليها بعد أن انتقل كثير من جند محمود إلى المعسكر الآخر. وقد صفح شوجا عن محمود وسمح له بالعودة إلى هرات دون أن يمسه بأي شر، لكنه لم يكن حكيمًا في قراره هذا.

خلال السنوات العديدة التالية، حاول شوجا أن يفرض الحكم الأفغاني على البنجاب والسند، لكنه في كل مرة كان يترك فيها عاصمته كانت تنشب حركات تمرد ضده حتى أصبحت أصعب المعارك تلك التي يخوضها ضد مواطنيه من الأفغان. أما الجلزانيون فلم يستكينوا أيضًا، بل ثاروا على حكم الدورانيين واشتبكوا معهم في عدة معارك دموية، وفي البنجاب بدأ رانجيت سينج Ranjit Singh — الذي شهد في طفولته المعارك الرهيبة التي كان يشنها أحمد شاه عبر نهر السند — يحشد قوى شعب السيخ.

وفي عام ١٨٠٩م عاد محمود من هرات ومعه قوة كبيرة من قبيلة باروكزاي يسانده وزيره فاتح خان، وتمكن من هزيمة شاه شوجا في معركة عند بلدة نيملا التي تقع بين بيشاور وكابول. لكن شاه شوجا — وكانت أمه من قبيلة يوزوفزاي — احتفظ بمساندة ودعم كثير من القبائل الحدودية، واستمر قرابة ثلاثة أعوام يحاول أن يعيد تشكيل جيشه. وبعد ذلك زحف فاتح خان عبر الممرات وأجبر شوجا على الفرار إلى كشمير، ثم إلى ملاذ آخر أكثر أمنًا في بلاط رانجيت سينج في لاهور. لكن مهراجا السيخ انتزع منه ماسة كوهي-نور وهي رمز تاج الإمبراطورية وعامله بطريقة سيئة. وفي يوليو/تموز عام ١٨١٣م حارب السيخ جيش فاتح خان الدوراني في أتوك وأجبروه على العودة إلى الجبال.

وفي كابول أثبت محمود أنه حاكم سيئ، بل ومعتوه كذلك. فقد شارك مع ابنه كامران Kamran الذي لا يقل عنه سادية في فقء عيني وزيره القوي فاتح خان، ثم قتله بعد تعذيب فظيع. وفي ذلك الوقت كان الأفغان قد فقدوا ثقتهم في خلفاء أحمد شاه دوراني، وثارت في نفوسهم مشاعر الاحتقار لهم، فتمردوا عليهم بقيادة قبيلة باروكزاي في عام ١٨١٨م، وطردوا محمود من العاصمة ففر إلى هرات وهي المقاطعة التي استولى عليها كامران بعد موته. وقد استمر حكم الدورانيين، ولكنه انتقل من نسل أحمد شاه إلى السادوزاي وهم أسرة حاكمة جديدة من عائلة محمد زاي Muhammadzai التي تنتمي إلى قبائل الباروكزاي.

حين كان الوزير فاتح خان في السلطة، قام بتعيين إخوته الواحد والعشرين في مناصب رفيعة في أنحاء البلاد. وكان من بينهم أقرب واحد إلى قلبه وهو دوست محمد Dost Mohammed الذي كانت والدته من قبائل القزلباش. وقد حارب وهو في الثامنة عشرة من عمره في معركة أتوك وبعد ذلك توالى الحكام على كابول في الوقت الذي طالب فيه بعض الإخوة من الباروكزاي بولايات قندهار وبيشاور ومناطق أخرى. وفي عام ١٨٢٣م هجم الدورانيون على البنجاب في محاولة لاستعادة أراضيهم الضائعة، لكن قوات رانجيت سينج المنظمة ومدفعيته الثقيلة دحرتهم، ولقد كان مرتزقة رانجيت سينج من الجورخة هم من أرجحوا كفته أثناء القتال.

استولى دوست محمد على الملك في كابول عام ١٨٢٦م، وقبلها كان قد أحكم سيطرته على كوهستان ثم دخل العاصمة وفجر جزءًا كبيرًا من حصن بالاهيسار الضخم؛ حتى يجبر أحد المطالبين بالحكم على الخروج منه. ووسط الفوضى التي كانت سائدة في أفغانستان، اضطر «دوست» (ومعنى اسمه الصديق) أن يستخدم مزيجًا من المهارة الدبلوماسية والغلظة ليحافظ على عرشه ويقمع أي تمرد. غير أن المشكلة الرئيسية التي واجهها هي أنه في الوقت الذي كان يطالب فيه بالعرش الدوراني لم يكن هذا العرش عظيم القيمة أو الشأن، ففي الوقت الذي كان فيه شاه شوجا يستقبل ضيوفه وهو مزدان بالمجوهرات والياقوت من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه، كانت خزانة الدولة إما خاوية أو منهوبة. كانت الإمبراطورية الدورانية وهي في قمة مجدها تعتمد على غارات السلب والنهب، أو فرض الضرائب لملء خزائنها وزيادة

ثروتها، وكانت القبائل الأفغانية تعارض إرسال أموال إلى كابول. وبالرغم من أن طبيعة الأفغان الضارية كانت تثير مخاوف جيرانها، فإن كيان الدولة كان ضعيفًا أو لعله لم يكن موجودًا على الإطلاق. وكانت الدولة تقوم على مبدأ الخضوع للقائد القوي لتحقيق المنفعة، ولكنها إذا ما هوجمت وخاصة من قبل جيوش غير إسلامية، فقد كان لدى القبائل المقدرة على الاتحاد للدفاع عن أراضيها.

وفي المنفى لم يفقد شاه شوجا مع أخيه الأعمى زامان الأمل في استرجاع حكم السادوزاي مرة أخرى. وفي عام ١٨٣٤م زحف — بدعم خفي من رانجيت سينج — عبر السند إلى قندهار ولأنه كان يفتقر إلى الأموال والمهارة العسكرية فقد تمكنت القبائل الدورانية من صد هجومه. وكانت أهم نتيجة تمخضت عنها هذه الحرب أن رانجيت سينج طارد شوجا عبر البنجاب، وانتهز فرصة ارتباك الأفغان ليستولي على بيشاور. وأعلن دوست محمد الجهاد ضد السيخ الكفرة، لكن كابول شهدت حركة تمرد ضده فاضطر أن يعود إليها بسرعة. وفي العام التالي زحف ابنه أكبر خان بقواته عبر الممرات، وهزم السيخ في جمرود بعد أن قتل واحدًا من أعظم قادتهم يدعى هاري سينج Hari Singh، ومع ذلك لم يتمكن جيش القبيلة من التماسك أمام هجمات السيخ المضادة فانسحب، ومن ثم فقد الأفغان البنجاب وكشمير والسند وخراسان إلى الأبد. وداخليًّا كانت القبائل المتشاحنة قد مزقت البلاد، أما في كابول فقد اقتصر حكم دوست محمد على الشريط الممتد من غزنة عبر كابول إلى كوهستان، وهو جزء ضئيل من الإمبراطورية الدورانية التي كانت ما زالت ماثلة في الذاكرة.

ولا يمكن القول إن تداول الحكم في أفغانستان قد سبب أي مشاكل لقبائل البشتون أو الهازارا في جبال الهندوكوش، أو الأوزبك أو الطاجيك أو التركمان في الشمال. فبالرغم من أن الأفغانيين كان يمكنهم أن يحاربوا وراء قائد قوي في سبيل قضية معينة، فإنهم كانوا سعداء بأن يعيشوا كما كانوا يعيشون دائمًا دون أن تزعجهم أيه حكومة تتدخل في شئونهم الداخلية. وبالطبع كان انشقاق القوى على جانبي الهندوكوش يعتبر خبرًا سارًّا للشعوب المجاورة التي طالما أحنت رءوسها أمام السيف الأفغاني.

أدى العداء الشديد الذي كان يكنه الرجل الأفغاني العادي للحكم القبلي الموحد إلى وجود الكثير من المؤامرات التي حدثت بين القبائل المختلفة للسيطرة

على كابول، لكن هذه المؤامرات كانت تتوقف على الفور إذا ما تعرضت البلاد لغزو خارجي. لكن أفغانستان كانت قد فقدت أهميتها السياسية منذ نهاية القرن الخامس عشر. كانت كثير من القبائل الأفغانية التي تعيش في الوديان النائية تعتقد أنها لو تركت لشأنها فسوف تستمر حياتها بسلام، بالرغم من تطلعات الآخرين لحكمهم أو مطامع القادة الأقوياء الذين يعيشون خارج حدود أفغانستان. ففي أوائل القرن التاسع عشر كانت القبائل قد ارتدت عن مفهوم الوطنية الأفغانية التي كانت تشكل بارقة أمل أيام حكم أحمد شاه دوراني، وعاد الشعب الأفغاني إلى الحكم القبلي المحلي وهو يجهل تمامًا ما طرأ على العالم حوله من تطور.



روسيا
بحر آرال
بحر قزوين
خيوة
الصين
قوقند
بخارى
سمرقند
مرو
بلخ
كابول
هرات
فارس
أفغانستان
نهر هلمند
قندهار
كويتا
بيشاور
الحدود الشمالية الغربية
بنجاب
التبت
نيبال
دلهي
نهر الجانج
نهر السند
السند
الخليج الفارسي
الهند
بحر العرب
«اللعبة الكبرى»
التوسع البريطاني والروسي ١٨٤٦–١٩٠٠
التوسع الروسي
التوسع البريطاني

الفصل السادس

اللعبة الكبرى

على الرغم من أن إمبراطورية أحمد شاه دوراني بدأت في الانهيار منذ لحظة وفاته في عام ١٧٧٢م، فإنه كان قد حقق إنجازًا عظيمًا، إذ نجح في أن يجنب أفغانستان الويلات التي كانت تقاسيها كبلد يقف في منتصف طريق الغزوات، أو كمزيج من الأقاليم التي تجاور قوى عظمى. ففي نظر الدول المحيطة بها — والتي كانت غافلة عن مدى تفكك القبائل بداخلها — كانت أفغانستان قد اتخذت وضعها كإحدى الدول المستقلة. والواقع أن كلمة «أفغان» ذاتها كان لها مدلولها المخيف بين الشعوب المجاورة لذا لم يفكر أحد منها في الإغارة على أراضي الهندوكوش، بل انحصر تفكيرهم كله في كيفية التصدي لضراوة هذه القبائل. وكان التحدي الثاني الذي واجه الأفغان هو الحفاظ على استقلالهم الوطني الظاهري بالرغم من الخلاف والشقاق الداخلي العنيف الناشب بينهم؛ في مواجهة إمبراطوريات العالم الجديد الناشئة.

في غمار الفوضى التي سادت خلال الخمسين عامًا التي تلت وفاة أحمد شاه، طرأت على العالم تغييرات جذرية. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر بدأت أربع قوى كبرى مختلفة تضغط على أفغانستان من جميع الاتجاهات: فمن الغرب بدأت بلاد فارس — بعد أن استعادت قواها — محاولة غزو خراسان (تقع في شرق إيران حاليًّا)، ومن الشرق قامت دولة رانجيت سينج بغزو بلاد البنجاب واستولت على عاصمة الأفغان الشتوية بيشاور. لكن التهديد الأكبر تمثل في شعبين لم يرهما الأفغانيون أو يسمعوا عنهما من قبل، كانت جيوشهما تتجه تدريجيًّا نحو أفغانستان من الشمال والجنوب، كان هذان هما الروس والبريطانيين اللذين ينتميان إلى أقوى دولتين في أوروبا في ذلك

الوقت، اللتان وضعتا نصب أعينهما تكوين إمبراطوريات من الدول الآسيوية الأقل تقدمًا والأكثر فوضى.

في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر كان أهم وأعمق حدث سياسي في العالم هو هزيمة فرنسا البونابارتية، وهو نصر احتاج إلى تضافر جهود كل دول أوروبا تقريبًا لتحقيقه. وقد أثمر سقوط نابليون بونابارت عن نتائج سعيدة لثلاث دول: أولها بروسيا التي تمكنت أخيرًا من إيجاد سبيل إلى توحيد الشعوب الجرمانية في أوروبا. والثانية روسيا التي نجحت في التسلق على أشلاء «الجيش الكبير» لتظهر كقوة أوروبية جديدة لها حدودها الغربية الآمنة، مما يسمح لها بالتوسع مرة أخرى جنوبًا وشرقًا. والثالثة بريطانيا التي نجحت — بعد أن تسببت في هزيمة نابوليون — في تحييد منافستها الأولى في سيادة العالم لتستمر في طموحاتها الاستعمارية دون عائق. وفيما بعد ظهرت ألمانيا المتحدة على مسرح الأحداث بعد أن فاتتها فرصة المشاركة في الحقبة الاستعمارية فاقتصرت طموحاتها على أوروبا. أما بريطانيا وروسيا فحدث بينهما سجال طويل في آسيا.

في عام ١٧٨٣م فقدت بريطانيا أمريكا وكانت أهم ممتلكاتها الاستعمارية، وكان هذا إلى حد كبير راجعًا إلى التدخل العسكري الفرنسي، لكنها وجدت في الهند بديلًا أكثر ثراء، وأقل تمردًا. وبالرغم من كونهم في خضم الصراع مع نابليون، خاض البريطانيون ثلاث حروب ضد الاتحاد الماراثاني الذي كان مسيطرًا على النصف الجنوبي من شبه القارة الهندية. وفي عام ١٨٠٣م استطاع الجنرال آرثر ولسلي Arthur Wellesly أن يحقق ما اعتبره أكبر نصر في تاريخه العسكري على الجيش الماراثاني الذي كان تعداده يبلغ أربعة أضعاف عدد جيشه، وذلك في معركة آساي، وفي عام ١٨١٥م — بعدما أصبح دوق ولنجتون — نجح في هزيمة نابليون في معركة ووترلو. وبعد إبعاد نابليون عن مسرح الأحداث، صار البريطانيون يعيشون في أوروبا جديدة يسودها الهدوء بعد أن تحررت من العدوانية الفرنسية، ثم لم يلبثوا أن اتجهوا بأنظارهم نحو الشرق.

بعد نابليون سنحت للروس أيضًا فرصة كي يستعرضوا قوتهم، فبخلاف عودتهم إلى صراعهم القديم مع الأتراك العثمانيين، فقد قاموا بإحياء حلم بيتر الأكبر Peter the Great في التوسع جنوبًا فاستولوا على إقليم القوقاز، ومع

حلول عام ١٨٢٥م كانوا قد اخترقوا سهول القازاق الممتدة ما بين بحر قزوين وبحر الآرال، واستخدموا رءوس الحراب التي كان يستعملها القوزاق ليتمكنوا من اختراق الأرض التي كانت تحتلها مملكة القبجاق المغولية السابقة. وفي أقصى الجنوب كانت توجد بقايا إمبراطورية تيمورلنك المتداعية والتي كانت مقسمة إلى عدة سلطنات متشاحنة — مثل خيوة وبخارى وسمرقند — يحكمها أمراء يجسدون قسوة العصور الوسطى، بالرغم من أن هذه العواصم كانت تثير خيال الغرب. وفي أوائل القرن التاسع عشر كانت بلاد ما وراء النهر، التي سبق أن أثارت غضب الإسكندر الأكبر؛ ما زالت منطقة تتقاطع عندها طرق المحاربين من التركمان والأوزبك والطاجيك الذين كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب وأسر العبيد، سواء بإغارة بعضهم على بعض، أم على القوافل المارة. وفي عام ١٨٢٨م صدت روسيا هجومًا من قوات الفرس واستولت على أرمينيا جنوب القوقاز، وفي العام الذي يليه انتصرت على العثمانيين انتصارًا حاسمًا لتنتهي الحرب بسرعة حتى لا يتسبب انهيار الأتراك في إيجاد فراغ في المنطقة يغري البريطانيين بملئه.

وبينما كانت الإمبراطورية الروسية تشق طريقها جنوبًا مقاتلة الأتراك، ومخترقة سهول آسيا المتوحشة، كانت إمبراطورية بريطانيا تتوسع بحريًّا من خلال شراء الأراضي الزراعية الهندية التي تمر بها وهي تتجه شمالًا. وفي الحقيقة، الوسيلة التي تمكنت بها من تحقيق هذا التوسع الهائل كانت شركة تجارية مكونة من شركاء مساهمين، وهي شركة «الهند الشرقية» ذائعة الصيت، كانت على قدر من الغرابة لا نظير له سوى غرابة الإمبراطورية البريطانية نفسها التي ظهرت كجسر يربط بين الإمبراطوريات العسكرية القديمة، والإمبراطوريات الاقتصادية العالمية المعاصرة مثل الولايات المتحدة وألمانيا واليابان بعد الحرب. وفي حين كانت القوى المنتصرة قديمًا تستولي على الأراضي عن طريق جيوشها المعتدية في ضوء ما تتوقعه من مكاسب اقتصادية تعود عليها بعد ذلك، كان اهتمام البريطانيين الأكبر بالتجارة أولًا تاركين للقوة العسكرية دورها في دعم مشروعاتها إذا لزم الأمر. وبصفتها أكثر إمبراطوريات العالم الحديث قوة — ولأنها كذلك تنتهج سياسة ديمقراطية ليبرالية فمن المنطقي إذن أن تخترع بريطانيا العظمى طريقة استعمارية أخرى — أقل دموية من الطرق القديمة.

وبالطبع احتاجت شركة الهند الشرقية إلى تأمين أعمالها وفرض قوانين في أراضٍ كان ازدهارها وانحطاطها قديمًا مرتبطًا بنزوات الأمراء المحليين، فشكلت حامية خاصة لها من القوات الوطنية تدعى «السيبوي»، بقيادة مجموعة من الضباط البريطانيين الذين تلقوا تدريبهم في الأراضي المملوكة للشركة قرب لندن. وكان من المحتم أن تدخل نشاطات الشركة في اهتمامات السياسة الخارجية لبريطانيا، فتشكَّل مجلس رقابي من الحكومة للإشراف على هذه النشاطات. وكان تعيين الحاكم العام للشركة وقراراته يخضع لموافقة التاج البريطاني، وفي المقابل كانت الحكومة البريطانية توفر لها قوات منتظمة كلما وقعت الشركة في مأزق أو تطلعت إلى أهداف إمبريالية جديدة تفوق إمكانياتها وقدراتها.

لكن الشركة كانت إلى حد بعيد غنية عن أي مساعدة. وبالرغم من أنه شيء يبدو بعيدًا عن التصديق فإنه في عام ١٨٣٢م تمكن بضعة آلاف من البريطانيين من تأسيس دولة مستقلة من دول الكومنولث في شبه قارة يصل تعدادها حوالي ١٠٠ مليون نسمة، في حين عجز الهندوس أن يؤسسوا جبهة أمامية قوية كافية، وكانت دولة المغول الإسلامية قد انهارت وتفككت إلى إمارات صغيرة عاجزة عن الاعتماد على قوة المحاربين الأفغان، حيث كان السيخ قد فصلوا بينهم وبين الهند. واستمر البريطانيون في توسعاتهم لكنهم اضطروا إلى التوقف عند أراضي السيخ أمام جيش رانجيت سينج الذي دُرِّب ونُظِّم وفق النظم الأوروبية على يد الجنود الفرنسيين، مما اضطرهم إلى إبرام معاهدة تحترم الطرفين. وقد احترم رانجيت سينج — الذي أصبح يلقب بأسد لاهور — هذه الاتفاقية حتى وفاته عام ١٨٣٩م، ثم بدأت الحروب الضارية بين الإنجليز والسيخ عام ١٨٤٥م.

استخدم البريطانيون العلوم المتقدمة (الطبية والعسكرية) التي كانت إلى جانب انضباطهم وشغفهم بتطبيق القانون بمنزلة شعاع نور بدد ظلمة شبه القارة الهندية، ومن خلال هذه المظاهر تمكن البريطانيون من تحقيق انتصارات عظيمة بأعداد قليلة من الجنود. وكان للتوسع الإمبريالي البريطاني في آسيا أمور تفرد بها، ومنها أنه لأول مرة في التاريخ فقدت معابر أفغانستان ما كان لها من قيمة استراتيجية كبيرة، فقد استحوذ البريطانيون ملوك البحار على الهند دون حاجة إلى أن يطئوا أرض أفغانستان بأقدامهم، بل

ولقد أسهمت تلك المعابر في حمايتهم من منافسيهم. وفي القرن التاسع عشر كانت أفغانستان — ملتقى الطرق في آسيا — قد بدأت تلعب دورًا جديدًا بوصفها دويلة في شبه القارة، كلما انعزلت عن بقية آسيا كان ذلك أفضل للجميع.

بعد أن استقرت الأمور في الهند وأصبحت جوهرة التاج البريطاني ومصدر ثراء الإمبراطورية، تركز قلق البريطانيين على زيادة توسعات الإمبراطورية الروسية — فلم تكن حصون القياصرة وقواعدهم قد بدأت تقترب من وسط آسيا فقط، بل إن الفرس كذلك كانوا قد بدءوا يفقدون تعاطفهم مع إنجلترا، لينضووا تقريبًا تحت حماية روسيا؛ وذلك لأن بريطانيا فشلت في دعم الفرس في حربهم سنة ١٨٢٨م، مما أثار حفيظة محمد شاه ودفعه للاعتقاد بأنه راهن على الحصان الخاسر. وفي العام الذي تلا هذه الحرب حدثت حادثة تسببت في تعزيز العلاقات بين بلاد فارس والإمبراطورية الروسية، إذ قامت زمرة من الجماهير الغاضبة بذبح السفير الروسي وجميع حرسه القوقاز في طهران. وعلى الفور حاول الشاه أن يتدارك الأمر مع حكام سان بطرسبورج، فبعث بحفيده إليهم، وهناك أبدى مبعوث الفرس استعداده لأن يرتمي على سيفه تعويضًا عن مقتل السفير، وكانت المفارقة الغريبة أن مقتل السفير الروسي بأيدي الفرس وطد العلاقة بين البلدين أكثر من ذي قبل.

لم يستطع البريطانيون مقاومة هذا المد الروسي الجارف الذي كان في طريقه ليغرق سهول وسط آسيا الشاسعة حتى آموديريا (جيحون)، فضلًا عن أنهم كانوا قد كشفوا جناحهم الأيسر عندما تخلوا عن الفرس مما دفعهم إلى الارتماء في أحضان الدب الروسي. لكنه بقيت أمامهم تلك المساحة الشاسعة من الأراضي الوعرة التي تتحصن بين السهول الآسيوية وبحر العرب وبلاد الفرس والبنجاب والتي يمكن أن تقف حائلًا ضد أي تطلعات روسية نحو الهند. قبل بزوغ القوة البحرية كانت أفغانستان تعتبر معبرًا أو قناة اتصال، أما الآن فقد صارت حاجزًا وسدًّا منيعًا، ولهذا فقد رأى كل من لورد بالمرستون Lord Palmerston وزير الخارجية البريطاني، ولورد أوكلاند Lord Auckland الحاكم العام في كلكتا بالإضافة إلى جميع أعضاء البرلمان المتخوفين من المد الروسي؛ ضرورة مد سلطة إنجلترا إلى أفغانستان. كان من بين أعضاء البرلمان

أناس رفضوا الفكرة إذ شعروا أن الإمبراطورية تتوسع أكثر من اللازم، غير أن الجناح الإمبريالي في البرلمان تصدى لآرائهم تلك بدعوى أن توسعات إنجلترا لن تعود بالنفع عليها فقط، وإنما سيكون من حسن طالع غير البريطانيين أن يستعمرهم البريطانيون فيتأتى لهم أن يذوقوا حلاوة تحضرهم. وفي خضم هذا الجدل العالي المستوى، وفي شهر مايو/أيار من عام ١٨٣٧م اعتلت عرش إنجلترا فتاة في الثامنة عشرة من عمرها اسمها فيكتوريا Vectoria ليبدأ عصر جديد في تاريخ الإمبراطورية البريطانية.

وفي كابول كان دوست محمد يحتل حصن بالاهيسار الضخم بكل ما فيه من زخارف الملك، لكن الأرض التي كان يحكمها لم تتجاوز تلال كوهستان شمالًا ومدينة غزنة جنوبًا. أما قبائل الجلزاي التي كانت تشرف على الممرات بين كابول والبنجاب فلم تكن بها حاجة إلى أية حكومة ولم تكن بحاجة إلى فرض نظام ضرائب، فقد كان الدورانيون الذين يتجولون بحرية في الجنوب والغرب راضين بالحكم المحلي، أما مدن قندهار وفرح وهرات وجميع الأراضي الواقعة شمال الهندوكوش، فقد كان يجب انتزاعها من أمرائها أو زعمائها مرة ثانية كي تخضع لحكم الملك.

وقبل ذلك بسنوات، وعلى وجه التحديد في عام ١٨٠٩م سافر مسئول بريطاني يدعى مونتستيوارت إلفنستون Mountstuart Elphinston على رأس إرسالية إلى أفغانستان، ثم قام بتأليف كتاب عن تجربته هناك ذكر فيه ما كوّنه من آراء حول هذا البلد، والواقع أن آراءه تلك ما زالت تنطبق على حال البلد حتى يومنا هذا، فقد كتب يقول: «تضطلع الحكومات الداخلية القبلية بدورها على خير وجه، إلى درجة أنها لا تتأثر هي أو شعوبها على الإطلاق بأي قلاقل تحدث في المملكة الأفغانية مهما كانت هذه القلاقل جسيمة، وكانت لهذه الجمهوريات جيوش جيدة التنظيم ومرتفعة الهمة وعلى استعداد للدفاع عن بلادها ضد أي غزو، وعلى إجهاض أي محاولات خائبة لإشعال حرب أهلية.»

ولم يفت إلفنستون أن يشير إلى طبيعة أرض أفغانستان التي يعزى إليها نزوع أهلها إلى الغلظة وحب القتال، فقد قارن بين القبائل الأفغانية وبين العشائر التي تقطن جبال أسكتلاندا. وكان يمكن أن يقارنهم أيضًا بالرعاة الذين يقطنون جبال الألب بسويسرا، وأهل الدول — المدن الواقعة

في المناطق الجبلية في اليونان، والعديد من القبائل الجبلية التي استمرت بعد زوال الإمبراطورية الفارسية دون أن يزعجها أي حكم إمبريالي. وقد لاحظ إلفنستون أن الأفغان دائمًا ما ينقسمون على أنفسهم ويدخلون في نزاعات قبلية، ومع ذلك فهم يفضلون هذا الأمر على العيش المستقر تحت سلطة زعيم قوي. «فمع أن هذا النظام يشجع بعض المشاحنات الصغيرة فإنه يؤمنهم ضد الثورات العامة والنكبات التي كثيرًا ما تتعرض لها البلاد المستبدة في آسيا.» وفي إحدى المرات تحاور إلفنستون مع عجوز من إحدى القبائل وأخذ يؤكد له أهمية وفائدة الاستقرار الاجتماعي تحت مظلة حكومة قوية، لكن الرجل العجوز صارحه بقوله: «إننا نستطيع أن نتعايش مع خلافاتنا ومع ما نتعرض له من أخطار ومع الحروب التي تسفك فيها دماؤنا، لكننا لا نستطيع أبدًا أن نخضع لسيد يحكمنا.»

خلال رحلة إلفنستون تلك لاحظ الكثير من الخلل الذي يشوب الشخصية الأفغانية، مثل: الاتجاه إلى الحسد، والبخل، والتناحر والرغبة في الانتقام. لكنه شاهد أيضًا الكثير من الصفات التي استدعت احترامه، مثل: روحهم العسكرية، وكرمهم، وأمانتهم، وحبهم للحرية. وأضاف قائلًا: «وهم كذلك يتمتعون بقدر من الفضول وهو أمر مريح لرجل مثلي اعتاد برود الهنود وعدم اكتراثهم لشيء.» وقد وجد الأفغان متخوفين من أن تنصهر ثقافتهم في ثقافة الفرس، وقال إن مشاعرهم تجاه هذه الحضارة التي تفوقهم تقدمًا، وإن كانت عقيمة بالنسبة للبريطانيين — «تشبه نفس المشاعر التي انتابتنا تجاه الفرنسيين منذ بضع سنوات ماضية.» ويضيف: «لم أجد بين الآسيويين من هم أقل من هؤلاء القوم شرًّا أو شهوانية أو انغماسًا في الملذات.» ويضع إلفنستون يده على مشكلة أفغانستان الأزلية فيقول: «هناك سبب لخوف القبائل الأفغانية من التوحد تحت لواء واحد، فطبع الأفغان يرفض غريزيًّا التوحد ويميل إلى الانقسام والفرقة، لأن أي قوة تكون من الضخامة والاقتدار بحيث تستطيع جمع هؤلاء الفرقاء في صف واحد؛ لا بد أنها سوف تطغى على الكل وتطمس المعالم التي تتميز بها كل قبيلة.»

حين وصل البريطانيون أول مرة إلى الهند سمعوا الكثير عن وحشية الجيوش الأفغانية التي اكتسحت البنجاب مرارًا تحت حكم أحمد شاه. وفي السنوات التي تلت ذلك كان جو الفوضى والانقسام الذي ساد أفغانستان

يرضيهم إلى حد كبير، خاصة أن السيخ كانوا يقفون كدويلة حاجزة في الشمال، لكن الروس كانوا يتقدمون الآن (كما أقنع البريطانيون أنفسهم) ومن ثم يجب إنهاء حالة الانقسام والعداء في أفغانستان، فتم إرسال مندوب سياسي بريطاني يدعى آلكسندر بيرنز Alexander Burnes إلى كابول، ليعود بتقييم لشخصية دوست محمد. قد يكون البريطانيون بالغوا في تقدير نفوذه، لكنهم وجدوه على الأقل أكثر دراية بما يدور حوله في العالم من أمراء بلاد ما وراء النهر التي كان بيرنز قد زارها مؤخرًا، فقد كانوا في عزلتهم لا يدركون أنهم في غير زمانهم الصحيح. أما الدوست فقد لاحظ التطورات التي طرأت على شبه القارة ومن ثم كان لديه إحساس أكثر دقة بمتغيرات العالم الحديث. وكانت الحاميات البريطانية في ذلك الوقت قد استقرت تمامًا في الهند. ولأن البريطانيين كانوا لا يتوقفون عن الحروب، فقد كانوا على الدوام يسير في أعقابهم مجموعة من الموظفين المدنيين ذوي القبعات العالية، يديرون شئون المستعمرات بفرض نظم قاسية لا يراعون فيها ضميرهم. لكن الأهالي الوطنيين تسلحوا وتدربوا على القتال وأصبحوا قوة عاتية لم يشهد جنوب القارة قوة مثلها منذ قرون.

اكتشف بيرنز أن دوست محمد كان على استعداد لإبرام تحالف معه ولكن شريطة أن يسترد بيشاور من السيخ. وتبادل الطرفان عروضًا تفاوضية سريعة، لكن الحاكم العام للهند — لورد أوكلاند — رفض معاداة حليفه رانجيت سينج. وسواء كان دوست محمد حاكمًا كفئًا أو متساهلًا، لكنه مع استمرار النزاع بين الأفغان والسيخ كان من المستحيل على البريطانيين أن يساندوا مطالب الطرفين معًا. ولأن الإمبراطورية البريطانية كانت ملتزمة بتحالفها مع السيخ — الذين كانوا الأكثر استقرارًا — فإن خيبة أمل دوست محمد شكلت دعوة مفتوحة لأن يمد الروس نفوذهم إلى أفغانستان، إلى أن تحققَ ما كانت تخشاه بريطانيا في صورة حدثين هامين.

ففي نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٨٣٧م زحف جيش فارسي قوامه ثلاثون ألف مقاتل بقيادة محمد شاه ليحاصر هرات، وكان بصحبته الكونت سيمونيتش Count Simonich وهو أحد رجال بلاط قيصر روسيا، بالإضافة إلى فصيلة كاملة من القوات الروسية (على الأرجح هم من الهاربين من الجيش الروسي) بقيادة قائد بولندي. وتقدمت سرية من الفرسان الأفغان لصد هجوم

القوات المتقدمة ولكنهم فشلوا، فتراجعوا إلى الوراء وحذروا بقية الجيش من أن الفرس صاروا جيشًا منظمًا يهاجم بالمدفعية بالتنسيق مع قوات المشاة، ولم يعودوا يهاجمون بغوغائيتهم التي عهدوها فيهم.

كانت هرات ما زالت تحت حكم كامران سليل أحمد شاه الذي كان مصابًا بالجنون، لكن السلطة الحقيقية كانت في يد وزيره يار محمد Yar Mohammed، وهو رجل لم يفق ذكاءه سوى قسوته الشديدة. وكان معهم أيضًا ضابط بريطاني يبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا يدعى إلدرد بوتنجر Eldred Pottinger، كان متخفيًا في مهمة استطلاعية لصالح شركة الهند الشرقية، لكنه أفصح عن هويته للوزير، وأبدى استعداده للمساهمة في الدفاع عن المدينة.

وكان الحدث الثاني الذي زلزل أسوار الشركة الشرقية في كلكتا هو وصول أحد الضباط الروس إلى كابول حاملًا رسالة من القيصر إلى دوست محمد، فقام ألكسندر بيرنز بدبلوماسيته المعهودة بدعوته إلى عشاء كريسماس حيث تبادلا الحديث باللغة الفارسية. لكن بيرنز لم يجد وسيلة يمنع بها الضابط الروسي من الاتصال بدوست محمد في بالاهيسار للتشاور معه، أو أن يسيطر على القلق العارم الذي تصاعد فور وصول أخبار مبعوث القيصر إلى كابول. وبالرغم من أن بيرنز كان لا يزال يناصر الملك كحاكم قدير وحليف محتمل لبريطانيا فإنه في أبريل/نيسان من عام ١٨٣٨م غادر كابول وقدم استقالته؛ حتى لا يضطر إلى مقاومة التيار المتخوف من المد الروسي.

والمفارقة هنا أن العميل الروسي الملازم فيتكيفيتش Vitkievitch فشل في مهمته، وبعد أن قدم تقريره إلى وزارة الخارجية في سان بطرسبرج، عاد إلى شقته وأطلق الرصاص على نفسه. ولم يكن فشله هذا عزاءً لبيرنز الذي عاد إلى الهند ليجد البريطانيين يعدون العدة لغزو أفغانستان. وكانت الشركة قد أبقت على الملك الأفغاني السابق شاه شوجا حفيد أحمد شاه في مقر فاخر في بلدة لوذيانا لمدة عقدين من الزمان تحسبًا لمثل هذا الموقف. حيث قرروا أن ينصبوه محل دوست محمد في محاولة إعادة الحكم للأسرة الدورانية الأولى. وبذلك كانت «اللعبة الكبرى» في آسيا الوسطى بدأت تتحول إلى حرب مفتوحة على اعتبار أن الجائزة الكبرى هي الهند، وأفغانستان هي أرض الملعب.

بدأت اللعبة بالنسبة للبريطانيين كمغامرة كبيرة أو على حد تعبير أحد الكتاب المعاصرين: «مغامرة واعدة بالتميز والتقدم، ولم يكن هناك جندي واحد في طول الهند أو عرضها يستطيع أن يتحمل فكرة عدم الاشتراك في هذه الحرب.» ولقد أسرف البريطانيون في حشد ذلك الجيش الذي تجمع عند نهر السند، فقد كان أكبر جيش حشدته بريطانيا قبل تلك المعركة أو بعدها.

ضم الجيش فصائل من البنغال وبومباي (وكانت مدراس هي الإقليم الإداري الثالث في الهند) بالإضافة إلى جيش شاه شوجا الخاص الذي ضم ستة آلاف من الجنود المرتزقة الذين جُندوا ودُربوا على عجل. أما قوة بومباي المكونة من خمسة آلاف وستمائة رجل فكانت قد أبحرت إلى مدينة كاراتشي الواقعة عند منبع نهر السند، ومنها عبرت النهر في قوارب. وضم جيش بومباي الحرس البريطاني «كولد ستريم»، والفرقة الرابعة من سلاح الفرسان والفرقة السابعة عشرة من سلاح المشاة. أما تشكيل الشركة فقد ضم الفرقة التاسعة عشرة من سلاح المشاة الوطني وفرقة الخيالة البونية وكلها تحت قيادة ضباط بريطانيين. في حين ضم جيش البنغال تسعة آلاف وستمائة من الجنود الأشداء تألفوا من الفرقة السادسة عشرة من حملة الرماح، والفرقة الثالثة عشرة من قوات المشاة البريطانية الخفيفة، والفرقة الثالثة والأربعين من المشاة الوطنيين، وفرقة خيالة سكينر، والفرقة الثانية من سلاح الخيالة الخفيفة التابع لشركة الهند الشرقية.

صحب كل هذه الحشود ثمانية وثلاثون ألف خادم هندي، وثلاثون ألف جمل، ومجموعة من الكلاب صائدة الثعالب، التابعة للفرقة السادسة عشرة من حملة الرماح. وقد احتاج أحد قادة الفرق إلى ستين جمل لحمل متعلقاته الشخصية أما مساعدو الجنرال جون كين John Keane قائد القوات المغيرة فقد احتاجوا إلى مائتين وستين جملًا لحمل متعلقاتهم. وجُهِّز جملان لحمل علب السيجار الخاصة بالجيش، وسمح لكل ضابط باتخاذ عشرة من الخدم، لكن هذه القاعدة انتهكت كثيرًا فقد اتخذ بعض صغار الضباط نحو أربعين خادمًا.

وكان المسئولون البريطانيون يأملون في أن يلعب السيخ دورًا رئيسيًّا في هذه الحملة، لكنه بعد استعراض كبير من جيوش البنغال والبنجاب (وقد ظهر فيه السيخ بصورة طيبة رغم أنهم كانوا غير مرتاحين للأمر برمته)، رفض رانجيت سينج المشاركة في الحرب. فقد كان يدرك تمامًا المخاطر التي

تنتظره وراء الممرات وداخل أخاديد الأرض الأفغانية العميقة حيث سبق له محاربة الأفغان في بيشاور، ولم تكن لديه أي رغبة في الزج بجيشه إلى أرضهم الوعرة، وأكثر من ذلك فقد رفض السماح لجيش السند بعبور البنجاب. ووافق البريطانيون بترحاب على التقدم بهجومهم إلى أقصى الجنوب عابرين إقليم السند.

قد يكون الحماس المفرط الذي انتاب البريطانيين في بداية الحرب إنما هو نابع من جهلهم التام بهدفهم، فلقد اخترقوا أفغانستان بقضهم وقضيضهم وهم في طريقهم إلى الهند لكنهم وصلوا إليها بحرًا. ولأنهم لم يكونوا يعلمون أي شيء عن هذا البلد الغامض الذي يقع في الشمال، سوى الأساطير التي تحكى عن الإسكندر الأكبر وعن جنكيز خان وتيمورلنك وعن الأطلال التي تحكي تاريخ هذه البلد المجيد، والأسواق التي تعج بالعملات القديمة — أي أنه كان عليهم أن يفتحوا عالمًا جديدًا ظل مغلقًا أمام الغرب منذ عصر الرحالة ماركو بولو — ولذلك كان اهتمامهم منصبًّا على عنصر الإثارة في هذه المغامرة، أما الأفغان أنفسهم فقد كانوا بعيدين تمامًا عن بؤرة اهتمامهم.

تكلف تجميع جيش السند نفقات باهظة ضخمة، حتى إنه ليس من المستغرب أن تتحول هذه المهمة إلى حملة لها شكلها وأبعادها الخاصة، بالرغم من الأنباء التي تواترت بأن الفرس والروس قد أنهوا حصارهم لهرات. وفي ضوء هذه المعلومة التي أعقبت فشل مهمة الدبلوماسي الروسي في كابول، لم يعد للروس وجود في هذه المنطقة ليتحالف معهم دوست محمد حتى لو أراد، لكنه كالمعتاد لم يكن من الممكن أن يعود الجيش أدراجه دون أن يقاتل بعدما تم حشده؛ لأن هذا سيحرج أولئك الذين حشدوه، مع أن غاية الحرب قد انتفت ولم تعد هناك حاجة للقتال.

تحول حصار هرات إلى كابوس منذ البداية بسبب قرار يار محمد إرهاب خصومه، فقام بصف رءوس الفرس على الأسوار، ورد الفرس بانتزاع أحشاء كل من لديهم من الأسرى الأفغانيين. ثم وضع الوزير مكافأة لكل من يأتي له برأس جندي فارسي، فصار جنوده يغشونه كي يحصلوا على المكافأة، فقد نال أحد الجنود مكافأة لقاء أذني رجل سلمهما للوزير، وبعدها قدم له آخر رأسًا مغطًا بالوحل تبين بعد فحصه بدقة أن أذنيه مفقودتان، وتكشفت الفضيحة أكثر حين تبين أن الرأس والأذنين كانوا لجندي أفغاني قتيل.

بعد خمسة أشهر من الحصار باتت هرات على شفا مجاعة، فأمر يار محمد ستمائة من الشيوخ والنساء والأطفال بمغادرة المدينة. ولكن الفرس رفضوا نجدتهم أو تسريحهم، بل راحوا يضربونهم بالعصى ليجبروهم على العودة وراء الأسوار. لكن الوزير كان مصممًا على قراره فأمر بفتح النيران عليهم لمنع عودتهم. وأخيرًا رحمهم الفرس فسمحوا لهم بالفرار إلى المناطق الريفية.

ومع استمرار الحصار بدأ الكونت الروسي سيمونيتش يفقد صبره، فقرر أن يتولى هو القيادة بنفسه، فأطلق سيلًا من نيران المدفعية في خمس مواقع مختارة، ثم أتبعه بهجوم كثيف من فرق المشاة. وفي أربع مواقع منها حاول الأفغان في قتال يائس أن يصدوا هذا الهجوم، لكنه في الموقع الرابع تدفقت قوات المشاة من الثغرة، وهرع يار محمد ومعه الضابط الإنجليزي الشاب بوتنجر إلى الموقع، لكن الوزير فجأة فقد أعصابه وانهار في يأس. وحين رأى المدافعون الأفغان قائدهم المخيف يتهاوى، تبددت شجاعتهم وبدءوا يهجرون مواقعهم وثار بوتنجر بعنف وهو يلعن الوزير، ثم أمسك بيده وأجبره على الوقوف. ويبدو أن هذا أعاد إليه صوابه، فأمسك بقناة إحدى الرماح الكبيرة وهجم على حشد كبير أمامه — ليس من الفرس ولكن من قواته المتراجعة، وهنا تماسك الأفغان وبدءوا في صد الفرس، بل والقيام بهجوم مضاد تجاههم في السهول.

وبالإضافة إلى بطولات المقاتلين الأفغان ومحاولات بوتنجر الشجاعة، فقد أُنقذت هرات بمساعدة اليد الطولى لبريطانيا. وكان يمكن للمدينة أن تستسلم وهي في ذروة معاناتها من الجوع لولا الأنباء التي تواترت بأن البريطانيين في طريقهم لإرسال مؤن من الهند، ولقد تبين بعد ذلك أن هذه الشائعة غير صحيحة، ولكنها مع ذلك ساعدت على ثبات المقاومة. وعلى الجانب الآخر وفي شهر يونيو/حزيران من عام ١٨٣٨م على وجه التحديد، زرعت البحرية الملكية قوة بحرية في جزيرة خرج في الخليج الفارسي (وهي الآن مركز رئيسي لشحن البترول)، وفي نفس الوقت توجه ضابط بريطاني إلى معسكر الفرس خارج هرات لإيصال رسالة جاء فيها: «إن الحكومة البريطانية ترى في هذه المغامرة التي يشترك فيها جلالتكم ضد الأفغان نوعًا من العداء للهند البريطانية.» وكان على الشاه في هذه الحالة إما التنازل عن هجومه على هرات، أو توقع

هجوم بريطاني على قواته الخلفية. فأنهى الحصار متسببًا في شعور الروس بنوع من الإهانة حيث كانوا هم الدافع وراء الحصار.

وفي أوائل عام ١٨٣٩م عبر جيش السند الضخم ممر بولان وهو معبر ضيق يبلغ طوله خمسة وخمسين ميلًا. خلفت مسيرة الجيش إلى قرية كويتا طريقًا مفترشًا بالجمال الميتة والأمتعة المتروكة، وكان الجيش يعاني نقصًا حادًا في الطعام، فضلًا عما سببه الخدم وأتباع المعسكر من زيادة في نفقات الجيش من المعدات والمؤن، بلغت ثلاثة أضعاف تكلفته، كما كان الشتاء قاسيًا، ووسائل المعيشة في البلاد أقل مما هو متوقع، وكان ألكسندر بيرنز سبق وصول الجيش ليهدد أو يرشو الحكام الوطنيين ليسمحوا له بالمرور، وليخبرهم بتولي شاه شوجا السلطة، لكن الزعماء تراخوا في فرض سلطتهم على المواطنين. وكان الجيش الضخم منذ البداية قد تعرض لقطاع الطرق من البلوخيين ولصوص الماشية، الذين رأوا في البضائع البريطانية والحيوانات الحية نعمة من السماء نزلت عليهم في هذا الشتاء القارس البرد.

بعد تجمع عناصر الجيش من بومباي والبنغال وقوات شاه شوجا في كويتا في بداية بوادر هذا المأزق، ظهر بيرنز هذا الدبلوماسي الذي كان حاضرًا في كل مكان في جميع الأوقات، ومعه عشرة آلاف من الغنم اشتراها بمبلغ باهظ من أحد الزعماء المحليين، وبعد أن امتلأت معدة الجيش بلحم الضأن، زحف إلى الأمام مخترقًا ممر كوجاك وهو ممر شديد الانحدار يشطر حدود أفغانستان الحديثة، وفي ٢٥ أبريل/نيسان من عام ١٨٣٩م وصل إلى قندهار، وفور وصوله فرَّ حكامها بسرعة هاربين، ومنهم أشقاء دوست محمد الذين كانوا أقل منه كفاءة واقتدارًا.

كان القرار أن يدخل شاه شوجا المدينة أولًا حيث استقبل بفرحة غامرة، وقامت النساء بنثر الورود في طريقه من النوافذ ومن أسطح المنازل، واصطف الرجال على جانبي الطريق مهللين. وقد كتب ويليام ماكناتون William Macnaghton — الذي عين مندوبًا ساميًا للحكومة الجديدة في أفغانستان — إلى لورد أوكلاند يقول بسعادة غامرة إن الشاه استقبل «بمشاعر متدفقة تكاد تصل إلى مرحلة النفاق»، لكنه في الأيام التالية اكتشف الأفغان أن جيش شاه شوجا يتكون من مرتزقة هنود تساندهم تشكيلات مماثلة من شركة الهند الشرقية تحت قيادة مجموعة من فرق القوات البريطانية جيدة التدريب، أطلق

عليهم الأفغانيون «الفرنجة» وهو مصطلح لا يختلف كثيرًا عن «الأجانب»، لكن دلالته تشير إلى الانحطاط.

ومع ذلك لم يتناقص حماس ماكناتون، وبعدها بأسبوعين قام بتنظيم موكب احتفالي كبير لمزيد من التكريم لشاه شوجا. وفي ظل حوالي عشرين ألفًا من فرق الإمبراطورية البريطانية، سار أقل من مائة من الأفغان معظمهم من الفقراء المعوزين في هذا الموكب. وقد فسر ماكناتون عدم حضور الأفغان بالنسبة المطلوبة بأنهم شعب يحب الهدوء، في حين رأى البعض أن مرأى الجنود الأجانب وهم واقفين وحدهم كان مضحكًا وسخيفًا للغاية إن لم يكن نذير سوء.

ترك الجيش فرقة عسكرية لحماية قندهار وتقدم إلى الشمال الشرقي نحو كابول التي تبعد نحو ثلاثمائة وعشرين ميلًا، في نفس الطريق الذي سلكه جميع الغزاة السابقين قبل ذلك بدءًا من قورش العظيم إلى بابور. ولأنه توقع أن يكون مساره في أرض وعرة قرر الجنرال كين ترك مدافعه الثقيلة — وهي أربعة مدافع من عيار ١٨ بوصة — في قندهار. لكن الجيش استاء جدًّا عندما وصل إلى غزنة في أواخر يونيو/حزيران واكتشف حصنًا مسورًا لم يتصور أحد أن الأفغان يمتلكون مثله. وعلى الرغم من أن الغزنويين قد استعادوا قوتهم وترددت أنباؤهم في وسط آسيا، ولا بد أن البريطانيون سمعوا بها، فإن الذهول أصابهم حين وصلوا إلى المكان.

فعندما كانت الإمبراطورية الغزنوية في قمة مجدها قام جنكيز خان بتخريبها وتدميرها انتقامًا من الهزيمة التي تلقاها من جلال الدين. لكن التيموريين حين استعادوا الحكم، وكذلك المغول من بعدهم، قاموا بترميم أسوار المدينة ليحولوها إلى أكبر حصن في آسيا. وكان الحصن مبنيًّا على منحدر في الجبال، ويبلغ ارتفاعه مع بقايا برجي النصر مائة وخمسين قدمًا، ويبلغ سمك الأسوار المحيطة به ستون قدمًا، في حين كانت المدفعية البريطانية عيار ٦ و٩ بوصة عاجزة عن التأثير فيها، وكان الحصن يحميه ثلاثة آلاف من الأفغان بقيادة أحد أبناء دوست محمد. وبالإضافة إلى هذا تفوق الأفغان على البريطانيين من ناحية مدى كفاءة أسلحتهم الصغيرة، فقد كانت الجيزيل — وهي بندقية فتيل ذات ماسورة طويلة يستعملها الأفغان — ذات مدى أبعد من البندقية التقليدية «براون بيس» التي كان يحملها البريطانيون. وكانت طلقات بنادق

البريطانيين الملساء تصيب الهدف بدقة على بعد خمسين ياردة، وتستمر فاعليتها حتى بعد مائة وخمسين ياردة، أما إذا أرادوا إصابة هدف أكثر بعدًا فعليهم أن يلجأوا إلى الأمنيات والصلوات. أما بنادق الأفغان فبالرغم من أن حشوها وإطلاقها كان أبطأ، فإن تأثيرها وفاعليتها كانا يمتدان إلى مسافة خمسمائة ياردة. وكانت القوات البريطانية مدربة على إطلاق النيران عن قرب، أما الأفغان فكانوا رماة على قدر كبير من المهارة في إصابة الأهداف بعيدة المدى.

ولحسن الحظ كان أحد العاملين مع ألكسند بيرنز عميلًا متقد الذكاء من كشمير اسمه موهان لال Mohan Lal، وكان مثل بيرنز وماكناتون يتحدث لغات عدة، وضليعًا في فنون المكر والدهاء، فقام برشوة أحد الأفغان بداخل غزنة كي يكشف له عن أن جميع مداخل الحصن محاطة بالطوب القرميد فيما عدا بوابة كابول في الشمال، وبناءً عليه فمن السهل لفرقة متسللة أن تقتحم هذه البوابة إلى داخل المدينة.

وبينما كان الجنرال كين يضع اللمسات الأخيرة لخطته، كانت قوة من الخيالة الأفغان قد نجحت في الوصول إلى أحد الجبال القريبة، ومنها هاجمت معسكر شاه شوجا مدعمة بمدفعيات القلعة، وكانت هذه القوة تنتمي إلى جماعات تطلق على أنفسها اسم «الغزاة» وهم يحاربون باسم الدين، ولهذا فقد نحّوا جانبًا خلافاتهم القبلية لتحقيق هدف أسمى وهو إجلاء الكفار عن الأرض الأفغانية، لكن المشاة البريطانيين وفرقة الفرسان أجبروهم على التراجع، وأسروا منهم حوالي خمسين رجلًا سلموا إلى شاه شوجا. وبينما كان الملك يتفحص الأسرى استل واحد منهم خنجرًا سدده إلى صدر أحد أتباع الملك، فكانت النتيجة أن أعدم جميع الأسرى، لكن هذا الإعدام تحول إلى مهزلة غير إنسانية، فقد قدم أحد الضباط تقريرًا ذكر فيه أن «رجال شاه شوجا كانوا يسلون أنفسهم وهم يتضاحكون ويتندرون معتبرين ما يفعلونه من تمزيق الأسرى وتشويههم بسيوفهم الطويلة وسكاكينهم بطريقة عشوائية نوعًا من المتعة.» وكان ماكناتون قد سبق أن أثنى على فضائل الملك، وبالرغم من أنه استمر يدافع عنه فإن أسلوب تعامل شاه شوجا مع هؤلاء الأسرى أقلق العديد من الضباط والجنود البريطانيين.

بعد حلول الظلام وقبل بزوغ فجر يوم الثالث والعشرين من يوليو/تموز بدأ هجوم البريطانيين على غزنة وقاد أحد المهندسين الضباط — ويدعى الملازم

هنري دوراند Henry Durand — فريقًا من خبراء الألغام قاموا بوضع ثلاثة أرطال من البارود أمام بوابة كابول، في حين انطلقت المدفعية البريطانية على الجانب الآخر لتحول أنظار المدافعين بعيدًا، وخلف دوراند تركزت مجموعة من المهاجمين بقيادة الكولونيل ويليام ديني William Dennie وكانت تتألف من الفرق الثانية والثالثة عشرة والسابعة عشرة من سلاح المشاة، بالإضافة إلى القوة المهاجمة الأصلية بقيادة العميد روبرت سيل Robert Sale المعروف باسم «بوب المحارب». كان الضباط التابعون لشركة الهند الشرقية يتملكهم الضيق الشديد لأن معظم عناصر القوة المهاجمة كانت من أوروبا، فقد كانوا يرغبون في إظهار شجاعة الفرق الوطنية.

يصف الرقيب جون كلارك John Clarke من الفرقة السابعة عشرة من سلاح المشاة حالة التوتر التي سبقت الهجوم قائلًا: «كان على الجيش بأكمله أن يرقد على الأرض حتى يعبر الجسر المتحرك، في حين كانت مدفعية الأعداء تنطلق من المرتفعات ومن القلعة، وكانت القذائف الصاروخية تنهال علينا والرصاصات وطلقات المدافع تتطاير حول رءوسنا مثل أسراب النحل.» وبسبب الريح العاصفة أمام بوابة كابول، وجد الملازم دوراند صعوبة في إشعال الفتيل، غير أنه بعد لحظات من التوتر الشديد تمكن من إشعاله. ثم قفز بعيدًا يبحث عن غطاء بعد أن انفجر البارود. وكما يصف الكابتن هنري هافلوك Henry Havelock المشهد: «فانفجر الحاجز العائق وتحول إلى قطع تساقطت في الممر الأسفل وتساقطت معها كتل من المبنى والدعامات الرئيسية له.» وهنا اندفعت قوات ديني نحو الثغرة دون أن تميز شيئًا في الظلام الذي زاد من حلكته سحابة سوداء ضخمة من الغبار خلَّفها الانفجار.

اخترقت قوات ديني المدينة «وكان صليل السيوف والحراب يسمع من جميع الجهات» وتبعها رجال الجنرال سيل. وفي غمار هذا الضجيج والشغب ارتبك أحد حاملي الأبواق فنفخ نفير الانسحاب، لكن أحد الضباط أمسك به وأمره بإطلاق البوق الذي يأمر بالتقدم. ثم تسلق الجنرال سيل أكوام الحجارة ليتلقاه واحد من الأفغان بضربة سيف على وجهه أفقدته الوعي للحظات ثم دفعه أرضًا بقبضة السيف، وكان يمكن أن ينتهي أمر بوب المحارب في تلك المعركة لولا أن ضابطًا آخر ظهر واخترق بسيفه جسد الأفغاني المهاجم. واستمر الأفغاني في المقاومة حتى نهض الجنرال سيل على قدميه

وبسيفه قام «بشق جمجمته من أعلى عينيه»، ويتذكر الرقيب كلارك الأحداث فيقول: «اقتحمنا الحصن بأحسن الطرق الممكنة، وكان أول من قابلناه هو الجنرال سيل الذي كان قد أصيب بجرح قطعي في خده ... ثم بدأت قوات شركة الهند الشرقية في إطلاق وابل من الرصاص، وعندما انقشع الدخان لم نر رجلًا واحدًا واقفًا، فقد كان جميعهم قتلي أو مصابين ... وبعد أن استولينا على الحصن كان يجب أن نستولي على المدينة نفسها، وقد استغرق ذلك بقية اليوم.»

أسفرت المعركة عن وقوع سبعة عشر قتيلًا ومائة وخمسة وستين جريحًا في الجانب البريطاني. أما القتلى الأفغان فقد بلغ عددهم خمسمائة قتيل. وقد صعق دوست محمد حين علم بهجوم البريطانيين على غزنة وعلى استيلائهم عليها بهذه السهولة (وكان شاه شوجا قد نصح البريطانيين بالابتعاد عنها) وكان دوست قد أرسل من كابول قوات بلغ عددها خمسة آلاف فارس ليناوش الأعداء، لكنهم لم يكملوا مسيرتهم واستداروا عائدين، ومنهم من ترك الجيش ليعود إلى أهله. ومع تقدم البريطانيين نحو العاصمة، بدأ أنصار دوست محمد في التشتت. واضطر هو إلى الهروب إلى باميان. وبالرغم من مطاردة سلاح الفرسان له بقيادة النقيب جيمس أوترام James Outram فإنه تمكن من الهرب خلال ممرات الهندوكوش.

وفي السابع من أغسطس/آب وصل جيش السند إلى كابول. يقول كلارك: «لم نقاتل كثيرًا هناك، فقد أطلقت بعض النيران من القلاع لكنها سرعان ما توقفت بعد ذلك، وقد استغرق مرور الجيش كله حول المدينة يومًا كاملًا ... لقد كانت مدينة جميلة غنية.» ويتفق معه في الرأي كابتن هافلوك فيقول: «في أسفل الوادي كانت زهور الأوركيد التي اشتهرت بها كابول تغطي الوادي إلى مدى يصعب على العين إدراكه. وقاد شاه شوجا جيشه الكبير خلال المدينة وهو يمتطي صهوة فرس أبيض مطهم وقد زينت ملابسه بالمجوهرات المتلألئة.» أما المؤرخ البريطاني السير جون كاي John Kaye فيعلق على ذلك بقوله: «كان أشبه بموكب جنائزي لا موكب ملك يدخل إلى عاصمته التي استردها.» وكانت السيدات الأفغانيات ينظرن إلى الموكب من النوافذ وأسطح المنازل في حين كان الرجال يراقبون الواصلين الجدد بهدوء.

ولا يمكننا القول بأن الأفغانيين كانوا يكنون أي عداء تجاه شاه شوجا، فهم إن كانوا يتذكرونه أساسًا لا يذكرون إلا أنه أمير ضعيف فشل في استرجاع

عرشه ثلاث مرات سابقة. والواقع أنه كانت توجد بعض السمات في المجتمع الأفغاني تجعله يفضل الملك الضعيف عن القوي، خاصة إذا كان يتمتع بالثراء أو بدعم من جهات أخرى، وليست لديه أي نية لفرض أية ضرائب. وعند دخول الجيش الهندي إلى المدينة التي يبلغ تعدادها خمسة وستين ألف نسمة لم يكن اهتمام مواطنيها بالملك شاه شوجا بقدر اهتمامهم بتشكيلات القوات البريطانية القوية والمجندين الهنود المشاه، وكذلك سلاح الفرسان والمدفعية، وهذا الحشد من الهنود الذين جاءوا لتنصيب ملكهم الجديد.

نجح البريطانيون في غزو أفغانستان، بل صدقت توقعاتهم، فقد تواترت الأنباء في أواخر شهر مارس/آذار عن تحركات روسية جديدة في سهول آسيا الوسطى. فقد قامت قوة روسية قيل إن قوامها مائة ألف رجل (في واقع الأمر كانت تضم خمسة آلاف فقط) بمغادرة مدينة أورنبرج المحصنة في اتجاه مدينة خيوة التي تقع جنوب آمودريا (جيحون) في المنطقة التي تعرف اليوم باسم دولة تركمانستان، وفي كلكتا ساد شعور بالارتياح لأن إنجلترا أثبتت وجودها قبل أن تخترق هذه القوة الهائلة السهول، وعمد البريطانيون بعد ذلك إلى وضع حاميات في باميان غربًا وجلال أباد شرقًا وفي مدينة شاريكار الواقعة في إقليم كوهستان شمال كابول، بالإضافة إلى القوات التي كانت متمركزة أيضًا في غزنة وقندهار. وقد كانت هذه ضربة رائعة في اللعبة الكبرى، فلم ينجح البريطانيون فقط في احتلال هذه الأراضي قبل الروس، ولكنهم أيضًا خلقوا فرصًا جديدة للإمبراطورية في ضوء وجود قواتها على جانبي الطريق الحريري القديم. وفيما يخص طموح الإمبريالية فقد كان هذا النصر الأول الذي تم في عهد الملكة فيكتوريا قد خلق إمكانيات جديدة لمد النفوذ البريطاني إلى مناطق أكثر سواء في فارس أو بلاد ما وراء النهر أو الصين.

بعد أن أنهى الجيش مهمته في أفغانستان بنجاح مبالغ فيه بعض الشيء، استُدعي معظمه إلى الهند في الأشهر الأخيرة من عام ١٨٣٩م، فما زالت أمامهم مهمة أخرى هي ضمان السيطرة على شبه القارة الهندية، كما أن الأفغان — رغم كراهيتهم للاحتلال — كانوا عاجزين عن تنظيم أي مقاومة مضادة.

ومع ذلك فقد كان هناك شيء من التخوف في نفوس الضباط البريطانيين — وهم فئة تميل بطبعها إلى الشك — من أن هذا الغزو كان

أسهل مما هو متوقع. فعلى عكس الهند التي وجد البريطانيون في شعبها استكانة للحكم الأوتوقراطي والخضوع لسلطة طبقة اجتماعية هندية وطنية، كان الأفغان أكثر صلابة وأكثر ميلًا للحرية الشخصية. وكان الرجال يحملون معهم سلاحًا يثير الخوف أطلق عليه البريطانيون اسم «سكين خيبر» وهو سلاح وسط ما بين السيف المعقوف والخنجر، وبصفة عامة كان مظهرهم يوحي بأنهم مقاتلون أشداء. أقام البريطانيون حاميات عديدة، لكنه كان من الواضح لهم أن الخطر الحقيقي سوف يأتي من قاطني التلال الذين لم يواجهوهم بعد. وقد قال الجنرال كين — الذي أصبح اللورد كين حاكم غزنة — للملازم دوراند قبل مغادرته أفغانستان: «لا أستطيع إلا أن أهنئك على مغادرة هذه البلاد، فلن يمضي وقت طويل حتى تحدث كارثة هنا فبوادرها موجودة، تذكر كلماتي هذه جيدًا.»

وحين عاد كين ومعه فرقة السند التابعة لجيش بومباي إلى الهند توقفوا للانتقام من خان خلات لأنه تسبب في الصعاب التي تجشموها أثناء عبورهم السند. فانقضوا على خلات وقتلوا الخان الصغير، لكن هذا الهجوم خلَّف في نفوس قبائل البلوخيين كراهية شديدة تجاه البريطانيين. وفي كابول تولى القيادة اللواء سير ويلوبي كوتون Sir Willoughby Cotton، وهو ضابط بدين شاء حظه أن ينعم بشتاء هادئ ما بين عامي ١٨٣٩ و١٨٤٠م. أما شاه شوجا وماكناتون فقد أمضوا الشتاء القارس في جلال أباد حيث كانت القوات البريطانية في كابول تتمركز داخل قلعة بالاهيسار الضخمة وحولها في المناطق التي تقع على الحافة الشرقية للمدينة.

وفي الربيع علم البريطانيون أن مسيرة الروس إلى خيوة انتهت بمهزلة، فقد ظن الجنرال بتروفسكي Petrovsky أن عبور الصحراء في الشتاء سوف يكون أسهل منه في الصيف، لكن أعتى عاصفة شتوية شهدها التاريخ هبت على جيشه، فقتلت ألفًا من خمسة آلاف رجل كانوا معه، كما قضت على جميع الجمال والخيل تقريبًا، واضطرت القوة أن تتوقف في منتصف الطريق إلى هدفها، وتتراجع متعثرة إلى أورنبرج دون أن تطلق رصاصة واحدة. وبهذا فشل الروس في اختراق تراسوكسيانا في الوقت الذي غزا فيه البريطانيون أفغانستان بجيش جرار، بسبب تهديد خيالي أو على الأقل تهديد فاشل.

عاد شاه شوجا إلى كابول في أبريل/نيسان ومعه حريمه الكثر، بالإضافة إلى عدد كبير من الخدم وهو يفكر في المكان الذي سوف يخصصه للقوات الباقية من الجيش البريطاني البالغ عددها عشرة آلاف رجل، وكان من المعلوم أن بالاهيسار هي أقوى موقع دفاعي في المدينة، ولهذا كان من المنطقي أن تكون مقرًّا لبلاط شاه شوجا وجيشه، لكي يكون الأمر مقبولًا من الناحية الشكلية على الأقل، ولم يعترض ماكناتون على هذه النقطة، فمن الطبيعي أن يقر شاه شوجا بسلطة الجيش البريطاني عليه، لكن استضافته مع أتباع المعسكر من الهنود في منزله كان شيئًا آخر.

ولهذا فقد أقام البريطانيون معسكرًا شمال المدينة وسط بساتين الفاكهة الموجودة في الأراضي الملكية على بعد ميل ونصف من كابول، وحوالي ميلين من بالاهيسار. وقد اتفق من علقوا على هذا الحدث وقتها ومن علقوا عليه بعدها على أن اختيار هذا الموقع كان أكثر قرارات البريطانيين الحربية سوءًا. وقد كتب الملازم فنسنت إير Vincent Eyre من قوات المدفعية البنغالية يقول: «كان معسكرنا في كابول في موقعه وهيكله عارًا على العسكرية البريطانية.» أما العميد جون شلتون John Shelton الذي انضم إلى هذه القوات بعد إنشاء المعسكر فقد قال: «كان متسعًا اتساعًا مرعبًا، وتحوطه متاريس وخنادق يستطيع الأفغان عبورها كما تقفز قطة من فوق حفرة ضيقة.»

كان المعسكر مستطيلًا يبلغ عرضه ثلثي ميل وطوله ثلث ميل، وفي أركانه أماكن مخصصة لوضع المدفعية، وكانت أسواره تصل إلى مستوى خصر الجندي وحفر أمامه خندق ضاعف من ارتفاعه. وكانت المشكلة في أنه يقع بين سلسلتين من التلال يمكن أن يسيطر المهاجمون على الموقع منها، كما أن الأرض التي تتخلله كانت مزروعة بأشجار الفاكهة مما صعب من عملية إطلاق النار. وكانت السهول المحيطة به تعج ببعض القلاع القديمة التي تقع في مرمى بنادق الجيزيل إن لم تكن في مرمى بنادق المشاة. لكن الخطأ الأكبر ارتكبه البريطانيون أنفسهم حين قرروا أن يضعوا مخزن المؤن في إحدى القلاع القديمة المتهالكة التي تعج بالفئران، وتبعد مسافة كبيرة عن المعسكر، بل والأنكى أنه كانت هناك قلعة تفصل بين مقر إقامة البريطانيين ومخزن المؤن.

غير أن هذا المعسكر تحول إلى مدينة ضخمة تشمل ثكنات عسكرية ومنازل بُنيت سريعًا لتأوي ساكنيها. وفي عام ١٨٤٠م قام البريطانيون ببناء مدينة

موازية لكابول، تقع على مقربة منها ولها عاداتها الخاصة، وملاعبها الرياضية وتقاليدها الاجتماعية، وكان الأفغان على وجه التحديد مهتمين بسباق الخيل الذي كان يقيمه البريطانيون، بل كانوا يتنافسون بخيولهم معهم أحيانًا. كما شاهدوا أيضًا مباريات البولو والكريكيت والبيزبول، وحين كان البرد يحل كان الأفغان يندهشون وهم يشاهدون الإنجليز يتزلجون بسهولة على سطح البرك المجمدة وهم ينتعلون اختراعًا غريبًا يسمى أحذية التزلج على الجليد.

ومع مرور الوقت سمحت القيادة البريطانية لضباطها وللهنود المجندين في جيشها بإحضار عائلاتهم من الهند حتى تكتمل لقواتها عناصر الراحة. وقد وصل هؤلاء بسلام عبر ممر خيبر والممرات الأخرى الضيقة الواقعة بين كابول وجلال أباد، دون أن يلحقهم أي ضرر من جماعة الأفريديين الذين ينتمون إلى قبائل الجلزاي التي كانت تتقاضى ثمانية آلاف جنيه استرليني من التاج البريطاني حتى تفتح أمام جيشه المعابر. وكان الجنود والضباط البريطانيون في فترة بعدهم عن عائلاتهم قد اتجهوا إلى الداعرات من الهنود اللائي كن يرافقن الجيش، وأيضًا ذهبوا في السر إلى نساء كابول. وفي المعسكر كانت تقام الحفلات الموسيقية والمسرحيات، كما كانت النساء البريطانيات يشاركن أزواجهن في احتساء الخمر أمام الأفغان الذين كانت تنتابهم الدهشة والذعر من تصرفاتهن.

أما في قندهار فلم تكن حياة جيش الاحتلال البريطاني بهذه الرفاهية، وإنما كانت جادة وخشنة، قد يكون هذا بسبب طبيعة قائد الحامية اللواء ويليام نوت William Nott المتزمتة، أو لأن التهديدات كانت حالّة عليهم. ففي مايو/أيار من عام ١٨٤٠م قامت قوات من فرسان الجلزاي قوامها ألفا فارس بمهاجمة قوة من الجيش قوامها ألف ومائتا جندي وهي في طريقها إلى غزنة، أخذت القوات الإنجليزية تمطرها بوابل من الرصاص أحدث ثغرات في صفوفها، لكن الجلزانيين قاموا بهجوم مضاد من اليسار وبصعوبة شديدة تمكنت قنابل وبنادق البريطانيين من صدهم، لكن الجلزانيين عادوا فشنوا هجمتين أخريين لم تصيبا إلا أطراف صفوف الجند الهنود. فانسحب الجلزاي مخلفين وراءهم مائتي قتيل. لكن قتالهم الضاري كان له تأثيره على البريطانيين، كما كان من الواضح أنهم سيعاودون الكرة مرة أخرى.

قرر نوت إعادة بناء قلعة قديمة في مدينة خلات جيلزاي التي تقع بين قندهار وغزنة وهي حركة أثارت غضب القبائل أكثر. وكان تمرد البلوخيين قد تسبب في قطع اتصالاته مع الهند، فاضطر نوت إلى إرسال حملة عقابية إلى الجنوب الشرقي مخترقة كويتا، وما كادت الحملة تغادر المدينة حتى عاد البلوخيون إلى تمردهم، واكتشف البريطانيون في ذلك الوقت أن الهجوم على بلاد السند في الصيف هو مغامرة وخيمة العواقب، فقد مات معظم الأوروبيين من جراء ضربات الشمس لا من نيران الأعداء.

وفي كابول كان ماكناتون يزداد عصبية، فعلى عكس ما كان البريطانيون يأملون فشل شاه شوجا في كسب مشاعر مواطنيه، في نفس الوقت الذي تزايدت فيه مشاعر العداء تجاه الفرنجة الذين كان وجودهم ضروريًّا لاستمرار حكمه، وحتى لو كان الأفغان قد ظلوا هادئين، كانت هناك مشكلات خارجية كثيرة تشغله. فقد كانت بلوخستان بلدًا مشاكسًا وبسببها قطعت جميع اتصالات البريطانيين في الجنوب، وفي هرات بدأ الوزير يار محمد في التآمر مع الفرس مشيرًا لهم إلى الطريق المفتوح إلى قندهار، بالرغم من أن الأموال البريطانية كانت تتدفق على جيوبه ضمانًا لولائه. وفي الشمال احتجز أمير بخارى ضابطًا بريطانيًّا وهو الكولونيل تشارلز ستودارت Charles Stoddart في زنزانة شديدة السوء، وكان الأوزبك والتركمان يتجولون كما يحلو لهم في المنطقة الواقعة ما بين الهندوكوش وآموداريا (جيحون) بعيدًا عن متناول يده. أما أسوأ الأخبار فكانت أن السيخ بدءوا يناصبون البريطانيين العداء بعد وفاة رانجيت سينج في العام السابق. وفي البنجاب تعرض الضباط البريطانيون الذين كانوا موجودين على خط الإمدادات الرئيسي عبر بيشاور، للإهانات كما تعرضوا أيضًا للهجوم. وكان عملاء السيخ يجوسون خلسة داخل كابول يهمسون بكلمات تحض على الثورة في آذان الجموع الغاضبة.

وبالرغم من أن السيخ كانوا أكثر استفادة من تدخل البريطانيين في أفغانستان؛ لأن هذا أدى إلى تحييد أعدائهم القدامى، فإن نجاح هذا الغزو سبب أيضًا الإضرار بهم، فبعد أن سقطت أفغانستان في قبضة البريطانيين فقد السيخ مكانتهم كحليف قوي، وتحولوا إلى هدف جديد للإمبريالية البريطانية. فبعد عام كامل سمح السيخ فيه للقوات البريطانية وفريق الإمدادات بالمرور جيئة وذهابًا عبر البنجاب، بدأ خلفاء رانجيت سينج قراءة ما بين السطور

ليكتشفوا أنه من مصلحتهم تقويض استقرار البريطانيين في أفغانستان قبل أن يجدوا أنفسهم في قبضة هؤلاء الفيكتوريين.

وليس معروفًا كيف كان شاه شوجا يفكر في ذلك الوقت، ولكن أن يتهمه البريطانيون — الذين لم يلوموه على عدم كفاءته — بالخيانة؛ فإن هذا يستدعي التفكير. فمن الواضح أن شاه شوجا كان يعلم جيدًا أنه أتى إلى العرش على أسنة حراب البريطانيين، وأن أي جيش آخر يحتل أفغانستان (خاصة لو كان جيش من الكفرة) لن يتقبله الأفغان، ولذلك كان على الملك أن يعقد تحالفات أخرى. ولأن وجود البريطانيين في البلاد لن يستمر إلى الأبد، فقد كان شاه شوجا بحاجة إلى خلق شبكة دعم ومساندة من القبائل بنفس الأسلوب الذي انتهجه جده ليضمن بقاءه بعد مغادرتهم البلاد إلى غير رجعة. وكان السبيل الوحيد أمامه ليكسب تعاطف الدورانيين والقزلباش والجلزاي وحتى السيخ هو التظاهر بأنه يكره البريطانيين سرًّا وأنه على استعداد لأن يتآمر ضدهم. وبالطبع لم يكن يتخيل أن هزيمتهم سوف تكون بتلك السرعة والقوة وإلى أن يحدث ذلك فقد كان بحاجة إليهم ليستمر بقاؤه على العرش.

أما ماكناتون فلأنه كان ملتزمًا بوفائه لشاه شوجا فقد قام بصب جام غضبه وحنقه على حكام هرات والبنجاب الذين قبلوا الأموال منه في مقابل تحالفهم معه لكنهم بدلًا من ذلك بدءوا يقوضون موقع بريطانيا في أفغانستان، مثل ابن آوى الذي يقرض أسدًا وقع في مصيدة، فكتب إلى لورد أوكلاند يؤكد عليه ضرورة استيلاء القوات البريطانية على كل من هرات وبيشاور. وأن ذلك لن يترتب عليه فقط إزالة تلك التهديدات وتوفير الأموال في النهاية، وإنما سوف يدفع الأفغان إلى تمجيد شاه شوجا لاسترجاعه أجزاء من مملكة الدورانيين.

لكن لورد أوكلاند كان يعتقد أن البريطانيين تورطوا بما فيه الكفاية فرفض الاقتراح. وقد كتب ماكناتون إلى نائبه رولنسون في قندهار يقول:

> «أظن أن نوايا لورد أوكلاند حسنة سواء بالنسبة لهرات أو البنجاب، ولكن أوه! من لي بولسلي أو هاستينجر في هذه الظروف ... هو يقول إننا ما دمنا نناقش موضوع الاستيلاء على هرات وبيشاور، يجب ألا نتوقع تعاونًا صادقًا من القوى التي تسيطر على هذه المواقع، وبذلك يكون قد تغاضى — أو تظاهر بأنه يتغاضى — عن حقيقة

أنه لولا خداع وكذب هذه القوى ما كان هذا الموضوع ليثار على الإطلاق، أو يكون محل تفكير لدينا ... إن هذه الحماقة قد تجاوزت حدود الحقارة.»

لكن الأخبار السيئة كانت لا تزال في الطريق، ففي سبتمبر/أيلول علم البريطانيون أن دوست محمد قد ظهر مرة أخرى في شمال الهندوكوش، وأنه بدأ في حشد جيش جديد. فبعد هروبه من كابول في العام الماضي، لجأ دوست إلى بخارى يلوذ بها، لكن الأمير الحاكم نصر الله خان قام بسجنه هو والكولونيل ستودارت سيئ الحظ معًا. وخلال الصيف تمكن دوست من الهرب — قال البعض إنه صبغ لحيته ليتنكر — ووجد حليفًا له عند والي خلوم في شمال أفغانستان، وقد اندفع الآلاف من رجال قبائل الأوزبك لينضووا تحت لواء الملك. أما الحاميات البريطانية الموجودة في شمال الهندوكوش فقد بدأت تتراجع إلى باميان من أمام هجوم الخيالة عليهم، وفي نفس الوقت كانت قوات النجدة بقيادة الكولونيل ويليامديني في طريقها إليهم قادمة من كابول.

كان إقليم كوهستان يموج بالتمرد حتى قبل ظهور دوست محمد، ويقول ماكناتون عن العاصمة «إن العاصمة تسودها حالة من القلق المحموم، فقد أغلق البعض متاجرهم والآخرون أرسلوا عائلاتهم بعيدًا.» وكانت الأخبار الآتية من باميان سيئة، فقد تمردت بعض فرق شاه شوجا التي شُكلت حديثًا، بل إن أغلبهم اتجه إلى دوست محمد لينضم إلى جيشه. وقد اضطر ديني إلى تسريح الجيش بأكمله خشية أن ينقلبوا عليه. وفي ١٨ سبتمبر/أيلول كتب المندوب السامي إلى رولنسون يقول: «لم يسبق لي أن عايشت في حياتي مثل هذا الإرهاق العقلي والجسدي في آن واحد ... إن الأفغان مثل البارود، ودوست محمد فتيل مشتعل.»

وفي نفس اليوم زحف الكولونيل ديني من باميان ومعه ثمانمائة من أفراد جيشه بهدف إجلائهم عن قرية صديقة كان قد علم بأن قوات من الأعداء قد استولت عليها في الليلة السابقة، لكنه فوجئ بجيش دوست بأكمله الذي كان يضم سبعة آلاف من المقاتلين الأوزبك. وبدأت المدافع الجبلية تطلق النيران على فرق الفرسان، وطلقاتها تفجر شظايا الصخور، ولم يستطع الأوزبك أن يردوا عليهم بنفس الطريقة، فتراجعوا إلى الوادي واستمر البريطانيون في

تقدمهم بدون رحمة وهم يزجون بمدافعهم إلى الأمام، وحين بدا أن الأعداء قد فقدوا تماسكهم، أطلق البريطانيون العنان لسلاح فرسانهم مما دفع الأوزبك إلى انسحاب كامل، فطاردهم البريطانيون ومساعدوهم من الأفغان والجورخا إلى أربعة أميال بعد أن قتلوا الكثيرين منهم. أما دوست ومعه مائتان فقط من بقايا الجيش فقد فروا هاربين، وقد ذكر ديني أن دوست محمد استطاع الفرار بفضل سرعة فرسه.

في هذا الوقت كانت بعض الضغوط قد زالت عن البريطانيين، فقد لجأ والي خولوم إلى البريطانيين لكن الثورة كانت ما زالت متأججة في كوهستان، وهي واحدة من الأراضي التي كان يحكمها دوست محمد في السابق، فقام الجنرال سيل «بوب المحارب» مع قواته بالزحف نحو التلال، وخلال شهر أكتوبر/تشرين الأول كان قد هدم قلاع الجبال وانتصر على القبائل التي كانت لا تكف عن الكر والفر عليه. أما ماكناتون فقد ظل القلق يتملكه، وقال عن دوست: «إنه سبب كل هذا الشر الذي يحيق بالمدينة الآن.» وبلغ من شدة قلقه أن فكر في أسلوب لا يتفق مع طبيعة البريطانيين في تعاملهم مع العدو الأجنبي، فتساءل: «أليس من الواجب أن أعلن عن جائزة لمن يأتيني برأس هذا الرجل؟!» وكانت الشائعات المثارة عن دوست أسوأ من الحقيقة، فقد قيل عنه إنه ليس ببشر وإنما هو كائن خرافي ذو قوة خارقة، لكن البريطانيين في ٢ نوفمبر/تشرين الثاني شاهدوه بشحمه ولحمه.

كانت إحدى فرق الفرسان المكونة من خمسة ضباط تقود بعض القوات المحلية وهي تتقدم نحو وادي بوروандورا حين تقابلت مع الملك السابق على رأس فرقة صغيرة من جنده. يقول السير جون كاي: «كان بجانبه حامل العلم الأزرق الذي يدل على مكانه في المعركة، فأشار إليه ثم ترجل عن حصانه وانتزع «اللونجي» من على رأسه ووقف على ركابه ورأسه عارية أمام أتباعه، وناداهم مطالبًا إياهم باسم الله والرسول أن يطردوا الكفرة الملاعين من ديار المؤمنين.»

تقدم الجانبان على مهل كل في اتجاه الآخر حتى تلتقي سيوفهما. عندئذ فقد البريطانيون رباطة جأشهم وفروا هاربين، فاندفع الأفغان إلى الأمام ليجدوا أمامهم فقط الضباط الخمسة البريطانيين الذين حاولوا القيام بهجوم مضاد. وقام بعض الأفغان الآخرين بمطاردة مواطنيهم الفارين من

القتال حتى الوادي، وقد قتل ثلاثة من الضباط وجرح اثنان، أحدهما لم يستطع السيطرة على حصانه فحمل وهو ينزف بعيدًا عن المعركة. أما قائد المعركة النقيب جيمس فريزر James Fraser فقد شق طريقه خلال صفوف الأعداء ثم عاد إلى صفوف البريطانيين، كان مثخنًا بالجراح وكانت يده شبه مبتورة، فقد كانت تتدلى معلقة من رسغه ... وبعيدًا في الوادي كان سلاحا المدفعية والمشاة البريطانيين قد تجمعا في انتظار هجوم آخر، لكن دوست هجم عليهم بفرقته الصغيرة ثم استدار عائدًا منتصرًا بعد أن هزمهم في أرضهم.

وفي عصر اليوم التالي بعد أن استكمل ماكناتون جولته المعتادة حول كابول على ظهر حصانه، فوجئ بأحد الأفغانيين يتقدم منه ويطلب الحديث معه ... كان الرجل هو دوست محمد الذي قرر الاستسلام، فثروة بريطانيا — التي كانت تستخدم أساسًا لشراء ولاء زعماء القبائل — بالإضافة إلى قوة الجيش البريطاني قد ثبطت همة الملك السابق، وأخمدت رغبته في استمرار حياته كجندي من الجنود المغيرة، يقضم فتات قبضة الإمبراطورية على البلاد. وقد عامله ماكناتون بمنتهى الاحترام، رغم خيبة أمل شاه شوجا (الذي كان يود قطع رأس غريمه). أما الضباط البريطانيون الذين كانوا قد اتخذوا موقفًا عدائيًّا من شاه شوجا لغروره وخيلائه اللذين شبهاه بلويس الرابع عشر، فإن مظهر دوست العسكري كان قد أثار إعجابهم. وقد كتب ماكناتون إلى كلكتا يطلب حسن معاملة الملك فقال: «لقد لفظنا دوست الذي لم يغضبنا قط لندعم سياستنا التي كان هو ضحيتها.» وفي آخر الأمر أُسكن الملك في قصر لوذهيانا الذي كان يشغله شاه شوجا سابقًا، ومُنح معاشًا سخيًّا كما لحقته عائلته فيما بعد، عدا واحدًا فقط هو ابنه «أكبر» الذي رفض أن يصحبه إلى منفاه وظل حرًّا طليقًا في مكان ما شمال الهندوكوش.

كان فصل الشتاء فيما بين عامي ١٨٤٠ و١٨٤١م هادئًا في أفغانستان، فيما عدا اشتباك واحد حدث في أوائل شهر يناير/كانون الثاني بين فرقة «نوت» في قندهار وقوة من الدورانيين. وكان من المتوقع أن يرحب الدورانيون باستبدال ملك باروكزاي بشوجا حفيد أحمد شاه، وفي البداية كان الجميع متحمسًا وهم يتوقعون عودة المزايا والمكانة لهم، لكن المشكلة ظهرت في نوفمبر/تشرين الثاني

حين شعر ماكناتون بأنه آمن بما فيه الكفاية ليفرض الضرائب. وقد كتب المندوب السامي في قندهار — هنري رولنسون Henry Rawlinson — معقبًا على ذلك بقوله إنها كانت بداية المشاكل:

«لسوء الحظ فإن شعوب الدول الشرقية — مهما كانت حكوماتهم — لا يتحملون أي ضرائب تفرض عليهم وكان هذا الاتجاه سائدًا بين الأفغان في ذلك الوقت، فلسنوات طويلة وبسبب التوترات التي هزت البلاد لم يطالبوا بدفع أي ضرائب، ومما زاد الطين بلة تلك التصريحات المتهورة التي أطلقها شاه شوجا عندما دخل قندهار لأول مرة.»

لقد كان الأمر كما لو أن هناك حُكمين بريطانيين في أفغانستان: الأول يتولاه الدبلوماسي المحنك ماكناتون في كابول، والثاني في قندهار يديره نوت الذي كان يتميز بالانفعال وسرعة الغضب. وفي سبتمبر/أيلول تلقى نوت تأنيبًا من المبعوث البريطاني لجلده بعض رجال شاه شوجا ممن كانوا تحت قيادة ابنه تيمور، واتهموا بإساءة معاملة السكان المحليين. ولم يقرب هذا النقد نوت من السياسيين البريطانيين، لذلك كتب يقول لأسرته:

«إنهم يحتسون الكلاريت، ويتقاضون مرتبات باهظة، ويتجولون في البلاد وفي ركابهم أناس كثر تدفع لهم الحكومة البريطانية أموالًا طائلة (أو للدقة نقول يدفع لهم مزارعو الهندوستان المضطهدين أموالًا طائلة) ... إن كل ما يحدث الآن هو خطأ كبير ... إن الأهالي يكرهوننا وأصبح اسم الإنجليز ومركزهم — الذي كان منذ سنتين تقريبًا رمزًا للرفعة والحق — مجرد كلام لا يعني شيئًا ... إن سلوك ... السياسيين قد هدم قضيتنا، وتسبب في تعرية رقاب كل الأوروبيين هنا أمام كلمات وخناجر الأفغان الذين يريدون الانتقام منا، بالإضافة إلى البلوخيين. وإذا لم تُرسل بعض القوات بسرعة فلن يحيا أي رجل ليحكي كيف مات رفاقه، لا يوجد شيء آخر سوى القوة التي سوف تجبرهم على الخضوع لشاه شوجا الذي يمقتونه والذي أرى أنه أكبر وغد على ظهر هذه الأرض.»

وعلى السهول الممتدة حول قندهار تميز «نوت» بتكتيكاته عن رجال القبائل الذين لم يكن لهم دراية بأسلوب اختراق تشكيلات بريطانية في ميدان مفتوح، فضلًا عن عدم قدرتهم على صد المدفعية البريطانية. أما في كابول المكتظة بالسكان والمختنقة جغرافيًّا، فكان المعسكر البريطاني أيضًا محاطًا بالتلال وعلى مقربة منه تقع ممرات الجبال التي تسمح بتدفق قوات الأعداء عليها بسهولة، وكانت المدينة نفسها تشرف على المعسكر بخندقه الضحل القذر.

وبالرغم من ذلك فعندما تحول الشتاء إلى ربيع عام ١٨٤١م استطاع البريطانيون أن ينالوا قدرًا من الترفيه، فقد وصلت الزوجات والعائلات لتسهيل معيشة الكثير من الهنود والضباط البريطانيين. وتمكنت فلورنتيا Florentia زوجة الجنرال سيل — التي أصبحت بعد منح زوجها «بوب المحارب» لقب فارس — «الليدي سيل» من إعداد مكان إقامة لها في المعسكر، واتخذت به خمسة وأربعين خادمًا، وكان لا يفوقه تأثيثا وروعة إلا منزل ماكناتون. وقد وصل قائد آخر جديد هو اللواء ويليام جورج كيث إلفنستون William George Keith Elphinston ليحل محل سير ويلوبي كوتون، وكان إلفنستون — وهو ابن عم مونتستيوارت إلفنستون الشهير — ينتمي إلى واحدة من أرقى العائلات البريطانية، وكان قائدًا للفرقة الثالثة والثلاثين في ووترلو، وقد أرسل إلى الهند ليستشفي من داء النقرس الذي أصاب قدميه. وكان شخصًا رقيق القلب على غير شاكلة نوت. وقد أطلقت عليه إيميلي إيدين Emily Eden شقيقة لورد أوكلاند لقب «الصبي إلفي» حيث كانت تعرفه منذ كان طفلًا. وعندما تقلد منصبه في كابول قال له كوتون: «لن تجد ما تفعله هنا فكلنا نعيش في سلام.»

لكنه مع استمرار الاحتلال بدأت بذور العداء تنموا وتثمر في قلوب الأفغان لتخلق حالة عامة من الضيق والتبرم، وكانت الضرائب التي يفرضها شوجا أمرًا سيئًا، ولكن الأسوأ أن مأموري الضرائب كانت تحميهم حراب البريطانيين، وأن كل مظاهر القسوة والمهانة التي كان يمارسها خدم الشاه كانت تتم تحت حماية الحرس الأوروبي وبضغط منه. وحين كان البريطانيون يحيلون شكاوى المواطنين إلى التحقيق كان رجال الشاه يوقعون العقاب على أولئك المواطنين لتذمرهم. وجود جيش أجنبي يدعم الملك أخل بتوازن هيكل الحكم الذي درج عليه الأفغان، فلم يعد لزعماء القبائل الذين كانوا يشكلون الدعم

الأساسي للملك ويوفرون له القوات ويحافظون على النظام أي قيمة بعد أن حل الإنجليز والمجندون الهنود والعسكر الجورخا مكانهم. وكان ماكناتون — منذ أن خطا خطوته الأولى في البلاد — قد أغدق الأموال على الجلزاي والأفريديين وجميع القبائل التي تتحكم في الأراضي الحيوية. لكن القبائل بدأت تشعر بعدم فاعليتها، بالإضافة إلى الضرائب الجديدة التي فرضت عليها، وأنه بخلاف شاه شوجا وحاشيته أصبحت البلاد يحكمها المسيحيون والكفرة الهندوس، وكل هذه الأمور أدت في النهاية إلى إثارة الكثير من التمرد. لذلك كان اتحاد مقاتلي القبائل تحت قيادة الملالي الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «الغزاة»، والذين يهدفون للجهاد المقدس ضد الإنجليز؛ يزداد يومًا بعد يوم.

وفي كابول، بالرغم من أن البريطانيين كانوا قد اكتسبوا بعض الصداقات من خلال حبهم لممارسة الرياضة وسلوكهم المهذب، فقد كانوا غافلين عن مشاعر العداء التي أثارها ارتفاع أسعار الطعام بسبب المتطلبات الضخمة للمعسكر، وقد قيل إن تجار كابول كانوا هم المستفيدين الوحيدين من الاحتلال، في حين كان زعماء القبائل في حالة سيئة وكان الفقراء لا يجدون القدرة على المعيشة. وكان التجار على علم تام بأموال الفرنجة التي لا حدود لها فكانوا يحجبون بضائعهم حتى ترتفع أسعارها إلى أكبر حد. وظهرت أيضًا مشكلة الضباط البريطانيين العزاب الذين لا يجدون زوجة ترفه عنهم، وكان معروفًا أن الرجال الأفغان يهملون زوجاتهم عادة، وهي مشكلة كان الكثير من الضباط الإنجليز على استعداد لحلها. يقول كاي: «كان الضباط الإنجليز يتعرضون لإغراء يصعب مقاومته، فقد كانت جاذبية نساء كابول أكبر من المقاومة.» أما الرجال الأفغان فقد كانت الدماء تغلي في عروقهم، وقد قيل إن ألكسندر بيرنز المندوب المقيم في كابول الذي كان يصف نفسه بأنه «رجل كسول يتقاضى راتبًا مهولًا» كان من أشهر الفرنجة اللعوبين.

وفي الجنوب استمر نوت في قتاله على الجانبين ضد الجلزاي والدورانيين، وكان يهزمهم في جميع المعارك التي يخوضها، ومن ثم كان على ثقة أنه سيواصل القتال إلى ما لا نهاية. ولم تكن تقارير رولنسون الآتية من قندهار مرضية لكابول، وقد رد عليه ماكناتون مرة قائلًا: «نحن لدينا ما يكفينا من الصعاب وما يكفينا من المتشائمين دون الحاجة إلى زيادة عددهم بدون داع.» لكن المندوب السامي كان يعتقد أن تفجر عنف القبائل شيء طبيعي في

أفغانستان، وأن كل ما في الأمر أن أولئك العسكريين في الجنوب متشائمون أكثر من اللازم. وفي واقع الأمر كان رجال نوت قادرين فعلًا على الصمود أمام القبائل، وبعد سلسلة من الانتصارات البريطانية اكتشفوا أنه لم يتبق إلا عدو واحد فقط من الزعماء الدورانيين، فقام نوت شخصيًّا بقيادة حملة لمطاردته، وكما يقول رولنسون:

«كان الوحيد الذي رفض المصالحة هو أكرم خان Akrum Khan الذي لم تُجدِ معه أية وعود أو تهديدات، ولذلك كان من المهم جدًّا أن نقبض عليه، فلجأنا إلى أحد مواطنيه وأقنعناه بالكشف عن مكانه، وكانت مفاجأة للزعيم الدوراني حين اعتقلناه. وقد اصطحبه نوت إلى قندهار وبعد مشاورات مع المندوب السامي البريطاني ومع ذلك الملك الدمية، أُعدم بوضعه في فوهة مدفع ثم إطلاقه.»

وأخيرًا ساد الهدوء قندهار ليبرر تفاؤل ماكناتون الذي كان ينقله إلى رؤسائه في كلكتا طوال أشهر الصيف. وكان قد كتب يقول: «أعتقد أن توقعاتنا تبعث على الارتياح، ومع المعدات التي لدينا سوف لا تكون هناك أية صعوبات في حكم هذه البلاد. إن الأهالي هنا أطفال ممتازون ويجب معاملتهم على أنهم كذلك. فلو وضعنا أحد الأطفال الأشقياء في ركن الحجرة، فسوف يخاف الباقون.»

وفي ٢٠ أغسطس/آب من عام ١٨٤١م كتب المندوب السامي البريطاني خطابه الشهير الذي يلخص رأيه في النجاح الذي حققته الإمبراطورية البريطانية وشاه شوجا في أفغانستان قال فيه:

«إن الدورانيين بحاجة إلى جلدة أخرى بالسياط، وبعدها سوف يتقبلون فكرة عدم جدوى معارضتنا ... وقد استسلمت جميع قبائل الجلزاي بدون ضرب ... وهؤلاء الذين يعرفون البلاد جيدًا حين كان يحكمها الباروكزاي أصابهم الذهول من هذا التغيير الجذري الذي حدث لها دون إراقة الكثير من الدماء ... فحكامها السابقون كانوا دائمي التناحر مع رعاياهم من وقت إلى آخر ... والشاه ليس لديه شعبية مع خانات الدورانيين، ونحن الذين جعلناه هكذا لأننا

استبدلناهم به، ولأننا استولينا على قوتهم العسكرية التي لم يكونوا أكفاء بدرجة كافية لاستخدامها ووضعناها في أيدينا. أما بخصوص بقية الطبقات، فللملك شعبية واضحة بدون شك، وهو يستحقها، والخانات أحقر من أن نهتم بهم ... وعلى هذا فالبلاد هادئة تمامًا من دان إلى بئر سبع.»

كان ماكناتون مصرًّا على أن تكلل جميع مجهوداته بهدوء يسود أفغانستان حتى ولو كانت قوة إرادته هي التي تحقق ذلك، لكنه بعد أربعة أشهر فقط عُلِّقت جثته بعد أن فصل عنها رأسه وقطعت أطرافها لتتأرجح على خطاف في مدخل سوق كابول.

الفصل السابع

انتصار القبائل

شهد شهر سبتمبر/أيلول من عام ١٨٤١م نشاطًا مكثفًا في أفغانستان، شمل طموحات المسئولين البريطانيين بها، فقد عُين ماكناتون حاكمًا لبومباي فيما يعد ترقية كبيرة له، إن لم تكن مكافئة على العمل الطيب الذي أداه قبل ذلك كمندوب سامٍ في بلاط شاه شوجا. وكان آلكسندر بيرنز – المندوب السامي في كابول – يتوقع أن يشغل هذا المنصب. أما الجنرال إلفنستون فقد تحققت رغبته القوية في إعفائه من القيادة، فمنذ أن وطئت قدماه أرض أفغانستان زادت معاناته من مرض التهاب المفاصل الذي كان يشكو منه قبل مجيئه، والذي وصل إلى مرحلة متدهورة كادت تعجزه عن الحركة، بالإضافة إلى افتقاده القدرة على اتخاذ القرارات، وهي وصمة كانت تستوجب النقد لولا أنه كان أول من اعترف بهذه النقيصة، فقد صرح لأحد ضباطه بقوله: «إذا ما حدث أي شيء، فلن أستطيع أن أفعل شيئًا حياله، لقد انتهيت جسديًا ونفسيًا، وقد صارحت لورد أوكلاند بذلك.»

عين الجنرال نوت قائدًا عامًا، وكان ذلك نوعًا من الترضية له، فقد كان ضابطًا في شركة الهند الشرقية وليس في خدمة الملكة، ومن ثم كان يُتخطى في الترقيات. ولأنه كان بطبيعته شديد الانفعال والغضب الذي يصل إلى حد التمرد أحيانًا، فقد افتقد تعاطف رؤسائه. أما قوات الجنرال سيل التي تضم فرقة المشاة الخفيفة الثالثة عشرة، فقد كانت تستعد للرحيل من البلاد، وكانت ليدي سيل تشعر بالأسى لأنها ستفتقد الراحة والرفاهية اللتين وجدتهما في منزلها الكبير، وحدائقها الإنجليزية في المعسكر.

ومع رحيل سيل، تولى قيادة الحملة في كابول الكولونيل جون شلتون، وكان جنديًا صارمًا يتميز بفظاظته وقسوته، وكان قد فقد إحدى ذراعيه

أثناء الحروب البونابرتية. وقد وصل شلتون إلى البلاد على رأس الفرقة الرابعة والأربعين مشاة، وهي فرقة اشتهرت في عقود ماضية في أمريكا بعد أن كادت تتعرض للإبادة إبان حملة برادوك خلال الحرب الفرنسية الهندية. أما إلدريد بوتنجر — بطل هرات — فقد وصل بعد أن استراح قليلًا في كلكتا، وكان قد عين الممثل السياسي في كوهستان، وكان هو الوحيد الذي يغرد خارج السرب منتقدًا الأوضاع في البلاد، ففي نهاية الشهر أفصح لماكناتون عن قلقه من قيام ثورة كبيرة أحس ببوادرها في الجبال شمال كابول، لكن المندوب السامي لم يكن على استعداد للاستماع إلى «نذر شؤم»، فأرسله ببساطة عائدًا إلى موقعه.

كانت المشكلة الرئيسية — في ضوء عدم وجود أية اشتباكات في أفغانستان — هي تزايد ضغط كل من كلكتا ولندن لتخفيض نفقات الاحتلال، التي كانت تصل في مجموعها إلى أكثر من مليون جنيه استرليني سنويًّا. وكان ماكناتون على ثقة من أنه يستطيع تدبير ذلك المبلغ، لكنه كان قلقًا لأن حكومة حزب الأحرار في إنجلترا كانت على وشك السقوط، وكان حزب المحافظين متحفظًا على مغامرة غزو أفغانستان بصفة عامة. فكتب إلى أحد أصدقائه يقول:

> «تواترت الشائعات كثيرًا عن نوايا حزب المحافظين حين يصل إلى السلطة تجاه هذه البلاد، ولكن إذا ما تخلينا عن دعمنا للشاه، فلن أتردد في القول بأن هذا سوف يكون خطئًا سياسيًّا لا يغتفر. ولو كنا قد تركنا شاه شوجا وشأنه بعد أن وضعناه على العرش لكان الأمر قد اختلف تمامًا ... لأنه في هذه الحالة كان سيلجأ إلى أسلوب الأفغان في تأمين ملكه، ولكننا أصررنا على أن يتصرف وفق الأفكار السياسية الأوروبية في نفس الوقت الذي تركنا فيه أعداءه دون أن نقضي عليهم، ولا يمنعهم عنه إلا وقوفنا بجانبه.»

والواقع أن شاه شوجا كان مجبرًا على عدم اللجوء إلى فقء عيون خصومه من الملوك أو اغتيال أحد منهم (وكان هذا تخصص الدوست) ليؤمن عرشه. كما لم يستطع أيضًا أن يعتمد في حكمه على التحالفات القبلية مكتفيًا بدعم البريطانيين لحكمه واستناده إلى قوة الجيش البريطاني التي كانت تؤازره،

وكانت هذه المشكلة تماثل تلك التي جابهت أمريكا في حربها في فيتنام، ففي اللحظة التي تخلق فيها دولة مصطنعة بعيدًا عن عناصرها الطبيعية مهما كانت حسنة النوايا، يصبح الاختيار الصعب إما دعمها ومساندتها إلى النهاية، أو تركها تعتمد على نفسها مما سيترتب عليه نتائج وخيمة أفظع مما لو كانت قد تركت وشأنها منذ البداية. أرسل ماكناتون خطابًا بتاريخ ٢٥ سبتمبر/أيلول ألح فيه في طلب المزيد من المساندة قائلًا:

«بعد بضع سنوات من الآن حين ينمحي الجيل الحالي من المتآمرين، سوف تكون مهمتنا أسهل نسبيًّا، أما الآن فإن التقدم الذي أحرزناه في طريق السلام ... تقدم عظيم. فقد نجح الملوك الدورانيون في تهدئة القبائل البدائية من خلال قيادتهم إلى انتصارات في معارك أجنبية ... أما حكام الباروكزاي فقد شاركوا الحكم مع البعض من جهة، وزرعوا بذور الشقاق والفتنة بين البعض الآخر بأساليب خادعة ومكائد لا يوجد ما يبررها ... أما أنا فقد قمت من جانبي بتخفيض نفقاتنا، وأعتقد أن مبلغ ثلاثمائة ألف جنيه استرليني سنويًّا سوف يغطيها بأكملها.»

وكانت إحدى الوسائل لتخفيض النفقات هي تقليل قوات الجيش في البلاد، والأخرى هي تقليل الدعم الذي كان يعطى للقبائل لضمان خضوعها. ولم يكن ماكناتون سعيدًا بأن يضيق الخناق على هذه القبائل التي كانت هادئة في الفترة الأخيرة، لكنه كان يشعر بمسئوليته الشخصية في ألا يترك البلاد ليس فقط دون أن يحقق السلام فيها، بل كذلك بعد أن تكون طيعة أمام مسئولي شركة الهند الشرقية، ولذلك فقد دعا إلى مؤتمر مع زعماء الجلزاي في الشرق وأخبرهم بأنه سوف يخفض معاشهم إلى النصف.

كان الجلزاي لقرون طويلة يتقاضون مقابلًا ماديًّا لقاء تأجير ممتلكاتهم الثمينة — وهي المعابر المؤدية إلى الهند — منذ حكم بابور، ومن المحتمل أيضًا أن يكون داريوس الأول قد كان يدفع لأسلافهم مقابل استخدام هذه المعابر. وكان هؤلاء الجلزاي قد ناصروا شاه شوجا في منفاه، كما كانوا خلال الاحتلال البريطاني يشاهدون تدفقًا لا نهائيًّا من قوافل المؤن، والقوات العسكرية، والعائلات والبريد خلال معابرهم وهي تمر دون أن يمسها سوء، لكنهم حين

استمعوا إلى ماكناتون أومئوا برءوسهم في جمود وعادوا إلى تلالهم. وبعد ذلك بيومين هاجم الجلزاي قافلة آتية من الهند وسلبوا ما تحمله، لينقطع بذلك خط الإمدادات البريطاني القادم من الهند.

أحس ماكناتون بالضيق لهذه المشكلة التي فجرتها القبيلة قبل مغادرته إلى بومباي، ولحسن الحظ كانت قوات الجنرال سيل على وشك مغادرة كابول إلى الهند، وكان في إمكانها أن تشق ثغرة خلال المعابر في طريقها وبذلك تفرض على القبائل احترامها للقانون وللإدارة الحكومية. وكتب المندوب السامي يقول:

> «إن الجلزاي الشرقيين بدءوا في إثارة الشغب بسبب تخفيض الأموال التي كانوا يتقاضونها ... وقد نجح هؤلاء الأوغاد في قطع اتصالنا مع الهند في الوقت الحالي مما يثير سخطي في هذه الظروف، ولكنهم سوف يدفعون ثمن فعلتهم هذه ... أعطِ بيرنز التعليمات اللازمة، وأعتقد أن البلاد بأسرها من كابول حتى جلال أباد سوف تظل في حالة هدوء فيما عدا المنطقة التي يسكنها الجلزاي، لكنني آمل أن أنهي تمامًا هذا الشغب في وقت قريب قبل مغادرتي البلاد.»

وفي التاسع من أكتوبر / تشرين الأول زحفت قوات المشاة الوطنية من الفرقة التاسعة والثلاثين بقيادة الكولونيل توماس مونتيث Thomas Monteath إلى الممرات كحامية أمامية للجيش، وما إن عسكروا في أول ليلة حتى شن الجلزاي عليهم هجومًا ليليًا قتلوا وجرحوا خلاله خمسة وعشرين رجلًا، لكن لم يلبث أن تبعه الجنرال «سيل» ومعه العدد الأكبر من قوات الجيش. وحين حل يوم ١٢ أكتوبر / تشرين الأول كانت القوتان تتقاتلان للاستيلاء على ممر «خورد كابول» على بعد خمسة عشر ميلًا من العاصمة. واصطف الجلزاي على المرتفعات خلف الصخور، وبدءوا في استخدام بنادق الجيزيل لتصفية البريطانيين، وتلقى «بوب المحارب» رصاصة في كاحله في بداية المعركة، فقد كان يقاتل بنفسه مثل أي رقيب صغير في الجيش. وتدفقت قوات من الفرقة البريطانية الثالثة عشرة من سلاح المشاه الخفيف، وفرقة المشاة الوطنية الخامسة والثلاثين على جانبي الجرف شبه العمودي لتزيح المدافعين. وقد عسكرت الفرقة الخامسة والثلاثون بعد الممر بقليل، لكنها هوجمت مرة ثانية من الجلزاي في نفس

الليلة، مما يشير إلى أن بعض الخيالة الأفغان سمحوا للمغيرين بالتسلل إلى الداخل. وقد قتل في هذه المعركة ضابط واحد وبضعة جنود.

كان الجنرال «سيل» في انتظار بعض القوات الأخرى الآتية من زورمات، وفور وصولها فجرت القوات بأكملها طريقًا لها خلال ممر خورد كابول في اتجاه قرية «تيزين» وهناك قام كابتن ج. هـ. ماكجريجور G. H. MacGregor بعقد اجتماع مع زعماء قبائل الجلزاي الذين طالبوا باستعادة إعانتهم المالية، ووافق ماكجريجور، ولكنه لم يستطع إلا جمع دعم جزئي فقط بلغ عشرة آلاف روبية (أي ما يعادل ألف جنيه استرليني). وفي تطور خطير آخر هوجمت فرقة «سيل» من قبائل أخرى كثيرة اصطفت على جانبي طريقهم إلى ممر جوجدولوك، وهو الأمر الذي قد يشير إلى خيانه رؤساء القبائل، أو على أقل تقدير، عدم استطاعتهم السيطرة على رجالهم.

كان الممر عبارة عن طريق شاق صاعد يبلغ طوله ثلاثة أميال محاصر بين مرتفعات تخنقه على الجانبين لينحدر بعد ذلك بشيء من السهولة وينتهي إلى أرض مفتوحة. وكانت الخطة أن تقوم قوات الجيش الأساسية بإخلاء الممر، ثم الانتظار على القمة حتى تصل الأمتعة لتتجمع القوات كلها ثم تبدأ في الهبوط. ولكن بدلًا من ذلك تعرضت القوات الأمامية لوابل عنيف من الرصاص، فتملكها الذعر وحاولت أن تهرب من الممر، وحين وصلت الأمتعة وتمكنت من الصعود إلى أعلى تلقت الضربة الكاسحة من الجلزاي الذين اصطفوا على المرتفعات يطلقون وابلًا من الرصاص على حشد القوات الإنجليزية، في حين كان المقاتلون الأفغان الأشداء من حاملي السيوف يطاردونهم من الخلف. يقول أحد من اشتركوا في هذه الحرب: «خلال هذا المشهد البالغ الرعب تُرك جميع الجرحى على الأرض، وعندما جاء الأعداء كانوا يتعثرون فوقهم.» أما جورج برودفوت George Broadfoot الذي كان قائدًا لفرقة الألغام المحلية، فقد سار بمؤخرة الجيش ومعه مجموعة من الرجال تعد على أصابع اليد الواحدة، ويقول: «كنا في مأزق شديد لفترة بسيطة، لكن مجموعة من خبراء الألغام تمكنت من إنقاذ المئات من قوات المشاة — التي كان معظمها من الأوربيين — من أيدي الأفغان.» ثم أمر حاملي الحراب بالهجوم، وحين اخترق صفوف الأعداء تبين له أن من تبعوه لم يتعدوا ثلاثة ضباط وستة جنود. أما بقية المشاة «فقد هجمت مجموعة منهم فقط، لكنها توقفت فجأة قبل أن تصل

إلى منتصف المسافة خشية أن تصطدم بالأعداء الذين كانوا يمزقون الجرحى.» ومع ذلك فإن هذه الفرقة الصغيرة الباسلة استطاعت أن تمنع كارثة محققة. وقد أسفرت هذه المعركة عن قتل مائة وعشرين من قوات الجنرال سيل في الممر، ليرتفع عدد القتلى إلى ثلاثمائة منذ مغادرتهم كابول.

وفي كوهستان أرسل بوتينجر تقريرًا بانفجار موجة عاتية من التمرد الشرس، وأنه يتوقع هجومًا في أي لحظة على قواته في شاريكار، وكان ماكناتون قد علق على ما حدث بقوله: «حين يسقط أحدهم يحل الآخر محله، ذاك هو مبدأ هؤلاء المتشردين، ولقد كان هذا من حسن طالعنا، وما نكاد نخمد ثورة ما حتى تندلع الأخرى.» أما بخصوص مشكلة بوتنجر فقد كتب يقول: «أنا على ثقة من أن هذه العاصفة سوف تمر بسلام حين يعرفون أن مشكلة الجلزاي قد حُلت.» وفي كابول شاهد الكثيرون الخيالة – ومنهم رجال في حاشية الملك – يهرعون خارج البلاد لينضموا إلى المعركة ضد قوات الجنرال سيل في طريق جلال أباد.

وفي أوائل شهر نوفمبر/تشرين الثاني كان الجنرال سيل قد أوقف قواته حول جانداماك، وهي قرية تحوطها التلال بعيدًا عن الممرات الضيقة المظلمة التي سهلت للأفغان إطلاق الرصاص على جيشه من مواقع خفية أعلى الهضاب. وكان قد أعاد فرقة المشاة الوطنية السابعة والثلاثين إلى كابول لتصاحب القوات الأخرى المغادرة التي كانت تضم ماكناتون وإلفنستون وليدي سيل. وكانت قوات «بوب المحارب» غير مثقلة بأتباع المعسكر أو الأمتعة، بل كانت تمثل نخبة من الأبطال الفيكتوريين مثل مونتيث، وديني، وبرودفوت وهنري هافلوك الصغير. وقد كتب برودفوت يقول: «لقد تعود الجميع على السخرية من هافلوك.» لكنه في نظره كان «رجلًا شجاعًا رزينًا جديرًا بالاحترام، ينظر إلى وظيفته كأنها علم من العلوم، وعلى حسب ما أرى أو يمكنني الحكم فقد كانت آراؤه سديدة على الدوام.» وكان يمكن لهذه الصفات أن تكون لها قيمتها لو كانوا قد ظلوا في كابول، أما الآن فإن الجنرال سيل ورجاله كانوا على الجانب الآخر من الممرات بعيدًا عن العاصمة وبينهما الجلزاي.

في هذا اليوم عقد اجتماع سري بين زعماء القبائل في كابول ترأسه عبد الله خان، وأمان الله خان، بهدف إجلاء بقية الفرنجة عن أفغانستان. وفي مساء تلك الليلة وصل موهان لال الجاسوس الكاشميري إلى المقر البريطاني الكائن

في منتصف المدينة ليحذر ألكسند بيرنز من الخطر الذي يحيق به. وخلال الساعات الأولى من الصباح والظلام ما زال يخيم على المدينة، جاء بعض الأفغان المتعاطفين مع بيرنز، ومنهم وزير شاه شوجا، وهم يحملون نفس التحذيرات. لكن بيرنز لم يلق لهم بالًا، وكان قد انتهى من تهنئة ماكناتون على تعيينه مندوبًا ساميًا في بومباي في وقت كان فيه «الهدوء العميق يسود المدينة»، وكان من السخف أن يهرب من مقره كأي رجل مذعور من رجال الحاشية، بالإضافة إلى أنه لو كان ماكناتون يعتقد فعلًا أن البلاد ليست آمنة، لكان قد أجل مغادرته وتسليم بيرنز وظيفته كمندوب سامٍ. (وكان ماكناتون من جانبه متبرمًا من تمرد الجلزاي؛ لأنه ظن أن الفضل كله سوف يعزى إلى بيرنز إذا حل هذه المشكلة بعد مغادرته).

وفي فجر يوم ٢ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٨٤١م حاصرت بعض جموع الأفغان أسوار مقر البريطانيين، وكان منزل الكابتن جونسون Johnson، المسئول عن نفقات قوات شاه شوجا، قريبًا منهم، وكان يحتفظ بالأموال بداخله. في البداية كان الجمع الأفغاني لا يتجاوز عدده ثلاثمائة فرد، ثم أخذ العدد في التزايد بعد ذلك ليصبح حشدًا غفيرًا في ساعات الصباح الأولى. وقد حاول بيرنز التفاهم معهم فأطل من شرفته وتكلم معهم، ولكن دون جدوى. فاضطر هو وشقيقه الأصغر تشارلز وويليام شقيق جورج برودفوت الأصغر وحارسه الهندي البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا إلى استخدام السلاح للدفاع عن أنفسهم، وفي المنزل المجاور كان حراس جونسون الثلاثون يقاتلون الغوغاء، في حين قضى جونسون نفسه ليلته داخل المعسكر.

وفي داخل المعسكر الذي كان يبعد مسافة ميلين كانت أصوات البنادق التي تدوي في المدينة تصل إلى أسماعهم، وكان دخان النيران المندلعة حول مقر المندوب السامي يرى من ذلك البعد، وكان ماكناتون قد تلقى رسالة من بيرنز صبيحة نفس اليوم يخبره فيها بأنه ما زال لديه أمل في أن الأمور سوف تظل تحت السيطرة. أما إلفنستون، الذي لم يدر ماذا يفعل، فكان ينتظر من المندوب السامي أن يدله على ما يفعل.

كان شاه شوجا هو الوحيد الذي اتخذ إجراءً فعليًّا ضد هذا الهجوم الغوغائي، فقد سارع بإرسال خيرة جنده الذين يحمون قلعة بالاهيسار فاخترقوا شوارع المدينة الضيقة ليصلوا إلى مقر المندوب السامي. واصطحبت

هذه القوة — التي كان يقودها ضابط اسكتلندي مرتزق من أصل هندي يدعى ويليام كامبل William Campbell — مدفعين لتستطيع بهما اختراق طريقها خلال الجموع، لكن هذه القوات هوجمت في طريقها، واضطرت إلى التقهقر بعد أن سقط منها نحو مائتي مقاتل ما بين قتيل وجريح تاركة المدافع خارج بالاهيسار. وفي أثناء ذلك كانت مدافع القلعة تطلق نيرانها في الشوارع حتى تمنع الأفغان من الاستيلاء عليها ولم تبدر أي محاولة من المعسكر لإنقاذ الموقف، لكن كولونيل شلتون صدرت له الأوامر بالتوجه إلى بالاهيسار فوصل في الوقت المناسب ليؤمن انسحاب كامبل. أما الملازم ستيرت Sturt زوج ابنة ليدي سيل، فقد تلقى تعليمات بالذهاب إلى شاه شوجا كي ينسق القتال معه. ولكن في اللحظة التي دخل فيها القصر هاجمه أحد الأفغان وطعنه ثلاث مرات ثم فر هاربًا.

وفي مقر المندوب السامي كان ويليام برودفوت قد تلقى رصاصة في صدره بعد أن قتل ستة من مهاجميه، وكان قد مضى عام على وفاة أخيه في وادي بورواندورا أثناء المعركة الأخيرة مع دوست محمد. تجمع معظم الروايات على أن واحدًا من الكشميريين الغرباء دخل مقر المندوب السامي وأقنع ألكسندر بيرنز وأخاه بالتنكر في ملابس الأفغان حتى يتمكنا من الهروب، لكنه بمجرد أن خطا خارج القصر بصحبتهما صاح قائلًا: «ها هو ذا سيكوندر بيرنز» فتكأكأوا عليه ومزقوا جسده بالخناجر. وفي قصره كان حارسه الهندي قد ذبح، وكذلك ذبح كل من كان بمنزل جونسون من حرس وخدم ونساء وأطفال، وحين سقط جونسون نهبت الجموع سبعة عشر ألفًا من الجنيهات الاسترلينية.

ولأن الأفغان ظلوا يواصلون شغبهم هذا لخمس ساعات كاملة، في حين كان هناك جيش بريطاني كامل قادر على سحق هؤلاء الغوغائيين يرابط على بعد نصف ساعة فقط من هذه الأحداث، فقد تكاثرت الأقاويل في السنوات التي تلت ذلك حول حقيقة ما حدث. فقد قال فنسنت إير Vincent Eyre وهو أحد ضباط سلاح المدفعية ما يلي: «بدأت هذه الأحداث كمجرد تمرد لا أهمية له، ناتج عن سخط مجموعة من الرجال البائسين الثائرين، وكان الأجدر بنا أن نخمد هذا الشغب بحسم فور حدوثه.»

لكن على الجانب الآخر كانت طرقات كابول الضيقة التي تصطف على جانبيها مبان مسطحة الأسقف تشكل عقبة أمام البريطانيين تمنعهم من

إظهار قوتهم الحقيقية ... ولم تكن هناك ساحات للقتال بالمعنى المتعارف عليه، ومجال الرؤية لا يتجاوز ثلاثين ياردة، وكانت المناورات مستحيلة في هذه الشوارع الضيقة، في حين كان البريطانيون معرضين للهجوم من جميع الاتجاهات وخاصة من فوق رءوسهم. وليس أدل على ذلك من هزيمة قوة شاه شوجا بقيادة كامبل وهي تحاول إيجاد طريق لها خلال هذه الطرقات الأشبه بالمتاهة. أما بالنسبة لفكرة اقتحام وسط كابول، فقد قيل إنه كان من الممكن للبريطانيين إذا تحلوا ببعض الجسارة والمهارة أن يخيفوا الأفغان، ويجبروهم على الكف عن القتال. غير أن الاحتمال الأرجح أن القوات البريطانية أثناء اندفاعها في الحارات والشوارع المغلقة كانت سوف تتعرض للذبح، فسوف تزج بنفسها في خضم جمع غاضب قد يستحيل قمعه بعد ذلك، فضلًا عما يمكن أن تتمخض عنه المعركة من تزايد في أعداد القتلى بدلًا من الحد منها.

وفي الأسابيع التالية أتيحت الفرصة للبريطانيين لإثبات تفوقهم العسكري في ساحة قتال سهلة في الأرض التي تحيط بالمعسكر، ومع ذلك فقد فشلوا فشلًا ذريعًا. أما ما قيل عن أنه كان يجب على قواتهم التسلل إلى وسط كابول ليقمعوا التمرد منذ بدايته، فهو قول مثار جدل. وربما كان الأفضل هو أن يتعامل ألكسندر بيرنز بجدية مع التحذيرات التي تلقاها ويبادر بمغادرة مقر المندوب السامي قبل الهجوم عليه مهما كان الحرج الذي سوف يتعرض له، ومهما كان لهذه الخطوة من تأثير على مستقبله. وبدلًا من أن يتسبب في هذا المأزق لإلفنستون، كان يجب عليه أن يثير في نفس القائد التصميم على أن يقاتل البريطانيون وفق شروطهم الخاصة وعلى الأرض التي يختارونها. وفي هذه الحالة لم يكن حريق منزله الخاوي سوف يشجع الأفغان على المزيد من التخريب.

غير أنه بالنسبة للأفغان كان ذلك الهجوم على مقر المندوب السامي ونهبه بداية انتصار الثورة الوطنية. واضطر بعض الضباط البريطانيين المقيمين في كابول إلى الفرار إلى المعسكر، وقد رافق بعض المجندين الهنود عائلة كابتن تريفور، وفقد واحد منهم يده وهو يصد سيفًا كان موجها نحو زوجة الضابط. وفي المنطقة الواقعة بين البلدة والمعسكر قطع الأفغان الاتصالات البريطانية بسيوفهم وبنادقهم الجيزيل، في حين وصل الآلاف من المتمردين قادمين من

الشمال — الذين كان البريطانيون يطلقون عليهم الكوهستان — ليحاصروا المعسكر. في هذه الأثناء ارتبك الجنرال إلفنستون ولم يدر ما يفعل، فكتب إلى ماكناتون يقول:

«إن المأزق الذي نحن فيه حرج للغاية. ولكن إذا ما دعمنا شلتون فسوف يمكنه بدون شك أن ينجح في المرور بفرقتين في اتجاه بوابة لاهور، ومن هناك يمكنه فتح البوابة ومجابهتهم. ولكن ما الذي سوف نستفيده عندئذ؟ نحن يمكننا أن نفعل ذلك، ولكننا سوف نتكبد خسائر فادحة حيث إن قواتنا سوف تتعرض لنيران تنهال عليها من أسطح المنازل على طول الطريق ... ولكي ندخل المدينة سوف يتعين علينا أن نعود مرة ثانية ... إذًا فمن الأجدى أن ننتظر ونرى ما سوف يسفر عنه الغد ... وربما نستطيع السيطرة على المدينة إذا احتللنا جميع المنازل التي تطل على الطريق، لكننا نفتقر إلى الوسائل اللازمة لنتوسع في عملياتنا بهذا الشكل.»

إلا أن هذا التقرير اليائس عن الموقف أعقبه تطور إيجابي، ففي الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي أرسل الجنرال سيل الفرقة السابعة والثلاثين من سلاح المشاة الوطنيين في اتجاه المعسكر، لكنه بعد ذلك بدأ البريطانيون يدفعون ثمن حماقتهم التي دفعتهم إلى وضع مخزن تموينهم بعيدًا خارج الأسوار، فلم يكتفوا بوضعه على بعد أربعمائة ياردة من القلعة وإنما لم ينتبهوا إلى أن هناك قلعة أخرى — هي قلعة محمد شريف — تتوسط المسافة بين المخزن وبين قلعتهم. وسرعان ما استطاع الأفغان احتلال هذه القلعة، ومن ثم تمكنوا من قطع الطريق بين المعسكر ومخزن المؤن. وفي مخزن المؤن نفسه، حاول خمسون من المجندين الهنود بقيادة الملازم وارين Warren، أن يصدوا هذه الحشود المندفعة من المهاجمين الجدد، وحين رأى وارين جنوده يتساقطون، والأفغان يجهزون السلالم ليتسلقوا الأسوار، بعث برسالة عاجلة بأنه لن يستطيع الصمود أكثر من ذلك. بعد ذلك بأربعة أيام أمر إلفنستون مجموعتين من الفرقة الرابعة والأربعين من سلاح المشاة بمحاولة إنقاذ حامية مخزن المؤن، لكن البريطانيين ما زالو بحاجة إلى إمدادات غذائية؛ فأمر بتعزيز القوات بدلًا من سحبها، وعلى أية حال فقد تراجعت الكتيبة الرابعة والأربعون

خلال النهار بعد تعرضها للهجوم من جميع الاتجاهات، وخاصة من الرماة الذين كانوا يلقون بقذائفهم من فتحات قلعة محمد شريف.

بعد نداءات يائسة مستمرة من الملازم وارين تقرر الهجوم على قلعة محمد شريف في مساء ذلك اليوم، ثم بعد ذلك تعزيز القوات التي تحاول الوصول إلى مخزن المؤن. وقد أبلغ أحد الكشافين بأنه يوجد ثلاثون من الأفغان حول شرفات القلعة دون دلائل تشير إلى وجود أي قوة أخرى بالداخل. وكان رجال وارين في ذلك الوقت يروحون ويجيئون من وإلى المعسكر، في حين كان وارين على ثقة بأنه سوف يتلقى تعزيزًا لقواته في الساعة الثانية من صباح ذلك اليوم، ولسوء الحظ تأخرت هذه التعزيزات. وفي الرابعة صباحًا كان الرجال قد بدأوا في التجمع حين وصل الملازم وارين وبقية رجاله إلى مخزن المؤن بعد أن تسلقوا القلعة من خلال ثغرة في أحد الأسوار، بينما كان الأفغان يضرمون النار في البوابة الرئيسية، ومع شروق الشمس شاهد البريطانيون جموعًا ضخمة من الأفغان تنقض على مخزن المؤن وتغادره حاملة معها الطعام والأدوية. ذكر أحد شهود العيان أنهم كانوا كأسراب النحل وعلق شاه شوجا الذي كان يراقب ما حدث من خلال منظار من على برج في بالاهيسار بقوله: «إن هؤلاء الإنجليز مجانين ولا شك.» أما القوات البريطانية فقد أثارها منظر المهاجمين وهم يحملون معهم آخر مخزونهم من شراب الرم، ومع ذلك عجز الضباط عن اتخاذ أي قرار، وقد علق فنسنت إير على ذلك بقوله:

> «لا ريب أن دفاعاتنا الضعيفة وغير الفعالة، بالإضافة إلى فقداننا للمؤن التي كانت بداخل القلعة كانت أول ضربة لتفوقنا العسكري في كابول. وكان من نتائجها أن هؤلاء الزعماء — وخاصة القزلباش الذين كانوا محايدين حتى ذلك الوقت — انضموا إلى المطالبين بجلائنا عن البلاد.»

وفي اليوم السابق لهذه الأحداث كان كولين ماكنزي Colin Mackenzie قد اضطر إلى أن يتخلى عن دفاعه عن مخزن مؤن الشاه. وقد حاول أن يصمد قدر المستطاع بدون أية تعزيزات إلى أن بدأ الأفغان في تسلق الأسوار، وأخيرًا اضطر إلى الجلاء عن الموقع حاملًا معه كل الجرحى والنساء والأطفال، وكان

هو نفسه قد جرح ثلاث مرات. وقد علقت الليدي سيل بقولها: «شيء غريب أن يكون هذا الضابط مدينًا بحياته لضربه امرأة.» فقد كان ماكنزي قد طلب من معاونيه أن يتركوا ما لديهم ويفروا بجلدهم، إلا أن امرأة منهم وضعت طفلها على الأرض وأخذت تحزم الأواني والأوعية، فنهرها الضابط لكنها أخذت تجادله فلم يكن منه إلا أن انتزع سيفه ليضربها بقبضته، ونتيجة لهذا كان السيف في يده حين هوجم بعد ذلك.

كان مخزن المؤن الذي خلا من محتواه محاصرًا من الأفغان الذين كان عددهم يتزايد يومًا بعد يوم. وكانت الأوامر للحامية أن تتخذ مواقع الدفاع، بحيث تطلق القوات نيرانها من وراء الأسوار على الخيالة المهاجمين، أما الرماة فاتخذوا مواقعهم في أماكنهم العالية في الحصون القريبة. ووضعت المدافع في الأركان، ومعها عدد احتياطي من البنادق، حتى يتسنى لهم التحرك حين يشكل الهجوم تهديدًا أكبر.

اعتقد ماكناتون أن خططه التي وضعها بعناية قد فشلت تمامًا، ومع ذلك لم يتكاسل وأرسل مبعوثين إلى الجنرال نوت في قندهار ليسارع بإرسال حملة من القوات إلى كابول. وفي غضون ذلك أصدر أمرًا للجنرال سيل للعودة بفرقته، ولقد بعث رسائل كثيرة كرر فيها هذا الأمر خشية ألا تصل بسبب وجود الجلزاي في الممرات. وكانت وجهة نظره أن حامية كابول لم تكن كبيرة بما يكفي للدفاع عن مخزن المؤن ومجابهة العمليات العسكرية الهجومية في ذات الوقت. ولذلك فإن أي تعزيز لقواتها سوف يحدث فارقًا ضخمًا، بالإضافة إلى أنه بما أن الجلزاي كانوا جميعًا في كابول، فلن يعترض أحد طريق الجيش خلال الممرات في عودته. وحين وصلت الرسالة أخيرًا عن طريق إلفنستون الحريص دائمًا كانت فحوى الأوامر التي تلقاها سيل هي العودة إلى كابول إذا كان يضمن سلامة المرضى والجرحى أثناء ذلك.

وفي جانداماك ثار الجدل بين ضباط سيل، فلم يكن في استطاعتهم ترك مئات الجرحى والمرضى وراءهم معرضين إياهم لهجمات الجلزاي، وإذا تقدموا خلال الممرات مرة أخرى فسوف يتضاعف عددهم. ولذلك فالحل المنطقي الوحيد هو التقدم شرقًا نحو جلال أباد، حيث يمكن إعداد مواقع دفاعية ومخزن مؤن. وكان سيل نفسه أشجع أولئك المقاتلين وكانت زوجته

وابنته في كابول إلا أنه فضل أن يتجه إلى جلال أباد، ويعلق المؤرخ أرشيبالد فوربس Archibald Forbes على ذلك بقوله: «إن الجنرال الجريء كان سيشق طريقه نحو كابول، والجنرال الحكيم كان سيظل قابعًا في جانداموك، أما احتلال جلال أباد فهو حيلة الجنرال الضعيف.» ولكن يمكن القول أيضًا بأنه لو كان الجنرال سيل ورجاله يعلمون ما يخبئه القدر لحامية كابول لاجتازوا الممرات عدوًا إليها دون لحظة تردد، لكنهم في خضم المعركة كانوا يظنون أن الخطر الذي يتهددهم أقوى بكثير من ذلك الذي يتهدد القوات التي تدافع عن مخزن المؤن، وحين علمت ليدي سيل بالأوامر التي صدرت إلى زوجها لم تكن واثقة من أنه قادر على تنفيذها، فقد كتبت تقول في مذكراتها:

«إنه لن يكون قادرًا على تنفيذ هذه الأوامر إلا إذا تأكد من أن متاعه وجنوده المرضى والمصابين في أمان تام، وكذلك لن يستطيع العودة إلى كابول إلا إذا استطاع أن يضمن سلامة من هم تحت إمرته، ولو أنه انصاع لهذا الأمر وسار كل شيء على ما يرام، فسوف يقولون عندها إنه رجل ممتاز، ولكن إذا ما حدث العكس فسوف يقولون له: كان عليك ألا تأتي إلا إذا تأكدت من مدى أمن هذه الخطوة.»

لكن المعسكر كان قد تلقى بالفعل بعض قوات الدعم التي كانت قريبة منه، وفي التاسع من نوفمبر/تشرين الثاني صدرت الأوامر لشلتون وقواته بمغادرة بالاهيسار. وكان الأمل معقود على هذا الرجل المقاتل شديد الصرامة كي يقوي من عزيمة الحامية، سواء من خلال قراراته أو من خلال شجاعته في القتال، ولكن ما فعله كان مخيبًا للآمال. ففي الاجتماعات التي كان الجنرال إلفنستون يعقدها كان شلتون يحضر معه بطانية كي يغفو على الأرض، غافلًا عما يدور حوله من نقاشات محتدمة، مما دعا إلفنستون لأن يقول: «يبدو أنه يكن لي ضغينة ما.» وفي مجالس الحرب هذه كان يسمح للضباط، حتى صغار الرتب منهم، بإبداء آرائهم، وحسبما تقول ليدي سيل كان إلفنستون — لأنه لم يكن رجلًا ذا رأي — يجنح إلى رأي آخر المتحدثين.

كانت المرة الوحيدة التي تمسك فيها شلتون برأيه بصلابة، أثناء المناقشة الحامية التي دارت بعد ذلك وغطت على الكارثة (بعد قرار سيل بعدم العودة إلى

كابول) حول إذا ما كان من المفروض أن تتحرك القوات صوب حصن بالاهيسار الضخم وتستقر فيه حتى انقضاء فصل الشتاء. لكن شلتون — الذي كان قد أمضى أسبوعًا قبل ذلك في القلعة — عارض هذه الفكرة بقوة، وتمكن من خلال رتبته الأعلى وقوة شخصيته من وأد جميع الخطط التي كانت تستهدف تحقيقها، فقد كانت رغبة شلتون الخاصة هي العودة إلى الهند والتخلي عن أفغانستان بسرعة وإلى الأبد. ولم تكن تلك الرغبة مقصورة على قادة الجيش فحسب، ففي الواقع كما كتب إير: «أثبتت مشاعر القنوط واليأس هذه أنها للأسف معدية جدًّا، فقد كان عدد المتشائمين في الجيش يتزايد بسرعة مفزعة.» والجدير بالاهتمام أيضًا أن ماكناتون كان يكره فكرة البقاء في بالاهيسار ربما لمجرد عدم شعوره بالارتياح، لا لأية أسباب تتعلق بالصالح العام، وكان المندوب السامي يعتقد أن المعسكر سوف يتمكن من الصمود خلال فترة الشتاء، حيث كان الماء والخشب متوافرين، بالإضافة إلى أنه كان هناك اتساع في مجال العمليات العسكرية، كما أنه في الإمكان شراء الطعام للمخزن من الأفغان المتعاطفين معهم، وأن استمرار البقاء هناك لن يتطلب استسلامًا مشروطًا.

وفي اليوم التالي تجمع الآلاف من الفرسان الأفغان على المرتفعات جانبي المخزن. ثم اندفعوا إلى أسفل من الشرق ليحتلوا قلعة مسورة اسمها قلعة ريكا باشي بحيث تكون قوات ماكناتون في نطاق بنادقهم، ثم فتحوا عليهم نيران مدفعيتهم. وعند الظهيرة كان البريطانيون قد جمعوا قواتهم لاستعادة القلعة، فاندفعت قوة مهاجمة بقيادة الكابتن بيلو Bellow لتفجير البوابة، ولكنها أخطأت الهدف وبدلًا منه فجرت فقط ثغرة ضيقة في إحدى النوافذ تخفي وراءها بابًا صغيرًا لا يسمح إلا بمرور رجلين فقط مما يمكن المدافعين من اصطيادهم بسهولة. وفي تلك اللحظة اندفعت قوة أخرى من الفرسان الأفغان من الجبال مجتاحة الفرقة الرابعة والأربعين التي كانت قد بدأت تتهاوى. وكانت ليدي سيل تراقب المشهد مستترة خلف مدخنة منزلها. ورغم أنه كانت لديها شكوك حول قدرات العميد إلا أنها قالت: «هنا أثبت شلتون أنه شخص ممتاز يعتمد عليه، فبكل هدوء وشجاعة تمكن من لم شتات الجنود لينقذ من كان بالداخل وحين عاد أولئك الجنود مرة أخرى حاربوا مثل الأسود.»

وفي قلعة ريكا باشي، نجح كولونيل ماكريل Mackrell والملازم بيرد Bird ومجموعة أخرى قليلة في التسلل من الثغرة، بينما كان المدافعون على البوابة

في الجانب الآخر، لكنه في تلك اللحظة اندفع الفرسان الأفغان حول ركن من أركان القلعة مما أثار الفزع في القوة المهاجمة، وقد حاولت المجموعة الصغيرة البريطانية الموجودة بالداخل أن تغلق البوابة، إلا أن الأفغان عادوا وشقوا طريقهم خلالها وخلال الثغرة الموجودة. ولم ينج من هذه المعركة سوى بيرد وفرد واحد من الجنود الهنود. وكانوا قد حصنوا أنفسهم في إسطبل للخيل تناثرت حوله جثث حوالي ثلاثين أفغانيًّا. كما وجد ماكريل مطعونًا عدة طعنات بالسيف وكانت آخر كلماته «هذه ليست معركة، وإنما هي جريمة قتل.» وكان تعليق ليدي سيل وهي تراه يلفظ أنفاسه الأخيرة: «كان من الأفضل له أن يقتل بالرصاص.»

قاد شلتون المجموعة التي استعادت القلعة إلى مذبحة قُتل فيها نحو مائة وخمسين رجلًا من جانب واحد. وفي لحظة ما أجبر المجندون الهنود التابعون لفرقة المشاة السابعة والثلاثين الوطنيين الأفغان على ترك القلعة لتتلقفهم حراب البريطانيين التابعين لفرقة المشاة الرابعة والأربعين على الجانب الآخر. ثم تحركت القوة الرئيسية إلى جبل سياه سونج القريب حيث كانت مدفعية «إير» مستمرة في ضرب الأفغان إلى أن غربت الشمس.

وفي اليوم الثالث عشر وضع الأفغان مدفعين — أحدهما من عيار أربعة أرطال والآخر من عيار ستة أرطال — على تل بايمارو غربًا ومنه بدأ إطلاق النيران بدقة على المعسكر، في حين حاولت قوة أخرى كبيرة من البريطانيين الخروج منه ولكنها سرعان ما تعرضت لهجوم سرية من الفرسان الأفغان نزلت من التل. وكتبت ليدي سيل من موقع المراقبة المثالي أعلى السطح: «كانت الفوضى عارمة — وأحسست أن قلبي يكاد يثب من بين ضلوعي حين شاهدت الأفغان وهم يخترقون قواتنا — كانت بداية هجوم مفزعة.» غير أن كتائب الفرسان البريطانيين شنت هجومًا مضادًا وتمكنت من التغلب عليهم. انطلقت مدافع إير تمسح السهول، فاندفع المشاة البريطانيون للاستيلاء على مدافع الأفغان، واستطاعوا أن يستولوا على المدفع الصغير ويحضروه إلى المعسكر في حين قاموا بتعطيل المدفع الكبير.

أما الخطأ الوحيد الذي ارتكبه شلتون فقد كان انتظاره حلول الظلام كي يعود بقواته، فحين طارد الأفغان الجيش البريطاني عجزت حامية المعسكر عن تغطية انسحاب القوات فلم تستطع تمييز جنوده عن جنود العدو وسط

هذه الظلمة الحالكة. وحال الفرسان الأفغان بين القوات البريطانية الموجودة في السهول وبين أسوار المعسكر. ثم جاء هجوم آخر من قوة مؤلفة من أربعمائة أفغاني أتوا من الشمال الشرقي، واضطر رجال شلتون إلى العودة إلى المعسكر وسط «وهج النيران التي كانت تضيء منطقة خطوط الاستحكامات بأكملها» واستمر إطلاق النيران طوال الليل.

وبالرغم من ذلك أثبتت حامية كابول للمرة الثانية على التوالي أنها قادرة على الانتصار على الأعداء في الجبهات المفتوحة. وفي ذلك الوقت لم يكن أحد يدري أن نصر هذا اليوم سوف يكون الأخير، فقد أعقبه — كما ذكر إير — «سلسلة من الأخطاء والكوارث والصعوبات التي توالت الواحدة وراء الأخرى، فأثارت استياء الضباط، وثبطت عزيمة الجنود، وانتهت أخيرًا إلى فشل ودمار كامل، وكأن السماء نفسها، لأسباب غير مفهومة، هيأت الظروف التي جعلتنا نفشل.»

وفي الرابع عشر من نوفمبر/تشرين الثاني، وهو نفس اليوم الذي وصل فيه الجنرال سيل إلى بر الأمان في جلال أباد؛ تلقى نوت أوامر بإرسال تعزيزات إلى كابول، وكان قد استدعى فرقة أخرى وهي في طريقها عائدة إلى الهند بعد أن قتل مائة رجل من قواته في قندهار على يد متمردين اشتبكوا معه قرب غزنة. واضطر نوت إلى إرسال فرقة إلى كابول وودع قائدها وضباطها قائلًا في اكتئاب: «في رأيي الشخصي إنني أرسلكم إلى الهلاك.»

وفي الخامس عشر من نوفمبر/تشرين الثاني وصل رجلان جريحان بشدة إلى المعسكر بكابول وكان هذان الرجلان هما إلدريد بوتنجر والملازم ج. س. هوتون J. C. Haughton، وكانا الوحيدين اللذين بقيا على قيد الحياة من بين جميع جنود القاعدة العسكرية في شاريكار. وكانت فصيلة الجورخا قد تعرضت لمذبحة في كوهستان بعد حدوث خيانة من جانب بعض رجال المدفعية من المسلمين الملحقين بها في البنجاب، ولم يستطع أولئك الجورخا الهروب بعائلاتهم سيرًا على الأقدام حيث كانت خيالة الأفغان تطوقهم، وقد طارد بوتنجر في اليوم التالي الآلاف من قبائل الكوهستان الذين أصبحوا قادرين الآن على المساهمة في إبادة الفرنجة في كابول.

وفي اليوم التالي تلقت ليدي سيل ما يفيد بأن زوجها لن يأتي لنجدتها كما كانت تتوقع، فكتبت في مذكراتها تقول:

«ورد تقرير من بالاهيسار يفيد بأن الجنرال سيل توجه إلى جلال أباد، وقد أخبرني العميد شلتون بأن الجنرال سيل كان يعتقد المبدأ القائل «إذا كنت آمنًا بعيدًا عن أي مأزق، فاحرص على أن تظل كذلك.» ويعتقد الكثيرون أن هذا التقرير خدعة من الأعداء ليقتلوا الأمل لدينا في وصول أي نجدة، إلا أننا نشك في أن الجنرال سيل قد تلقى أمرًا بالعودة من الأساس.»

بعد ذلك ساد الهدوء المعسكر لعدة أيام قليلة، مما أثار الشك في أن الأفغان كانوا يصنعون البارود والقذائف لمعاودة الهجوم. وكان احترام قوة الأفغان القتالية قد ترسخ في نفوس البريطانيين، ورأى إير أن فرق المشاة البريطانية يمكنها أن تتعلم درسًا من أعدائها في أساليب استخدام الأسلحة النارية، وفسر هذا قائلًا: «إنهم دائمًا ما يحددون هدفهم بثبات، ونادرًا ما يلقون بطلقاتهم في الهواء، أما رجالنا فمن الواضح أنهم يطلقون النيران بطريقة عشوائية وبدون هدف على الإطلاق.» وكان هذا حقيقيًّا ففي إحدى المواقع تقدم الفرسان الأفغان حتى أصبحوا على بعد اثنتي عشرة ياردة من خطوط البريطانيين، وبعد وابل من الرصاص الذي انهمر عليهم لم يصب أي من رجالهم أو خيولهم. وقد لاحظ الكثيرون من المراقبين أن هناك مشاة أفغان يظهرون فجأة في ميدان المعركة، واكتشفوا بعد ذلك أن الفرسان الأفغان كانوا يردفون هؤلاء الجنود وراءهم على الخيل، ليدعوهم يترجلوا في اللحظة المناسبة. وتكتب ليدي سيل في هذا الصدد قائلة:

«دائمًا ما أسمعهم يصفون الأفغان بالجبن، في حين أنهم في الواقع رجال أشداء لا يهابون شيئًا، وأعتقد أن هذه الفكرة الشائعة عنهم نابعة من اعتقاد البريطانيين والشعوب المتحضرة بأن القتل عملية تتصف بالجبن، ولأن الأفغان لا يترددون على الاطلاق في استخدام سكاكينهم الطويلة فهم في اعتقادهم جبناء، لكنهم لا يجبنون أبدًا في مواجهة المدافع دون أن يستخدموا هم أية مدافع، وهم يتسلقون

التلال ليستولوا على قلاع لا نستطيع نحن الاستيلاء عليها. إن أفغان العاصمة أكثر تحضرًا. أما رجال الريف وأتباعهم فهم ينتمون إلى ذات النوع الذي سبق أن قابلهم الإسكندر الأكبر.»

استمر الجدل حول إخلاء المعسكر والانتقال إلى قلعة بالاهيسار. يقول إير: «لو كنا في تلك المرحلة قد انتقلنا إلى بالاهيسار لظلت كابول في قبضتنا.» أما ماكناتون فقد رأى أنه من الأصوب البقاء في المعسكر، في حين كان إلفنستون مترددًا، أما شلتون فقد كان مصممًا على رأيه هادفًا من ورائه لأن يكون الجلاء عن البلاد بأسرها هو الخيار الوحيد أمام البريطانيين.

كان من الواضح أنه لا يوجد حل حاسم لهذا المأزق في ضوء الآراء المتناقضة المثارة حوله، إلا أن الجميع اتفقوا على أن أي زحف نحو بالاهيسار سوف يفقدهم الكثير من الأرواح والممتلكات. ومع استعادة الأحداث كان من الواضح أن الأمر كان يستحق أن يبذل في سبيله كل غال ونفيس فيما عدا أن يباد الجيش بأكمله. فبالرغم من أن المسافة المطلوب قطعها كانت أقل من ميلين فإن الجيش الأفغاني كان سوف يتدخل مما يثير احتمال محاصرة القوة بأكملها وذبحها في السهول. وحتى في حالة نجاحهم فإن قلعة شاه شوجا كانت ستتحول إلى سجن يحاصَر البريطانيون خلف أسواره. والجيش الذي كان قويًّا يومًا ما في دعمه لشوجا، سوف يبحث عن الملاذ في قصره، وكان أتباع الملك المتمردون سوف يصبحون سجانين لهم. كانت كل هذه الاحتمالات المهينة أكبر مما يتحمل ماكناتون أو مما يريد أن يتحمل، لذلك كتب إلى إلفنستون في اليوم الثامن عشر وهو يخبره في لهجة مريرة عن الخيارات المتاحة أمامهم:

«إن التقهقر إلى جلال أباد سوف يكون كارثة يجب أن نتجنبها بأي حال، إلا لو كانت هي الحل الأخير ... وأنا أخشى أننا بهذا التراجع سوف لا يتبقى من أتباعنا في المعسكر سوى عدد قليل على قيد الحياة. لقد فكرت كثيرًا في المفاوضات والتي سوف تعني الاستسلام في واقع الأمر ولكن في هذه الظروف غير المستقرة لا يوجد أي مسئول له وزنه في هذه المدينة يستطيع أن يحمينا ... أما الخيار الآخر أمامنا فهو أن ننسحب إلى بالاهيسار، ولكنني أخشى أن يشكل

هذا أيضًا كارثة، فمن المحتمل أننا لن ننجح في إحضار مدافعنا الثقيلة، وفي هذه الحالة سوف يستخدمها الأعداء في مهاجمة القلعة بفاعلية. ولأنه لن يكون لدينا أي طعام أو خشب للطهي، فسوف يتعين علينا للحصول على هذه الضروريات أن نخرج إلى المدينة. ولو هوجمنا فسوف ينتهي أمرنا بطبيعة الحال.

وبصفة عامة أعتقد أنه من الأصوب أن نصمد حيث نحن الآن إلى أطول وقت ممكن، على أمل أن يحدث شيء ما لصالحنا ... ولو تمكنا من جلب مؤن كافية لفترة الشتاء فلن أغادر المعسكر بأي حال من الأحوال.»

بعد ضياع مخزن المؤن خفض أفراد المعسكر — الذي كان يضم ستة عشر ألف شخص — ما يحتاجونه من المؤن إلى النصف، وكانوا يعيشون يومًا بيوم على الطعام الذي يبتاعونه من الأفغان الأصدقاء أو من التجار، خاصة الذين ينتمون إلى قرية بايمارو التي تبعد نصف ميل باتجاه الشمال الغربي. إلا أنه في الثاني والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني قام جنود كتيبة الرماة باحتلال القرية، في حين أقام عدد آخر من القبائل تحصينات على المرتفعات القريبة، فشنت فرق المشاة البريطانية المحاصرة هجومًا لم يتعد تبادل بضع طلقات رصاص مع الأفغان في القرية قبل تراجعهم، ومع ذلك تقرر القيام بعملية عسكرية في اليوم التالي. ولكن — دون علم البريطانيين — حدثت واقعة مهمة في مساء ذلك اليوم، فقد وصل أكبر خان ابن دوست محمد إلى كابول على رأس قوة تضم ستة آلاف فارس.

في الصباح الباكر خرج من المعسكر سبع عشرة فرقة من المشاة البريطانيين والمجندين الهنود ومعهم فرقة من الخيالة وخبراء الألغام ومدفع واحد، ودفعوا بقوة مهاجمة إلى القرية إلا أن نيران الجيزيل أعجزتها عن الحركة، وكرد فعل لهذه المحاولة تدفق آلاف من المقاتلين الأفغان من كابول حيث وصل عددهم على المرتفعات المحيطة بها إلى عشرة آلاف مقاتل تقريبًا. وبدأت المدافع البريطانية تطلق النار على حشد الأعداء، وحين زادت حدة المعركة بدأ الأفغان يتدفقون عبر المنحدرات. وقسّم شلتون رجاله إلى مربعين لمقاومة الفرسان. وفي المقابل أطلق الأفغان النار ببساطة على صفوف الجند مستخدمين بنادقهم

طويلة المدى، ثم تجمع بضعة آلاف من الخيالة الأفغان في الساحة إلا أنهم أحجموا عن المشاركة حين رأوا الرماة يؤدون المهمة بنجاح.

لم يتمكن البريطانيون — بسبب عدم استواء الأرض وتموجها — من رؤية قوات الأفغان وهي تتقدم نحوهم من خلال أحد الممرات الضيقة على يمينهم مع أن هذا الهجوم المتسلل كان يرى بوضوح من المعسكر من خلال المناظير المقربة. وفجأة ظهر الأفغان على قمة التلال في مفاجأة للجنود الذين تملكهم الذعر ففروا هاربين، إلا بعض الضباط الذين حاولوا الصمود والمقاومة بإلقاء الحجارة على الأعداء. وحين شعر رجال القبائل الأفغانية بانتصار مقاتليهم المؤمنين، اندفعوا ككتلة واحدة من المنحدر المقابل متغلبين على المدفعية البريطانية. وتقول ليدي سيل التي كانت تراقب المعركة من مكانها المعتاد خلف المدخنة: «اندفع الأعداء إلى الأمام، وأجبروا رجالنا على التراجع كقطيع من الأغنام يفر مذعورًا أمام ذئب يطارده.» وثار شلتون على رجاله بعنف، لكنه حين انهار المربع الأول الذي كان قد شكله على المربع الثاني تمكن من إيقاف التقهقر، ثم قامت فرقة من سلاح الفرسان الإنجليزي تسمى آندرسونز هورس Anderson's Horse بهجوم مضاد على الغزاة وتبعهم المشاة البريطانيون مع وجود رماة الحراب فوق التل.

وفي ذلك الوقت أصيب عبد الله خان — أحد قادة المتمردين — إصابة قاتلة تسببت في وقوع اضطراب بين صفوف الأفغان وهم يتراجعون حاملين جسده معهم. واستعاد البريطانيون سيطرتهم على التل والمدفع، حيث كان أحد ضباط المدفعية قد اختبأ بين عجلاته طوال الوقت. وكان يبدو أن شلتون قد انتصر، إلا أنه بعد استيلاء البريطانيين على التل لم يتمكن الجيش من التقدم أو التراجع إلى المعسكر. وطيلة اليوم انحصرت المعركة في مكان واحد وتفوقت بنادق الجيزيل في الهدف والمدى على البنادق العادية، وسقط الرجال صرعى تحت وابل من النيران القاتلة، في حين كان الباقون على قيد الحياة يحاولون أن يبتلعوا رعبهم. ثم فجأة تدفقت مجموعة جديدة من الأفغان بعد أن تسلقت حائط أحد الممرات الضيقة واندفعت خلال صفوف الجيش البريطاني وفي هذه المرة انهار الجيش بأكمله وهو يفر إلى المعسكر، وطاردتهم القوات الأفغانية عبر الأراضي الممتدة.

لم يكن في الإمكان إطلاق الرصاص من أسوار المعسكر فقد اختلط الجيشان وهم يطئون بعضهم بعضًا وسط جموع المقاتلين. وكان يمكن للمعسكر أن يسقط في يد الأعداء في هجمة واحدة، لولا أن أحد القادة الأفغان الذين كانوا على رأس المطاردين — ويدعى عثمان خان — أمر رجاله بالتراجع، وقد أكد بعض الضباط البريطانيين وجود مشاعر رحمة عند الأفغان دفعتهم إلى التوقف عن القتال، حيث قال أحدهم إن أحد الزعماء ظل يدور حوله ثلاث مرات أثناء محاولة التقهقر ملوحًا فقط بسيفه على رأسه. ويقول الكابتن تريفور Trevor أيضًا إن المقاتلين الأفغان تمكنوا منه عدة مرات ولكنهم أطلقوا سراحه ولم يحاولوا قتله. ومع أن المعسكر ظل محصنًا دون أن يقترب منه أحد فإن ما حاق بالجيش كان بلا شك دمارًا تامًّا. يقول إير: «لقد حدد ذاك اليوم مصير الجيش البريطاني في كابول إلى الأبد.»

وفي اليوم التالي أرسل زعماء الأفغان إلى ماكناتون يعرضون عليه التفاوض من أجل التسليم، وقام المندوب السامي بدوره باستشارة إلفنستون، وكان رد الجنرال حاسمًا:

> «اسمح لي أن أقول إننا بعد صمود دام ثلاثة أسابيع في ظل حصار ونقص في المؤن والمواد الغذائية، وفي ظل تدهور حالة الجيش وكثرة عدد الجرحى والقتلى وصعوبة الدفاع عن المعسكر الذي نشغله بسبب مساحته وسوء موقعه، ومع اقتراب فصل الشتاء وانقطاع اتصالاتنا مع العالم وانعدام أي أمل في النجدة، وثورة البلاد كلها ضدنا فإنه لا جدوى على الإطلاق من استمرار بقائنا هنا في هذه البلاد. ولذلك يجب أن ننتهز فرصة هذا العرض ونتفاوض معهم.»

وافق ماكناتون وكان عرض الأفغان المبدئي هو أن يسلم البريطانيون كل أسلحتهم وممتلكاتهم ويعتبرون أنفسهم أسرى. وكان رد المندوب السامي أنه يفضل الموت على الرضوخ لهذه المهانة، لكن خلال الأسابيع التي تلت هذا العرض تبادل الطرفان العروض التفاوضية، وكان ماكناتون في تلك الفترة يعيد تقييم التسلسل الهرمي للسلطة في أفغانستان في بحث يائس عن حلفاء. وفي ذلك الوقت كان أحد أقرباء دوست محمد واسمه نواب زيمان شاه قد أعلن

أنه بديل للملك، وكان هو وابن شقيقه عثمان خان منحازين إلى البريطانيين، وكذلك كان القزلباش أيضًا — وهم من الجنود المرتزقة الفرس الذين كانوا يحتلون ربع كابول. أما أبرز المفاوضين فقد كان أكبر خان الذي كان أقرب أبناء دوست محمد إليه.

لم يكن طريق أكبر مفتوحًا أمام زعامته للأفغان، ولأنه كان أحد أمراء الباروكزاي (الدورانيين) فلم يكن يدين بالولاء للجلزاي. ومع أن الدوست — والد أكبر — كانت شخصيته أكثر تأثيرًا من شاه شوجا فإن الكثير من زعماء القبائل كانوا يتذكرونه كشخص شديد الخطورة. ولأن هذه الثورة التي اندلعت اتخذت شكل حرب وطنية فقد أثمر ذلك عن ذوبان مشاعر العداء القديم بين القبائل، بالإضافة إلى هذا الاتجاه الجديد إلى «الجهاد» أو الحرب المقدسة التي كان يمثلها آلاف المتطرفين ممن يسمون أنفسهم «الغزاة» والذين كان حماسهم موجهًا نحو القضاء على الكفار بغض النظر عن هوية الجالس على العرش في بالاهيسار. ومع أنه لم يتمكن أحد من الزعماء من السيطرة عليهم فإنه في نفس الوقت كان من الصعب الوصول إلى الزعامة بدون دعمهم. وفي ضوء ذلك كان التحدى الذي يواجهه أكبر خان ذو الخمسة والعشرين ربيعًا هو أن يتحمل المسئولية أمام البريطانيين — الذين كانوا كالأسرى في أفغانستان — في نفس الوقت الذي يحاول فيه أن يدعم علاقاته مع المقاتلين المتدينين الذين كانوا يستهدفون القضاء عليهم.

في الخامس من ديسمبر/كانون الأول دمر الأفغان الجسر الواقع على نهر كابول الذي يجري بمحاذاة المعسكر؛ ليمنعوا بذلك أية محاولة بريطانية للوصول إلى بالاهيسار. وفي اليوم التالي فرت قوات مشتركة من الفرقة الرابعة والأربعين البريطانية والفرقة السابعة والثلاثين الهندية من قلعة محمد شريف — الواقعة خارج المعسكر بحوالي مائتي ياردة بجوار مخزن المؤن السابق — وهم في حالة هلع شديد، وتبين أن السبب في ذلك هو أن بعض الأفغان تسلقوا السلالم ولم يفعلوا أكثر من النظر خلال النوافذ، وتقول ليدي سيل عن هذه الواقعة: «لقد كان هذا الهروب مدعاة للخزي.»

ومن المثير للشفقة أن أمل ماكناتون الكبير كان ما زال يتركز في زحف قوات «نوت» من الجنوب رافعة رايتها، وبذلك يتمكن البريطانيون من القيام بعمليات عسكرية جادة وهم يدافعون عن معسكرهم. ولم يعرف ماكناتون

إلا في شهر ديسمبر/كانون الأول أن قوة التعزيز من قندهار قد عادت إليها منذ عدة أسابيع بعد أن تعرضت لعاصفة ثلجية في الممرات.

وفي الحادي عشر من ديسمبر/كانون الأول وضع ماكناتون شروط معاهدة باللغة الفارسية، واجتمع هو وثلاثة من ضباطه المقربين بزعماء القبائل في موقع بعيد عن المعسكر، وأقر في مقدمة المعاهدة أن شاه شوجا غير مرحب به، «في حين أن الحكومة البريطانية لم يكن لها أي هدف من إرسال قوات إلى هذه البلاد سوى تحقيق الكرامة والسعادة وصالح الأفغان»، ومن خلال ثمانية عشر بندًا عرض خطة مغادرة البريطانيين البلاد ومعهم حاميتي غزنة وقندهار وأيضًا خدمهم، وأضاف في البند الرابع عشر، بشيء من الخبث، أنه بالرغم من الأحداث الأخيرة في أفغانستان «فإن الصداقة سوف تظل تربط ما بين هذه البلاد والإنجليز، إلى الدرجة التي تحول بين الأفغان وبين عقد أي تحالف مع أي قوى خارجية، إلا بموافقة الإنجليز الذين يفترض فيهم أن يلجئوا إليهم طلبًا للمساعدة في وقت الشدة.»

وافق الزعماء، وبعد ذلك بيومين غادرت آخر القوات الموجودة مع شاه شوجا بالاهيسار وتوجهت إلى المعسكر. وكان أكبر خان قد وعد بمرافقتهم أثناء سيرهم بين الآلاف من المقاتلين الأفغان والجلزانيين، لكنه وجد صعوبة في هذا، فقد اضطر هو ورجاله إلى أن يخوضوا وسط الجماهير الغاضبة وسيوفهم مشهرة لتتمكن القوات من اختراق الجمع.

ظلت بنود الاتفاقية تنتقل بين الزعماء وماكناتون جيئة وذهابًا في الوقت الذي كان ماكناتون لا يزال يبحث عن نقطة ضعف في وحدة الأفغان. وقد لعب أكبر خان دورًا بارزًا في هذه المفاوضات بل إنه طلب في وقت ما أن يترك البريطانيون كل النساء والأطفال ليحتفظ بهم كأسرى. ولكن هذا الطلب قوبل بالرفض التام، فالضباط سوف يؤدون واجبهم على أكمل وجه، ولكنهم أبدًا لن يسلموا عائلاتهم. إلا أنه في الثاني والعشرين من ديسمبر/كانون الأول بدا لماكناتون أن دسائسه قد بدأت تؤتي أكلها، فقد عرض عليه أكبر خان سرًا عرضًا جديدًا: أن يظل شاه شوجا في مكانه وأن يعين أكبر خان وزيرًا له في حين يبقى البريطانيون في البلاد حتى الربيع. بحيث يبدو رحيلهم وقتها كأنه بإرادتهم، بالإضافة إلى أنه إذا تمكن ماكناتون من تنظيم القوات فسوف يسلمه أكبر أمان الله خان خصمهم اللدود.

وأخيرًا وجد ماكناتون الفرصة لإنقاذ كل ما كان يعمل من أجله، وكان قد أهدى أكبر خان قبل ذلك مركبته الفاخرة وخيله. ثم عاد فأرسل له أيضًا مسدسين كان قد أبدى إعجابه بهما من قبل. وبمناسبة اللقاء الذي اتُفق على عقده في اليوم التالي، قام ماكناتون بشراء هدية إضافية له وهي فرس أبيض كان أكبر شاه قد أعجب به أيضًا من قبل.

وفي صبيحة الثالث والعشرين من ديسمبر/كانون الأول استدعى ماكناتون كلًا من كولين ماكنزي Colin Mackenzie وجورج لورنس George Lawrence وروبرت تريفور Robert Trevor إلى منزله؛ ليطلعهم على ما سوف يدور في الاجتماع. أبدى ماكنزي اعتراضه، وحذر من أن هذا يعتبر مؤامرة ضد المندوب السامي، إلا أن ماكناتون سخر منه قائلًا: «مؤامرة! دع هذا لي ... وثق فيما أفعله.» وانتهت الترتيبات إلى أن إلفنستون سوف يحتفظ بالكتيبتين: الكتيبة السادسة، والكتيبة الرابعة والخمسين؛ كي يستخدمهما في تأدية أي مهام سريعة. وعند الظهر غادرت المجموعة المعسكر وشعر ماكناتون بالاستياء الشديد إذ رأى القوات غير جاهزة في نفس الوقت الذي لاحظ فيه أن مئات الأفغانيين قد بدأوا في التجمع خارج البوابات. وفي هذه اللحظة أشار أحد الضباط إلى احتمال وجود خيانة، وذكر لورنس أن ماكناتون عندما سمع هذا القول قال: «قد يكون في هذا الأمر مجازفة بالفعل، ولكن إذا ما نجحت الخطة فهي تستحق أي مجازفة ... وبصفة عامة فأنا على استعداد لأن أموت مئات المرات ولا أعيش مرة ثانية الأسابيع الستة الماضية.»

وصل الرجال الأربعة في حراسة مجموعة صغيرة من الفرسان إلى حيث كان أكبر خان ومعه بعض الزعماء قد افترشوا بطانية وضعوها على الأرض على جانب من التل بعيدًا عن الثلج المتساقط، وجلس ماكناتون في مواجهة أكبر خان في حين ترجل الثلاثة الآخرون وجلسوا قريبًا منهم، وجثا لورنس على ركبة واحدة وقد ساوره شعور بالقلق وإحساس بنذر شر. وحين اعترض البريطانيون على وجود عدد من المقاتلين الأفغان أثناء اللقاء حيث كان من المفروض أن يكون الاجتماع سريًا، كان رد أكبر خان أنهم جميعًا «مشاركون في السر». ثم سأله الأمير إذا كان على استعداد لتنفيذ الخطة التي اتُفق عليها في الليلة السابقة، وكان رد ماكناتون «ولم لا؟» وفجأة أمسك بعض

الأفغان بالضباط الثلاثة، في حين صرخ أكبر «بيجير! ... بيجير! أي (أمسكوا به ... أمسكوا به) ثم شاهد ماكنزي أكبر خان وهو يمسك بماكناتون «وعلى وجهه يرتسم تعبير شيطاني»، وكان آخر ما رآه هو أكبر خان وهو يجر ماكناتون على منحدر التل ومعه زعيم آخر «محني الظهر» ثم بدأت الطلقات النارية تسمع بعد ذلك.

العجيب أن من أمسك بمعاوني المندوب السامي كانوا من الزعماء الأصدقاء الذين طلبوا منهم أن يمتطوا الجياد وراءهم. ويصف لورنس المشهد قائلًا: «حين رأيتني عاجزًا عن فعل أي شيء تركت نفسي لمحمد شاه خان ... وتقدمنا في السير يحرسنا بعض الرجال المسلحين الذين ظلوا يدفعون جماهير الأفغان الذين كانوا يهاجموننا من جميع الجهات بعيدًا وهم يصرخون مطالبين بتسليمي إليهم ليذبحوني ... وفي أثناء ذلك كانوا يخزونني بالسيوف والخناجر ... ويضربون ضلوعي برءوس بنادقهم. فقد كانوا خائفين من إطلاق الرصاص مغبة أن يصيبوا زعيمهم.» وتعرض ماكنزي أيضًا لهذا الاعتداء من جميع الجهات ولكنه أحس بأن مهاجميه كانوا بدورهم خائفين من إطلاق النيران خشية إصابة قائدهم. أما عن تريفور فقد كانت نهايته مأساوية إذ تعثر أو لعل أحدًا جذبه من فوق فرسه وقتله.

أما بالنسبة لماكناتون فكما ذكرنا سابقًا، وجد جسده في سوق كابول، أما رأسه وأطرافه فقد طاف بها الأفغان شوارع المدينة. وحينما كان لورنس وماكنزي تحت الحراسة كان الأفغان يسخرون منهم وهم يلوحون في وجودهم بيد ماكناتون المقطوعة. ولم يشهد لحظات ماكناتون الأخيرة أي شخص يعتد بروايته، إلا أن الكلمات الأخيرة التي سمعها ماكنزي كانت «أزبراي خودة» وهي عبارة أفغانية تعني: (أستحلفكم بالله).

بعد جريمة القتل هذه نسب أكبر إلى نفسه فضل قتل ماكناتون، لكنه كان في نفس الوقت يبكي نادمًا على ما فعل. ومن المحتمل أن أكبر كان ينوي أن يكتفي بأسر ماكناتون إلا أنه حين قاوم بعنف، فقد الأمير أعصابه وأطلق عليه الرصاص من المسدس الذي كان قد أهداه له في اليوم السابق. بعد ذلك تكالب عليه «الغزاة» يطعنون جسده بالخناجر. أو ربما ظن أكبر أنه لن يستطيع أن يصد «الغزاة» عن ماكناتون رغم كل محاولاته الجادة، فأطلق مسدسه ليشارك في قتله بدلًا من أن يبدو من المعارضين. وكان أمام الإنجليز

يظهر حزنه على مصرع المندوب، أما أمام «الغزاة» فقد كان يفخر بأنه الرجل الذي جرأ على قتل ماكناتون. وعلى كل حال كان أكبر قد أثبت أن المندوب كان مخادعًا في مفاوضاته، ولعل أكبر يكون قد أسدى معروفًا إلى ماكناتون بإعفائه من مشاهدة النهاية الكارثية التي ستأتي بعد ذلك والتي ستكلل كل الجهود التي بذلها سابقًا في هذا البلد.

بعد يومين كتبت ليدي سيل في مذكراتها: «عيد الكريسماس كئيب هذه السنة ووضعنا لا يبعث على التفاؤل.» وحدث أنه بينما كان الخدم يخلون المنزل، لاحظتْ أن صفحة كتاب من كتب زوج ابنتها مفتوحة على قصيدة من قصائد كامبل، فقرأتها وعلقت بعض أبياتها بذهنها وظلت تلح على ذهنها ليل نهار، وكانت هذه الأبيات هي:

قليل منا سوف يفترق ولسوف يلتقي الكثيرون
سوف يتكفنون في الثلوج
ويقبرون في العشب النامي تحت أرجلهم

بدأ تقهقر البريطانيين من كابول في السادس من يناير/كانون الثاني عام ١٨٤٢م تحت حراسة قوة تشكلت من فرقة المشاة الرابعة والأربعين وفرقة مهندسي الألغام، وسريتين من سلاح الفرسان وثلاثة مدافع. وفي المنتصف كانت توجد ثلاث سرايا أخرى، بالإضافة إلى فرقة آندرسونز هورس ومدفعين، وفي المؤخرة كانت المدافع الأربعة الباقية مع الفرقة الوطنية الرابعة والخمسين، والفرقة الخامسة من سلاح الفرسان. ومن بين الأربعة آلاف وخمسمائة فرقة كان هناك ما يزيد عن اثني عشر ألفًا من الهنود أتباع المعسكر وعائلاتهم، بالإضافة إلى ألفين من الخيل والجمال والماشية. كان إلدرد بوتنجر قد أصبح القائد السياسي، وكان قد أجرى مفاوضات — بناء على ضغط من زملائه الضباط — كي يتوفر للجيش طريقًا إلى جلال أباد دون أن يتعرض لهم أحد. وكان البريطانيون قد اضطروا إلى التنازل عن أكثر سلاحهم وكل أموالهم وإلى إصدار أوامر إلى حاميات غزنة وقندهار وجلال أباد بالانسحاب من البلاد. كانت الثلوج آخذة في الانهمار منذ الثامن عشر من ديسمبر/كانون الأول واضطرت القوة بأكملها لأن تستأنف مسيرتها وهي مجهدة وسط عواصف الشتاء شديدة القسوة.

الانسحاب البريطاني من
كابول إلى جلال أباد

إلى شاريكار
كابول
إلى غزنة
باجرام
خورد كابول
تانغي
تاريخي
ممر خور
كابول
ممر
هوفت
كوتول
نهر تيزين
تيزين
سيه بابا
جوجدولوك
ممر
جوجدولوك
سورقاب
جانداماك
فتح أباد
جلال أباد
إلى بيشاور
نهر كابول
نهر سورقاب

تلال بيمارو
المعسكر
نهر كابول
تلال
سياسونج
مدينة
كابول
بالا هيسار

مسار الانسحاب

وفي الساعات الأولى القليلة بدأت المهزلة تكشف عن وجهها. فقد تجمع الأفغان حول المعسكر الذي طالما كرهوه، وبدأوا عمليات السلب والنهب حتى قبل جلاء الإنجليز عنه. لفح لهب النيران ظهور آخر المتقهقرين وهو يغلفهم بشعور بالدفء سيكون الأخير من نوعه الذي يشعرون به بعد ذلك. أما الحامية الخلفية فقد هاجمها القناصون الأفغان الذين تجمعوا حول الاستحكامات في المعسكر وتركوا وراءهم مدفعين وخمسين من الرجال الجرحى ينزفون، ثم بدأ الخدم الهنود في الخلف يلقون بأمتعتهم ومؤنهم بعيدًا حتى يتمكنوا من الفرار. وتوقفت مقدمة الجيش في الساعة الرابعة بعد الظهر بعد مسيرة خمسة أميال فقط. أما مؤخرة الجيش فلم تصل إلى المعسكر حتى الساعة الثانية صباحًا بعد أن سارت مخترقة طريقًا امتلأ بالأمتعة التي تركتها القوات، فضلًا عن الهنود الذين جلسوا على الأرض في يأس «ليلقوا مصرعهم في الثلج». وحتى لو لم يتم اعتراض جنود الجيش فقد كان سيرهم مسافة تسعين ميلًا بدون طعام أو مأوى مخترقين جبال أفغانستان في عنف الشتاء سوف يقضي على غالبيتهم. ولذلك لم يبدُ غريبًا أنه في خلال الساعات الخمس الأولى فقط سقط الآلاف عاجزين عن الحركة، إما بسبب البرد القارس أو بسبب اليأس الذي انتابهم.

عسكر الجيش بغير نظام في الثلج حتى إن الجنود تجمدوا من البرد خلال الليل، وكان وهج المعسكر المحترق المخيف يلمع في الأفق، وعند الفجر دبت الحياة بصعوبة في أوصالهم بعد أن نالت قضمة الصقيع من أطراف الآلاف منهم. وكان كولين ماكنزي ومجموعته الوفية من الأفغان حاملي «الجيزيل» الوحيدين الذين قضوا الليل بدون متاعب، فقد تجمع المواطنون الأفغان في دائرة ناموا فيها وقد وضعوا أقدامهم في داخلها والتفوا بالأغطية من تحتهم وفوقهم. وعندما استيقظ ماكنزي كان تعليقه «أنه لم يشعر بتأثير البرد»، لكن فيما بعد تبين أن الفرقة السادسة من قوات شاه شوجا بأكملها قد هجرت المعسكر، وعجز كثير من الهنود على التجمع مفضلين النوم في البرد حتى الموت أو معاناة الفقر في كابول، بدلًا من تحمل هذه العواصف القارسة التي تصل درجة الحرارة فيها إلى ما تحت الصفر بكثير.

وفي اليوم التالي تقدمت القوات بعد أن عكست ترتيبها فأصبحت مؤخرة الجيش في المقدمة، ومع ذلك فقد كان التنظيم قد انهار تمامًا، فامتزجت

الماشية بالقوات العسكرية وبالمدنيين، مما استحال معه تحقيق أي تناسق في الصفوف. وكان الكثيرون من أتباع المعسكر قد اندفعوا إلى الأمام فور طلوع النهار تدفعهم رغبة في العودة إلى الهند، وشوهد الكثيرون من الهنود المجندين مع عائلاتهم بعد أن تركوا فرقهم وأسلحتهم.

في الصباح ظهرت فرق من الأفغان المشاة والخيالة وسارت بمحاذاة الجيش البريطاني فاعتقد الجميع في البداية أنهم الفرقة التي ستصاحبهم والتي كانوا قد وعدوا بها. إلا أنه بعد ذلك بدأت هذه المجموعات بالهجوم على مؤخرة الفرقة الرابعة والأربعين لكن القوات البريطانية تمكنت من صد هذا الهجوم بمدافعها الثلاث، وعاد الأفغان يهاجمون وسط الجيش مرة ثانية، ثم شقوا طريقهم وسط أجساد أتباع المعسكر يخضبون سيوفهم بدماء الرجال والنساء الذين لا حول لهم ولا قوة، وقاموا بسلب كل ما يقع تحت أيديهم وما يستطيعون حمله، ثم انصرفوا دون أن يلقوا مقاومة من أحد.

في غضون ذلك كانت مؤخرة الجيش تتعرض لهجوم شديد، وحين حاولت أن تحرك مدافعها وقع واحد من هذه المدافع على الأرض ثم دمر كلية تحت أقدام الأفغان المندفعين، فقام العميد أنكويتيل Anquetil مع الملازم جرين Green والمدفعية بهجوم مضاد بهدف استعادة المدافع، ولكن مرة أخرى «اضطر الجيش البريطاني إلى التخلي عنهم» كما قالت ليدي سيل، حيث إن الفرقة الرابعة والأربعين «فرت على عجل وتركت كل شيء». وحين زاد ضغط الأفغان على مؤخرة الجيش واصطفوا حول المرتفعات على اليمين خشي البريطانيون من أنه سيحدث عزل للمؤخرة عن بقية القوات، وفي البداية لم تتمكن مقدمة الجيش من الرجوع إلى الوراء بسبب الفوضى التي انتشرت في الوسط، إلا أن شلتون استطاع أخيرًا يصل إلى التلال ومعه فرقة من الجيش اشتبك بها مع الأفغان، مما أعطى الفرصة للفرقة الرابعة والأربعين وبقية مؤخرة الجيش للمرور.

في تلك اللحظة تلقى بوتنجر رسالة من نواب زيمان شاه يتوسل فيها إلى البريطانيين بأن يوقفوا مسيرتهم، إلى أن يتمكن زعماء القبائل من إمدادهم بالطعام وحطب الوقود وأيضًا بقوة كافية لحماية القوات من «الغزاة» ورجال القبائل المغيرة. ومع أن نواب شاه كان رجلًا وطنيًا، فإنه كان رجلًا خلوقًا وصديقًا للإنجليز، وبينما كان إلفنستون وضباطه يدرسون هذا الطلب شاهد

بوتنجر أكبر خان وهو يحوم بجوار الجيش ومعه ستمائة من الخيالة فبعث إليه الكابتن جيمس سكينر James Skinner — مساعد ماكناتون السابق — يستفسر عن سبب مهاجمته قواته. وكان الرد أن الخطأ خطأ البريطانيين لأنهم تركوا المعسكر قبل أن يتمكن من تجهيز الحرس الذي سوف يصاحبهم (رغم أن إخلاء المعسكر تم في الموعد المحدد له)، بل إن أكبر طلب ستة رهائن آخرين كي يضمن أن حامية كابول لن تتجاوز حدود بلدة «تيزين» حتى تجلو قوات الجنرال سيل عن جلال أباد.

وما بين رسالة زيمان وتأكيد أكبر أن قواته سترافق الجيش أقنع بوتنجر إلفنستون بأن يتوقف بقواته عند بوثاك رغم أن الوقت كان قد تجاوز الظهيرة بقليل ولم يكن الجيش قد قطع إلا خمسة أميال فقط في ذلك اليوم. أما شلتون الذي كان يريد الاستمرار في السير بكل ما يمكن من سرعة فقد ثار ثورة عارمة. وفي كابول كان الأفغان الأصدقاء قد أكدوا للبريطانيين ضرورة محاولة قطع مسافة خمسة عشر ميلًا على الأقل حتى يستطيعوا اجتياز ممر خورد كابول في اليوم الأول. ولكن بدلًا من ذلك لم يستطع البريطانيون سوى اجتياز عشرة أميال خلال يومين وكانوا في تلك اللحظة يعسكرون بجوار مدخل الممر حين بدأ عدد الأفغان يتزايد حول الجيش البريطاني.

يقول إير: «خيم الجيش في العراء، حشود مختلطة مرتبكة لا تخضع لأي نظام ... وأطبق عليهم الليل بكل ما يحمله من جوع وبرد وإرهاق وموت ... ومن بين أشكال الموت المختلفة كان أقساها وأشد تعذيبًا هو الصقيع الذي يقضم الأطراف، حتى تغرق الأرواح نفسها وتموت تحت وطأة أقصى معاناة يمكن لبشر أن يتحملها.»

وفي فجر اليوم الثالث الموافق ٨ يناير/كانون الثاني لم تكن الأوامر قد صدرت بعد، وكان الضباط يجدون صعوبة كبيرة حتى في مجرد إيقاظ رجالهم. تقول ليدي سيل: «كانت الفوضى مخيفة» وكانت القوات مبعثرة بغير نظام، وأفرادها يكادوا يتجمدون من البرد ولا يستطيع أحد منهم الإمساك ببندقية أو حتى التحرك من مكانه. والأسوأ من ذلك أن بعض الأفغان تجمعوا في الطريق إلى الممر مهددين بالهجوم، وفي ذلك الوقت كان المقاتلون الأفغان — رغم استمرار تتبعهم القوات — قد أفسحوا المجال لفرقة من الجلزانيين الشرقيين كي يأخذوا دورهم في تهديد الجيش البريطاني. وهذه القبائل هي التي كان

البريطانيون يحاولون اختراق أراضيها، ولهذا فقد كانت تكن مشاعر الازدراء لكلٍّ من الفرنجة والدورانيين على السواء. إلا أن الفرقة الرابعة والأربعين من سلاح المشاة شنت هجومًا بقيادة الرائد ويليام ثين William Thain على رجال القبائل بالحراب وأجبروهم على التفرق.

عاد أكبر خان للظهور مرة ثانية يعرض إقناع الجلزاي بالكف عن إطلاق النيران في مقابل تقديم مجموعة أخرى من الرهائن، وكان يقصد شلتون على وجه التحديد. إلا أن القائد رفض العرض، وبدلًا منه سلم لهم جورج لورنس، وكولين ماكنزي وإلدرد بوتنجر. وكانت قوات ماكنزي الوطنية قد قتل معظمها وفر الباقون، ولذلك أحس بأنه لا فائدة منه. وكان بوتنجر قد بدأ يتعافى من الجروح التي أصابته في شاريكار، وكتب بعد ذلك يقول إن إلفنستون قال له: «أعتقد أني سأكون هناك أكثر فائدة من بقائي في الجيش. ومع أن هذا الكلام لا يعتبر مجاملة لي أو شيئًا في صالحي إلا أنني أقرر حقيقة واقعية، فلن أستطيع أن أجلس على صهوة فرسي ولن أستطيع أن أتحرك دون مساعدة.»

وبينما كان الجيش ينتظر نتيجة هذه المناقشات وسط زمهرير البرد كانت ليدي سيل تحتسي شراب الشيري وتقول عن هذا: «لو كنت فعلت هذا في أي وقت آخر كنت سأسكر وأخرج عن طبيعتي كسيدة محترمة، إلا أنه في ظل تلك الظروف لم يزد تأثير الشراب عن بعث بعض الدفء في جسدي.» وقد لاحظت الليدي سيل أيضًا أن رجال المدفعية هاجموا مخازن البراندي التابعة للفرقة الرابعة والخمسين، ووصلوا إلى حالة متردية من السكر البيِّن. ولأنهم أحسوا بالاستياء الشديد من الأحداث التي جرت فقد صمموا على مقاتلة الجيش الأفغاني بأنفسهم، بل وامتطوا خيولهم وهم يلعنون الضباط الذين حاولوا إيقافهم. إلا أن الملازم ستيرت — زوج ابنة ليدي سيل — تمكن من تهدئتهم بأن قال لهم إنكم رجال ممتازون، ثم تمكن من إقناعهم بكبح جماح حماسهم.

بعد أن تسلم أكبر خان الرهائن، بدأت القوات في التقدم نحو ممر خورد كابول الذي يبلغ طوله خمسة أميال. وكانت أرض هذا الممر التي تلفها الظلال يقطعها جدول صغير متعرج المسار، مما كان يستدعى من المسافر أن يعبر ضفتيه المغطاتين بالجليد ثمانية وعشرين مرة قبل أن يستطيع الخروج

من الممر. وفي هذه اللحظة كان آلاف الجلزانيين في انتظارهم مرابطين على المرتفعات التي تحيط بهم.

حين بدأ البريطانيون في اجتياز الممر، سار رجال أكبر خان في مقدمة القوات في محاولة منهم لإبعاد الجلزانيين، إلا أن حركاتهم وصيحاتهم لم تجد نفعًا، ومع ذلك حاولت ليدي سيل أن تظل قريبة من زعماء القبائل في المقدمة، لكن الجلزانيين انتظروا حتى دخول الجيش بأكمله في الممر كي يكون الكمين محكمًا، ثم فتحوا نيران بنادقهم. وانهمرت الطلقات على الجموع المحتشدة من مهاجمين غير مرئيين، حيث كان كل حامل بندقية جيزيل يقتل بالسرعة التي يعيد بها تعبئة سلاحه. ومن ثم تعرضت مقدمة القوات للرصاص، فتلقت ليدي سيل رصاصة في رسغها، واخترقت ثلاث رصاصات أخرى معطفها، أما الفرس الذي كانت تمتطيه ابنتها فقد أصابته رصاصة في أذنه ورقبته.

لكن مع ذلك تمكنت الطليعة التي اجتازت الممر من الإسراع في مسيرتها، وفي الخلف تجمع الحشد الأكبر من أتباع المعسكر في رعب وهم يتراجعون إلى الوراء حين ينهمر الرصاص على المقدمة، ثم ينكفئون إلى الأمام حين ينهمر على المؤخرة. وساد الارتباك القوات ولم تستطع المجموعة القليلة الباقية من الجيش البريطاني أن تنظم صفوفها أو أن تتقدم أمام هذه التموجات. بعد ذلك حوّل الجلزانيون هجومهم إلى وسط الجيش الذي اكتظ بحشد كبير من الجنود والأمتعة.

تمكن القائد الشجاع الملازم ستيرت من إخلاء الممر، ولكنه لاحظ أن الحصان الذي كان يمتطيه الرائد ثين قد أصيب فعاد لنجدة صديقه فأصابته طلقة رصاص من بندقية جيزيل في معدته، ويصف إير المشهد فيقول:

> «كان الملازم ستيرت الشجاع قد أخلى الممر تقريبًا حين تلقى الرصاصة، وكان من الممكن أن يترك على الأرض ليمزقه «الغزاة» الذين طاردوه من الخلف حتى ينهوا المجزرة لولا بسالة الملازم مين Mein الذي وقف بجانبه لحظات رغم الخطر الذي يتهدد حياته وهو يحاول عبثًا أن يستجدي النجدة من المارين. وأخيرًا لحق به الرقيب دين من فرقة مهندسي الألغام وساعده في جر صديقه مستخدمًا الأغطية حتى نهاية الممر ... وبقيت أنفاس الضابط سيئ الحظ

تتردد حتى لفظ أنفاسه في اليوم التالي. وكان الرجل الوحيد من القوات جميعها الذي تلقى مراسم الدفن المسيحية.»

كانت الفرقتان الرابعة والأربعون والرابعة والخمسون من المشاة الوطنيين في مؤخرة الجيش وبخلاف تلقيهما لوابل من الرصاص من أعلى فقد واجهتا مجموعة من الأفغان كانوا يتتبعونهما من الخلف، وامتزجت هاتان الفرقتان بباقي الجيش لتستتر بينه لتبدأ الفرقة الرابعة والأربعون بعد ذلك في إطلاق النار عشوائيًّا ودون تمييز. ولم يستطع الجنود المحليون التابعون للفرقة الرابعة والخمسين أن يطلقوا النار في أي اتجاه، فقد تجمدت أصابعهم ولم يكن في ذهنهم أي خاطر سوى الفرار من مصيدة الموت. أما الأفغان الذين كانوا يهاجمون الآن وسط هذا الحشد المتعثر فقد اندفعوا تجاههم يجذبون بنادقهم في حين كانت قوات الفرقة الرابعة والأربعين تتمسك بالحقائب التي تحتوي على الذخيرة الحربية.

وفي مقدمة الممر اتخذ البريطانيون موقعًا — ومعهم المدفع المتبقي — يمكّنهم من إطلاق نيرانهم في الممر حتى يعطوا الفرصة لمؤخرة الجيش للهرب. وحين حل الظلام وبدأ الثلج يتساقط تجمعت القوة بأكملها في المعسكر في قرية خورد-كابول. وتركوا وراءهم في الممر حوالي ثلاثة آلاف قتيل منهم خمسمائة جندي وألفان وخمسمائة من المدنيين، رغم أن هذا المشهد المروع ربما خففه قليلًا بياض الثلج الذي انهمر بعد ذلك. كما فقدت القوات أيضًا بعض الأطفال البريطانيين الذين تاهوا عن أمهاتهم أثناء الاندفاع الأعمى وأَسَرَهم رجال القبائل الأفغان.

وفي يوم الأحد التاسع من يناير/كانون الثاني استيقظ الجيش الذي كان يسمى سابقًا جيش السند العظيم بعد أن كاد أن يفنى تمامًا. يقول إير: «كان الكثيرون من الأحياء البائسين يرمقون بنظرات الحسد أجساد زملائهم الأموات التي استلقت في سكون.» وحين بدأت بشائر النهار تحركت جموع المدنيين دون أية أوامر وتبعتها قوات الجيش. وربما كان الأمر الوحيد الذي صدر حسب قول ليدي سيل هو «هيا جميعًا ... سوف نتحرك ... فقد سبقتنا نصف القوات بعد أن تحرك أتباع المعسكر في المقدمة.» إلا أنه بعد مرور الموكب بميل طالبهم إلفنستون بالعودة ثانية حيث كان قد تلقى رسالة جديدة

من أكبر خان، فرجع الجيش كله عدا أتباع المعسكر. ولو كانت المسيرة قد استمرت يومًا واحدًا لكانت القوات قد بعدت عن خط الثلج واقربت من جلال أباد. ومرة ثانية ثار شلتون ثورة عنيفة إلا أن إلفنستون كان هو القائد الأعلى ومن ثم أمر الجيش بالبقاء في المعسكر طوال اليوم.

كان عرض أكبر خان يتضمن بالإضافة إلى وعوده المعتادة بإمدادهم بالطعام والحماية، اقتراحًا بأن تكون العائلات البريطانية جميعها تحت حمايته حتى تصل سالمة إلى بيشاور. وكان هذا الاقتراح قد طرح سابقًا في كابول لكنه لقي استياء كبيرًا من الضباط البريطانيين، لكنه في ذلك الوقت بدا فكرة جيدة. وقد أبدى إلفنستون رغبته في أن يبقى الرجال مع عائلاتهم، وبناء عليه توجه الرجال المتزوجون أيضًا إلى أكبر خان ليحتموا به. وذهبت ليدي سيل وليدي ماكناتون ومعهما حوالي ثلاثين امرأة وطفلًا إليه وبذلك تجنبوا مشاهدة نهاية مسيرة الجيش رغم أنهم كانوا أسرى في واقع الأمر.

وفي اليوم العاشر تحركت بقية القوة وأمامها حشد من أتباع المعسكر الذي أصبحت فرق المجندين الهنود جزءًا منه. ولم يكن الهنود قد استعدوا لهذا البرد، كما لم يكن لهم أي فائدة عسكرية. يقول عنهم كاي: «كانت أيديهم قد نالت منها قضمة الصقيع ولم يكن باستطاعتهم إمساك البنادق، وكانوا يجرون في يأس بلا هدف، لا يعرفون ماذا يفعلون ولا إلى أين يتجهون. أما الأفغان فقد ظلوا يراقبونهم وهم يتحينون الفرصة، ثم هبطوا بخناجرهم الطويلة وبدأوا يذبحونهم كالغنم دون أن يجدوا منهم أي مقاومة.» وكانت قوات الشاه قد انشقت عنهم وفرت، وإن كان بعضهم قد انضم إلى الجلزانيين.

وقعت كارثة هذا اليوم في ممر ضيق بجوار تونجي، حيث كان الأفغان في انتظار الجيش البريطاني، وما إن رأوه حتى أعملوا فيه التقتيل، وسرعان ما أغلقت جثث القتلى الممر. إلا أن مقدمة الجيش تمكنت من شق طريقها بعد قتال عنيف، وانتظرت وسط الجيش ومؤخرته ... ولكن لم يظهر سوى بضعة جنود متخبطين في سيرهم، فقد ذبح الباقون في الممر، واختفت تشكيلات القوات الوطنية ولم يتبق سوى مائتين وخمسين من رجال فرقة المشاة الرابعة والأربعين، وخمسين من رجال المدفعية، وحوالي مائة وخمسين من الخيالة. العجيب أن نحو ثلاثة أو أربعة آلاف من أتباع المعسكر الهنود ظلوا على قيد الحياة يزاحمون الجنود البريطانيين.

عاد أكبر خان بعد الظهيرة مرة ثانية يعرض على إلفنستون أن يسلم الأوروبيون سلاحهم ويدخلون تحت حمايته، لكن هذه الحماية لا تشمل المجندين الهنود. إلا أن الجنرال رفض واستمر تقدم الجيش، وبعد مسيرة خمسة أميال وصل الجيش إلى ممر ضيق آخر هو «هوفت كوتول» ليفاجئوا بمشهد مروع إذ وجدوا أتباع المعسكر الذين كانوا قد سبقوا الجيش ولم ينتظروا ورود أي أوامر — ولهم العذر في هذا — قد لقوا مصرعهم في هذا الوادي الضيق شديد الانحدار. وعلى جانبي النهر الصغير تناثرت الجثث، بعضها جمده الثلج، والبعض الآخر ما زال ينزف. وحين وصل البريطانيون كان الجلزانيون مصطفين حول المرتفعات ينظرون بإعجاب إلى ما اقترفت أيديهم في انتظار ضحايا آخرين.

ومع ازدياد توغل الجيش خلال ممر «هوفت كوتول» تزايد عدد ضحايا المذبحة، إلا أن البريطانيين تمكنوا من عبوره أخيرًا. يقول إير: «قاد شلتون مؤخرة الجيش ومعه عدد قليل من الأوروبيين، ولولا احتفاظه بروح القتال وقوته التي لا تتزعزع وهو يصد المهاجمين لكان الجميع قد لقوا مصرعهم.» وقد أقر شلتون بعد ذلك بشجاعة رفاقه مقاتلي مؤخرة الجيش قائلًا: «لقد صمد هؤلاء الرجال الشجعان معي بنبل وبطولة.»

كانت الساعة قد بلغت الرابعة بعد الظهر حين وصلت القوات إلى تيزين، وكان أكبر خان ما زال يتتبع خطى الجيش البريطاني، ولم يكن البريطانيون على يقين إذا ما كان هذا الرجل ينوي خلاصهم أم ينوي هلاكهم، لكنه كرر عرضه للبريطانيين بالاستسلام، غير أن البريطانيين رفضوا العرض مرة أخرى. كانت الحالة المزرية التي مر بها البريطانيون أثرت كثيرًا في إلفنستون الذي كان قد نجا بطريقة ما من وابل النيران، فقرر أن يستريح قليلًا ثم يستأنف سيره ليلًا إلى جوجدولوك على أمل أن يتمكن من الهروب والجلزانيون نيام.

حين تسلل الجنود البريطانيون تحت غطاء الليل بعد أن ثبتوا المدفع الباقي، كان من الممكن أن ينجحوا في الفرار وحدهم من مطاردة الأفغان، إلا أن أتباع المعسكر الذين كانوا بضعة آلاف أحسوا بتحركاتهم فاستيقظوا ليتبعوهم. وهكذا تحول ذلك التسلل الصامت تحت جنح الظلام إلى زحف صاخب لجيش كبير يسير على أرض غير ممهدة، جذب انتباه كل الأفغان الموجودين في محيط عدة أميال. وكانت النتيجة أنه في منتصف الليل وتحت

ضوء القمر فتح الجلزانيون نيرانهم على مؤخرة الجيش مجبرين بذلك المدنيين البريطانيين على التقدم نحو مقدمة الجيش، ثم تحول الأفغان إلى إطلاق النار على مقدمة الجيش ليعود المدنيون مرة أخرى إلى المؤخرة، وبين هذا وذاك كان الأفغان كذلك يطلقون النار عشوائيًّا على البريطانيين ونادرًا ما كانت أي من رصاصاتهم لا تصيب جسدًا. ولم يستطع البريطانيون السير إلا على أجساد رفاقهم الذين استلقوا في انتظار أن يحدد مهاجموهم مصائرهم.

وعندما انبلج النهار كانت القوات ما زال تبعد عشرة أميال عن جوجدولوك، ومع ذلك استمرت في التقدم مقاتلةً الأفغان في طريقها، يقول كاي: «كان الجيش يتقدم بقوة ونشاط لو قاتل بهما منذ البداية لأنقذ نفسه من الهلاك.» وفي الثالثة بعد الظهر وصلت مقدمة الجيش إلى القرية واحتمت وراء بعض الأسوار المتهدمة على التل، ومن ذاك الموقع استطاع الجنود أن يشاهدوا رفاقهم الذين اقتربوا منهم والذين كانوا من مؤخرة الجيش تحت قيادة شلتون وهم يصارعون جحافل الجلزانيين من جميع الجهات. وحتى يكون في استقبال جنود مؤخرة الجيش الشجعان أمر إلفنستون من بقي على قيد الحياة من ضباطه بالوقوف صفًّا واحدًا على التل؛ حتى يظهروا كطليعة قوية للجيش. وما إن اصطف الضباط حتى تلقى أحدهم وهو الكابتن جرانت Grant رصاصة في خده لكن الضباط الباقين استقبلوا شلتون بالهتاف وهو في طريقه إلى داخل المعسكر. أما الأفغان الذين كانوا يطاردونهم فقد اتخذوا مواقعهم حول المرتفعات المحيطة بهم.

بدأت محادثات جديدة بين الكابتن سكينر وأكبر خان الذي كان كعادته يرصد الأحداث، والذي طالب بالاجتماع مع إلفنستون وشلتون والكابتن جونسون — الممول السابق لشاه شوجا. استقبلهم أكبر خان بأدب، وقدم لهم الطعام والشاي، وفي خلال حديثه معهم أخبرهم أنهم أصبحوا رهائن لديه. اعترض إلفنستون واعتبر أن عدم عودته إلى رجاله سوف يكون إهانة شخصية له، إلا أن أكبر لم يتزحزح عن موقفه. وفي اليوم التالي — الثاني عشر — جاء زعماء الجلزاي لمقابلة أكبر، لكن بدا أن الأمير لم يستطع أن يثنيهم عن مواصلة القتال، ويبدو أنه نتيجة لهذا قام إلفنستون بتهريب رسالة إلى رجاله ليفروا ناجين بأنفسهم. وفي ذلك اليوم جاء كل من الرائد ثين وكابتن سكينر إلى معسكر أكبر خان لمعرفة ما حدث. إلا أن كابتن سكينر

تلقى رصاصة صوبها إليه أحد الأفغان من مكان قريب فأرداه قتيلًا. وكان القاتل قد تجاوز كابتن ثين بضخامة جسمه وهيئته المؤثرة، ليقتل الضابط السياسي الوسيط بين ماكناتون وبين أكبر خان، والذي كان على علم تام بجميع الاتفاقات والمفاوضات الجارية بين أكبر خان وبين البريطانيين.

وفي الساعة الثامنة من مساء تلك الليلة، استأنف من تبقى من القوات البريطانية السير، وكانوا يتألفون من مائة وعشرين مقاتلًا من الفرقة الرابعة والأربعين، وحوالي خمسة وعشرين جنديًا من جنود المدفعية وبعض جنود سلاح الفرسان، وكالعادة سار أتباع المعسكر في ركابهم يثقلونهم ويبطئون سيرهم. يقول كاي في هذا الصدد: «تزاحم هذا الحشد مرة أخرى ليجثم على أنفاس المقاتلين، وانتهز الأفغان فرصة التخبط الذي ساد الجيش ليتسللوا بخناجرهم بين الجموع ويقتلوا كل من يصادفونه غير مسلح في طريقهم.» ولكن الليث الجريح يغدو أشد خطرًا، فقد استدار البريطانيون نحو الأفغان بحرابهم يقاتلونهم بشراسة عالمين أن هذه هي فرصتهم الأخيرة للبقاء على قيد الحياة. ثم شقوا طريقهم إلى ممر جوجدولوك وهو ممر آخر ضيق برزت من جوانب مرتفعاته الضيقة بنادق الجيزيل. وحين اجتازوه، وجدوا عقبة أخيرة تكفي لأن تملأ قلب أشجع الرجال يأسًا، تمثلت في متاريس ضخمة متشابكة من أغصان أشجار البلوط الضخمة الشائكة تسد طريقهم.

توقف الجيش فجأة وامتدت الأيدي اليائسة نحو هذا الحاجز تحاول إزاحته، في الوقت الذي تساقط فيه وابل من الرصاص على رءوسهم. وكان من الواضح أن الأفغان انتظروا هذه اللحظة طويلًا واستعدوا لها، ولذلك فقد كان الكمين محكمًا والمذبحة مريعة. وكان من بين قتلى هذه المصيدة العميد أنكويتيل قائد القوة، وكذلك الكولونيل تشامبرز Chambers قائد سلاح الفرسان وكابتن نيكولز Nicholls قائد سلاح المدفعية، وبلغ مجموع الضباط القتلى اثني عشر ضابطًا. الواقع أن الجيش انتهى تقريبًا بفعل نيران بنادق الجيزيل وسيوف الأفغان.

غير أن مجموعة قليلة من جنود الجيش البريطاني نجحت في اختراق الحاجز الشائك وعبرت ممر جوجدولوك في عتمة الظلام. ومع بزوغ نهار يوم الثالث عشر من يناير/كانون الثاني شوهد نحو خمسة وستين جنديًا بريطانيًا — أغلبهم من الفرقة الرابعة والأربعين — متجمعين على تل في

جانداماك، وكانت الأراضي حولهم تعج بالجلزانيين الذين هرعوا من قراهم ليشاركوا في إبادة آخر فلول الفرنجة. في البداية أثارت شرذمة الجنود الصغيرة تلك فضولهم، فاقتربوا منهم في هدوء كأنما يريدون محادثتهم ولكن حين بدءوا يجذبون أسلحتهم من أيديهم قاوم البريطانيون بشراسة لتكون هذه هي معركتهم الأخيرة، حيث استنفدت الفرقة الرابعة والأربعون ما تبقى من ذخيرتها وهي تصد موجات الأفغان المتكالبين عليها، ثم تحول الأمر بعد ذلك إلى معركة تشابكت فيها سيوف الأفغان مع رماح الإنجليز، حتى سقط آخر جندي مدافع على الأرض، عاجزًا عن صد رجال القبائل الذين احتلوا التل. كان أحد الضباط وهو الملازم ت. أ. سوتير T. A. Souter قد أحاط جسده بشارة الفرقة عندما أسر مع بعض الجرحى الآخرين. وقد قال سوتير فيما بعد: «خلال المعركة طارت شارتي الملونة ورأوها فظنوا أنني رجل مهم.» إلا أن بادرة الرحمة تلك لا تغير من الواقع شيئًا: فقد أبيدت حامية قندهار بأكملها.

لا يبقى مما يقال سوى أن مجموعة أخيرة صغيرة من جنود الجيش البريطاني كانت لا تزال تحاول الوصول إلى جلال أباد، فأثناء تلك الفوضى العارمة التي كانت في ممر جوجدولوك أخذ كابتن بليو Bellew — قائد إحدى فرق حامية كابول — يحث من تبقى من الرجال على اختراق صفوف الأعداء. (هناك مقولة غير مؤكدة تذكر أن الضباط داسوا على أجساد رجالهم، وعندها تعرضوا لرصاص الجلزانيين والبريطانيين في نفس الوقت). كان من ضمن الفرسان مساعد جراح تابع لشركة الهند الشرقية يدعى ويليام برايدن William Brydon، كان يخدم قبل ذلك في إحدى الفرق التابعة للشاه، وكان في اليوم السابق يسير مترجلًا حين صادف أحد الهنود المجندين في سلاح الفرسان وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وتوسل إليه هذا الهندي أن يأخذ حصانه قبل أن يستولي عليه الأفغان، اعترض برايدن إلا أن المجند لفظ أنفاسه الأخيرة وهو ما زال ممتطيًا ظهر حصانه بعد أن أصيب بطلق ناري في صدره.

وفي الصباح حين نجحوا في عبور ممر جوجدولوك، لم تظهر أي قوات أخرى في الأفق وانقسمت المجموعة الصغيرة إلى قسمين ذهب كل منهما في اتجاه بعد أن اختلفا على الوجهة الصحيحة. أما المجموعة التي اختارت أن

تستمر في الطريق الرئيسي بين جانداماك وفتح أباد فلم يرها أحد بعد ذلك، في حين تمكنت مجموعة برايدن المكونة من حوالي اثني عشر رجلًا من عبور التلال، وحين عضهم الجوع قرر الكابتن بيلو أن يتوقف عند قرية صغيرة هادئة ليتزود ببعض المؤن. لكنه حين عاد قال: «أخشى أن أكون قد تسببت في هلاكنا جميعًا.» فقد رفع أهل القرية راية حمراء تدفقت على أثرها مجموعة من الخيالة الأفغان من كل صوب. ناشد بيلو القرويين الأفغان أن يهدءوا، بل وعاد معهم إلى القرية حين طلبوا منه ذلك إلا أنه قتل هناك فور وصوله. وعندئذ بدأت قبائل الجلزاي في الهجوم على المجموعة الباقية، واستطاع برايدن أن يتجنب ضربة سيف قاتلة وتمكن مع أربعة آخرين من رفاقه من الفرار.

ثلاثة من هؤلاء الرجال كانوا يمتلكون خيولًا قوية مضت بهم ليلاقوا مصيرًا ما زال مجهولًا حتى اليوم، أما رفيق برايدن الأخير — الملازم ستير — فقد جرح، وجرح فرسه أيضًا. ورغم توسلات برايدن ومحاولاته لإقناعه بالعدول عن رأيه، اختار الملازم أن يختبئ في كهف — وسار الطبيب وحيدًا ليجد نفسه أمام عشرين أفغانيًا متجمعين في الطريق يسدون عليه المنافذ، ولأنهم لم يكونوا مسلحين فقد اكتفوا برميه بالحجارة، في حين اندفع هو بفرسه الصغير وهو يلوح بسيفه في جميع الاتجاهات، ثم لم يلبث إلا أن وجد نفسه أمام مجموعة أخرى من الأفغان أطلق أحدهم الرصاص عليه فانشطر سيفه وجرح فرسه، لكنه هرب، واستمر في سيره المتعثر على فرسه الجريح ليقابل مجموعة ثالثة مكونة من خمسة رجال «تلطخت ملابسهم بالدماء» كما قال عنهم، وهاجمه واحد منهم إلا أن الطبيب تمكن بصعوبة من صد ضربة من سيف الأفغاني ثم رمى بسيفه نحو مهاجمه حين حاول معاودة الكرة، إلا أن الأفغاني نجح في قطع يد الطبيب. انحنى برايدن يحاول أخذ لجام الفرس الذي كان قد سقط منه، ففر خصمه هاربًا حيث اعتقد أن الطبيب يحاول الوصول إلى مسدسه، في حين أن برايدن لم يكن مسلحًا وكان حصانه يلفظ أنفاسه الأخيرة.

يقول برايدن: «فجأة أحسست بكل قواي تخور، وشعرت بالهلع والخوف من الظلال المحيطة بي.» إلا أنه تمكن أخيرًا من الوصول إلى مشارف جلال أباد، وهناك توجه إليه أحد ضباط الفرقة الثالثة عشرة المتمركزة في حصن سيل، فعاد به. وضع الفرس الصغير في الإسطبل حيث ظل راقدًا ولم يستطع

النهوض ثانية. وكان برايدن قد جرح في أربعة مواضع في جسده إلا أنه تعافى. شجع وصول أول رجل من رجال جيش إلفنستون القوات المتمركزة في جلال أباد على إشعال نار على التل والنفخ في البوق كل نصف ساعة لإرشاد أي ناجين آخرين إلى مكانهم. لكن مرت أيام عديدة قبل أن يكتشفوا أن الدكتور برايدن كان الناجي الوحيد من الحامية بأكملها.

الفصل الثامن

انتقــام الفكتوريين

تساقطت ثلوج الشتاء على أرض شرق أفغانستان الساكنة، ولم تكن دماء المجزرة التي ارتكبت بها قد جفت بعد، وبدأ كل من البريطانيين والأفغان يفكرون في العواقب الوشيكة. فإذا كان أكبر خان قد حاول مخلصًا مساعدة الحامية على الهروب من كابول — وهي فكرة محل خلاف — فلم يكن ذلك إلا خوفًا من انتقام الأسد البريطاني لفقدان رجاله، وما يمكن أن يستتبع ذلك من إرسال جيش جرار إلى أفغانستان، إلا أن الأشهر الأولى من عام ١٨٤٢م مرت دون أي بادرة انتقام من البريطانيين، فبدأ أكبر خان ينسب إلى نفسه أمام القبائل الفضل في إبادة الحامية، ولأنه كان يطمع في مزيد من المجد، فقد تولى بنفسه قيادة حصار حامية جلال أباد. وحين أدرك أن البريطانيين أصبحوا في حال يرثى له بدأ يشطح بخياله إلى الاستيلاء على الهند بعد عبوره نهر السند، كي يضاعف الانتصارات التي حققها أسلافه من قبل.

وحتى شاه شوجا — الذي ظل في الحكم على الرغم من أن هذا ينافي كل منطق عدا منطق السياسة الأفغانية المعقدة — فقد نسب إلى نفسه أيضًا الفضل في طرد الفرنجة، أو على الأقل أوحى إلى مواطنيه أنه كان العقل المدبر وراء ما حدث. واستمر الشاه على عرشه في كابول بدعم من أمان الله خان الذي كان يستنكر تمامًا فكرة استيلاء نواب زيمان شاه أو أكبر خان على الملك رغم أن الجميع كانوا يرغبون في تجريد شاه شوجا مما يملك.

أما عن البريطانيين فلم يعلموا في تلك الآونة ما يفعلون، فقد كانت وسائل الاتصالات آنذاك بطيئة للغاية، في وقت كانت قوة البخار الدافعة ما زالت تشكل قفزة جديدة في عالم التكنولوجيا. لذا فلم تصل أخبار الجيش إلى لندن قبل عدة أسابيع — واستغرقت مدة أطول لاستيعابها. كان البريطانيون يرون

أن الكارثة العسكرية هي فشل الجيش في الحفاظ على شرف التاج، والكارثة الكبرى هي وقوع خسائر جسيمة في صفوفه. لكن انسحاب الجيش من كابول في ذاك المشهد المأساوي كان صادمًا، لدرجة أن الإنجليز الذين أسكرتهم تلك الكارثة المروعة أطلقوا عليه «انسحابًا بطوليًّا». ولم تكن نجاة الدكتور برايدن عام ١٨٤٢م ونجاحه في اللجوء إلى جلال أباد إلا تأكيدًا للفشل الذريع والهزيمة الساحقة التي مني بها الجيش البريطاني، فقد سبق أن حذرت ليدي سيل وحذر آخرون معها من أن الجيش سوف يفنى تمامًا ولن يتبقى منه سوى رجل واحد ليروي ما حدث.

وفي ضوء هذه الهزيمة النكراء التي لقيها البريطانيون في أفغانستان، كان عليهم أن يختاروا بين أمرين: إما المخاطرة بإرسال جيوش أخرى تلقى نفس المصير في بلاد لا يؤمل جني أي فوائد اقتصادية من ورائها، ولا يُنتظر من غزوها إلا فقدان المزيد من الأموال والأنفس؛ وإما محاولة استرداد كرامة الجيش البريطاني. وبينما كان لورد إلنبورو Ellenborough Lord — الذي تولى منصب الحاكم العام في الهند بعد لورد أوكلاند Lord Auckland — على ظهر إحدى البواخر كان أوكلاند قد أمر مزيدًا من القوات بالتوجه إلى بيشاور وكويتا، وعين اللواء جورج بولوك George Pollock قائدًا للقوة الأساسية في بيشاور، وكان رجلًا هادئًا شديد الثقة بنفسه، إلا أن الحاكم العام الذي كان على وشك الرحيل عن البلاد كان محبطًا من الأوضاع التي حوله، وكتب في إحدى رسائله الأخيرة: «إني أرى أحوالنا هنا في أفغانستان تستعصى على الحل، ولكن يجب أن نتحلى بالشجاعة والبطولة قدر ما نستطيع.»

حين وصل إلنبورو إلى كلكتا في يوم الثامن والعشرين من فبراير/شباط بدأ العمل بنشاط، محاولًا حفظ ماء وجه البريطانيين بأن قال عن انسحابهم من أفغانستان: «كان انسحابًا كريمًا مشرفًا»، وقد استعار رئيس الوزراء البريطاني دزرائيلي Disraeli نفس الجملة فيما بعد وكان يستخدمها كثيرًا. وكان إلنبورو يعلم جيدًا أن الكوارث التي سبقت مجيئه تقع على عاتق سلفه، وطالما أنه لم يستحدث كوارث أخرى فإن تجميد الموقف على ما هو عليه سوف يكون في صالحه. لكن فكره هذا سوف يتغير بعد أن يقرأ التقرير الذي أعده دوق ولنجتون والذي عرضه على وزراء الحكومة وقال فيه: «إننى لا أحتاج إلى أن أؤكد على أهمية استعادة سمعة إنجلترا في الشرق، فأعداؤنا

في فرنسا، والولايات المتحدة وأينما وجدوا (يقصد روسيا) تملؤهم الشماتة آخذين في الاحتفال بما لحق بنا من عار الهزيمة. لذلك فعليك أن تثبت لهم أن فرحتهم تلك لن تكتمل أبدًا.»

لم تكن المعضلة التي تواجه إلنبورو هي فقط تحديد الحيز الذي ينبغي له أن يتحرك في داخله لاستعادة سمعة بريطانيا الضائعة، بل كذلك في مدى قدرة الجيش على استعادتها. فأي خطوة خاطئة سوف تزيد الأمر سوءًا. ولسوء الحظ في الأشهر الأولى من عام ١٨٤٢م تفاقمت مشكلات البريطانيين في أفغانستان، بل وازداد عددها أيضًا.

في جلال أباد، بعد أن اتضح مصير حامية كابول، عقد الجنرال سيل مجلس حرب ليناقش الأمر الذي أصدره شاه شوجا إليهم بالجلاء عن البلاد. وقد وافق كل الضباط على هذه الفكرة فيما عدا الرائد جورج برودفوت George Broadfoot والكابتن س. أولدفيلد C. Oldfield. وبعد جدال دام بضعة أيام ازدادت المسألة تعقيدًا بعد أن أتت أنباء بأن العميد وايلد Wild حاول أن يستولي على ممر خيبر بالقوة إلا أنه قوبل بهجوم ألحق بقواته دمارًا شديدًا، فقد هرب معظم أتباعه السيخ ليلة الهجوم، في حين انفرط عقد المجندين الهنود فور بدأ إطلاق النار — ولم تقتصر هزيمة وايلد على فشله في اجتياز الممر، وإنما زاد الطين بلة بأن خسر قلعة علي مسجد آخر القلاع التي كان البريطانيون يحتفظون بها في الممر، بعد أن تركتها حاميتها وفرت مذعورة. وتلا ذلك أن نزلت قبائل الأفريديين من التلال مسرعة لتستولي على مخازنها ومواشيها. ولم تصل أي أنباء من كلكتا تشير إلى أن هناك فرقة نجدة في طريقها إليهم أو حتى تشير إلى إمكانية إرسال أي مدد من أي نوع.

ورغم كل ذلك فقد تشبث برودفوت برأيه في أن يبقى الجيش مكانه بل وكان عنيفًا وصلبًا في مناقشاته، وبدعم من هافلوك (الذي لم يكن له حق التصويت) تمكن من إقناع بقية الضباط بالاحتفاظ بالحامية، وإن ظل كل من الجنرال سيل والمندوب السياسي ماكجريجور MacGregor على رأيهما بضرورة الانسحاب، إلا أن الجنرال سيل اضطر آخر الأمر إلى أن يوافق على رأي أغلبية المجلس. والواقع أن برودفوت كان يولي مدينة جلال أباد اهتمامًا خاصًا، فقد كان هو الذي شيد دفاعات قلعتها منذ شهر نوفمبر/تشرين الثاني الماضي مع نخبة من المهندسين العسكريين وقام ببناء سور يحيط بالمدينة،

يبلغ ارتفاعه ستة أقدام، مكون من أوتاد خشبية ونتوءات، ويحوطه خندق. إلا أنه في التاسع عشر من فبراير/شباط وقبل أن يصل جيش أكبر خان ليحاصر الموقع، حدث زلزال رهيب هز شرق أفغانستان وتهاوت على إثره تحصينات برودفوت الدفاعية، وقد رأى جيش أكبر في هذا تدخلًا إلهيًّا.

وفي قندهار تلقى نوت أيضًا أوامر من كابول بالانسحاب، إلا أنه هو والمندوب السياسي رولنسون قررا أن يتجاهلاها على الفور. ورغم أن نوت كان من أكثر القادة البريطانيين ضيقًا وتبرمًا من وجوده في أفغانستان إلا أنه انتظر أوامر حكومته بعد أن أدرك، وكان محقًّا في هذا، أن أوامر كابول صدرت بناء على ضغط وإكراه. وفي الثاني عشر من يناير/كانون الثاني تقدمت ست فرق من جيش قندهار صوب نهر أرجانداب لمواجهة جيش من الجلزانيين يقوده سوفتر جانج Sufter Jang أحد أبناء شاه شوجا. ورغم تفوق الأفغان العددي إلا أنهم عجزوا عن مقاومة مدافع نوت الستة عشر، ورماته المهرة، وفرسانه المدربين — وفور هروب الأعداء قام البريطانيون بدك القرية إظهارًا لكفاءتهم القتالية.

وفي غزنة كانت الحامية المكونة من أربعمائة رجل لا تزال تحت الحصار منذ شهر نوفمبر/تشرين الثاني، وفي السادس عشر من ديسمبر/كانون الأول فتح مواطنو البلدة بعض الممرات في الأسوار ليتسلل الأفغان خلالها، مما دفع الحامية البريطانية إلى الفرار إلى القلعة. وفي السادس من مارس/آذار استسلم الكولونيل بالمر Palmer لكنه اشترط تأمين طريقه إلى بيشاور. إلا أنه في اليوم التالي بدأ المقاتلون «الغزاة» عملية ذبح وإبادة للمجندين الهنود استمرت ثلاثة أيام متواصلة. وفي اليوم العاشر استسلم بالمر مرة ثانية، إلا أن المجندين الهنود هربوا وحدهم فتجمد الكثير منهم من البرد، بينما قتل الآخرون على يد خيالة الأفغان. أما عن بالمر فقد أسر ومعه عشرة من ضباطه. وبذلك تحولت غزنة التي كانت مصدر فخر للجيش الإنجليزي في بداية الحرب، إلى شاهد على هزيمة مخزية ألمت بهم.

وفي قندهار علم نوت ورولنسون بمشكلة غزنة، فأمروا بإجلاء جميع المدنيين عنها، واضطر أكثر من ألف عائلة للبحث عن ملاذ في القرى القريبة أو في كهوف الجبال. وبعد أن أعد تحصينات المدينة خرج نوت يوم السابع من مارس/آذار بقواته الرئيسية ليتقابل مع جيش من الدورانيين وردت

أنباء حول تقدمه نحو المدينة. وبدأ ميرزا أحمد Meerza Ahmed الذي كان يقود الدورانيين يناوش الجيش البريطاني متجنبًا أي مواجهة مباشرة معه فقد كان دائمًا يتراجع إلى القرى المجاورة للمدينة في اللحظة الأخيرة. وفي التاسع من مارس/آذار ذاعت شائعة بين القوات البريطانية عن أن الدورانيين سيشنون هجومًا ليليًا عليهم فخرجوا لهم كي يستبقوا هذا الهجوم، وعندها انتهز الدورانيون الفرصة وقاموا بالالتفاف حول الجيش البريطاني ليصلوا إلى قندهار في اليوم التالي ولم يكن بالحامية سوى عدد أقل من القليل.

تزايدت أعداد الأفغان خلال النهار، لكنهم لم يبدءوا هجومهم على أسوار المدينة إلا بعد حلول الظلام وقاموا بهجوم مكثف على بوابة هرات. وفي القلعة أصدر الرائد لين أوامره بإطلاق قذيفة عنقودية من أحد المدافع الموجودة في الشرفة على الجنود المحتشدين بالخارج الذين كان يسمعهم دون أن يرى سوى وهج بنادقهم. وظلت الحامية التي تدافع عن الأسوار تلقى بقذائفها بطريقة منتظمة على المهاجمين، لكن الأفغان قاموا بإشعال النيران في البوابة. فأحضر البريطانيون المدفع الموجود في الشرفة ومدفعًا آخر من القلعة وقاموا بتجميع ثلاثمائة رجل منتظرين اندفاع الأفغان إلى داخل المدينة. وبعد ساعة من الهجوم انهارت بوابة هرات وتدفقت جموع الأفغان من خلال الفتحة التي أحدثها الانهيار. يقول كاي: «سقط الكثيرون قتلى أو جرحى تحت وابل نيران أسلحتنا الصغيرة، كان هجومهم شرسًا لكن دفاعنا كان أكثر شراسة، وكان مصير قندهار يتأرجح ما بيننا وبينهم. ولمدة ثلاث ساعات أخريات كان «الغزاة» لا يفتئون يكرون على أسوار المدينة، ولكنهم عجزوا عن الدخول، حتى انتصف الليل فانسحبوا في يأس.»

فقد الأفغان حوالي ستمائة رجل في هذه المعركة، واجتمع زعماء القبائل في تلك الليلة لتأنيب ميرزا أحمد على فشله. لكن على الرغم من أن هذا الهجوم قد فشل فإنه كان يستحق التجربة، فلو نجح لكان الضربة القاضية على البريطانيين في أفغانستان. ولقد نجح بالفعل في إذلال نوت، فبعد عودة الجنرال من غزوته الفاشلة في السهول فوجئ بساحة القتال في المدينة وقد غطاها الدخان، ثم وصلت أنباء تفيد أن غزنة قد ذهبت إلى غير رجعة. ثم تلا هذا أنباء عن كارثة أخرى، فقد كانت حامية قندهار تعاني من نقص في الأموال والعلف الحيواني والذخيرة، وكانت تنتظر إمدادات قادمة من السند

عبر كويتا. وفي الثامن والعشرين من مارس/آذار قام الأفغان بالهجوم على قافلة الإمدادات تلك في ممر خوجاك واضطروها إلى التراجع سريعًا. وهنا تلقى نوت أوامر من إنجلترا تقترح عليه إخلاء قندهار والإنسحاب إلى كويتا بدلًا من انتظار المؤن.

وفي غضون ذلك كله لم تكن هناك أية وسيلة لاسترجاع الرهائن، فقد خشي البريطانيون أن يقدم أكبر خان على قتل الأسرى إذا ما قاموا بأي هجوم عليه. كان الرهائن أربعة وثلاثين امرأة وطفلًا، وثمانية وثمانين رجلًا (خمسة وثلاثين ضابطًا وواحد وخمسين جنديًّا واثنين من المدنيين). في الحقيقة عاملهم الأمير معاملة حسنة قدر إمكانه، إلا أنهم تحملوا الكثير من الصعاب خلال رحلتهم الشتوية عبر مرتفعات شرق أفغانستان. وأحد هذه الصعاب كان مشاهدة انسحاب الجيش من كابول. وفي منتصف يناير/كانون الثاني كتبت ليدي سيل في مذكراتها ما يلي:

«سافرنا عبر طريق شديد الوعورة، فقد كانت مرتفعاته ومنخفضاته تثير الفزع في نفوسنا، بل وتبدو لأول وهلة مستحيلة العبور.

ومررنا على مائتين أو ثلاثمائة من الهنود البؤساء المنتشرين في الممر — كانوا عراة جرحى — يكادون يموتون جوعًا وقد نالت قضمة الصقيع منهم، فاضطروا إلى أن يشعلوا النيران في الأعشاب والشجيرات التي بجوارهم ويتجمعوا حولها للتدفئة. وبعد ذلك علمنا أن لا أحد منهم يستطع أن يخرج حيًّا من الممر، بل إنهم اضطروا في النهاية إلى أكل جثث زملائهم الموتى.»

وفي التاسع عشر من فبراير/شباط تسبب الزلزال الذي دمر أسوار برودفوت، في تدمير قلعة التل التي كانت تأوي الرهائن. واستمرت توابع الزلزال أسابيع كان البحث فيها جاريًا عن مأوى للرهائن دون جدوى. وفي الثالث من مارس/آذار كتبت ليدي سيل: «الزلزال مرة أخرى ... اليوم ... خرج من القلعة كل من هو عاجز عن العمل أو مصاب بقضمة الصقيع بعد أن ترك كل ما يملك.» أما إلفنستون فقد بلغ منه المرض مبلغًا اضطر معه القائمون على خدمته إلى حمله على محفة لنقله من مكان إلى آخر ... وفي

الثالث والعشرين من أبريل/نيسان توفي الجنرال، وكانت كلماته الأخيرة التي قالها لخادمه هي: «ارفع رأسي قليلًا يا مور ... فهذه هي المرة الأخيرة التي أزعجك فيها.»

إلا أن البريطانيين لم يكونوا هم فقط من يعانون المتاعب، فقد كان أكبر خان يعاني بدوره من مشاكل كثيرة، فبعد تدمير حامية كابول عاد المقاتلون الجلزانيون إلى ديارهم بعد أن حققوا ما أرادوا ونهبوا كل ما استطاعوا نهبه. وشعر أكبر بالاستياء حين فشلت حامية جلال أباد في الانسحاب حسب أوامره (رغم أنه لم يعرف ماذا قرر قادة الحامية في اجتماعهم الأخير) فزحف بفرقة من رفاقه المخلصين وبعض «الغزاة» المتطرفين وقام بمحاصرة القلعة. وفي الحادي عشر من مارس/آذار حاول الكابتن ديني مع ثمانمائة من الجند كسر هذا الحصار وتمكنوا بالفعل من الهروب إلى المدينة دون خسائر في الأرواح، في حين أصيب أكبر خان بطلق ناري من أحد رجاله في غمار الفوضى التي عمت. وقد تكون هذه الإصابة محض خطأ، وقد يكون شاه شوجا قد استأجر أحدًا للقيام بهذه المهمة، ومن المحتمل كذلك أن يكون ماكجريجور وراءها. ولكن النتيجة أن أكبر تعرض لجروح عديدة في رقبته ويده بالإضافة إلى جرح آخر في فخده.

كانت كبرى مشاكل أكبر خان هي أنه خلال حصاره لجلال أباد، لم يتلق دعمًا يستحق الذكر من كابول. ففي العاصمة لعب نواب زيمان شاه، وأمان الله شاه وشاه شوجا لعبة ثلاثية تهدف إلى الاستيلاء على السلطة، في حين كان القزلباش لا يحركون ساكنًا، وأكبر خان في المقدمة يفتقر بشدة إلى السلاح وإلى قوات تدعمه. وأخيرًا تمكن شاه شوجا بصفته رئيسًا للدولة من إثارة الشعب لإنهاء الحرب ضد الفرنجة. في ٣١ مارس/آذار بدأ في تجميع الجيش، وفي ٥ أبريل/نيسان خرج من بالاهيسار ليقود قواته، فتلقى رصاصة أردته على الفور. والعجيب أن القاتل كان دولا ابن زيمان الذي كان من أكثر زعماء القبائل الأقوياء اعتدالًا، ونتج عن هذا أن قاطع نواب زيمان شاه ابنه، إلا أن هذا لم يكن ليغير ما حدث. نُصِّب «فتح جانج» ابن شاه شوجا ملكًا مع أنه كما كان والده لم يكن ذا سلطة حقيقية. وفي اليوم الذي قتل فيه شوجا بدأ البريطانيون في التحرك.

في بيشاور كان الجنرال بولوك يبني جيشه بصبر قبل محاولته اختراق ممر خيبر، واضعًا في اعتباره فشل وايلد في العبور بفرقتيه في الشهرين السابقين.

وفي غضون ذلك كان حماة ممر خيبر القدامى وهم الأفريديون (أو الخيبريون كما أطلق عليهم البريطانيون) قد تمكنوا من تشييد تحصينات في مقدمة الممر تحيطها المرتفعات التي حفرت بها فتحات تبرز منها مئات البنادق. وفي الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ٥ أبريل/نيسان اقتربت قوات بولوك بهدوء في ثلاث صفوف. وكان وايلد يقود الوسط ليهاجم الأفريديين، في حين كان جنود الصفين الآخرين — اللذين يضمان الهنود المجندين بقيادة فرقة المشاة التاسعة والثلاثين — قد بدءوا يتسلقون المرتفعات لإزاحة الأفغان من على الجانبين. وأُخذ الأفريديون المتمركزون على التلال على غرة بسبب عدم توقعهم توقيت الهجوم وعدم درايتهم بتكتيكات البريطانيين، ففروا هاربين أمام الجنود المشاة المتسلقين للتلال. وأما الباقون على السفح فقد هالهم منظر المعاطف الحمراء وهي تطل عليهم من المرتفعات فتقهقروا بدورهم.

استطاع البريطانيون اجتياز التحصينات المقامة في مدخل الممر، وتقدمت قوات بولوك خلال المعبر الطويل ساحقة أي شيء يقف في طريقها. يذكر الكتاب البريطانيون أن هذه كانت المرة الأولى في التاريخ التي تستطيع فيها قوة عسكرية أن تخضع ممر خيبر، حيث كان الغزاة السابقون إما يدفعون رِشًا كي يمروا من خلاله أو يتجنبونه بعبورهم وادي نهر كابول المجاور. ولكننا نتحفظ على وجهة النظر هذه، أو على الأقل نرى أننا يجب أن نضيف إلى هذا الكلام أنه لو أدرك الإسكندر الأكبر أو جنكيز خان ما كان سيضيفه هذا العمل البطولي لتاريخهم العسكري لما ترددوا في القيام به.

وفي اليوم التالي سرت شائعة بين قوات الجنرال سيل في جلال أباد بأن بولوك قد فني بينما هو ماض في طريقه. وكان سبب هذه الشائعة أن جيش «أكبر» قد أطلق نفير الاحتفال خلال ساعات النهار فظن البريطانيون أنهم يحتفلون بتدمير جيش بولوك، لكن تبين بعد ذلك أن بولوك ما زال يتقدم في طريقه ولم يصب بسوء، وأن ذاك النفير كان احتفالًا بموت شاه شوجا، وفي تلك الليلة اجتمع مجلس حرب في جلال أباد خيمت عليه مشاعر القلق حيث تقرر الخروج من القلعة وشن هجوم على قوات أكبر خان المحاصرة لهم (رغم اعتراض «سيل»).

وفي فجر اليوم السابع من أبريل/نيسان تقدمت الحامية في ثلاثة صفوف نحو معسكر أكبر خان الذي كان يبعد ميلين، وقاد كل من الكولونيل ديني

والكولونيل مونتيث Monteath قوة تتكون من خمسمائة رجل، في حين كان الجناح الأيمن بقيادة هافلوك يضم ثلاثمائة وخمسين رجلًا، معززًا بفرقة من الفرسان قوامها مائتا فارس، بالإضافة إلى سرية المدفعية. وكان الأفغان على أهبة الاستعداد لهذا الهجوم، ففتحوا النيران من القلاع التي كانت تطل على ساحة المعركة. ثم صدرت الأوامر إلى ديني بالهجوم على إحدى هذه القلاع، وهناك أصيب بجرح مميت. يقول أحد من شهدوا المعركة: «لقد مات وصوت القتال يدوي في أذنيه وبداخله أمل أنهم سوف ينتصرون، ولكنه لم يبق حيًّا ليرى هذا الأمل يتحقق.» وفي غضون ذلك كان فرسان أكبر خان يهاجمون بقية الجيش. وكان الأمير نفسه هو الذي يدير المدفعية الأفغانية. وصدرت الأوامر إلى قوات ديني بالتحرك إلى الأمام، كتب الجنرال سيل عن هذا:

> «قام الأفغان بمحاولات متكررة ليوقفوا تقدمنا مستخدمين نيران بنادقهم وجثث خيول ضخمة ألقوها أمامنا مما أعاق تقدم قوات هافلوك مرتين، ثم قاموا بإطلاق النيران من ثلاثة مدافع وضعوها وراء أسوار الحديقة ... إلا أنهم بعد فترة قصيرة كانوا قد أخلوا كل مواقعهم ... وتم الاستيلاء على مدافعهم حين اندلع في معسكرهم حريق هائل.»

كانت قوات سيل — التي سقط منها عشرة قتلى وثلاثة وخمسون جريحًا — قد استولت على معسكر أكبر خان وشتتت قواته. وكانت جائزتهم الكبرى استرداد أربعة مدافع زنة قذيفتها ستة أرطال استولى عليها الأفغان قبل ذلك من إلفنستون. وفي السادس عشر من أبريل/نيسان خرجت قوات بولوك من ممر خيبر متجهة إلى جلال أباد وهناك رحبت بها الفرقة الموسيقية التابعة للكتيبة الثالثة عشرة وهي تعزف مقطوعة «لكم تأخرتم في المجيء».

ومع نهاية شهر مارس/آذار، تلقى الجنرال نوت في قندهار اقتراحًا من الجنرال إنجلاند England بالتراجع إلى كويتا بعد فشل إنجلاند الذريع في عبور ممر خوجاك. وكان رد نوت مقتضبًا يطلب منه التوجه إلى منفذ الممر ليتقابل مع الكتيبة التي سوف يرسلها من قندهار لمساعدته. ووصلت الكتيبة وشعر رجال إنجلاند بالحرج حين اقتحم جنود نوت البنغاليون الممر لمرافقتهم إلى

قندهار. ومع بداية ربيع عام ١٨٤٢م كان هناك جيشان بريطانيان قويان يطآن الأرض الأفغانية. ولكن بقي السؤال المحير: وماذا بعد؟

في كلكتا كان إلنبورو يتساءل ما إذا كان النصر الذي تحقق في جلال أباد كافيًا لاستعادة سمعة بريطانيا في الشرق. وكان يأمل في ذلك خاصة بعد أن صارت كلمة «كابول» مرادفًا لكلمة الكارثة، وأي خطأ آخر في أفغانستان سوف يقع على عاتقه هو لا على عاتق أوكلاند. ولتأكيد هذا النصر الأخير أمر بالاحتفال في جميع القواعد العسكرية في الهند، كما ألقى خطبة يمجد فيها «هذه الحامية الرائعة». وفي أواخر شهر أبريل/نيسان أصدر أوامره إلى قوات نوت وبولوك بالانسحاب.

كان رد بولوك أنه لا يملك مركبات كافية للانسحاب، وأنه مع اقتراب فصل الصيف سوف يكون الطقس في جلال أباد أكثر اعتدالًا منه في بيشاور. وفي قندهار تلقى نوت ورولنسون هذه التعليمات في استياء واحتفظوا بها لأنفسهم دون أن يعلنوها لبقية الجيش — وكان عذر نوت الذي ساقه إلى الجنرال بعد ذلك أن جيشه لم يكن في وسعه اختراق بلاد السند قبل حلول الخريف. ومع حلول الصيف كان الجيش البريطاني يعيش حالة من اللاسلم واللاحرب. وتردد إلنبورو في اتخاذ أي إجراء آخر على أمل أن يتلقى من حزب المحافظين في لندن ما يفيد بأن شرف بريطانيا قد تم استرجاعه، إلا أن الرأي العام البريطاني كله من قمته متمثلة في الملكة إلى قاعدته متمثلة في الشعب لم يرض بما تم انتقامًا لمذبحة كابول.

وأخيرًا وجد إلنبورو الحل عند جنرالاته ... فقد أرسل له نوت يخبره أنه على استعداد للانسحاب من قندهار على أن يسلك طريقًا غير مباشر من غزنة إلى كابول ثم إلى جلال أباد. بولوك — الذي كان جيشه يتحرق شوقًا للمعركة في كابول — أبلغ رؤساءه أنه سوف يكون سعيدًا لمقابلة نوت في عاصمة أفغانستان، عن طريق عبور الطريق مرة ثانية إلى حامية كابول ولكن من الاتجاه المعاكس، ومعه مدافعه على أهبة الاستعداد. وفي الرابع من يوليو/تموز أرسل الحاكم العام موافقته — ومع بطء وسائل الاتصالات، انتظر بولوك على أحر من الجمر رد نوت بأنه سوف يتجه فعلًا إلى كابول. كتب يقول في هذا الصدد: «ولأني عرضت عليه لقاءه فسوف يكون من الصعب عليه مقاومة هذا الإغراء العظيم. أما إذا قاومه فلن يكون الرجل الذي أعرفه.» وفي حقيقة

الأمر كان نوت قد بدأ مسيرته يوم الثاني عشر من أغسطس/آب ومعه ستة آلاف من الجند. وفور تلقيه هذه الأنباء زحف بولوك بدوره من جلال أباد ومعه ثمانية آلاف مقاتل.

سار نوت بجيشه مسافة مائة وستين ميلًا تقريبًا دون أن يجدوا مقاومة تذكر، إلا أن الجلزانيين بعد ذلك بدءوا يتصدون له ليُعيقوا تقدمه، وفي اليوم الثامن والعشرين أطلق الجلزانيون عليهم الرصاص وهم يفتشون إحدى القرى، فما كان من البريطانيين إلا أن قاموا بمجزرة قتلوا فيها نحو مائة رجل من رجال القرية، وإن كانوا قد تركوا النساء والأطفال. وفي الخامس من سبتمبر/أيلول وصل الجيش إلى غزنة التي كانت تعج بالجند والخيالة الأفغان الذين كانوا يحتشدون على المرتفعات المحيطة بهم، إلا أن الأفغان تشتتوا في الليل فقد كانت همتهم للقتال قد ضعفت أو ربما يكونون قد تسلل الخوف إلى نفوسهم من انتقام البريطانيين.

بعث إلنبورو بتعليمات خاصة باسترجاع أسوار سومناث الأسطورية التي كان محمود الغزنوي قد استولى عليها في القرن الحادي عشر، والتي قيل إنها تجمّل مقبرته. لكن رولنسون — الذي كان مستشرقًا متميزًا — قام بفحص النقوش الموجودة على البوابات وأكد أنها لا تتفق مع هذه الأقاويل، ومع ذلك فقد قام البريطانيون بإزالتها بحرص وعناية. يقول رولنسون: «صحيح أن حراس المقبرة بكوا بحرقة، ولكن هذا كان أقل مما هو متوقع.» (وحين كان يتحدث مع الملالي سمع أن المقبرة دفنت في فترة مرور جنكيز خان بالبلاد أثناء مطاردته لجلال الدين، وأن أحد ملوك المغول أعاد اكتشاف موقع المقبرة بعد قرون طويلة بعد أن رأى منامًا دله على موقعها). واستأنف الجيش مسيرته بعد ذلك حتى وصل إلى كابول في السابع عشر من سبتمبر/أيلول عام ١٨٤٢م، وهناك لقي نوت آخر إهانة له في أفغانستان: فقد شاهد علم اتحاد ضخم يرفرف على بالاهيسار، وكان بولوك قد وصل قبله.

كان الجيش قد تحرك من جلال أباد يوم ٢٠ أغسطس/آب بعد أن تخفف من أكثر الأمتعة وراءه، وتوقف في جانداماك ليتعامل مع بعض الجلزانيين القريبين منه. وفي المنطقة المجاورة وجد التل الذي شهد المعركة الأخيرة للفرقة الرابعة والأربعين — كانت الأجساد قد تحولت إلى هياكل عظمية إلا أن لون الشعر الأحمر أو الأصفر على الجماجم لم تكن العين لتخطئه. وفي

جانداماك أتى إلى المعسكر رجل أشعث الشعر ممزق الملابس من الأفغان الهاربين إلى معسكرالبريطانيين، تبين بعد ذلك أنه فتح جانج ابن شاه شوجا الذي كان ملكًا لكابول لفترة قصيرة ثم اضطر إلى الفرار بعد ذلك لينجو بحياته.

في الفترة التي كان البريطانيون فيها مترددين بشأن ما يجب أن يفعلوا، اندلعت حرب أهلية في كابول بين الدورانيين والقزلباش من جانب، والجلزانيين والباروكزانيين من جانب آخر. وكان أكبر خان الذي يمثل قبائل الباروكزاي قد دمر أحد أسوار حصن بالاهيسار ليجبر فتح جانج ملك الدورانيين على التنازل عن عرشه. وكان الاتفاق المبدئي أن يكون أكبر خان مجرد وزير للمملكة فقط إلا أن فتح جانج أحس بالخطر ففر من العاصمة، وقام نواب زيمان شاه بحشد جيش خاص لمقاومة أكبر خان وحراسة الأسرى البريطانيين في القلعة بعد أن ترك إلفنستون المرضى والجرحى حين تقهقر في المرة الأولى من كابول.

وفي الثامن من سبتمبر/أيلول وصل جيش بولوك إلى ممر جوجدولوك الذي كان تحت سيطرة مجموعة كبيرة من الجلزانيين، وكانت أعلامهم ترفرف على المرتفعات التي تحوطه. كتب الجنرال في تقريره بعد ذلك يقول: «كانت التلال التي يحتلونها ذات تركيب مدرج ... ومن هذا الموقع تمكنوا من توجيه نيرانهم إلى الجيش الذي لم يكن يحول بينهم وبينه إلا واد ضيق شديد الانحدار.» ثم قام بعض مهندسي الألغام التابعين لفرقة برودفوت بتسلق أحد جانبي الوادي وقامت الفرقة التاسعة من سلاح المشاة بتسلق الجانب الآخر. وفي الوسط نزلت الفرقة الثالثة عشرة الخفيفة إلى الوادي الضيق شديد الانحدار لتظهر بعد ذلك على الجانب الآخر بحرابها. يقول كاي: «كان الجلزانيون ينظرون نحوهم إلى أسفل وقد أصابتهم الدهشة والفزع، وحين رأوا بأس رجالنا وشهيتهم المفتوحة للقتال بدءوا يتراجعون واندفع مهاجمونا يضغطون عليهم حتى فروا في فوضى تاركين مواقعهم التي كانوا ينظرون إلينا منها بتعال ويزايلهم شعور زائف بالأمان.»

وفي العاصمة تغلبت النزعة القومية لدى الأفغان على صراعاتهم الداخلية كما هي العادة، فزحف أكبر خان إلى تيزين ومعه جيش قوامه ستة عشر ألف رجل. وفي اليوم الثالث عشر وصل بولوك ليجد المرتفعات متوجة بلمعان بنادق

الجيزيل ويجد الوادي مكتظًا بالفرسان. ومرة ثانية عادت القوات البريطانية تمطر المرتفعات بوابل من قذائفها بسرعة، بحيث لم يجد الأفغان الفرصة لإعادة ملء بنادقهم، لذا فقد حددت السيوف والحراب مصير المعركة. قال أحد من شهدوا المعركة: «كان أجمل مشهد في ذاك اليوم هو مشهد برودفوت ومعه مجموعة من جند الجورخا صغار الأجسام وهم يطاردون الأعداء من جرف إلى آخر ويتسلقون مرتفعات تبدوا مستحيلة التسلق». فر جيش أكبر خان من الموقع، وترك الكثير من الجنود القتالَ وعادوا إلى منازلهم. ولكي ندرك السبب وراء هذا البأس الذي تحلى به بولوك ورجاله علينا أن نعرف وصف الطريق الذي سلكوه، وهو نفسه الذي حاول جيش إلفنستون عبوره في أوائل العام. فبعد عبور ممر خورد-كابول كتب كابتن جوليوس باكهاوس في مذكراته:

> «كان مشهد ما تبقى من جيش كابول سيئ الحظ في الممر مشهدًا يعتصر القلوب، فقد كانت الجثث تتكوم بالمئات داخل الممر، وكانت عجلات مدافعنا تمر فوق تلك الجثث تطحن جماجم وعظام رفاقنا الموتى في كل خطوة تخطوها لمسافة ثلاث أو أربع أو خمسة أميال، بل إن مسيرة الجيش بأكمله من جانداماك وحتى كابول — وهي مسافة تصل إلى سبعة وسبعين ميلًا — كانت فوق جثث جنودنا الذين ذبحوا.»

وصل بولوك إلى كابول في الخامس عشر من سبتمبر/أيلول ليجد أن المقاومة الأفغانية المنظمة قد تبخرت، فقد فر أكبر خان وكل من معه من المقاتلين إلى الشمال والغرب. وفي اليوم التالي صدر أمر إلى الكابتن ريتشموند شيكسبير Richmond Shakespear ومعه ستمائة من الفرسان القزلباش بالتوجه إلى باميان إلى حيث أُخذ الرهائن البريطانيون. وقبل ذلك بأيام — في غمرة الفوضى التي انتشرت بعد تقدم البريطانيين وتقهقر الأفغان — كان إلدريد بوتنجر قد بدأ مفاوضاته مع صالح محمد، وهو الأفغاني الذي كان مسئولًا عن الرهائن، ووعده براتب كبير ومعاش مجز إذا أطلق سراحهم. وفي السابع عشر من نفس الشهر تقابلت قوة شيكسبير مع الرهائن خارج باميان في مشهد شاعت به مشاعر الفرحة والبهجة، وزادت حرارة الاحتفالات في اليوم

الثاني والعشرين حين تقابلوا مع كتيبة الجنرال سيل التي كانت قد غادرت كابول لتعزيز قوة شيكسبير، قالت ليدي سيل عن هذا:

«كانت سعادتي أنا وابنتي قد تأخرت كثيرًا حتى يئسنا من طول انتظارها، ولهذا فقد كان قدومها مؤلمًا. وحين وصلنا إلى حيث موقع فرق المشاة كانوا يلوحون ويهتفون لنا على طول الطريق، وكان رجال الفرقة الثالثة عشرة يندفعون لتحيتنا الواحد بعد الآخر، وعلى ألسنة كل منهم تهنئة قلبية كل بأسلوبه الخاص فقد كانوا سعداء برجوع زوجة القائد وابنته. أما عني فقد أعجزني التأثر فلم أستطع أن أشكر الجنود على تعاطفهم معي، وبينما تخالجني انفعالاتي الحادة وجدت الراحة أخيرًا في سيل الدموع الذي انهمر من عيني.»

خلال الأسابيع التي تلت ذلك والتي كان الجو فيها معتدلًا، قام الجيش المشترك المكون من أربعة عشر ألف رجل والذي سمي «جيش العقاب»؛ بإرسال قواته شمالًا للانتقام من الكوهستانيين. فهاجموا كلًّا من شاريكار وإيستاليف بقسوة ووحشية، لأنهم وجدوا القريتين مليئتين بغنائم وأسلاب تخص جيش إلفنستون.

وفي كابول كان على بولوك أن يترك للأفغان أمرًا يذكرهم بقوة البريطانيين. كان الخيار الأسهل بالنسبة له هو تدمير قلعة بالاهيسار، المعقل التقليدي لملوك الأفغان، لكنه أحجم عنه لأن الإنجليز كانوا يأملون في إقامة علاقات طيبة مع حكامها في المستقبل ... فقرر بولوك أن يكتفي بتدمير سوق كابول المركزي، وهو ساحة مسقوفة اشتهرت في آسيا الوسطى على مر العصور، وكانت أيضًا المكان الذي علق فيه جسد ماكناتون مقطوع الرأس والأطراف. وأصدر بولوك تعليماته إلى متخصصي المتفجرات بتوخي الحذر كي لا يدمروا المدينة بأكملها، بل إنه في البداية حظر عليهم استخدام المتفجرات، لكن الجنود قالوا له إن المعاول وحدها لن تكفي لإتمام العمل، فوافق على استخدام البارود. وأدى تفجير السوق إلى تفجر رغبة في السلب والنهب لدى الجنود والمدنيين على السواء، فلنحو أربع وعشرين ساعة كاملة تعرض أهل المدينة للسرقة والاغتصاب والقتل. وفي الثاني عشر من أكتوبر/تشرين الأول أي بعد يومين من تفجير السوق، انسحب البريطانيون من كابول.

وحين عبر «جيش العقاب» ممر خيبر في طريقه إلى الهند عزفت قبائل الأفريدي آخر ألحان الحرب، فقد تجمعت مرة ثانية على التلال التي تشرف على ذلك المر الشهير، وفتحت نيرانها على الخطوط الخلفية للجيش البريطاني، فسقط ستون رجلًا تحت نيران بنادقهم الجيزيل، وهرع الأفغان إلى أسفل لنهب الأسلحة والأمتعة التي تركها البريطانيون. ولم يستدر الجيش لمجابهتهم، بل استمر في تقدمه. وعندما بدأ في اختراق المر ظهرت قوة أخرى صغيرة من الجهة المقابلة كان يقودها دوست محمد الذي كان إلنبورو قد أطلق سراحه ليسترجع عرشه.

وخلافًا للمزاعم السياسية فقد ثبت أن الحرب ما هي إلا كارثة إنسانية مزهقة للأرواح، ليس من فائدة تجنى من ورائها. فقد ذكر السير جون كاي، الذي كان يعرف الكثيرين ممن شاركوا في الحرب وتمكن من الاطلاع على الكثير من مذكراتهم؛ أن الغزو البريطاني كان «غير عادل»، بل وذكر أن النجاح الذي حققه البريطانيون في البداية لم يكن إلا تمهيدًا للدمار والخراب اللذين سيحيقان بهم بعد ذلك. واستطرد قائلًا: «لقد غمرونا بإحساس زائف بالأمان وضللونا حتى انتهى الأمر بسقوطنا.» ثم استشهد بسفر إرميا Book of Jeremiah قائلًا: «إن الرب الذي يعفو ويصفح هو أيضًا ينتقم.» ولم يكن كاي يدري حين قالها أن عهد «الهيمنة البريطانية» سوف يبدأ، وأنه بعد سنوات قليلة سوف يعود جنود فيكتوريا إلى كابول.

كانت الفوضى عارمة في البلاد ولهذا فقد أقام دوست محمد حكمه الجديد على أرض تقل كثيرًا عن تلك التي منحها البريطانيون لشاه شوجا من قبل. وفي خلال العقد الذي تلا ذلك بدأ دوست بكل قوته وجبروته يستولي على الأراضي التي تقع تحت سيطرة إخوته غير الأشقاء وأمراء الحرب الآخرين. وقد عين أكبر خان وزيرًا للعرش إلا أنه توفي عام ١٨٤٥م عن عمر يناهز تسعة وعشرين عامًا. ولا توجد أية دلائل ثابتة تؤكد الشائعة التي انتشرت بأن دوست كان له يد في المرض المفاجئ الذي داهم ابنه الطموح والذي تسبب في وفاته. وقد تمكن الدوست من إعادة بسط سيطرته على تركستان الأفغانية أو ما كانت تعرف قديمًا بمملكة باكتريا التي تقع شمال الهندوكوش، وكذلك استولى على قندهار وباميان.

أما هرات التي كانت تحت حكم سلالة السادوزائيين الذين ينتمون إلى الدورانيين، فقد قاومت حكم كابول واتجهت إلى الفرس كي يساندوها. ومع أن البريطانيين كانوا قد رفعوا أيديهم عن أفغانستان سياسيًّا فقد وضعوا أعينهم على هرات التي اعتبروها المنفذ إلى المدينة. وفي عام ١٨٥٥م عقدوا اتفاقية مع دوست محمد يتعهد فيها الطرفان بالتعاون لصد أي عدوان خارجي. في عام ١٨٥٦م احتلت القوات الفارسية هرات، وكان رد فعل البريطانيين هو تكرار مناورة عام ١٨٣٨م بإرسال قوة بحرية إلى الخليج العربي كي تجبر الفرس على الانسحاب. وفي مايو/أيار من عام ١٨٦٣م استطاع دوست محمد أخيرًا أن يغزو هرات. إلا أنه مات بعدها بأسابيع بعد أن استطاع في أواخر أيامه أن يوحد جميع الأراضي التي تكون دولة أفغانستان الحالية.

وخلال تلك الفترة تمكن البريطانيون أيضًا من توسيع ممتلكاتهم، فعقب الحرب الأفغانية مباشرة وجد البريطانيون أنهم يمتلكون جيشًا ضخمًا حسن التسليح، فانتزعوا إقليم السند من حكامه الأمراء البلوخيين. وفي هذا الصدد قال السير تشارلز نابير Charles Napier القائد البريطاني: «ليس لنا أي حق في الاستيلاء على السند ولكننا سوف نفعل، وسوف يكون ذلك أكبر تصرف استغلالي إنساني وضيع، سيجلب لنا المنفعة.» وفي أواخر عام ١٨٤٥م عبرت جيوش السيخ أرض سوتليج، إلا أن الجيش البريطاني دحرها بعد ذلك بأسبوعين في معركة سوبراون بقيادة هيو جو Hugh Gough (وكان جورج برودفوت وسير روبرت سيل ضمن قتلى البريطانيين في هذه المعركة)، وبعد ذلك بثلاث سنوات خاض السيخ معركة ثانية ليلقوا هزيمة حاسمة نهائية في جوجارات في فبراير/شباط من عام ١٨٤٩م. وأصبحت البلاد التي جاهد فيها رانجيت سينج على مدى أربعين عامًا إقليمًا من أقاليم الهند البريطانية. وبانضمام السند وإقليم البنجاب أصبح الراج يشتركون مع أفغانستان في حدود طويلة غير واضحة المعالم.

وفي عام ١٨٥٤م تفاقمت اللعبة الكبرى لتتحول إلى حرب مفتوحة في بلاد القرم، وهي شبه الجزيرة الواسعة التي تمتد ما بين أكرانيا والبحر الأسود. وكان التحالف بين الجيوش البريطانية والجيوش الفرنسية لدعم الدولة العثمانية غريبًا بعض الشيء، إلا أن ذلك لم يكن إلا لمواجهة التهديد الأكبر لاستقرار العالم الذي تمثل في إمكانية سيطرة الروس على مضيق

الدردنيل، منفذ البحر المتوسط الذي كان تحت سيطرة الأتراك. كان هجوم الفرقة الخفيفة واحدًا من أهم المعارك التي هزم فيها الجيش البريطاني وحفزت فناني العصر الفيكتوري إلى الإمساك بريشاتهم وفراشيهم لتسجيل هذه المعركة. ولعل أهم شخصية برزت خلال هذه الحرب كانت امرأة تدعى فلورنس نايتنجيل Florence Nightingale التي حاولت مقاومة ألد الأعداء وأشرسهم على الإطلاق بالنسبة لكلا الطرفين ألا وهو المرض.

تحول الكابوس الذي كان البريطانيون يخشونه منذ زمن إلى واقع في عام ١٨٥٧م حيث وقعت معركة شرسة أطلق عليها «التمرد الكبير» أو «حرب الاستقلال الهندية». وقد ضمت الثورة الهندية ما يزيد عن خمسين ألفًا من الجند وعددًا لا يحصى من المدنيين تتقدمهم كتائب المجندين الهنود وذلك قبل أن يتمكن البريطانيون من إحكام سيطرتهم على البلاد. ثم أُبعد آخر الأباطرة المغول عن العرش، وقتل أولاده بواسطة أحد الضباط البريطانيين. وجاءت ذروة الحرب في لاكناو حين لقي هنري هافلوك قائد قوات الدفاع مصرعه بين رجاله، بينما نجا الدكتور برايدن كعادته — وكان قد أصبح جراحًا لا مساعد جراح — من هذا الحصار الملحمي.

وحين كانت القوات البريطانية تركز اهتمامها بشدة على الصراع الدائر في وسط الهند، فقدَ دوست محمد فرصة نادرة للاستيلاء على بيشاور، تلك المدينة الأفغانية العريقة التي انتزعها السيخ ووقعت تحت سيطرة التاج البريطاني. وفي الواقع كان يمكن للبريطانيين أن يتخلوا عن المدينة في مقابل وعد من دوست محمد بألا يقوم بأي تحركات مستقبلية، لأن أي هجوم أفغاني من الشرق خلال التمرد كان سيثير مشاكل كبيرة. إلا أنه بعد أن وضع البريطانيون حدًّا لتمرد رعاياهم الهنود أصبح لديهم قوات أكثر عددًا مما كان لديهم سابقًا. وظلت بيشاور حتى يومنا هذا خارج الحدود الأفغانية مع أن البشتون سكنوها.

بعد وفاة دوست محمد عام ١٨٦٣م، وقعت أفغانستان مرة أخرى فريسة حرب أهلية ضروس فقد اختار الدوست شير علي أصغر أبنائه كي يخلفه في الحكم، لكن شير علي واجه تمردًا من شقيقيه الكبيرين: عزام خان وأفضل خان، وساندهما في هذا عبد الرحمن خان ابن أفضل خان. وفي عام ١٨٦٦م، انتصر عبد الرحمن في سلسلة من المعارك انتهت باستيلاء أفضل خان على

العرش، إلا أنه توفي بعد ذلك، وحدث شقاق بين عبد الرحمن وعمه فر على أثره عبد الرحمن متجهًا نحو الشمال، وفي عام ١٨٦٩م استطاع شير علي أن يدخل كابول.

كانت المملكة التي سيطر عليها شير علي متسعة في امتدادها فقيرة في عوائدها الاقتصادية، وهو مزيج لا يتوافق مع دورها بوصفها آخر دولة تفصل بين روسيا — التي بدأت في نشر نفوذها — وبين امتداد الإمبراطورية البريطانية في آسيا. في أعقاب حرب القرم عادت روسيا إلى توجيه اهتمامها إلى بلاد ما وراء النهر، وفي هذه المرة عجز أمراء بخارى وطشقند وخيوة عن مقاومة القيصر. وعلى الرغم من أنه كان هناك اتفاق تم بين الدبلوماسيين البريطانيين ونظرائهم الروس على أن تظل أفغانستان بعيدة عن تطلعات القوتين، وأن تبقى حدودها الشمالية عند آمودريا (جيحون) (عند نهر الأوكسس)؛ فإن البريطانيين لم يطمئنوا إلى أن روسيا لن تحاول الوصول إلى الهند.

في عام ١٨٧٤م وصل حزب بنيامين دزرائيلي Benjamin Disraeli المحافظ إلى الحكم في لندن ووضع «سياسة استباقية» تشبه ما أطلق عليه الأمريكيون بعد ذلك «سياسة الاحتواء»، وفي إطارها ضغط اللورد ليتون Lord Lytton — المندوب السامي الجديد في الهند — على «شير علي» ليوافق على وصول بعثة دبلوماسية إلى أفغانستان مع تعيين مندوب رسمي مقيم في كابول. وتردد الملك بحجة أنه في حالة وصول تلك البعثة لن يستطيع أن يضمن سلامتها، وعلاوة على هذا فإن الروس سوف يطالبون بالضرورة بمساواتهم بالإنجليز. وكان الأفغان مثل البريطانيين وجلون من احتمال حدوث عدوان روسي عليهم، وكان إقليم شمال الهندوكوش في حالة سيئة لا تمكنه من مجابهة طموحات جنرال القيصر أنتونين كاوفمان Antonin Kaufman.

وصل التوتر بين بريطانيا وروسيا إلى ذروته في أبريل/نيسان من عام ١٨٧٧م حين أعلنت روسيا الحرب على تركيا عقب مذبحة قام بها الأتراك ضد المواطنين المسيحيين في بلغاريا، فشن القيصر هجومًا مزدوجًا من القوقاز والبلقان. وقد دمر الدوق نيكولاس العظيم Grand Duke Nicholas جيشًا تركيًا بعد حصار مرير لمدينة بليفنا البلغارية، ثم زحف بجيشه المكون من مائة ألف مقاتل إلى القسطنطينية، وهناك وجدوا القوات البحرية البريطانية راسية في الدردنيل. وهناك دار قتال بين قوات القيصر والسفن الحربية

الملكية دام لمدة ستة أشهر انتهت بتوقيع معاهدة في مؤتمر برلين لوضع حد لهذه العداوة. لكن أثناء تلك المناوشات التي كانت تنذر بحرب شاملة قام الجنرال الروسي كاوفمان بحشد جيش من ثلاثين ألف مقاتل في تركستان وتأهب به للزحف نحو الهند البريطانية. وفي البداية أرسل بعثة مكونة من مائتين وخمسين جنديًّا إلى كابول بقيادة الجنرال نيكولاي ستوليتوف Nikolai Stolietov للحصول على دعم الأفغان.

كان شير علي يخشى رد الفعل البريطاني بقدر ما يخشى التهديد الروسي، فأرسل إلى البعثة الروسية يتوسل إلى ستوليتوف أن يعود أدراجه ... إلا أن ستوليتوف استمر في التقدم بعد أن أرسل إلى الملك الأفغاني يؤكد مساندة روسيا التامة له. وفي الثاني والعشرين من يوليو/تموز بعد انتهاء مؤتمر برلين مباشرة، قابل شير علي الروس في كابول. وحين علم كاوفمان أن الحرب قد انتهت، استدعى البعثة، إلا أن بعض القادة الروس تمهلوا في الاستجابة له، وظلوا في كابول حتى شهر أغسطس/آب. وحين علم لورد ليتون في كلكتا بوجود الروس في كابول استشاط غضبًا وطلب بدوره أن يقبل الأفغان وجود بعثة بريطانية مماثلة.

لم يمض على هذا أيام قلائل حتى مات وريث شير علي وأقرب أبنائه إليه، واعتبر الإنجليز الحداد الذي أعلنه الملك نوعًا من التسويف والمماطلة، فأرسلوا بعثتهم إلى كابول دون انتظار موافقته. وفي الثالث من سبتمبر/أيلول قاد سير نيفيل شامبرلين Sir Neville Chamberlain مائتين وخمسين رجلًا إلى ممر خيبر، ولكنه اضطر إلى العودة بعد أن رفضت القوات الأفغانية المتمركزة هناك السماح له بالمرور. عند هذه النقطة أراد ليتون أن يعلن الحرب فورًا إلا أن مجلس الوزراء برئاسة دزرائيلي اجتمع وانتهى إلى تخيير شير علي بين أمرين: إما الاعتذار عما بدر منه والسماح بوجود بعثة بريطانية دائمة في كابول، أو الحرب. وكانت مهلة الإنذار تنتهي مع مغيب شمس يوم عشرين نوفمبر/تشرين الثاني. وفي اللحظة الأخيرة أرسل شير علي موافقته على استقبال البعثة الدائمة، إلا أن الرسالة وصلت متأخرة (ولم تحوي اعتذارًا)، وفي جميع الأحوال كان البريطانيون قد عزموا على شن الحرب. وفي صبيحة يوم ٢١ نوفمبر/تشرين الثاني زحفت ثلاثة جيوش إلى أفغانستان، وبدأت الحرب الأنجلو أفغانية الثانية.

وهنا يمكن القول إن أي مقارنة بين الحربين الأنجلو أفغانيتين الأولى والثانية تبدو كمقارنة بين فيلم من أفلام رعاة البقر لجون واين، وفيلم رومانسي مثل فيلم ذهب مع الريح. فقد كانت الحرب الثانية خالية تمامًا من المثالية أو حتى السذاجة التي اتسمت بها الحرب الأولى، حين كان الطرفان يجدان في مبادئ الشرف والوطنية والدفاع عن النفس دافعًا للحرب. أما الحرب الثانية فلم تكن إلا مجرد بطش غاشم من جانب قوة كبرى تريد أن تلتهم دولة أصغر منها.

كانت بريطانيا عقب كارثة عام ١٨٤٢م بقليل قد بدأت تخطو أولى خطواتها نحو عصر النهضة العلمية حيث كان التقدم التكنولوجي يتطور مع كل جيل جديد ليزيد من الهوة العسكرية بين الدول الغنية والدول الفقيرة. ومع حلول ١٨٧٨م كان التقدم الصناعي في إنجلترا قد أثمر عن إنشاء السكك الحديدية وخطوط التلغراف التي امتدت على طول الأراضي الهندية بأكملها وحتى الحدود الأفغانية. وفي البحار حلت البواخر التي يسيرها البخار محل السفن ذات الأشرعة، وتزايدت سرعتها بحيث أصبح في الإمكان نقل الجنود إلى شبه القارة في مواعيد منتظمة محددة. وفي نفس الوقت كانت قناة السويس قد اختصرت المسافة بين إنجلترا والهند إلى النصف، وفي عام ١٨٦٦م أصبحت جيوش الملكة تستخدم البندقية «مارتيني-هنري» وهي بندقية يتم حشوها من مؤخرتها وذات فاعلية يمتد مداها إلى ألف ياردة، وصارت كذلك تستخدم مدافع أكثر جودة ذات دانات أكثر فاعلية وأشد تدميرًا. وخلع الجند البريطانيون معاطفهم الحمراء واستبدلوها بالزي الكاكي، كما استبدلوا القبعات العسكرية العالية بالخوذات.

بالإضافة إلى كل ما سبق، كان الغموض الذي أحاط يومًا بالأفغان قد تبدد لدى البريطانيين. ومنذ ضم البنجاب إلى السند شنت قوات الراج ما لا يقل عن أربعين حملة تأديبية في أراضي البشتون على الشمال الغربي للحدود ضد غارات السلب والنهب التي كان يقوم بها أمراء الحرب المحليون. وفي ذلك الوقت كذلك كان البريطانيون قد احتووا المقاتلين السيخ ضمن قواتهم، والسيخ شعب مقاتل لعب دورًا هامًّا في القتال ضد الهندوس أثناء تمردهم، وكانوا خبراء في قتال الأفغان منذ أزمنة بعيدة. وأخيرًا كانت مشاعر الانتقام ما زالت تسيطر على الجنود البريطانيين منذ أحداث ١٨٤٢. وكما اعتبرت الحربان العالميتان الأولى والثانية في أوروبا جولتين من حرب واحدة ضد الألمان، يمكن

أيضًا النظر إلى الحرب الأنجلو أفغانية الثانية — على الأقل بالنسبة للجنود الشباب الذين نشئوا وفي ذهنهم مأساة إلفنستون — على أنها جولة ثانية من حرب «جيش العقاب».

لم يكن لدى شير علي من الإمكانيات ما يكفي لصد هذا الهجوم، وكان قد حاول تجميع جيش وطني من خمسين ألف رجل، إلا أنه بالكاد استطاع دفع رواتبهم وشراء عتادهم. ورغم زيهم الموحد الجديد — والذي هو الأول في تاريخ أفغانستان — حين حان وقت الاقتحام كان ولاء معظم هؤلاء الجنود لقبائلهم. وكان الملك في أحسن الأحوال قادرًا على التأثير عليهم لا السيطرة عليهم. فاضطر إلى الفرار شمالًا إلى مزار شريف ومن هناك أرسل إلى الروس يلتمس دعمهم، وأيًّا كانت الوعود التي كان الروس قد قطعوها له سابقًا خلال الصيف إلا أنهم تخلوا عنها، ونصحه كاوفمان بالوصول إلى اتفاق مع البريطانيين. وهنا صمم «شير علي» على التوجه إلى سان بطرسبرج ليضع قضيته أمام القيصر، إلا أن كاوفمان رفض السماح له بعبور آموداريا (جيحون). وحين حوصر الملك بين خطر الموت من ناحية والخيانة من ناحية أخرى، اضطر إلى التوجه إلى مدينة بلخ التي كانت في وقت حاضرة عريقة ثم أصبحت بعد ذلك أطلالًا لا يسكنها إلا القليلون. وهناك مات في شهر فبراير/شباط دون أن يعرف أن البريطانيين سوف لا يجدون أي متعة في غزو أفغانستان للمرة الثانية مثلما حدث في المرة الأولى، وأنهم سوف يتركون البلاد حين تحين لهم أول فرصة.

أكدت أولى مراحل تلك الحرب الدرس الذي سبق أن استوعبه الكثيرون عبر القرون، وهو أن أفغانستان بلد لا يستعصي على الغزو؛ حيث إن قوتها الداخلية لا تستطيع بصفة عامة أن تتبلور في قرارات تضع العواقب في اعتبارها أو تؤدي إلى خلق وحدة تنظيمية تستطيع الدفاع عن حدودها، وعليه فقد حشد الجنرال سام براون Sam Browne جيشه المكون من خمسة عشر ألف مقاتل، وزحف من منطقة تجاور بيشاور في الحادي والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٨٧٨م وتقدم حتى ممر خيبر. وفي طريقه نشبت معركة بينه وبين القوات الأفغانية في علي مسجد، وهي القلعة التي تقع على تل يبعد خمسة أميال داخل الممر، ولكن بعد حلول الظلام انسحب الأفغان بعد أن قامت فرقة الفرسان البريطانيين بمطاردتهم في اليوم التالي.

وفي الجنوب تركت قوات الجنرال دونالد ستيوارت Donald Stewart المكونة من اثني عشر ألف رجل تعزيزات في كويتا، ثم عبرت ممر بولان ومنه إلى ممر خوجاك، ثم زحفت إلى قندهار واحتلتها بسهولة مثلما فعل جيش السند العظيم عام ١٨٣٨م.

ولعل المعركة الوحيدة التي يمكن أن تسمى معركة كبيرة هي التي خاضها قلب الجيش بقيادة الجنرال فردريك روبرتس Frederick Roberts، الذي شن هجومًا على الأفغان في وادي كورام بجيشه الذي ضم ستة آلاف وخمسمائة جندي. ومع أن روبرتس لم يكن رجلًا ضخم الجثة أو حتى متوسط الحجم فإن شجاعته التي أظهرها في قمع حركات التمرد في لاكناو أثارت إعجاب الجميع، واستدعت حصوله على وسام صليب فيكتوريا. ذات مرة شاع بين جنود فصيلته أن مجندي سلاح المدفعية الهنود قتلوه، فأخذ الجند يصيحون «يا الله ... لقد مات بوبس الشجاع»، لكن تبين أن هذه الشائعة غير صحيحة، وبعد ذلك حين بدأ يرتقي في الرتب العسكرية، تحول لقبه إلى «بوبس الصغير» مع أنه كان معروفًا بأنه يركب أضخم خيول الجيش على الإطلاق. وبالنسبة للبريطانيين لم تكن حرب أفغانستان الثانية سوى سجل لإنجازات الجنرال روبرتس، وكانوا يأسفون لأن مثل هذا الجنرال الجريء المقدام لم يكن موجودًا في عام ١٨٤٢م، وإلا لما كان هناك داع لحرب ثانية.

عبرت قوات روبرتس وادي الكورام، إلا أنها تقابلت مع قوات أفغانية وبعض رجال القبائل الذين كانوا يتمركزون على المرتفعات التي تبعد مسافة أربعة أميال في منطقة تدعى بيوار كوتال تقع في أول الوادي. وبعد حلول الظلام قاد روبرتس فصيلة تتكون من ثلاثة سرايا اتجهت إلى جناح القوات الأفغانية، وأخذ الجند يتحسسون طريقهم خلال المرتفعات ليصلوا إلى ميسرة الأعداء. وخلال الليل حاول بعض البشتون ممن يتبعون فرقة المشاة الوطنية التي تحارب مع روبرتس إطلاق نيرانهم لتحذير المدافعين الأفغان، إلا أن روبرتس حرك هذه الفرقة إلى مؤخرة الجيش وتقدم هو مع بقية القوات التي ضمت فرقة من الجورخا بالإضافة إلى الفرقة الثانية والسبعين التي تضم جندًا من الألبان قاطني الجبال.

وفي الفجر أغار روبرتس على الأفغان من اليسار واستولى على قلعتين، «وقد توقف في طريقه فقط ليمطر المدافعين بالحراب»، وفي نفس الوقت

كانت قواته المتمركزة في الوادي قد بدأت هجومها ... وانهار الأفغان أمام الهجوم وتخلوا عن بنادقهم بعد أن خلفوا وراءهم ثلاثمائة قتيل في أرض المعركة. أما بقية الجيش الأفغاني الذين كانوا يبلغون خمسة عشر ألف جندي فقد تشتتوا تمامًا، في حين انتظر المقاتلون الأفغان بصبر فرصة مناسبة لمقاومة هذه الموجة الجديدة من الفرنجة. وكانت حصيلة خسائر هذه المعركة على الجانب البريطاني واحدًا وعشرين قتيلًا وخمسة وسبعين جريحًا.

وفي كابول كان شير علي قد تخلى عن العرش ليعقوب خان وهو ابن له سبق أن اعتقله. وبعد وفاة شير علي تبادل يعقوب خان الرسائل مع البريطانيين ملمحًا إلى رغبته في إنهاء ما بينهما من عداوات، مع أن حلول الشتاء كان قد فرض بالضرورة توقف العمليات الحربية. وفي غضون ذلك كانت قوات براون المعسكرة في جلال أباد قد خاضت معركة شرسة مع القبائل المجاورة. ويصف ريتشارد جوردون كريد Richard Gordon Creed، الضابط في فرقة المشاة السابعة عشرة سلسلة المعارك تلك فيما يلي:

> «هوجمت كتيبة استطلاعية في التلال المنخفضة بالقرب من بلدة ميداناك، وأسفر هذا الهجوم عن مصرع ضابط واثنين من السيخ في حين جرح ضابط آخر، وفي اليوم التالي أُرسلت فرقة مساعدة إلى قرى «دي-ساراخ» لشراء بعض المؤن، فقام المواطنون بالتصدي لها وأجبروها على التراجع دون أن يوقعوا بين صفوفها أي قتلى أو جرحى، وفي نفس اليوم هوجم حرس تابعون للفرقتين العاشرة والسابعة عشرة من ممتطي الجمال بواسطة قبائل الشينوراي، وقتل اثنان من الجنود واستولى الأعداء على اثنين وأربعين جملًا.»

وفي ليلة السابع من فبراير/شباط تعرض البريطانيون إلى مأساة حين غرق سبعة وأربعون من رجالهم أثناء عبورهم نهر كابول. وكان أحد المرشدين الأفغان قد قاد بنجاح القسم الأول من الجيش عبر مرتفع رملي يقع على جزء من النهر، إلا أن اثنين من البغال تحركا نحو الطريق الخطأ، وتبعهما الفرسان في جنح الليل ليسقطوا في مياه النهر العميقة سريعة الجريان.

اتخذ القتال منحى متوحشًا بعد أن تحول إلى حرب العصابات، فلم يكن البريطانيون قادرين على تحديد العدو على وجه الدقة. إلا أنهم اكتشفوا شيئًا واحدًا وهو أن جميع مقابر الأوروبيين التي تعود إلى الحرب الأولى قد حفرت وانتهكت خلال السنوات السابقة دون رحمة ولم يقتصر هذا الفعل على طرف واحد بل قد اشترك الجميع فيه. ويصف جوردون كريد — وهو جندي تابع لفرقة المشاة السابعة عشرة — الهجمة المشتركة التي شنتها فرقته بالاشتراك مع الفرقة الخامسة من الجنود المسلحين بالبنادق وفرقة القناصين البنغال على قبيلة الشينوراي قائلًا:

«استدار الأعداء وفروا هاربين عبر وادٍ صغير شديد الانحدار إلى يمين الجيش، فلاحقتهم فرقة المشاة وكبدتهم ستين قتيلًا، في حين لم تتجاوز خسائرنا ثلاثة قتلى واثني عشر جريحًا، كما قتل أربعة خيول وجرح الكثير.

وفي الوادي الضيق تمكنت الفرقة السابعة عشرة من قتل ثلاثة عشر من الأعداء وأسر اثنين من جرحاهم. وعلى مبعدة من الوادي عثرنا على جسد قناص بنغالي مشوه، بعدها انعطفنا انعطافًا حادًّا ففوجئنا بأربعين رجلًا مسلحًا من رجال التلال يستريحون، وكان معهم جوادان كان يملكهما القناص البنغالي. فقتلنا ثلاثة وثلاثين منهم على الفور رميًا بالرصاص واستعدنا الجوادين.»

وفي فصل الربيع دعا المندوب السياسي البريطاني لويس كافاناري Louis Cavagnari يعقوب خان إلى اجتماع في جانداماك، وهناك استقبل الملك الأفغاني استقبالًا حافلًا، وقام بتفقد القوات البريطانية كما عزفت له الموسيقى مارش «ليحفظ الله الملكة». وفي السادس والعشرين من مايو/أيار من عام ١٨٧٩م وقع يعقوب خان معاهدة جانداماك التي تنازل فيها عن وادي البيشين ووادي سيبي (اللذين يقعان بالقرب من كويتا)، ووادي كورام وممر خيبر لصالح الإنجليز. وكان هذا يتفق مع رغبة دزرائيلي في وضع حدود ثابتة لتلك المناطق غير محددة المعالم. ووافق يعقوب كذلك على تولي البريطانيين مسئولية الشئون الخارجية للبلاد، وسمح لبعثة بريطانية بالإقامة في كابول بصفة دائمة. وفي المقابل تلقى وعدًا بمنحة سنوية تقدر بستين ألف جنيه

استرليني من حكومة الملكة، بالإضافة إلى تأكيدات بدعم البريطانيين له ضد أي اعتداءات خارجية.

في لندن رأى الجميع في هذه المعاهدة انتصارًا لما عرف بـ«السياسة الاستباقية». وقد علق السير هنري رولنسون — بعد أن أصبح عضوًا في المجلس الهندي — على هذا قائلًا: «لقد انتقمنا لشرف بريطانيا، ولم يكلفنا هذا الكثير من المال أو الرجال.» وكان من أهم ما تمخضت عنه هذه المعاهدة كذلك الهزيمة المعنوية التي تلقتها روسيا، فضلًا عن استعادة الإمبراطورية البريطانية الهندية لهيبتها. وكان الأمر الوحيد الذي حذر منه في مقاله الذي مجد فيه هذا الانتصار والذي نشر في مجلة «ناينتينث سنشري»، هو أنه عند التعامل مع أناس كالأفغان يجب على المرء أن يأخذ حذره.

ولقد اتفق ضباط الجيش معه في هذا الرأي، فأولئك الجند الذين عاصروا المقاومة الأفغانية الشرسة من قبل لم يطمئنوا لتلك التسوية السياسية السريعة كما لم يطمئنوا لها قبل أربعين سنة خلت. وفي ذلك الوقت كان التذمر والاستياء يعمان الجنود البريطانيين، لأنهم بعد أن اضطروا إلى تحمل قسوة شتاء أفغانستان أصبحوا مطالبين بالانسحاب في موسم الحملات العسكرية دون أن يحاربوا، في نفس الوقت الذي كان فيه الأفغان يهللون في الجبال وهم (على حد اعتقاد البريطانيين) يعدون العدة لانتهاك المزيد من قبور البريطانيين. وكان مما ضاعف شعور الجنود البريطانيين بالاستياء أن وباء الكوليرا قد اجتاح المنطقة الواقعة على طول الطريق إلى بيشاور، وكان هذا أثناء انسحابهم منها، ويصف جوردون كريد ذلك الأمر بقوله:

«كنا في تلك الفترة ندفن الجنود بشكل يومي — وتركنا الكثيرين وراءنا ولم ينج منهم إلا القليل — وفقد سلاح الرماة ضابطين وما يزيد عن مائة جندي ... كما فقدت الفرقة العاشرة من سلاح الفرسان أكثر من ثمانين جنديًا من أفرادها ... وأما الفرقة الملكية السابعة عشرة فقد فقدت أربعة ضباط وثمانية وستين جنديًا ... ومن بين هؤلاء مات ست وثلاثون بسبب الكوليرا، والباقون ماتوا بالالتهاب الرئوي والدوسنتاريا. ولم تكن الفرقة الثانية أسعد حظًا، فقد

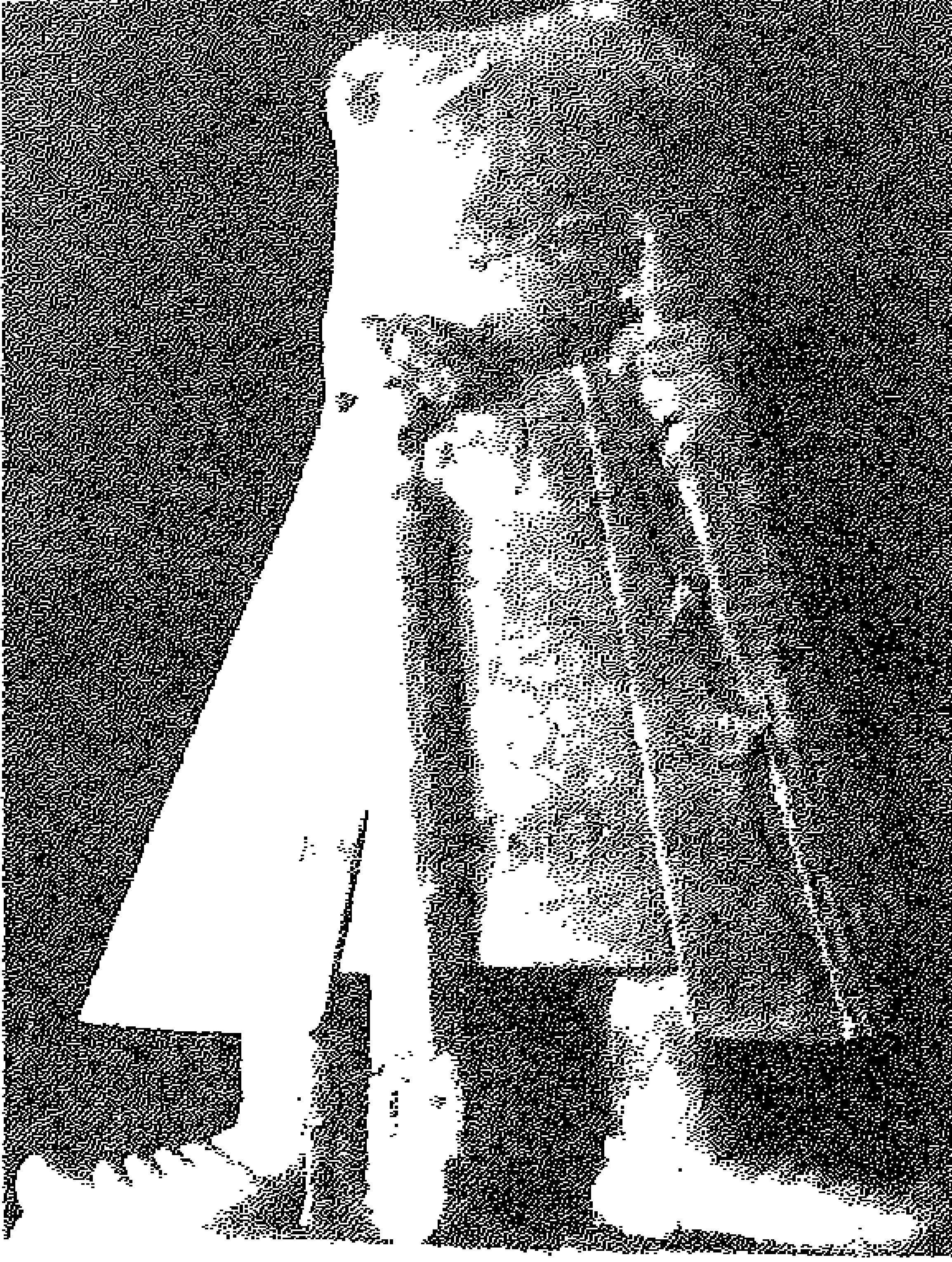
ابتليت بذات الأوبئة. وخلافًا لذلك فقد فقدت معدات فرقتين من الفرق البريطانية على الأقل خلال مسيرة الموت تلك.»

بخلاف الاستحواذ على أرض أفغانستان – وهو ما كانت بريطانيا تسعى إليه منذ سنين – كان الهدف الأكثر أهمية هو إيجاد موقع ثابت للبريطانيين في كابول حتى يتسنى لهم مراقبة تحركات الروس عن كثب، وإجبار الأفغان بالقوة على الالتزام بالسياسة البريطانية. وصل سير لويس كافاناري (الذي منح اللقب مكافأة لدبلوماسيته في جانداماك) إلى العاصمة الأفغانية في يوليو/تموز ١٨٧٩م مع حفنة صغيرة من معاونيه وخمسة وسبعين من صفوة المرشدين الهنود، وكان كافاناري – وهو ابن لأب من كبار الضباط الذين شاركوا في الحروب النابليونية وأم أيرلندية – رجلًا شجاعًا وذكيًّا وواعيًا تمامًا الدور المنوط به. قام كافاناري بمصافحة الجنرال روبرتس قبل مغادرته، ثم استدار الرجلان وسار كل منهما في طريقه لمسافة قصيرة ثم عاد الاثنان واستدارا مرة أخرى وتصافحا ثانية. بعد ذلك بستة أسابيع لقي كافاناري ورجاله مصرعهم، لتبدأ المرحلة الثانية من الحرب الأنجلو-أفغانية الثانية.

كان يعقوب خان قد أعد مكانًا لإقامة كافاناري داخل قلعة بالاهيسار الضخمة حيث كان الملك الأفغاني يحتفظ بألفين من رجاله وفي الثاني من سبتمبر/أيلول، زحفت إلى كابول أربع فرق حربية أفغانية قادمة من هرات مطالبة برواتب أربعة أشهر سابقة. وكان أحد الجواسيس قد حذر كافاناري من مغبة هذه الاضطرابات عليه، إلا أنه استخف بهذا التحذير وقال: «إن الكلاب التي تنبح لا تعض»، فرد عليه الجاسوس قائلًا: «ولكن هذه الكلاب تعض ... وخطرها عظيم.» وفي اليوم التالي منح يعقوب خان أولئك الجنود المتذمرين راتب شهر واحد فقط، إلا أنهم لم يرضوا بهذا، وتوجهوا إلى مقر المندوب السامي البريطاني معتقدين أنه يعج بثروات جمة. ومن الواضح أن جرأة كافاناري قد جاوزت دبلوماسيته في هذا الموقف، لأنه أمر بإطلاق النار، صحيح أنه أمر بإطلاقه في الهواء، إلا أن هذا كان أمام حشد كبير خارج عن السيطرة غير مسلح حتى هذه اللحظة. لكنهم ما إن رأوا الرصاص يتطاير في الهواء حتى انسحبوا بسرعة كي يستلوا أسلحتهم ويعودوا وقد انضمت إليهم جماهير شعب كابول الغفيرة.



لوحة من الفسيفساء عثر عليها في بومبي تصور هجوم الإسكندر الأكبر على الملك الفارسي داريوس الثالث في معركة جوجاميلا. كان داريوس قد حشد جيشًا من الخيالة المدججين بالأسلحة الثقيلة ووضعهم في الجناح الأيسر لجيشه بهدف قتل الإسكندر، إلا أنه حين بدأ الجيشان يختلطان اندفع الإسكندر إلى الوسط نحو داريوس نفسه.



تمثال يقال إنه لكانشيكا، الحاكم القوي الذي حكم الإمبراطورية الكوشانية في القرن الثاني بعد الميلاد. أقام كانيشكا طرقًا تجارية بين روما والهند والصين. واتخذ أفغانستان محورًا لهذه الطرق كان أهم أعماله هو مد انتشار البوذية شرقًا.



على مدى خمسمائة عام قام مجتمع مزدهر بوذي في مدينة باميان التي تقع في إقليم في الهندوكوش. تمثال بوذا هذا الذي يبلغ ارتفاعه ١٧٥ قدمًا نحت في القرن الثالث الميلادي، ودمرته طالبان في مارس/آذار من عام ٢٠٠١م.



استطاعت أفغانستان أن تتحمل موجات غزو كثيرة أتت من سهول آسيا الوسطى، لكنها في القرن الثالث عشر الميلادي خربت خرابًا تامًا على يد المغول الذين لم يكن لهم هدف إلا التدمير.



حين أسلم المغول الأتراك، شهدت حضارة جنوب آسيا ازدهارًا كبيرًا في الفنون والعمارة والشعر والعلوم. وتمثل هذه الصورة بابور مؤسس الإمبراطورية المغولية في أوائل القرن السادس عشر. وكان بابور ينحدر من نسل جنكيز خان وتامرلين معًا.



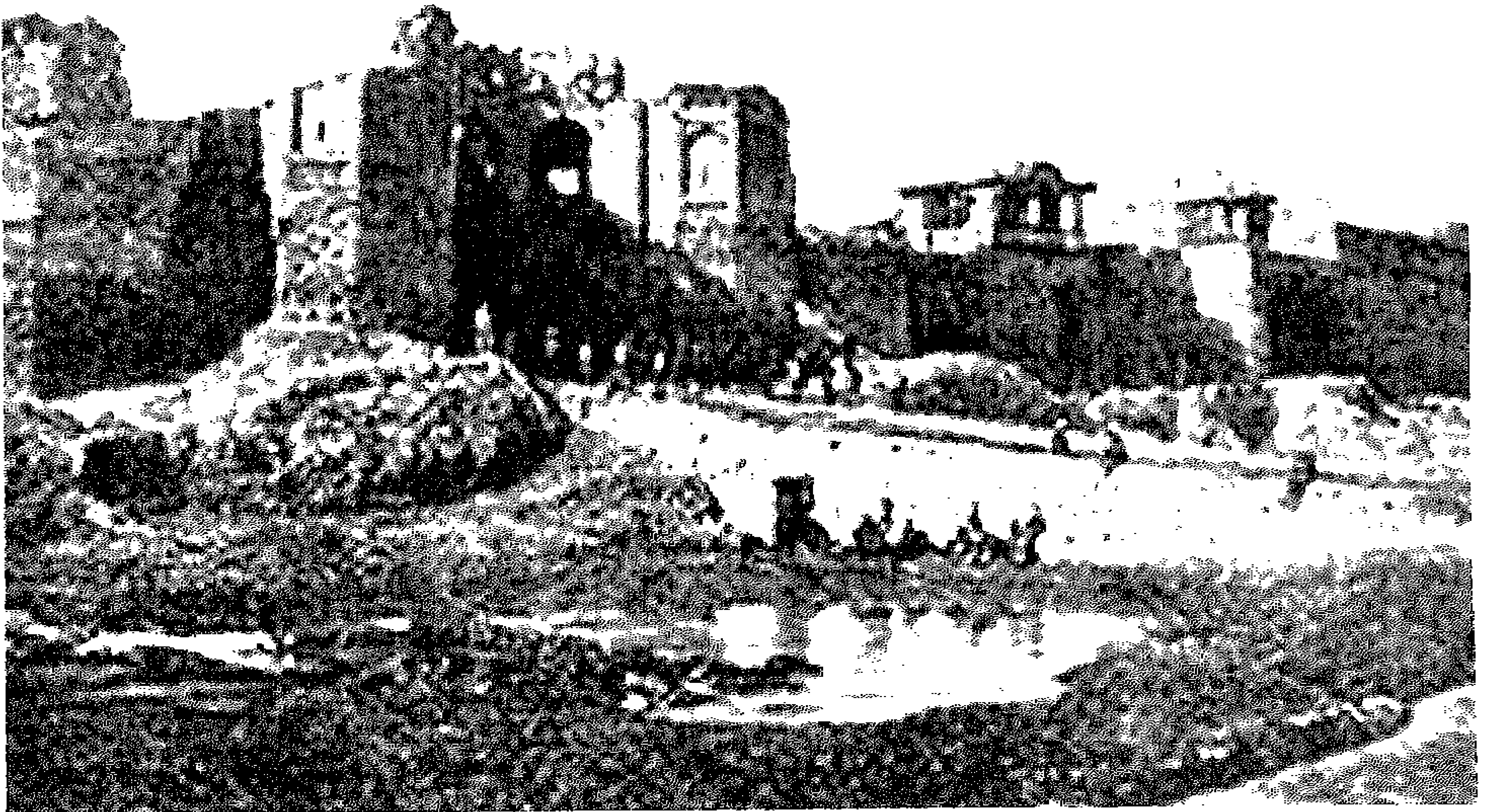
في عام ١٧٥٧م أسس أحمد شاه دوراني أول إمبراطورية أفغانية وطنية، وضعت على أساسها حدود أفغانستان الحديثة.



رغم استسلام أبوه إلى البريطانيين ظل أكبر خان — ابن دوست محمد — على تحديه لهم، ولعب دورًا رئيسيًا، وإن كان غامضًا في مذبحة الجيش البريطاني التي تمت خارج كابول بعد ذلك.



غزا البريطانيون أفغانستان عام ١٨٣٨م لإقصاء الملك الدوراني دوست محمد عن العرش؛ لأنهم شكوا في أنه يتآمر مع الروس.



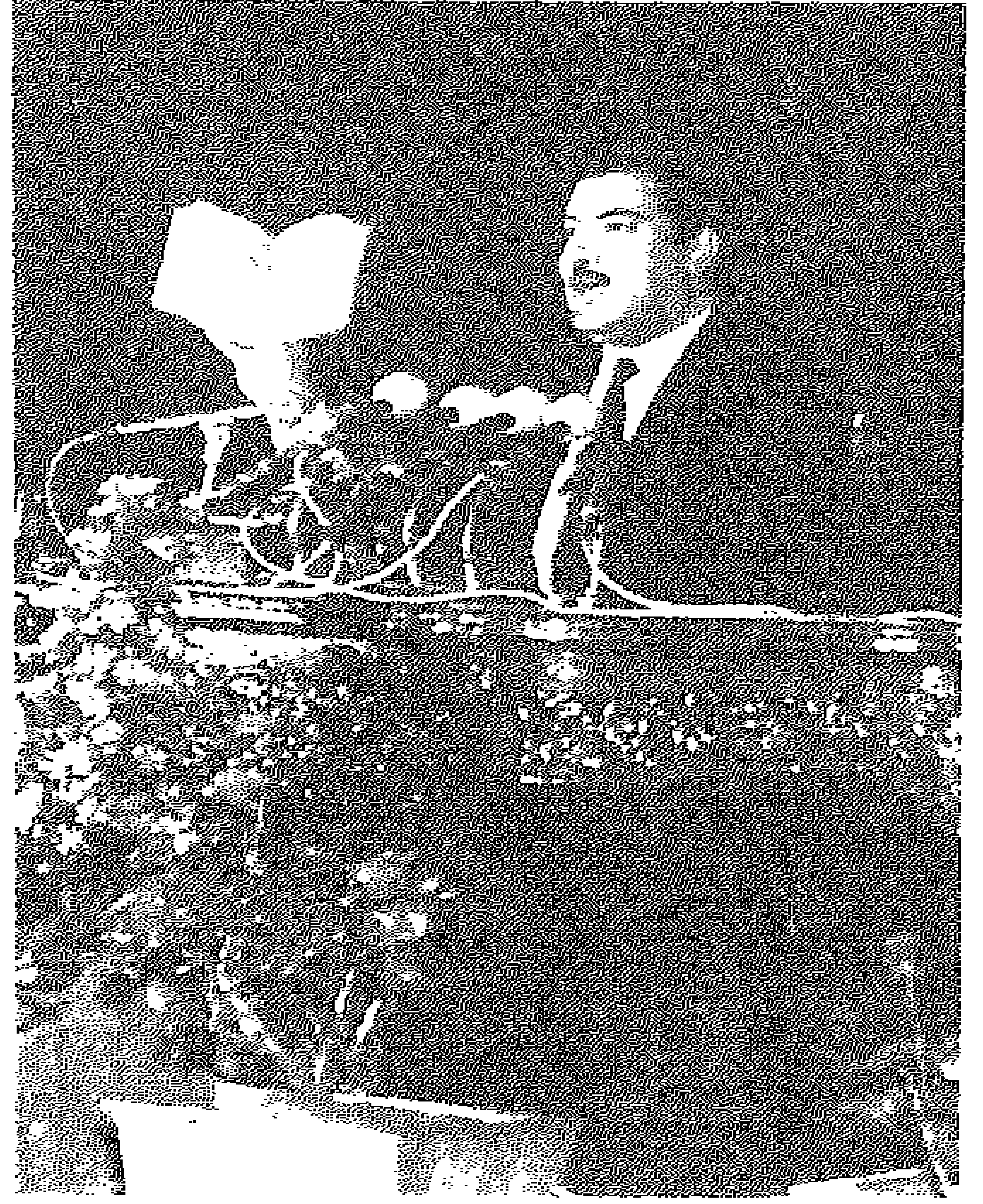
قلعة بالاهيسار الضخمة في كابول. يقال إن الجيش البريطاني كان من الممكن أن ينجو من المذبحة إذا ما ظل متحصنًا داخل القلعة بدلًا من محاولة التقهقر إلى الهند.



«بقايا جيش». من بين حوالي سبعة عشر ألفًا من الجنود الذين حاولوا التقهقر من كابول عام ١٨٤٢م، كان الطبيب ويليام برايدن هو الإنجليزي الوحيد الذي نجا من القتل. ثم تبعه بعد ذلك قلة من الجند الهنود ساروا على أقدامهم حتى جلال أباد.



هذه الصورة التي تمثل عملية «إنقاذ المدافع البريطانية» في مايواند تحاول أن تضفي على أكبر الكوارث التي ألمت بالجيش البريطاني في الحرب الأنجلو أفغانية الثانية شكلًا ملحميًّا مجيدًا. ففي مايواند فقد البريطانيون ألفًا من جنودهم الذين كان عددهم نحو ألفين وخمسمائة جندي، في حين عاد الباقون إلى قندهار منهكين تحت نيران القناصة.



محمد نجيب الله، آخر الزعماء الشيوعيين في أفغانستان، وهو ممسك بمصحف قال إن رصاصة أطلقها المجاهدون قد اخترقته، وكان ذلك في مؤتمر صحفي عقد عام ١٩٨٧م. ولقد أقصاه المجاهدون عن الحكم عام ١٩٩٢م، ثم أعدمته حركة طالبان عام ١٩٩٦م.



كان قتال المقاومة الأفغانية ضد السوفييت تقوده الغريزة في الأساس وليس التخطيط. تمثل هذه الصورة التي التقطت بعد الغزو بثلاثة أسابيع أحد المجاهدين وهو يمسك بندقية من مخلفات الحرب العالمية الأولى، ويمتطي الخيل التي كانت هي وسيلة التنقل فيما مضى.



جنود سوفييت في معركة ضد المجاهدين في ربيع عام ١٩٨٨م.

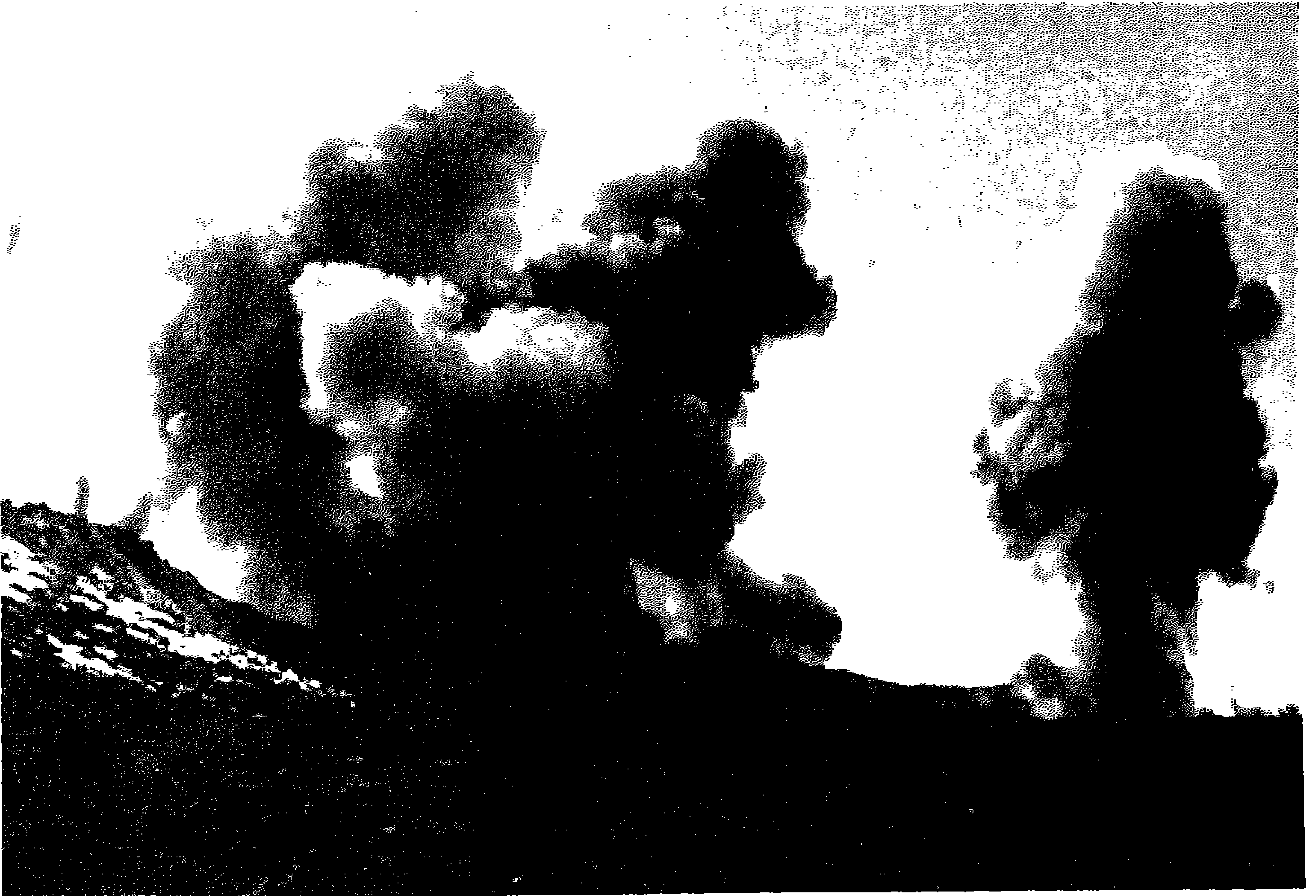


خلال الاحتلال السوفييتي سيطر أحمد شاه مسعود على وادي بانجشير الاستراتيجي وصد عنه هجمات السوفييت المتكررة. وخلال الحرب الأهلية التي استمرت بين عامي ١٩٩٢م و١٩٩٦م دافع عن كابول ضد المغيرين، وقاد التحالف الشمالي لمقاومة طالبان. وفي عام ٢٠٠١م وقبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول بيومين اغتِيل من قبل عملاء أسامه بن لادن الذين أصابوه بجروح خطيرة مات على أثرها.

قوات طالبان تتقدم باتجاه شمال كابول في مايو/أيار ١٩٩٧م، ورغم ما ادعته الحركة من سيطرتها على ٩٠٪ من إجمالي مساحة أفغانستان إلا أنها عجزت عن الاستيلاء على الجزء الأخير الذي يقع في الشمال الشرقي والذي كان تحت سيطرة أحمد شاه مسعود.



قوات المارينز في مطار قندهار في يناير/كانون الثاني من عام ٢٠٠٢م، فوجئ الجميع بانهيار نظام طالبان حتى قبل أن تشترك القوات البرية الأمريكية في المعركة بشكل كامل.



الهجمات الجوية الأمريكية ضد معاقل حركة طالبان وتنظيم القاعدة في شمال أفغانستان في شهر مارس/آذار من عام ٢٠٠٢م.

قتل كافاناري في بداية القتال بينما كان يقوم بهجمة مضادة ضد الجحافل التي أحاطت به ... وتولى القيادة بدلًا منه ملازم صغير السن يدعى ويليام هاملتون William Hamilton. وكان الأفغان في غضون ذلك قد احتلوا مواقع تعلوا مقر البعثة البريطانية يمكنهم من خلالها التصويب بدقة على أهدافهم، وقاموا بإحضار مدفعين لأجل هذا الغرض. اندفع هاملتون خلال الساحة ليستحوذ على المدافع، ولكنه أصيب بطلق ناري، فقاد الهجوم الأخير بعد ذلك أحد الضباط السيخ، وذلك بعد أن احترق مقر المندوب البريطاني بأكمله، وفي نهاية القتال لم يكن هناك سوى حفنة صغيرة من الرجال صمدت على الأسطح في حين انتشرت ألسنة النيران لتخلي الجو للأفغان بعد ذلك ليخترقوا القلعة وسط الرماد الذي غطى المكان. وبهذا الشكل أبيدت البعثة البريطانية بالكامل. وكان يعقوب خان قد أرسل أحد ضباط حاميته ليتوسل إلى الأفغان كي يكفوا عن أعمالهم، إلا أنهم جذبوه من على حصانه وأخذوا يضربونه وأجبروه على العودة، وبعدها لم تأت أي قوة أخرى للدفاع عن مقر المندوب السامي طوال الساعات الخمس التي استغرقتها المعركة.

وعلى الحدود احتفظ جنرال روبرتس بجيشه في وادي كورام الذي يبعد خمسين ميلًا عن كابول، في حين كانت قوات براون وستيوارت قد انسحبتا بعيدًا إلى المنطقة التي تعرف اليوم باسم باكستان. وعلى ذلك كان روبرتس أول من تحرك بجيشه وتمكن من تفريق الأفغان الذين احتشدوا ليُعيقوا مسيرته. وعلى بعد بضعة أميال من كابول تمكن أيضًا من التغلب على قوة كبيرة من الأفغان في شاراسيا عن طريق تطويق جناحيها. في هذه المعركة استخدم البريطانيون مدافع الجاتلنج لأول مرة، لكنهم وجدوها غير عملية الاستخدام، بالإضافة إلى أنهم كانوا يطلقون مائتي قذيفة في الدقيقة الواحدة مما جعلهم يدركون أن هذه المدافع شديدة الإهدار للذخيرة العسكرية.

وفي الثاني عشر من أكتوبر/تشرين الأول أعدت قوات روبرتس موكب نصر عزفت فيه الفرقة الموسيقى على مزامير القِرب بينما هي تجول طرقات كابول الموحشة. وذهب يعقوب خان ليلوذ بالبريطانيين وهو يقول: «أفضل أن أجز الحشائش في الهند على أن أكون حاكمًا لأفغانستان.» ولم يكن هناك من يصلح كي يحل محله. كتب الجنرال روبرتس يقول لزوجته: «إنني الآن في حقيقة الأمر ملك على كابول، وهي ليست مملكة أطمع فيها، بل سوف

أكون سعيدًا حين أخرج منها.» وفي تلك الآونة أثار روبرتس الرعب في قلوب المواطنين وهو يجول في المدينة بحثًا عن مرتكبي المذبحة الأخيرة، وقام بإعدام الكثيرين شنقًا في الأماكن العامة. وكان من أوائل من قتلهم حاكم كابول الذي كان يشرف بنفسه على تكويم جثث الجنود البريطانيين القتلى، ورجل آخر كان يطوف بالشوارع حاملًا رأس كافاناري. ولأن جند هرات الذين كانوا مسئولين عن الهجوم هربوا منذ زمن فقد بدأ روبرتس في تنفيذ حكم الإعدام ضد كل من اتهم بالتحريض على الفتنة أو بخيانة يعقوب خان، هذا الملك السابق الذي كان يجلس مكتئبًا في إحدى الخيام البريطانية. ذكر روبرتس أنه قام بشنق سبعة وثمانين شخصًا مع أنه قد يكون تجاوز هذا العدد بمراحل. وقد أثار ذلك ضجة هائلة في لندن حين وصلت أنباء هذه «الجرائم العقابية» من خلال خطابات الضباط البريطانيين.

وكما حدث مع حامية كابول القديمة اختار روبرتس ألا يضع جيشه في بالاهيسار ولكن في معسكر حصين خارج المدينة. وكان شير علي قد حاول في البداية إعداد مقر له ولجيشه في منطقة شيربور التي تقع شمال المعسكر البريطاني القديم، وقد شمل هذا المقر جزءًا من مرتفعات بيجارو، وحين انتقل الجيش البريطاني إلى مقره الجديد استولى على خمسة وسبعين مدفعًا كان الأفغان قد خلفوها وراءهم. وعلى العكس من الحامية الإنجليزية القديمة التي استمتعت بسنتين من الهدوء الخادع قبل أن تنفجر الثورة الأفغانية حولها، لم يكن أمام جيش روبرتس سوى شهرين فقط.

ومن غزنة أعلن رجل عجوز من الملالي يدعى موشكي-علام الجهاد ضد الدخلاء الكفرة، وجمع تحت لوائه الآلاف من رجال القبائل ... وتوافد المقاتلون إليه من التلال الشمالية والشرقية يملؤهم الحماس لتكرار نصر آبائهم عام ١٨٤٢م، وكان من بينهم قائد عسكري فذ قادم من بلاد الواردوك هو الزعيم محمد جان.

كان روبرتس قد قرر في البداية أن يهجم بجيشه الصغير القوي المكون من ستة آلاف وخمسمائة جندي، ليقضي على الجيوش الأفغانية التي كانت تتقدم نحوه قبل أن تتمكن من التمركز. وفي الثامن من ديسمبر/كانون الأول تفرقت فصائل الجيش البريطاني عبر الأراضي الواقعة جنوب وغرب كابول، ونتيجة لهذا قوبلت كل فصيلة منها بجيش أفغاني يفوقها عددًا مما حال

دون تجمعها معًا مرة ثانية. وفي اليوم الحادي عشر اشتبك فوج من الخيالة ضم سريتين من فرقة الرماة التاسعة، وفرقة من رماة الرماح البنغال، ومعهم مدافع تجرها أربعة أحصنة؛ مع جيش محمد جان بأكمله في الطريق المؤدي إلى غزنة. ولأن البريطانيين لم يعرفوا على وجه التأكيد ماذا عليهم فعله، فقد فتحوا نيرانهم على الأفغان، وحين اقتربوا بمدافعهم منهم بدا أن حشود الأفغان تتزايد، ولم تتأثر كثيرًا بهذا الهجوم، بل لقد بدأت تتقدم إلى الأمام. وفي هذه اللحظة أصدر روبرتس أوامره بالانسحاب، ولكي يحمي البريطانيون مدافعهم اضطروا إلى القيام بهجوم مضاد ليتقابل مائتان من رماة الحراب مع عشرة آلاف من مقاتلي القبائل. وعند نقطة التلاقي، غطت موجة هائلة من الغبار والدخان المكان لتنحسر بعد ذلك عن شرذمة من رماة الرماح ممزقي الملابس وهم يتقهقرون من أرض المعركة بعد أن فقدوا ثمانية عشر قتيلًا. وكان أحد ضباط المدفعية قد مكث بجوار مدفع محاولًا تعطيله فمزقته سيوف الأفغان.

ولم يكد البريطانيون ينسحبون إلى مسافة خمسمائة ياردة، حتى علقت المدافع الثلاث الأخرى في أحد الأنهار، وأمر روبرتس بمعاودة الهجوم، لكن هذا الهجوم لم يسفر عن فشل ذريع فقط، بل إنه كذلك سمح للجيش الأفغاني بالاستيلاء على المدافع بعد ذلك، ثم الالتفاف حول القوة البريطانية الصغيرة محاولًا سد منفذ الهروب عبر ثغرة في نهاية الوادي الضيق. ولحسن الحظ كان روبرتس قد بعث برسالة إلى الفرقة الثانية والسبعين من كتيبة مقاتلي الجبال لتسرع إلى الوادي. يقول الكابتن لودر Lauder قائد هذه الفرقة: «لم نتوانَ لحظة وأسرعنا إلى هذا الوادي الضيق في حالة سيئة جدًّا، نتيجة الحرارة الشديدة والعرق الذي كان يتصبب منا، ووصلنا قبل وصول الأفغان بأربع دقائق ... ونجحنا في منع تقدمهم.» وبعد حلول الظلام تمكنت عناصر من القوات الجبلية من التسلل خلف خطوط الأفغان واستعادة المدافع.

في الأيام القليلة التي تلت ذلك حاول روبرتس السيطرة على المدن القائمة على المرتفعات الموجودة غرب كابول، إلا أن الكثير منها كان شديد التحصين بحيث استعصى عليهم، والبقية الباقية منها تركها البريطانيون بمجرد أن دخلوها. وفي مرتفعات أسماي استطاعت الفرقة الثانية والتسعون من كتيبة مقاتلي الجبال أن تستولي (تحت قيادة جوردون) على قمة الجبل بعد جهد مضن بذلوه حين كان رصاص الأفغان ينهال عليهم، وانتهت المعركة في القمة

باستخدام الحراب. إلا أن جيشًا آخر من الأفغان اقترب منهم بعد أن دمر موقعًا عسكريًّا للفرقة الثانية والسبعين في طريقه، واضطرت كتيبة الجبل نفسها بعد ذلك إلى صد أمواج المتسلقين الأفغان. وعلى السهول حول معسكر شيربور كانت قوة الأفغان تتزايد، فقد كان الطريق إلى كابول يصطف بالقناصة، وكانت المدينة في حالة هياج وثورة. فقرر روبرتس أن يتخلى عن جميع المواقع البعيدة ومنها بالاهيسار، وسحب جميع قواته إلى داخل المعسكر.

كان كل شيء يشير إلى أن ما حدث عام ١٨٤٢م سوف يتكرر حتى إن محمد جان الذي كان يقود جيشًا من أربعين ألف رجل بعث إلى روبرتس يعده بتأمين طريق الجيش البريطاني خلال الممرات إذا ما تم الانسحاب. لكن البريطانيين كانوا قد سمعوا هذا الكلام من قبل ولم يعودوا يصدقونه. فخلال حصار المعسكر الذي استمر تسعة أيام لم يسمح للأفغانيين بالاقتراب، وكان جنود المشاة والخيالة يجوبون السهول خارج الأسوار لمنع وجود القناصة الأفغان. وفي غضون ذلك كانت القوات الأفغانية قد احتلت كابول، وقام رجال القبائل القرويون بأعمال سلب ونهب لأبناء عمومتهم من ساكني المدن وقاموا بتوقيع العقاب على كل من أيد البريطانيين بأي صورة قبل ذلك. وفي الثاني والعشرين من ديسمبر/كانون الأول علم روبرتس من أحد الجواسيس بأن هناك هجومًا أفغانيًّا يزمع شنه في اليوم التالي على شيربور، وعلم أيضًا بتفاصيل خطة الهجوم وأن إشارة البداية هي شعلة يضيئها موشكي-علام من فوق مرتفعات أسماي.

وفي وسط ظلمة الليل بينما كانت السماء ملبدة بالضباب الذي ينتشر عادة في ساعات الفجر، طارت فجأة شعلة مضيئة فوق قمة أحد الجبال. وظلت معلقة في الجو ثم اختفت. وفي نفس اللحظة انفجر دوي المدفعية والبنادق الصغيرة والمتوسطة عبر السهول ليغرق بعد ذلك في هدير صيحات آلاف الأصوات التي ارتفعت تقول: «الله أكبر». ومن شدة ذعرهم عجز بعض الجنود البريطانيين عن إيقاف إطلاق النار رغم الأوامر الصادرة لهم بذلك، وانتظر من تمالكوا أعصابهم حتى أصبح المهاجمون على بعد ثمانين ياردة ثم قاموا بإطلاق سيل من النيران جرفت جحافل جند الأفغان إلى الأسفل.

وحين طلعت الشمس كانت الأراضي التي تحيط بالمعسكر قد افترشت بجثث القتلى، وعند الظهيرة هدأ الهجوم لمدة ساعة ثم عاد ليندلع بعد ذلك

بكل قوة وشراسة. وكان الأفغان قد استطاعوا أن يصلوا إلى حاجز الشجر الذي يحيط بالمعسكر أكثر من مرة، إلا أنهم كانوا يتساقطون تحت وابل النيران القريبة منهم قبل أن يتمكنوا من الإطباق على المدافعين. وكانت هذه المعركة تتشابه — سواء في التنفيذ أو النتيجة — مع كثير من المعارك التي خاضها الجيش البريطاني في ذلك العصر كما في أم درمان وأولندي، حيث كانت المدفعية البريطانية المنظمة تتمكن من القضاء على الهجمات العنترية المتهورة التي يشنها رجال أشداء. وبعد الظهيرة بدأ الأفغان في الفرار واندفعت فرق الخيالة البريطانية من المعسكر إلى السهول، وانطلقت أربع مدافع ميدان في المقدمة لتكتسح التلال المجاورة. وبعدها انفرط عقد قبائل الأفغان وتشرذموا عائدين إلى ديارهم. وفي اليوم التالي قام فرسان روبرتس بالطواف في الوديان المجاورة، إلا أنهم لم يعثروا على أحد من الأعداء. في هذه المعركة فقد الإنجليز خمسة من رجالهم بالإضافة إلى الثمانية عشر الذين لاقوا حتفهم خلال حصار الأيام التسعة، في حين كانت حصيلة قتلى الأفغان نحو ثلاثة آلاف.

استأنف جنرال روبرتس حياته «كملك لكابول» إلا أنه هذه المرة استخدم الكثير من الدبلوماسية التي افتقدها في الشهرين الأخيرين. كان البلد نفسه في حالة سيئة، وكما يقول أرشيبال فوربس «كانت كابول تبدو مدينة خرجت لتوها من حرب طاحنة — وكانت الأسواق مهجورة وأماكن إقامة الهندوس والقزلباش مدمرة تمامًا»، ودعا روبرتس إلى مجلس ضم مائتين من زعماء القبائل، ووعد كل من يسلم سلاحه بالعفو. وبقي السؤال المهم أمام لورد ليتون وحكومة دزرائيلي ... وماذا بعد؟ فقد كانت أفغانستان مثيرة للمتاعب بحيث لا يستطيعون البقاء بها، لكنها أيضًا أخطر من أن تترك دون رقيب. ثم من ذا الذي سوف يحكمها لو أن البريطانيين أعلنوا انتصارهم ثم انسحبوا؟

خلال فصل الشتاء أُرسلت تعزيزات إلى قوات روبرتس، وإيفاد بعض القوات إلى كوهستان لقمع تمرد بعض الناقمين على الحكم. لكن الحكومة البريطانية ظلت محتفظة بقوتها إلى المدى الذي تصل إليه قذائفها، ومع رحيل جنودها، كان الوطنيون يبسطون سيادتهم على الأراضي التي يتركونها. في لندن فاقت سمعة الأفغان سمعة مقاتلي الزولو المتوحشين ومقاتلي الهدندوه الذين شاركوا في ثورة المهدي في السودان، وكانوا يصورون على أنهم أشد أعداء

الإمبريالية. وخير من عبر عنهم الكاتب البارع دوديارد كبلنج Dudyard Kipling الذي استطاع تصوير رعب سهول أفغانستان شعرًا ونثرًا. وحين تقابل شرلوك هولمز Sherlock Holmes بطل روايات أرثر كونان دويل Arthur Conan Doyle مع معاونه الدكتور واطسون لأول مرة، وكانت يد الأخير الجريحة معلقة إلى جانبه؛ قال له على الفور: «لقد كنت تحارب في أفغانستان.» وفي غضون ذلك يقاسي الجنود البريطانيون المغتربون عن أوطانهم جو أفغانستان الرهيب. وفي فبراير/شباط كتب الكولونيل فردريك روكروفت Fredrick Rowcroft الذي كان معسكرًا في بالاهيسار يقول:

«يا إلهي ... إن الجو هنا لا يطيقه بشر ... فنحن لا نستطيع أن نتحاشى الرياح القاسية والهواء الذي يصفع وجوهنا ... ومع أننا لا زلنا في منتصف الشتاء فإن الصقيع يعض أطرافنا والجليد لا يكف عن التساقط. لقد مات الكثيرون منا بداء الرئة ... وتجمد حمالونا حتى الموت.

أما روبرتس فهو في حالة خوف وقلق بسبب العاصفة التي انفجرت في لندن عليه لأنه شنق الكثير من الأفغان ... وأنا لا أعتقد أن حكومتنا سوف تستطيع إقامة نظام حكم رشيد في هذا المكان.»

ولأنه لم يكن لديه ما يفعله فقد زار روكروفت المكان الذي لقي فيه آلكسندر بيرنز مصرعه. وفي نهاية شهر مارس/آذار بدأ البرد القارس ينجلي، ولكن حالته النفسية لم تتحسن على الإطلاق فقد كتب إلى صديق له في إنجلترا يقول: «إن المشهد كله مظلم قاتم ... والبلاد التي أغرقها المطر غدت بحرًا من الوحل والطين. آه ... لكم أتمنى أن أجعل هؤلاء الأفغان الأشرار الملعونين الخونة يدفعون ثمن ما اقترفوه فيما بين عامي ١٨٤١ و١٨٤٢م.»

كان الملا العجوز موشكي-علام قد نقل مقر الجهاد إلى غزنة حيث استطاع أن يؤثر في أتباعه الجلزانيين. وفي أوائل شهر فبراير/شباط عبر عبد الرحمن حفيد دوست محمد آموديا (جيحون) إلى أفغانستان وكان رجلًا شديد البأس وكان قد قضى عقدًا من الزمن مع الروس في طشقند. وأخذ — مع قوته المكونة من مائة رجل مسلحين تسليحًا جيدًا — يحشد المتطوعين من أهالي منطقة شمال الهندوكوش.

وفي أبريل/نيسان من عام ١٨٨٠م سار الجنرال ستيوارت على رأس فرقة عسكرية من قندهار (حيث كانت الأمور مستقرة) متوجهًا إلى كابول. وبالقرب من غزنة اضطر إلى الاشتباك في معركة مع قوة من الأفغان ضمت نحو سبعة آلاف جندي. وكان من المفترض أن ينجح هذا الهجوم لولا أن المقاتلين الأفغان اخترقوا الجناح الأيسر واقتربوا حتى صاروا على بعد عشرين ياردة من الجنرال. واضطر ستيوارت ومرافقوه إلى اللجوء إلى سيوفهم قبل أن تستطيع قواته استعادة تماسكها. وحين وصل ستيوارت إلى كابول يوم الثاني من مايو/أيار حل محل روبرتس وهو ما أثار استياء ذلك الأخير. وفي نفس هذا الشهر سقطت حكومة دزرائيلي المحافظة، وحلت محلها حكومة جلادستون Gladstone. وبذلك انتهى عهد «السياسة الاستباقية» وظل لورد ليتون وجنرالاته في أفغانستان يبحثون في حيرة عن بديل لهم يملأ الفراغ الذي سيخلفونه بعد انسحابهم الوشيك من أفغانستان.

قام البريطانيون بالاتصال بعبد الرحمن الذي كان جيشه يزداد قوة يومًا بعد الآخر، وفي يوليو/تموز دُعي إلى اجتماع في كابول، وجاء الأمير الأفغاني وهو يرتدي حلة روسية، ومعه حقيبة مملوءة بالروبلات كما كان رجاله مسلحين بأسلحة نارية روسية الصنع تطلق قذائف كثيرة دون حاجة إلى إعادة شحنها، ومع ذلك فقد لعب البريطانيون تلك اللعبة، فقد كان أمامهم رجل بعيد عن التعصب الديني، يمتلك الأحقية الشرعية في توليه العرش وله القدرة على الإمساك بزمام القوة بطريقة عملية. المفارقة هنا أن البريطانيين فتحوا باب هروبهم من أفغانستان بمساعدة أكثر المرشحين موالاة لروسيا ليحل محل حكمهم العسكري، ولكن هذا لم يكن إلا لأنهم كانوا في عجلة من أمرهم في ذلك الوقت. وفي الثاني والعشرين من يوليو/تموز ساندوا عبد الرحمن في توليه الملك أو الإمارة، ثم استعدت قواتهم للجلاء. إلا أنه بعد خمسة أيام وصلت أنباء عن كارثة حدثت في الجنوب، فقد أبيدت قوة بريطانية كاملة بالقرب من قندهار.

كان أيوب خان — شقيق يعقوب خان — يحكم هرات منذ بداية أعمال العنف، بمساعدة الفرس المادية والمعنوية. وفي بداية شهر يوليو/تموز كان قد زحف بجيش كبير إلى قندهار، مجندًا في طريقه رجال القبائل، حتى وصل عدد من انخرطوا في جيشه إلى عشرين ألفًا. ومن قندهار سار الجنرال باروز

Burrows ليجابه هذه القوة العاتية دون أن يدري مدى حجمها أو خبراتها أو استعدادها للقتال. وفي الثالث عشر من يوليو/تموز تركت الفرقة التابعة له والمكونة من ألفي جندي من الوطنيين الأفغان جيشه لتنضم إلى أيوب خان، ولم يبق معه إلا عدد يقل عن ألفين وخمسمائة جندي. وبعد أسبوعين من المناورات والتحركات الاستطلاعية للفرسان، تقابل الجيشان بالقرب من قرية مايواندا وكان باروز قد وضع فرقة المشاة السادسة والستين إلى اليمين، ووضع المدفعية في الوسط، ووضع الهنود المجندين إلى اليسار، أما في مؤخرة الجيش فقد وضع فوجين من سلاح الفرسان كي يحمي المؤن ويمنع تطويق جناحي الجيش.

وفي السابع والعشرين من يوليو/تموز بدأت المعركة ظهرًا بأن أطلقت المدفعية نيرانها، وكانت الصدمة الأولى للبريطانيين أن الأفغان كان بحوزتهم ثلاثون مدفعًا في مقابل اثني عشر يحوزها البريطانيون. فطلب باروز من جنوده أن يستلقوا أرضًا تحت أشعة الشمس الحارقة ليتفادوا طلقات المدفعية. أما سلاح الفرسان في مؤخرة الجيش فكان أكثر تأثرًا بالهجوم حيث فقد عددًا كبيرًا من رجاله بالإضافة إلى مائة وخمسين حصانًا. ثم بدأ تدفق المشاة الأفغان في هجمات متتالية صدتها نيران البريطانيين. وفي مؤخرة الجيش قام سلاح الفرسان التابع لأيوب خان بالهجوم على الجناحين ومؤن الجيش، وبعد الظهيرة بقليل كان قد أحاط بالقوة البريطانية الصغيرة.

وفي الساعة الثانية من بعد الظهر تقريبًا، فوجئ البريطانيون بهجمة شنها الأفغان على ميسرة الجيش، أصابت المجندين الهنود بالرعب فتدافعوا إلى الكتيبة المجاورة لهم. ونتيجة لهذا فقد انهار تماسك الجناح الأيسر تمامًا، ووجد رجال المدفعية الذين يتوسطون الجيش أنفسهم أمام حشد قادم عليهم هو خليط من الأفغان أعدائهم والمجندين الهنود التابعين لهم، في حين تهاوت فرقة المشاة السادسة والستون بعد أن صمدت فترة وجيزة، تحت موجة الرعب التي سيطرت على أفرادها، إضافة إلى أنها فقدت أيضًا عددًا من مدافعها. وبينما كان الجيش بأكمله يفر من المعركة، كانت قوات الفرقة السادسة والستين تحاول التراجع بشيء من النظام.

طارد الأفغان الجيش المتقهقر مدة أربع ساعات كاملة، وإن كانوا قد توقفوا فترة ليصدوا هجومًا مضادًا شنه سلاح الفرسان البريطاني. وخرج

الأفغان من القرى الممتدة على طول الطريق وهم يتصيدون فلول الجيش المهزوم. وفي اليوم التالي دخل الباقون منهم على قيد الحياة قندهار يتعثرون في مشيهم فحاصر أيوب خان المدينة على الفور. وقد بلغت خسائر البريطانيين تسعمائة وواحد وسبعين قتيلًا ومائة وثمانية وستين جريحًا، أما أتباع المعسكر فقد قتل منهم ثلاثمائة وواحد وثلاثون وجرح سبعة. وهذه النسبة في عدد القتلى والجرحى التي تبدو عكس ما هو متوقع من المعركة تشير إلى أن الجرحى الذين استطاعوا السير هم الذين ظلوا أحياء، أما من تركوا ليلقوا مصيرهم فقد ذُبحوا. ولم تسلم القوة البريطانية من الفناء التام إلا لأنهم عبروا سهول قندهار المنبسطة، مما جعل الأفغان يحجمون عن الاقتراب منهم، فلو مر البريطانيون عبر الممرات الضيقة الموجودة في شرق أفغانستان لما خرج منها جندي على قيد الحياة.

وصلت أنباء الكارثة إلى الجنرال روبرتس – وكان ما زال يعاني من الإحباط الذي أصابه بعد أن حل ستيوارت محله في كابول، فتطوع بالسير جنوبًا. وفي الحادي عشر من أغسطس/آب بدأت مسيرة الجيش الذي بلغ عشرة آلاف رجل وقطع مسافة ثلاثمائة وعشرين ميلًا إلى قندهار في عشرين يومًا. وقد اعتبر الخبراء العسكريون ما فعله روبرتس من أكثر الأعمال بطولة وجرأة في الحرب. وحين وصل إلى قندهار، ضم وحدات من حاميتها إلى قوته، وفي اليوم التالي الذي كان الأول من سبتمبر/أيلول واجه جيش أيوب خان في معركة تميزت بعدد الجند الكبير الذي لم يألفه العصر الفكتوري. فقد واجه ما يزيد على اثني عشر ألفًا من جند الإمبراطورية البريطانية عددًا مساويًا تقريبًا من الأعداء الأفغان، مع أنهم كانوا قد فقدوا بعضًا من قواتهم في المعارك، بالإضافة إلى أن بعض رجال القبائل كانوا قد هجروا الجيش وعادوا إلى ديارهم.

وفي معركة قندهار تمكن روبرتس من الضغط على الأفغان ودفعهم نحو اليسار بجنوده من الجبليين والجورخا. وفي الساعة الواحدة ظهرًا تمكن من الاستيلاء على خيمة أيوب خان التي كانت مفروشة بأفخر أنواع السجاد، وفر الأفغان هاربين، تاركين كل أسلحتهم ومخلفين وراءهم ألفًا من جثث قتلاهم تفترش ساحة المعركة. أما البريطانيون فقد بلغت خسائرهم ستة وثلاثين قتيلًا ومائتين وثمانية عشر من الجرحى. ولقد توجت هذه المعركة انتصار

البريطانيين في تلك الحرب الصعبة. بعد المعركة عاد روبرتس ومعه حامية قندهار إلى الهند، وكان جيش كابول قد غادرها قبل ذلك.

وهكذا انتهت الحرب الأنجلو-أفغانية الثانية دون أن تحقق شيئًا اللهم إلا فقدان الكثير من الدماء والأموال، ولم تكن تلك الحرب لتنشب لولا التخوف من النوايا الروسية. ومن حسن حظ بريطانيا أن عبد الرحمن القائد الذي ولوه البلاد بعدهم — ليس طواعية واختيارًا ولكن بعد أن لم يجدوا دونه بديلًا آخر — أثبت أنه أفغاني وطني وليس (كما خشي الكثيرون) عميلًا سريًّا للقيصر. فلأنه قضى وقتًا طويلًا مع الروس، كان لا يخشاهم كما خشيهم شير علي، أو كما خشيهم مندوبو بريطانيا الساميون. أما عن الجنرال روبرتس فقد عاد إلى إنجلترا ووجد ما فعله في أفغانستان لا يزال محل جدل ساخن، فكان أبلغ ردوده على المجادلين هو قوله:

> «لا حاجة بنا إلى الخشية من أفغانستان ... وأفضل ما يمكن أن نفعله هو أن نترك هذا البلد وشأنه، ربما لن يرضي هذا غرورنا، ولكنني على يقين من أننا كلما بعدنا عن أنظار الأفغانيين كلما قلت كراهيتهم لنا ... وإذا ما فكرت روسيا في السنوات المقبلة في محاولة الاستيلاء على أفغانستان أو غزو الهند من خلالها، فسوف تكون فرصتنا في اجتذاب الأفغان إلى صفوفنا أفضل، إذا ما كففنا عن التدخل في شئونهم خلال تلك الفترة.»

وفي أوائل عام ١٨٨٥م سار جيش روسي — بعد انتصاره على مرو (تقع في تركمانستان حاليًّا) جنوبًا تجاه واحة بانجديه شمال هرات. وهناك حاولت قوة صغيرة من الأفغان صد هذا الهجوم بشجاعة ولكنها هزمت. أما بريطانيا التي كانت لا تزال تشرف على سياسة أفغانستان الخارجية، فقد بدأت تتحرك استعدادًا لحرب كبيرة بعد أن جهزت قواتها الاحتياطية. وأُرسل مندوب إلى المنطقة يحذر الروس من أن اعتداءهم هذا يعتبر «تهديدًا» في نظر البريطانيين، وأن أي خطوة أخرى يخطوها الروس في اتجاه هرات سوف تأتي بنتائج كارثية. وبعد سلسلة من المباحثات اتفق الطرفان على أن تكون حدود شمال غرب أفغانستان هي الخط الممتد بين نهري آمودريا (جيحون) وهاري رود.

وفي عام ١٨٩٣م بدأ السير مورتيمر دوراند Mortimer Durand عمله في رسم الحدود الشرقية لأفغانستان قاطعًا شطرًا عشوائيًّا من الأراضي التي يقطنها البشتون، حتى إن خط الحدود كان يمر في منتصف القرى أو المراعي بحيث كان الفلاحون يعيشون في جانب وحقولهم في الجانب الآخر. وفي عام ١٨٩٥م أصر الإنجليز على إضافة إقليم واخان إلى الأراضي الأفغانية — بل إنهم رشوا عبد الرحمن ليستولي عليها — وذلك حتى لا يتمركز الروس على الحدود الهندية. وبذلك امتدت أرض الأفغان لتشمل جميع المرتفعات الجليدية التي تمتد حتى حدود بلاد الصين التي يبلغ طولها خمسة وأربعين ميلًا. وفي عام ١٩٦٤ اتفق الأفغان والصينيون على الحدود البرية المقامة حتى الآن.

في ذلك الوقت كان عبد الرحمن قد اشتهر بلقب «الأمير الحديدي»؛ بسبب الوسائل شديدة القسوة التي لجأ إليها ليكسر شوكة النظام القبلي والإقطاعي في أفغانستان، هذا بخلاف قوة الملالي وسطوتهم. وحتى يكتسب مصداقية بصفته حاكمًا مسلمًا، أجبر قاطني الجبال في كافيريستان التي تقع في الشمال الشرقي على اعتناق الإسلام، وأعاد تسمية اسمها لتصبح نورستان. كما قام بتوطين عشرة آلاف أسرة جلزانية في شمال الهندوكوش في حركة تهجير جبري. وكان لهذا تأثيره المزدوج على إضعاف قوة الجلزانيين في الجنوب وزيادة نفوذ البشتون في الشمال، ومع أن الجلزانيين كانوا أعداءً للدورانيين في موطنهم الأصلي، فإنهم وسط الطاجيك والأوزبك في الشمال دانوا بالولاء إلى أقربائهم البشتون.

كان آخر انجاز للأمير الحديدي قبل وفاته في أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٠١م هو تسليم مقاليد السلطة لابنه حبيب الله في إجراء فريد من نوعه في تاريخ أفغانستان. وكما كان أبوه من قبله، تلقى حبيب الله دعم البريطانيين، إلا أن إشرافهم على سياسة أفغانستان الخارجية كان يثير حنقه، فقد كانت كرامته تأبى عليه أن يكون مجرد والٍ من ولاة البريطانيين على أفغانستان. ولهذا فقد حدث أثناء الحرب العالمية الأولى أن استقبل حبيب الله عملاء من ألمانيا وتركيا كانوا يحاولون تدبير هجوم على الهند، إلا أن هذه المحاولات لم تسفر عن شيء. وفي فبراير/شباط من عام ١٩١٩م قتل حبيب الله أثناء رحلة صيد، واتهم كل من الإنجليز والروس وعدد كبير من منافسيه المحليين بتدبير هذه الجريمة إلا أن الحقيقة ظلت مجهولة حتى الآن.

وبعد نزاع بسيط ضد أحد إخوة حبيب الله استولى ابنه أمان الله على السلطة وكان مثل محكوميه يكن عداوة كبيرة للبريطانيين، فلسنوات عديدة كانت بعض المعارك المحدودة لكنها طاحنة تشتعل دائمًا على الحدود الشمالية الغربية حين كانت القبائل الأفغانية على جانبي خط دوراند تغير على الأرض التي تعرف اليوم بباكستان، مهاجمة الحصون البريطانية ومقاومة جيوش العقاب. وخلال الحرب العظمى كانت القوات البريطانية المتمركزة على الحدود قد تقلصت إلى حد كبير، وكانت القوات الوطنية التي تشكلت مثل «كشافة الحدود» و«فرقة مقاتلي خيبر» من قبائل الأفريدي هي قوات مشكوك في ولائها.

وفي مايو/أيار من عام ١٩١٩م بدأ أمان الله حركة جهادية تعرف اليوم باسم الحرب الأنجلو-أفغانية الثالثة، فهاجمت القوات الأفغانية الحدود في حين حاول الملالي استثارة الفتنة والعصيان العام بين القبائل. في البداية اهتز البريطانيون وتركوا مواقع أمامية عديدة بعد أن تكبدوا خسارة فادحة، إلا أنهم بعد ذلك قاموا بهجوم مضاد من ممر خيبر واستولوا على داكا، وعلى المناطق الواقعة ما بين كويتا في الجنوب والقلعة الأفغانية في سبين بالداك. وكان هجوم الأفغان ينقصه الكثير من النظام الذي حال دون إمكانية تحقيق أي نصر آخر، وجاءت القشة الأخيرة حين بدأ الطيران البريطاني في قصف جلال أباد وكابول. صعق أمان الله من هذه الهجمات، واحتج لدى المندوب السامي في الهند اللورد كلمسفورد Chlemsford أنه بعد شجب البريطانيين لوحشية الألمان في هجوم زبلن على لندن فإن بريطانيا نفسها أثبتت أنها لا تقل عنها وحشية.

وفي غضون شهر توصل الطرفان إلى أنه لا مغنم من وراء الحرب ووافق أمان الله على مقابلة كلمسفورد في روالبندي. وهناك تخلى الإنجليز عن مساندته، ورفضوا إمداده بالأسلحة عن طريق الهند وأجبروه على الاحتفاظ بالحدود التي رسمها دوراند. إلا أنه كسب من البريطانيين الذين كان قد أصابهم التعب والإرهاق حقًّا أصيلًا كانوا قد أنكروه في السابق على أفغانستان. ففي ملحق المعاهدة المبرمة بينهما كان هناك نص صريح بأن «أفغانستان بلد حر مستقل في شئونه الداخلية والخارجية». وبذلك تخلت إنجلترا عن إشرافها على سياسة أفغانستان الخارجية، ولأجل هذه المعاهدة يعتبر عام ١٩١٩م الميلاد الحقيقي لدولة أفغانستان الحديثة.

وأمام الإنجليز كان السؤال يطرح نفسه ... ولم لا؟ فقد كان قلق بريطانيا من أفغانستان يتمحور حول الخوف من تنافسها مع الإمبريالية الروسية. إلا أنه خلال الحرب العظمى كان الشعب قد نجح في إقصاء حكومة القيصر، وكان خلفاء نيكولاس الثاني الثوريون منغمسين في حرب أهلية على نطاق واسع أجبرهم على التخلي عن سيطرة الإمبراطورية على دول وسط آسيا. وكانت بخارى وخيوة قد عادتا لتدخلا تحت حكم الأمراء المسلمين. ورغم القلق بشأن طموحات فلاديمير لينين والحزن على مصير عائلة القيصر إلا أن صانعي السياسة في لندن لم يعودوا يخشون أي خطر يهدد الهند من الشمال. فقد خرجت روسيا من الحرب خائرة القوى، في حين خرجت إنجلترا منها منتصرة ثابتة الخطى تخطط مستقبل إمبراطوريتها الواسعة.

الفصل التاسع

السوفييت

حرص لينين منذ بداية حكمه على إقامة علاقات وثيقة مع أفغانستان، ففي عام ١٩١٩م كان الاتحاد السوفييتي هو الدولة الأولى التي تعترف بدولة أفغانستان الحديثة، وفي المقابل كانت أفغانستان هي أول دولة مجاورة تعترف بنظام حكم لينين البلشفي. وفي عام ١٩٢٠م أرسلت موسكو مبعوثًا إلى كابول، تعهد بإمداد مملكة أمان الله بخمسة آلاف بندقية بالإضافة إلى مليون روبل ذهبي كمساعدة مالية. وفي العام التالي وقعت الدولتان معاهدة صداقة، وفي السنوات التالية أنشأ السوفييت خطوط هاتف ومكاتب تلغراف في كابول وأقاموا مصنع نسيج في هرات، ثم بدءوا في بناء طريق سريع على ممر سالانج الذي يمر بين جبال الهندوكوش. وعلاوة على هذا ساهم السوفييت في إنشاء قوة جوية لأفغانستان عن طريق إمدادهم بإحدى عشرة طائرة عسكرية بالإضافة إلى مدربي الطيران وأطقم الصيانة.

مع أن البريطانيين كانت لهم يد في الدبلوماسية الأفغانية، والمساعدات المادية والدعم المالى فإن السوفييت كان لديهم حافز أكبر لتملق أفغانستان. فخلال الحرب الروسية الأهلية بين الجيش الأحمر والجيش الأبيض والتي كان البريطانيون يساندون فيها الجيش الأبيض، كان الروس قد وعدوا إمارات آسيا الوسطى المسلمة بالاستقلال. ولكن ما إن تقلد البلاشفة السلطة حتى اجتاح الجيش الأحمر بلاد ما وراء النهر بكل قوته ليرتكب أبشع المذابح ويحاول من خلالها أن يفرض سلطة الدولة على الاقتصاد المحلي، وأن يفرض آراءه في الاصلاح الزراعي الذي وصل إلى حد مصادرة الأراضي، بالإضافة إلى سياسات أخرى تتعارض مع القيم والتقاليد الإسلامية. وخلال العشرينيات والثلاثينيات

من القرن العشرين فر الآلاف من الأوزبك والطاجيك والتركمان عبر آموداريا (جيحون) ليستقروا في شمال أفغانستان.

ومثلما حدث مع القياصرة من قبل، وجد السوفييت صعوبة في السيطرة تلك المنطقة، وكانوا يخشون أن تصير أفغانستان مأوى ومرتعًا لمقاتلي المقاومة الإسلامية الذين أطلق عليهم السوفييت اسم باسماتشي (رجال العصابات). ومع أن الأفغان كانوا مستائين من اعتداء السوفييت على إخوة لهم في الدين فإن فكرة وجود دولة أخرى قوية تعوض فقدان دعم البريطانيين لهم كان أمرًا لا يمكن تجاهله. ونتيجة لهذا حدث ذات مرة أن هاجمت قوة من الجيش الأحمر فرقة من «الباسماتشي» وطاردتهم لمسافة أربعين ميلًا في أفغانستان، وعلى الفور خرجت قوة أفغانية واتجهت شمالًا — لا لقتال السوفييت — وإنما لإجبار الباسماتشي على التقهقر إلى آموداريا (جيحون) وهناك قُبض على زعيمهم إبراهيم بك وقتله. وفي حين كان السوفييت يبنون أبراج مراقبة على طول حدود الجزء الذي يسيطرون عليه من آموداريا (جيحون) كانت الحكومة الأفغانية تتقبل منهم المساعدات بلهفة وتسعى سعيًا حثيثًا لدعم الروابط الاقتصادية معهم.

في عام ١٩٢٧م بدأ الملك أمان الله جولة حول العالم توقف خلالها في كلكتا، والقاهرة وإسطنبول ولندن وباريس وبرلين وموسكو وأماكن أخرى. وقد افتتن الأوروبيون بشاه أفغانستان وهم يرونه لأول مرة، وأقيمت حفلات كبيرة وولائم عامرة على شرف الملك الوسيم وزوجته الجميلة. وعندما عاد أمان الله إلى أفغانستان كان يمتلك سيارة رولز رويس لامعة وتصميمًا على أن تلحق أفغانستان بالعصر الحديث في أسرع وقت ممكن. إلا أن الشعب الأفغاني استاء كثيرًا حين علم أن الملكة ثريا لم ترتد الحجاب في أوروبا، بل وقد حضرت إحدى الحفلات عارية الكتفين. وخلال انعقاد مجلس زعماء القبائل (اللويا جيرجا) الذي تلا ذلك أصر أمان الله أن يقوم زعماء القبائل بحلق لحاهم وارتداء قبعات عالية وسترات ذات ذيل طويل، وزاد سخط الشعب أكثر حين أعلن أمان الله عن خطة لجعل تعليم المرأة إجباريًّا.

وفي عام ١٩٢٨م قام شخص يدعى باشا-ساقاو (ابن السقا) بثورة في شمال كابول، وكان الباشا وهو من الطاجيك زعيم عصابة أكثر من كونه زعيم قبيلة، إلا أن آلاف المقاتلين القادمين من المناطق الريفية انضووا تحت لوائه.

هزم هؤلاء المقاتلون وطردوا من كابول بعد معركة جرت على أرض السفارة البريطانية، لكنهم بعد ذلك استطاعوا سحق قوة تابعة للحكزمة الأفغانية كانت قد جاءت في أثرهم. وفي يناير/كانون الثاني من عام ١٩٢٩ استولى الباشا على كابول ولم يلق بالًا للوعود التي قطعها أمان الله في اللحظة الأخيرة بالتخلي عن حركة الإصلاح التي كان قد بدأها. فر الملك هاربًا خلال الطرق الجليدية في سيارته الرولز رويس في آخر لحظة بعد أن كاد فرسان الباشا أن يقتنصوه.

بعد أن حكم الباشا تسعة أشهر في كابول تشابهت كثيرًا مع حكم الفيزيجوث في روما القديمة، قام نادر خان الذي ينتمي إلى الأسرة الدورانية بطرده من العاصمة هو وأعوانه الذين كان أغلبهم من الأميين الجهلة. وكان نادر خان قد جمع جيشًا من رجال القبائل الأفغانية الواقعة على الحدود. ثم قام بدعوة ذلك الزعيم القروي إلى اجتماع، وما إن حضر حتى شنقه ومعه سبعة عشر من عصبته. وبعد ذلك قبل نادر خان على مضض أن يجلس على العرش بعد أن اعترض على استدعاء أمان الله ليتولى السلطة (مات أمان الله بعد ذلك في إيطاليا عام ١٩٦٠م). وكان بدوره مصممًا على تحديث أفغانستان، ولكن لم يتعجل إحداث تغييرات جذرية كما فعل سلفه. إلا أن نادر قتل عام ١٩٣٣م وذهب العرش إلى ابنه ظاهر الذي كان يبلغ من العمر وقتئذ تسعة عشر عامًا، لكن مقاليد السلطة في حقيقة الأمر كانت في يد أشقائه وبعض أقاربه.

في عام ١٩٣٤م انضمت أفغانستان إلى عصبة الأمم، وقامت الولايات المتحدة، التي كانت تعيش وقتها في إحدى فترات العزلة التي فرضتها على نفسها، بعقد روابط دبلوماسية مع كابول من خلال سفيرها في إيران. لكن الأمر الأكثر أهمية هو أن الأفغان قاموا بإقامة علاقات وثيقة مع ألمانيا واليابان. وكان اليابانيون — شأنهم شأن الأفغان — قد قاوموا حركات الاستعمار الأوروبية وأثاروا إعجاب العالم بهزيمتهم الحاسمة لروسيا القيصرية في عام ١٩٠٥م. وقد استحوذت ألمانيا على إعجاب الأفغان خلال الحرب العظمى بتصديها للقوى الاستعمارية الأوروبية، في نفس الوقت الذي تحالفت فيه مع تركيا العثمانية حيث ظل الخليفة العثماني زعيمًا روحيًا للمسلمين.

وحين تولى الرايخ الثالث حكم ألمانيا تحت زعامة هتلر، زار أفغانستان عدد غفير من الألمان كانوا يتحركون بحذر بسبب وجود البريطانيين والروس

على الجانبين، ولأن أفغانستان كانت قادرة على أن تكون مصدر إزعاج للهند البريطانية والاتحاد السوفييتي فقد كانت تثير اهتمام برلين بشدة. أرسل هتلر العديد من الباحثين إلى أفغانستان بهدف دراسة الموضوع الذي كان الشغل الشاغل للألمان في ذلك الوقت وهو الأعراق النقية غير المختلطة، وقد ذهب أولئك الباحثون إلى نورستان ووجدوا فيها أناسًا شقرًا ذوي عيون زرقاء يعيشون في وديان جبال نائية ويبدو عليهم أنهم لم يختلطوا بأي أعراق أخرى. وساهم المهندسون الألمان أيضًا في مشروعات تشييد سدود ومشروعات ري بالإضافة إلى بناء أول خط سكك حديدية في أفغانستان بطول ميلين ونصف يربط بين كابول وبين قصر حكومي جديد يدعى دار الأمان.

وحين اندلعت الحرب العالمية الثانية اندهش الأفغان – كما اندهشت جميع شعوب جنوب آسيا والشرق الأوسط – من هزيمة الجيوش البريطانية والفرنسية أمام الجيش الألماني، والحصار الذي فرض على إنجلترا نفسها. ثم لم يلبث الاتحاد السوفييتي أن بدأ أيضًا في الانهيار تحت ضربات مطارق الألمان التي بدأت في يونيو/حزيران من عام ١٩٤١م. وفي ديسمبر/كانون الأول من نفس العام زادت الدهشة من مشهد القوات البريطانية والفرنسية والأمريكية والهولندية وهي تفر هاربة أمام اليابانيين الذين استطاعوا عن طريق قواتهم البحرية والجوية الحديثة طرد القوى الاستعمارية السابقة من آسيا.

وفي سبتمبر/أيلول من عام ١٩٤١م طالبت كل من بريطانيا والاتحاد السوفييتي بجلاء الألمان عن أفغانستان، وكان عددهم يقدر بمائتين وعشرة مواطنين هذا بخلاف أفراد البعثة الدبلوماسية الرسمية. واضطر الأفغان إلى الرضوخ لطلب بريطانيا بعد أن رأوا القوات البريطانية والسوفيتية تغزو إيران لأنها رفضت مثل هذا المطلب. بلغت قوة الألمان واليابانيين ذروتها في نهاية عام ١٩٤٢م، ثم استمرت الحرب بعد ذلك لسنوات حاولت فيها ألمانيا واليابان تأجيل انتصار الحلفاء قدر ما يستطيعون. لكن أفغانستان ظلت على حيادها وكان هذا هو ما أدى إلى أن يكون وقع المتغيرات الدولية التي حدثت عليها فيما بعد عنيفًا جدًّا.

كان من نتائج الحرب العالمية الثانية ظهور قوة الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ولم تلبث الصين إلا أن تبعتهما بعدها بفترة قصيرة. وعقب انهيار قوتي اليابان وألمانيا العسكريتين بدأت هاتان الدولتان في تأكيد ذاتيهما

كقوتين اقتصاديتين خالصتين وبالفعل فقد صارتا حاليًا تحتلان المرتبتين الثانية والثالثة على التوالي عالميًا ويمكن القول إن الإمبراطورية البريطانية التي كانت اللاعب الأساسي في هذه الحرب والتي كانت تسمى يومًا ما «الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس» هي الوحيدة التي تأثرت سلبًا بالحرب فقد انكمشت لتقتصر على أرض إنجلترا التي تتوارى خلف الضباب.

كانت بريطانيا التي هزتها الحرب الأولى ضد ألمانيا قد تقلصت أهميتها كثيرًا بعد الحرب الثانية، فأسطولها التجاري الذي كان يفوق أساطيل العالم مجتمعة أصبح جله يرقد غارقًا في أعماق البحر، هذا بخلاف أن تسارع التقدم التكنولوجي الكبير قد أعلى من شأن الطيران من خلال اختراع الطائرات النفاثة والناقلات الجوية بعيدة المدى والقذائف الصاروخية التي تطلق من الطائرات لتحل محل البواخر بوصفها قوة عسكرية ووسيلة مواصلات. منذ نشأة شركة «الهند الشرقية» في عام ١٦٠٠م كانت بريطانيا بوصفها «سيدة البحار» قد بسطت سلطانها على شعوب فاقت عدد مواطنيها بعشرين مرة، إلا أنه بعد عام ١٩٤٥م لم يكن في وسعها الاحتفاظ بهذا التوسع في السلطة، فالدولة التي بنت إمبراطورية عالمية من خلال قوتها البحرية اكتشفت أن زمنها قد انتهى. تكمن المفارقة في هذا الموقف في أن معظم الإمبراطوريات التي قامت عبر التاريخ انتهت لأنها انهزمت، بينما انتهت الإمبراطورية البريطانية وهي في «ذروة المجد»، بعد أن كانت الوحيدة التي وقفت في وجه هتلر وهزمته، في وقت تراخت فيه القوى الكبرى في العالم ولم تحرك ساكنًا. ولقد أظهرت الإمبراطورية البريطانية شجاعة وجلدًا فيما بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٥م لم يظهر مثلهما طوال أربعة قرون مضت، ولقد كان هذا هو السبب في انتهاء عهد الهيمنة البريطانية.

ونتيجة أخرى ارتبطت بالحرب العالمية الثانية هي أنه حين استدرجت ألمانيا أوروبا للحرب وتسببت في إحالتها إلى كومة من الرماد وبدأ اليابانيون يشعلون النار في شرق آسيا، اختفى منطق الاستعمار المادي والمعنوي، فالقوة العظمى الجديدة المتمثلة في الولايات المتحدة التي برزت من خلال الصراع، كانت منذ نشأتها تعارض الاستعمار، وكان الاتحاد السوفييتي — مع أنه ورث تركة الإمبراطورية القيصرية — أكثر شعبية لدى الدول التي كانت خاضعة للأوروبيين بسبب مفهومه الثوري للشيوعية. بمعنى أن الولايات المتحدة نشأت

ثرية في الموارد لذا اتجهت إلى مبدأ تقليل الفوارق بين الطبقات الاجتماعية واعتنقت فكرة «قوة الفرد»، أما السوفييت فلأنهم يحملون بداخلهم ذكرى استبداد التتار الوحشي، ونظامهم الإقطاعي الاستعبادي فقد كانوا يروجون للعالم مبدأ منح السلطة للفرد. ولأن هاتين القوتين العظميين تنتمي كل منهما إلى جانب مختلف من العالم فإحداهما من الشرق والأخرى من الغرب، فقد ارتفعت حدة الصراع ارتفاعًا كبيرًا. لم يكن ما يميز هاتين القوتين اللتين تسيدتا العالم هو أعداد شعبيهما الغفيرة ولا أطماعهما التي تتعدى حدود قارتيهما فقط، وإنما كان الأخطر من ذلك هو ما تمتلكانه من أسلحة نووية بلغت من شدة تدميرها أن حالت دون نشوب أي حروب عسكرية أخرى، ولهذا فلم يكن أمام روسيا الشيوعية والولايات المتحدة الديموقراطية سوى الدخول في «حرب باردة»، تهدف إلى الهيمنة على بلاد أخرى مثل أفغانستان التي ستكون هدفًا لتنافس اقتصادي وأيدولوجي محتدم بين الروس والأمريكان طمعًا في الفوز بولائها.

في ذلك الوقت، نشأت دولة جديدة مجاورة لأفغانستان. ففي عام ١٩٤٧م نالت الهند استقلالها عن بريطانيا بعد ثورة سلمية مجيدة قادها المهاتما غاندي. وتقرر أن تنقسم شبه القارة إلى دولتين هما باكستان المسلمة التي انسلخت من دولة الهند الهندوسية كنتيجة حتمية لازدياد انتشار الإسلام في الهند الذي بدأ من أفغانستان على يد محمود الغزنوي. ولقد انطوت عملية الانقسام هذه على قدر كبير من الشغب وإراقة الدماء، وفر ملايين من الهندوس جنوبًا وفر عدد مساو من المسلمين شمالًا وشرقًا. وبلغ الشغب أن قُتل غاندي نفسه على يد أحد الهندوس، وكان هذا من حسن الحظ لأنه لو قتله مسلم لما استطاع أحد إخماد النيران التي كانت ستلتهم شبه القارة الهندية بأكملها.

وفور التقسيم طلبت أفغانستان من دولة باكستان الوليدة إعادة ترسيم الحدود، التي كان دوراند قد حددها بضغط من البريطانيين، حتى لا ينقسم شعب البشتون في دولتين. إلا أن باكستان التي كانت تعج بجواسيس البريطانيين والتي كانت قد خبرت جيدًا مشاكل الحدود الشمالية الشرقية رفضت تعديل الحدود. وقد تسبب هذا النزاع حول أرض البشتون في فساد العلاقة بين هاتين الدولتين المسلمتين خلال العقود التالية. ومع تلاشي قوة البريطانيين

في المنطقة، وفي ظل العلاقات العدائية بين أفغانستان وباكستان بعد الحرب، أسرع السوفييت بانتهاز الفرصة والتدخل بهدف مد نفوذهم.

خلال خمسينيات القرن العشرين، بدأ الروس يستثمرون في أفغانستان من خلال بناء السدود والطرق والمطارات والمدارس وتأسيس نظم الري، بالإضافة إلى التنقيب عن موارد البلاد الطبيعية. ولأن هذا كان جزءًا من السباق المحموم الذي ميز عالم ما بعد الحرب فقد سارع الأمريكيون للإدلاء بدلوهم، ففيما كانت مساعدات السوفييت تنحصر أكثر في شمال الهندوكوش كان الأمريكيون يركزون جهودهم في الجنوب. كان المشروع الرئيسي لدى الأمريكيين هو إعادة إحياء نهر هلمند عن طريق إقامة بعض السدود وتأسيس نظم الري على غرار ما أقاموه في وادي تينسي في الولايات المتحدة. أوكلت هذه المهمة لشركة تجارية أمريكية لكنها لم تحقق نجاحًا واضحًا، حيث عانت في البداية من مشاكل مالية، لأن المهندسين الأمريكيين لم يستطيعوا تقدير التكاليف التي تستلزمها ظروف البلد، لدرجة أنهم اضطروا حتى بعد أن تلقوا عدة منح مالية إلى اختصار أهداف المشروع وتقليل المعدات اللازمة لتنفيذه. قام الأمريكيون كذلك بتمويل إنشاء مطار كبير في قندهار لأنهم رأوا أنه سوف يكون نقطة محورية بين الهند والشرق الأوسط، غير أن استبدال الطائرات النفاثة بالطائرات المروحية جعل المطار عديم الفائدة حتى قبل أن يكتمل بناؤه. (رأى البعض أنه كان هناك منطق عسكري وراء هذا الأمر، وقد حدث أن صارت قندهار في عام ٢٠٠١م قاعدة لوجستية للقوات الأمريكية في أفغانستان.)

في تلك الفترة كانت الولايات المتحدة قد عزمت على إيقاف المد الشيوعي العالمي عن طريق إنشاء تحالفات إقليمية مثل حلف الناتو الذي وحد أوروبا في كتلة واحدة ضد الشيوعية، وفي عام ١٩٥٥م انضمت باكستان إلى «السيتو» SEATO (حلف جنوب شرق آسيا)، وفي العام التالي انضمت إلى «السنتو» CENTO (حلف بغداد) والذي يضم أيضًا إيران والعراق وتركيا فضلًا عن الولايات المتحدة وبريطانيا. أما أفغانستان فبسبب عداوتها مع باكستان وصلاتها الوثيقة بالاتحاد السوفييتي لم تكن ضمن البلاد التي انضمت إلى معاهدة الدفاع المشترك التي وقعها أعضاء حلف بغداد. كان الأمريكيون قد رفضوا منح الأفغان السلاح الذي طلبوه لأن خبراؤهم العسكريون رأوا أن

أفغانستان بلد هش غير مستقر لا يستطيع صد أي هجوم يشنه الجيش الأحمر عليه، هذا بخلاف أنه غير ذي أي أهمية استراتيجية.

توجه رئيس الوزراء الأفغاني محمد داود ابن عم ظاهر شاه على الفور إلى موسكو طالبًا دعمًا عسكريًّا، وكان وجه العجلة سببه أن الولايات المتحدة كانت قد بدأت في تسليح باكستان وإيران. وعلى الفور استجابت حكومة خروتشيف Khrushev لطلبه، فقد كان اتجاهها للتوسع دوليًّا أقوى من تشبعها بمفاهيم ستالين. وبهذا بدأت أفغانستان إعادة تنظيم القوات الجوية والبرية على غرار الجيش الأحمر، وأقرض السوفييت الأفغان قروضًا ميسرة لشراء بنادق ودبابات وطائرات من روسيا وتشيكوسلوفاكيا، بل إن الأفغان جعلوا اللغة الروسية اللغة الفنية التي تستخدمها القوات المسلحة. وخلال العقدين التاليين تلقى نحو ثلاثة آلاف وسبعمائة ضابط وطالب عسكري تدريبات في الاتحاد السوفييتي، وكان السوفييت خلالها يلقنونهم — سواء بطريق مباشر أو غير مباشر — معتقداتهم السياسية، هذا بالإضافة إلى ما يزيد على ستة آلاف طالب وفني، وحتى عام ١٩٧٩م أنفق الاتحاد السوفييتي ما يزيد على البليون دولار في المساعدات العسكرية حتى تكتمل المعونة الاقتصادية التي رصدت لها لتصير ١,٢٥ بليون دولار. بينما لم تقدم الولايات المتحدة في نفس الفترة إلا ما يقل عن النصف بليون بقليل، حتى بعد أن ضاعفت مشروعاتها في ستينيات القرن العشرين. تمكن السوفييت من استرداد كثير من استثماراتهم عن طريق أنابيب الغاز الطبيعي التي أنشئوها في باداكشان، في حين لم يتعامل الأمريكيون مع الأفغان إلا من خلال قروض سائلة ومعونات مالية منتزعة من بين أنياب الكونجرس الذي كان في الغالب يعارضها.

الجدير بالاهتمام هنا هو أنه بينما كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في أوج صراعهما أرغمتهما الحكومة الأفغانية على التعاون معًا، فقد كانت مشروعات الطرق التي تمدها الولايات المتحدة من الجنوب تلتقي بالضرورة مع الطرق التي كان السوفييت يمدونها من الشمال، ولهذا فقد اضطر الطرفان لتبادل الخرائط والمعلومات الجيولوجية، وكان المهندسون من البلدين يلتقون في فنادق قندهار وهرات مبتعدين قليلًا عن سيناريوهات نظرية المؤامرة التي كانت تسيطر على تفكير دولتيهما. كان من أبرز إنجازات السوفييت في أفغانستان الطريق السريع الذي يخترق جبال الهندوكوش من

خلال ممر سالانج بنفق طوله حوالي ميلين وارتفاعه أحد عشر ألف قدم. ولقد ساعدهم هذا النفق كثيرًا خلال غزوهم لأفغانستان بعد ذلك.

في عام ١٩٦١م أغلقت باكستان حدودها أمام بدو البشتون الرحل — الذين كانوا لقرون عديدة يروحون ويجيئون خلال التلال — بعد ما انتاب القلق داود رئيس وزراء الأفغان تجاه قضية البشتون، وكان داود أفغانيًا لا يوالي إلا وطنه، وذو قسوة تعادل قسوة عبد الرحمن وأحمد شاه معًا، كما كان لا ينفك يفعل الأمور التي تثير حساسية لدى مواطنيه. فذات مرة أثار ضجة كبيرة عندما طلب من نساء العائلة الملكية الخروج على الملأ سافرات دون حجاب، وعندما بدأ الملالي في إظهار غضبهم أمر باعتقالهم جميعًا. لكن داود كان أذكى من أن يمنع الحجاب، فقد كان يحاول اجتثاث جذور التطرف بينما يدفع بلده نحو العصر الحديث.

ومع ذلك، في عام ١٩٦٣م كانت قبضة داود الحديدية قد أغرقت السجون، وجعلت الركود الاقتصادي يسيطر على البلاد، وولدت رغبة في التمرد بين القبليين وكذلك الصفوة الأفغانية المثقفة التي نشأت في الفترة الأخيرة. فطلب منه ظاهر شاه وبقية أعضاء الأسرة الملكية أن يتنحى حتى يتمكنوا من وضع دستور جديد للبلاد يكون أكثر تحررًا. وكانوا يأملون في تطبيق مبدأ لا مركزية السلطة لأنه اتضح أن السلطة في أفغانستان إذا ما وضعت في يد شخص واحد، فلا بد أنه سوف يتعامل مع الشعب بغلظة وقسوة، أما عندما تنتقل السلطة إلى الشعب فسوف يكون أكثر دعمًا لهم إذا ما وصل صوته إليهم. وفي واحدة من أكثر الحوادث إثارة للدهشة في تاريخ أفغانستان رضخ داود ببساطة لمطلب العائلة المالكة — ومع أنه كان يسيطر سيطرة كاملة على الجيش فقد قدم استقالته حتى يسمح لدستور ١٩٦٤م الجديد بمنح الشعب الأفغاني حرية أكبر مع أنه حاول لعقد من الزمان أن يسيطر عليه.

منذ الثورة الفرنسية أدرك الجميع أن التحول الفجائي من الأوتوقراطية المتشددة إلى الليبرالية قد يؤدي إلى انفجار غضب الشعب المكتوم الذي يختلط بالتعصب والنزوع إلى التمرد الذي لا يوجد في المجتمعات التقليدية المنفتحة، فذاك المارد يجب أن يخرج من قمقمه تدريجيًا حتى لا يتسبب الدخان الذي يسبق خروجه في القضاء على كل شيء. وفي أفغانستان والتي تبلغ نسبة الأمية فيها ٩٠٪ كان دستور ١٩٦٤م الليبرالي لا يهم في قليل أو كثير المناطق الريفية

التي تتمتع بحكم ذاتي، ولكنه كان محل ترحيب كبير لدى طلبة جامعة كابول والموظفين المدنيين الذين كان أغلبهم قد تلقى تعليمه في الخارج.

وفي الأول من يناير/كانون الثاني من عام ١٩٦٥م أنشئ «حزب الشعب الديمقراطي» في أفغانستان في منزل نور محمد تركي في كابول. وكان هذا الحزب في مجمله شيوعيًّا فيما عدا اسمه وكان له علاقات قوية مع موسكو بالإضافة إلى أنه كان يمول من قبل المخابرات الروسية الكي جي بي ولأن الحزب كان أفغانيًّا ويساريًّا فسرعان ما انقسم إلى جناحين: الأول كان يسمى «الخلق» ويقصد به «الشعب»، وسُمي الثاني «بارشام» (أي الراية) وكان كل قسم منهما له صحيفة تصدر باسمه. وكانت مجموعة بابراك كارمال Babrak Karmal المثقفة على استعداد للعمل في إطار النظام الحاكم، في حين كان تركي وأتباعه البشتون أكثر تطرفًا في رؤيتهم.

على الصعيد العالمي وقفت أفغانستان تراقب من بعيد سلسلة الأحداث التي تلاحقت بسرعة في تلك الفترة. ففي عام ١٩٦٥م احتدم الصراع بين باكستان والهند حول كشمير وهي الولاية الشمالية التي كان من المنطقي أن تنضم إلى باكستان أثناء التقسيم لولا أن سلمها حاكمها المهراجا إلى الهند. وكانت الهند أيضًا تجابه تحدي الصينيين حيث تفجر الخلاف بينهما حول ترسيم الحدود ليتحول إلى أحداث عنف مشتعلة في منطقة شرق الهيمالايا. وفي عام ١٩٦٥م بدأت الولايات المتحدة حربًا شاملة ضد الشيوعيين في فيتنام مما أدى إلى ابتعاد أفغانستان أكثر عن رؤيتها الاستراتيجية. وفي عام ١٩٦٧م فجرت إسرائيل مفاجأة بحرب استباقية مفاجئة استمرت ستة أيام فقط، هزمت فيها جميع الدول المسلمة التي تجاورها، ومن خلال هذه الحرب تمكنت إسرائيل من احتلال مساحة تعادل أربعة أضعاف مساحتها السابقة واستولت على أراض مقدسة قديمة عزمت على الاحتفاظ بها. وفي العام الذي تلا ذلك، قام الاتحاد السوفييتي مع حلفائه من دول أوروبا الشرقية بغزو تشيكوسلوفاكيا كي يسحق حركة ديموقراطية كانت براغ منبعها. وفي عام ١٩٧١م نشبت حرب ضارية بين الاتحاد السوفييتي والصين على الحدود المشتركة بينهما مما أثار دهشة الغرب للغاية. وفي نفس العام أيضًا تجدد النزاع مرة أخرى بين الهند وباكستان وأدى هذا إلى أن فقدت باكستان الولاية الشرقية البعيدة التي أصبحت بنجلاديش فيما

بعد، إلا أن هذا التطور قد يكون إيجابيًا بالنسبة لباكستان حيث لم يكن لبنجلاديش فائدة تذكر سوى أنها تمد نفوذ باكستان على الهند، إلا أن بنجلاديش كانت بحاجة إلى دعم أجنبي لتتمكن من استمرار بقائها خاصة بعد كارثة الإعصار الذي عصف بها - وبعد ذلك أصبح مسرح الأحداث أكثر تهديدًا لها بعد سنوات قليلة حين أجرت الهند أول تجربة لتفجير قنبلة نووية.

شهدت فترة أواخر عقد الستينيات مرحلة تصادم حضاري وثقافي اجتاحت العالم ولم تحاول أفغانستان أن تتجنبها، ويرجع الفضل في ذلك إلى محاولتها التحديث التي أدت إلى وجود طبقة من الدارسين والمثقفين في كابول الذين التزموا بمفهوم التغيير العنيف وربما الثوري. وكان اقتصاد الدولة قد بدأ في الانهيار بعد أن تقلصت المعونات المالية حين انتقل الصراع بين الشرق والغرب إلى فيتنام التي التهمت بدورها المعونات المخصصة لدول العالم الثالث، كما تسببت موجة طويلة من الجفاف حدثت في أوائل السبعينيات في حدوث مجاعة في قرى أفغانستان. بالإضافة إلى أن الكثيرين من الأصوليين الإسلاميين بتأثير من الملالي كانوا متخوفين من حركة التحرر التي انتشرت في المدن الأفغانية. وإذا كانت ناشطات الحركة النسوية الأفغانية لم يحرقن حمالات صدورهن، فقد أحرقن براقعهن وخرجن سافرات أمام العيان، مما أدي إلى نقد لاذع من الملالي، قابله مزيد من السفور من النساء. أما ظاهر شاه فقد حاول السيطرة على البلاد من خلال تغيير خمس رؤساء وزراة على الأقل في تلك الفترة دون أن ينجح واحد منهم في تحقيق الاستقرار المنشود.

وفي عام ١٩٧٣م حين كان الملك ظاهر في رحلة إلى إيطاليا، خرج محمد داود من عزلته واستولى على الحكم في انقلاب أبيض لم تسفك به قطرة دم، بل لقد قوبل بترحيب قوي من الجيش الذي كان جل الفضل في إنشائه يرجع إلى داود، ثم أعلن قيام جمهورية أفغانستان. ساند حزب الشعب الديمقراطي داود في انقلابه. إلا أن داود أحس بأن أفغانستان صارت مقربة من السوفييت أكثر من اللازم فقام باستبعاد وزراء الحزب من حكومته، وقلل عدد المستشارين السوفييت في الجيش. وقد أثار ذلك عداء الإسلاميين المخلصين لتخوفهم من عودته إلى منهجه الدكتاتوري السابق في الحكم، وأكد لهم في نفس الوقت أن أفغانستان لن تنحاز إلى المعسكر الغربي أو تسير في ركاب الكتلة الشرقية. كان

أغلب معارضي داود من الطلبة واليساريين الذين يسكنون الحضر، خاصة حين بدأ في اتخاذ إجراءات صارمة ضد الصحافة. ومثلما حدث في سابق فترة حكمه الأولى، وكأي حاكم أفغاني آخر على مر التاريخ كان داود يسجن معارضيه أو يعدمهم.

لم تعد الولايات المتحدة طرفًا مشاركًا في اللعبة في أفغانستان، بل إن مساعداتها التنموية تقلصت إلى حد كبير. في واقع الأمر كان الأمريكيون بعد فشلهم في مغامرة حرب فيتنام سنة ١٩٧٣م ينفرون حين يسمعون كلمة «آسيا». فقد كانت معنويات الجيش قد ضعفت ولم تعد البلاد مستعدة للدخول في منافسة على مناطق نائية لا أهمية اقتصادية أو استراتيجية لها. وكان مهندس الحرب ريتشارد نيكسون قد اضطر إلى ترك منصبه في ١٩٧٤م إثر فضيحة شهيرة. وهزم جيرالد فورد الذي خلفه في الحكم بعد سنة واحدة أمام جيمي كارتر وهو مسيحي متدين ذو عقلية متميزة لم يجد دعمًا كافيًا من المؤسسة السياسية. وقد ورث كارتر سياسة مهتزة زادت اهتزازًا على أثر الحرب المضادة التي شنتها الدول الإسلامية على إسرائيل والتي بدأت في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣م، وحين أدركت الدول العربية أنها لن تستطيع أن تنجح في ساحة قتال، أنشأت منظمة الدول المصدرة للبترول «أوبك»، التي تسببت في رفع أسعار الجازولين واهتزاز الاقتصاد الأمريكي. في ذلك الموقف سعد السوفييت بهذا التطور الذي أربك أمريكا، لكنهم ظلوا على حذرهم المعهود، وهم يتحينون الفرصة للانقضاض على العالم الغربي.

في عام ١٩٧٧م وجه ليونيد بريجنيف Leonid Brezhnev تعنيفًا لداود على محاولته التقارب مع مصر والمملكة العربية السعودية ودول أخرى، فما كان من داود إلا أن ثار وأعلن أن أفغانستان لها الحق في أن تتخذ قراراتها الخاصة، بل إنه ضرب المائدة بقبضتي يديه تأكيدًا لقوله. ويقال إن بريجينيف اكتفى بالتحديق فيه في غضب بارد مكتوم، إلا أن الكثيرين يعتبرون هذا اللقاء بداية النهاية بالنسبة لداود. وفي هذا العام اتحدت جبهتي «الخلق» و«بارشام» في حزب الشعب الديمقراطي بتأثير من السوفييت والحزب الشيوعي الهندي. في ذلك الوقت كان الجميع يشعرون أن داود الذي كان قد تقدم في العمر أصبح سهل المنال، فحدوث انقلاب عليه ما هو إلا مسألة وقت. وكان ضباط الجيش الأفغاني في ذلك الوقت يميلون إلى السوفييت الذين دربوهم، ولهذا

فعلى خلاف مجندي الجيش القبليين، كان الضباط يوالون حزب الشعب الديموقراطي.

وفي أبريل/نيسان من عام ١٩٧٨م اغتيل الناشط الشيوعي مير أكبر خيبر Mir Akbar Khyber، فافترض الجميع أن شرطة داود السرية هي المسئولة عن قتله، فزع داوود حين وجد أن موكب الجنازة تحول إلى مظاهرة لخمسة عشر ألف ناشط، فكان رد فعله الفوري هو اعتقال جميع الزعماء الماركسيين وهو الأمر الذي أدى إلى مزيد من العنف. وفي السابع والعشرين من أبريل/نيسان من عام ١٩٧٨م قامت وحدات من الجيش بتطويق قصره في كابول، وقامت فرقة أخرى مسلحة بالاستيلاء على المطار، وبعد الظهر أخذت طائرات الميج ٢١ تقصف القصر بالقنابل. وحاولت الفرقة السابعة الموالية لداود أن تسير إلى العاصمة، إلا أن الثوار قاموا بمهاجمتها من الجو. صمد داود طوال الليل مع حرسه البالغ عددهم ألفًا وثمانمائة جندي، إلا أن المهاجمين تمكنوا من اقتحام القصر، وعند الفجر كان هو وكل عائلته قد لقوا مصرعهم في هذه الاشتباكات.

بعد المعركة قام ضباط الجيش الماركسيون بتسليم السلطة إلى حزب الشعب الديمقراطي الذي أعلن عن قيام جمهورية أفغانستان الديموقراطية، وتولى تركي (رئيس جبهة خلق) الرئاسة، في حين تولى كارمال (رئيس البارشام) منصب نائب الرئيس. وكان نجاح هذه الضربة التي أطلق عليها ثورة أبريل/نيسان هو نهاية التفاهم بين خلق وبارشام حيث قام تركي بعد ذلك باستبعاد أعضاء البارشام من الحكومة، وتخلص من كارمال بتعيينه سفيرًا لدى تشيكوسلوفاكيا، واتخذ حفيظ الله أمين نائبًا له. ومع ذلك لم يستطع هذا التنازع الحزبي أن يغطي على إنجاز حزب الشعب الديموقراطي الكبير، فبه نجحت الثورة الشيوعية في أفغانستان.

كان عام ١٩٧٨م هادئًا نسبيًّا حيث تردد حزب الشعب الديموقراطي في القيام بإجراءات إصلاحية جذرية، فمنذ البداية أعلن الحزب أن سياسته سوف تقوم على «الدفاع عن مبادئ الإسلام والديموقراطية وصون حقوق الإنسان»، وأن سياسته الخارجية سوف تتمثل في «الحياد الإيجابي النشط». لم تلق هذه السياسة معارضة سوى من أقليات في نوريستان، وهازاراجات، وشمال طاجيكستان مدفوعة بشعور الظلم الذي يلاقونه على أيدي البشتون أكثر من

اعتراضهم على ماركسية النظام الحاكم الجديد. وبعد ذلك تدفقت أمواج جديدة من المستشارين السوفييت على البلاد بعد استقرار سلطة الحزب الحاكم.

إلا أن حقيقة هذا النظام الحاكم ظهرت جلية أمام العيان خلال أحد الاحتفالات الوطنية التي جرت في كابول في أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٧٨م، حين أزيح الستار عن علم أفغانستان الجديد، فقد أنزل العلم الأخضر التقليدي ليخفق في السماء العلم الأحمر الجديد. وفي ذات الاحتفال أعلن النظام الحاكم عن أهدافه المتمثلة في: تعليم المرأة ومساواتها في الحقوق مع الرجل، وإدراج اللغات الأوزبكية والتركمانية والبلوخية والنوريستانية لغات قومية، والقيام بإجراءات تهدف إلى الإصلاح الاقتصادي وإعادة توزيع الأراضي على الشعب. يعلق لاري ب. جودسون Larry P. Goodson على ذلك بقوله: «قامت هذه الإصلاحات بقلب البناء الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الريفي الأفغاني، ولقد بدا أن هذا هو هدف النظام الحاكم، إذ أجروا هذه التغييرات الفجائية دون أن يمهدوا لها ببرامج إرشادية.»

عقب هذا اندلعت الثورات في كل مكان واستلت قبائل البشتون التي تسكن الجبال الشرقية أسلحتها، وتحولت مناطق وادي كونار، والهندوكوش الوسطى وباداكشان إلى معاقل لمناوئي الحكومة. وتمثل رد فعل حزب الشعب الديمقراطي تجاه هذه الثورة في الكثير من الاعتقالات وأحكام الإعدام. أما عن الجيش الأفغاني فقد بدأ يتفكك شيئًا فشيئًا بعد أن فر منه الآلاف ومعهم أسلحتهم، ولم يبق للحكومة من سند سوى الاتحاد السوفييتي، ففي ديسمبر/كانون الأول وُقِّعت معاهدة صداقة وحسن جوار بين جمهورية أفغانستان الديمقراطية وبين الاتحاد السوفييتي. ومع ذلك أصرت إدارة كارتر في واشنطن على أنه لا ضرر مما حدث على الإطلاق بل لقد رفضت الاعتراف علانية بأن أفغانستان بهذا أصبحت رسميًّا دولة شيوعية.

في عام ١٩٧٩م زاد الوضع تدهورًا، ففي فبراير/شباط من ذات العام اختُطف السفير الأمريكي أدولف دوبس Adolf Dubs، فقامت فرقة أفغانية، بإيعاز من السوفييت وعلى غير رضى من الأمريكيين، باقتحام فندق كابول حيث كان السفير محتجزًا، وقتلت جميع الخاطفين ومعهم السفير. في الشهر التالي تفجرت مظاهرات عنيفة في هرات، وحين صدرت الأوامر إلى الفرقة السابعة عشرة الأفغانية بإخماد الفتنة تمردت بدورها وانضمت إلى جموع

الثائرين. وعلى مدى ثلاثة أيام استولى الثوار على المدينة وأخذوا يسطون على مخازن الأسلحة بها ويطاردون مسئولي الحكومة. فأمر تركي القوات الموالية له المتمركزة في قندهار بتطويق المدينة بينما أرسل كتيبتين مسلحتين من كابول. وبعدها هاجم بعض ضواحي هرات وهاجم مقر الفرقة السابعة عشرة بقاذفات القنابل آي إل-٢٨ (IL-28) من قاعدة شينداند الجوية — وحين تم القضاء على الثورة كانت حصيلة القتلى خمسة آلاف منهم مائة من المستشارين السوفييت وعائلاتهم. وخلال الثورة كان الأفغان يطوفون بالمدينة حاملين رءوس السوفييت على أسنة الرماح.

تسببت أخبار ما حدث في هرات في حدوث مزيد من التمرد داخل القوات المسلحة الأفغانية وهروب الجنود، ففي شهر مايو/أيار سار شطر من الفرقة السابعة بسياراتهم في اتجاه ولاية باكتيا حيث انضموا إلى الثوار. وفي الشهر التالي أطلقت قوات حكومية النيران على مظاهرة في كابول نتج عنها عدد غير قليل من القتلى. وفي أغسطس/آب انضم الفوج الخامس من فرقة المشاة التاسعة إلى ثوار وادي كونار. وفي كابول استولت وحدة من قوات الثوار على قلعة بالاهيسار لفترة قصيرة. بعد ذلك تضاعفت معونة السوفييت العسكرية فأمدتهم بمائتين من دبابات تي-٥٥ (T-55) ومائة دبابة تي-٦٢ (T-62) واثنتي عشرة طائرة هليوكوبتر مي-٢٤ (Mi-24)، بالإضافة إلى أسلحة أخرى مختلفة، ووصل عدد المستشارين السوفييت في تلك الآونة إلى الآلاف، كما كان الطيارون السوفييت يبعثون في مهام قتالية. وقد أرسل تركي طائراته المروحية الجديدة إلى وادي كونار لقتال المتمردين، وكانت القوات في طريقها تغير على القرى وتقتل المواطنين. وفي بلدة كيرالا وصل عدد القتلى إلى أكثر من أحد عشر ألفًا. ويعلق جودسون بقوله: «أصبحت هذه الجريمة من أشهر الجرائم في تلك الحرب التي كانت تزخر بالفظائع، ومثلت انحرافًا واضحًا عن منهج العنف القبلي الذي كان يسير على نمط معين والذي كان شائعًا قبل أقل من عام.»

وفي منتصف صيف ١٩٧٩م كان مستشار كارتر للأمن القومي زبيجنيو برزيزنسكي Zbigniew Brzezinsky قد بدأ يشعر بالحاجة إلى التدخل، فأقنع الرئيس بالموافقة على إرسال بعض المعونات للثوار الأفغان. وقد شملت الشحنة بنادق بريطانية قديمة لي-إنفيلد عيار ٠,٣٠٣ (Lee-Enfield 0.303) ورغم ضعف الشحنة إلا أنها دقت جرس الإنذار عند الكرملين بأن الولايات المتحدة

تعتزم التدخل في الصراع الدائر. وفي سبتمبر/أيلول دعت موسكو تركي إلى إجراء مباحثات معه، وعند عودته إلى كابول أُلقي القبض عليه وتعيين نائبه أمين مكانه، وقد قيل إن هذه الخطوة القذرة قام بها أمين من تلقاء نفسه. وبعد عودة تركي إلى العاصمة بقليل هاجمت جماعة من المسلحين أمين وقتلت حارسه الخاص. لكن بعدها انتصر أمين واستولى على السلطة في سبتمبر/أيلول، وبعدها بأسابيع أمر بقتل تركي الذي كان يلقب «بالمعلم العظيم» بكتم أنفاسه بوسادة.

في الشهرين التاليين كان واضحًا بجلاء للقيادة السوفييتية أن الثورة الأفغانية بدأت في التمزق. إلا أن أمين الذي كان قد عجز عن إخماد القلاقل وبدأ يتخبط في قراراته، قام بإلغاء كثير من برامج حكومته، وكثرت وعوده الجديدة، بل لقد لجأ إلى باكستان في طلب المساعدة. كما قام بتسريح البوليس السري الذي كان تركي قد أنشأه، وأعلن أمام الشعب أن اثني عشر ألف أفغاني قد قتلوا على يد الحكومة منذ ثورة أبريل/نيسان. ولقد اعتمد أمين في حكمه على دعم الجيش له، إلا أن القوات المسلحة الأفغانية كانت قد تقلصت إلى النصف نتيجة فرار الكثيرين من الجندية بالإضافة إلى التمرد الحادث داخل الجيش.

بدأ الجنرالات السوفييت في رسم خطة للتدخل في نفس الوقت الذي كانوا ينشئون فيه جيشًا أحمر مسلحًا في تركمانستان. وكانت الخطة تحتاج إلى انقلاب آخر يأتي ببابراك كارمال زعيم حزب البارشام بديلًا عن أمين. ولم يكن يوري أندروبوف Yuri Andropov رئيس «جهاز المخابرات السوفييتي» يميل إلى أمين، بل كان يصدق الشكوك التي تحوم حوله بأنه عميل للمخابرات الأمريكية وكان أمين قد تلقى تعليمه في جامعة كولومبيا في نيويورك ولذلك كانت اللغة الإنجليزية هي أكثر اللغات الأجنبية التي يتحدثها بطلاقة. وكان تقصيره الواضح في الفترة السابقة قد أثار تساؤلات كثيرة عن دوافعه الحقيقية. وعلى أية حال كان أمين قد أصبح محل احتقار الأفغان لدرجة أنهم كانوا على استعداد لقبول أي أحد يخلصهم منه. وبالفعل بعد أن أقصى عن الحكم ألقي اللوم على أمين عن كل الكوارث التي حدثت في السابق ليبدأ حزب الخلق حكمه الجديد على أرض ممهدة.

وفي الثاني عشر من ديسمبر/كانون الأول التقى بريجينيف — وكان وقتها شيخًا مريضًا يبلغ الثمانين من عمره — بمجموعة من مستشاريه في الكرملين. ورغم اعتراض الكثيرين من الجنرالات، صمم القادة السياسيون على إرسال

الجيش الأحمر إلى أفغانستان. وكانوا يأملون في أن تسير الأمور بسهولة ويسر كما حدث كما حدث معهم سابقًا في المجر عام ١٩٥٦م، وفي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨م. فعلى الرغم من القتال العنيف الذي دار في بودابست، نجحت العمليتان في خلق نظام حكم يقضي على الاضطرابات في البلاد بأسلوب قمع يمنع حدوث أي تمرد أو ردود فعل مضادة في الدول المجاورة. وبهذا كان بيان بريجينيف (وهو بيان سوفييتي يماثل قانون مونرو) الذي ينادي بأن يتولى الجيش الأحمر الدفاع عن جميع الرفاق الشيوعيين قد دخل حيز التنفيذ.

لم تكن القضية الأساسية أمام السوفييت هي الوفاء لتعاليم ماركس بقدر ما كانت وضع استراتيجية حرب باردة ليس الخصم الأساسي فيها هو بدو أفغانستان بل الولايات المتحدة. ففي أوائل ذلك العام كانت الولايات المتحدة قد فقدت إيران بعد أن قامت الثورة الإسلامية التي قادها آية الله الخوميني، وفقدت معها جميع مواقع التجسس والمطارات ومخازن الذخيرة والإمدادات التي كانت الولايات المتحدة تتمتع بها على الحدود الجنوبية للسوفييت. أما أفغانستان التي كان الأمريكيون منذ وقت قريب يرونها بحيرة راكدة، فقد صارت فجأة بلدًا مهمًّا جدًّا. وكان الموقف قد تفاقم نتيجة أنه في الشهر السابق وعلى وجه التحديد في الرابع من نوفمبر/تشرين الثاني كانت إيران قد احتجزت موظفي السفارة الأمريكية في طهران كرهائن (وكانت السفارة الأمريكية أيضًا في روالبندي قد اقتحمت) فبدأ العسكريون الأمريكيون يركزون اهتمامهم على المنطقة، فإذا لم يحاربوا ضد إيران فسوف يحاولون على الأقل أن يستعيدوا مكانتهم المفقودة من خلال وجودهم في مناطق أخرى في جنوب آسيا.

كان للثورة الإيرانية أيضًا تداعياتها على الجمهوريات الإسلامية الجنوبية التابعة للاتحاد السوفييتي، فإذا كان المد الإسلامي قد أصبح مثار تهديد جديد، فمن الأفضل أن يهاجم في الهندوكوش بدلًا من انتظاره في أراض سوفييتية بعد أن يحقق مزيدًا من الانتصارات في أفغانستان. فالمهانة التي يتعرض لها الشيوعيون في آمودريا (جيحون) سوف يكون لها صدى في بلاد ما وراء النهر السوفييتية. ورغم أن الولايات المتحدة كانت في حرب مع الجماعات الإسلامية في ذات الوقت إلا أنها كانت تعلم جيدًا أن السوفييت أشد منها حساسية تجاههم، حيث إن هناك عشرات الملايين من المسلمين موجودون في الأراضي التابعة لهم التي لم يستطيعوا غزوها إلا بشق الأنفس.

وفي هذا السياق كانت الحرب الدائرة داخل الحزب الشعبي الديمقراطي بالنسبة للقادة السوفييت لا تعدو كونها ثورة قبلية داخلية. أما المخابرات المركزية الأمريكية فكانت تعد مسرح اللعبة في تأن شديد، وكانت العسكرية الأمريكية تجد في إيران في ذلك الوقت عذرًا قويًّا للظهور على مسرح الأحداث بكل قوة. وكان هناك عامل آخر وهو أنه في حالة سقوط حزب الشعب الديمقراطي بعد صراع دموي فإن كل النفوذ الذي سعى إليه السوفييت في أفغانستان ودفعوا ثمنه منذ عام ١٩١٩م سوف ينتهي إلى غير رجعة. وربما تأتي حكومة قبلية تقليدية — غير محايدة — تبحث عن بديل أمريكي يدعمها ماديًّا ويساندها بخبراته. وفي أسوأ السيناريوهات فإن قواعد الصواريخ الأمريكية المنحوتة في الهندوكوش سوف تشكل تهديدًا للاتحاد السوفييتي.

أدرك بريجينيف وفريقه المشارك في الحرب الباردة أنهم في تعاملهم مع الولايات المتحدة لا يتعاملون مع أيزنهاور أو نيكسون أو حتى كينيدي الذي كان — وهو في قمة الازدهار الاقتصادي — مستعدًا أن «يتحمل النتائج». ولكنهم كانوا بدلًا من ذلك يتطلعون إلى كارتر الذي لم يكن على استعداد مطلقًا للدخول في حرب جديدة حتى لو أراد، وخاصة في بلاد اعتبرت — منذ هزيمة البريطانيين — واقعة ضمن نطاق النفوذ السوفييتي. وفي اجتماع تم في الكرملين في الثاني عشر من ديسمبر/كانون الأول من نفس العام رأى المجتمعون أنه كان من الأفضل ألا تحدث ثورة أبريل/نيسان من الأساس. ولكن في تلك اللحظة لم يكن أمام السوفييت سوى خيار واحد وهو إرسال نجدة عسكرية لنظام صديق، أو بمعنى أصح: الغزو.

وفي عشية ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٧٩م انطلقت مقاتلات سلاح الطيران السوفييتي تحلق في سماء مطار كابول والقاعدة الجوية العسكرية في باجرام التي تقع في أقصى الشمال. وكانت الحكومة الأفغانية تسيطر على الموقعين معززة بمئات المستشارين السوفييت، وحين هبطت فرق الجيش السوفييتي المحمولة جوًّا ومعها فرق الكوماندوز «السبتزناز» كان المشهد مثيرًا للقلق وتحفزت أيدي الأفغان على بنادقهم ولكن لم يحدث أي قتال.

وهكذا تم أول غزو يقوم به الاتحاد السوفييتي منذ عشرين عامًا بسهولة ويسر (فيما عدا حادثة تحطم طائرة مروحية لقي خلالها سبعة وثلاثون

جنديًّا مصرعهم) وكان تنفيذ الغزو سريعًا قويًّا ولم تنقصة الحنكة الحربية، فحتى يتمكن السوفييت من تحييد عناصر الجيش الأفغاني والمشكوك في ولائها، استخدموا بعض وسائل الخداع الماهرة. فقد أبلغ المستشارون السوفييت وحدة الدبابات الأفغانية التي كانت تحيط بمحطة الإذاعة في كابول بأنهم سيمدونهم بدبابات جديدة أكثر تطورًا ومن ثم يجب عليهم تفريغ الوقود من الدبابات القديمة والانتقال إلى الجديدة، والتي لم تأت بالطبع. كما تمكنوا من تحييد الفرقتين السابعة والثامنة بمكر أيضًا، فطلبوا من إحدى الفرق جرد الذخيرة المعيبة مما كان يعني إفراغ الدبابات من قذائفها، وطلبوا من الفرقة الثانية نزع بطاريات الدبابات بغرض تخزينها لفصل الشتاء وهو ما أدى إلى تعطلها تمامًا.

وفي صبيحة عيد الميلاد دخلت الفرقة الـ ٣٥٧ والفرقة الـ ٦٦ المنقولتين برًّا أفغانستان عن طريق كوشكا في تركمانستان وبدأتا تتقدمان جنوبًا بمحاذاة الطريق الرئيسي. أما الفرقة ٣٦٠ والفرقة ٢٠١ فقد عبرتا آمودريا (جيحون) على جسور مؤقتة امتدت من ترمذ في أوزباكستان. وقد وصلت الفرقة ٣٦٠ إلى كابول بعد يوم واحد مؤمنة في طريقها ممر ونفق سالانج الاستراتيجي، في حين تقدمت الفرقة ٢٠١ صوب قندوز ثم اتجهت شرقًا إلى باداكشان وباجلان. أما الفرق المحمولة جوًّا فقد بدأت هبوطها في قاعدة شيندانـد الجوية (جنوب هرات) وفي قندهار وجلال أباد. وحين جاء يوم ٢٧ ديسمبر/كانون الأول كان عدد القوات السوفييتية في أفغانستان قد وصل إلى خمسين ألفًا بالإضافة إلى خمسة آلاف من قوات السبتزناز في مواقعهم حول كابول.

ذكر يوري تينكوف Yuri Tinkov، وهو أحد أفراد القوات السوفييتية المنقولة جوًّا، أنه وقت تمركزه في سمرقند قيل لوحدته إن القوات الخاصة الأمريكية تكاد تسيطر على أفغانستان بالكامل، ونتيجة لهذا كانت رحلة وحدة تينكوف الليلية إلى أفغانستان رحلة عصيبة للغاية يصفها هو بقوله:

«حين بدأت الطائرة في الهبوط إلى كابول، هرعنا إلى النوافذ لنرى ما إذا كان الأمريكيون يطلقون مدافعهم أم لا. وأخذنا في الهبوط تدريجيًّا والخوف يعتصر أحشائنا، وكل منا يحمل بندقيته المعدة للاستخدام. كان أول ما فعلنا بعد هبوطنا مباشرة هو تنظيم الحراسة

على أجنحة الجيش. كان الوقت ليلًا وكان الظلام حالكًا بحيث لم تكن نرى أي شيء. وكانت كلما ارتفعت طائرة في الجو هبطت أخرى مكانها مباشرة.»

في أيام الغزو الأولى قال السوفييت لأمين إنهم جاءوا لينقذوا ثورته، مع أن الزعيم الأفغاني كان قد نجا من محاولات عديدة لاغتياله (واحدة منها كانت على يد طباخه الذي حاول أن يسمم طعامه والذي كان في واقع الأمر من عملاء الكي جي بي) وكان في ذلك الوقت مختبئًا في قصر دار الأمان في إحدى ضواحي كابول محاطًا بحراسه. وخلال ذلك كان السوفييت قد انتشروا في مواقع استراتيجية داخل كابول، وفي نفس الوقت كانت فرق الجيش الأحمر المصفحة تتقدم نحو بقية المطارات ومراكز الاتصال ومقار الحكومة.

بدأ الغزو الفعلي في السابع والعشرين من ديسمبر/كانون الأول، ففي هذا اليوم المصيري تم تدمير خطوط الهاتف بسرعة وتم الاستيلاء على الإذاعة واحتلال وزارة الداخلية — واحتل جنود المظلات مكتب البريد ومستودعات الذخيرة ومباني حكومية أخرى. يقول تينكوف: «إن إطلاق النيران تزايد مع اقتراب حلول المساء. وبعد أن أظلمت السماء بدأت أصوات القصف تدوي في المدينة ... ومع بزوغ أول أضواء النهار خفَّتْ حدة القصف إلى حد ما ... وكان هذا السيناريو يتكرر كل ليلة حتى شهر مايو/أيار.»

في الليلة الأولى تعرض قصر أمين للهجوم، وقام جنود الكوماندوز السوفييت باقتحام القصر بعد أن ارتدوا ملابس الجنود الأفغان، في حين أخذ المئات من الجنود المنقولين جوًّا يهاجمون الأسوار. ودافع حراس أمين عن القصر لمدة أربع ساعات من حجرة إلى أخرى، إلا أنهم هزموا في النهاية. ذكرت بعض التقارير أن أمين قتل وهو يحتسي شرابًا في أحد بارات القصر بعد أن استسلم لمصيره. غير أن السوفييت كذلك خسروا بعض رجالهم فقد قتل الجنرال فكتور س. بابيوتن Viktor S. Paputin النائب الأول لوزير الشئون الداخلية، كما قتل أيضًا الكولونيل بايرينوف Bayerenov الذي كان خارجًا من القصر ليصدر أوامره إلى الجنود، ولكن لأنه كان يرتدي الزي الأفغاني فقد قتله أحد رجاله السوفييت. لقد كانت عملية فوضوية ولكنها أدت إلى التخلص من أمين. بعدها وصل كارمال من المطار في عربة مصفحة ليتولى مسئولية الحكومة. ووجه

كارمال خطابًا إلى الشعب الأفغاني على موجة إذاعة كابول، وعن طريق جهاز بث سوفييتي، قال فيه:

«اليوم دُمِّر نظام أمين الوحشي وانتهى عهده وعهد أتباعه السفاحين، الذين قتلوا وعذبوا وانتهكوا حرمات عشرات الآلاف من مواطنينا ... لقد دخلت ثورة أبريل/نيسان العظيمة التي نجحت من خلال إرادة الشعب الأفغاني البطل الذي لا يقهر مرحلة جديدة ... إن معاقل الطغيان والحكم الاستبدادي التي قامت في عصر أمين الدموي ومعاونيه الذين كانوا كلاب حراسة لنادر شاه وظاهر شاه وداود شاه، مأجوري الإمبريالية العالمية والتي ترأسها الإمبريالية الأمريكية — قد تحطمت تمامًا — ولم يبق واحد منهم الآن.»

وفي اليوم التالي أعلن كارمال أيضًا عن طريق الإذاعة أنه طلب من الاتحاد السوفييتي «معونة سياسية ومعنوية واقتصادية وحربية عاجلة»، ثم أشار إلى معاهدة الصداقة وحسن الجوار المبرمة بين البلدين في ١٩٧٨م، وقال: «وقد وافقت حكومة الاتحاد السوفييتي على طلبنا.»

كانت خطة الغزو واضحة وصريحة ومبنية على أسس تتوافق مع المصلحة وهي: التخلص من رئيس الدولة في كابول بهجوم تشنه القوات المحمولة جوًّا، ثم تأمين المدن الكبرى في الدولة بالإضافة إلى مطاراتها وطرقها. وبعدها تتدفق القوات المنقولة برًّا إلى أفغانستان من كوشكا وترمذ لتأمين الطريق الرئيسي السريع الذي يحيط بالهندوكوش مع الاستيلاء على المناطق الحضرية في طريقهم. وقد قام جناح الجيش الغربي بضرب هرات وشينداند وفرح وقندهار، ومن ترمذ زحفت القوات السوفييتية بمحاذاة الطريق السريع شرقًا ثم جنوبًا إلى كابول. وفي نفس الوقت كان الطيران السوفييتي يؤمن قواعد له في باجرام وجلال أباد وقندهار وشينداند وهرات.

بصفة عامة كان هذا الغزو استعراضًا بديعًا للتكتيكات الحربية الحديثة، فقد استطاع السوفييت من خلال نقل الجنود جوًّا إيصالهم إلى مواقع استراتيجية هامة في ساعات قلائل. وتبعتها الفرق المنقولة برًّا لتأمين قواعد الإمدادات للموجة الثانية من الهجوم. وتمكنت القوات السوفييتية من بسط سيطرتها الكاملة على المدن الرئيسية. وفي الأسابيع الأولى من الغزو انتشر ما يقرب من

سبعمائة وخمسين دبابة وألفين ومائة من مركبات قتال كشبكة عنكبوتية في جميع أنحاء البلاد، وفي نهاية الشهر كان السوفييت قد نجحوا في زرع حوالي ثمانين ألف مقاتل في أفغانستان.

تمثلت مشكلة السوفييت الوحيدة في أن الجيش الأحمر الذي كان قد تدرب لعقود طويلة على الحرب ضد دول حلف «الناتو» أو الصينيين؛ قد جاء إلى أفغانستان محملًا بعتاد «ثقيل» يتضمن عربات مدرعة ذات صواريخ مضادة للدبابات وصواريخ مضادة للطائرات وشاحنات خفيفة تتأثر سريعًا بالأسلحة الصغيرة، وأخرى مدرعة ثقيلة لا تستطيع أن تجوب المناطق الريفية. كانت الخطة التي وضعها السوفييت في البداية لا تتعدى تحقيق هدفهم الذي كان تثبيت حكم الأفغان وليس قتالهم في أراضيهم، لكنهم لم يقفوا عند هذا الحد ربما لغرورهم بسهولة الغزو، أو ربما لأنهم لم يستوعبوا جيدًا الدرس الذي تعلمه الأمريكيون في فيتنام، فقد كانت المشكلة تتمثل في المناطق الريفية لا في المدن. على كل حال لقد ظل قاطنو المدن الأفغانية، وأولئك الذين كانوا قريبين من الطريق الذي يدور حول كابول؛ يحدقون لمدة أيام في رهبة إلى هذه القوة العسكرية الجبارة، إلا أنهم سرعان ما أعلنوا الجهاد، وبدأت قوة الأفغان القتالية ترد الهجوم.

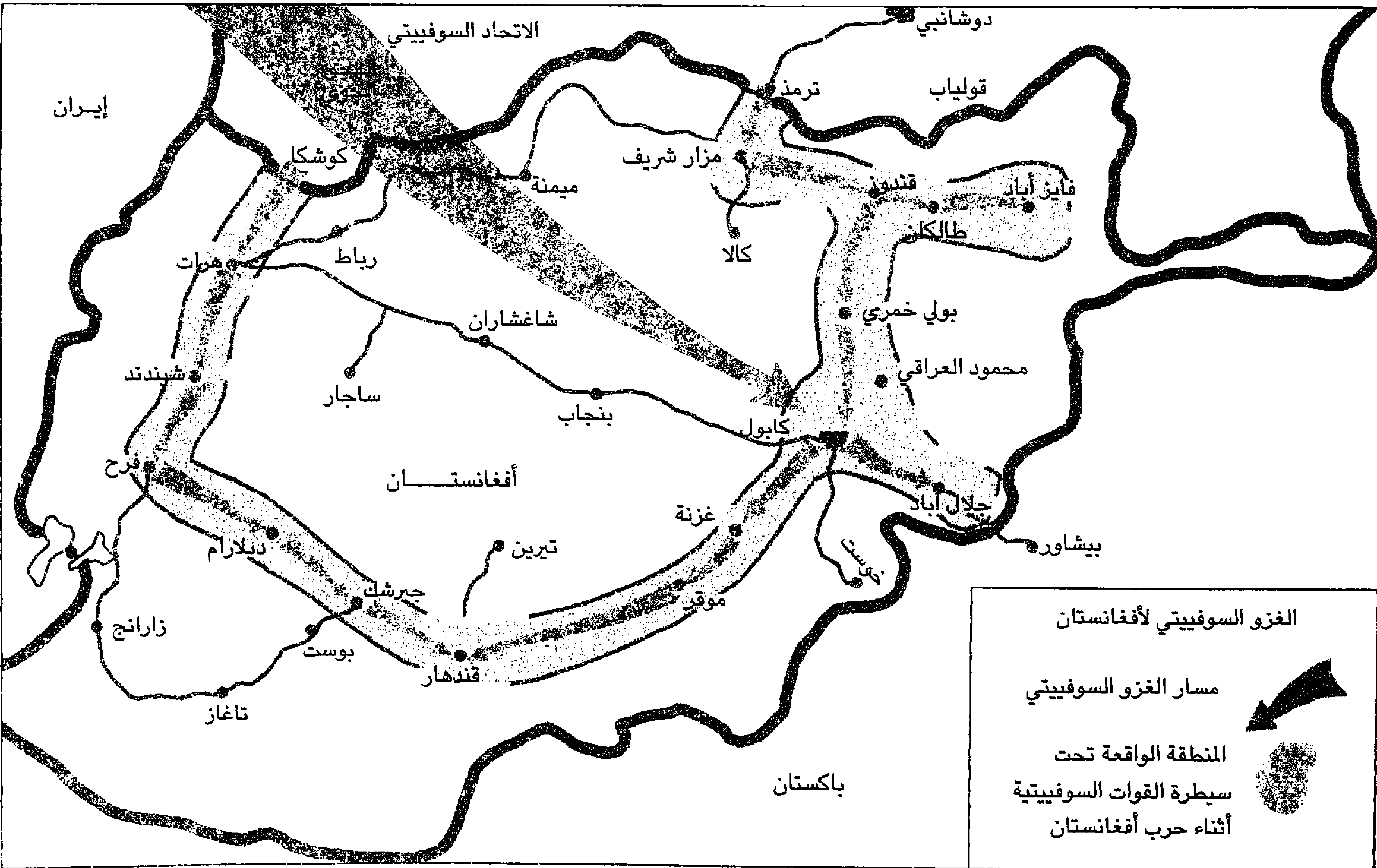
كان تعداد أفغانستان يبلغ حوالي ١٧ مليون نسمة قبل الغزو السوفييتي، وكان ٩٠٪ منهم أميين و٨٥٪ منهم يعيشون في الريف ويعملون في الزراعة والرعي. ورغم كل الجهود التي بذلها القادة الأفغان في القرن العشرين ابتداء من حبيب الله وحتى داود، إلا أن البلاد ظلت على طبيعتها الريفية البسيطة سريعة التأثر لا يلتفت أهلوها إلى الأوامر العليا الصادرة من كابول بقدر ما يطيعون تعليمات الملالي أو زعماء القبائل. ورغم كون أفغانستان تقع في مفترق طرق بين أجزاء القارة الآسيوية فقد ظلت قوة أفغانستان تكمن في قاطني التلال النائية الذين يقدسون الحرية الشخصية ويقاومون بضراوة أي غزو أجنبي، لا في من يسكنون المدن.

وقبل الحرب كان المثقفون والمنظرون السوفييت يرون أفغانستان أسوأ بيئة يمكن أن تقوم بها ثورة بروليتارية. إلا أنه في عام ١٩٧٩م تم التغاضي عن هذه النصيحة حتى يتسنى للجيش السوفييتي تهدئة الاضطرابات

الحادثة في كابول وهرات ومن ثم حماية الثورة. وعلى مر التاريخ كانت العمليات العسكرية الهجومية — حتى تلك التي انتهت بكوارث — تتم من خلال قادة عسكريين شجعان وواثقين من أنفسهم ولا يلقون بالًا لنصائح المتشائمين المثبطة للهمم. أراد السوفييت أن يعيدوا تثبيت نظام الحكم الشيوعي على وجه السرعة ثم سحب قواتهم الفخورة بالنصر. أما عن بقية العالم فقد كان رافضًا القتال لمناصرة أفغانستان، ولذا فقد استسلم لإرادة السوفييت.

في واشنطن كانت ثورة الرئيس جيمي كارتر على الغزو السوفييتي عارمة، حتى إنها فاقت رد فعل المواطن الأمريكي العادي. ففي ذلك الوقت كان احتجاز الإيرانيين لطاقم السفارة الأمريكية في إيران هو الشغل الشاغل للرأي العام الأمريكي، أما أفغانستان فقد كانت في نظرهم أرضًا شيوعية — ومع الحالة الاقتصادية المزرية وتبعات حرب فيتنام الجسيمة، وظهور أمريكا بمظهر الضعف أمام ما حدث لسفارتها في إيران — لم يكن لدى كارتر رصيد لدى الشعب الأمريكي يسانده في أي قرار يتخذه ضد احتلال السوفييت لأفغانستان. فلم يجد أمامه إلا أن ألغى إرسال شحنات الحبوب التي كانت متجهة إلى الاتحاد السوفييتي، بالإضافة إلى تقليص حقوق الصيد التي يتمتعون بها في المياه الأمريكية، كما أجل عرض معاهدة الحد من التسلح على الكونجرس. فضلًا عن منع اشتراك الفريق الأمريكي في دورة الألعاب الأوليمبية الصيفية عام ١٩٨٠م التي كانت ستنعقد في موسكو.

ويبدو أن كارتر الذي كان رجلًا شديد التمسك بمبادئه قد اعتبر غزو السوفييت لأفغانستان قضية شخصية، حيث كان يؤمن أن كلام القادة والدبلوماسيين السوفييت ثبت أنه كذب يخفي وراءه نواياهم الشريرة. (وقد يعلق بعض الساخرين قائلًا إنه رأى في هذا الغزو قضاء على فرصة إعادة انتخابه مرة أخرى في انتخابات عام ١٩٨٠م). لكن أبرز ما تحقق في عهد كارتر هو أن عهد العلاقات الطبيعية بين البلدين قد انتهى، وصحا من جديد خوف بريزنسكي ورفاقه من اتساع رقعة الإمبراطورية الروسية. ومع عدم الاستقرار الذي كان يسود إيران، والحكم الديكتاتوري العسكري في باكستان، وغزو أفغانستان؛ لم يتبق إلا القليل بين السوفييت وبحر العرب والخليج العربي ... دون أن يكون في مقدور كارتر أن يفعل شيئًا.


الغزو السوفييتي لأفغانستان
مسار الغزو السوفييتي
المنطقة الواقعة تحت
سيطرة القوات السوفييتية
أثناء حرب أفغانستان
الاتحاد السوفييتي
إيـران
باكستان
أفغانستــــان
دوشانبي
ترمذ
قولياب
مزار شريف
قندوز
فايز أباد
طالكان
كالا
ميمنة
كوشكا
رباط
هرات
شاغشاران
بولي خمري
محمود العراقي
ساجار
بنجاب
كابول
شيندند
فرح
جلال أباد
بيشاور
خوست
غزنة
تيرين
دلارام
جيرشك
موقر
زارانج
بوست
قندهار
تاغاز

ومع أن السوفييت كانوا مستائين أشد الاستياء (وكذلك الكثير من الرياضيين الأفغان) من أن الألعاب الأوليمبية لن تكون بذات الإبهار المتوقع، فقد كانوا يرون في غزوهم لأفغانستان نجاحًا ساحقًا، أو كما قال أغلب المحللين في الغرب «أمر واقع». وفي نفس الوقت لم يكن كارتر يملك من الأموال ما يمكنه من ردع أي تهديد محدق. لقد أقدم قادة الكرملين على خطوة جريئة متصورين أن أفغانستان هي أرض تابعة لهم. وصفت مقالة في جريدة برافدا صدرت بتاريخ ٣١ ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٧٩م الدولة التي اختار السوفييت غزوها كالآتي:

«هي واحدة من بلاد آسيا الوسطى القديمة. وحتى عهد قريب كانت تعتبر واحدة من أكثر الدول تخلفًا، كانت تبدو وكأنما تجمدت الحياة بها عند زمن القرون الوسطى وأنه كتب على شعوبها أن تحيا حياة بائسة إلى الأبد. وهي بلاد يسيطر على مقدراتها حكام إقطاعيون كانوا يقمعون شعوبهم. وكي يظلوا في الحكم إلى الأبد كانوا يعملون على سيادة حكم الظلام ويوقعون الشعب في شرك العبودية، ويقمعون جميع المحاولات لإدخال بصيص من النور إلى عتمة الحكم الاستبدادي الذي لا يخضع لسيطرة القانون.»

كان هذا ما قيل في البداية، لكن ما حدث بعدها اختلف تمامًا مع تجربتي السوفييت في بودابست وبراغ. فخلال أسابيع قليلة من الغزو بدأت القوات التي كانت تستهدف القضاء على المقاومة تشاهد نفس النظرات الغاضبة التي واجهت جيش السند العظيم. وبدلًا من أن يقدموا الدعم للجيش الأفغاني بدأ السوفييت يطلبون منهم المشاركة في معارك مفتوحة، فقد كانت المناطق الريفية الواسعة تعج بالمقاومين. وبدأت القوافل تتعرض لكمائن في الطرق الضيقة، وصارت المعسكرات تتلقى النيران من مهاجمين غير مرئيين. ومع أن هدف السوفييت كان حماية الثورة، وكان قلقهم الأكبر من رد الفعل الأمريكي الذي لم يتمخض عن شيء في الواقع، فإنهم بعد ذلك وجدوا أنفسهم يواجهون عدوًّا آخر في أفغانستان، عدوًّا لم يحسبوا له حسابًا على الإطلاق.

الفصل العاشر

المجاهـــدون

حقق غزو الاتحاد السوفييتي لأفغانستان شيئًا نادرًا، فلأول مرة تجمع الأفغان حول هدف سياسي كان له أثره في الاتجاهات القبلية والعرقية والجغرافية والاقتصادية للبلاد، وتركز هذا الهدف حول قضية واحدة هي طرد السوفييت وإجلاؤهم عن البلاد. ففي صبيحة يوم رأس السنة من عام ١٩٨٠م قامت الفرقة الخامسة عشرة الأفغانية بالتمرد على القوات السوفييتية في قندهار وانفجرت أعمال العنف في شوارع هرات وكابول، وفقدت فرقة المشاة الثامنة ألفين من رجالها في معركة ضد القوات المحتلة استمرت حتى الخامس من يناير/كانون الثاني. وبعدها قامت ثلاث كتائب من الفرقة الحادية عشرة بالهروب من الجيش في حين هاجمت فرقة المشاة ٢٠١ السوفييتية المنقولة برًّا جلال أباد. وفي فبراير/شباط من نفس العام اندلعت مظاهرة ضد السوفييت في العاصمة تحولت إلى أحداث شغب قتل فيها ثلاثمائة شخص، وأغلقت متاجر كابول مدة أسبوع حتى هدأت الاضطرابات بعد أن هاجمت المدينة قوة كبيرة من طائرات السوفييت النفاثة والمروحيات المسلحة. إلا أن تلك الاضطرابات الحادثة داخل المدن والاشتباكات التقليدية مع الجيش الأفغاني لم تكن فوق قدرة الجيش الأحمر، ولكن الصعوبة الكبرى تركزت في المناطق الريفية الواسعة المكتظة بالسكان في أفغانستان والتي لم يفهم السوفييت طبيعتها جيدًا ولم يتمكنوا من السيطرة عليها.

حض هذا الغزو الأجنبي للبلاد آلاف الملالي الأفغان على إعلان الجهاد واستنهاض همم المقاتلين وإحياء ثقافة القتال المتأصلة فيهم. وحتى هؤلاء الذين لم يعارضوا حكم أمين من قبل، بدأوا ينضمون إلى المقاومة ضد الجيش السوفييتي الأربعيني. وعلى الفور نهض الأفغان من شتى بقاع البلاد مستلين

أسلحتهم التي يعود بعضها إلى القرن التاسع عشر والبعض الآخر إلى الحرب العالمية الأولى، بالإضافة إلى أسلحة حديثة أخرى استولوا عليها من القواعد العسكرية الأفغانية. وقد حاول بابراك — ذلك القائد الدمية — أن يهدئ من ثورة الشعب بتحالفه مع الملالي، وتعيين حكومة اتحادية ذات قاعدة عريضة. ولكن لم يتجاوب معه من ملالي الريف إلا القليل، وفي غضون ذلك انتهز حزب بارشام التابع لكارمال، والذي كان قد استولى على السلطة أخيرًا، الفرصة ليطهر الحكومة من منافسة جناح «خلق». وفي المناطق الريفية تحركت القبائل والعشائر تلقائيًا ونصب عينيها مقاومة الغزو السوفييتي، متخذة من تعاليم الإسلام أيديولوجية عامة. وقد أطلق الغرب على المقاومين الأفغان اسم «المقاتلين الأحرار» إلا أنهم أطلقوا على أنفسهم «المجاهدين» وهي كلمة مشتقة من كلمة جهاد «جنود الله».

وبدلًا من أن ينجح السوفييت في تهدئة الأحوال زادوا الموقف اشتعالًا، فالجيش الأفغاني الذي كانوا يعتزمون دعمه قاومهم أكثر مما رحب بهم، بل علاوة على ذلك لقد هجره أغلب أفراده، وفي منتصف عام ١٩٨٠م تقلص عدده من تسعين ألف رجل إلى حوالي ثلاثين ألفًا كان أكثرهم من الجنود البُلهاء، أو الذين يتحينون الفرصة للهروب. وفي غضون ذلك كانت المقاومة قد استولت على الأسلحة السوفييتية التي سبق للسوفييت أن دعموا بها الجيش الأفغاني على مدى عقدين من الزمان. وكان من الواضح أن القادة السوفييت صدقوا كذبتهم التي كذبوها، وهي أن أمين خان كان المسئول الأول والأخير عن تدهور حال البلاد دون أن يدركوا أن حزب الشعب الديموقراطي يفتقد الدعم الشعبي، وأن وجودهم هو الذي سوف يقضي على ما تبقى منه.

خطأ آخر ارتكبه السوفييت حين ضموا إلى قوات الغزو الأصلية قوات احتياطية تضم جنودًا من الجمهوريات الإسلامية الجنوبية، ربما ظنوا بهذا أنهم بهذا يريدون تخفيف الشكل العدائي للغزو، إلا أن ذلك جاء بعكس النتائج المرجوة لثلاثة أسباب: أولها أن البشتون وهم الطائفة العرقية الغالبة في أفغانستان كانوا على عداء قديم مع شعوب بلاد ما وراء النهر السابقة؛ فكان تدفق هؤلاء الجنود على أراضي البشتون كصب الكيروسين على النار. وثانيها أن نسبة كبيرة من عائلات الطاجيك والأوزبك والتركمان التي كانت

تقطن شمال أفغانستان كانت قد فرت أثناء حملات التطهير التي قادها لينين وستالين في العشرينيات والثلاثينيات ومن ثم كان أولادهم وأحفادهم مناوئين بعنف للحكم الشيوعي مثل البشتون.

وكان السبب الثالث أن هؤلاء الجنود المسلمين تسببوا في حدوث صدع كبير في الجيش الأحمر. وبصرف النظر عن كون هذا خطأ أو صوابًا فقد ثارت شكوك السوفييت حول تعاطف هؤلاء الجنود مع الشعب الأفغاني. فقد كان أي جندي من جنود الطاجيك يثير الشك بحديثه إلى أي أفغاني باللغة الدارية، حين يقول له مثلًا: «قميصك أنيق»، فيهز الأفغاني رأسه، مجيبًا بكلمات قليلة؛ مما قد يعرضه فيما بعد للضرب من السوفييت حتى يعترف بالمعلومات التي نقلها له. والواقع أن ولاء كثير من المجندين المسلمين في الجيش كان مشتتًا إلى حد كبير. بل إن بعضًا منهم شوهدوا وهم يشترون مصاحف من باعة أفغان. وكان هؤلاء المسلمون يلاقون معاملة سيئة من رؤسائهم الروس وكذلك كان الحال بالنسبة للجنود الروس الذين يخدمون في فرق غالبيتها من المسلمين. وفي عام ١٩٨٠م أدركت قيادة الجيش السوفييتي الأربعيني تفاقم هذه المشكلة، فسحبت جنود الاحتياط القادمين من بلاد وسط آسيا من الحرب، فيما عدا المترجمين والخبراء الموثوق في ولائهم، وعاد الجيش الأحمر إلى صورته الأولى يتركب عرقيًّا من العناصر السلافية فقط، ولقد زاد هذا من شعور الأفغان بالنفور من هذا العدو الغريب، ولكنه على الأقل جعل السوفييت لا يخشون انقلابًا عليهم من داخلهم.

لكن على الرغم من كل هذه المشاكل، تم هذا الغزو الذي أتى متخفيًا كما كان مخططًا له، فقد اجتاح الجيش المدرع الطرق الرئيسية كي يرد على رصاص أسلحة الأفغان الصغيرة بقذائف مدافع من عيار ١٠٥ ملم، وحلقت الطائرات النفاثة ميج-٢٣ (Mig-23) في السماء تبحث عن أهداف لصواريخها وقنابلها زنة الـ ٥٠٠ رطل. ولم يكن الجيش الروسي يتواجد في المدن الأفغانية، فقد درج على التمركز حول المطارات أو إقامة ثكنات عسكرية خارج المناطق السكنية. وبعد أسابيع قليلة زار الصحفي إدوارد جيراردیه Edward Girardet قندهار التي كان معروفًا عنها أنها بؤرة المقاومة الرئيسية في أفغانستان، وكتب يقول في دهشة: «كان هناك دخان قاتم كثيف ناتج عن احتراق الحطب، يملأ سماء هذه البلدة التي كانت هادئة رغم كل شيء.»

كان الجنود السوفييت الذين يصلون إلى أفغانستان لأول مرة يكونون على قدر كبير من التفاؤل والحماس لخوض هذه التجربة، فقد جاء هذا على لسان أحد الجنود في حوار جاء في أحد الكتب التي سجلت ذكريات الجنود السوفييت عن الحرب وكان عنوانه "The Soldiers Story": «ظننا أن أفغانستان ستكون نوعًا من الراحة بعد التدريبات الشاقة التي تدربناها.» وقال آخر بعد رحلته إلى كابول في فبراير/شباط ١٩٨٠م متذكرًا: «كان مرأى المدينة لأول مرة شديد الإثارة، وكانت ملابس المواطنين غريبة علينا، فقد كان الرجال يشبهون الباسماتشي وكانت النساء يسرن وعلى رءوسهن حجاب يغطي وجوههن، أما الأطفال فقد كانوا غاية في الجمال. وبدا لنا أننا سافرنا عبر الزمن إلى القرون الوسطى.» أما يوري تينكوف الذي ذهب إلى كابول في أيام الحرب الأولى فقد كان يشعر بالذهول بعد أن رأى ريف أفغانستان وقال:

> «إن الأفغان شعب نشيط يحب العمل ... فهم يحملون أجولة محملة بالتربة السوداء إلى سفوح التلال حيث توجد أراضيهم الزراعية ... وهم يعتنون كثيرًا بزراعتهم ويحرصون على جعل التربة ناعمة غنية. ولم نستطع أن نفهم من أين جاءوا بهذه التربة في حين لا يوجد حولهم سوى الطين والصخر.»

شهدت المناطق الشرقية التي تسكنها قبائل الجبال أول اشتباك عنيف بين السوفييت والمجاهدين وفي شهر مارس/آذار شنت فرقة المشاة الميكانيكية ٢٠١ هجومًا مسلحًا في وادي كونار لتحرير المجموعة الباقية من الفرقة التاسعة التي كانت محتجزة في أسد أباد. وبالرغم من الكمائن التي كانت في انتظارهم على جوانب المرتفعات فإنهم تمكنوا من اختراق المنطقة مثيرين في أعقابهم فوضى عارمة في القرى التي تقع على طول الوادي. وبعد شهرين شنت الفرقة ٢٠١ في جلال أباد هجومًا آخر. وحين توقفوا إثر إطلاق النار عليهم من الأعداء، بدأت قوات الجيش الأحمر في تسلق المرتفعات، إلا أن الكثيرين منهم لقوا مصرعهم على أيدي المقاتلين الأفغان الذين كانوا يختبئون بين الصخور. وهنا أطلق السوفييت نيران مدفعيتهم على المجاهدين الذين تسللوا بعيدا ليتخذوا مواقع جديدة لهم في الوادي أو ليتواروا انتظارًا لفرصة سانحة أخرى. يقول محمد عاصف — أحد قادة المجاهدين — في حوار له مع لستر جراو Lester

Grau وعلي أحمد جلالي: «ترك السوفييت وراءهم اثنين من قتلاهم، فأعددنا لهم وحاصرناهم من موقع مرتفع. وحالما ظهرت مجموعة منهم تبحث عن القتلى، فتحنا عليهم نيراننا، وتمكنا من قتل سبعة آخرين. إلا أنهم انتقموا بعد ذلك بذبح أهل القرى العزل بل وذبح الحيوانات أيضًا.»

ظل السوفييت في تلك المنطقة نحو اثني عشر يومًا، وقدر قادة المجاهدين بعد ذلك عدد القتلى من المواطنين العزل بحوالي ألف وثمانمائة شخص. يقول عاصف عن هذه العملية: «كانت هذه أول عملية للسوفييت في تلك المنطقة ... لقد جاءوا للبحث عن الجنود المرتزقة القادمين من الولايات المتحدة والصين، وعندما لم يجدوهم أصابهم بعض الإحباط الذي دفعهم لقتل المدنيين ونهب القرى.» وفي شهر يونيو/حزيران انتقم المجاهدون لأنفسهم بأن هاجموا كتيبة من فرقة المشاة الميكانيكية ٢٠١ حاولت الدخول إلى باكتيا عبر الطريق الممتد من جارديز إلى خوست الواقعة قرب الحدود الباكستانية. يقول المؤرخ مارك إربان Mark Urban: «ظل الجنود السوفييت في ناقلاتهم يطلقون النيران عشوائيًّا حتى نفدت ذخيرتهم وقتلوا جميعًا على يد المغاوير الأفغان.» لا شك أن قيادة الجيش الأربعيني قد اهتزت بشدة لفقدان كتيبة بأكملها، ومع ذلك فلم تنتشر أخبار هذه المعركة؛ إذ كان السوفييت يسيطرون على الصحافة للدرجة التي كانت تمكنهم من التعتيم على المذابح التي يرتكبونها والهزائم التي يلقونها على حد سواء. في الشهر الذي تلا تلك المعركة استطاعت قوة من شمال جلال أباد أن تدمر معسكرًا للمجاهدين. وكان بعض من جواسيس الجيش الأفغاني قد حذروا المقاتلين من هجوم سوفييتي وشيك، إلا أن خمسة وعشرين منهم فضلوا الشهادة رافضين أن يولوا عدوهم الأدبار.

اكتشف السوفييت كما اكتشف كل من غزوا أفغانستان من قبلهم أن الجبال الشرقية مأوى منيع لعناصر المقاومة الأفغانية، وأن هذه المنطقة — وهي معقل الجلزانيين القدامى — يسهل تهريب الأسلحة إليها بسرعة من باكستان. وفي منتصف الصيف اكتشف السوفييت أيضًا أن الطريق الاستراتيجي خلال ممر سالانج أصبح مهددًا من قبل المجاهدين الذين كانوا يشنون هجماتهم من وادي بانشير شمال كابول. وفي الخريف شنوا هجومين كبيرين على الممر، ولكنهم عجزوا عن اصطياد العدو المراوغ. أما في المناطق الأخرى فقد كانت الحرب بطيئة الإيقاع حيث اكتشف المجاهدون أن طلقات بنادقهم

الإنفيلد ترتد عن دروع السوفييت، وأن مدافعهم الرشاشة لا تستطيع أن تقتنص الطائرات السوفييتية، بالإضافة إلى أنهم تخلوا عن فكرة مجابهة السوفييت مباشرة بجيش كبير عندما رأوا قوة تسليح الجيش السوفييتي، فقد كانت مدافع الجيش الأحمر تتفوق كثيرًا في مداها وشدة تدميرها على قذائف المجاهدين، كما كان الطيران السوفييتي قادرًا على تدمير أي هدف يراه على الأرض.

يصف البروفيسور رسول بخش رئيس Rasul Bakhsh Rais بدايات المقاومة الأفغانية بأنها انتهجت نهج الثورات القبلية، التي تتركز في هجمات مباشرة غير منتظمة تسفر عن عدد كبير من القتلى وتعتمد على البطولات الفردية والأداء الاستعراضي ذي الطابع القبلي، إلا أنها مع هذا كانت شديدة الفاعلية في قتال السوفييت. لكن حين أدرك المجاهدون أنهم لن يحققوا أي نصر من خلال ضرباتهم القوية، لجئوا إلى تكوين فرق تتألف من وحدات صغيرة يتراوح عدد الواحدة منها ما بين عشرة رجال وثلاثين رجلًا. جاء في إحدى الدراسات العسكرية السوفييتية التي أجريت بعد الحرب ما يلي: «لقد واجه الجيش السوفييتي معضلة صعبة، وهي كيفية استخدام تلك القوات الغفيرة والموارد الضخمة أمام جماعات صغيرة سريعة الحركة إلى حد كبير بارعة في المناورة والمراوغة.» فلم يكن الجيش السوفييتي قد تدرب على هذا من قبل.

خلال عامي ١٩٨٠ و١٩٨١م أولى السوفييت جل اهتمامهم لتأمين شبكة الطرق الرئيسية، وإنشاء قواعد عسكرية بجوار المطارات، كما بنوا أيضًا قواعد حصينة على امتداد خطوط اتصالاتهم امتلأت بقوات من الجيش الأفغاني الموالي لهم. وكانت هذه القواعد مطوقة بحقول ألغام تتسع لمدى يفوق مرمى مدافع الهاون عيار ٨٢ ملم، وهي أقرب أسلحة المجاهدين إلى المدفعية. وقد كانت الحامية بمأمن بعيد عن مدى طلقاتها، لكن الخطر كان يحيق بالجنود السوفييت عند خروجهم منها.

اعتمد المجاهدون على اثنين من أقدم فنون الحرب، وهما الإغارة ونصب الكمائن، ولأن طبيعة الأرض في أفغانستان تعلو رأسيًّا فإن المرتفعات القائمة على الجانبين كانت تشرف على الطرق السريعة وبامتداد أميال طويلة عبر ممرات ضيقة خانقة. وفي حين كانت مركبات السوفييت يقتصر سيرها

على هذه الطرق، كان لدى المجاهدين حرية التنقل في القرى عبر مسالك ودروب جبلية لا يعرفها سواهم. وكانت هجماتهم تنحصر أساسًا في المناطق الجبلية والقرى مع أنه في السنوات الأولى من الحرب كانت عمليات المقاومة تمتد إلى المدن أيضًا لتمارس صورًا مختلفة من التخريب. وقد حاولت المقاومة إثارة المظاهرات والاضطرابات، وحاولت أيضًا اغتيال مسئولين في الحكومة، إلا أنه حين أحكم السوفييت قبضتهم على المدن الرئيسية، هدأت هذه القلاقل.

لم يكن الأفغان ميالين لهذه العمليات التخريبية فقد كانوا يفضلون المواجهات المفتوحة، ومع ذلك فقد اتجهوا إلى محاولات تخريب المباني الحكومية والمنشآت العامة وخطوط إمدادات الوقود، وكان أكثر ما كانوا يخربون هو الجسور إذ كان تدميرها يعطيهم فرصة ذهبية لنصب الكمائن للسوفييت حين يعبرون عليها، ولذلك كان تأمين الطرق هو أكثر ما يقلق المخططين العسكريين السوفييت، فلم تكن الكمائن تزيد فقط من تكلفة ومخاطر أي عملية عسكرية بل كانت تسمح للأعداء بالاستيلاء على الأسلحة أيضًا، بالإضافة إلى إضعاف الروح المعنوية لدى الجنود السوفييت وجعل الرعب يدب في قلوبهم.

ولأنه دائما ما تعقد مقارنة بين حرب السوفييت في أفغانستان وحرب الأمريكيين في فيتنام فلا بد من التفريق بين المهمة التي ألقيت على عاتق كل من هاتين القوتين العظميين. ففي فيتنام واجه الجيش الأمريكي عدوًّا منظمًا كبير العدد جيد التسليح خبيرًا بفنون الحرب لأنه يحارب منذ عقود طويلة. في حين كان جيش فيتنام الشمالي ينتهج أسلوب حرب العصابات إلا أنه كان قادرًا على أن يدخل في مواجهة نظامية مباشرة وقتما أراد هذا. وأهم من هذا وذاك أن الفيتناميين الشيوعيين كانوا متحدين تحت راية قيادة مركزية تضم مجموعة من أشهر جنرالات الحرب، مثل: نجوين جياب Nguyen Giap، وفان تيين دونج Van Tien Dung.

وعلى النقيض من ذلك فإن المقاومة الأفغانية قامت قبل أن يظهر لها قائد أو يكون لها هيكل قيادي منظم، بل إنها لم تخضع أبدًا لأي قيادة موحدة. كانت المعارضة الشعبية الأفغانية للغزو السوفييتي شعورًا غريزيًّا داخل سكان القرى يتفق مع ثقافة العنف المتأصلة في فكرهم السياسي، وبذلك

ظلت المقاومة الارتجالية هي السائدة أثناء الحرب. وكان العاملان اللذان وحدا المقاومة الأفغانية هما الشعور الوطني بضرورة الدفاع عن النفس والولاء للإسلام، وكلاهما لا يحتاج إلى جنرالات أو سياسيين. إلا أن الرغبة في القتال لا يمكن أن تترجم إلى انتصار في حرب ضد جيش حديث قوي. وقد حدد «رئيس» أهداف المجاهدين الثلاثة من المقاومة:

(١) إسقاط الشرعية عن الحكومة الموجودة في كابول وحض الشعب على مقاومتها.
(٢) إقامة قاعدة للقتال بأسلوب حرب العصابات وإقامة حكم إداري مواز في المناطق المحررة من البلاد.
(٣) وقف التقدم العسكري للسوفييت من خلال الاشتباك معهم في معارك تكبدهم خسائر شديدة مما يجعلهم عاجزين عن الاستمرار.

غير أن السوفييت — الذين كانوا على دراية كبيرة بحرب العصابات — قاموا بتعديلات جوهرية في جيشهم بعد انقضاء سنة على غزوهم لأفغانستان، ففي حين ظلت قواتهم البرية بنفس عددها دون أن يتغير — إذ لم يزد العدد عن خمسة وثمانين ألف جندي — فإنهم زادوا من أعداد طائرات الهليوكوبتر والمقاتلات النفاثة، فارتفع عدد طائرات الهليوكوبتر من ستين طائرة في منتصف عام ١٩٨٠م إلى أكثر من ثلاثمائة في السنة التالية، وزاد عدد المقاتلات ليصل إلى مائة وثلاثين مقاتلة، بالإضافة إلى أن قاذفات القنابل نقلت إلى قواعد في تركمانستان كي يسهل عليها ضرب أفغانستان. ونتيجة لهذا فقد الأفغان نقطة تفوقهم، إذ أصبحت جبالهم التي كانوا يعتصمون بها هدفًا سهلًا للطائرات السوفييتية. وفي غضون ذلك أخذ السوفييت يهاجمون القرى الأفغانية[1] دون أن يحاولوا الاحتفاظ بها، مع اكتفائهم بالإبقاء على جيشهم البري متمركزًا في شبكة من القواعد العسكرية.

في عام ١٩٨١م شن السوفييت هجمتين على وادي بانجشير حيث كان أحمد شاه مسعود قائد المجاهدين يواصل هجماته على باجرام وشاريكار وطريق سالانج السريع، وانتهت المعركتان بانسحاب المهاجمين السوفييت بعد أسبوعين مخلفين وراءهم حطام عشرات المركبات المدرعة والقرى المنهوبة على امتداد الوادي. وحول بلدة فرح كانت الكتيبة السوفييتية الخامسة المنقولة برًّا

قد اتجهت إلى المناطق الريفية لمطاردة مجموعة من المجاهدين بقيادة محمد شاه، وبعد قتال عنيف تحركت القوة شمالًا لتجتاح منطقة هرات. وما بين كابول وجلال أباد تمكنت الفرقة ١٠٦ المنقولة برًا من تدمير قواعد للمجاهدين بمساعدة فرق من المشاة محمولة جوًا وسلاح الطيران.

ومع ذلك كان الجنود من الجانبين يتحسسون طريقهم أثناء التقدم إلى الأمام. أجرى علي أحمد جلالي ولستر جراو حوارًا مع قائد من قادة المقاومة وصف فيه عدة عمليات قام بها المجاهدون في ذلك الصيف بالقرب من طريق جلال أباد. قرر المجاهدون أن يلجأوا إلى استخدام الكمائن والألغام في مواجهة إحدى الفرق السوفييتية، يقول القائد الأفغاني: «كنا نفضل استخدام الألغام ذات القوة التدميرية العالية، وكنا نحصل على المتفجرات من الألغام البلاستيكية المصرية ونضعها في صهريج كبير. كما كنا نستخرج المتفجرات من مدفعية السوفييت التي لم تنفجر لنصنع منها قنابلنا الخاصة.» كان لدى المجاهدين جهاز تفجير عن بعد، لذلك فبعدما وضعوا القنبلة أسفل الجسر قاموا بمد سلك تفجير القنبلة إلى حيث موقع الكمين، وعندما اقترب السوفييت في حذر من الجسر اكتشفوا القنبلة، لكنهم بدلًا من قطع الأسلاك التفوا حول القنبلة وشرعوا في تفحصها، وحين رأى المجاهدون أن الكمين فشل ما كان منهم إلا أن ضغطوا على جهاز التحكم عن بعد فانفجرت القنبلة ومعها السوفييت.

وبعد أيام قليلة لجأت نفس الفرقة إلى إعداد كمين مشابه، ولكن لنقص أجهزة التحكم عن بعد قامت بدفن الألغام في الطريق وتغطيتها بروث البقر، وحين جاء السوفييت كانت تتقدمهم الكلاب التي اكتشفت واحدًا من تلك الألغام، ومرة ثانية تجمع عدد من الجنود لمشاهدة الجهاز فهاجمهم المجاهدون بمدافعهم الرشاشة وقتلوهم جميعًا.

في عام ١٩٨٢م كان المجاهدون يتلقون شحنات منتظمة من الأسلحة، وكان أكثر الأسلحة أهمية بالنسبة لهم هو قاذف القنابل آر بي جي-٧ (RPG-7) الذي كان قادرًا على تعطيل المدرعات السوفييتية. كما كانت المدافع الرشاشة التشيكية الصنع عيار ١٢,٧ مم (التي أطلق عليها المجاهدون البندقية ٢٠) متوافرة بكثرة، واستطاع أغلب المقاتلين استبدال بنادقهم القديمة ببنادق كلاشينكوف إيه كيه-٤٧ (AK-47)، وابتداء من تلك السنة تلقت بعض

الجماعات مدافع رشاشة صينية الصنع مضادة للطائرات من طراز ٥٧ ذات عيار ١٤,٥ ملم. والفضل في تدفق هذه الأسلحة وأسلحة أخرى أكثر فاعلية جاءت بعد ذلك يعود إلى العدو القديم: باكستان.

ومع أن المعونة الأمريكية للمقاومة الأفغانية لم تتعد ثلاثين مليون دولار في عام ١٩٨٠م — وهو مستوى لم يزد خلال فترة حكم رونالد ريجان الأولى — فإن الرئيس ضياء الحق في باكستان اتخذ موقفًا عدائيًّا من الغزو السوفييتي منذ البداية. وكانت باكستان بين عدوتها الهند من جانب والاحتلال السوفييتي لأفغانستان من جانب آخر في خطر الوقوع في عزلة طبيعية، بالإضافة إلى أنه بعد أفغانستان كانت مقاطعة بلوخستان الجدباء في باكستان هي الفاصل الوحيد الباقي بين السوفييت وبحر العرب، ومن ثم فإذا ما نجحت أفغانستان في مقاومة السوفييت حتى ولو كانت مقاومة ضعيفة فقد يكون الهدف التالي لهم هو باكستان.

كان ضياء نفسه قد أصبح من المنبوذين عالميًّا بعد أن اغتصب الحكم في انقلاب عسكري وشنق الزعيم السابق علي بوتو، وكان محتقرًا من الولايات المتحدة التي كانت على علم بالبرنامج السري النووي لباكستان، كما كانت البلاد نفسها يعضها الفقر وتموج بها الاضطرابات السياسية، ولذلك أعطى غزو السوفييت لأفغانستان فرصة لضياء الحق ليصبح بطلًا في نظر المسلمين والغربيين على السواء، فهو يقود المجاهدين ضد الكفرة، ويقود الصليبيين ضد الشيوعيين.

كانت المخاطرة كبيرة، ولا يمكن خوض هذا الأمر إلا إذا كان النجاح العسكري مضمونًا، وقد أقنع الجنرال أخطر عبد الرحمن خان مدير المخابرات الباكستانية الداخلية ضياء الحق بأنه يمكن تعطيل السوفييت في أفغانستان بأن تقوم باكستان بدعم المجاهدين سرًّا من خلال المخابرات الداخلية بالأسلحة والخبراء، بحيث تظل رسميًّا بعيدة عن أية مشاركة معهم. وبذلك يظل الأفغان يقاتلون بينما تقف باكستان هادئة وراءهم تمدهم فقط بالسلاح والذخيرة. وطبقًا لما قاله الجنرال محمد يوسف فقد كان من الأهمية بمكان «ألا يصل السوفييت إلى مرحلة المواجهة المباشرة مع الباكستانيين، بمعنى ألا يصل الموقف إلى حد الغليان.» وكانت ثمة مخاطرة أخرى أمام ضياء الحق أنه يجب على باكستان في هذه الحالة التخلي عن سلطتها على المقاطعة الشمالية الغربية

الواقعة على الحدود وعلى قواعدها للمجاهدين، وكان هذا يعني أن يتدفق الملايين من اللاجئين إلى تلك المناطق.

كان الحليف الأول الذي ساند جهود باكستان هو الصين، وهي دولة أخرى كانت تناصب كلًّا من الهند والاتحاد السوفييتي العداء. فبدأت بدورها في إمداد المقاومة الأفغانية فورًا بنفس نوعية الأسلحة التي سبق أن أغرقت بها فيتنام. وتلتهما مصر التي أمدت الأفغان بأسلحة سوفييتية الصنع، هذا بخلاف المساعدات المالية التي أتت من المملكة العربية السعودية. وفي عام ١٩٨٠م رفض ضياء الحق معونة قيمتها أربعمائة مليون دولار من الرئيس كارتر بعد أن وصفها بأنها «مبلغ زهيد» لا يفي باحتياجات باكستان في مواجهتها مع الاتحاد السوفييتي. وفي العام التالي حصل ضياء الحق من الرئيس ريجان على ٣,٢ بليون دولار بالإضافة إلى التمويل المخصص من وكالة المخابرات المركزية لتسليح المجاهدين.

كان من الطبيعي أن تنافس إيران باكستان في معاونتها للمجاهدين لولا أنها بعد أن أبعدت عنها الغرب في عام ١٩٧٩م تعرضت لهجوم القوات العراقية بمساعدة السوفييت في عام ١٩٨٠م، لتبدأ حرب طويلة مكلفة بين الاثنين. ومع ذلك، وفرت إيران المساعدات للهازارا الشيعة الذين قاوموا السوفييت في سهل الجوريد الذي يقع في وسط الهندوكوش، وهي منطقة كان السوفييت يرفضون القتال فيها إلا باستخدام قواتهم الجوية.

بدأ عام ١٩٨٢م وقد أحكم السوفييت سيطرتهم الكاملة على مدينتي هرات وقندهار حيث كانت عناصر المقاومة قد استجمعت قوتها. وفي يناير/كانون الثاني فقط اغتِيل ستون مسئولًا حكوميًّا في هرات. واجتاحت قوات من كتيبة المشاة الخامسة المنقولة برًّا والفرقة الأفغانية السابعة عشرة المدينة ليلقى الآلاف مصرعهم. وفي غضون ذلك كان السوفييت قد انتهوا من وضع لمساتهم الأخيرة على «جسر الصداقة» وهو شريط قطار يمر عبر آمودريا (جيحون) من ترمذ في أوزباكستان يسمح بإرسال تعزيزات برية سريعة. وفي مايو/أيار شن السوفييت أكبر معركة ضارية لهم في وادي بانجشير ردًّا على الغارة التي شنها رجال مسعود على قاعدة طيران باجرام وكان هذا أول هجوم متعدد الفرق بالنسبة لهم يتشكل من خمسة عشر ألف رجل، في حين كان رجال مسعود حوالي ثلاثة آلاف فقط. إلا أن كثيرًا من

المجاهدين المتمركزين في الوديان القريبة سارعوا بعد ذلك إلى الاشتراك في القتال.

بدأ السوفييت بإلقاء القنابل لمدة أسبوع على وادي بانجشير والجبال المحيطة به، ثم جاءت طائرات الهليوكوبتر لإنزال القوات الخاصة في مناطق مختارة، وحينما كانت طائرات مي-٦ (Mi-6) تُنزل فرق الكوماندوز كانت طائرات الهيند العسكرية المسلحة مي-٢٤ (Mi-24) تحلق فوق رءوسهم في سرب من ست طائرات يسمى «دائرة الموت»، وهي طائرات مدرعة جيدة التسليح تحمل مدافع رشاشة سريعة الطلقات وأربعة وستين صاروخًا من عيار ٧٥ ملم، تبرز من الجانبين. كانت هذه الطائرات أكثر سلاح مخيف في الحرب، وقد حاول المجاهدون أن يصدوا هجوم فرق الكوماندوز والهجوم الجوي عندما بدأ الهجوم الفعلي على الوادي من الجنوب. كان الجيش الحكومي الأفغاني في المقدمة إلا أن مسعودًا سمح له بالمرور، ولكن حين وصلت قوات السوفييت إلى المدخل الضيق للوادي فجر المجاهدون جانبي الممر الضيق ليسدوا الطريق. وقد استسلمت فرق كثيرة، في حين انتقلت فرق أخرى إلى صفوف المجاهدين. وقد استولت المقاومة على تسع دبابات هاجمت بها القوات السوفييتية التي تبعتها.

بعد أسبوعين من المعارك اضطرت القوات المنقولة جوًّا إلى مغادرة الجبال. كتب إدوارد جيرارديه الذي كان يسجل معارك المجاهدين ما يلي:

> «من خلال مواقع المراقبة التي يحتلها المجاهدون والتي كانت تمتد بمحاذاة سلسلة الجبال الوعرة وكان بعض منها لا يزال يعج بمخلفات السوفييت من السجائر وعلب الحبوب الفارغة كانت لديَّ الفرصة لرؤية ساحة المعركة بشكل جيد. كانت أصوات طلقات الرصاص الصادرة من المروحيات حاملة المدافع الرشاشة تدوي وهي تصوب نيرانها إلى أعلى وادي البانجشير في حين كانت صفوف المركبات والشاحنات المدرعة التي تتقدمها دبابات ذات أسطوانات ضخمة تمكنها من اكتشاف الألغام تسير في الطريق الوحيد القذر الذي يمتد بمحاذاة الوادي. وعلى جانب الجبل المقابل كانت أصوات النيران الكثيفة تتصاعد على فترات متقطعة حين تدور المدافع في هجماتها على المواقع المختفية لرجال حرب العصابات.»

وفي هذه المعركة استخدم السوفييت لأول مرة طائرات إس يو-٢٥ فروجفوت (SU-25 Frogfoot) في هجومهم الأرضي، وتمامًا كما فعلت الطائرات الأمريكية وورثوج إيه-١٠ (A-10) أذهلت هذه الطائرات الجديدة المجاهدين بقدرتها على الهبوط بعمق في شقوق الوادي والخروج منها. وقد وضع السوفييت نهاية للمعركة من خلال هجمة مفاجئة من فصيلة أخرى من الجيش قادمة من الشمال مخترقة رأس الوادي، والتحمت هذه الفصيلة مع الجيش الرئيسي لتمنح السوفييت الفرصة للسيطرة على سفح الوادي للمرة الأولى. إلا أنه بعد بضعة أسابيع انسحبت جميع القوات السوفييتية بعد أن تكبدت عددًا من الخسائر يتراوح ما بين ثلاثمائة وأربعمائة قتيل. وفي نهاية أغسطس/آب من عام ١٩٨٢م اشتعلت المعركة من جديد ليحتل السوفييت مرة ثانية أرض الوادي في حين كانت فرق الكوماندوز المنقولة جوًّا مشتبكة في قتال عنيف مع المجاهدين في المرتفعات. وصمد مسعود ورجاله إلا أن السوفييت تمادوا بتدمير القرى والحقول ونظم الري الموجودة في الوادي عن عمد قبل أن يرحلوا مرة أخرى في العاشر من سبتمبر/أيلول.

توفي ليونيد بريجينيف بعد ذلك بشهرين، وخلفه يوري أندروبوف في رئاسة الاتحاد السوفييتي، وكان أندروبوف الذي شغل سابقًا منصب رئيس المخابرات السوفييتية في نظر العالم الغربي شخصًا ذا نوايا شريرة، مع أنه كان في واقع الأمر يتطلع إلى القيام باصلاحات في بلاده، كما كان معارضًا لغزو أفغانستان منذ البداية. وفي عام ١٩٨٣م دخلت الحرب مرحلة جديدة هادئة بعض الشيء. ففي يناير/كانون الثاني وافق مسعود على وقف إطلاق النار في وادي بانجشير ولم يشن السوفييت أي معارك رئيسية في تلك الفترة. أما في الولايات المتحدة فبالرغم من أن الأمم المتحدة كانت تدين هذه الحرب بين فترة وأخرى، فإن هذه الإدانة كانت هامشية ولم تثر الكثير من الاهتمام، فلم يكن الشعب الأمريكي على استعداد لأن يستثمر عواطفه وأمواله في معركة خاسرة. وفي عام ١٩٨٣م رفع انتصار الجيش الأمريكي في جزيرة جرانادا الكاريبية من معنويات الشعب الأمريكي بعض الشيء. ومع ذلك فقد كان شبح الفشل في تخليص الرهائن في إيران عام ١٩٨٠م وشبح كارثة حرب فيتنام ما زالا يطاردان الأمريكيين. ومع أن إدارة ريجان كانت أكثر عداء للشيوعية من إدارة كارتر فإنها لم تكن مقتنعة تمامًا بأن المجاهدين هم خير من يعينهم على الشيوعيين.

وفي الحقيقة كانت المخابرات الداخلية الباكستانية يطاردها نفس الشعور. فبعد أربع سنوات من الحرب بدأت الأسلحة التي كانت تعطى للمقاومة الأفغانية تظهر في الأسواق لإعادة بيعها. وكانت فرق المجاهدين التي تحمل فيما بينها عداوات قديمة قد بدأت يحارب بعضها بعضًا بأسلحتها المتطورة، وأخذ الصراع يشتد بين قيادات الأفغان حول الأراضي وحول المنتجات الزراعية. وعاد الأفغان يفرضون رسومًا على عبور الوديان المحلية، واستخدموا العنف في تحصيل هذه الرسوم، بالإضافة إلى أن قوافل المجاهدين العائدين من باكستان محملة بالأسلحة كانت تتعرض لكمائن وضعتها قوات مقاومة أخرى لأنها شعرت بأنها لا تحظى باهتمام كافٍ أو لمجرد رغبتها في القيام بأعمال سلب ونهب. وفي منتصف عام ١٩٨٣م اكتشفت المخابرات الباكستانية أن مجموعة من ضباطها يقومون ببيع الأسلحة للمجاهدين في كويتا مقابل أموال أو مخدرات، وكان هذا تماديًا في الفساد الذي كان منتشرًا على مرأى ومسمع من الجميع في ميناء كاراتشي.

وفي أوائل عام ١٩٨٤م جلس ضياء الحق مع زعماء المقاومة الأفغان السبعة في بيشاور وأصر على عقد تحالف بين الجميع. وكان أربعة منهم من الأصوليين الإسلاميين، وشكل حزب قلب الدين حكمتيار الإسلامي أكبر أحزاب المجموعة. يقول الجنرال الباكستاني يوسف عن حكمتيار: «اكتشفت أنه لم يكن فقط أصغر قادة التحالف بل كذلك أقواهم وأكثرهم نشاطًا، وهو قائد قوي ممتلئ بالحيوية ومؤمن بضرورة وجود حكومة إسلامية في أفغانستان، كما اكتشفت أيضًا أنه مخلص وأمين إلى حد كبير.» وكان ثاني هذه الأحزاب من حيث الأهمية هو حزب برهان الدين رباني الإسلامي الذي كان يضم مسعود خان وإسماعيل خان اللذين كانا يقودان المقاومة في المناطق الواقعة حول هرات. وكان رباني — وهو من الطاجيك — شخصية مثقفة إلى حد كبير ويجيد العديد من اللغات الأجنبية. أما عن بقية الأحزاب الإسلامية الأصولية فقد كان يرأسها عبد رب الرسول سياف والذي كانت تربطه علاقات قوية بالمملكة العربية السعودية، وأيضًا يونس خاليس الذي انفصل عن حكمتيار، وهو رجل مسن من البشتون يتمتع باحترام الجميع، كما كان من ضمن قادة خاليس عبد الحق الذي كان يقود عمليات جريئة وشجاعة بالقرب من كابول، أي تحت أنوف السوفييت.

أما الأحزاب ذات الاتجاهات المعتدلة فكان قادتها مولاي نبي محمدي، وبير سيد أحمد جيلاني وحظرت مجددي، وكانوا جميعًا راغبين في إقامة حكومة دستورية فيما عدا جيلاني الذي كان يميل إلى إعادة الملكية، وكان الجدل الدائم بين المخابرات الباكستانية ووكالة الاستخبارات الأمريكية سببه أن الأمريكيين كانوا يفضلون إمداد قادة المعارك الفعليين بالأسلحة في حين أن الباكستانيين أصروا على أن يتم ذلك من خلال الأحزاب التي أقام كل منها مخزنًا له بالقرب من بيشاور، فقد كان نظام المخابرات الداخلية بخلاف أنه أكثر واقعية في التعامل مع جميع الجماعات المختلفة أو المتنافسة يعطيهم أيضًا الحرية في تفضيل رئيس حزب على آخر أو ترجيح فكر سياسي عن آخر.

أما عن خطوط الإمدادات الحربية فقد كانت محاطة بمشاكل عدة، فحين عين الجنرال يوسف في المخابرات الداخلية في أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٨٣م اكتشف أن الدول كانت تأخذ أموال المعونة وتلقي بالفائض عنها إلى المجاهدين. فقد قام الأمريكيون — الذين حاولوا إخفاء دورهم — بشراء كمية هائلة من الأسلحة السوفييتية التي غنمتها إسرائيل في الحرب (بعد إخفاء العلامات الدالة على مصدرها الإسرائيلي)، ووفرت مصر التي كانت تطور من جيشها بمساعدة أمريكية عددًا كبيرًا من مدافع إيه كيه-٤٧ (AK-47) القديمة وإن كان أغلبها هالكًا أو مكسورًا. وحاولت تركيا من جانبها أن تعقد صفقة رابحة من خلال بيع كميات من مخزونها الضخم الذي يعود إلى فترة الحرب العالمية الثانية والذي لا يساوي شَرْوَى نقير. أما بريطانيا فبعدما اخترعت صواريخ متطورة مضادة للطائرات يمكن إمساكها باليد قدمت للأفغان كميات ضخمة من أنابيب فاسدة لا تصلح لشيء على الإطلاق. كذلك قدمت سويسرا مدافع أورليكون المضادة للطائرات التي كانت من الثقل بحيث لا تسمح بتحريكها على أرض المعركة، وإن كانت تصلح كنوع من التحف التي تصلح للعرض في القواعد العسكرية. وفيما يخص عملية نقل الأسلحة، كان الصينيون أكثر الناس دقة في هذا الأمر، وكانوا كذلك أكثر دراية بمتطلبات جيش يحارب حرب العصابات.

وفي كابول، كان حكم كارمال يتجه بصعوبة — ولكن بخطوات واثقة — نحو سيطرته على البلاد، وكان جيش جمهورية أفغانستان الديمقراطية يتسع ليصل عدد أفراده إلى أربعين ألفًا في عام ١٩٨٤م، ولم يكن ذلك راجعًا فقط إلى

فرض التجنيد الإجباري وإنما لظهور اتجاهات معارضة للمجاهدين الذين لم يكونوا يعبأون كثيرًا بأخذ أي أسرى بقدر اهتمامهم بارتكاب جرائم إرهابية في المدن. وقد فقد كثير من الناس بعضًا من ذويهم لا بسبب عدوان السوفييت، بل نتيجة أعمال المقاومة التي أحيت مرة ثانية العداوات القديمة بين القبائل. هذا بالإضافة إلى التطور السريع الذي أحرزته الشرطة السرية الأفغانية التي كانت تسمى «خاد» KhAD وكان يرأسها رجل ضخم الجثة شديد النشاط يدعى محمد نجيب الله. وقد بلغ عدد أفراد قوة الشرطة السرية في عهده حوالي اثني عشر ألفًا، وكان مسئولًا عن أمن الدولة بالإضافة إلى إدارة الاستخبارات في المناطق الريفية.

إلا أن ذاك الحكم المدعم من السوفييت كان له بعض الميزات التي كان أهمها تحرير المرأة وتشجيعها على التعلم والعمل داخل المؤسسات الحكومية. وتظهر بعض الصور التي تعود لتلك الفترة فتيات يرتدين زي الشرطة السرية «خاد» الأنيق، ويضطلعن بأعمال هامة في العاصمة الأفغانية، وهذه المرحلة الهامة من تاريخ أفغانستان الحضاري كانت غير مسبوقة ولم تتكرر بعد ذلك. وقد حاول السوفييت أيضًا إنشاء المدارس والمراكز الصحية، وفي الأراضي القليلة التي كانت تحت سيطرتهم كانوا يقدمون المساعدة للفلاحين ويستميلون الكثيرين منهم عن طريق شراء محاصيلهم بأسعار مرتفعة، أما تعاملهم مع الإسلام من خلال كارمال فقد كان يتميز بالليونة في نفس الوقت الذي حاولوا فيه تحقيق أكبر قدر ممكن من الاستقرار والرخاء في البلاد.

كان الجانب المظلم من هذا الاحتلال أن السوفييت بالرغم من الإبقاء على عدد قواتهم دون زيادة، وامتناعهم عن أي عمليات عسكرية كبيرة في عام ١٩٨٣م، فإنهم كانوا مصرين فيما يبدو على إخلاء القرى من سكانها مستخدمين قوة الطيران. وكانت هذه المهمة التي اندرجت تحت مبدأ «دمر ثم ابحث» تتضمن استخدام طائرات «هيند» في اكتساح وتدمير القرى التي غالبًا ما كان يعقبها قيام القوات السوفييتية بالبحث في الحطام عن أسلحة أو أي أشياء ذات قيمة، وكانت الطائرات ذات الأجنحة الثابتة تترك شريطًا من المتفجرات في وديان القرى في حين كان يتم إغراق المحاصيل وبساتين الفاكهة بالنابالم. كما قُضي على قطعان الأغنام والماعز بإطلاق رشاشات الهيند التي تطلق ٣٩٠٠ طلقة في الدقيقة، وحتى يتأكدوا من عدم معاودة

زراعة الأرض ثانية كانوا يزرعونها بالألغام. وفي منتصف عام ١٩٨٤م كان نحو ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف أفغاني قد فروا إلى باكستان، وأكثر من مليون إلى إيران، بالإضافة إلى مئات الآلاف الذين تحولوا إلى لاجئين داخليين في كابول ليصبح تعدادها بعد أن كان يقدر بسبعمائة وخمسين ألف نسمة قبل الحرب إلى مليوني نسمة، واستطاع السوفييت أن يهجروا قسرًا أكثر من ثلث سكان أفغانستان. ذكر الأطباء الفرنسيون الذين كانوا يعملون في الأراضي التي احتلتها المقاومة ضمن هيئة «أطباء بلا حدود» أن ٨٠٪ من الجرحى الذين كانوا يعالجونهم كانوا من المدنيين.

الجدير بالذكر أن الولايات المتحدة استهلكت أطنانًا من القنابل في الهند الصينية أكثر مما فعل السوفييت في أفغانستان، لكن البيئة المستهدفة في أفغانستان وهي القرى والمناطق الخضراء في مقابل غابات جنوب شرق آسيا الكثيفة لا تترك مجالًا للشك في نوايا السوفييت، وقد أطلق دوبريه على هذه الاستراتيجية: «الإبادة الجماعية الهادفة للتهجير» migratory genocide. فقد دُمرت البنية الأساسية في الريف تدميرًا تامًّا، وتحول بقية السكان إلى الزراعة كمورد رزق يقيهم فقط من الموت جوعًا. ولأن هذه الحرب لم تلق أي اهتمام إعلامي — أو اهتمام من العالم الغربي — فقد استطاع السوفييت أن يكرروا الوسائل التي سبق استخدامها في أوكرانيا والتي تتمثل في اجتثاث قرى بأكملها من جذورها. ومن الناحية الأيديولوجية فقد كان السوفييت يفضلون خلق مجتمع جديد بدلًا من التعامل مع الأفغان الرجعيين الذين كانت العادات القبلية القديمة لا تزال تحكمهم.

كانت المفارقة الشديدة تكمن في أن السوفييت الذين طالما رعوا ميليشيات تقاتل حروب عصابات أصبحوا الآن يواجهون واحدة من تلك الميليشيات بأنفسهم. وقد علق مارك إربان بأن السوفييت كانوا على علم بمقولة ماو تسي تونج Mao Tse Tung الشهيرة بأن مقاتلي العصابات ما هم إلا «أسماك تسبح في ماء الناس» ولذلك فقد قرروا ببساطة أن يخلوا البركة من المياه حيث إن المجاهدين في هذه الحالة لن يجدوا سكان الريف كي يدعموهم ويأمنوا لهم احتياجاتهم. وكان هناك عنصر آخر في استراتيجية السوفييت يتمثل فيما يمكن أن يطلق عليه العدوان السلبي ضد باكستان. ففي فيتنام — حين جاء نيكسون إلى الحكم — أمطرت أمريكا كمبوديا ولاوس بالقنابل وشنت هجومًا

أرضيًّا على البلدين لتقتلع معاقل الأعداء من جذورها، وكان الإسرائيليون لا ينفكون يهاجمون معسكرات اللاجئين خارج حدودهم منذ عام ١٩٦٧م، ولكن السوفييت امتنعوا عن مهاجمة قواعد المجاهدين ومعسكراتهم في باكستان رغم أنه كان من الواضح أن باكستان قد صارت وكرًا للمقاومة الأفغانية (قد يعكس هذا الإحجام إهمال الأمريكيين مساعدة المجاهدين اكتفاء بتواجدهم). وفي هذا الصدد يمكن أن ينظر إلى برنامج السوفييت في الضغط على الأفغان المدنيين للفرار إلى باكستان على أنه نوع من الانتقام. فلم يكن هناك أي معنى لقصف معسكرات المهاجرين حتى لو كانت مأوى للمجاهدين، لأنه كان من صالح السوفييت بقاء المهاجرين في أمان في مواقعهم ومن ثم تقوم المشكلة في باكستان لا في كابول.

أما التقارير العديدة التي كانت تشير إلى الفظائع التي يرتكبها الجنود السوفييت في أفغانستان، فلا علاقة لها بالاستراتيجية القاسية التي وضعتها الحكومة لتكون أساس تعاملها مع سكان القرى من خلال قوتها الجوية. بل إن ما نشر عن هذه الوقائع وما حوته من فظائع لم تكن تهدف إلا لإضعاف الروح المعنوية للجنود السوفييت الذين كانوا يسمون المجاهدين «الدوخي» (الأشباح) أو «الدوشمان» (رجال العصابات) ولا تعني إشارة إلى سياسة الحكومة. وإذا كانت القوات الأمريكية في فيتنام، والفرنسية في الجزائر قد ارتكبت الكثير من المذابح الوحشية في تلك البلاد، فإن ما حدث في أفغانستان كان أكثر بكثير مما أشارت إليه هذه التقارير ولكنه لم يذع بسبب التعتيم الإعلامي. لكن كبرى المآسي تتمثل في أن المدنيين هم الذين تحملوا وطأة انتقام الجيش الأربعيني حيث كان قادرًا على الوصول إليهم بسهولة. أما المجاهدون فقد كان من الصعب التمكن منهم، لأنهم كانوا يقاتلون بشراسة ويؤمنون بثقافة تضع الانتقام في أولى أولوياتها.

بعد أقل من عام ونصف من حكم يوري أندروبوف توفي إثر إصابته بفشل كلوي ليتولى الحكم بعده واحد من أقرب المقربين إلى برجنيف وهو قنسطنطين تشيرنينكو Constantine Chernenko. بدا هذا القائد الجديد أمام الغرب مختلفًا حيث كان يبدو كجد طيب على النقيض تمامًا من مظهر أندروبوف القاسي، إلا أن صحته أيضًا كانت ضعيفة ولم يكن يشارك سلفه في اتجاهاته

الإصلاحية. ومن وجوه عدة كان حكم تشيرنينكو القصير عودة إلى سياسات بريجينيف الجامدة حيث حاول أكثر من أي خلف آخر لبريجينيف أن يحقق للاتحاد السوفييتي نصرًا عسكريًا في أفغانستان.

في عام ١٩٨٤م قام تشيرنينكو بتصعيد الحرب من خلال مضاعفة قصف المناطق الريفية التي تقع خارج نفوذ السوفييت لإخلائها من السكان. وأصبح استخدام الألغام أكثر شيطانية حيث كان السوفييت يقومون بإسقاط مئات الآلاف من «ألغام الفراشات» التي تُثَبَّت إلى ما يشبه الزعانف كي تهبط برفق من الطائرات، ولم يكن الهدف من هذه الألغام إزهاق الأرواح بمجرد أن تصل إلى الأرض، وإنما بتر الأرجل أو الأقدام — وهو الأسوأ للجنود — أو أية أعضاء سفلية أخرى في أجسادهم، وكانت وجهة نظر السوفييت في هذا أن الرجل الذي يفقد أجزاء من جسده سوف يعيق المقاومة أكثر مما إذا كان ميتًا. إلا أن أكثر أعمالهم فظاعة هو أنهم كانوا يلقون بألغام على أشكال دمى وألعاب قاصدين أن يلتقطها الأطفال الصغار.

وفي ظل حكم تشيرنينكو أيضًا زاد عدد المعارك البرية مع أن عدد أفراد ما كان يسمى بالقوات السوفييتية المشتركة المحدودة في أفغانستان ظل كما هو تقريبًا — وكانت أشهر معركة جرت في ظل حكم تشيرنينكو هي «بانجشير ٧» التي حاول فيها السوفييت للمرة السابعة طرد أحمد مسعود وقواته من وادي بانجشير. وكانت تلك المعركة التي بدأت في أبريل/نيسان من عام ١٩٨٤م أكبر معارك هذه الحرب حتى وقتها فقد حشد السوفييت خمسة عشر ألفًا من جنود جيشهم وخمسة آلاف من الجيش الأفغاني الموالي لهم وكلهم تحت قيادة فرقة المشاة الـ ١٠٨ المنقولة برًّا والمتمركزة في كابول.

صار وادي بانجشير بالنسبة للسوفييت في أفغانستان كما كانت دلتا الميكونج بالنسبة للأمريكيين في حرب فيتنام، حيث أضفت عليه هذه الحرب بعدًا سيكولوجيًا علاوة على أهميته الجغرافية الكبيرة. فمدخل البانجشير يطل على طريق يمكن السير فيه مسيرة يوم كامل فوق قاعدة باجرام الجوية ويبعد حوالي خمسة وأربعين ميلًا عن كابول. يمتد هذا الوادي كذلك لمسافة تسعين ميلًا ثم يخترق جبال الهندوكوش من الشمال الشرقي ثم يضيق كلما امتد طولًا وهو الأمر الذي يجعل الهجوم عليه مستحيلًا إلا من الجنوب وبقوة كبيرة. ولقرون عدة كان هذا الطريق شريانًا رئيسيًا يربط بين شطري أفغانستان

الشمالي والجنوبي إلى أن حل محله بعد ذلك طريق سالانج السريع. ولقرب الوادي من الطريق السريع فقد أصبح موقعًا ممتازًا يمكن الهجوم منه على طريق الإمدادات السوفييتي الرئيسي، وكذلك على قاعدة باجرام والعاصمة، كما أن الوديان الجانبية وفرت أيضًا طرقًا بديلة للمجاهدين الأفغان سواء لصد الهجوم أو للهروب أو لتأمين الإمدادات.

كان من سوء طالع السوفييت أن أحمد شاه مسعود هو من كان يقود المقاومة في وادي بانجشير، فقد كان أكثر قادة المجاهدين مهارة وذكاء، حتى إنه لقب خلال الحرب بـ«أسد بانجشير» ومسعود — الذي كان في السابعة والعشرين من عمره وقت الغزو السوفييتي — كان مقاتلًا من الطاجيك وتلقى تعليمه في مدرسة الاستقلال العليا، ثم الأكاديمية الحربية التي تخرج منها عام ١٩٧٣م، كما درس أيضًا الهندسة في جامعة كابول، ولكنه ترك الدراسة من أجل إيمانه بالثورة، وانضم إلى جماعة رباني الإسلامية خلال فترة الاضطرابات التي حدثت في سبعينيات القرن العشرين. في عام ١٩٧٥م قاد مسعود هجومًا في البانجشير ضد قوات داوود الحكومية. وخلال الحرب السوفييتية اشتهر باستخدام فنون الحرب الحديثة، فقد قسم رجاله إلى قوات ضاربة، وكتائب، وقوات احتياطية متحركة. وكان أحد القلائل من قادة المجاهدين الذين أكدوا ضرورة توحيد جهود المقاومة، ودرب رجاله على استخدام مختلف أنواع الأسلحة الدقيقة، بل وحاول أن يقيم نوعًا من الإدارة المدنية في المناطق التي تقع تحت نفوذه.

تمتع مسعود — الذي كان يتحدث الفرنسية بطلاقة — بجاذبية إعلامية خاصة شدت انتباه العالم إلى قضية المجاهدين. ومع أن أغلب قواته من الطاجيك لم تكن تلقى قبولًا لدى باكستان أو لدى المملكة العربية السعودية التي كانت أكثر ميلًا للأصوليين التابعين لأحزاب البشتون (وبالأخص جماعة حكمتيار) فإن مسعودًا استطاع أن يضمن وصول السلاح إليه بشكل مضطرد بسبب أهمية البانجشير الاستراتيجية. فوادي البانجشير ينتأ في الشمال إلى قلب الأراضي التي تقع تحت سيطرة السوفييت مثل الخنجر، ثم يمشي بالقرب من طريقهم إلى ممر سالانج. كان من سوء حظ مسعود أن موطنه كان يشمل المنطقة النائية الوحيدة التي كان السوفييت يشعرون بأنه يتحتم عليهم السيطرة عليها. ومع انتصار مسعود في معركة تلو الأخرى، ومع التغطية

الإعلامية التي صاحبت مغامراته أحس السوفييت بأهمية القضاء على هذا الخصم العنيد ومن ثم إثبات سيادتهم على أفغانستان أمام العالم أجمع.

خلال السنوات الثلاث الأولى من الحرب اندلعت ست معارك رئيسية في البانجشير جرح مسعود خلالها، ولكنه لم يستسلم، بل كان يواصل في القتال كلما سنحت له الفرصة. إلا أنه في يناير/كانون الثاني من عام ١٩٨٣م قامت مفاوضات بين السوفييت ومسعود حول وقف إطلاق النار وهو الأمر الذي أثار جدلًا كبيرًا. كان السوفييت في حاجة ماسة إلى طريق آمن إلى كابول لا يقطعه مسعود عليهم، وكان أندروبوف أيضًا عازقًا بالمرة عن خوض أي قتال في أفغانستان، نصت الصفقة على أن يمتنع مسعود عن شن أي هجمات في طريق سالانج السريع وفي المقابل، سيلتزم السوفييت بهدنة كان مسعود في أمس الحاجة إليها. فقد تحمل وطأة جميع هجمات السوفييت ورغم أنه لم يهزم، إلا أن السكان المدنيين الذين يقطنون الوادي والذين كانوا يعتمدون على مسعود ويعتمد هو عليهم عانوا بشدة من جراء هذا القتال، فقد دمرت قراهم وخربت محاصيلهم وهرب الكثيرون من سكان الوادي؛ لذلك كانت حاجته ماسة إلى إعادة تنظيم قواته، والتزود بالمؤن من جديد وإعادة بناء الوادي.

أثارت اتفاقية وقف إطلاق النار القلق بين المجاهدين، وأطلق البعض على مسعود في سخرية «ملك البانجشير» ظنًا منهم أنه باع القضية للسوفييت حرصًا على إقطاعيته في الطاجيك، وانتقدوا هذه الاتفاقية التي تسببت في اتجاه السوفييت إلى الهجوم على مناطق أخرى، حيث اشتركت الفرقة ١٠٨ مشاة المنقولة برًا في عام ١٩٨٣م مع الجيش الأفغاني الحكومي في معركة ضد الشوماليين وقواعد المقاومة الأخرى التي تقع بالقرب من كابول. إلا أن مسعود لم يكن ينوى ترك القتال، فأمضى عام الهدنة في تدريب رجاله، والتزود بالمؤن وإعادة تنظيم الوادي. وفي مارس/آذار من عام ١٩٨٤م رفض عرضًا بمد الهدنة، وفي أبريل/نيسان عاود هجومه على طريق سالانج السريع.

كان ذلك وقت تولي تشيرنينكو سدة الحكم في موسكو، الذي كان ذا استراتيجية مغايرة تمامًا لاستراتيجية سلفه؛ فبعد فترة قصيرة من رفض مسعود مد الهدنة بدأ السوفييت في الاستعداد لمعركة كبرى في البانجشير.

كانت فترة الهدنة قد هيأت لمسعود حشد مزيد من الجنود بلغوا نحو خمسة آلاف مقاتل مسلحين بحوالي مائتين من المدافع الثقيلة المضادة للطائرات،

ومجموعة من الدبابات التي استولوا عليها، ومدافع قاذفة من عيار ١٢٢ ملم، وكميات كبيرة من الأسلحة الصغيرة والألغام. وقد توقع مسعود هجومًا سريعًا عقب رفضه لمد الهدنة، وهي حقيقة أكدتها استخباراته، هذا بالإضافة إلى محاولتين لاغتياله وقعتا في شهر مارس/آذار. وفي إحدى هاتين المحاولتين كان القاتل الذي اختاره السوفييت عميلًا مزدوجًا سلم للمقاومة أكثر من ثلاثة وعشرين عميلًا سوفييتيًّا شاركوا في المؤامرة.

استعد السوفييت بوضع ثلاث أسراب من قاذفات بادجر تي يو-١٦ (Tu-16) على طول حدود الأراضي التي يسيطرعليها السوفييت. وكانت هذه الطائرات أكبر من طائرات بي-١٧ (B-17) الأمريكية وكانت ذات محركين نفاثين وتستطيع أن تحمل حوالي عشرة أطنان من المعدات الحربية. ثم قاموا بتجميع فرقة المشاة ١٠٨ بقيادة الجنرال سارادوف Saradov عند مدخل الوادي، وأحضروا من جلال أباد وغزنة كتائب من فرق المشاة السادسة والستين، والفرقة ١٩١ والكتيبة ١٨٠ التي أتوا بها من بلدة خيرخانا، واستُدعي خمسة آلاف من القوات الأفغانية الحكومية للمشاركة في المعركة في نفس الوقت الذي كانت القوات المنقولة جوًّا والطائرات الهليوكوبتر تتحرك فيه إلى قاعدة باجرام.

تحرك مسعود أولًا ووجه ضربة استباقية كان الهدف منها دفع السوفييت إلى القتال دون سابق استعداد. ففي السادس عشر من أبريل/نيسان دمر المجاهدون ثلاثة جسور على طريق سالانج السريع وهو الأمر الذي استغرق من السوفييت ثلاثة أيام لإصلاحه مما أعاق تقدمهم. وفي اليوم التالي نصبوا كمينًا لقافلة كانت تحمل وقودًا ودمروها مما تسبب في نقص الوقود في كابول. وفي اليوم الثالث هاجم مسعود حامية سوفييتية-أفغانية بالقرب من مدخل الوادي في بلدة أناوا. وفي الحادى والعشرين من أبريل/نيسان شن المجاهدون غارة فاشلة على قاعدة باجرام الجوية والتي كانت في حماية جيش غفير، وفي نفس هذا اليوم بدأ الهجوم السوفييتي.

بدأت المعركة بقصف كاسح لسفح الوادي بالقنابل من طائرات تي يو-١٦ (Tu-16) وجاءت هذه الهجمات بدون سابق إنذار اللهم إلا من أزيز القنابل في اللحظات الأخيرة وهي تنهمر على الأهالي، فأمر مسعود بإجلائهم عن الوادي فورًا، وبدأ في زرع الألغام في طريق القوات السوفييتية البرية مما تسبب في إبطاء حركة تقدم العدو بعض الشيء، إلا أن السوفييت كانوا قد

وضعوا كاسحات ألغام مدرعة في مقدمة الجيش. وفي الرابع والعشرين من أبريل/نيسان وصلوا إلى روكا بعد أن قطعوا ثلث الطريق في الوادي، وفي نهاية الأسبوع كان السد الناري المدفعي قد أوصلهم إلى خنجي التي تقع في منتصف الطريق نحو هدفهم.

خلال هذه المرحلة الأولية من المعركة، لم تلاحق القوات السوفييتية المجاهدين خلال الوديان المتفرعة من البانجشير وكان واضحًا أن السوفييت يكررون نفس نمط المعارك السابقة من خلال قصف عنيف لسفح الوادي في نفس الوقت الذي تقوم فيه قوات الكوماندوز والقوات المحمولة جوًّا بالهجوم على المرتفعات. وفي حين كان مسعود يقاتل ضد صفوف الجيش المسلح على قدر إمكانياته، حاولت قواته الضاربة المتحركة مراوغة الهجمة الرئيسية بالاتجاه إلى الوديان الجانبية والاختفاء داخل الجبال في انتظار فرص تسنح للهجوم أو لإعداد كمائن، إلا أن السوفييت كانوا قد وعوا أخطاءهم السابقة وفاجئوا مسعودًا بتكتيكات جديدة.

ففي الأسبوع الأول من شهر مايو/أيار انبعث صوت أزيز عدد ضخم من طائرات الهليوكوبتر فوق قاعدة باجرام الجوية حيث حمل الآلاف من الجنود السوفييت إلى مواقع مختارة من سلسلة جبال البانجشير، كما هبطت كتائب كاملة من القوات المنقولة جوًّا في أعماق الوديان الفرعية، في حين تركزت قوة كبيرة بعد خنجي بالقرب من مدخل البانجشير، كذلك انطلقت قوة إضافية من جلال أباد لتسد وادي أليشانج الذي يمتد من البانجشير نحو الجنوب الشرقي. وفي وقت كانت كتائب السوفييت تسد منافذ الهروب على المجاهدين بدأت وحدات الجيش الرئيسية تنسحب من وادي بانجشير لتهاجم العدو في ضربات متتالية، وخلف القوات الجوية المهاجمة كانت مدافع الهيند تحوم حول ميدان القتال لتنقض على مقاتلي المقاومة الذين اضطروا إلى مغادرة مخابئهم.

أُخذ المجاهدون على غرة، واضطروا إلى اللجوء إلى أعالي الجبال للفرار من هجوم الأسلحة المشتركة للجيش، وتقلصت أعدادهم نتيجة مصرع الكثيرين، وتشتت الجنود في مواقع لا يمكن أن يصل إليها الكوماندوز السوفييت أو القوات المحمولة جوًّا. وفي ذلك الوقت كان السوفييت قد أغرقوا سفح وادي بانجشير بالقنابل وقذائف المدفعية بعد أن أجلوا المجاهدين عنه تمامًا. وبدا

أنهم تمكنوا أخيرًا من مسعود، فقد بثت إذاعة كابول البيان التالي: «نحمل إليكم أنباء طيبة، فقد انتهت عصابة أحمد شاه الإجرامية إلى الأبد.» حتى إن بابراك كارمال زار الوادي ليؤكد سيطرة الشيوعيين عليه. وتم أسر الكثيرين من قادة المقاومة ومنهم عبد الواحد المتحدث الرسمي باسم المجاهدين أمام العالم. وكان السوفييت واثقين تمام الثقة من نجاح عملية البانجشير ٧ حتى إنهم لأول مرة تركوا حاميات في الوادي لحراسة الأرض التي غنموها. لكن مع ذلك كانت مشكلتهم الوحيدة هي أن المقاومة على الرغم من كل هذا لم تتوقف.

في أواخر صيف ذات العام أجرى جيراردييه حوارًا مع مسعود وقال عنه: «بينما كنا نرشف الشاي في معقله الحصين في الجبل، لم يكن يلقي بالًا لزئير المدفعية أو طلقات مدافع الهاون وهي تنفجر على صخور الجروف الصخرية ... ولم ينجذب انتباهه إلا حين ظهرت طائرة ميج-٢٧ (Mig-27) تحلق على ارتفاع منخفض لتقصف موقعًا للمقاومة. وذكر مسعود أن السوفييت فشلوا في تحقيق أهدافهم، فبالرغم من أن الكوماندوز المنقولين جوًّا ازدادوا براعة فإن رجال المقاومة أصبحوا قادرين على التعامل معهم وسط جبال الهندوكوش شاهقة الارتفاع. وأضاف مسعود قائلًا: «إننا للأسف الشديد نخاطر بفقدان أهلينا، فهذا هو الأمر الوحيد الذي نجح فيه السوفييت، فحين يعجزون عن قهرنا بالقوة — كما كانوا يعلنون أنهم سيفعلون قبل بدء أي معركة — كانوا يصبون جام غضبهم على الأهالي العزل فيقتلون كبار السن والنساء والأطفال، ويدمرون المنازل ويحرقون المحاصيل ... إنهم يفعلون أي شيء ليطردوا الأهالي من ديارهم.»

في سبتمبر/أيلول تعرضت الحاميات السوفييتية في البانجشير لهجوم من المقاومة؛ فعاود السوفييت القتال من جديد في الوادي، كما قاموا بشن هجمات جوية في مقاطعة باكيتا، وهجومًا آخر عنيفًا على وادي كونار بالقرب من الحدود الباكستانية — وكان من الصعب على المقاومة الصمود أمام هذا السيل من الهجمات. وفي الغرب كانت قوات إسماعيل خان الموجودة بالقرب من هرات في مأزق كبير، وقد فر الكثير من الأهالي إلى إيران — أما من بقي من المجاهدين فقد ظلوا قابعين في أماكنهم يواجهون الضربات الجوية والهجوم المفاجئ من تشكيلات الجيش المختلفة وهم يعانون نقصًا في الطعام. وفيما عدا المعارك الكبيرة الرئيسية كان السوفييت قد تركوا فرق القوات المسلحة

الثقيلة التي بدأوا الحرب بها واستعاضوا عنها بقوات سريعة متحركة. فقد تطور تكتيك هجومهم المضاد وتعلموا استخدام القصف بالقنابل الذي يتزامن مع الهجوم البري، بالإضافة إلى قوات الكوماندوز التي تهبط من الطائرات على الجبهة الخلفية للأعداء لسد منافذ الهروب أمام المجاهدين.

طور السوفييت كذلك من أسلحتهم فقد حلت مدرعات المشاة المقاتلة بي إم بِي-٢ (BMP-2) بدلًا من بي إم بِي-١ (BMP-1)، وكانت تحمل مدافع من عيار ٣٠ ملم ذات طلقات أسرع من سابقتها ذات عيار ٧٣ ملم، كما طُوّرت الدبابات بحيث تتمكن من إصابة المرتفعات المجاورة. أما حاملة الجنود المدرعة بي تي آر-٦٠ (BTR-60) فقد استحدثت منها نماذج جديدة عولجت فيها عيوبها السابقة التي كان المجاهدون على علم بها. واستخدمت فرق المشاة السوفييتية بنادق إيه كيه-٧٤ (AK-74) التي كانت تطلق طلقات من عيار ٥,٤٥ ملم بثبات وقوة قتل تفوق سابقتها إيه كيه-٤٧ (AK-47) (وكان استخدام هذه البنادق مقصورًا على الجيش السوفييتي ولم تمنح للجيش الأفغاني الحكومي ولهذا كان المجاهدون يحرصون على اغتنامها.)

في نهاية عام ١٩٨٤م قتل ظبي الله، وهو أحد قادة «المجاهدين» في الشمال، حين مرت سيارته الجيب على لغم أرضي. وحامت شكوك أعضاء حزب رباني — وهو الحزب الذي ينتمي إليه — حول رجال حزب حكمتيار. وكان الأصوليون في حزب حكمتيار السني أكثر الفرق في بيشاور عداءً وكرها للأجانب بالمقارنة بباقي مواطنيهم الأفغان. وفي غضون ذلك كانت الجماعات الشيعية في هازاراجات المدعمة من إيران تتصارع علنًا فيما بينها بدلًا من القتال ضد السوفييت. يقول آلكس آلكسييف Alex Alexiev في دراسة له، أوكل إليه إعدادها من قبل مؤسسة راند بغرض تقديمها إلى مجلس الشيوخ: «كان من الواضح أن معظم الأحزاب السياسية تضيع وقتها وطاقتها في صراعاتها بعضها مع البعض ... وهي أحزاب يتغلغل فيها الفساد ومحاباة الأقارب، وكانت هذه الجماعات السياسية في رأي الكثير من قادة المقاومة الميدانيين تعيق المقاومة أكثر من كونها دعمًا لها.»

بعد خمس سنوات كاملة من الحرب، لم يكن السوفييت يخشون معركة تماثل معركة تيت التي شن فيها ألفيت كونج ضربات حاسمة متزامنة على ستة وثلاثين من عواصم المقاطعات، أو معركة شبيهة بالمعركة التي حدثت في

عيد الفصح حين قاتلت قوات فيتنام الشمالية مستخدمة أحدث الأسلحة، بل كان العكس هو الصحيح فقد أثبتت المقاومة الأفغانية أنها مفككة في مخابئها المختلفة وأنها ليست ندًّا حقيقيًّا للترسانة السوفييتية، فتحول هجومها إلى عمليات دفاعية. أما السوفييت فقد كانت مشكلتهم الأساسية الباقية هي انخفاض واضح في الروح المعنوية للجيش، تمثل في تزايد معدلات تعاطي المخدرات وطول أمد الصراع الذي أنفد صبر الجيش والشعب على السواء، إلا أنه من المؤكد أن المقاومة الأفغانية كانت تعاني من نفس المشكلة. يحلل آلكسييف الموقف في نهاية عام ١٩٨٤م بقوله: «كان المجاهدون في بداية المراحل الأولى من الحرب — وهم مسلحون بشجاعتهم لا غير — أكثر قابلية للهزيمة مثلهم مثل الكثيرين قبلهم الذين تجرأوا وحاربوا السوفييت، إلا أن الشجاعة والتصميم أثبتا أنهما سلاحان قويان في هذا الصراع، فقد استمرت المقاومة بل ونمت أيضًا.»

كان العام التالي نقطة حاسمة في تاريخ الصراع من خلال حدثين هامين وقعا خارج أفغانستان وكان لهما تأثير كبير عليها: ففي مارس/آذار من عام ١٩٨٥م تولى ميخائيل جورباتشوف Mikhail Gorbachev الحكم في الاتحاد السوفييتي، وكان من شباب لجنة إقرار السياسات في الحزب الشيوعي، وكان رابع رئيس سوفييتي في أقل من أربع سنوات، وكان يمتلئ رغبة في بدء برنامج إصلاحي اجتماعي، إلا أنه في الوقت نفسه كان يتجنب خلق أي عداوة بينه وبين الجيش السوفييتي الذي كان يعتمد على تأييده له. ولذلك ترك العنان له لعام كامل ليحارب كيفما يشاء.

في الشهر التالي صدق رونالد ريجان بعد نجاحه باكتساح في الانتخابات الأمريكية للمرة الثانية على وثيقة أمن قومي أعلنت دعم أمريكا للمقاومة الأفغانية «بكل السبل الممكنة». وكان الكونجرس الأمريكي هو الذي فرض هذه الوثيقة لأن جل اهتمام إدارة ريجان كان يتوجه نحو نيكاراجوا والسلفادور. أما السبب الأساسي في هذا التحول فهو أن الشعب الأمريكي — الذي كان قد زهد في خوض أية حروب دفاعية ضد البلاد التي تدعمها الشيوعية — قد أدرك أن السوفييت أنفسهم قد أصبحوا محاصرين في أفغانستان من مقاتلين يناهضون الحكم الشيوعي. وكان ذاك الموقف الأفغاني يثير العجب، فخلال الحروب العربية — الإسرائيلية كانت الدول الإسلامية تلقى دعمًا من السوفييت.

لكن عندما بدأت الأخبار تتواتر من أفغانستان تدريجيًا لتضعها الصحافة الأمريكية في دائرة الضوء، بدأ الغربيون يتعاطفون مع أولئك المقاتلين الذين كانوا يعرفون بـ«جند الله» والذين يقفون ضد الاتحاد السوفييتي دفاعًا عن عقيدتهم ووطنهم. وكأنما اكتشف الغرب حليفه الحقيقي في الحرب الباردة. وقد وصلت مساعدة الولايات المتحدة للمجاهدين إلى نصف بليون دولار في عام ١٩٨٥م وهي أكثر مما دفع لهم في جميع السنوات السابقة.

في بداية يناير/كانون الثاني من عام ١٩٨٥م بدأ السوفييت في شن سلسلة من الهجمات الهادفة لاجتثاث المجاهدين من معاقلهم الآمنة. وفي ذلك الوقت كان الجيش الأفغاني قادرًا على التصدى لهذه الهجمات أو المبادرة بها. وحين حل الربيع وخلت الممرات هاجم السوفييت وادي مايدان الذي يقع جنوب كابول مستخدمين سلاحًا جديدًا وهو صاروخ فروج-٧ (Frog-7)، الذي كان يحمل في رأسه قنابل عنقودية. وفي مايو/أيار هاجمت قواة مشتركة من السوفييت والجيش الحكومي الأفغاني وادي كونار شمال جلال أباد لتصل إلى باريكوت حيث كانت هناك حامية أفغانية معزولة وضعها المجاهدون فقامت القوة بتقديم إمدادات إلى المدينة ثم قفلت راجعة إلى الوادي.

في البانجشير كان السوفييت قد تركوا قلعة في بيشجور في السنة السابقة في حماية كتيبة كاملة من الجيش الأفغاني الموالي لهم، وفي منتصف يونيو/حزيران هاجمت قوات مسعود القلعة واستولت عليها. فبعد أن قامت قواته بتطهير طريق لها من الألغام وبعد حلول الظلام هاجم المجاهدون الأسوار واقتحموا القلعة. وفي ذلك الوقت كان هناك وفد من كبار المسئولين في زيارة لبشجور، وقتل جنرال أفغاني وأحد القادة خلال المعركة، كما أسر خمسة قادة آخرين. ثم سار مسعود بمائة وثلاثين من الأسرى الخمسمائة الذين أسرهم وأغلبهم من الضباط عبر الوادي. وكانت هذه المعركة حافزًا على قيام معركة أخرى تالية هي بانجشير ٩ التي قام بها السوفييت ليس فقط للقبض على مسعود بل لإطلاق سراح الأسرى كذلك. وهبطت قوة منقولة جوًا خلف المجاهدين لتجد الأسرى كلهم قتلى. وأعلن المجاهدون أنهم قتلوا بقنابل السوفييت وإن كان هناك شك في ذلك.

في أواخر صيف ١٩٨٥م شن السوفييت أعنف هجوم لهم خلال عام على خوست جنوب شرق كابول. واشتعلت الحرب في نفس الجبال التي سوف

تتعرض بعد ذلك بسنين لضربات جوية عنيفة من الأمريكيين. وقد حدث هنا نوع من التعاون النادر بين فصائل المقاومة المختلفة حين قام أربعمائة من رجال حكمتيار بتحرير قوة من مقاتلي سياف كانت محاصرة من قبل القوات الحكومية. ووصل السوفييت إلى خوست ومنها جنوبًا إلى زاوار التي كان معروفًا أنها تؤوى مجموعة ضخمة من المجاهدين في أنفاقها، إلا أن المقاومة صمدت وحين حل منتصف سبتمبر/أيلول كانت المعركة قد هدأت تمامًا.

استمر المجاهدون في المناطق الريفية في مداهمة المواقع الحكومية بمجموعات صغيرة من المقاتلين، ونصب الكمائن لقوات الجيش السوفييتي في المناطق المنعزلة. وكان هذا هو نمط الحرب عند الأفغان منذ آلاف السنين والذي صار بالنسبة لهم جزءًا من روتين الحياة اليومية. تقول جان جودوين Jan Goodwin التي قامت برحلتين إلى منطقة القتال والتي أذهلتها شجاعة المقاتلين الأفغان: «كان هؤلاء المقاتلون الأحرار غريبي الأطوار بعض الشيء، فقد كانوا يرفعون عقيرتهم بالغناء أو يضحكون بصوت عالٍ في الطرق الخطرة، وكانت أصواتهم تزداد علوًّا كلما اقتربوا من مواقع الأعداء. وحين سافرت لأول مرة مع المجاهدين ظننت أنهم لا يعون خطورة ما يفعلون، إلا أنني تأكدت بعدها أن هذا ما هو إلا محض تظاهر.»

في الشتاء تلقت وحدات المجاهدين أسلحة ومعدات جديدة تشمل قاذفات صواريخ تحمل على الكتف من طراز إس إيه-٧ (SA-7) وصواريخ صينية من عيار ١٠٧ ملم، و١٢٢ ملم. واستخدمت هذه الأخيرة في كابول لقصف المواقع الحكومية حيث كان مداها أكبر من مدافع الهاون. كما تسلموا أيضًا إمدادات كبيرة من الطعام والأحذية والبطاطين ومناظير وخرائط وأجهزة راديو. ولأنهم لم يكونوا قادرين على أن يقتاتوا على ما تغله المناطق الريفية فقط، فقد وجد المجاهدون البديل في شبكة الإمدادات التي تدفقت عليهم. والأمر الذي لا يقل أهمية على الإطلاق عن هذه المعونات هو العدد الكبير من الشباب الذين تدفقوا من شتى بقاع العالم الإسلامي للانخراط في صفوف المجاهدين، فكانت الدعوة إلى الجهاد قد انطلقت في أرجاء العالم الإسلامي، وتدفقت أعداد كبيرة من شباب الدول الإسلامية، من تونس وحتى إندونيسيا، للالتحاق بالمجاهدين.

في ربيع عام ١٩٨٦م اجتاح السوفييت جيش أفغانستان في زاوار التي كانت قاعدة للمجاهدين ومكانهم المفضل لاستضافة الصحفيين وكبار المسئولين الأجانب ومنهم أعضاء من الكونجرس الأمريكي. وقد هبط أكثر من أربعة آلاف من جنود القوات السوفييتية المنقولة جوًّا في خوست لبدء الهجوم، في حين سارت قوات متحركة من الجيش قوامها ثمانية آلاف جندي من جارديز عبر الوديان. وتقع زاوار على بعد يقل عن الميلين من الحدود ولذلك كانت طائرات السوفييت النفاثة تكرر اختراقها للمجال الجوي الباكستاني في هجومها المتكرر لقصف المدينة. ومن سلسلة الكهوف الواسعة استولى السوفييت على أطنان من الذخائر منها ثمانية عشر ألف لغم، كما دمرت واستولت على أربع دبابات تخص المجاهدين. وبينما حاول المجاهدون صد هذا الهجوم عن قواعدهم قتل منهم ما يقرب من ألف مقاتل وهم يتنقلون من تل إلى تل ومن نفق إلى نفق. أثناء الصيف أخذ مسعود مجموعة من قواته الهجومية من وادي بانجشير ليعسكروا في الشمال، وطاردهم السوفييت إلى باداكشان بقواتهم المحمولة جوًّا، إلا أنهم عند نقطة معينة استداروا ليواجهوا مهاجميهم ليبيدوا قوة من الكوماندوز كانت قد هبطت لتوها من طائرتين هليوكوبتر طراز مي-١٧ (Mi-17). واتجه مسعود بعدها جنوبًا ليدمر موقعًا تابعًا لجيش الحكومة الأفغانية في فرخار ويوقع بثلاثمائة مقاتل ما بين قتيل وأسير.

منح جورباتشوف لجنرالاته فرصة عام واحد لإنهاء هذه الحرب، غير أن الأوضاع الراهنة لم تكن تبشر بأي نهاية قريبة. وفي اجتماع الحزب الشيوعي الذي انعقد في عام ١٩٨٦م قال جورباتشوف: «إن مناهضي الثورة من الإمبرياليين قد أحالوا أفغانستان إلى جرح في خاصرتنا لا يتوقف عن النزيف.» وفي مايو/أيار اضطر بابراك إلى التخلي عن السلطة ليحل محله محمد نجيب الله رئيس هيئة الأمن «خاد» التي أقيمت على غرار جهاز المخابرات السوفييتي. وقد بذل نجيب الله نشاطًا كبيرًا لكي يحصل على دعم الشعب للحكومة، إلا أنه بعد هذه الحرب الطويلة المريرة اكتشف أن مطلبه هذا عسير للغاية.

في ذلك الشهر تولت الأمم المتحدة رعاية مباحثات سلام في جنيف، عرض السوفييت خلالها جدولًا زمنيًّا للانسحاب خلال أربع سنوات. في البداية لم تؤد المحادثات إلى نتيجة، ولكن في أواخر العام فاجأ جورباتشوف العالم باستعداده

لانسحاب جزئي بسحب ستة آلاف جندي من قواته التي كانت قد بلغت مائة وخمسة عشر ألف جندي. وكانت هذه الخطوة من جانبه تستهدف تحسين علاقاته بالصين، إلا أن المخابرات الأمريكية أشارت في تقرير لها بأنه بالرغم من انسحاب وحدات ثقيلة تشمل ثلاث فرق مضادة للطائرات لم تكن ذات نفع حقيقي في تلك الحرب؛ فإن قوات سوفييتية إضافية قوامها تسعة آلاف جندي دخلت أفغانستان بهدوء بعد ذلك لتلحق بالجيش السوفييتي هناك.

حدثت نقطة التحول الرئيسية في هذه الحرب في الخامس والعشرين من سبتمبر/أيلول من عام ١٩٨٦م حين حلق تشكيل من مروحيات الهيند السوفييتية فوق جلال أباد في مهمة روتينية. وبينما كانت الطائرات في طريقها إلى الهبوط انفجرت فجأة الطائرة التي تقود السرب في الجو. واشتعلت النيران أيضًا في الطائرة التي تلتها وتلاحقت الصواريخ على الطائرات دون أن تحيد عن الهدف إلا قليلًا، في حين كانت طائرات الهليوكوبتر تسقط مثل الحجارة متسببة في الكثير من الأضرار. وانفجرت طائرة أخرى وهي في طريقها إلى الهبوط ليتناثر حطامها على الأرض.

وفي الأسفل كانت صرخات المجاهدين «الله أكبر» تدوي بقوة، فقد نجحوا أخيرًا في قهر تفوق السوفييت الجوي، وبدأ المقاتلون في جمع فوارغ صواريخهم بسرعة تاركين الموقع قبل أن تبدأ دبابات السوفييت في مطاردتهم من جلال أباد، وكانت هذه أول وحدات فرق المقاومة التي تدربت على هذا السلاح الجديد. وكان هذا السلاح هو مدفع ستينجر الأمريكي المحمول على الأكتاف الذي يطلق صواريخ تنجذب نحو الحرارة. وكانت الولايات المتحدة بهذا تلقي بالقفاز في وجه السوفييت.

فكرة تزويد المقاومة الأفغانية بمدافع ستينجر كانت تثير جدلًا كبيرًا منذ زمن طويل، ففي سنوات الحرب الأولى اقتصرت الولايات المتحدة على تزويدهم بأسلحة مصنعة في دول الكتلة السوفييتية التي كان يمكن الحصول عليها من خلال قنوات مختلفة عبر حلفائهم، وكان الكرملين يعلن منذ البداية أن الجيش السوفييتي في أفغانستان يحارب الإمبريالية الأمريكية ولذلك كان إمداد المجاهدين بأسلحة أمريكية وقتها عملًا غير حكيم بالمرة، ومع استمرار الحرب بدأت تلك الدعاية السوفييتية تتغير للتركيز على أهمية كسب الحرب نفسها،

وهنا برز السؤال أمام الأمريكيين هل من الحكمة تسليح المجاهدين بأحدث تكنولوجيا الأسلحة اليدوية المضادة للطائرات؟ كانت فترة الثمانينيات قد شهدت سلسلة من تفجيرات الطائرات المدنية وتعرضها للقصف أو لاحتجازها من قبل إرهابيين، إلا أن الولايات المتحدة ومعها باكستان كانتا تخشيان من عواقب وضع مثل هذه الأسلحة في أيدي الأصوليين الإسلاميين في أفغانستان، وكانتا تخشيان أكثر وقوعها في أيدي السوفييت أو «الخاد».

حسمت المعارك الضارية خلال السنتين الماضيتين هذا الجدل، فقد كان واضحًا أن المجاهدين مهما بلغت شجاعتهم عاجزين عن التصدي لقوة السوفييت الجوية. وكان من رأي الجنرال يوسف — رئيس جهاز المخابرات الباكستانية الذي كان مؤيدًا لمنحهم مدافع ستينجر — أن سقوط زاوار أرجح كفة السوفييت، حيث يقول: «كان القتال العنيف الذي جرى على الحدود مع باكستان في أبريل/نيسان من عام ١٩٨٦م هو الذي أرهب الجميع بحيث تناسوا أية مخاطر أخرى وأعطونا ما نريد.» وقد قام جهاز المخابرات بتدريب المجاهدين جيدًا على استخدامها بعد أن وضعوا ضوابط أمان قاسية، فقد كانوا يرفضون إعادة إمدادهم بالسلاح إلا إذا أتوا بدليل قاطع يثبت أنهم استخدموه بالفعل، هذا بخلاف أنهم لم يكونوا يمنحونه إلا للقادة المهرة من أهل الثقة. لكن مع هذا وقعت بعض هذه الأسلحة في أيدي الأعداء، فقد نصب بعض الكوماندوز السوفييت كمينًا للمجاهدين بالقرب من قندهار واستطاعوا الاستيلاء على ثلاثة منها، كما انتزع الإيرانيون أربعة منها، بالإضافة إلى ستين صاروخًا من إحدى وحدات المجاهدين حين عبروا الحدود عن غير قصد.

وبالرغم من ذلك حققت مدافع ستينجر نجاحًا هائلًا كان له أثره في الحرب، ففي السنة التالية تمكنوا من إسقاط مائتين وسبعين طائرة، وأعلن المجاهدون أنهم أسقطوا ٧٥٪ من طائرات السوفييت (لكن الأمريكيين قدروا النسبة بـ ٣٠٪ أو ٤٠٪ وهي نسبة جيدة أيضًا). واضطرت الطائرات السوفييتية وخاصة طائرات الهيند المخيفة إلى التراجع كلية عن نقاط هجومها القريبة من الأهداف، إلا أن ذلك أدى إلى عدم استطاعتها التصويب بدقة لارتفاعها العالي مما اضطر السوفييت إلى تغيير أسلوب هبوطها، فلجأت إلى خط متعرج مع إعطائها أضواء كاذبة. أما طائرات البضائع فاقتصرت على الهبوط ليلًا، كما تعلم الطيارون أيضًا الهبوط دون إضاءة أي أنوار.

في ذلك الوقت كانت الروح المعنوية لدى السوفييت في أدنى مستوياتها بعد أن فقدوا تفوقهم الجوي، في حين كان المجاهدون في قمة حماسهم ونشوتهم، ولم يعد هدفهم الصمود أمام الغزاة وإنما وثقوا من قدرتهم على الانتصار في الحرب. يذكر جودسون أنه قبل عام ١٩٨٥م كانت المعارك بين المجاهدين والسوفييت لا تزيد عن مائتي معركة شهريًا، أما في عام ١٩٨٥م فقد وصلت إلى أربعمائة. فقد تعرض الجيشان السوفييتي والأفغاني الحكومي بعد اختفاء مظلتهما الجوية لهجمات أكثر عددًا وأشد ضراوة. وفي هذا العام وصلت المعونة الأمريكية إلى أقصى مدى لها إذ بلغت ستمائة وسبعين مليون دولار.

في تلك الآونة أعلن جورباتشوف لرونالد ريجان عن رغبته في إنهاء هذه الحرب وكان ذلك في أحد اللقاءات التي تمت بينهما. ولقد تكررت المفارقة التي حدثت إبان رئاسة نيكسون في حرب فيتنام إذ تحسنت العلاقة بين القوتين العظميين في نفس الوقت الذي كانت كل منهما تحارب الأخرى من خلال جيوش مفوضة. وكان جورباتشوف الذي لم يذكر أفغانستان في مذكراته إلا لمامًا؛ حريصًا على انفتاح المجتمع السوفييتي على العالم وهو مشروع كان يتعارض مع المذابح التي كانت ترتكب في أفغانستان. تذكر دراسة أعدتها لجنة التقييم العسكري السوفييتية بعد الحرب أنه: «بدءًا من يناير/كانون الثاني ١٩٨٧م كفت القوات السوفييتية طوعًا عن شن أي هجمات وكانت تقاتل فقط إذا ما هاجمها المجاهدون.»

كان الاستثناء الوحيد هو «عملية ماجيسترال» وهي أكبر معركة حدثت في الحرب، فقد ضمت خمس فرق من السوفييت والأفغان الموالين لهم، وكانت تستهدف فتح الطريق إلى بلدة خوست المحاصرة بالقرب من باكستان والتي كانت قوى المقاومة تطوقها. بدأت المعركة في نوفمبر/تشرين الثاني واستمرت حتى شهر ديسمبر/كانون الأول، وهي فترة كانت قوى المجاهدين فيها قد خارت بسبب برودة الطقس. وتذكر الدراسة كذلك: «أن القوات السوفييتية وضعت يدها على المناطق الحيوية في الطريق ثم عادت تتدرب على الانسحاب من أفغانستان وتستعد له».

في نهاية عام ١٩٨٧م أبلغ جورباتشوف نجيب الله بأن القوات السوفييتية سوف تنسحب من أفغانستان، ثم اتجه للتفاوض مع الباكستانيين من خلال الأمم المتحدة لتحديد الجدول الزمني للانسحاب. وعندما فشل في الوصول إلى

اتفاق أعلن أن الانسحاب سوف يبدأ في الخامس عشر من مايو/أيار، على أن يعلق حتى توقيع اتفاقية تسبقه. وفي الرابع عشر من أبريل/نيسان من عام ١٩٨٨م وُقِّعت الاتفاقية في جينيف التي حددت الانسحاب في غضون عشرة أشهر.

وفي مصادفة غريبة وقبل أيام قليلة من توقيع الاتفاقية، حدث انفجار رهيب في مخزن الأسلحة المركزي التابع للمخابرات الباكستانية في بلدة أوجري خارج روالبندي، ودمر أكثر من عشرة آلاف طن من الصواريخ والألغام وقذائف المدافع ومدافع ستينجر وأسلحة وذخائر أخرى كانت ستوجه إلى المجاهدين، وقد نتج عن هذا الانفجار سحابة كثيفة من الدخان غطت ضواحي المدينة بأكملها. وأثناء انسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان — بعد أن غادر حوالي اثني عشر ألف جندي في يوم الخامس عشر من مايو/أيار — كان القتال قد اقتصر على بعض العمليات الضرورية، مثل اختراق مواقع كمائن المجاهدين لإعادة تموين الحاميات في غزنة وقندهار وغيرها.

في أغسطس/آب من عام ١٩٨٨م تحطمت طائرة كانت تقل الرئيس الباكستاني ضياء الحق والجنرال أخطر الذي كان يرأس «جهاز المخابرات الباكستانية» طوال فترة الحرب وكان بصحبتهما آرنولد رافيل Arnold Rafel السفير الأمريكي والملحق العسكري الأمريكي وثمانية من الجنرالات الباكستانيين بالقرب من إسلام أباد وكلهم ماتوا إثر تحطم الطائرة. كانت الطائرة قد شوهدت في وضح السماء الصافية وهي تميل فجأة ثم ترتفع لثوان معدودة وبعدها تهوي إلى الأرض، وفي اللحظات الأخيرة انقطع الاتصال مع الطائرة على الراديو وقال المحللون بعد ذلك إن ركاب الطائرة قد فقدوا الوعي إثر استنشاقهم لغاز مخدر.

أثناء تأهب السوفييت للجلاء عن كابول قاموا بشراء العديد من الأجهزة الكهربائية كأجهزة التيليفزيون والراديو وبضائع ترفيهية أخرى من أسواق المدينة، وكانت حدة التوتر بينهم وبين المجاهدين قد انخفضت للغاية. يروي أحد الجنود في كتاب The Soldiers' Story ما يلي:

> «قبل مغادرتنا المدينة كانت علاقتنا بأفراد حرب العصابات قد اتخذت منحًا غريبًا بعض الشيء ... فمثلًا كان السلام التام يخيم

على علاقتنا معهم في سامانجان، وكنا أحيانًا نجلس على مركباتنا المدرعة ويأتي إلينا بعض المجاهدين يبيعون التبغ وكانوا يتركوننا بسلام، ولكنهم كانوا يتحرشون بجنود الجيش الأفغاني الحكومي.»

تم جلاء نصف القوات السوفييتية في الخامس عشر من أكتوبر/تشرين الأول، وتم في البداية سحب المعدات اللوجستية والمؤن والوحدات المساعدة غير ذات الأهمية الكبيرة. كان المجاهدون في ذلك الوقت يتساءلون فيما بينهم عما إذا ما كان يفترض بهم استغلال هذا الانسحاب والانقضاض على السوفييت. وكالعادة اختلفت أحزاب المقاومة؛ فالبعض كان يرى استغلال الموقف، والبعض الآخر كان لا يبغي سوى أن يغادر السوفييت إلى غير عودة. وفيما بعد فقد اضطر السوفييت بعد أن حل الشتاء إلى الاشتباك مع بعض كمائن المجاهدين إلا أنهم كانوا قد أصبحوا مهرة أيضًا في تأمين قوات الحراسة والطلعات الاستكشافية. وحين سارع المجاهدون إلى الاستيلاء على بلدة قندوز وتخريبها فى أعقاب الانسحاب استدارت القوات السوفييتية واستطاعت بمساعدة الجيش الأفغاني الحكومي، وبدعم جوي قوي عبر آمودريا (جيحون) استعادة المدينة.

وفي الخامس عشر من فبراير/شباط من عام ١٩٨٩م وطبقًا للبرنامج المتفق عليه تحركت آخر وحدات الجيش الأحمر لتعبر «جسر الصداقة» عائدة إلى الاتحاد السوفييتي — وتوقف الجنرال بوريس جروموف Boris Gromov الذي كان قائد الجيش السوفييتي الأربعيني ليكون آخر جندي من سوفييتي يغادر البلاد — وعند وصوله إلى نهاية الجسر احتضن ابنه الذي كان في انتظاره على الجانب الآخر مع مجموعة كبيرة من الصحفيين. لكن مع هذا بقي في أفغانستان مئات من المستشارين السوفييت. وذكر مصدر أن فرقة من حاملات الجنود المدرعة كانت لا تزال في طريقها إلى الجسر — وقد علق أحد الجنود على ذلك قائلًا بسخرية «لا يمكن لجروموف أن يغادر البلاد دون أن يترك وراءه حماية.» ومع ذلك فقد حفظ انسحاب الجنرال بهذه الصورة المشرفة ماء وجه السوفييت، فبعد عقد من الحرب الطويلة في أفغانستان لم يعتبر السوفييت جلاءهم نوعًا من الهزيمة بل كان جلاؤهم عنها طواعية واختيارًا.

وطبقًا للإحصائيات الرسمية فقد الجيش السوفييتي الأربعيني ثلاثة عشر ألفًا وثمانمائة وثلاثة وثلاثين قتيلًا خلال الحرب، بالإضافة إلى ستمائة وخمسين من الوحدات المعاونة. ويمكن للباحثين الروس في المستقبل التأكد من هذه الأرقام حيث يشير الكثيرون إلى أنها أقل من الواقع بكثير.

ولكن مهما كانت معاناة السوفييت فقد كانت معاناة الأفغان أكبر. وبدلًا من أن يخلق السوفييت مجتمعًا جديدًا تركوا وراءهم المجتمع القديم محطمًا. وكان أملهم الوحيد هو أن يستمر حكم نجيب الله دون دعم من الجيش الأحمر. ولكن من كان يتخيل في ذلك الوقت أن حكم الشيوعيين في أفغانستان سوف يدوم أكثر من الاتحاد السوفييتي نفسه؟

الفصل الحادي عشر

ظهــــور طالبــان

بدت المقاومة الأفغانية أمام العالم أجمع المنتصر في هذه الحرب. وبينما كانت المخابرات الأمريكية تحتفل بجلاء آخر القوات السوفييتية باحتساء الشمبانيا في مقر المخابرات المركزية في فرجينيا كان المجاهدون يستعدون لتشكيل حكومة انتقالية تتكون من قيادات الأحزاب السنية السبع المتمركزة في بيشاور. غير أنه تبقت أمامهم مسألة واحدة لا بد من التعامل معها وهي جيش نجيب الله الأفغاني، لكن إذا كان المجاهدون قد تغلبوا على السوفييت فهم بالقطع لن يعجزوا عن هزيمة دماهم التي صنعوها. وبتشجيع من باكستان التي كانت حريصة على إبعاد الجميع عن أراضيها قررت الحكومة الانتقالية الاستيلاء على جلال أباد واتخاذها عاصمة مؤقتة إلى حين التخطيط لعمليات جديدة ضد كابول. وفي مارس/آذار من عام ١٩٨٩م تجمع آلاف المجاهدين حول مدينة جلال أباد الحصينة الواقعة بالقرب من الحدود الباكستانية.

تحولت المعركة إلى مهزلة، فقد علم الجيش الأفغاني بالهجوم المزمع، فقام بتعزيز حامية المدينة وتشييد غرف محصنة تحت الأرض ومدً حائط دفاعي من الأسلاك الشائكة والألغام والخنادق الصغيرة إلى مسافة اثني عشر ميلًا من المدينة. وكانت الحكومة قد اضطرت إلى ترك بعض المواقع الضعيفة في أعقاب انسحاب السوفييت والتركيز على تعزيز المواقع الأخرى القوية الباقية. كما كان السوفييت قد خلفوا وراءهم مدفعيتهم ومخازن الذخيرة والمدرعات التي لم يحتاجوها في انسحابهم. وكذلك تركوا للجيش الأفغاني قوة جوية مكونة من مائتي طائرة ما بين طائرات نفاثة ومروحيات.

بدأ المجاهدون هجومهم بالدبابات التي كانوا قد استولوا عليها ومعها فيض وافر من الصواريخ وقذائف الهاون، واستطاعت تلك الدبابات أن تضغط

على الجيش الحكومي في الشرق، وتكتسح بفرحة كبيرة المطار الذي يبعد أقل من ميلين عن المدينة. إلا أن جيش الحكومة قام بهجمة مضادة بالدبابات لتتوقف المعركة بعد ذلك ثم تتحول إلى حصار طويل. كانت مشكلة المجاهدين أنهم لم يخوضوا معركة كبيرة مفتوحة بهذا الشكل من قبل بالإضافة إلى افتقادهم القيادة التي يمكنها التنسيق بين الفرق المختلفة. فكان بعض المقاتلين يهاجمون من نقطة ما، في حين يتراخى البعض على الجانب الآخر. وكان قادة المقاومة عازفين عن التعاون مع نظرائهم وكذلك كان جنود الفصائل المختلفة لا يتعاونون فيما بينهم. وقد شارك في هذه المعركة أكثر من خمسة عشر ألف رجل ولكن أكثرهم كان يشارك بروح المقاتل الحر الذي يفعل ما يحلو له.

استطاعت الحكومة أن ترسل إلى حامية جلال أباد بعض الإمدادات جوًّا كما تمكنت أيضًا من إرسال قوافل من كابول عبر طريق الموت الذي شهد المذبحة البريطانية الشهيرة عام ١٨٤٢م. ومع استمرار المعركة إلى الصيف باغتت فرق الجيش الأفغاني المجاهدين المحاصرين لها داخل المدينة وشنت عليهم سلسلة من الهجمات استخدمت فيها نوعًا جديد من الأسلحة السوفييتية أثار الذعر في نفوسهم، وهو صاروخ سكود-بي (Scud-B)، وكان لدى الجيش الحكومي أربع بطاريات تطلق صواريخها من كابول التي تقع على بعد ثمانين ميلًا من المعركة. ولأن هذه الصواريخ هي نموذج متطور من الصاروخ الألماني في-٢ (V-2) فقد كانت لها ذات عيبه القديم في عدم دقة تصويبها، فقد كانت ترتفع في الفضاء ارتفاعًا كبيرًا حتى تخترق طبقة الستراتوسفير الجوية ثم تهبط منقضة فجأة وبسرعة أقوى من سرعة الصوت دون أن يستطيع أحد أن يتنبأ بمكان أو زمان سقوطها، حيث يجدون رأس الصاروخ الذي يزن ألفي رطل ينزل فجأة على منطقة ما فيدمر مساحة تصل إلى عدة مئات من الياردات.

تم فك الحصار بعد ذلك تدريجيًا بعد أن قتل حوالي ثلاثة آلاف من المجاهدين. ونتج عن هذه المعركة رفع الروح المعنوية للجيش الأفغاني في حين أصيب المجاهدون بحالة من الإحباط الشديد. والأهم من ذلك كله أن اتحاد الحكومة المؤقتة — الذي كان من الأساس غاية في الضعف والهشاشة — تمزق وبدأت العداوة والفرقة تدب بين أحزابه المختلفة. وفي يوليو/تموز قام أحد قادة حكمتيار ويدعى سيد جمال بنصب كمين لرجال مسعود بالقرب من طاليكان. وأسفر هذا الكمين عن مقتل ستة وثلاثين رجلًا من بينهم سبعة

من كبار قادة جيش مسعود. وعلى الفور سارع أسد بانجشير بإرسال قوة مقاتلة عبر المناطق الريفية بحثًا عن مرتكبي هذه الجريمة، وقبض على جمال الذي كان مختبئًا في أحد الأقبية، وبعد محاكمته في محكمة إسلامية شُنِق مع أخيه واثنين من قادة حكمتيار. وفي أغسطس/آب انسحب حكمتيار من الحكومة المؤقتة، وكان حزبه الإسلامي الأصولي الذي يتألف أغلبه من عناصر البشتون هو أكبر أحزاب المجاهدين كما كان يتلقى أكبر دعم عسكري من جهاز المخابرات الباكستاني، وكان حكمتيار نفسه رجلًا طموحًا لا يقدم أي تنازلات ولذلك فضل العمل منفردًا.

في ذلك الوقت بدا أن السوفييت لا يبحثون عن فترة سلام وهدوء بعد انسحابهم من أفغانستان، فخلال الأشهر الستة التي أعقبت انسحابهم بلغ حجم المعونات التي قدموها لأفغانستان عام ١٩٨٩م حوالي ثلاثمائة مليون دولار شهريًا في مقابل المعونات الأمريكية التي انخفضت إلى ما بين أربعين وخمسين مليون دولار. ذكر الجنرال يوسف أنه بعد حريق مخزن الذخائر بالقرب من روالبندي رفضت المخابرات الأمريكية تعويض الخسائر التي فقدت، وكان مبررها لذلك هو أنه من الأفضل ضمان انسحاب سوفييتي هادئ لا تعوقه هجمات المجاهدين، إلا أن المعونات ظلت كما هي دون زيادة بعد انسحاب السوفييت، ويستطرد يوسف قائلًا:

> «بعد توقيع اتفاقية جنيف ظهر هدف الأمريكيين الحقيقي من وراء هذه الحرب، فرغم غرابة هذا الأمر إلا أنه بعد انسحاب السوفييت من أفغانستان وتوقع الجميع أن ينتصر المجاهدون، بما فيهم السوفييت والأفغان الموالون لهم – ظهر تغيير متعمد في السياسة الأمريكية يهدف للحيلولة دون ذلك – وكان من الواضح أن كلتا القوتين العظمين تفضلان بقاء الوضع على ما هو عليه.»

في واقع الأمر كانت الولايات المتحدة قد فقدت كثيرًا من اهتمامها بهذا الصراع. فقد حققت غرضها وساهمت في إفشال الغزو السوفييتي وهو ما كان كافيًا للانتقام مما فعله السوفييت في فيتنام. لكن بخلاف هذا لم تثر الحرب الأهلية في أفغانستان اهتمام الشعب الأمريكي وكانت وكالة الاستخبارات الأمريكية تتعامل مع هذه القضية بحذر شديد.

كان هؤلاء المجاهدون من الأصوليين الإسلاميين، وهم جزء من حركة واسعة الانتشار اكتسبت خطورة متزايدة بعد سقوط شاه إيران. وكان الإرهاب الإسلامي الذي تمكن من تدمير طائرة بان أمريكان فوق بلدة لوكيربي الأسكوتلاندية عام ١٩٨٨م قد امتد إلى أوروبا وأفريقيا وآسيا وهدد بالوصول إلى الولايات المتحدة. وكان أغلب هؤلاء الإرهابيين من المسلمين الذين جاءوا من الشرق الأوسط حيث الصراع الإسرائيلي الفلسطيني يذكي النيران. إلا أن جهاز المخابرات الأمريكية كان على علم بأن أشرس أولئك الإرهابيين هم من يسمون بالأفغان العرب. وكان هؤلاء من العرب الذين انضموا إلى «حركة الجهاد» في أفغانستان والذين أصبحوا بعد ذلك فئة مدربة ذات خبرة عسكرية كبيرة ولا ينقصها السلاح. وكان أغلب هؤلاء يتبعون جماعتي سياف وحكمتيار، إلا أن هناك شابًّا أرستقراطيًّا سعوديًّا يدعى أسامة بن لادن كان قد بدأ في إنشاء تنظيمه الخاص.

كان بن لادن قد زار أفغانستان لأول مرة وهو في الثالثة والعشرين من عمره في عام ١٩٨٠م بناء على طلب من الأمير تركي بن فيصل مدير المخابرات السعودية. وفي عام ١٩٨٢م كان قد أعد مقرًّا له في باكستان يدير منه عمليات إنشاء البنية التحتية للمجاهدين من خلال خبرته في أعمال الإنشاءات التي تعمل بها عائلته والتي كان حجم أعمالها يصل إلى بليون دولار. وقد قام بن لادن بتمويل من الحكومة السعودية وعائلته وعدد من المساهمين الأثرياء بحفر مجموعة من الكهوف وشبكة من الأنفاق في الجبال الواقعة شرق أفغانستان وخاصة في المناطق التي تقع حول مدينة خوست وجنوب جلال أباد — ويقول بن لادن إنه شارك أيضًا في القتال مع المجاهدين وفي نصب العديد من الكمائن. وفي عام ١٩٩٠م أصيب بن لادن بالإحباط من جراء النزاع الذي نشب بين المجاهدين، فعاد إلى المملكة العربية السعودية ليعمل في شركات عائلته. ثم أنشأ منظمة لمساندة ودعم خمسة وثلاثين ألفًا من المحاربين العرب القدامى الذين كانوا يقاتلون مع المجاهدين أثناء الحرب والذين أصبحوا من أكثر المقاتلين خبرة وإخلاصًا. وقد عرفت هذه المنظمة باسم «القاعدة»، ولم تكتف بتقديم المعونة لهؤلاء المحاربين بل إنها فيما بعد قامت بعمليات أخرى بعدما اتسع نطاق الجهاد ليصبح عالميًّا.

كانت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية تخشى منذ البداية أن تكون الولايات المتحدة قد خلقت وحشًا لن تستطيع القضاء عليه فيما بعد. وصارت إدارة بوش تفضل إيجاد حل سلمي للحرب الدائرة في أفغانستان بدلًا من أن تستمر في دعمها للمجاهدين. وفي لقاء جمع جيمس بيكر James Baker وزير الخارجية الأمريكي مع إدوارد شيفرنادزة Eduard Shevardnadze وزير خارجية الاتحاد السوفييتي اتفق الاثنان على ترك السلطة في يد نجيب الله الشيوعي الاتجاه، شريطة إقامة انتخابات جديدة تحت إشراف دولي لتعيين حكومة أفغانية ائتلافية جديدة.

في عام ١٩٨٩م كان مهندسا استراتيجية الحرب الباكستانية الأصليين الرئيس ضياء الحق ومدير المخابرات أخطر قد لقيا مصرعهما. وكان يوسف الرئيس السابق لفرع المخابرات الداخلية الذي كان يشرف على عمليات المجاهدين، بالإضافة إلى الإمدادات والتدريب الحربي؛ قد اعتزل المنصب بعد أن تم تخطيه في الترقية. وبالتعاون مع الرئيس الجديد للمخابرات الداخلية حامد جول استطاعت وكالة المخابرات الاستخبارات الأمريكية أخيرًا أن تتحكم في تدفق الأسلحة لبعض القادة الميدانيين الذين كان ضياء وأخطر يحميانهم بوازع من إخلاصهم للإسلام. وبالرغم من تحكم جهاز المخابرات الأمريكية في عملية شحن الأسلحة فإن بعض عناصر المخابرات الباكستانية كان في إمكانها توفير الموارد لبعض الجماعات المقربة لديها وكذلك فعلت المملكة العربية السعودية التي أغدقت في هذه الحرب من الأموال قدر ما فعل الأمريكيون.

في مارس/آذار من عام ١٩٩٠م نجا نجيب الله من محاولة انقلاب فاشلة قام بها شاه نواز تاناي Shah Nawaz Tanai — وهو جنرال في الجيش الأفغاني الحكومي ثم هرب بعدها إلى باكستان حيث انضم إلى قوات حكمتيار. يقول مارتن إيوانز Martin Ewans الباحث في الشئون الدبلوماسية أن هذا التحالف الشاذ بين قائد شيوعي ومسلم متطرف يعكس في جوهره ولاء للبشتون الجلزانيين. وخلال هذا العام كان المجاهدون يشنون هجمات على خوست وهرات وقندهار التي كانت تحت سيطرة الجيش الأفغاني في حين كانت القوافل الحكومية تخاطر بتنقلاتها خلال الطرق التي تربط ما بين هذه المدن. وكانت المقاومة قد عادت إلى أسلوب حرب العصابات التي لا يفوقها

فيها أحد، وكان الاستثناء الوحيد هو ما حدث في آخر العام حين شن حكمتيار هجومًا مباشرًا على كابول إلا أنه أخفق وقتل من جيشه الكثير.

كان جيش الجمهورية الأفغانية الديمقراطية قد وصل عدده إلى حوالي ستين ألف رجل وكان يسيطر على المدن الكبيرة وكانت قوات الشرطة السرية الأفغانية «خاد» مع شرطة ساراندوي شبه العسكرية والميليشيات الوطنية قد عززت من قوة الحكومة — وفي خلال هذه الفترة قام أحد قادة الميليشيا ويدعى عبد الرشيد دوستم باقتطاع منطقة في شمال أفغانستان سيطر عليها هو وأعوانه الأوزبك. وكان المجاهدون يشكون في أن القوات السوفييتية لا تزال تشترك في الصراع سواء من خلال سلاحها الجوي أو من خلال استخدام صواريخ سكود.

كان أهم أحدث عام ١٩٩٠م هو غزو العراق للكويت الذي أثار رد فعل عالمي ضخم تزعمه الأمريكيون. وخلال الخريف قام جورج إتش دبليو بوش George H. W. Bush بتشكيل أكبر تحالف عسكري في التاريخ شمل السعوديين والروس واليابانيين والبرازليين ضمن عشرات آخرين. وبعد شهر من القصف تمكنت قوة الجيش المكونة من ثلاثمائة ألف جندي أغلبهم من الأمريكيين من سحق القوات العراقية التي كانت تسيطر على الكويت في حملة استمرت لمائة ساعة. أما حكمتيار وباقي الأصوليين الإسلاميين من المجاهدين فقد كانوا من المؤيدين لصدام حسين.

وفي مارس/آذار من ذات العام وأثناء محاولة الأمريكيين إخماد حرائق آبار النفط التي أشعلها العراقيون في الكويت قبل رحيلهم، تمكن المجاهدون من الاستيلاء على خوست الواقعة شرق أفغانستان والتي كانت قد صمدت لمدة عقد كامل من الزمن وهي التي تقع بين قواعد المقاومة ثم تحولوا بعد ذلك إلى جارديز. في ذلك الوقت قام نجيب الله بتغيير اسم «الحزب الشعبي الديموقراطي» إلى «الحزب الوطني» في محاولة يائسة منه للتخلص من شركائه الشيوعيين في الحكومة. إلا أن كل الدلائل العالمية كانت تشير إلى نهايته، فقد شاهد بعينيه دعم الاتحاد السوفييتي للولايات المتحدة في حربها في الخليج. وفي مايو/أيار قدمت الأمم المتحدة خطة سلام وافق عليها كل من الحكومة الأفغانية وإيران وباكستان والولايات المتحدة والسوفييت ولكن رفضها المجاهدون الأصوليون.

في أغسطس/آب نـجا جورباتشوف بصعوبة من محاولة انقلاب عسكري دبرت في موسكو، ثم اتفق مع الأمريكيين على وقف تمويل الصراع الأفغاني مع نهاية العام. إلا أن جورباتشوف لم يبق ليبر بوعده ففي أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٩١م انهار الستار الحديدي، وفي عيد الميلاد قدم جورباتشوف استقالته كسكرتير عام للحزب الشيوعي، وكانت استقالته هذه إيذانًا بنهاية الاتحاد السوفييتي حيث أصبحت جمهورياته دولًا مستقلة لها حرية اختيار نظام الحكم الذي تريده، وأصبحت جمهورية أفغانستان الديموقراطية بذلك جمهورية مستقلة بذاتها.

في فبراير/شباط ثار دوستم — القائد العسكري الأوزباكستاني ضد الحكومة الأفغانية التي كانت تمده في السابق بالأسلحة، وبالتحالف مع قوات مسعود تمكن من الاستيلاء على بلدة مزار شريف. وكانت سلطة جمهورية أفغانستان الديمقراطية في هرات وقندهار قد بدأت تتفكك في حين كان المجاهدون يطبقون على كابول من جميع الجهات. وحاولت أطراف دولية عدة أن تمهد لهذا التحول المحتوم بهدوء وسلاسة حيث نصح الروس نجيب الله بالتخلي عن سلطته. كما لعبت الأمم المتحدة دورًا محوريًا في هذه القضية حين قدم بطرس بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة خطة لتشكيل مجلس مؤقت من القادة الأفغان المحايدين يشرف على إسقاط الجمهورية ونقل السلطة إلى المجاهدين دون إراقة أي دماء.

إلا أن نجيب الله تسبب في إرباك هذه الخطة، ففي الخامس من أبريل/نيسان اختفى خوفًا على حياته، وأقدم الجنرال المسئول عن «خاد» على الانتحار. وفي ذلك الوقت كان مسعود ودوستم من الشمال وحكمتيار من الجنوب قد تجمعوا في كابول مدعمين بوحدات كاملة الإمدادات من الجيش الأفغاني الذي لم يعد يوالي الحكومة. وتوقفوا جميعًا في ضواحي العاصمة في حين كان الجدال بين أحزاب المقاومة — التي كانت واقعة تحت ضغط الأمم المتحدة — يدور حول أسلوب انتقال الحكم والتشكيل الجديد للحكومة، وشكل قادة المجاهدين مجلسًا أطلقوا عليه مجلس الجهاد الإسلامي إلا أنهم تأخروا في اتخاذ قرارهم فلم يتمكنوا من إيقاف المعركة التي دارت رحاها بالقرب من العاصمة.

كان رجال حكمتيار قد تسللوا إلى داخل العاصمة بحثًا عن المواقع العسكرية الهامة، وكان مسعود قد بدأ يشن هجومًا بجيشه. ورغم أن حكمتيار

كان يتفوق عليه عدديًّا، إلا أن مسعود كان الوحيد بين قادة المجاهدين الذي كان يمتلك قوات عالية التدريب تتميز بالتنظيم والتنسيق الإداري، فانضم إليه رجال دوستم. وفي الثامن والعشرين من أبريل/نيسان اضطرت قوات حكمتيار إلى الجلاء عن المدينة متراجعة إلى الجنوب. وتسلم مجلس الجهاد الإسلامي القيادة وعين مجددي — وهو أحد رؤساء الأحزاب المعتدلين — رئيسًا للحكومة وعين مسعودًا وزيرًا للدفاع وجيلاني (أحد المعتدلين أيضًا) وزيرًا للداخلية. وعرض على حكمتيار منصب رئيس الوزراء إلا أنه رفض طالما ظل مسعود وزيرًا للدفاع. ومع أننا إذا ما استرجعنا الأحداث سيبدو لنا هذا التوزيع عادلًا ولا يمكن القول بأن المجاهدين كانت تنقصهم الحكمة الموضوعية في إعداد تخطيط جيد للحكومة المستقبلية، فإن الواقع الفعلي كان غير ذلك، حسبما ذكر المؤرخ أحمد رشيد حين قال:

> «إن أكثر ما حدد مسار الحرب الأهلية الأفغانية التي جرت بعد ذلك كان سقوط كابول — ليس في أيدي أحزاب البشتون المدججة بالسلاح والمتشاحنة فيما بينها — ولكن في أيدي قوات الطاجيك التي كانت أكثر تنظيمًا وتماسكًا ... وفي أيدي قوات الأوزبك الشمالية ... وكانت هذه ضربة قاصمة نفسيًّا للبشتون. فلأول مرة منذ ثلاثمائة عام فقد البشتون سيطرتهم على كابول ... وكان هذا هو ما جعل الحرب الأهلية تنشب على الفور.»

أكدت السنوات التالية التي كانت مشحونة بالاضطرابات في أفغانستان وجهة نظر السوفييت في أن المجاهدين حين يتسلمون السلطة سوف يحلون الخراب بالبلاد — وبدلًا من أن يقودوها إلى العالم الجديد عادوا بها إلى فترة العصور الوسطى التي كانت قد بدأت تخرج منها في أواخر القرن العشرين.

في ذلك الحين بدأ يظهر على مجددي جشع السلطة وصار مستبدًا فقام رباني رئيس جماعة الإسلام بخلعه. وكان رباني قائدًا طاجيكيًّا وضمت جماعته مسعودًا وإسماعيل خان اللذين عرفا بأبطال هرات، وكان هذا يعني سيطرة الشمال الكاملة على السلطة، التي توزعت ما بين رباني ومسعود ودوستم، مما دفع حكمتيار إلى القيام بقصف وحشي على العاصمة من مقره في الجنوب، وقد قتل أحد صواريخه في شهر أغسطس/آب حوالي ألف وثمانمائة شخص.

وفي غمار هذا التنافس الداخلي المعقد على الحكم في أفغانستان الذي بدأ يمارس على نطاق واسع بسبب كم الأسلحة المهول الذي تم الاستيلاء عليه من الجيش الأفغاني، بدأ ميزان الصراع يتحول. فإبان الاحتلال السوفييتي كان المحتلون يبذلون قصارى جهدهم لتأمين المدن وتوفير ملاذ آمن يمكن المواطن من الحياة والعمل في بيئة شبه طبيعية. وظلت الحرب الحقيقية تشتعل في القرى والمناطق الريفية حين حاول السوفييت أن يقضوا على البيئة التي كانت تمول الثوار. أما خلال «حرب المجاهدين الأهلية» أصبحت المدن مسرحًا للقتال حيث تركزت عليها أطماع المتنافسين على الحكم.

كانت كابول التي تعرضت للتدمير وهجوم بالصواريخ لسنوات — كما حدث لسايجون عام ١٩٧٢م — قد ظلت إلى حد ما محتفظة بتماسكها تحت الإدارة السوفييتية أما الآن فقد حل الخراب والدمار على كل شبر فيها جراء تقاتل أحزاب المقاومة. يلخص إيوانز تبعات هذه الحرب بقوله: «خلال العام الذي انتقلت فيه السلطة إلى المجاهدين قتل حوالي ثلاثين ألفًا من سكان كابول وجرح ما يقرب من مائة ألف آخرين في حين غادر الكثيرون المدينة في حركة هجرة داخلية وخارجية.» فبدلًا من أن يتدفق المهاجرون إلى كابول كما هو مألوف أصبحوا الآن يتدفقون منها إلى الخارج. وما أنزله السوفييت من دمار بريف أفغانستان أنزل المجاهدون ضعفه بمدن أفغانستان.

في عام ١٩٩٣م كان القتال لا يزال مستمرًا حول كابول، وعادت البلاد إلى ما كانت عليه في عصر أحمد شاه عام ١٧٥٧م، فقد فرض البشتون نفوذهم على قندهار في حين سيطر قائد الطاجيك إسماعيل خان على هرات بمساعدة الإيرانيين الذين قدروا الجهد الذي بذله في استعادة المليون ونصف المليون مهاجر الذين فروا إلى إيران خلال الحرب السوفييتية. وكان دوستم قد أسس إدارة مستقلة في مزار شريف رغم صراعه مع مسعود على قندوز في الشمال. وخلال الطرق الواصلة بين تلك المدن الأفغانية كان أمراء الحرب المستقلون يكمُنون بغرض سلب المارة ونهبهم، أو فرض رسوم عبور على تلك الطرق، وفي نفس الوقت يتقاتلون مع الجماعات الأخرى المنافسة للسيطرة على الأراضي أو على مزارع الأفيون.

أدى الانهيار الحكومي والاقتصادي في أفغانستان، بالإضافة إلى وجود شعب مسلح طالما حارب في هذه الأرض حتى ألفها، إلى أن تصبح أفغانستان

مركزًا دوليًا لتجارة الأفيون، وتحول المقاتلون المؤمنون إلى تجار مخدرات، والأمر الباعث على السخرية هو مبررهم الذي ساقوه لهذا إذ قالوا إنه لا ضير من بيع المخدرات طالما هي تباع للكفرة ... وكان هذا الأفيون الأفغاني يتحول في معامل موجودة بباكستان وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة إلى هيروين، وبهذا أصبحت أفغانستان تنتج نسبة تزيد عن السبعين بالمائة من إجمالي الإنتاج العالمي للهيروين. وفي حين تسببت هذه التجارة في إثراء بعض الجماعات الجهادية أو على الأقل كانت تعويضًا لهم عن انخفاض المعونة الأجنبية أصبحت زراعة الأفيون الوسيلة الوحيدة للإعاشة في كثير من المجتمعات الريفية.

في ثمانينيات القرن العشرين كان المجاهدون السنيون يتقاتلون فيما بينهم في حين كان الهازارا الشيعة الذين يقطنون وسط جبال الهندوكوش قد انقسموا على أنفسهم إلى جماعات متناحرة. ولأنهم لم يتقاتلوا مع السوفييت إلا قليلًا، فقد كانوا يتصارعون بعنف فيما بينهم في حين تجاهلتهم الجماعات الموجودة في بيشاور تمامًا مع أنها كانت ممولة ومدعومة من وكالة المخابرات الباكستانية والمخابرات الأمريكية والصينيين والسعوديين. وبعد جلاء السوفييت طالبتهم إيران — التي كانت ترعى الشيعة في هازارات — بأن يتحدوا في منظمة واحدة كما فعلت الأمم المتحدة مع الأحزاب السنية. واستجاب الهازارا بتشكيل «حزب الوحدة» وهو الحزب الذي حاربوا باسمه في الحرب الأهلية، ثم انضموا إلى حكمتيار في هجومه على كابول وأجبروا مسعود على أن يحارب بجيشه في جبهتين.

وفي أوائل عام ١٩٩٤م انضم دوستم وجيشه المكون من الأوزبك إلى حكمتيار، وشنوا هجومًا مشتركًا على العاصمة أسفر عن غلق الممر الجوي الذي كان يوفر الطعام وإمدادات النجدة للمدينة مما اضطر الكثيرين إلى الهجرة منها، ورد مسعود بضربة مضادة باستعادة قندوز التي تقع في شمال البلاد كما شن أيضًا هجومًا أسفر عن تراجع الأوزبك والبشتون عن المنطقة المجاورة لكابول. وانسحب دوستم إلى الشمال في حين ظهر الهازارا مرة ثانية بين جبال الهندوكوش لينضموا إلى قوات حكمتيار لإعادة الهجوم من الغرب. ومع نهاية عام ١٩٩٤م كان مسعود ما زال يحكم الأراضي الممتدة من كابول إلى قندوز مرورًا بوادي بانجشير وكان له سلطة اسمية فقط على

القواعد العسكرية التي كانت تتبع جمهورية أفغانستان الديموقراطية، إلا أنه في أواخر الصيف تلقى أنباء تفيد بظهور فرق أخرى مسلحة غير المجاهدين حول قندهار، ولم يكن هؤلاء الجدد من المجاهدين بل جماعة جديدة تطلق على نفسها اسم «طالبان»، وتعني هذه الكلمة «الطلبة» إلا أنها تنطوي على مدلول ديني آخر هو «الساعون إلى الله». وكانت هذه الجماعة قد هزمت مقاتلي قبائل الجنوب وبدأت تتجه إلى الشمال حيث هرات وغزنة والعاصمة.

بدأ ظهور طالبان حين وقع في صيف عام ١٩٩٤م حادث تسبب في فوضى عارمة حلت بالبلد، فقد قام رجل متجبر باغتصاب عدد من الفتيات الأفغانيات، فطلب الأهالي من أحد الملالي واسمه الملا محمد عمر أن يقتص لهم منه، فاستدعى الملا بعضًا من تلاميذه المتدينين، فأمسكوا بالمجرم وأعدموه وتوعدوا أتباعه. وبعد ذلك بدأ هؤلاء الطلبة يفزعون إلى نجدة الأهالي الذين كانوا يقعون ضحية لقطاع الطرق وبدأت منزلة طالبان ترتفع في المجتمع مع تزايد حاجته إلى نوع من النظام.

وفي تزايد قوة حركة طالبان يمكن أن ترى يد باكستان الخفية. ففي ظل حكم بناظير بوتو Bennazir Bhutto قررت باكستان أن تفتح طريقًا وسط آسيا يمر عبر قندهار وهرات. وكانت بوتو قد أجرت مباحثات مباشرة مع إسماعيل خان ودوستم حول مدى أمان هذا الطريق (بعد أن تجاهلت حكومة رباني المحاصرة في كابول). وفي أكتوبر/تشرين الأول قرر الباكستانيون اختبار هذا الطريق بإرسال بعثة من ثلاثين شخصًا يحملون الطعام والأدوية، إلا أن أحد زعماء القبائل المقاتلين ويدعى منصور هاجم هذه القافلة وأسر جميع أفرادها.

قبل هذه الحادثة بقليل كانت مجموعة من أفراد طالبان قد استولت على مستودع ذخيرة ومعدات عسكرية من بلدة سبينبالداك كما استحوذت أيضًا على ثمانية عشر ألفًا من رشاشات إيه كيه-٤٧ (Ak-47) وأطنان من الذخيرة التي كانت متجهة إلى حكمتيار. طلبت باكستان من طالبان إخلاء سبيل القافلة، وعلى الفور استجابت طالبان بحماس، وتم قتل منصور وعرض جسده متدليًا من ماسورة إحدى الدبابات ثم استدارت طالبان بعد ذلك نحو قندهار نفسها لتستولي عليها بعد قتال ضعيف لم يدم أكثر من يومين، واستسلمت الحامية بعد أن أشيع أن قائدها قد تلقى رشوة لهذا الغرض. واستولت طالبان على

كميات ضخمة من الأسلحة تشمل دبابات ومدافع وناقلات جند مدرعة واثني عشر طائرة نفاثة ميج-٢١ (Mig-21) بالإضافة إلى عدد من المروحيات المقاتلة.

خلال الأشهر الثلاث التالية اجتاحت طالبان اثنتي عشرة مقاطعة جنوبية في نفس الوقت الذي تزايد فيه عدد جيشها بعد أن انضم إليه آلاف المتطوعين كان معظمهم من اللاجئين الأفغان أو المواطنين البشتون الذين خرجوا من تحت عباءة المدارس الدينية في باكستان. وفرضت طالبان على المناطق التي تقع تحت نفوذها نظامًا صارمًا بمقتضى مبادئ إسلامية متشددة حل محل الفوضى العارمة التي كانت سائدة. وبذلك انفتح أمام باكستان الطريق الذي أرادته. وبالنسبة للولايات المتحدة — ففي نطاق اهتمامها المحدود بما يجري في أفغانستان — كان ظهور طالبان نوعًا من حسن الحظ. فمن المعروف أن أمريكا لا تزال تحتفظ بسمة دينية بيوريتانية كبيرة، وكان ظهور هذا الجيش الغامض الجديد ممسكًا بندقية في يد ومصحفًا في اليد الأخرى وهو آخذ في امتلاك أقاليم البلاد الواحد تلو الآخر مستبدلًا النظام بالفوضى؛ هو أمر باعث على ارتياحهم. يقول أحمد رشيد الذي رصد تاريخ هذه الحركة منذ قيامها:

> «كان هؤلاء الرجال يختلفون تمامًا عن المجاهدين الذين عرفتهم خلال الثمانينيات والذين كانوا قادرين على سرد تسلسل أنسابهم وعشائرهم القبلية حتى عصور بعيدة، والذين كانوا يتذكرون مزارعهم المهجورة ووديانهم بكثير من الحنين، ويحكون قصصًا وأساطير من تاريخ أفغانستان القديم. أما أولئك الطالبان فكانت الحروب قد يتمتهم، وتركتهم بلا جذور ولا عمل ولا أموال ولا هوية — وكانوا يحبون الحرب لأنها الشيء الوحيد الذي يجيدونه، وكان إيمانهم البسيط بعقيدة الإسلام الخالصة التي زرعها في نفوسهم الملالي البسطاء في القرى، هي السند الوحيد لهم الذي كان يعطي لحياتهم معنى.»

وحين كانت رحى الحرب الأهلية دائرة في أفغانستان، كانت الولايات المتحدة في مطلع التسعينيات غارقة في مشاكلها الخاصة، فقد حاول الرئيس بوش أن يكرر في الصومال ما سبق أن فعله في العراق من خلال حشد قوة دولية بهدف إطعام شعب يقاسي مرارة الجوع ويصل تعداده إلى الملايين، وكان الباكستانيون من المشاركين في هذا الائتلاف. إلا أنه في عام ١٩٩٣م

حين تولى الرئيس بيل كلينتون Bill Clinton شنت القوات الخاصة الأمريكية غارة غير مدروسة على أمراء الحرب الصوماليين في مقديشيو لقي فيها ثمانية عشر جنديًّا أمريكيًّا مصرعهم، فقام كلينتون على الفور بسحب جميع القوات الأمريكية من الصومال.

وفي نفس هذا العام انفجرت سيارة مفخخة في مركز التجارة العالمي في مانهاتن، ولقي على إثره ستة أشخاص حتفهم، وأصيب ألف آخرون تأذى أغلبهم نتيجة استنشاق الدخان المتصاعد من الانفجار. وقد هز هذا الانفجار أمريكا كلها، فقد كانت أبراج مركز التجارة العالمي ترمز ليس فقط إلى قوة سوق المال في نيويورك بل كانت في ارتفاعها الشاهق رمزًا لعظمة أمريكا والعالم الغربي بأسره. ولحسن الحظ صمد البرج الشمالي أمام الانفجار الذي كان مصدره في مرأب المبنى. تمكنت أجهزة مكتب التحقيقات الفيدرالي من القبض على مرتكبي الحادث، وتبين أنهم أعضاء في جماعة إسلامية تتخذ من نيو جيرسي قاعدة لها ويرأسها ملا ضرير. وقد بلغ منفذي هذه العملية من عدم الكفاءة أن حاول أحد أعضائها استعادة نقوده التي دفعها كمقدم لوكالة تأجير السيارات التي استأجر منها السيارة التي استخدمت في التفجير. ولم تثر محاكمة هذه الجماعة في جيرسي اهتمام الشعب قدر ما أثارته محاكمة أو جي سمبسون O. J. Simpson، وتفجير أوكلاهوما، وفضيحة مونيكا لوينسكي Monica Lewinsky. وقد حدثت جميعها في خلال عقد واحد كانت أمريكا تعيش في ظله رخاء اقتصاديًّا كبيرًا. إلا أنه من جانب آخر كان المحققون قد ساورهم القلق حين تبين لهم أن مدبري المؤامرة لهم صلات بالأفغان وأنهم كانوا يخططون لعملية أكبر وهي تفجير مقر قيادة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بطائرة مختطفة.

في أفغانستان كانت طالبان تكتسح كل ما يقف في طريقها وهي متجهة نحو الشمال. وفي يناير/كانون الثاني من عام ١٩٩٥م حاول حكمتيار صد هجومهم قبل أن يصلوا إلى غزنة، إلا أن المدينة سقطت بعد قتال شرس جرى حول ضواحيها واجتاحت طالبان الجبال الشرقية. وكان المجاهدون يتساقطون أمام هجماتهم على الفور، وأحيانًا دون أن يطلقوا طلقة رصاصة واحدة حيث كانوا يلقون بأسلحتهم فور رؤيتهم أو ينضمون إلى هذه الحركة الجديدة. وبعد أن قطعوا طريق الإمدادات التي كان يرسلها حكمتيار إلى

جلال أباد، هاجمت طالبان قاعدته في شاراسياب جنوب كابول. وبعد محاولة أخيرة لتجميع قواته أمام هؤلاء الطلبة ذوي المبادئ المثالية اضطر حكمتيار إلى الفرار. وبذلك طُرد قائد المجاهدين الذي طالما أثار الخوف في النفوس بعد تشتت قواته وانضمامها إلى طالبان.

انتهز مسعود فرصة هزيمة منافسه ليهجم على الهازارا الذين كانوا يتعاونون مع حكمتيار ضد كابول، فطلب الهازارا من طالبان النجدة، إلا أن الاثنين تصارعا وانتهى الأمر بأن أسرت طالبان قائد الهازارا وقتلوه بأن قذفوا به من طائرة هليوكوبتر، كما روى البعض، وأصبحت طالبان الآن في مواجهة مسعود، فأطبقت على كابول من جهات ثلاث ممطرة المدينة بالصواريخ والقنابل. وفي التاسع عشر من مارس/آذار قام مسعود بهجوم مضاد ليذيق طالبان أولى هزائمهم حين أجبر قوتهم الرئيسية على التراجع إلى غزنة وإخلاء الطريق بعيدًا عن نطاق المدفعية.

تحركت طالبان بعد ذلك تجاه الغرب، وأثناء تقدمها عبر الأراضي الترابية المنبسطة جنوب أفغانستان ومعها بعض المركبات المدرعة هاجمتها مقاتلات حكومية نفاثة انطلقت من قاعدة شينداند. وكانت قوات إسماعيل خان — قائد المنطقة — قد تم إمدادها بألف من المجاهدين أرسلهم مسعود جوًّا من كابول. وكان جيش طالبان يضم عشرين ألف مقاتل في مقابل القوات الحكومية البالغ عددها اثني عشر ألفًا. والتحم الفريقان في معركة شرسة جنوب شينداند أظهرت للمرة الثانية قلة خبرة طالبان. وفي شهر مايو/أيار قام إسماعيل خان بهجوم مضاد ليرغم طالبان على التراجع إلى ديلارام التي تبعد مائتي ميل عن جنوب هرات. وتحولت هذه المنطقة شبه الصحراوية إلى ساحة تعج بمئات الجرحى من الشباب الذين كانوا يزحفون للبحث عن الماء بعد أن فاق إيمانهم قدرة جيشهم على التحرك. وكان أهم ما تميزت به هذه الحملة أن طالبان لم تقم بعملياتها بالقرب من باكستان ولكن على حدودها مع إيران التي أصابها الانزعاج لظهور حركة سنية متطرفة إلى جوارها، فاستمرت في تزويد إسماعيل بالوقود والذخيرة في حين اشتبك حرس حدودها مع طالبان في مقاطعة نمروز.

بعد أن انسحبت طالبان قامت بتوجيه نداءات إلى المدارس الإسلامية في باكستان — التي كانت المؤسسات الاجتماعية الوحيدة التي تحتضن اللاجئين الأفغان. وهب الآلاف من الشباب المؤمن لنصرة قضيتهم بدعم خفي حذر من

المخابرات الباكستانية بعد التأكد من أن المجندين الجدد مسلحين تسليحًا جيدًا ومدربين خير التدريب. وفي أغسطس/آب شن إسماعيل خان هجومًا جديدًا نتج عنه تراجع طاليان حتى نهر هلمند، إلا أن طالبان استجمعت كل قواها وفاجأت إسماعيل خان بضربة مضادة فرت على أثرها قواته الحكومية تطاردها العربات ذات المدافع الرشاشة والشاحنات المحملة بالجنود وهي تسرع على الطرق الموازية لها عبر الأراضي لتنصب لها كمائن في مؤخرة الجيش. سقطت قاعدة شينداند الجوية في يد طالبان التي استولت على اثنين وخمسين طائرة من طراز ميج-٢١ (Mig-21)، ومجموعة مختلفة من الطائرات المروحية وستين قطعة مدفعية، وأصبحت هرات على بعد خطوة واحدة لتسقط هذه البلدة التي كانت عاصمة التيموريين ودرة تاج الحضارة الفارسية دون أدنى مقاومة في أوائل عام ١٩٩٥م — وكان الشعب الأفغاني قد اجتاحته أنباء نجاح طالبان في تحقيق الانضباط الاجتماعي في قندهار فرحبوا بهم أملًا في أن يحققوا لهم ذات الحياة الآمنة. أما عن إسماعيل خان فقد فر إلى إيران.

في الشهر التالي عادت طالبان إلى كابول، وكان مسعود قد أمضى الصيف كله في اشتباكات مع دوستم في الشمال، إلا أنه أدرك أن التهديد الحقيقي عاد للظهور من الجنوب. وفي ذلك الوقت كان توتر مواطني كابول قد ازداد بعد كارثة هرات. وبعد اتهام الحكومة لباكستان بدعمها لطالبان هجم بعض الرعاع على سفارة باكستان، وقتل أحد الأشخاص في هذا الهجوم وتم الاعتداء على السفير وآخرين معه. ولم يفلح ذلك في تقليل تعاون جهاز المخابرات الباكستاني مع طالبان بل تعرضت العاصمة بعد ذلك لهجوم متوالٍ من الصواريخ ونيران المدفعية والقصف الجوي.

تجمد القتال خلال فترة شتاء وربيع عام ١٩٩٦م بعد مقتل آلاف المدنيين. وفي منتصف الشتاء أرسلت الأمم المتحدة معونة جوية حملت الطعام إلى العاصمة. وفي شهر يونيو/حزيران عاد حكمتيار إلى الظهور مرة ثانية ليتقلد منصب رئيس الوزراء الذي سبق أن رفضه قبل ذلك. فاستقبل في العاصمة بمائتين وعشرين صاروخًا أطلقتها طالبان. وفي ذلك الوقت كان مسعود — بصفته قائدًا في حكومة رباني — ودوستم وحكمتيار قد نحّوا خلافاتهم جانبًا. وبعد قتال عنيف دار في هازاراجات كان النصر فيه لطالبان، انضم كريم خليلي قائد حزب الوحدة الشيوعي إلى تحالف الحكومة.

في أواخر شهر أغسطس/آب قام الملا عمر بتحريض طالبان على الهجوم على شرق العاصمة، وتساقطت القواعد العسكرية مثل قطع الدومينو أمام هجماتهم. وما إن حل شهر سبتمبر/أيلول حتى كانت قواتهم قد توغلت في الجبال والممرات لتستولي على جلال أباد، ثم اتجهت طالبان إلى الشمال الغربي حيث توجد قاعدة باجرام شمال العاصمة. وانتهى الأمر بخروج مسعود من كابول الذي لا يعد هزيمة في الواقع. ولأن الاستيلاء على جلال أباد تسبب في قطع الطريق المؤدي إلى باكستان، فقد كان وصول طالبان إلى باجرام يعني قطع كل الطرق المتجهة إلى الشمال والتحكم في مدخل وادي بانجشير وطريق سالانج السريع. وفي هذه الحالة كانت كابول ستقف وحدها قبل حلول الشتاء تعاني فقرًا لا في الطعام والوقود فقط وإنما في الذخيرة أيضًا. وفي غضون ذلك كان مسعود يراقب هذه المدينة التي عجت بالبشتون الأصوليين التابعين لحكمتيار، وبقايا الأحزاب الأخرى وقلة ضئيلة من الشرطة السرية الأفغانية وبعض الميليشيات الشيعية. وفي مساء السادس والعشرين من سبتمبر/أيلول من عام ١٩٩٦م أخلى مسعود كابول، ومعه كل ما استطاع أعوانُه الطاجيك المخلصون حملَه، ليعود إلى وادي بانجشير الذي لقب بأسده قبل ذلك.

وفي اليوم التالي دخلت طالبان العاصمة دون قتال — ولأنهم كانوا لا يعبئون بالأعراف الدولية فقد هاجموا مقر الأمم المتحدة حيث كان يختفي نجيب الله القائد الشيوعي السابق، فقتلوه هو وأخاه، ثم علقوا جسده المخصي على الملأ.

وفي خريف عام ١٩٩٦م اتجهت طالبان إلى شمال كابول، إلا أن مسعود استطاع بدعم من قوات دوستم الأوزبكية ردهم على أعقابهم. وحين وصلت قوات طالبان إلى طريق سالانج السريع قام مسعود بنصب كمين قتل فيه مائة وخمسين من عناصر طالبان. وتمكن دوستم من إغلاق النفق وصد هجمات أخرى شنتها طالبان في سالانج في حين شن مسعود هجومًا مضادًا في شاريكار وباجرام تقدم خلاله حتى صار على بعد بضعة أميال من العاصمة.

توقفت العمليات الحربية توقفًا جبريًّا بسبب حلول الشتاء، لكنه ما إن انقضى حتى شنت طالبان معركة جديدة في عام ١٩٩٧م استولت في أثرها على باجرام، إلا أن الأمر الأكثر خطورة هو أنها بدأت في تسديد ضربات قوية من اليسار في اتجاه هرات. واستدار دوستم ليقاتلهم غرب مزار شريف، إلا

أن أحد قادته ويدعى عبد الملك انحاز فجأة إلى جانب طالبان ومكنهم من الاستيلاء على المدينة في شهر مايو/أيار، ووجدت طالبان نفسها تحكم بلدًا حديثًا – بمعايير أفغانستان – يضم الأوزبك والطاجيك والتركمان والهازارا. وبدأ البشتون الراديكاليون بثقتهم العمياء بأنفسهم في تطبيق قوانين طالبان، إلا أنهم ارتكبوا خطأ كبيرًا في محاولتهم تجريد الهازارا من السلاح، فاشتعل القتال من جديد، لكن عبد الملك ارتد مرة أخرى لولائه القديم وهو في مؤخرة جيش طالبان. وكانت هذه كارثة لطالبان حيث حوصر حوالي ثلاثين ألفًا من طليعة الجيش وقتلوا. وفيما بعد عثروا على قبور جماعية تكومت فيها جثث قتلاهم وقد قتل كثير منهم بعد استسلامهم.

دعا مسعود إلى اجتماع لقادة القوات التي كانت لا تزال تصد هجمات طالبان، وتمخض هذا الاجتماع عن تشكيل الجبهة المتحدة لتحرير أفغانستان، أو التحالف الشمالي كما اشتهرت به. وكانت مشكّلة من قادة العشائر الأخرى عدا البشتون وتحت قيادة مسعود. وفي ذلك الوقت كانت قوانين طالبان في الحكم قد انتشرت أخبارها بين الناس، فأصبحت المرأة لا قيمة لها ولا حق لها في العمل أو التعليم وكانت العدالة تطبق من خلال قطع أيدي الناس أو آذانهم أو رءوسهم تبعًا لنوعية الجرم الذي ارتكبوه. وكان الرجم هو جزاء جريمة الزنا، كما مُنع التليفزيون والموسيقى والتصوير والصفير وإطلاق الطائرات الورقية. وكانت النساء يتعرضن للضرب إذا ما كشفت إحداهن يدها أمام الناس، أو إذا ارتدت إحداهن جوارب بيضاء، وألزم الناس بإسدال الستائر السوداء على نوافذ بيوتهم. الواقع أن طالبان نجحت في فرض النظام على البلاد، ولكنه كان نظامًا مخيفًا قاسيًا ينتمي إلى العصور الوسطى. وكان القمع الذي يلاقيه الأفغان على يد «جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» قد أثار من استيائهم. أما عن مناطق البشتون فلم تتأثر كثيرًا؛ فقبل الغزو السوفييتي لم تتجاوز نسبة النساء اللاتي يعرفن القراءة والكتابة في هذا الإقليم أكثر من ١٠٪ في مقابل نصف عدد رجاله.

وفي يوليو/تموز من عام ١٩٩٨م شنت طالبان معارك جديدة ضد الشماليين أسفرت عن انتزاع طاليكان من مسعود في الشرق، ومزار شريف من دوستم. وفي مزار شريف انتقمت طالبان لكارثتها الأخيرة بذبح كل من وقع تحت أيديها من الهزارا. وبلغ عدد القتلى ستة آلاف، كما قتلوا أيضًا

ستة من الدبلوماسيين الإيرانيين العاملين في القنصلية مما دفع إيران إلى حشد سبعين ألفًا من قواتها على الحدود الأفغانية. وقرب نهاية العام استعاد مسعود طاليكان التي كانت تلعب دورًا حيويًّا في استقبال الأسلحة الواردة من طاجيكستان وروسيا ... إلا أنه اضطر إلى التخلى عنها حين وجهت إليه طالبان ضربة أخرى من قندوز.

وخلال عام ١٩٩٩م ظلت المدن الشمالية تتنقل من حكم إلى آخر فيما بينها إلى أن وقعت المعركة الكبرى حين تصدى مسعود لهجمة من طالبان شمال باجرام قتل فيها ألف شخص. أما في هازارات فقد استمر القتال سجالًا لمدة عامين حتى استولت طالبان على باميان. وفي ربيع عام ٢٠٠١ أفاق العالم على ما يدور من صراع في أفغانستان حين نسفت طالبان تمثالا بوذا الضخمين اللذين كانا قد نحتا في جرف شاهق الارتفاع في باميان خلال القرنين الثالث والخامس الميلادي. وإذا كان قيام حركة طالبان قد ولّد نوعًا من الأمل في نفوس المتابعين الغربيين للموقف هناك، فإن مشهد تدمير تمثالي بوذا كان دليلًا دامغًا على طبيعة أولئك الناس المختلة.

بعد الاستيلاء على طاليكان مرة أخرى أصبحت طالبان تسيطر على ٩٠٪ من البلاد. وكان التحالف الشمالي قد انكمش في ركن بالقرب من حدود طاجيكستان، وكانت أهم بقعة فيه هي وادي بانجشير موطن مسعود الأصلي الذي يؤدي إلى كابول. وكان مسعود ما زال يرفض أن يسمح لطالبان بالسيطرة على كل أفغانستان، وكان الملا عمر الذي يحكم من منزله الذي يقع بالقرب من قندهار غير معترف به من المجتمع الدولي كحاكم فعلي لأفغانستان، ومن المستبعد أن يتغير هذا الوضع طالما ظل التحالف الشمالي في الساحة. ولم يكن مسعود بقواته المحدودة قادرًا على صد هجمات طالبان بمفرده، وكان يأمل في أن يدرك العالم الوجه الحقيقي القبيح لحركة طالبان ويأتي لنصرته، ولقد حدث هذا بالفعل، لكن مسعود لم يقدر له أن يعيش ليرى هذا بعينيه.

كان أسامة بن لادن قد غادر أفغانستان في عام ١٩٩٠م، ثم توجه إلى الخرطوم بالسودان في عام ١٩٩٢م بعد جدال عنيف مع العائلة المالكة السعودية حول نتائج حرب الخليج. فقد كان يعارض بشدة حل قضية الكويت عن طريق القوات الأمريكية، ومما روعه أكثر أن الولايات المتحدة بعد انتصارها

أنشأت لها قواعد عسكرية ثابتة في الأراضي السعودية. وفي السودان — التي كانت في ذلك الوقت موطنًا لحركة إسلامية شرسة موجهة بشكل أساسي ضد الأقلية السوداء في الجنوب — بدأ بن لادن في تشكيل تنظيم القاعدة من المحاربين المسلمين الذين خرجوا من عباءة الحرب السوفييتية في أفغانستان، واستهدف هذا التنظيم الذي ضم أفرادًا من ثلاثة وأربعين دولة، إعلان الجهاد العالمي لنصرة الإسلام، إلا أن الوسائل التي كانت تتخذها لتحقيق هذا الغرض تماثل ما كان يفعله الحشاشون في القرون الوسطى الذين قضى عليهم المغول عام ١٢٥١م.

حاولت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أن تراقب بن لادن عن كثب، واضعة في اعتبارها المآسي التي تعرض لها الأمريكيون في الصومال، ثم تفجير مركز التجارة الدولي بالإضافة إلى عمليات إرهابية أخرى. وفي عام ١٩٩٥م انفجرت قنبلة في خمس من الجنود الأمريكيين في المملكة العربية السعودية، وبعدها بأشهر قليلة قتل تسعة عشر آخرون بعد أن انفجرت فيهم شاحنة مليئة بالمتفجرات في إحدى الثكنات العسكرية في مدينة الظهران السعودية. وفي عام ١٩٩٤م أسقطت المملكة العربية السعودية الجنسية السعودية عن بن لادن، كما طلبت الحكومة السودانية منه أيضًا مغادرة البلاد بعد حادثة الظهران. ولم يكن لهذه التحركات الرسمية التي تمت بضغط من الولايات المتحدة الأمريكية أثر في الدعم الحقيقي الذي وجده بن لادن في الشرق الأوسط، ومع ذلك فقد كان بحاجة إلى موقع جغرافي آمن يبني فيه منظمته وينميها. وفي مايو/أيار من عام ١٩٩٦م عاد إلى أفغانستان ولجأ إلى الكهوف التي كان قد شيد الآلاف منها في شقوق الجبال. ولأن أفغانستان كانت دائمًا من أكثر الأراضي وعورة وقسوة في العالم، فقد أضافت إلى ذلك أيضًا أنها تحت حكم طالبان أصبحت من أكثر الدول عداوة للأجانب بعد أن استحوذت عليها دعوة الإسلام الأصولي المتشدد دون أدنى اهتمام برأي بقية العالم.

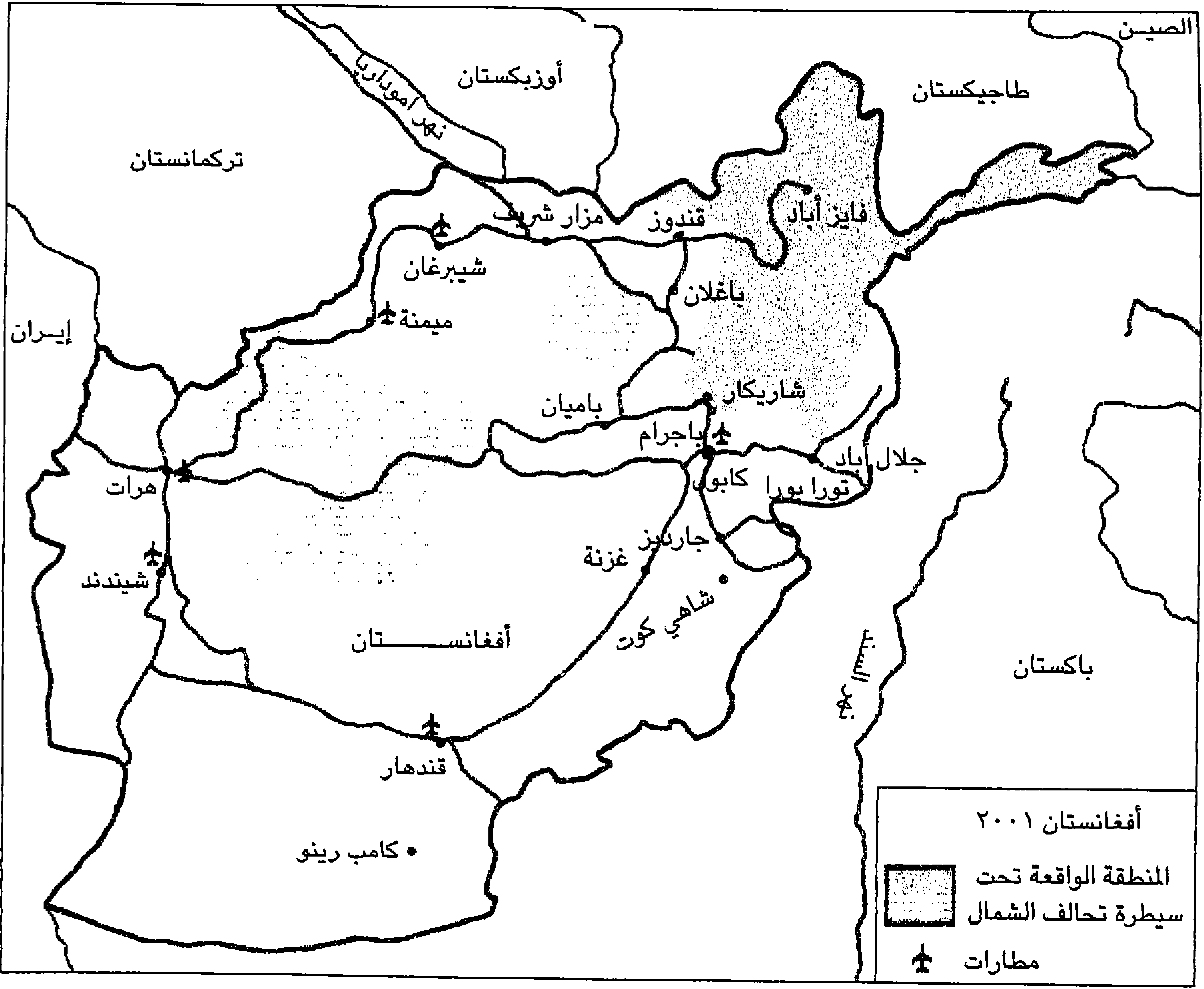
في أغسطس/آب من عام ١٩٩٨م حدث تفجيران في سفارتي الولايات المتحدة في عاصمتي كل من كينيا وتنزانيا في وقت واحد تقريبًا، وقتل في الحادث اثنا عشر أمريكيًا ومائتان واثنا عشر أفريقيا، كما جرح حوالي ألفين. استطاعت المخابرات الأمريكية أن تثبت ضلوع القاعدة في هذين الهجومين.

ولم يمض أسبوعان حتى كان الأمريكيون قد أطلقوا اثنين وسبعين صاروخًا موجهًا على قواعد بن لادن الموجودة حول خوست وجلال أباد. كما دمرت صواريخ أخرى مصنعًا في الخرطوم قال عنه السودانيون بعد ذلك إنه مصنع لإنتاج الأدوية. وحدث في شهر أكتوبر/تشرين الأول من ذات العام أنه بينما كانت المدمرة الأمريكية كول تتزود بالوقود في ميناء عدن باليمن تعرضت لتفجير انتحاري ترك بها ثقبًا كبيرًا في جانبها، وخلف سبعة عشر قتيلًا وثلاثة وتسعين جريحًا من البحارة الأمريكيين، وتبين أن مفجري القنبلة كانا اثنين من الانتحاريين اليمنيين الذين ينتمون إلى القاعدة. ولأن الانتخابات الأمريكية كانت على الأبواب فلم تستطع الولايات المتحدة أن ترد على هذه الهجمات باستخدام القوة، ولكنها تعهدت بأن تكثف من جهودها الاستخبارية ضد بن لادن. وبحلول عام ٢٠٠١م كان كلينتون قد أنهى فترة حكمه لأمريكا وانتقلت السلطة إلى جورج دبليو بوش ابن الرئيس السابق بوش الذي فاز بشق الأنفس على منافسه ألبرت جور Albert Gore نائب كلينتون في انتخابات أثارت جدلًا واسعًا. وكان برنامج بوش الانتخابي يركز على عدة أمور، وهي: خفض الضرائب، والاهتمام بالتعليم، وبناء درع صاروخي أمريكي قائم على أحدث التقنيات المتاحة.

خلال عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠١م وبعد أن ثبتت طالبان دعائم حكمها في أفغانستان فيما عدا قطعة الأرض الواقعة في الشمال والتي يسيطر عليها مسعود العنيد، بدأ أسامة بن لادن تعاونه مع الملا عمر. وقد وجد زعيم طالبان المنبوذ من المجتمع الدولي عند بن لادن شبكة دولية ممولة جيدًا تضم المقاتلين والمثقفين الذين وهبوا أنفسهم للجهاد. واستفاد بن لادن من نموذج طالبان فاستعان بالمدارس الإسلامية في أفغانستان وباكستان كمحطات لتخريج تلاميذ متميزين ومستعدين لتلقي التدريبات العسكرية وتنفيذ العمليات الإرهابية. كما أسهم الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني المشتعل بالإضافة إلى المعركة الدائرة بين باكستان والهند حول كشمير؛ في إفراز سيل متدفق من الشباب التواق ليكون في مقدمة المجاهدين دفاعًا عن الإسلام. كان من الواضح أن بن لادن له نظرة أكثر بعدًا ولا تقل تعصبًا عن جماعة طالبان، وعلى العموم فإن ما كان يجري من إراقة الدماء في فلسطين وكشمير كان حافزًا أدى بهم إلى كسب الكثير من المتطوعين الجدد.

ظل الموقف العسكري في أفغانستان متجمدًا حيث لم يكن أمام قوات التحالف الشمالي أي مجال للتراجع في حين كانت قوات طالبان عاجزة عن التغلب على ما بقي من الأراضي القليلة التي يسيطر عليها مسعود. إلا أن أسامة بن لادن أثبت لمضيفيه جدارته بهذه الاستضافة، ففي أواخر الصيف سمح مسعود لاثنين من الصحفيين الجزائريين الذين يحملون بطاقات صحفية بلجيكية بإجراء حوار معه. وكان قد ماطل كثيرًا في قبول إجراء هذا اللقاء الصحفي إلا أنه وافق في النهاية وحدد لهما ميعادًا. وأثناء الحوار انفجرت فجأة قنبلة كانت مخبأة في الكاميرا التي كان الصحفيان يحملانها لتصيب مسعودًا بجراح بالغة، لقد كان هذان الصحفيان أعضاء في تنظيم القاعدة.

تعلق مسعود بالحياة في عناد للحظات قليلة، إلا أنه توفي في الطائرة أثناء نقله إلى إحدى المستشفيات في طاجيكستان، وخلال الساعات الأربع والعشرين التي تلت الانفجار كان قادة طالبان في غاية الفرح والانتشاء لرحيل خصمهم اللدود. ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن تنظيم القاعدة كان على وشك تنفيذ عملية سرية أخرى، وأنه في اليوم التالي سيحدث في الجانب الآخر من العالم حدث سيحدد مصير طالبان المستقبلي. كان المكان هو الولايات المتحدة الأمريكية، وكان الزمان هو الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر/أيلول من عام ٢٠٠١م.


أفغانستان ٢٠٠١
المنطقة الواقعة تحت سيطرة تحالف الشمال
مطارات
الصين
طاجيكستان
أوزبكستان
نهر اموداريا
تركمانستان
إيران
فايز أباد
قندوز
مزار شريف
شيبرغان
باغلان
ميمنة
شاريكار
باميان
باجرام
جلال أباد
كابول
تورا بورا
هرات
جاريز
غزنة
شاهي كوت
شيندند
أفغانستان
باكستان
نهر السند
قندهار
كامب رينو

الفصل الثاني عشر

الأمريكيــون

كان صباحًا جميلًا مشرقًا وكانت سماء نيويورك زرقاء صافية، وبينما كانت إحدى السيدات الشابات في طريقها إلى عملها إذ سمعت هدير محركات طائرة نفاثة يطغى على ضوضاء الشارع فرفعت عينيها إلى أعلى لترى على حد قولها: «طائرة تحلق على ارتفاع منخفض جدًا». وبعد ثوان قليلة سمعت صوت انفجار دوّى كالرعد، وشاهدت دخانًا يتصاعد من بين قمم المباني العالية. وحين هرعت إلى حي «ذي أمريكاز» رأت الطائرة وقد اصطدمت ببرج مركز التجارة العالمي الشمالي أسفل قمته بقليل. لم يكن الوقت قد تجاوز التاسعة صباحًا وكان المبني قد امتلأ بموظفيه.

وعلى الفور أسرعت جميع المحطات الإخبارية الأمريكية بجميع قنواتها تذيع تقارير عن الكارثة. وفي نيويورك، تذكر الجميع ما حدث عام ١٩٤٥م عندما ارتطمت طائرة مقاتلة أمريكية بمبنى الإمبايرستيت الذي كان وقتها أطول مبنى في العالم. وكانت تلك الحادثة التي حدثت ذات صباح امتلأ بالضباب قد أسفرت عن مقتل أربعة عشر شخصًا. وحدث أنه في ذلك اليوم ١١ سبتمبر/أيلول، اتصل أحد شهود العيان بمحطة إن بي سي بنيويورك ليقول إن الطائرة حاولت أن تتفادى الارتطام في اللحظة الأخيرة لكنها لم تستطع. ولدقائق قليلة شخصت أبصار الناس يحدقون فيما بدا حادثًا مأساويًا باهظ التكاليف ولكنه غير متعمد.

لكن هذا الاعتقاد لم يدم طويلًا إذ لم تمض عدة دقائق حتى اندفعت طائرة ثانية من صوب نيو جيرسي عابرة خليج نيويورك لتصطدم ببرج مركز التجارة الجنوبي، وانفجرت كرة لهب أخرى فوق حي المال في مانهاتن وأخذ البرجان يقذفان نارًا ودخانًا على ما حولهما، وهنا بدأ ملايين المشاهدين، سواء

شهود العيان أو أولئك الذين يتابعون الموقف على شاشة التلفاز، يفكرون في فزع أنه من المحتمل أن تكون بلادهم تتعرض لهجوم. وبعد خمسة وعشرين دقيقة من الهجوم على البرج الثاني، ارتطمت طائرة أخرى بمبنى البنتاجون في واشنطن، لقي على إثرها ١٨٤ شخصًا مصرعهم. وتوالت تقارير أخرى (ثبت كذبها بعد ذلك) عن انفجار حدث في مبنى وزارة الخارجية.

وبعد نصف ساعة سقطت طائرة أخرى في ريف بنسلفانيا دون سبب واضح، وعلى الفور قامت هيئة الطيران الفدرالي بغلق جميع المطارات، وأصدرت أوامرها إلى حوالي ألفي طائرة كانت تحلق في الجو بالهبوط اضطراريًا. كانت المشكلة أن هناك حوالي اثني عشر طائرة كانت تحلق على مسافات عالية فوق المحيط الأطلسي معظمها متجه إلى نيويورك وواشنطن ولم تكن تستجيب إلى نداءات الراديو.

وفي نيويورك كان البرجان التوءمان المحترقان يمثلان أصعب موقف واجهته إدارة المطافئ على الإطلاق. فقد هرعت عربات الإطفاء من جميع أنحاء مانهاتن وتبعتها عربات أخرى من بروكلين، وكوينز، وبرونكس، وستاتن آيلاند إلى مكان الحادث، وامتلأت المدينة بصدى صافراتها وصافرات سيارات الشرطة. كان أصعب ما في الأمر هو إخلاء المكان من الموظفين المدنيين أولًا، الذين كان يبلغ عددهم حوالي خمسين ألفًا في يوم عادي غير مزدحم، ثم فرض النظام وتوفير المساعدة بعد ذلك، وأخيرًا — إذا كان ذلك ممكنًا — إطفاء النيران. وبينما كان رجال شرطة نيويورك يقيّمون الموقف، كان مئات من رجال الإطفاء يقتحمون المبنيين، وهم يرتقون درجات البرجين اللذين يبلغ عدد طوابق الواحد منهما مائة وعشرة طوابق، فقد كانت المصاعد قد توقفت.

وفي داخل المبنيين، كان الموظفون بهما يهبطون الدرج فيما عدا هؤلاء الذين علقوا في طوابق تعلوا نقطة الاصطدام. وهرع أحد الشبان الذين كانوا في البرج الجنوبي ليهبط خمسين طابقًا بعد أن علم بالاصطدام في البرج الشمالي، وقال: «كل ما كنت أفكر فيه هو أطفالي.» في حين تمهل البعض الآخر وهم يساعدون النساء والأشخاص المسنين في نزول السلم ويبحثون عن الجرحى أو المعاقين أو أي شخص آخر ما زال في المكان.

وعندما بلغت الساعة التاسعة وخمسين دقيقة صباحًا انهار البرج الجنوبي، مخلفًا موجة عاتية من الدخان وكتل الحجارة تطارد آلاف المدنيين في شوارع

المنطقة الجنوبية من مانهاتن، وقد لاحظ المعقبون على الأخبار في التليفزيون أن نقطة الاصطدام في البرج الجنوبي كانت تنخفض عن نقطة الاصطدام في البرج الشمالي، كما أن الطائرة الثانية استطاعت أن تدمر أحد أركان البرج. ولم تمض لحظات حتى انهار البرج الشمالي بدوره، ومع أن الاصطدام كان بالقرب من الجزء الأعلى للبرجين، فإنهما تحطما تمامًا، وامتد التدمير إلى عدد من المباني المحيطة بهما. وقد فقد في الحطام ثلاثمائة وثلاثة وأربعون رجلًا من رجال الإطفاء الذين كانوا قد هرعوا إلى مكان الكارثة، وعدد لا حصر له من رجال شرطة نيويورك ورجال شرطة الميناء بالإضافة إلى ألفين وخمسمائة مواطن كانوا متوجهين إلى أعمالهم في هذا اليوم. وقبل أن يغطي المكان غبار حطام المبنيين الذي كان وزنه يصل إلى ملايين الأطنان، رأى الكثيرون مشهدًا رهيبًا للعشرات من الأشخاص الذين احتجزتهم النيران الناتجة من وقود الطائرات المشتعل فصاروا كأنهم في الجحيم فقفزوا من البرجين ليلقوا حتفهم بدلًا من انتظار الموت.

أثار الانهيار الكامل للبرجين دهشة أسامة بن لادن نفسه مثلما أثار دهشة الجميع، ففي شريط مسجل استولت عليه القوات الأمريكية فيما بعد اعترف لأعوانه المقربين، بأنه لم يتوقع أكثر من احتراق الطوابق التي تعلوا نقطة الاصطدام، أما ذلك الدمار التام فقد فاجأه كما فاجأ الشعب الأمريكي الذي رأى الحادث، ورجال الإطفاء بنيويورك الذين كانوا في الموقع. كان من الواضح أنه أثناء مرحلة التخطيط لهذه العملية لم يتوقع أحد من هؤلاء العرب أن هاتين الطائرتين ثنائيتي المحرك قادرتان على أن تزيلا من الوجود ستة عشر فدانًا من المنطقة الجنوبية لمانهاتن. وفيما بعد قال بن لادن ورفاقه إن هذا ليس إلا توفيقًا من الله.

في ذلك الوقت كانت الولايات المتحدة تحاول أن تستوعب ما حدث. كانت التقديرات المبدئية لعدد القتلى تشير إلى عشرة آلاف أو أكثر. فاقت خسائر هذا الهجوم خسائر حادث بيرل هاربور الذي قتل فيه ألفان وأربعمائة وثلاثة ضحايا نصفهم من البحارة الذين كانوا على البارجة الحربية «أريزونا». أما هجوم ١١ سبتمبر/أيلول فقد تعدى كل التقديرات، لقد كان كارثة لم يسبق لها مثيل في تاريخ أمريكا بأكمله. وبعد ساعات تواترت الأخبار بأن الوضع كان من الممكن أن يكون أسوأ. فطائرة الرحلة ٩٣ والتي تحطمت في بنسلفانيا

كانت قد اختطفت من قبل جماعة من الإرهابيين، إلا أن الركاب كانوا قد علموا من خلال هواتفهم المحمولة بالهجوم على نيويورك وعلى البنتاجون، وقرروا استعادة السيطرة على الطائرة من جديد. فهرع مجموعة من الأمريكيين نحو كابينة القيادة استجابة إلى إشارة من شاب يدعى تود بيمر Todd Beamer صرخ قائلًا: «دعونا نتحرك.» وفي ذلك الوقت كانت الطائرة قد استدارت حول بيتسبرج لتتجه إلى العاصمة واشنطن. وقد أظهر جهاز التسجيل الصوتي الذي كان على الطائرة بعد ذلك أصوات شجار في كابينة القيادة مع بعض الجمل باللغة العربية والإنجليزية بعدها هوت الطائرة وارتطمت مقدمتها بالأرض، ولولا شجاعة ركاب الرحلة ٩٣ لكانت أمريكا قد أعلنت الحداد على فقدانها البيت الأبيض أو مبنى الكابيتول بكل من كان فيهما لتزيد من أهوال ذلك اليوم.

كان الرئيس بوش في ذلك الوقت في فلوريدا، ثم توجه إلى قاعدتي لويزيانا ونبراسكا الجويتين. لكنه عاد إلى البيت الأبيض في مساء ١١ سبتمبر/أيلول ليوجه خطابًا إلى الشعب الأمريكي قائلًا: «اليوم رأت أمتنا شرًّا.» ثم بدأ يستخدم كلمات تعبر عن عواطف جياشة تصطبغ بطابع مسيحي سوف يستخدمها كثيرًا خلال الحرب القادمة، فقد اقتبس من المزمور الثالث والعشرين قائلًا: «عندما أسير في الوادي يظللني الموت، لا أخشى شرًّا، فأنت معي.» وفي خطابه الموجز هذا، أعلن عن النطاق الذي سيتم من خلاله الرد الانتقامي الأمريكي فقد قال: «لن نميز بين الإرهابيين الذين ارتكبوا هذه الأفعال وبين هؤلاء الذين يُئونهم ويساندونهم.»

لم تستغرق أجهزة المخابرات الأمريكية سوى يوم واحد لتحدد هوية الإرهابيين الذين قاموا بهذا العمل والمحرضين عليه، بل وحصلت على صور تظهر وجوههم واضحة ورصدت آخر تحركاتهم، وأكدت صلتهم بتنظيم القاعدة الذي يرأسه أسامة بن لادن. كانت الاتصالات التي تم تعقبها، والبيانات التي جُمعت بواسطة المخابرات المركزية الأمريكية ومكتب التحقيقات الفدرالية ووكالة الأمن القومي قبل حدوث العملية تشير إلى أن شيئًا ما سوف يحدث، إلا أنهم لم يتمكنوا من معرفة أين ومتى وكيف وبالطبع لم يعرفوا أبدًا حجم العملية. ولم تتجمع كل هذه الخيوط إلا بعد الهجوم، الذي قام به تسعة عشر انتحاريًّا اختطفوا هذه الطائرات، تبين أن خمسة عشر منهم سعوديو

الجنسية قاموا بالتنسيق لهذه العمليات الأربع المنفصلة من مواقع مختلفة على الساحل الشرقي.

خصص الكونجرس ٤٠ بليون دولار لمكافحة الإرهاب، مع أن بوش في واقع الأمر قد حصل على حساب مفتوح يوم ١٤ سبتمبر/أيلول حين صوت مجلس الشيوخ بإجماع الآراء على إعطائه سلطة «استخدام القوة بأي شكل كان طالما هو لازم وضروري». وبعدها ألقى الرئيس الأمريكي بالقفاز في وجه العالم بأسره حين قال: «من ليس معنا فهو ضدنا.» وكان هدفه خلق تحالف من الدول يساند أمريكا في ردها على أحداث ١١ سبتمبر/أيلول يفوق التحالف الذي جمعه والده إبان حرب الخليج عام ١٩٩٠م.

كانت الخطوة الأولى من جانب الأمريكيين هي مطالبة حكومة طالبان بتسليم أسامة بن لادن. لكن الملا عمر رفض هذا رفضًا قاطعًا، فتوجه وفد باكستاني برئاسة الجنرال فايز الجيلاني رئيس جهاز المخابرات الباكستانية إلى قندهار لإقناع عمر بتسليم بن لادن ورفاقه أعضاء تنظيم القاعدة. فحاولت طالبان المساومة، وعرضت الاعتراف بها دبلوماسيًّا ووقف الدعم الأجنبي للتحالف الشمالي، مع استعادة المعونة الأجنبية مقابل هذا. كما طالب عمر أيضًا «بالدليل المقنع» على تورط بن لادن في هذه العملية. في ذلك الوقت سادت حالة غريبة من الغليان في العالم الإسلامي فقد أعلن الكثيرون اعتقادهم في براءة بن لادن، وكانت صوره توزع في المظاهرات، وتعلق في ملصقات كبيرة في حجرات المعيشة في منازل الأسر العربية فقد أصبح بن لادن في نظر العالم الإسلامي رجلًا خارقًا يُعجز السلطات التي تطارده، وهي صورة عززها تصميم أمريكا على القضاء عليه، والذي أعلنه بوش حين طالب برأسه «حيًّا أو ميتًا» على حد قوله.

وكان من حسن الحظ أن طالبان حتى ذلك الوقت لم تقم بنفي بن لادن، بل سمحت له بالتسلل خارج البلاد ومن ثم فقد نجحت في أن تجعل رد الفعل الأمريكي يقتصر على عمل مخابراتي بوليسي، قيل وقتها إن الملا عمر — الذي كان قد حارب ضد الاتحاد السوفييتي — لم يكن لديه فكرة واضحة عن مدى قوة أمريكا، فقد كان يتصور أن قوتها تزيد بعض الشيء على القوة كان يمتلكها الجيش الأحمر في الثمانينيات، وكان قصر النظر هذا هو الذي عجل بسقوط طالبان، وحين فشلت جهود الوفد الباكستاني أمام

ملالي طالبان، وجدت الولايات المتحدة هدفًا واضحًا تصب عليه جام غضبها، وهو أفغانستان.

خلال السنوات العشر التي تلت الحرب الباردة، كانت القوة العسكرية الأمريكية قد حققت قفزة هائلة في التسليح المتطور، وكان التقدم التكنولوجي الحادث في السنوات الأخيرة آخذًا في التزايد سنويًّا. إلا أن قوة أمريكا الحقيقية كانت تكمن في امتداد نفوذها العالمي بما تمتلكه من قوات بحرية وجوية كافية لدعم شبكة من القواعد العسكرية المنتشرة حول العالم، ففي ١١ سبتمبر/أيلول كان للولايات المتحدة خمسة عشر ألف جندي في الشرق الأوسط، منهم خمسة آلاف ومائتان في المملكة العربية السعودية، وأربعة آلاف وثمانمائة في الكويت، وألفان في تركيا، وألفان وسبعمائة في قواعد أخرى منتشرة ما بين دييجو جارسيا والبحرين. بالإضافة إلى مجموعتين من السفن الحربية تم بناؤهما حول حاملتي الطائرات كارل فينسون الموجودة في الخليج العربي، وإنتربرايز الموجودة في شمال بحر العرب. وفي التاسع عشر من سبتمبر/أيلول تحركت حاملة الطائرات ثيودور روزفلت المزودة برءوس نووية بمجموعتها الحربية من نورفولك في فرجينيا، في حين كانت حاملة الطائرات كيتي هوك تبحر — بعد أن تخلصت من طائراتها النفاثة حتى تتمكن من حمل المروحيات من قواعدها في اليابان إلى مسرح الأحداث.

في غضون ذلك، كان المخططون العسكريون محتارين في وضع خطة مناسبة لمحاربة أفغانستان، فقد قال وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد Donald Rumsfeld: «إن العديد من الجيوش قد تعاقبت على هذا البلد حتى لم تترك فيه ما نستطيع أن نضربه بسهولة.» أما جريدة النيويورك تايمز، فقد نشرت تعليقًا لأحد مسئولي إدارة كلينتون السابقة على هذه المشكلة حيث قال: «حين نظرنا في مسألة أفغانستان قبل ذلك، أحسسنا بأننا سوف نضرب أناسًا ينتمون إلى العصر الحجري، فلا يوجد في تلك البلاد التي افترسها الفقر ما يستحق الهجوم.» كان الشعب الأمريكي قد تعود على «دبلوماسية الصواريخ الموجهة»، إلا أن هذه الحرب القادمة كانت تحتاج إلى أن يكون الجيش الأمريكي أكثر قربًا من هدفه. وقد أدرك بوش عدم جدوى استخدام الأسلحة المتطورة في بلاد طحنتها حرب دامت عقدين من الزمان، فقد قال: «ما جدوى ضرب خيمة يبلغ ثمنها عشرة دولارات بصاروخ يبلغ ثمنه مليوني دولار؟» ولذلك

فقد أصدر أوامره بالتحرك إلى القوات الخاصة المتمركزة في فورت براج شمال كارولينا، وفورت كامبل وكنتاكي، ووحدات الفرقة الجبلية العاشرة في قاعدة فورت درام في نيويورك. وتم هذا التحرك تحت قيادة الجنرال تومي فرانكس Tommy Franks رئيس القيادة المركزية للجيش الأمريكي المتمركزة في قاعدة ماك جيل الجوية بالقرب من تامبا في فلوريدا.

كان رد الفعل العالمي تجاه هجوم ١١ سبتمبر/أيلول هو مزيج بين الشعور بالتعاطف مع الضحايا الأبرياء، والخوف من رد فعل أمريكي عنيف، والاهتمام بما سوف تسفر عنه المواجهة بين الولايات المتحدة والمتطرفين الإسلاميين. وفي إسرائيل ألغى آرييل شارون رئيس الوزراء الإسرائيلي مباحثاته التي كانت مزمعة مع ياسر عرفات رئيس السلطة الفلسطينية، مفترضًا أنه بعد ١١ سبتمبر/أيلول سوف يتلاشى ضغط الولايات المتحدة على إسرائيل للقيام بتسوية مع الفلسطينيين. وأعلنت روسيا دعمها للولايات المتحدة متوقعة أن يتوقف العالم عن انتقادها بسبب حربها ضد المتطرفين الإسلاميين في الشيشان، وكذلك كشرت الهند عن أنيابها للإرهابيين المسلمين الذين كانوا يحاربونها في كشمير. كما رحبت أوزباكستان، وطاجيكستان وقيرغيزستان بمبعوثي الولايات المتحدة الذين طلبوا من هذه الدول إقامة قواعد خدمية للقوات الأمريكية مقابل معونات تقدم لها، وسندًا يدعمهم في المنطقة ويحدث توازنًا أمام القوة الروسية الصاعدة.

أما أكثر الدول حساسية في وضعها فقد كانت باكستان التي خلقت طالبان واستمرت في دعمها حتى ١١ سبتمبر/أيلول، (استمرت باكستان في إرسال المعونات بحرًا إلى جلال أباد بزعم أن هذه الشحنات بقايا التزامات سابقة.) وكان الجنرال برفيز مشرف Pervez Musharaf، الذي تولى الحكم إثر حركة انقلاب قام به قبل عامين، قد تخلى عن طالبان، وأعلن للولايات المتحدة دعمه الكامل. وكانت الولايات المتحدة قد فرضت عقوبات على باكستان بعد أن أجرت تجربة نووية عام ١٩٩٤م، لكنها انتهزت الفرصة لاستعادة باكستان كحليف لها، لا سيما إذا ما ظهرت الحاجة إلى صراعها المستمر مع الهند. غير أن مشرفًا كان قد ارتاع من هجوم ١١ سبتمبر/أيلول، ورأى أن طالبان صارت كمسخ فرانكشتاين بدأت تتمرد على من أوجدها.

وفي يوم ٢٠ سبتمبر/أيلول، وجه بوش خطابًا فصيحًا إلى الكونجرس الأمريكي وإلى الشعب يدعوهم للحرب. وقد لاحظ الكثيرون أن الرئيس — الذي

كان معروفًا من قبل بروح الدعابة ولم يكن خطيبًا مفوهًا — بدا وكأنه تقمص شخصية جديدة، فقد اكتسبت نظراته صلابة وتصميمًا حين قال: «إن طالبان يجب أن تتحرك فورًا.» ثم أنهى خطابه الذي اكتسى بمسحة دينية واضحة بقوله:

> «إن مسار هذا الصراع ليس معروفًا، إلا أن النتيجة مؤكدة. فالحرب دائمًا ما تكون بين الحرية والقهر، وبين العدل والظلم، وكلنا يعلم من سينصر الرب ... ولسوف نقابل العنف بالقصاص العادل ولو بعد حين، ونحن على ثقة من عدالة قضيتنا وواثقين من أننا سننتصر. ولا نملك بعد هذا إلا أن نصلي للرب طالبين منه أن يسدد خطانا ويحفظ الولايات المتحدة الأمريكية.»

وكان رد فعل طالبان أن دعت إلى الجهاد «إذا ما اعتدى الكفار على دولة إسلامية» على حد قولهم. خلال الأسبوعين التاليين تحركت القوات الأمريكية إلى مواقعها، في حين زودت القواعد العسكرية الممتدة من إسبانيا إلى المحيط الهندي بالوقود والذخيرة. واستجابة لتقارير وردت عن حدوث مجاعة في أفغانستان، ورغبة في عدم إثارة عداوة العالم الإسلامي بأجمعه، قامت الولايات المتحدة بإسقاط كمية كبيرة من المعونات الغذائية من طائراتها على أفغانستان. وتم إلغاء الاسم الرمزي للحملة العسكرية القادمة «العدل المطلق» بعد أن أشارت مجموعة من النقاد إلى ما يحمله هذا الاسم من إيحاءات دينية، فتعبير «العدل المطلق» يستخدم للإشارة إلى الرب لدى المسيحيين، ومن ثم قد يفهم منه في هذا السياق أن رب النصارى قادم ليقاتل رب المسلمين. كما نصح مسئولو الإدارة الأمريكية بعدم استخدام لفظ «حرب صليبية» وفي الخامس والعشرين من سبتمبر/أيلول غُيِّر اسم هذه العملية العسكرية إلى «الحرية الدائمة».

وفي أوائل أكتوبر/تشرين الأول، كشفت الولايات المتحدة أمام مجلس حلف شمال الأطلنطي (الناتو) عن نتائج تحقيقاتها في أحداث هجوم ١١ سبتمبر/أيلول. وقد أشارت الدلائل بما لا يدع مجالًا للشك إلى مسئولية تنظيم القاعدة عن الهجوم. وكان توني بلير Tony Blair — رئيس وزراء بريطانيا — من أول المناصرين للقضية الأمريكية وقال: «إن هذه معركة ليس لها إلا نتيجة واحدة ... النصر لنا وليس لهم.» وفي السادس من أكتوبر/تشرين

الأول قال: «لقد وجهنا لهم تحذيرًا واضحًا، ولم يتبق أمامهم إلا القليل من الوقت.»

وفي اليوم التالي، السابع من أكتوبر/تشرين الأول، هاجمت قوات أمريكية وبريطانية أفغانستان، وحلقت فوق جبال الهندوكوش خمس عشرة طائرة مقاتلة انطلقت من مطارات برية، وخمس وعشرون أخرى انطلقت من بوارج حاملة طائرات، وأطلق خمسون صاروخًا من طراز توما هوك من السفن الحربية الأمريكية والغواصات البريطانية المتمركزة في بحر العرب. وكان الهدف هو تجمعات عناصر طالبان، ومركز قيادتهم العسكرية ومطاراتهم. وفي الساعات الأولى دُمرت قوة طالبان الجوية الصغيرة على الأرض ومعها الصواريخ المضادة للطائرات من طراز إس إيه-٢ (SA-2) وإس إيه-٣ (SA-3).

وحين انقشع الدخان، ألقى شخص مجهول بطرد على باب مكتب قناة الجزيرة في كابول، وهي قناة تليفزيونية عربية مقرها في قطر. وكان بداخل الطرد شريط فيديو ظهر فيه أسامة بن لادن يرتدي زيًّا عسكريًّا مموهًا وهو واقف بجوار صخرة وبجانبه بندقية، وبدأ حديثه بقوله: «ها هي ذي أمريكا، وقد أصابها الله سبحانه وتعالى في مقتل من مقاتلها، فدمر أعظم مبانيها.» واستمر في خطابه متحدثًا عن ثمانين عامًا تعرض الإسلام فيها للمذلة على يد أمريكا، وعن الأطفال العراقيين الجياع، والدبابات الإسرائيلية التي تعيث في أرض فلسطين فسادًا وعن القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا على اليابان. واختتم حديثه بتجديد ندائه للجهاد العالمي قائلًا:

> «لقد هبت رياح التغيير لإزالة الباطل! من جزيرة محمد صلى الله عليه وسلم، وأما أمريكا فأقول لها ولشعبها كلمات معدودة: أقسم بالله العظيم الذي رفع السماء بلا عمد! لن تهنأ أمريكا ولا من يعيش في أمريكا بالأمن! قبل أن نعيشه واقعًا في فلسطين وقبل أن تخرج جميع الجيوش الكافرة من أرض محمد صلى الله عليه وسلم. والله أكبر والعزة للإسلام.»

استمرت هجمات الولايات المتحدة بطائرات بي-١ (B-1)، والتي انطلقت من دييجو جارسيا، وقاذفات بي-٢ (B-2) المتسللة التي انطلقت من قاعدة

وايتمان الجوية بميسوري بسرعة تدنو من سرعة الصوت لتعبر نصف العالم. فيما نجحت طائرات إف-١٤ (F-14) وإف-١٨ (F-18) التي انطلقت من قاعدتي «إنتربرايز» و«كارل فنسون» في اكتساح قواعد طالبان التي من الواضح أنها أُخليت بسرعة. ثم ظهرت على المسرح طائرات الشبح إيه سي-١٣٠ (AC-130) التي حُمّلت بمدافع جاتلنج من عيار ٢٥ مم، ٤٠ مم، ١٠٥ مم وجميعها موجهة إلكترونيًا للتصويب على أهداف أرضية أثناء تحليق الطائرة فوقها.

وقد أثارت هذه الهجمات الجوية موجة من النقد تجاه الأمريكيين حيث أصيب مجمع الأمم المتحدة في كابول بطريق الخطأ، ولقي أربعة من العاملين به مصرعهم، وطبقًا لما أعلنته طالبان فقد قتل عشرات من المدنيين في قرية تسمى كارام. وفي نفس اليوم أصابت قنبلة أخرى زنة ألفي رطل منزلًا في العاصمة بطريق الخطأ لقيت خلاله عائلة بكاملها مصرعها. وقد أعلن عبد الحق — وهو أحد قادة المجاهدين السابقين الذين شاركوا في الحرب ضد السوفييت في كابول — أن قصف القنابل سوف يأتي بنتيجة عكسية، حيث سينحاز باقي الأفغان إلى طالبان. وكان جزء من المشكلة أن الولايات المتحدة لم تعد تجد أمامها أهدافًا عسكرية واضحة تضربها. وكان الجنرال مشرف — رئيس باكستان — قد شدد مرارًا على ضرورة أن يمتنع الأمريكيون عن قصف مواقع قوات طالبان التي كانت تواجه التحالف الشمالي بالقرب من كابول خوفًا من استيلاء الأوزبك-الطاجيك على العاصمة لأن هذا قد يؤدي إلى تكرار الموقف الذي تعرضت له البلاد عام ١٩٩٢م حينما انغمست في حرب أهلية مع البشتون.

وفي غضون ذلك، ظهرت أعمال إرهابية من نوع جديد في أمريكا من خلال مجموعة من الرسائل البريدية التي أرسلت إلى وسائل الإعلام وإدارات الشرطة تحتوي على مادة الانثراكس. تنتشر هذه المادة في الهواء فور فتح المظاريف التي تحتويها، مسببة مرض الجمرة الخبيثة القاتل لمن يستنشقها. وفي الخامس من أكتوبر/تشرين الأول توفي أحد محرري الصحف في فلوريدا جراء فتحه واحدًا من هذه الرسائل، ومرض اثنان من معاونيه. كما اكتُشفت هذه المادة في عدد من مكاتب الأخبار في كبرى شبكات التليفزيون في نيويورك، وكذلك في مكتب بريد نيويورك، مما أدى إلى إصابة الكثيرين بالمرض. وفي

يوم الخامس عشر من ذات الشهر اكتُشفت في مكتب توماس داشل Thomas Daschle ممثل الأغلبية في مجلس الشيوخ. وعلى إثر هذا أُخليت عشرات المباني الحكومية ومنها مبنى الكابيتول، لكن لم يكن من ضمن هذه المباني مكتب البريد الواقع بالقرب من برنتوود. وبعد أسبوعين، توفي موظفان في مكتب بريد برنتوود من جراء استنشاق الانثراكس، ثم توفي موظف بأحد مستشفيات مانهاتن وتوفيت كذلك سيدة من كونيكتيكت. وكان الشعب الأمريكي في هذه الأثناء يتدافع لشراء الدواء المضاد لهذا المرض ويدعى سيبرو.

وفي البلاد الأخرى، بدأت حمى الحرب تنتشر على نطاق واسع، ففي الخامس عشر من أكتوبر/تشرين الأول قامت المدفعية الهندية بتوجيه ضربة إلى الجيش الباكستاني في كشمير ردًّا على تفجير قام به المسلمون بسيارة مفخخة تسبب قى مقتل ثمانية وثلاثين من الهندوس. وبعدها بيومين قتل وزير السياحة الإسرائيلي الذي كان صديقًا شخصيًّا لآرييل شارون رئيس الوزراء رميًّا بالرصاص في أحد فنادق القدس، وردت إسرائيل بقصف جوي للمنشآت الفلسطينية في الضفة الغربية. وفي منتصف شهر سبتمبر/أيلول، قام الثوريون الشيشانيون بإطلاق النيران على طائرة مروحية روسية في جروزني وهاجموا قاعدة عسكرية قريبة من مناطقهم، لكنهم مع هذا كانوا يتحركون بحذر حيث يعون تمامًا أن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين Vladimir Putin يبيت النية لهم وهو واثق من أنه في ظل الظروف الراهنة سيلقى دعمًا من الولايات المتحدة في كل ما يفعله.

وفي ليلة التاسع عشر من أكتوبر/تشرين الأول، شنت الولايات المتحدة على أفغانستان أول هجوم واسع النطاق بفرق الكوماندوز، واجتاحت فرقة من القوات الخاصة المنقولة بطائرات مروحية انطلقت من حاملة الطائرات «كيتي هوك» أحد مقار الملا عمر، في حين هبط جنود المظلات في أحد المطارات الواقعة جنوب قندهار. حبس الشعب الأمريكي بأكمله أنفاسه حماسًا وهو يشاهد جيشه على شاشة التلفاز وهو يضرب طالبان في العمق. لكن بعد أن أتم الكوماندوز هجمتهم الاستطلاعية المسلحة بمساعدة طائرات شينوك المروحية، تبين بعد ذلك أن خمسة من فرق القوات الخاصة وأكثر من أربعة وعشرين من جنود المظلات أصيبوا بعد ارتطامهم بالأرض بالإضافة إلى أن طائرة مروحية استطلاعية كانت ترافق المهمة تحطمت في باكستان وقتل اثنان

من ملاحيها. ومع أن شجاعة الكوماندوز وجرأتهم كان لها تأثير كبير فت في عضد قادة طالبان، إلا أن القيادة الأمريكية العليا ساءتها تلك الحادثة العرضية وقررت ألا تقوم بعمليات مشابهة.

وفي حادثة لا تزال يلفها الغموض، تسلل عبد الحق إلى جنوب أفغانستان بعد ذلك بأيام، في محاولة منه لحث المجاهدين البشتون السابقين على أن يكونوا طابورًا خامسًا للأمريكان، لكن طالبان لاحقته وأسرت جماعته الصغيرة. أسرع عبد الحق في محاولة يائسة لإنقاذ نفسه بالاتصال بروبرت ماكفرلين Robert MacFarlane، الذي كان مستشارًا للأمن القومي في إدارة ريجان السابقة، طالبًا النجدة، وبالفعل وصلت المروحيات الأمريكية ولكن بعد فوات الأوان فقد نجحت طالبان في اقتناصه ثم قامت بشنقه.

في الحادي والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول بدأت الطائرات الحربية الأمريكية تغير على المواقع الأمامية لطالبان في شمال كابول، حيث كان جنود طالبان يتجمعون لأن الأمريكيين لم يضربوا المقدمة قبل ذلك أبدًا. شعر قادة التحالف الشمالي — الذين كانوا يقاتلون لسنوات دون دعم جوي — بالحماس حين رأوا أقوى قوة جوية في التاريخ تهب لمساعدتهم. ليس هذا فقط، فقد استخدم الأمريكيون كذلك القنابل الموجهة بالليزر زنة خمسة آلاف رطل «بانكرباسترز» بالإضافة إلى القنابل الذكية زنة ألفي رطل، وهذه القنابل تسمى ذخيرة الهجوم المباشر المشترك ويتم توجيهها بالليزر أو القمر الصناعي. أعلن رامسفيلد — وكان يستهدف بكلامه هذا الباكستانيين أكثر من الأمريكيين — أسباب تحول الهجوم إلى الخطوط الأمامية بدلًا من استمرار الهجوم على البنية الأساسية لطالبان في الجنوب التي لا توجد أصلًا، وقال: «إن ما حدث هو أنهم نظموا صفوفهم ضد قوى التحالف الشمالي في كابول وفي الغرب كذلك.» وهكذا استطاعت طالبان أن ترد على هجوم الشماليين الذي شنوه بالمدفعية والصواريخ والدبابات، ثم تبادل الفريقان إطلاق الرصاص بالأسلحة النارية الثقيلة في وديان الجبال الأفغانية الوعرة.

لكن بعد أسبوع، بدأ هذا القصف الجوي يفقد بريقه الأول، وصار جنود التحالف الشمالي يتململون منه، فقد ذكر دافيد رود David Rhode الصحفي بجريدة نيويورك تايمز أنه عندما حاور بعض الجنود الشماليين قالوا له إن جنود طالبان الذين كانوا في البداية يهلعون ما إن يبدأ القصف الجوي

صاروا يتحدثون على المحطات الإذاعية المفتوحة ويسخرون من هذا القصف فلم يعودوا يخشونه. كانت الطائرات الأمريكية تضرب دائمًا في أزواج وبشكل متقطع، وبعد مغادرتها، كانت طالبان تفتح النيران على الشماليين لتظهر لهم أنها لم تمس بسوء. وقد عبر أحد قادة التحالف الشمالي عن رأيه بقوله: «لو استمرت الولايات المتحدة على هذا المنوال مدة مائة عام فلن يجدي هذا شيئًا.» وقال آخر: «حين أغارت القوات السوفييتية على أفغانستان كان الموقع الواحد تضربه ستون طائرة، وفي ذات الوقت تهاجمه مائة دبابة ... وإذا استمر الأمريكيون فيما يفعلون فلن ينتج عن هذا إلا أن ترتفع معنويات قادة طالبان.» في اليوم التاسع والعشرين من ذات الشهر ذكرت التايمز أن قصفًا دام يومًا وليلة ألقت خلاله الطائرات أكثر من عشرة قنابل على طالبان، وطبقًا للتقرير الذي نشرته الأسوشيتيد بريس، فقد طاشت واحدة من تلك القنابل عن هدفها لتقتل ثلاثة عشر من المدنيين في كابول.

ونتيجة لما شعرت به الولايات المتحدة من حرج بسبب التقارير التي أذيعت عن عدم كفاءة القوات الأمريكية، قامت بإنزال بعض أفراد القوات الخاصة، والقوات الجوية في مناطق القتال لتحديد الأهداف وتوجيه الضربات المباشرة. كما أرسلت أيضًا قاذفات القنابل الشهيرة بي-٥٢ (B-52)، والتي تحمل الواحدة منها خمسين قنبلة زنة خمسمائة رطل، أو ذخائر متنوعة تصل حمولتها إلى خمسة وثلاثين طنًا. وكانت هذه الطائرات النفاثة العملاقة ذات المحركات الأربعة قد دخلت الخدمة في عام ١٩٥٥م، إلا أنها طُوّرت مرارًا وأضيف إليها أحدث التقنيات. في البداية، عم السرور قوات التحالف الشمالي بهذا الهجوم الكاسح الذي يمكن أن يصل مدى تدميره إلى نصف ميل كامل. إلا أن طالبان عادت تستخف بالأمر، فبمجرد حلول الظلام كان المحاربون يتسللون من كهوفهم وخنادقهم وهم يرتدون العمائم السوداء لإعادة إطلاق النيران دون أن يعبأوا بشيء. وذكر المقاتلون الشماليون الذين كانوا يراقبون مقاتلي طالبان خلال كل غارة، أن معظم القنابل الأمريكية كانت تسقط بعيدًا عن أهدافها. وفي غضون ذلك عاين الصحفيون الغربيون قرية تقع شمال قندهار كانت قد دمرت إثر هجوم بالطائرات المروحية وطائرات إيه سي-١٣٠ (AC-130) ذات المدافع الرشاشة، وقتل في هذه القرية ثلاثون من المدنيين. وبينما كان القرويون يدفنون موتاهم عادت المدافع لتدك البلدة مرة أخرى.

وفي الوقت الذي كانت حوادث الطيران فيه تنال نصيب الأسد من اهتمام الصحافة العالمية (وحتى الأمريكية) وكان الطيارون الأمريكيون ينفذون عملياتهم أمام قوات التحالف الشمالي المنهكة القوى، كان الهجوم الذي يصيب هدفه المطلوب يمر دون أي دعاية أو بقليل منها. أما عن قوات طالبان التي هي شبه مدمرة تمامًا، فلم يكن لها على الأمريكيين أي حجة، فبفضل استخدام القذائف الموجهة بالليزر أو الأسلاك أو القمر الصناعي، لم يتسع نطاق الخسائر العرضية بين المدنيين، مع أن الخسائر في هذه الحرب بلغت ستين بالمائة في مقابل عشرة بالمائة في حرب الخليج، وإذا كان هذا قد حدث فبسبب معلومات استخبارية خاطئة، أو أخطاء حسابية في تحديد الارتفاع والمسافات. والواقع أن سلاح الطيران الأمريكي بلغ حدًّا من الدقة لم يسبق له مثيل، فقد استطاع الاستعاضة عن استخدام عدد كبير من الطائرات بإلقاء عدد كبير من القنابل من طائرات قليلة تستطيع إصابة أهدافها بدقة، هذا بخلاف قاعدة شبكة الاتصالات الجوية المتميزة التي تحتفظ بها أمريكا في جنوب آسيا، والتي تستطيع الطائرات من خلالها إعادة التزود بالوقود، والمراقبة، وتستطيع كذلك أن تجد طائرات مرافقة.

ومع ذلك، فبعد شهر من القصف، بدأ القادة الأمريكيون يشعرون ببعض الإحباط. وكردٍّ على انتقاد الأفغان لقوة أمريكا الجوية، بدأ المسئولون الأمريكيون ينتقدون بدورهم التحالف الشمالي سرًّا ويصفون جيشه بأنه جيش معوق، ومتداعٍ ويفتقد القدرة على المبادرة. وقد أشار المراقبون الأمريكيون إلى أن بعضًا من دبابات هذا الجيش تحمل فوهات مدافع مزيفة، وبعضًا من قطع المدفعية لا تستطيع إطلاق النار. وكان الجنرال محمد فهيم، وهو شخصية باهتة لا توحي بأي ثقة قد حل محل الراحل أحمد شاه مسعود الذي كان ذا شخصية قوية وحضور طاغٍ. وفي حين كان قادة التحالف يدعون أنهم يشاركون بخمسة عشر ألف جندي كان المراقبون الأمريكيون يشككون في هذا الأمر فقد قدروا هذا الجيش بعدد لا يزيد عن الثمانية آلاف مقاتل. أما طالبان فقد قدر جيشها بعدد يتراوح ما بين أربعين وخمسة وأربعين ألف محارب. وبدأ القادة الأمريكيون يذكرون شعبهم بأنه بعد أن منعت طالبان زراعة نبات الخشخاش في عام ٢٠٠٠، أصبح كل إنتاج أفغانستان من الأفيون يأتي من الأراضي التي يسيطر عليها التحالف الشمالي.

وفي الخامس من نوفمبر/تشرين الثاني بدأت الولايات المتحدة في إلقاء قنابل «ديزي كاتر» التي تزن خمسة عشر ألف رطل. كانت أمريكا قد استخدمت هذه القنابل من قبل لإخلاء مناطق للهبوط في غابات الهند الصينية، واعترضت عليها فيتنام الشمالية في ذلك الوقت لكونها من «أسلحة الدمار الشامل». وبعدها استُخدمت قنابل حارقة جديدة يستخدم فيها الوقود لإشعال النيران، ويستهدف أساسًا الكهوف والأنفاق، مع أن الأمريكيين كانوا على علم من تجربتهم في أوكيناوا بأن هذه الكهوف لا تؤوي الجنود فقط.

بعد شهر من القصف بالقنابل، بدأت واشنطن تقابل تذمرًا من أوروبا والشرق الأوسط وباكستان حيث طالب مشرف بوقف الهجوم. ولأن أمريكا كانت قد بدأت الحرب وهي تملك ذخيرة واسعة من الدعم المعنوي، فقد أحست بأن هذه المساندة بدأت تتسل من بين أصابعها بسبب هجماتها شديدة التدمير التي تستخدم فيها أفظع الاختراعات التي أتى بها علماؤها. وخلال ذلك كانت قوات طالبان آخذة في تعزيز خطوطها الأمامية، وهم يسخرون من نظرائهم الشماليين، حيث كان من الواضح أن هناك نحو خمسين ألف جندي أمريكي في المنطقة (نصفهم من سلاح البحرية) بالإضافة إلى مليونين من القوات الاحتياطية في أمريكا وحول العالم عازفين عن الدخول في المعركة.

في العاشر من نوفمبر/تشرين الثاني توجه الرئيس بوش إلى نيويورك حيث كان حطام مركز التجارة العالمي ما زال مشتعلًا، ووجه خطابه إلى مندوبي الدول في الأمم المتحدة قائلًا: «إن كل دولة لها دور في هذه القضية ... وبينما نحن نتحدث الآن يخطط الإرهابيون لجرائم أخرى، ربما في بلدي، وربما في بلد أي منكم.» وكان لكلماته هذه صدى كبيرًا، فقد جددت أغلب دول العالم مساندتها لجهود أمريكا في هذا المجال بالإضافة إلى التزام بدعم مادي من كل من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان ودول أخرى. وحتى ذلك الوقت كانت الولايات المتحدة وبريطانيا بالإضافة إلى كندا وأستراليا يشاركون في المعركة، وكان سبب عدم مساهمة المجتمع الدولي في جبهة أمامية أكثر قوة وصلابة أن قدرة أمريكا الجوية والبحرية وشبكة قواعدها كانت أكثر تقدمًا وتطورًا من حلفائها. وحين وصلت القوات الأوروبية أخيرًا إلى كابول كان هبوطها بطائرات أوكرانية تجارية. وفي البنتاجون ساد اعتقاد بأن القوات الأمريكية

يمكنها أن تتعامل مع الموقف بسرعة ودقة دون تنسيق مع تحالف عريض من مؤسسات عسكرية تقل عنها كفاءة.

إلا أنه مع اقتراب فصل الشتاء، توقع المخططون العسكريون أن القيام بأي عمليات عسكرية في هذا التوقيت، حتى لو كانت ضربات جوية، سوف يكون صعبًا للغاية. كما ثار جدل آخر حول إذا ما كان من الواجب أن تتوقف العمليات في شهر رمضان الذي يصومه المسلمون والذي كان سوف يحل في منتصف شهر نوفمبر/تشرين الثاني. ولم يعد لإلقاء المواد الغذائية على الأفغان من الطائرات الأمريكية نفس التأثير السابق بعد أن أشاعت طالبان أن هذه الأطعمة مسممة، وردت الولايات المتحدة على هذا باتهام مضاد لطالبان بأنها قد تسمم الطعام عن عمد لتثبت وجهة نظرها. وبصفة عامة كانت الدعاية الخاصة بتوزيع الطعام قد تلاشت حين أحجم البشتون الباكستانيون عن نجدة بشتون طالبان على الحدود. وقد أخذت إدارة بوش تحذر الشعب الأمريكي مرارًا من حرب قادمة ستكون طويلة ومريرة، إلا أن تقديراتها كانت خاطئة.

وفي أوائل نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠١م، كان إسماعيل خان — قائد المجاهدين الطاجيك — قد عاد إلى أراضيه القديمة في الغرب بالقرب من هرات، وكان عبد الرشيد دوستم الزعيم الأوزبكي قد أعاد تنظيم قواته السابقة في الشمال التي كانت تدين له بالولاء. أما الحاج محقق فقد قام بتجميع مقاتلين من هازاراجات وسار بهم عبر وديان الهندوكوش، بينما ترددت طالبان — كما فعل السوفييت قبل ذلك — في الذهاب إلى هناك. وفيما كان بوش يوجه نداءه الحزين إلى الأمم المتحدة كان الجنرال أوستا عطا محمد وهو أحد قادة التحالف الشمالي قد تقدم من الشرق نحو مزار شريف في شمال أفغانستان، متعاونًا مع دوستم الذي عسكر بقواته في الجنوب، واستولوا على المطار ثم على مزار شريف بعد قتال لم يدم أكثر من نصف ساعة، ولم يجد جند طالبان المجاهدون إلا أن يهربوا أو يستسلموا. أما الذين فروا جنوبًا فقد قابلهم إسماعيل خان وهو يتجه بقواته إلى مسرح المعركة شمال هرات. وسارع رجال طالبان هؤلاء بالانطواء تحت حماية الأوزبك أو الطاجيك ضد الهازارا ذوي الملامح المنغولية الذين ما زالوا يتذكرون قتل طالبان لستة آلاف من أهلهم عام ١٩٩٧م.

في الشمال الشرقي تحركت قوات التحالف الشمالي نحو مدينتي طاليكان وقندوز اللتين كانتا في قبضة طالبان، وفرض الحصار على طاليكان، ونصح القادة الطاجيك قادة طالبان بالاستسلام، فاستسلم أحد قادة طالبان ويدعى عبد الله جارد إلى خصمه الطاجيكي داود خان ومعه ألف رجل على الأقل. في حين استسلمت المدينة تمامًا في الحادي عشر من نوفمبر/تشرين الثاني دون إراقة أي دماء. أما من بقي من المدافعين البشتون فقد استسلموا ببساطة إلى أعدائهم القدامى. ثم هاجمت قوات التحالف الشمالي خط الخنادق الذي أنشأته طالبان شمال طاليكان لتتراجع طالبان وسط وابل من النيران. وكانت أكثرية طالبان في الشمال من المتطوعين الأجانب الذين كانوا أكثر تعصبًا من البشتون، ومن ثم فلم يكن الأفغان ليرحبوا بهم في حالة استسلامهم. كان الطيران الأمريكي في هذه الأثناء يحلق منتظرًا أهدافًا تتضح أمامه كي يقتنصها، أو نداء من القوات الخاصة أو من فرق استطلاع القوات الجوية الأمريكية يرشده إلى مواقع أهداف العدو على الأرض.

كانت فرق الكوماندوز البريطانية المنقولة جوًّا توجد أيضًا في أفغانستان. وفي إحدى العمليات التي كتبت عنها صحيفتي «التايمز» و«التلجراف» اللنديتين، قامت فرقة بريطانية مكونة من ستين رجلًا بمهاجمة نفق يضم عددًا مماثلًا من مقاتلي طالبان. وأسفر الهجوم عن جرح اثنين من الجنود البريطانيين على مدخل النفق، واثنين آخرين في قتال جانبي بأسلحة نارية في مقابل ثمانية عشر قتيلًا وأربعين جريحًا من طالبان.

وإلى جانب شجاعة وجسارة القوات الأمريكية، والقوات الخاصة البريطانية، لعبت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية دورًا كبيرًا في هذه الحرب، تمثل في أموال كثيرة أحضرها فريقها في أفغانستان، وكان الغرض من هذه الأموال هو شراء خدمات القادة وأمراء الحرب كل بحسب حجم قوته. وإذا كانت قيادات التحالف الشمالي تأخذ المال لتقاتل، فإن زعماء طالبان كانوا يأخذونه ليستسلموا أو ليفرقوا قواتهم. وقد أنفقت وكالة المخابرات الأمريكية حوالي ٧٠ مليون دولار في هذا الأمر فقط.

وفي الثاني عشر من نوفمبر/تشرين الثاني، تحطمت طائرة ركاب نفاثة في منطقة سكنية في نيويورك فلقي كل ركابها المائتين والستين مصرعهم، كما توفي ثمانية آخرون على الأرض من جراء الاصطدام. وحين كان رجال الإطفاء

في روكواي كوينز يكافحون النيران المشتعلة، أدلت رئيسة هيئة سلامة النقل ببيان قالت فيه: «إن كل المؤشرات تشير إلى أن هذا الحادث حادث عرضي.» وفي الشهر التالي، نجت طائرة أخرى حين تمكن ركابها من القبض على أحد المسلمين وهو يحاول إشعال فتيل متصل بمتفجرات مخبأة في حذائه، وكان الممكن أن يقال إن هذا هو أيضًا حادث عرضي آخر لو كان حطام الطائرة قد استقر تحت أمواج المحيط الأطلسي.

وبينما كانت نيويورك تلملم جراح مأساتها الأخيرة، كانت قوات التحالف الشمالي تحرز تقدمًا عبر سهل شومالي متجهة نحو كابول. وكانت قوات طالبان قد تفسخت، فتراجع بعض رجالها، وهرب البعض الآخر، في حين عاد الكثيرون إلى منازلهم. وكانت هرات قد استسلمت إلى رجال إسماعيل خان في عصر ذلك اليوم بعد أن انضم ستة آلاف من مقاتلي طالبان إلى قائد المجاهدين السابق. وفي نفس الوقت غادرت طالبان كابول رسميًّا، ووجه الملا عمر رسالة إلى من بقي فيها من قوات قائلًا: «اتجهوا إلى الجبال، فإن الدفاع عن المدن، من خلال جبهة أمامية يمكن استهدافها من الجو؛ سوف يعرضنا لكثير من الخسائر.» إلا أنهم مع تراجعهم إلى جنوب المدينة تعرضوا لنيران قاذفات مقاتلة أمريكية.

كان التحالف الشمالي قد وعد الولايات المتحدة بالتوقف على بعد ميلين شمال كابول بدلًا من الدخول إلى المدينة ومحاولة إقامة حكومة جديدة وهو ما كان سيطمئن باكستان، وقد قال بوش في هذا الصدد: «سوف نشجع أصدقاءنا على الاتجاه جنوبًا، ولكن دون أن يدخلوا المدينة نفسها.» إلا أنه بعد خمس سنوات من القتال ضد طالبان، كان إغراء دخول المدينة أكبر من أن يقاوم. وعلى ذلك، في الثالث عشر من نوفمبر/تشرين الثاني دخلت قوات التحالف الشمالي كابول وسط احتفالات وفرح للعديد من مواطنيها.

لم يكن حكم طالبان الديني الصارم قد استطاع أن يترسخ في كابول على الإطلاق، فهي مدينة ذاقت طعم الحداثة خلال فترة الاحتلال السوفييتي، وكانت دائمًا تنأى بنفسها عن الأصولية المتشددة التي كانت تهيمن على ريف أفغانستان. ومع وصول قوات التحالف الشمالي ارتفعت أصوات الموسيقى لأول مرة في شوارع المدينة، ونثرت الزهور في طريق الدبابات، بل إن بعض النساء خلعن الحجاب مع ما ينطوي عليه ذلك من مجازفة إذا ما عادت

طالبان فجأة، وكذلك لأن هؤلاء المحررين لم يكونوا جندًا غربيين بل إنهم كانوا يسمون أنفسهم فيما سبق «جند الله».

تخلت طالبان عن جلال أباد في نفس الوقت الذي تخلت فيه أيضًا عن كابول، وأعلن يونس خاليس، أحد قادة المجاهدين سابقًا في بيشاور بسرعة عن استيلائه على السلطة، وقام إسماعيل خان بإعادة تنظيم هرات، في حين رفع دوستم علمه على مزار شريف. وسرت شائعة بأن قلب الدين حكمتيار سوف يعود من منفاه في إيران ليستعيد الجزء الشرقي من أرض الجلزانيين جنوب كابول. وفيما عدا الفقيد أحمد شاه مسعود، كان كل اللاعبين السابقين في الحرب السوفييتية وحرب المجاهدين الأهلية يستعيدون مواقعهم السابقة. لكن الرئيس بوش والجنرال مشرف وجها اللوم إلى رباني — القائد السياسي للحلف الشمالي — لأن قواته حنثت بوعدها ودخلت كابول. وكان رد رباني أن قواته دخلت المدينة لأسباب أمنية، وأنه سوف يترك فقط ثلاثة آلاف رجل في العاصمة.

كان شطر أفغانستان الشمالي قد خلا تمامًا من قوات طالبان فيما عدا مدينة قندوز التي تقع جنوب طاليكان على بعد خمسة وثلاثين ميلًا. وهناك كانت بقايا وحدات طالبان من البشتون قد حشدت متطوعين من الأجانب الأشداء وعناصر من تنظيم القاعدة التابعين لأسامة بن لادن، وقامت قوات التحالف الشمالي بمحاصرة المدينة وأرسلت تطالبها بالاستسلام. وفي الثالث عشر من نوفمبر/تشرين الثاني اقتربت قوات من الطاجيك لتأسر فرقة من البشتون كانت تنوي الاستسلام، إلا أنها تعرضت فجأة لنيران المتطوعين الأجانب الذين علموا بالخطة. وتراجعت قوات التحالف الشمالي إلى خنادقها بعد أن لقي الكثيرون منهم مصرعهم. وكانت قندوز ممتلئة بعشرات من العرب والبنجاب والصينيين والشيشانيين والأندونيسيين وأيضًا المئات من الباكستانيين وجنسيات أخرى تناصر قضية طالبان.

وبالرغم من التحذيرات التي أطلقها كثير من الصحفيين من أمثال «رود» الصحفي بجريدة «نيويورك تايمز» الذي كتب يقول: «إن الخريطة السياسية لهذا البلد تنذر بالشر تمامًا كما كانت عام ١٩٨٩م»؛ دفعت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بطائرات سي-١٣٠ (C-130) في حملة إنزال لمائة وستين من الكوماندوز ذوي القبعات الخضراء ومشاة البحرية الملكية في قاعدة باجرام

الجوية شمال كابول في الخامس عشر من نوفمبر/تشرين الثاني. كانت المشكلة أن طالبان — مع كل عيوبها — كانت قد تمكنت من فرض نظام في بلاد افتقدته تمامًا في السنوات التي تلت الغزو السوفييتي حين كان القادة العسكريون يتنافسون في الاستحواذ على السلطة. ولو تهاوت قوة طالبان، فإن العبء سوف يقع على عاتق الأمريكيين وحلفائهم البريطانيين كي يوجدوا هذا النظام مرة أخرى.

في تلك الفترة كان هناك شك في أن طالبان لم تنهزم وإنما اختفت فقط، وقد تعززت هذه الشكوك في التاسع عشر من نوفمبر/تشرين الثاني حين لقي أربعة صحفيين غربيين مصرعهم بطلقات نارية على الطريق الجبلي الذي يصل ما بين جلال أباد وبين كابول. وقال أحد شهود العيان إن واحدًا ممن أطلقوا الرصاص قال: «هل كنتم تظنون أن طالبان انتهت؟ إن طالبان لا تزال على قيد الحياة.» خلال ذلك الوقت كان رباني يؤكد للولايات المتحدة أنه لن يحاول تشكيل حكومة في الوقت الحالي وسينتظر قرار مؤتمر القادة الأفغان الذي ستعقده أمريكا في مدينة بون الألمانية.

بعد أن تخلت طالبان عن كابول، انتشى بعض الأمريكيين بهذا الانتصار السهل، فقد كانت هذه ثالث حرب على التوالي — بعد حربي البوسنة وكوسوفو — التي تنتصر فيها القوات الأمريكية دون أن يقتل جندي واحد من جنودها أثناء المعركة. وكأنما أوجدت الولايات المتحدة نظامًا حربيًا جديدًا يتماشى مع القرن الحادي والعشرين، ويتضمن استخدام القوة الجوية الكاسحة مع بعض عناصر القوات الخاصة، ثم «تفويض» قوات أخرى تقوم بمهمة القتال الحقيقي. ومن ثم فلن تتعرض أمريكا لأي خسائر في الأرواح. ومع انغماس أمريكا في الحرب الدائرة في جنوب آسيا، بدأ الصقور يفكرون في توسيع الحرب بهجومهم على العراق. ومع أن العراق لم يكن ضالعًا في هجمات ١١ سبتمبر/أيلول فإن الكثيرين في إدارة بوش كانوا يكنون الضغينة لصدام حسين بسبب نجاته من حرب الخليج وبسبب شكوكهم في وجود أسلحة دمار شامل عنده. وكان ديك موريس Dick Morris، مستشار كلينتون الأسبق، من أكثر المناصرين لأن تكرر الولايات المتحدة هذا النمط الجديد من الحروب في العراق باستخدامها الشيعة في الجنوب، والأكراد في شمال العراق كقوات تحارب عنها.

لكن بعض الأمريكيين لم يكونوا سعداء بأن التحالف الشمالي — لا القوات الأمريكية — هو الذي حقق النصر البري في أفغانستان. فرغم أن أفغانستان لم تكن البيئة الملائمة لاستخدام الأسلحة الثقيلة، إلا أن الكثيرين تساءلوا عما حدث للتشكيلات الأمريكية الأسطورية مثل مشاة البحرية الأمريكية، والفرق ٨٢، و١٠١ المنقولة جوًّا، وكتيبة الجبل ١٠، والعناصر الخفيفة من فرقة المشاة الأولى «الفرقة الحمراء». وإذا لم تكن أحداث ١١ سبتمبر/أيلول قد أعطت الحافز القوي للجيش الأمريكي ومشاة البحرية للقتال، فما هو الحدث الآخر الذي يمكنه أن يفعل ذلك؟

وفي غضون ذلك كان الموقف في قندوز قد تحول إلى فوضى، فقد كان من الواضح أن عددًا غير قليل من قوات طالبان يريد الاستسلام، إلا أن العرب والمقاتلين الأجانب الأقوياء يقفون حائلًا دون ذلك، كما سرت شائعات بأن العرب يطلقون النار على أفراد طالبان البشتون الذين يحاولون الهرب، فقامت طائرات بي-٥٢ (B-52) المقاتلة وقاذفات القنابل بقصف مواقع طالبان داخل المدينة وحولها. وخلال فترة الحصار الذي استمر أسبوعين أعلنت قوات التحالف الشمالي أن سربًا من الطائرات الباكستانية سوف يصل إلى مطار قندوز أثناء الليل لنقل المواطنين الباكستانيين إلى بر الأمان. وكذلك تدفقت من قندوز قوافل من الشاحنات الملأى بعناصر طالبان متجهة جنوبًا، وكانت قوات التحالف الشمالي تطاردهم أحيانًا، وإن كانت قد تركتهم في واقع الأمر يرحلون. وفي الرابع والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني سجلت الصحافة الغربية مشهدًا مثيرًا للدهشة لنحو سبعمائة من عناصر طالبان وهم يغادرون المدينة مبتسمين وملوحين ردًّا على تهليل قوات التحالف، بل كانوا يمدون أيديهم أيضًا لمصافحة آسريهم. لكن على النقيض قام دوستم بأسر أربعمائة من المقاتلين غير الأفغان أغلبهم من الباكستانيين والعرب ومن جنسيات أخرى، وسجنهم في قلعة قالاجانجي، وهي قلعة ضخمة تعود إلى القرن التاسع عشر وتقع بجوار مزار شريف.

سقطت قندوز في اليوم السادس والعشرين، وجالت قوات دوستم في الشوارع تقتل آخر اللاجئين إلى الخنادق. ثم قاموا بتجميع حوالي ثمانمائة من أفراد طالبان الأجانب ووضعوهم في شاحنات، لكن لم يمض وقت كبير حتى وصلت أنباء عن معركة دائرة في جانجي. فقد تمردت المجموعة الأولى من

عناصر طالبان الأجانب وعددها أربعمائة رجل وأمكنهم التغلب على حراسهم. وأشارت التقارير إلى أن العنف انفجر عندما بدأ اثنان من عملاء المخابرات المركزية الأمريكية في استجواب الأسرى. فاستولى واحد من سجناء طالبان على بندقية أحد الحراس وأطلق النار على بقية القوات فقتل منهم خمسة، وبعدها استولى السجناء على بنادق حراسهم، وانتهت المعركة بأن فقد الأوزبك سيطرتهم على القلعة وقتل جون مايكل سبان John Michael Spann وهو من عملاء المخابرات الأمريكية وضابط سابق في مشاة البحرية، في حين تمكن العميل الآخر من الهرب.

وفي الوقت الذي تمكن السجناء فيه من الاستيلاء على مستودع الأسلحة الذي كان سابقًا قاعدة لطالبان، قامت القوات الخاصة الأمريكية، ومستشارو سلاح الطيران البريطاني بطلب ضربة جوية. وفي نفس الوقت حاصرت قوات دوستم القلعة التي كانت تغطي مساحة ميل مربع، في حين كانت طالبان تطلق نيران مدافع آر بي جي (RPG) ومدافع المورتار من خلف الأسوار الضخمة. وبعد يوم من القتال تمكنت الطائرات الأمريكية من دفع السجناء المتمردين إلى أقبية القلعة مع أن القنابل التي سقطت حول حدود المنطقة أصابت خمسة من الجنود الأمريكيين وقتلت بعض رجال دوستم.

وعندما دخل الأوزبك القلعة مرة ثانية قاموا بالقضاء على من تبقى من طالبان. فصبوا زيتًا في أحد الأقبية وأشعلوا فيه النيران بعد أن وضعوا دبابة من طراز تي-٥٥ (T-55) على المدخل لتطلق النيران على من يخرج حيًّا منهم. وانفجرت الذخيرة في أعماق القلعة حين اشتعلت مخازن الأسلحة، ثم قامت قوات التحالف الشمالي بإطلاق تسعة صواريخ في الأدوار السفلى الأخرى. ولكن مع كل محاولة منهم للدخول كانت طلقات الرصاص تنطلق فتجبرهم على التراجع. وصرخ أحد رجال طالبان: «أنتم أمريكيون، ونحن لن نستسلم لكم.» وأخيرًا تمكن الأوزبك من التعامل مع المجموعة الأخيرة من المقاتلين الصامدين بتحويل مجرى قناة ري لتغرق القبو بالمياه. وفي الأول من ديسمبر/كانون الأول بعد أيام من الجوع وبعد أن ارتفع الماء إلى منسوب أعلى من خاصراتهم، خرجت مجموعة من عناصر طالبان يبلغ عددها ثمانين رجلًا في وضح النهار، وكانت أراضي قالاجانجي قد امتلأت بجثث مائتين من زملائهم القتلى عدا

آخرين كانوا متحصنين داخل المباني والأدوار السفلى. وقتل في هذه المعركة أربعون من الأوزبك.

وبينما كانت المعركة دائرة في القلعة، وصل مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) إلى جنوب أفغانستان، وكانت أول قوات برية أمريكية تدخل البلاد. وبدأت وحدة المارينز الاستكشافية الخامسة عشرة، وقوامها ألفان وخمسمائة جندي تفتيش المنطقة في مساحة تبلغ ثمانين ميلًا جنوب قندهار بجوار الشريط المحاذي للمطار والذي سبق لجنود المظلات استطلاعه ليلة التاسع عشر من أكتوبر/تشرين الأول. وفي ذلك الوقت كانت فلول طالبان في الشمال قد تشتتت أو هربت فيما عدا بعض الوحدات الباقية في الساحة. وبجوار بلخ القديمة في الشمال، كان الملا داد الله قد أعاد تجميع مجموعة من المقاتلين الهاربين من قندوز. وكانت قوات أخرى قد بدأت في التراجع نحو الجنوب الشرقي من هرات في اتجاه قندهار وهي العاصمة الفعلية لطالبان، في حين تراجعت قوات مشتركة من عناصر طالبان وعناصر تنظيم القاعدة إلى جنوب جلال أباد بالقرب من الحدود الباكستانية في منطقة جبلية تدعى «تورا بورا» (التي تعني الغبار الأسود). وبعد وصول المارينز إلى المنطقة، أطلقت طائرات الكوبرا المروحية نيرانها على قافلة من جنود طالبان جنوب قندهار، إلا أن المناطق الريفية المجاورة كانت تبدو مهجورة. فعاد ثلث عدد قاذفات قنابل القوات البحرية إلى حاملاتها بكامل حمولاتها من القنابل؛ لعجزها عن التعرف على أهدافها.

وفي الثاني من ديسمبر/كانون الأول، أعلن البنتاجون «أن القوات العسكرية الأمريكية في أفغانستان تحتجز رجلًا يدعي أنه مواطن أمريكي.» وكان هذا الرجل في العشرين من عمره ويدعى جون ووكر John Walker، وهو من مواطني كاليفورنيا، وكان قد غادرها وهو في السادسة عشرة من عمره إلى اليمن ليدرس القرآن، ثم التحق بمدرسة دينية في باكستان ومنها ضمته حركة طالبان إلى الجهاد. وبعد استسلام قندوز، كان واحدًا من القلائل الذين بقوا على قيد الحياة بعد تمرد السجناء، حيث كان قد اختبأ في قبو يمتلئ بالمياه، وحين خرج من القبو جائعًا، ومثخنًا بالجراح وقد احترقت أجزاء من وجهه، نقلته إحدى الطائرات إلى جنوب قندهار حيث احتجزته قوات المارينز. وهناك خلعوا ملابسه، وعصبوا عينيه ثم أوثقوه ووضعوه داخل قفص من المعدن في

حجم التابوت. وثار الشعب الأمريكي غضبًا حين علم بانضمام أحد الأمريكيين لحركة طالبان، وطالب الكثيرون بإعدامه. وربما كان رد الفعل هذا مشوبًا ببعض الأسى لأنه حتى تلك اللحظة لم يقاتل أي عسكري أمريكي في الحرب.

في الحقيقة، اندهش كثيرون ممن كانوا يتوقعون ردًّا أمريكيًّا عنيفًا على هجوم ١١ سبتمبر/أيلول، إلا أنه في واقع الأمر كان الأمريكيون يتعاملون بحذر شديد. ففي البداية كان واضحًا أنه توجد أسباب منطقية تدفع الأمريكيين إلى عدم التوغل بريًّا في أفغانستان بسبب حساسية الموقف فيها وفي باكستان من وجود قوات أجنبية، وكان هذا هو الدافع المنطقي وراء إسقاط مواد غذائية على أفغانستان بالتزامن مع إسقاط القنابل في الأيام الأولى من الحرب. ولكن حين بدأت القوات الأمريكية تصل إلى أفغانستان بأعداد كبيرة بعد انهيار طالبان، كان من الواضح أن هناك خشية من حدوث خسائر في الأرواح. فقد كانت متلازمة حرب فيتنام قد استقرت في وجدان الشعب الأمريكي، لتظهر بعد جيل كامل جاعلة العسكريين يفضلون القتال بالآلات لا بالبشر.

ولم يكن تخوف العسكرية الأمريكية من الخسائر في الأرواح، وما يمكن أن يتبع ذلك من قلق واضطراب في نفوس الشعب مبنيًّا على غير أساس، ففي الرابع من ديسمبر/كانون الأول تلقى أحد جنود القوات الخاصة رصاصة في كتفه أثناء معركة مع عناصر طالبان شمال قندهار. وكان رد فعل رابع أكبر صحيفة في أمريكا وهي «نيوزداي» أن نشرت الخبر بحروف بارزة عريضة تحت عنوان «إصابة جندي أمريكي». مع أن ذات العدد من الجريدة كان يحتوي على أخبار وفيات كثيرة حدثت في أماكن مختلفة من العالم بالإضافة إلى صفحة وفيات مليئة بأسماء متوفين. وكأن الأمريكيين يتقبلون الموت نتيجة المرض، أو الجريمة، أو حرائق الغابات، أو تصادم السيارات، أو حوادث الطائرات المروحية — بل إنه وقعت حادثة ضخمة في أثناء الحرب نتيجة اصطدام عدة سيارات على طريق شرمان القديم إلى أتلانتا — لكنهم لا يتقبلون مقتل جندي خلال الحرب. وفي مقابل ذلك انتشر الاحساس بالحرج لأن التحالف الشمالي قد هزم طالبان بسهولة تحت مظلة القوات الجوية الأمريكية، في حين كان الجيش الأمريكي ومشاة البحرية خاملين للغاية، وكانت مشاهد النصر في كابول قد أثارت غضب هؤلاء الذين أحسوا بأن الدمار الذي أحدثته هجمة

١١ سبتمبر/أيلول هو أكبر محرض على الحرب. ذكر معهد بحوث القضايا الاستراتيجية (SIRIUS) أن «القادة العسكريين بسبب حذرهم وبطئهم حرموا الأمة من أن تعيش لحظة نصر درامية.» أما العملاء السريون القليلون من الأمريكيين والبريطانيين الذين كانوا يرافقون قوات التحالف الشمالي فقد ظلوا في الظل بلا حراك، ولكن كان لهم عذرهم فكما قال الرئيس كلينتون قبل ذلك إنه لا ينبغي على القوات أن تشارك إلا في بيئة «غير معادية».

وفي أوائل ديسمبر/كانون الأول، وافق مؤتمر القادة الأفغان على تعيين حامد كرزاي — وهو من البشتون الدورانيين — رئيسًا لحكومة انتقالية. تنحى رباني الزعيم السياسي للتحالف الشمالي في صمت وكان صمته هذا نذير شؤم. وازدحمت الحكومة الانتقالية بأعضاء من الطاجيك وممثلين عن التحالف الشمالي أسندت إليهم وزارات الدفاع، والمخابرات، والداخلية ووزارات أخرى هامة.

كان كرزاي بنفسه في ذلك الوقت بالقرب من قندهار ومعه فرقتان تتألف الواحدة منهما من اثني عشر جنديًا من القوات الخاصة الأمريكية في محاولة منه لحشد دعم البشتون للوقوف ضد طالبان. وفي الخامس من ديسمبر/كانون الأول هوجمت هذه المجموعة من قبل مئات من رجال طالبان الذين هرعوا إليهم عبر السهول الجرداء في ثمانين شاحنة. وقد ذكر أحد الضباط الأمريكيين بعد ذلك أنه لم يكن رجال قبائل كرزاي أو طالبان يعون جيدًا ما يمكن أن تفعله القوة الجوية للولايات المتحدة الأمريكية، فقد قامت القوات الخاصة بتوجيه ضربات قوية أوقفت الهجوم، إلا أن طالبان تخلت عن شاحناتها وبدأت في تطويق هذه المجموعة الصغيرة على الأرض، فوضع الأمريكيون البشتون في مواقع دفاعية، وطلبوا دعمًا جويًا أكبر لدحر المهاجمين — إلا أنه في حادث مأساوي قتلت إحدى القنابل «الذكية» زنة ألفي رطل من قاذات بي-٥٢ (B-52) ثلاثة من القوات الخاصة وخمسة من الأفغان، وجرحت أكثر من ستة وثلاثين شخصًا آخرين بما فيهم كرزاي نفسه. وتبين أنه في خضم المعركة أرسل أحد جنود القوات الخاصة تحديدًا خاطئًا للارتفاع والمسافة مما تسبب في هذا الخطأ، وفيما عدا ذلك كانت العملية ناجحة فقد أوقف البشتون ومستشاروهم الأمريكيون الهجمات، ونجا من الموت من سوف يصبح زعيم طالبان في المستقبل.

بينما كانت الولايات المتحدة تناقش فكرة تشكيل «تحالف جنوبي» مفوض يمكنه أن يضاهي ما حققه التحالف الشمالي من نجاح، كانت طالبان قد تخلت عن قندهار في السابع من ديسمبر/كانون الأول، وبذلك سقطت عاصمة طالبان بعد شهرين من بدء الغارات الجوية الأمريكية وقبل أن تبدأ القوات الأمريكية البرية في أية عمليات، ووقعت المدينة فريسة مجموعتين متصارعتين من البشتون كانتا تتبادلان إطلاق النار. وبعد ذلك بيومين كان آخر أثر لحكم طالبان في أفغانستان قد انتهى تمامًا باستسلام إقليم زابول الواقع على الحدود الباكستانية.

كان سقوط طالبان مفاجئًا للكثيرين، فقد كان من الواضح أن حكم طالبان نجح خلال عدة سنوات في أن يخفي عن العالم كله مدى هشاشته. حيث كانت الخطب الرنانة، وحماس القادة يخفيان الأرضية المهتزة التي قام عليها هذا النظام بعد أن فرض حكمًا أوتوقراطيًّا سياسيًّا ونظامًا دينيًّا صارمًا على بلاد لم تألف سيطرة أي حكومة عليها. كما كان انسحاب الدعم الباكستاني أحد العوامل الأساسية التي أدت إلى انهيارها، بالإضافة إلى قيام القوات الأمريكية بقصف قوات طالبان، ومنشآتها وقوافلها أينما وجدتهم. إلا أن انهيار حركة طالبان نفسها جاء على يد الأفغان أنفسهم. ففي مرحلة ما كانت الحركة تلقى ترحيبًا كحل يخلص البلاد من الفوضى السياسية التي كانت تسودها، إلا أن فكرتها عن النظام لم تتواكب مع القدرة على الحكم. وما إن جاء عام ٢٠٠١م حتى كان معظم الأفغانيين قد سئموا هذا التطرف. وحين أصبحت البلاد بؤرة اهتمام العالم أجمع بعد ١١ سبتمبر/أيلول، لمح الشعب الأفغاني بارقة أمل جديد في المستقبل.

لكن التساؤل المحير هنا هو هل ما فعلته طالبان عام ٢٠٠٠م من تحريم زراعة الأفيون — وهو أثمن ما كانت تصدره أفغانستان خلال عقدين من الحرب — هو الذي أدى إلى فقدانها الدعم الشعبي؟ ففي عام ٢٠٠١م كان التحالف الشمالي فقط هو الذي يقوم بزراعة الأفيون في حين كانت مناطق البشتون لا ترى أمامها إلا مستقبلًا اقتصاديًّا مظلمًا. فبسبب توافر محصول الأفيون في أراضي طالبان عام ٢٠٠٠، كان هناك مخزون وافر، إلا أن حظر زراعته تسبب في ارتفاع أسعاره، ومن ثم إلى تحقيق مزيد من الأرباح للحكومة والوسطاء. أما الفلاحون وزعماء البشتون الذين كانوا

يسيطرون على الأراضي الجنوبية فقد فقدوا عائدًا كبيرًا. وكانت المفاجأة الكبرى في انهيار طالبان ليس قدرة الطاجيك والأوزبك والتركمان والهازارا على طردهم من الشمال، ولكن في سرعة مقاومة البشتون لهم في الجنوب. ولا يعني ذلك أن الملا عمر وأتباعه كانوا مكروهين في جنوب أفغانستان ولكن كان ذلك يعني أن الوقت قد حان ليرحلوا، فالإيمان وحده ليس كافيًا لإطعام الناس، ثم إن العالم الحديث بدأ يتدخل، وعاد الملايين من الأشخاص الذين ساندوا قضية طالبان من قبل إلى هويتهم السابقة: الأفغانية، أو بمعنى أصح البشتونية.

لكن كانت مشكلة تنظيم القاعدة، التي هي سبب هذا الصراع منذ البداية؛ لا تزال قائمة، وكانت عناصره تهدد بالاختفاء وسط موقف بالغ الارتباك والتعقيد يفوق قدرات القوات الجوية الأمريكية على إصلاحه. وفي لندن كان توني بلير — الذي كان من الأكثر نشاطًا في الدعوة إلى دعم هذه الحرب — قد شعر ببعض الاستياء حين رأى أن الضربات الجوية الأمريكية الناجحة لم تصاحبها إلا معارك برية ضعيفة. فحتى هذه اللحظة لم يشترك مع فرق استطلاع القوات الجوية ومستشاري القوات الخاصة سوى ألفين من مشاة البحرية تمركزوا في قاعدة تقع على حدود أفغانستان الجنوبية البعيدة. وفي العاشر من ديسمبر/كانون الأول عرض بلير إرسال خمسة آلاف من القوات الخاصة البريطانية إلى كابول.

كانت بؤرة القتال قد انتقلت إلى تورا بورا التي أسس أسامة بن لادن فيها قواعد للمجاهدين خلال الحرب السوفييتية، واعتقدت وكالة المخابرات الأمريكية أن بن لادن نفسه قد يكون مختبئًا في الكهوف الواسعة تحت الأرض في حماية رجال طالبان الأشداء وقواته الخاصة التابعين لتنظيم القاعدة. وبينما كانت القوات الجوية والبحرية تمطر جوانب الجبال بقنابلها، قام بعض الأمريكيين بتنظيم فريق من المجاهدين السابقين للقتال برًا. وفي الخامس عشر من ديسمبر/كانون الأول ذكرت النيويورك تايمز أن الكوماندوز الأمريكيين يقاتلون «وراء ساتر من المقاتلين الأفغان» بينما يتقدمون خلال الجبال الوعرة. ووعدت باكستان بتوفير قوات من أربعة آلاف مقاتل على الحدود لمنع عناصر القاعدة من الهرب. وصدق الجميع وعود باكستان، رغم أنه حتى في أوقات

السلم – ولو عدنا إلى قرن مضى في أيام الراج – لم يحدث أن غامرت القوات الحكومية بالدخول في مناطق القبائل الحدودية إلا لمامًا.

قام تنظيم القاعدة بمفاوضات مع المجاهدين عن طريق الراديو، وعرض عليهم الاستسلام في نفس الوقت الذي كان فيه رجال القاعدة يخلون المنطقة سرًا. أما المقاتلون الأفغان – الذين جاءوا من مناطق القبائل الشمالية – فلم يستطيعوا القبض على بن لادن في الجبال رغم تأكيدهم أنهم تكبدوا الكثير من الخسائر في الأرواح في سبيل هذا، ثم أعلنوا بعد ذلك أن المنطقة أصبحت آمنة، وغادروا مناطق المرتفعات المتجمدة. وضعت أمريكا مكافأة قدرها ٢٥ مليون دولار للقبض على بن لادن، ولكن دون جدوى. وحين عاد أحد قادة المجاهدين السابقين – محمد زمان – من تورا بورا وسئل عن مكان بن لادن فأجاب: «الله وحده هو الذي يعلم، أما أنا فلا.»

وقد استخدم الأمريكيون نفس الاستراتيجية في قندهار للقبض على الملا عمر بمعاونة الميليشيات البشتونية لمنع هروبه. إلا أن القائد الطالباني ذو العين الواحدة تمكن من مراوغة مطارديه والإفلات منهم. وحينها أعلن دونالد رامسفيلد بكثير من الإحباط يوم الحادي والعشرين من ديسمبر/كانون الأول بأن القوات الأمريكية ستستخدم كل إمكانياتها للقبض على قادة الأعداء.

وفي العشرين من ديسمبر/كانون الأول، اتجه وفد من كبار زعماء القبائل التي تقطن الجبال الشرقية في كابول لحضور مراسم تنصيب حامد كرزاي وإعلانه رئيسًا للحكومة الأفغانية المؤقتة الذي كان مزمعًا يوم الثاني والعشرين. إلا أن طائرات إف-١٤ (F-14) وإف-١٨ (F-18) التابعة للبحرية الأمريكية وقعت في خطأ مأساوي وهاجمت هذا الموكب، ثم قامت طائرات سبكتر بإطلاق مدافعها الرشاشة، لتقتل ستين شخصًا وسط إدعاءات أمريكية بأنهم كانوا من طالبان. وقد كان من الممكن أن يكونوا فعلًا من طالبان لو كان ذلك قد حدث قبل أسبوعين. وبعد ذلك بأسبوع، هاجمت قوات جوية قرية في إقليم باكتيا على الحدود ودمرتها، وأوقعت خسائر جسيمة في الأرواح حيث قتلت عشرة رجال، وسبعة عشر امرأة وخمسة وعشرين طفلًا. وبررت الولايات المتحدة الهجوم بأن القرية كانت تحتضن مستودع ذخيرة تابع لطالبان، وثار الأفغان وردوا بأن طالبان كانت قد تركت مخزن الذخيرة

وهربت. وهنا صار من اللازم أن تنحصر الضربات الجوية في مناطق أرضية محددة بدلًا من أن يطلق لها العنان عبر أراضٍ ليس لها جبهة أمامية واضحة.

لكن الولايات المتحدة قررت أن تقلل جهود البحث عن أسامه بن لادن، حيث أعلن رامسفيلد في السادس والعشرين من ديسمبر/كانون الأول من عام ٢٠٠١م أنه قرر عدم إصدار التعليمات للقوات الأمريكية بمطاردة بن لادن في منطقة تورا بورا. لخصت جريدة نيويورك تايمز هذا الأمر في عنوان تصدرت به أحد أعدادها وجاء على النحو التالي: «الولايات المتحدة توقف خططها الخاصة باستخدام الجنود الأمريكيين في كهوف أفغانستان، وتطلب من القوات المحلية التحرك. يرجع هذا التغيير إلى شدة خطورة منطقة تورا بورا، وتطلبها قاعدة أكبر». وبذلك وقع العبء على المجاهدين السابقين الذين كانوا يحاربون منذ عقدين وهم يرتدون الصنادل البلاستيكية ويحملون مدافع رشاشة بدائية من طراز إيه كيه-٤٧ (AK-47) سوفييتية الصنع للقتال كمفوضين من القوات الأمريكية التي ترتدي الخوذات والدروع والملابس العازلة ويحملون أحدث أنواع الأسلحة والمعدات التي تصلح للمناخ البارد والتي توفرها أغنى دولة في العالم، والتي اكتفت بدور المراقب. والواقع أن كلمة «مفوض» Proxy لا تستخدم كمرادف لكلمة «حليف» ولكن كمرادف للكلمة القديمة cannon fodder التي تشير إلى أناس لا قيمة لهم يستخدمون لغرض معين ثم ينبذون، فهم مجرد آلات تستخدم لتحقيق مصلحة ما» وقد عرضت الولايات المتحدة الأموال والأسلحة وملابس الشتاء كمكافأة للأفغانيين. وقال أحد المسئولين العسكريين: «إن مفتاح هذا الأمر هو معرفة الحافز المناسب الذي سوف يدفعهم للقتال.»

وفي آخر أيام عام ٢٠٠١م أعلن البنتاجون أنه يدرس بجدية: «خطة لإرسال عدد كبير من القوات الأمريكية ليشارك في البحث عن الملا عمر». وفي اليوم التالي اتجه مائتا جندي من قوات المارينز — معززين بغطاء من الطائرات المروحية المسلحة وطائرات الهاريير إلى قاعدة عسكرية مهجورة لطالبان في أكبر عملية حربية برية تقوم بها الولايات المتحدة في هذه الحرب. إلا أنه في اليوم التالي، عادت قوات المارينز إلى قاعدتها — كامب رينو — التي تقع على بعد ثمانين ميلًا جنوب قندهار بعد عمليات تفتيش في المباني المهجورة. ثم

أخلوا المنطقة بعد أن جاءت عناصر من القوات المحمولة جوًّا من الفرقة ١٠١ لتحل محلها.

شهد يوم الرابع من يناير/كانون الثاني من عام ٢٠٠٢م سلسلة من الأحداث الهامة، فقد وقع فيه أول قتيل عسكري أمريكي حيث سقط ناثان روس Nathan Ross وهو أحد ضباط القوات الخاصة في شرق أفغانستان، وجرح عميل من المخابرات المركزية الأمريكية كان يرافقه إثر إطلاق الرصاص عليهما، وتبين أن الرجلين قتلا أثناء معركة نشبت بين اثنين من زعماء المجاهدين كانا يتقاتلان للسيطرة على جارديز عقب انهيار طالبان. وفي اليوم ذاته أيضًا صدم صبي في الخامسة عشرة من عمره مبنى مرتفعًا هو مقر لأحد البنوك في تامبا بفلوريدا بطائرة تدريب صغيرة من طراز سيسنا. ولم تحدث خسائر تذكر، ولم يلق أحد مصرعه إلا الطيار الذي ترك رسالة يقول فيها إنه استلهم ما فعله من أحداث ١١ سبتمبر/أيلول. وفي نفس اليوم اعترضت البحرية الإسرائيلية باخرة محملة بخمسين طنًا من الأسلحة أرسلتها إيران إلى السلطة الفلسطينية. ومع أن العالم لم يعجب كثيرًا من قيام إحدى الدول الإسلامية بمد الفلسطينيين بالأسلحة، فإن حجم الشحنة أثار الكثير من القلق. وكان الإسرائيليون قد اكتشفوا أن بعضًا من الانتحاريين الفلسطينيين قد حصلوا على متفجرات متطورة استبدلوها بمتفجراتهم القديمة محلية الصنع.

مع قدوم شتاء أفغانستان القارس، لم يشهد شهر يناير/كانون الثاني ٢٠٠٢م إلا نشاطًا عسكريًّا أمريكيًّا محدودًا، مع أن إحدى طائرات الوقود الخاصة بالمارينز تحطمت في إقليم بلوخستان في باكستان، وقامت ثورة في كابول تطالب بالطعام. وفي الشمال، قبض زعيم الأوزبك دوستم على حوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة من عناصر طالبان وأغلبهم من الباكستانيين، مع عدد قليل من العرب والشيشان وغيرهم. وقد عانى هؤلاء كثيرًا بسبب البرد والجوع والظروف غير الصحية. وثارت ضجة في العالم حين أعلنت إدارة بوش أنها سوف تعلق العمل باتفاقية جنيف تجاه الأسرى الذين أسرتهم في أفغانستان، وأنها بدلًا من ذلك سوف تحيلهم إلى محاكمات عسكرية لتحكم عليهم بأحكام قد تصل إلى الإعدام. ومع أن مائة وعشرين من هؤلاء الأسرى كانوا قد أرسلوا من قاعدة المارينز في قندهار تحت حراسة مشددة إلى قاعدة جوانتانامو الأمريكية في كوبا، فإن عددًا من دول الناتو

هددت بإيقاف التعاون مع الولايات المتحدة إذا لم تلتزم باتفاقية جنيف. وقد أنهى وزير الخارجية كولين باول Colin Powell (الذي كان جنرالًا سابقًا) هذا الجدل في السادس والعشرين من يناير/كانون الثاني برفضه التام اقتراح أعضاء الإدارة الأمريكية، وإصراره على التزام أمريكا باتفاقية جينيف. ورضخت الإدارة الأمريكية لطلبه، وإن كانت قد تحفظت على تطبيقه بالنسبة لمن تثبت صلته بالإرهابيين التابعين لتنظيم القاعدة، والذين كانت تريد أن تحصل منهم على معلومات أكثر من مجرد «الاسم، والرتبة، والرقم المسلسل».

في ذلك الوقت وصلت الفرقة ١٠١ المحمولة جوًّا إلى أفغانستان وهي في غاية الحماس للقتال. وفي ليلة الرابع والعشرين من يناير/كانون الثاني أسقطت الطائرات المروحية قوات «النسور الصارخة» لتهاجم قاعدة سابقة لطالبان كان من المعروف أنها مخزن للأسلحة، وجرت معركة حامية الوطيس قتل فيها واحد وعشرون أفغانيًّا، وأسر سبعة وعشرون آخرون أخذوا إلى كامب رينو. وحين رحلت القوات المحمولة جوًّا، حلقت الطائرات لتدمر ما بقي. إلا أن المراسلين الصحفيين حين تتبعوا المعركة اكتشفوا أن هذا الهجوم كان خطأ؛ فقد كانت هذه الأسلحة مخزنة بناء على أوامر من حكومة كرزاي في كابول، وأن ساكني هذا المجمع لم يكونوا من الأعداء. ولكن أكثر ما أثار الانزعاج هو أن كثيرين من القتلى الأفغان كانت أيديهم موثوقة خلف ظهورهم، وأن بعض الأسرى ذكروا — بعد إطلاق سراحهم — أنهم تعرضوا للضرب والركل بالأقدام أثناء أسرهم.

كانت القوات الأمريكية الخاصة مدربة على تقييد أيدي الجرحى من الأعداء، ويبدو أن أفراد الفرقة ١٠١ قاموا بتقييد أيدي الأفغان الذين وجدوهم، وقد أطلقوا النارعليهم دون أن يتبينوا جيدًا في الظلام ما إذا كانوا موتى أم لا. وفي وسط المعركة المحتدمة، من الممكن أن يكون الأسرى قد عوملوا بقسوة ولكن هذا لم يحدث عندما أخذوا إلى كامب رينو. إلا أن هذه المهمة التي ثبت خطؤها والتي سبقتها عمليات أخرى كثيرة، دفعت القادة الأمريكيين إلى الشك بأن الأفغان كانوا يقدمون إليهم معلومات كاذبة تفيد أن منافسيهم المحليين كانوا من طالبان. وفي حين كان الأمريكيون في البداية يستخدمون الأفغان كأناس يقاتلون بالنيابة عنهم، فقد بدا الأمر كما لو كان الأفغان أنفسهم يفعلون

نفس الشيء مع الأمريكيين، بحيث يستغلون الفرقة ١٠١ أو القوة الجوية الأمريكية في إنهاء خلافاتهم المحلية.

وفي نهاية شهر يناير/كانون الثاني من عام ٢٠٠٢م أدلى الرئيس بوش بخطاب عن حالة الاتحاد بمناسبة مرور عام على توليه الرئاسة، ذكر فيه أنه ينظر إلى ما هو أبعد من أفغانستان. وأعلن عن وجود ما أطلق عليه «محور الشر» مشيرًا إلى إيران والعراق وكوريا الشمالية، وكلها دول يعتقد أنها ما زالت تأوي الإرهابيين، أو لديها نوايا سيئة أو تمتلك أسلحة دمار شامل. اعترض دبلوماسيو هذه الدول على إطلاق هذه الأوصاف على بلادهم، في حين سخرت الدول الأوروبية مما رأته سذاجة أمريكية منقطعة النظير.

شهد شهر فبراير/شباط من عام ٢٠٠٢م معارك بين زعماء البشتون الجلزاي في جارديز، ثم مناوشات بين الأوزبك والطاجيك حول السيطرة على مزار شريف، في حين ظل القادة الأمريكيون يركزون جهودهم على محاولة العثور على أسامة بن لادن، وفي أوائل هذا الشهر اعتقدوا أنهم تمكنوا أخيرًا من هذا الإرهابي الذي يبلغ طول قامته ستة أقدام وأربع بوصات حين قتل «رجل طويل» واثنان معه في تلال أفغانستان الشرقية، وكان هؤلاء قد قتلوا على يد واحدة من طائرات البريداتور، وهي طائرة أمريكية يمكنها تصوير الأحداث بالفيديو أثناء إطلاق قذائفها الصاروخية. لكن تلك الفرحة لم تدم طويلًا في واشنطن حيث تبين أن الضحايا كانوا من القرويين المحليين الذين كانوا يجوبون التلال بحثًا عن نفاية المعادن.

وكما يحدث في كل الحروب الحديثة من استنباط أساليب جديدة في التقدم التكنولوجي، فقد كانت البريداتور مع مثيلتها الجلوبال هوك ذات المدى الطويل، والارتفاع العالي؛ أكثر الاختراعات إثارة للعجب، ولم تكن هذه قد ظهرت من قبل إلا في حرب أفغانستان. فقد كانت المسافة بين أقصى نقطة في جناحها الأيمن وأقصى نقطة في جناحها الأيسر ٤٩ قدمًا، وكان يمكنها التجول في السماء لساعات وهي ترسل صورًا حية بالفيديو لكل استكشافاتها بحيث يصل مداها إلى فرجينيا. وهناك كان من الممكن أن تضغط على الأزرار فترسل قذائفها الصاروخية. وكان هذا يعني أن الأمريكيين لم ينجحوا فقط في استبدال الجيش بالقوات الجوية، بل إنهم نجحوا كذلك في استبدال الطيارين بهذه الاختراعات القاتلة التي تعمل بالتوجيه عن بعد.

ومع الفرحة الغامرة التي غمرت العلماء الأمريكيين بهذه الطائرة «البريداتور» بدأوا يضاعفون جهودهم لاختراع المزيد من الآلات المقاتلة التي تشمل طائرات قاذفة للقنابل تعمل بدون طيارين، ومركبات برية تمشي دون قائد يقودها وتقوم بتوجيهها مئات من الأجهزة الحساسة التي تسبقهم إلى أراضي العدو. وفي المعامل العسكرية الأمريكية، كان يبدو أن الهدف النهائي هو تمكين أمريكا في حربها القادمة من إعادة تمثيل المشهد الأول من فيلم «المدمر» The Terminator حيث يفر الإنسان عبر أراضٍ دمرتها الآلات التي أصبحت تسيطر على البشر، إلا أن هذه الآلات سوف تكون مزينة بالنجوم والخطوط المميزة للعلم الأمريكي.

تلقى حامد كرزاي ضربة قوية في الخامس عشر من فبراير/شباط، حين تعرض عبد الرحمن وزير الطيران والسياحة في حكومته إلى ضرب أفضى إلى الموت على يد جمع غاضب في مطار كابول. كان السبب الذي بدا وقتها أن هذه الجماهير كانت غاضبة لأن استئناف الطيران التجاري أدى إلى أن ينتظر المسافرون طويلًا طائرتهم المتجهة إلى مكة. لكن كرزاي أكد أن هذه جريمة مدبرة. ففي تلك الحكومة الانتقالية التي تضم وزراء عديدين من التحالف الشمالي، كان عبد الرحمن أحد القلائل من حلفاء كرزاي الذي بقي على ولائه للملك المنفي ظاهر شاه.

وفي الحادي والعشرين من فبراير/شباط تلقى المسئولون الباكستانيون شريطًا مفزعًا مصورة عليه جريمة قتل دانيال بيرل Daniel Pearl وهو محرر في جريدة وول ستريت كان قد اختُطِف واحتُجِز لمدة شهر من قبل الإسلاميين المتطرفين في كراتشي. وقد أثار مقتله شعورًا بالمرارة في الوسط الصحفي دعا بعض الصحفيين إلى التنويه بأنه منذ ١١ سبتمبر/أيلول قتل أحد عشر صحفيًّا في الصراع في مقابل جندي أمريكي واحد. وحتى في هوليوود بدأ اتجاه إلى انتقاد القوات الأمريكية، حيث أنتجت في ديسمبر/كانون الأول فيلمًا أمريكيًّا بعنوان Blackhawk Down صوَر تجربة الجيش الأمريكي في الصومال عام ١٩٩٣م، وتبعه فيلم «كنا جنودًا» We Were Soldiers الذي يتناول معركة إيا درانج عام ١٩٦٥م التي كانت أول اشتباك بين الجيش الأمريكي وجيش فيتنام الشمالية. وقيل وقتها إن هناك ثلاثة أفلام بصدد الانتهاء منها تتناول معركة آلامو.

في غضون ذلك، كان عرض توني بلير الاشتراك بقوات بريطانية في حرب أفغانستان قد رفض. ومع ذلك توجهت طليعة من البحرية الملكية إلى كابول لتحقيق التوازن الأمني. وكانت عناصر هذه الطليعة مدربة على القتال في الجبال وفي فصل الشتاء، وتتقن فنون التسلل، ومعارك المواجهة المباشرة، وقد صحب دكستر فيلكنز Dexter Filkins مراسل جريدة نيويورك تايمز هذه الفرقة ليتابع أولى معاركها. وفي الثاني والعشرين من فبراير/شباط توجهت فرقة من القوات الخاصة قوامها مائة جندي إلى موقع يطلق عليه المواطنون الأفغان «المقبرة البيضاء»، حيث دفن موتى البريطانيين في الحرب الأنجلو أفغانية الثانية. وكانت هذه المقبرة — الموجودة حاليًّا في حي من شمال كابول — قد بنيت في الموقع الذي شيد فيه إلفنستون معسكره عام ١٨٤٢م. وبينما كانت فرقة من الجورخا تعزف نغمات رصينة، قام أحد الجنود البريطانيين بوضع إكليل من الزهور على نصب في المقبرة، وقام الجنود بعد ذلك بغناء «فليحفظ الرب الملكة».

امتدت الحرب على الإرهاب — هذا المصطلح الذي أصبح يطلق على كل ما ترتب على أحداث ١١ سبتمبر/أيلول — خارج حدود أفغانستان. ففي فلسطين قتل ستة جنود إسرائيليين رميًّا بالرصاص عند نقطة مراقبة، وفي اليوم التالي سقط اثنان وعشرون فلسطينيًّا نتيجة قصف جوي انتقامًا لمصرع الجنود الإسرائيليين. وفي السابع والعشرين من فبراير/شباط، لقي ثمانية وخمسون من الهندوس حتفهم في مشهد بشع حين أشعل بعض المسلمين النار في قطار كانوا يستقلونه، وبعدها بيومين ذبح مائتان من المسلمين على الأقل على يد الهندوس الغاضبين. ثم قتل مجموعة من الجنود الإسرائيليين الذين كانوا يقفون في نقطة مراقبة إسرائيلية أخرى في الثالث من مارس/آذار حين أطلق أحد القناصة الفلسطينيين النار عليهم من موقع في أحد التلال، فأسرع الإسرائيليون بإطلاق وابل من نيران الأسلحة الأوتوماتيكية، إلا أن تردد صدى الصوت في الجبال أعجزهم عن تحديد مصدر إطلاق النيران. وبعد ساعة ونصف انسحب القناص بعد أن أوقع عشرة قتلى بين الجنود الإسرائيليين والمستوطنين المسلحين بالإضافة إلى إيقاع ثلاثة جرحى. فيما بعد وجد الإسرائيليون بندقية عتيقة، مقبضها تمسك به بعض المسامير، ملقاة في الموقع الذي كان فيه القناص مع بعض الخراطيش الفارغة.

وفي نهاية الأسبوع الأول من شهر مارس/آذار، بدأت عملية «أناكوندا» في أفغانستان، وكانت هذه العملية أكبر عملية برية للولايات المتحدة حتى وقتها، وأولى معاركها أيضًا. وتضمنت الخطة، التي وضعها اللواء فرانك هاجنبيك Frank Hagenbeck قائد الفرقة الجبلية العاشرة، والتي رفعت إلى فرانكس قائد القيادة المركزية ثم إلى وزير الدفاع رامسفيلد ومنه إلى البيت الأبيض؛ أن تتقدم القوات الأفغانية إلى وادي شاهي كوت جنوب خوست، في حين تقوم الطائرات المروحية بإسقاط قوات أمريكية في مواقع أخرى لتقطع طريق الهروب على الأعداء. وقد ضمت هذه القوات حوالي ألفين وثلاثمائة جندي منهم ألف ومائتا أمريكيّ، ومائتان من فرق الكوماندوز من أستراليا وكندا والدانمارك وألمانيا وفرنسا والنرويج. وقد قدر عدد عناصر تنظيم القاعدة المستهدفين بعدد يتراوح ما بين مائة وخمسين ومائتين وخمسين جنديًا، وقد كان اسم العملية: «أناكوندا» يشير إلى طبيعة العملية التي تنطوي على تطويق العدو ثم سحقه.

بدأت العملية يوم السبت الثاني من مارس/آذار، بأن قامت أسراب من الطائرات الأمريكية بدك الوادي، ثم تقدم الأفغان في عرباتهم المدرعة سوفييتية الصنع نحو الطرق. وكان أول حادث مؤسف هو تعرض القوات الاستطلاعية الأفغانية إلى عاصفة من النيران قتل خلالها المستشار الأمريكي للقوات ومعه ثلاث رجال، واضطر القائد الأفغاني إلى التقهقر حتى يتم إصلاح المركبات التالفة، وظل بعيدًا عن المعركة لمدة أربعة أيام. أما عن هدف العملية فقد ظل كما هو مخطط له، إلا أن القوات المحمولة جوًّا وجدت نفسها وقد هبطت بين الجبال وسط دوي مدافع العدو آر بي جي (RPG) وفي يوم الإثنين حلقت طائرتان مروحيتان من طراز شينوك ذات المحركين لإنزال قوات عند أحد مواقع الصد، إلا أن إحدى الطائرتين أصابها تلف في خزان المياه أثناء إحدى الجولات الاستطلاعية وسمح لها بالانسحاب. وفي تلك اللحظة انطلقت قنبلة يدوية من مدفع فأجبرت الطيار على الانحراف فجأة ونتج عن ذلك سقوط أحد رجال البحرية الذي كان يطلق النيران بالقرب من الباب الخلفي من الطائرة. واستمر هذا الرجل ويدعى نيل روبرتس Neil Roberts في القتال على الأرض، إلا أن البريداتور التي كانت تحوم حول المنطقة سجلت مشهد ثلاثة من مقاتلي القاعدة اقتربوا منه وسحبوا جسده العاجز بعيدًا.

استقل رفاق روبرتس مروحية أخرى، وعادوا إلى التل، مدمرين خلال ذلك عدة مواقع للعدو. ولكنهم فقدوا قتيلًا واحدًا واثنين من الجرحى جراء إطلاق بعض المهاجمين النيران عليهم من مسافة قريبة جدًّا، وذهبت فصيلة من جنود الجيش من قاعدة باجرام في طائرتي شينوك لتشارك في القتال، لكن واحدة منهما سقطت على بعد ميل واحد واندفع الجنود خارجين منها تحت وابل من نيران العدو ومدافعه الرشاشة وقذائف الهاون ليلقى أربعة منهم مصرعهم في الدقائق الأولى ويجرح أحد عشر آخرون. وفي مكان آخر في شاه كوت هوجمت قوة مكونة من الفرقة الجبلية العاشرة والفرقة ١٠١ المحمولة جوًّا على أرض المطار مما أسفر عن وقوع قتيل واحد وعدد غير قليل من الجرحى. في البداية، بدا أن كفة العدو أرجح، حتى إن أحد الجنود قال: «خلال إحدى الفترات التي فصلت بين دوي طلقات الرصاص، كنت أسمع صوت ضحكات تسخر منا.» إلا أن الأمريكيين نجحوا في تثبيت مدافع المورتار عيار ٨٢ مم وردوا بإطلاق النار على العدو بالمدافع الرشاشة والأسلحة الصغيرة. وكان القتال يدور أحيانًا من مواقع قريبة والعدو تحت أنظارهم. ويصف جندي برتبة رقيب ما حدث قائلًا: «كنا نقاتل وجهًا لوجه، ولقد شاهدت أحد الرجال يسقط إثر طلقة من رشاش إيه كيه (AK) في صدره، ثم ينتفض واقفًا ويستأنف القتال.» وهرعت مروحيات الأباتشي والسوبر كوبرا إلى الوادي لدعم المقاتلين على الأرض، وأصيب البعض منها بتلفيات نتيجة إطلاق النيران عليها.

بررت القيادة المركزية هذه الأحداث بأن عدد مقاتلي طالبان ومقاتلي تنظيم القاعدة كانوا يفوقون توقعاتها، وأن مئات من الباكستانيين هرعوا للمشاركة في الهجوم ما إن بدأ، ونتيجة لهذا وصل عدد المقاتلين في محيط ميل مربع إلى ألف مقاتل هذا بخلاف الأربعمائة الذين قتلوا. توقع المتفائلون في القيادة الأمريكية العليا أن عنف هذه المعركة قد يشير إلى وجود أسامة بن لادن في هذا الموقع. وفي حين تمسكت القوات الأمريكية وقوات الحلفاء بمواقعها في الجبال، اتخذت المعركة شكلًا آخر بتدخل القوات الجوية واستخدام الطائرات النفاثة الأمريكية، وهجوم المروحيات والمدافع، ثم اشتراك طائرات ميراج ٢٠٠٠ الفرنسية ومقاتلات سوبراتيندارد، وخلال الأسبوع الأخير من العملية التي استغرقت أحد عشر يومًا، لم ترتفع الخسائر في الأرواح من الجانب الأمريكي، في حين أعلن البنتاجون تزايد أعداد القتلى من جانب العدو. وفي الثالث عشر

من مارس/آذار أكد فرانكس أن عدد القتلى المؤكد كان ٥١٧ قتيلًا مع احتمال وقوع ٢٥٠ آخرين، وعندما انتهت معركة أناكوندا وصل العدد الإجمالي إلى ٨٠٠ قتيل وفي غضون ذلك كان الوادي قد تحول إلى منطقة ملتهبة.

كانت دهشة المراسلين الصحفيين كبيرة حين سمح لهم بالدخول إلى شاه كوت، ولم يجدوا إلا أجساد ثلاثة من الأعداء القتلى. وبعد ذلك عثروا على عشرين جثة أخرى مشوهة في مخابئ حول المنطقة. وكان من الواضح أن عملية أناكوندا وصلت إلى ذروتها خلال الأيام الأولى، وأن الهجمات التي تلت هذه الأيام الأولى كانت تهدف فقط إلى الإبقاء على روح الحماس التي سادت الشعب الأمريكي خلال هذه الحرب. ومع ذلك فلأنها كانت المعركة الأولى التي تقاتل فيها القوات الأمريكية النظامية خلال عقد من الزمان، وأكبر معركة خاضتها الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر/أيلول؛ فإنها كانت تستحق الاهتمام.

غير أن الخبراء العسكريين انتقدوا القوات الأمريكية التي هبطت إلى أرض المعركة دون أن تزود بمدافع المورتار طويلة المدى أو القاذفات التي تمكنهم من تمشيط مناطق هبوطهم وكذلك أخطاء أخرى أيضًا تتمثل في أن الفرقة الجبلية العاشرة لم تصطحب معها أكياس النوم (ومن ثم اضطروا إلى الجلاء بعد أربعة أيام بعد أن أصيبوا بانخفاض حرارة أجسامهم الذي كان من الممكن أن يقتلهم)، هذا بخلاف الفشل الواضح في عمل جهاز الاستخبارات. كما أن نظام الاتصال الذي كانت تعتمده القيادة العليا للقوات الأمريكية والذي كان يسمح بتوجيه المعركة من عدة مواقع تنتشر حول العالم كان غير مناسب، حيث رأى الجنود المقاتلون أنه كان من الأفضل أن يتم توجيههم من واشنطن أو تامبا حيث مراكز المعلومات الحربية.

لكن أكبر أمر أخذ على هذه العملية، ربما لأنه أمر غير مفهوم، هو أن قادة القيادة المركزية وقادة البنتاجون ذكروا أرقامًا لخسائرهم أثناء سير المعركة مع أنها غير حقيقية. كما أنه لم يكن من المناسب أن يلقي بعض المسئولين اللوم على قوات الطليعة الأفغانية حين تقهقرت وتركت قوات الولايات المتحدة في وقت حرج، وأن يوصف الأفغان بأنهم «غير محترفين»، حيث إنه ثبت فيما بعد أن النيران التي أطلقت على القوات الأفغانية كان معظمها أطلق بطريق الخطأ من طائرات سبكتر الأمريكية وهي التي أدت إلى تشتت الأفغان. وكان من الغريب أيضًا أن يعلن أحد المتحدثين العسكريين أن قوات تنظيم

القاعدة وطالبان قد اندفعوا إلى المعركة ليقعوا تحت نيران القوات الجوية الأمريكية التي تبغي الانتقام، بدلًا من الجلاء عن المنطقة بعد انتصارهم. ويبدو أن الجيش الأمريكي سيطر عليه الغرور إلى الدرجة التي افترض معها أن خصومه — ومنهم الكثيرون الذين خاضوا لسنوات طويلة حروبًا في الجبال ضد أعدائهم ذوي التكنولوجيا المتقدمة — سوف يتقبلون تعريض أنفسهم للقوة الجوية طواعية. وفي حين كانت الإدارة العليا الأمريكية تبالغ في أعداد قتلى الأعداء، وفي إلقاء اللوم على من حولها، كان يبدو أنها خشيت خلال المعركة من رد الفعل الشعبي لاستخدامها القوات النظامية في المعركة لأول مرة.

ولكن ما أدهش البنتاجون أن هذه المعركة حازت على إعجاب الشعب الأمريكي، فقد حانت الفرصة أخيرًا للقوات الأمريكية لكي تحارب، وقد حاربت بشجاعة. صحيح أن الجنود سقطوا في كمين، إلا أنهم صمدوا في ظروف صعبة للغاية وسط جحيم النيران، وفوق جبال يصل ارتفاعها إلى عشرة آلاف قدم في شاهي كوت، كان الأمر يحتاج إلى شجاعة الجنود، وكانت القوات الأمريكية — كما كان الشعب يعلم جيدًا — قد أحسنت القتال في مواجهة العدو. وإذا ما سنحت لهم فرص أخرى، فسوف يستطيعون من خلال أساليب الحرب الحديثة والخبرة التي اكتسبوها عن العدو أن تكون لهم الكلمة الأخيرة لا لطالبان. نعت أمريكا قتلاها في نفس الوقت الذي شعرت فيه بالفخر لأن قواتها اشتركت أخيرًا في الحرب؛ فقد كان أشباح ثلاثة آلاف قتيل في ١١ سبتمبر/أيلول تتوق إلى هذا منذ زمن.

وبينما كان الجنود الأمريكيون يزيلون آثار معركة أناكوندا من ساحة القتال، انفجرت عاصفة من العنف في فلسطين، ففي التاسع من مارس/آذار فجر انتحاري نفسه في أحد المقاهي بإسرائيل فقتل أربعة عشر إسرائيليًّا. وفي اليوم التالي انتقم الإسرائيليون بأن قتلوا واحدًا وثلاثين فلسطينيًّا، ثم قتل ستة إسرائيليون آخرون بقنبلة أخرى. ونتيجة لهذا قامت الدبابات والمدرعات الإسرائيلية باجتياح المدن الفلسطينية في الضفة الغربية بينما كانت الميليشيات الفلسطينية تقاتلهم بأسلحتها الصغيرة، ومع أنهم لا يمتلكون صواريخ مضادة للدبابات نجح الفلسطينيون في تفجير دبابة إسرائيلية للمرة الثانية في شهر

واحد، وهو ما لم يكونوا قادرين على فعله من قبل. وفي الوقت الذي كان العالم الإسلامي بأسره يدعم فلسطين معنويًّا إن لم يكن يدعمها ماديًّا، قال الرئيس بوش لرئيس الوزراء آرييل شارون إن ما يفعله «لا يساعد في شيء».

قام شارون بسحب قواته الثقيلة من المناطق السكنية في فلسطين، إلا أن القشة التي قصمت ظهر البعير جاءت في السابع والعشرين من مارس/آذار حين فجر أحد الانتحاريين نفسه في مطعم مزدحم في إسرائيل فقتل تسعة وعشرين مدنيًّا ليلة عيد الفصح اليهودي، ثم تلا هذا في نفس الأسبوع عمليتان انتحاريتان أخريان، إذ فجر اثنان من الفلسطينيين أنفسهما، وكان من بينهما فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، وقد أسفرت العمليتان عن قتل ستة عشر شخصًا. وكان رد جيش الدفاع الإسرائيلي أن قام بهجمات شاملة على المدن الفلسطينية مركزًا على مقر قيادة ياسر عرفات في رام الله، ومع اجتياحه للمدينة هاجم المجمع الذي يقطنه عرفات وأجبره على الاحتماء بحجرة انقطع عنها الكهرباء والماء. واندلع القتال في نابلس، وجنين ومدن أخرى في حين كان حوالي مائتين من الفلسطينيين يختبئون في كنيسة القيامة في بيت لحم.

وفي يوم السابع من أبريل/نيسان طالب مجلس الأمن الدولي بانسحاب إسرائيل، وفي نفس اليوم عقد جورج بوش وتوني بلير مؤتمرًا صحفيًّا مطالبين بنفس الشيء «وبدون تأخير»، إلا أن إسرائيل تحدت الأمم المتحدة والقيادة الأمريكية والبريطانية واستأنفت هجماتها. وكانت وجهة نظرها أن أمريكا ردت على الإرهاب بهجومها على أفغانستان، ومن ثم فلا يجب أن تمنع إسرائيل من الهجوم على قواعد الإرهابيين في فلسطين. ووافق ويليام سافاير William Safire في عاموده في «نيويورك تايمز» على ذلك مشيرًا إلى أن حرب إسرائيل ضد الإرهابيين في فلسطين وحرب أمريكا ضد تنظيم القاعدة ليسا إلا حربًا واحدة.

لكن حرب أمريكا في أفغانستان كانت قد انتهت فيما عدا بعض الاتفاقات السياسية التي استهدفت الولايات المتحدة منها تحقيق الاستقرار والرخاء للأفغان. لقد كانت هذه الحرب حربًا غريبة، فلم تكن مثلما توقع الأمريكيون حربًا طويلة أو مكلفة. وكان الأفغان أنفسهم قد سهلوا من مهمة الولايات المتحدة بما أظهروه من مشاعر البغض لطالبان التي كان العالم كله يبغضها.

وكانت قوة الولايات المتحدة الجوية وبعض القوات المميزة هي التي فتحت الباب أمام نصر لم يستطع الاتحاد السوفييتي تحقيقه على مدى عشر سنوات.

لم يعثر على أسامة بن لادن – العدو الحقيقي لأمريكا – لا حيًّا ولا ميتًا ولكنه ظل مفقودًا. لكن احتمالات وجوده على قيد الحياة ضئيلة في ضوء ما قامت به الولايات المتحدة من مسح شامل لمناطق القبائل القديمة بمحاذاة الحدود الأفغانية-الباكستانية مستخدمة أجهزة مراقبة إلكترونية، ومكافآت مالية لا حدود لها رصدتها لمن يدلي بمعلومات عنه، مع غلق جميع المنافذ الجوية والبحرية. ومع تصاعد العنف في فلسطين وبلوغه حدًّا لم يبلغه منذ خمسة وثلاثين عامًا عادت الولايات المتحدة إلى مشكلتها الأزلية في محاولة إقناع الطرفين المتعارضين بقبول تسوية بهدف التعايش السلمي.

خلال الأسبوع الأول من شهر أبريل/نيسان من عام ٢٠٠٢م بدأت الولايات المتحدة في خفض عدد قواتها في أفغانستان، التي كانت قد وصلت إلى سبعة آلاف جندي وطيار. وفي حوار لوكالة الأسوشياتيد برس مع أحد الجنود صغار السن وهو الرقيب ريان كليكنر Ryan Cleckner بعد عودته إلى أمريكا قال: «إن بعض الجنود يقضون حياتهم العملية كلها في انتظار فرصة الاشتراك في القتال، أما أنا فقد استطعت الاشتراك قبل أن تنتهي فترة تجنيدي الأولى ... يمكن للمرء أن يتدرب على اللعبة طويلًا قبل أن يتمكن من لعبها.» وفيما عدا من تبقى من الوحدات الأمريكية، كان هناك ألف وسبعمائة من القوات البريطانية، بالإضافة إلى مجندين آخرين من قوات التحالف يحفرون أرض كابول ويحاولون تطهيرها من الألغام والصواريخ والقنابل التي استقرت هناك لأكثر من عقدين من الزمن.

وفي أفغانستان بدأ المحاربون القدامى وقادة المجاهدين وزعماء القبائل المسنون في المطالبة بمواقعهم التي كانوا يشغلونها قبل ظهور طالبان. وألقى حامد كرزاي القبض على مئات من الأشخاص في كابول خوفًا من أن يكونوا من عملاء قائد المجاهدين البشتوني السابق حكمتيار الذي كان قد عاد من منفاه في إيران وشوهد في غرب قندهار. وكان حكمتيار قد أدلى بحديث إلى أحد المراسلين الصحفيين قال فيه: «نحن نفضل أن نتقاتل في صراعات داخلية على أن يغزونا الأجانب.» وكما فعل بقية الزعماء الأفغان الذين سبقوه،

اكتشف كرزاي أن أوامره لا تصل إلى أبعد من مدى أسلحته، وأنه ليس قائدًا لأفغانستان، ولكنه مجرد عمدة لكابول يسانده الأمريكيون والبريطانيون.

إن مشكلة القوى الأجنبية — حتى ولو كانت معتدلة مثل الولايات المتحدة الأمريكية — لم تكن غزو أفغانستان كما أثبتت الأحداث عام ٢٠٠١ و٢٠٠٢م، ولكن المشكلة كانت تكمن في حكم وإدارة أو حتى محاولة مساعدة البلاد، وهو الأمر الذي كان الأكثر صعوبة. والواقع أن الكوارث كانت دائمًا تحل بالجيوش التي تمكث طويلًا في جبال الهندوكوش، ولذلك فمن الواجب على أمريكا — وهي تحاول فرض مبادئها الخاصة بأسلوب الحكم السليم على الدول الأخرى — أن تراقب بعناية وحذر هذه المرتفعات الشاهقة الصامتة التي يربض فيها الأفغان.

الختام

وصف الجنود العائدون أفغانستان بأنها أرض فائقة الجمال كانت الحرب فيها أشبه بالقتال في كولورادو أو جبال الروكي أو سهول يوتاه المالحة. ووسط روعة الطبيعة فيها تستكين بقايا سلسلة من الحضارات المتعاقبة، فبقايا المعابد اليونانية التي دمرها السيثيان ترقد على بعد ساعة بالطائرة فوق أسوار ترجع إلى القرون الوسطى طالما تسلقها مغول جنكيزخان. أما القلاع المشيدة في التلال، التي صمدت أمام هجمات البريطانيين؛ فهي تشرف على الخنادق التي حفرت لمقاومة السوفييت. ربما يكون الطيارون الأمريكيون قد حلقوا فوق منارة الغوريد الغامضة التي ما زالت قائمة في الهندوكوش، في حين يتكوم بعض الحطام الذي خلفته الضربات الجوية التي حدثت مؤخرًا في الأودية البعيدة. ووسط هذه الأراضي التي تختلط فيها روعة الطبيعة بالخراب الذي أحدثه الإنسان يعيش الأفغان الذين اشتهروا بكثرة حروبهم الطويلة الممتدة والذين ربما أصبحوا الآن مهيئين للسلام.

وواقع الحال أن أفغانستان الآن أتيحت لها أعظم فرصة في تاريخها، فمن خلال الصراع الأخير نستطيع أن نرى ملامح «الفأر الذي تحول إلى أسد» والذي لو ترك وحده فسوف يكون مقدرًا لأفغانستان أن تقطع رحلة تؤدي بها إلى العزلة ومزيد من الفقر. أما الآن — وبعد أن «غزتها» أغنى دولة في العالم، فإن الرجل العادي الذي يعيش على أرضها يمكنه أن يستشرف الأمل في المستقبل، وكذلك النساء قد انفتحت أمامهن نافذة يلمحن من خلال انفراجها توقعات أكثر إشراقًا للمستقبل، بالإضافة إلى أن أهالي أفغانستان الآن يمكنهم تصور إمكانية إعادة زراعات قابلة للحياة والنمو، وتجارة أو حتى صناعة توفر لهم ولعائلاتهم سبل العيش. ومع أن الولايات المتحدة أعدت

حملة طويلة واسعة ضد طالبان، فإنه مما يسترعي الانتباه أن الأفغان هم الذين نجحوا في التخلص من سيطرة حكم الملالي في أول فرصة سنحت لهم كأنما يخلعون قميصًا من الشعر عنهم. وفي حقيقة الأمر لم يكن للولايات المتحدة أي خصومة مع الشعب الأفغاني، بل كان صراعها ضد النظام الذي سيطر على البلاد لسنين طويلة، وضد تنظيم القاعدة الذي يسر له هذا الحكم الملاذ والمأوى.

ولن يكون من الحكمة في شيء أن تتنازل الولايات المتحدة عن أفغانستان بعد هذا الصراع الأخير كما فعلت بكثير من التهور والاندفاع عام ١٩٨٩م عقب انسحاب السوفييت، بل العكس هو الصحيح. ففي هذا العالم الآخذ في الانكماش مع مرور الزمن سوف يشكل ذلك خطرًا حقيقيًّا، فتوافر وسائل الاتصالات العالمية الفورية، وما يعقب ذلك من سهولة الوصول إلى تكنولوجيا الأسلحة، يمكنه أن يجعل من أي دولة مهما بلغت من انعزالها وفقرها مصدر تهديد للعالم. وكما رأينا في أفغانستان، فقد نجح ملا يتميز بالبساطة وبعقلية تنتمي إلى القرون الوسطى في أن يتضامن مع إرهابيين دوليين ليحدث هذا الزلزال العنيف. فبعد نصف قرن من حرب باردة، تعرضت الولايات المتحدة لأكبر اعتداء خارجي في تاريخها — ليس من خلال جيوش ضخمة من روسيا أو الصين، ولكن على يدى جماعة صغيرة تعيش على أرض أفغانستان — ولم يكن هذا الاعتداء حدثًا عارضًا بل كان تحديًا جديدًا للنظام العالمي بأكمله.

وفي القرن الحادي والعشرين، استعادت أفغانستان أهميتها في عالمنا المعاصر بعد مرحلة طويلة ظلت فيها دولةً ليس لها أهمية استراتيجية جغرافية، ولم يكن ذلك راجعًا إلى الأفغان أنفسهم ولكن بسبب تحالفات قوى عالمية عظمى جديدة. فقد أكدت الصراعات التي نشأت بعد أحداث ١١ سبتمبر/أيلول أن نظرية فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama عن «نهاية التاريخ» التي طرحها بكثير من مشاعر التفاؤل بعد الحرب الباردة، قد أفسحت الطريق إلى المفهوم الغيبي الذي ورد في مقال صمويل ب. هانتيجتن Samuel P. Huntington عام ١٩٩٣م عن «صراع الحضارات». وكانت وجهة نظر هانتيجتن، أن عصر الحرب الباردة، مثل العصر السابق الذي تسيدت فيه الدول الأوروبية، ما هو إلا حالة شاذة في التاريخ، وأن العالم سوف يتراجع إلى الفواصل القديمة التي كانت تفرق بين الحضارات. وهذا ما حدث

فعلًا، فقد وضحت جوانب لافتة للنظر في الحرب الأخيرة، وهي أنه مع أن أفغانستان لعبت الدور الرئيسي على مسرح الأحداث، فإن الصراعات نشبت أيضًا في الفيلبين، وشبه القارة الهندية، والقوقاز، والشرق الأوسط. ومثل حرب عالمية مصغرة شملت هذه الصراعات حرب حضارات متعددة تصارع أعضاء حضارة واحدة هي الإسلام. ومن الناحية الجغرافية فإن أفغانستان توجد داخل نطاق حزام إسلامي يطوق جنوب آسيا، فهي محاطة بباكستان وإيران وجمهوريات روسيا الإسلامية السابقة. وبالرغم من أن الإسلام ممزق حاليًّا بانقسامات داخلية، أكثر من أي أمة أخرى، فإنه من المحتمل ألا يستمر هذا الوضع طويلًا، وأن أفغانستان بموقعها الحالي سوف تتأهل لتلعب دورًا أساسيًّا في إحياء قوة الإسلام.

الجدير بالذكر في هذا الصدد أن أغلب دول العالم ليست على خلاف مع الإسلام، وأنها لا تعارض وجود عالم إسلامي يتعايش في محبة مع جيرانه، ومن ثم يمكن لأفغانستان الآن والتي ينظر إليها باحترام كدولة من دول الإسلام المحاربة في المقام الأول أن تكون مختبرًا جيدًا لحسن نوايا الأمم الأخرى. ولكن إذا ما تحقق السلام والاستقرار في أفغانستان فإنه تتبقى مشكلتان هامتان تؤججان نار الصراعات الإسلامية، ويجب على أمريكا التي وصلت إلى مستوى غير مسبوق من القوة والتأثير على العالم أن تلعب الدور الرئيسي في إيجاد الحلول لهذه الصراعات الدائرة الآن.

أولًا لا بد أن يكون هناك تحرك دولي لحسم الصراع الدائر بين الهند وباكستان حول كشمير؛ فهناك في شبه القارة الهندية يواجه العالم أول تهديد بحرب نووية تكتيكية ستشب عند أية بادرة استفزاز آثمة، أو عندما تضغط على الزناد الأيدي المتلهفة لذلك. فالصراع الآن يزيد من تطرف الشعب الباكستاني في نفس الوقت الذي يتعالى فيه الاستعداد العسكري العدواني في الهند. ولذلك فعلى أمريكا — وليس الأمم المتحدة فقط — أن تبادر إلى إيجاد حل لهذا النزاع. وإذا أجري استفتاء عام لسكان الإقليم مبني على قرارات حكيمة تضع في اعتبارها المتطلبات الأمنية لكل دولة، ويفرضه دعم قوي من المجتمع الدولي؛ فسوف يكون محل ترحيب من كل الأطراف وخاصة أهالي كشمير.

أما المشكلة الأصعب فهي في فلسطين حيث تمثل إسرائيل — في ضوء نظرية هانتيجتن — شوكة يستخدمها الغرب ليخز باستمرار جسد العالم

الإسلامي. في حين أصبحت المشكلة السياسية لا تتمثل في حق إسرائيل في الوجود، حيث إن أغلب الحكومات العربية قد عرضت تطبيع علاقاتها بالكامل مع إسرائيل، ولكن تكمن المشكلة في إصرار إسرائيل على احتلال المزيد من الأراضي الفلسطينية بالقوة. في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول خسرت الولايات المتحدة بسبب الإرهاب العربي في يوم واحد ما يفوق كل ما خسرته إسرائيل في حربها مع العرب طوال تاريخها. ويبقى السؤال هنا عن كيفية إقناع أمريكا بالتضامن مع بقية دول العالم لإجبار إسرائيل على الانسحاب إلى الحدود التي حددتها الأمم المتحدة.

ففي ربيع عام ٢٠٠٢م كانت معارك الولايات المتحدة في أفغانستان قد سبقتها اشتباكات متجددة أكثر عنفًا واتساعًا في فلسطين، وكان هذا تطورًا منطقيًّا حيث إن تدخل أمريكا في أفغانستان كان بسبب الصراع في الشرق الأوسط، وهو الأمر الذي أدى إلى هجوم العرب على أمريكا في عقر دارها، ومع استمرار تعقد المشكلة الفلسطينية ستبدو الولايات المتحدة في نظر العالم كمن يصارع الدخان واللهب على السطح، في حين يترك الكيروسين يغذي النار من أسفل المبنى. وكلما تزود العالم الإسلامي بالقوة، والثقة بالنفس وتكنولوجيا القرن الحادي والعشرين المتطورة، زادت الحاجة الملحة إلى حل الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني بلا إبطاء. والواقع أن الغرب يستطيع أن يضمن تأمين حدود إسرائيل «بكل الوسائل الممكنة» في أي وضع كان، وإذا حدث هذا فسوف يصبح أسامة بن لادن شخصًا معتوهًا منعزلًا أمام أولئك الذين تطوعوا للالتحاق بتنظيمه بعد أن شاهدوا المجازر اليومية التي تحدث في غزة والضفة وكشمير.

الجدير بالذكر أن الأفغان — وهم من أقوى المحاربين في العالم الإسلامي — لم يلجئوا في قتالهم إلى الهجمات الانتحارية، ذلك لأنهم نتاج ثقافة محاربين ويسهل عليهم الوصول إلى أسلحة من أي قبائل أخرى متنافسة تحيط بطرقهم، كما أن لديهم أيضًا جبال الهندوكوش التي تقلل من فاعلية الطيران أو الأسلحة التقليدية. والهجمات الانتحارية هي الأصل في الشعوب الضعيفة عسكريًّا، أو التي تلجأ إليها كسلاح أخير، ولذلك فإذا ما نحَّينا جانبًا دافع المقاتلين إلى القيام بالتضحية الكبرى، من خلال إيجاد الحل المتوازن للصراعات الدولية، وفرضه من خلال قوى كبرى؛ فسوف يؤدي ذلك إلى إنهاء هذا الولع بالعمليات الانتحارية.

إن العمليات التي قامت بها الولايات المتحدة في أفغانستان لا تندرج تحت مسمى الحرب الأفغانية الأمريكية، بل هي في واقع الأمر جزء من صراع أكبر يطلق عليه الآن في العالم «الحرب ضد الإرهاب»، وقد انتهى الصراع الذي شمل أقوى قوتين عسكريتين تقليديتين — إسرائيل وعلاقتها بالفلسطينيين، والولايات المتحدة في علاقتها بكل الآخرين — بأن تحول إلى قتال ضد الخلايا السرية للمقاتلين الإسلاميين الذين بلغ تهورهم أن هاجموا أعداءهم بطريق غير مباشر. ولأن المواجهات القتالية أمام تفوق الغرب الكبير في الآليات والأسلحة لن تكون ممكنة فسوف يتركز القتال في هجمات غير مباشرة. ومع أن أمريكا باستثمارها الثقيل في العسكرية العالمية ترى أن الإرهاب أكثر الأشياء بغضًا، فإن وجهة النظر هذه تعكس من جانب آخر نظرة العالم الإسلامي الولايات المتحدة كقوة مدمرة عمياء.

وفي رأيي أن الولايات المتحدة أخطأت خطأ كبيرًا في عدم استخدامها للقوات البرية استخدامًا حاسمًا عقب هجوم ١١ سبتمبر/أيلول، وكان اعتمادها — كما فعلت في العقد الماضي — على طائراتها وصواريخها الجاهزة للاستخدام وقاذفاتها ذات المستوى العالي، حتى تؤكد أن العسكرية الأمريكية لا يمكن قتالها وإنما يمكن مراوغتها. ورغم نجاح القوة الجوية الأمريكية، وأموال المخابرات المركزية بجانب الحلفاء الأفغان القلائل، فإن هذا لم يلق صدى في العالم، بل ما حدث هو أن الولايات المتحدة بدت مترددة مهتزة في مواجهة أعنف موقف وضعت فيه في تاريخها كله. إحجام الولايات المتحدة عن المخاطرة بتكبد خسائر بشرية عسكرية — وهو المنهج الذي انتهجته في التسعينيات واستمر بعد أحداث ١١ سبتمبر/أيلول — آخذ في التقليل من سطوتها على العالم ومن هيبتها. إلا أنه لا يمكن الجزم بهذا الاعتقاد دون أن تصاحبه ثقة كاملة أيضًا في أن الأمريكيين — كأفراد — لا يجاريهم أحد في شجاعتهم أو قدرتهم القتالية، وتكمن المشكلة هنا في مدى ارتباط القيادة الحذرة بتسلط فكرة سياسية أو إعلامية عليها.

وحل هذه المسألة سهل، ففي الحرب القادمة لا يجب أن يواجه الأعداء «بقوات مفوضة» من أمريكا بل يجب أن تكون المواجهة مع الفرقة ١٠١ المحمولة جوًّا والبحرية الأمريكية وقوات الفرقة المدرعة الأولى. ويجب على حلفاء أمريكا — الذين لم يكن لهم أي دور بسبب اعتماد أمريكا على التكنولوجيا

الحديثة — أن يقفوا كتفًا إلى كتف مع أمريكا لو حاربت بجيشها لا بآلاتها. ولن يكون البريطانيون — الذين لا يملكون حتى طائرات بي-٥٢ (B-52) — هم آخر من يقف في الصف.

كما يجب أيضًا على الولايات المتحدة أن تكف عن المغالاة في استخدام الأسلحة الموجهة آليًا، وأن تقصر استخدامها على الاستطلاع أو المراقبة، ولا تستخدمها في القتال المباشر، بل عليها أن تسعى لعقد اتفاقيات دولية تحظر استخدامها على غرار اتفاقيات حظر استخدام الغاز السام. لأنه إذا انتشر أسلوب القتال الآلي هذا، وهو ما سيحدث قطعًا؛ فسوف تصبح الأهداف المدنية هي الأكثر تضررًا. بالإضافة إلى أن استخدام الأسلحة الموجهة آليا ضد بلد لا تمتلك مثيلها سوف يؤدي إلى دمار الروح المعنوية لمن يستخدمها أكثر من الدمار الذي سوف يحيق بالعدو. والواقع أن الأوروبيين قد بدأ يساورهم القلق بالفعل من أن الولايات المتحدة أصبحت تشبه «سوبرمان» أكثر مما تشبه «الرجل الأخضر» فهي تقوم بتطوير أسلحة حرب لا تضمن نتائجها أو تكلفتها. وإن آجلًا أو عاجلًا فسوف يصبح قرار خوض الحرب أو عدم خوضها بالنسبة لدولة لا تخاطر بقواتها البشرية أمرًا في غاية السهولة. فإزاحة العنصر الإنساني جانبًا في الحروب لن يساعد في شيء.

ويجب ألا ننسى هنا أن غالبية الأفغان قد رحبوا كثيرًا بانتصار الولايات المتحدة على طالبان. وإنه من المعروف أن الولايات المتحدة منذ قرن كامل لم تدخل حروبًا إلا دفاعًا عن نفسها أو عن حلفائها، ولم يسبق أن كانت لها أية أغراض استعمارية. بل إنه من المعروف عنها أنها تساعد الدول التي تهزمها في إعادة إعمار أراضيها. ولذلك فإنها تحتاج في أفغانستان لأسباب — إنسانية وعملية — أن تؤكد على انتصارها الأخير في هذه البيئة التي تمتلئ بالفوضى السياسية، ثم بعد ذلك تعاونها اقتصاديًّا حتى تنهض مرة أخرى، فأفغانستان بعد أن دمرتها الحرب أكثر من أي دولة أخرى، تعتبر اليوم مشروعًا، لا ندري إذا كان العالم الغربي — بالتحالف الودي مع الإسلام — يمكنه أن يحيل هذا المشروع إلى إنجاز حقيقي. وفي هذه الحالة يجب على الأمريكيين أن ينحوا جانبًا فكرة زرع ديموقراطية «جفرسونية» في شعب كان له مساره الثقافي القديم الخاص به الذي يركز الآن على معتقداته وقيمه الإسلامية وقوانينه الحاكمة.

ويمكن للإدارة الأمريكية بما تملك من كفاءة وبراعة أن تفعل المعجزات في بلد يفتقد حاليًا إلى كل مقومات البنية الأساسية تقريبًا. وكخطوة أولى لتحقيق هذا الهدف يجب أن تقوم الإدارة الأمريكية الحالية بتنحية دور وزارة الدفاع جانبًا والاستعانة بوزارة الزراعة والنقل والتجارة والصحة والخدمات الإنسانية ليلعبوا الأدوار الرئيسية في سياستها الخارجية.

سياسيًّا، تمر أفغانستان الآن بمرحلة يترقب العالم فيها أن يرى ما إذا كانت قد أصبحت دولة بالفعل أم لا، خاصة وأن أمامه بديلًا آخر في ضوء أمثلة أخرى — وهو التنحي جانبًا وترك الدولة تتجزأ إلى دويلات متعادية. وفي هذه الحالة يمكن للأوزبك والطاجيك الذين يستوطنون شمال الهندوكوش أن يستقلوا بأنفسهم، وكذلك الطاجيك في هرات على نسق ما فعله أسلافهم في كارتس. ويمكن لهذه الدول الصغيرة التي انشقت أن تلتحم مرة أخرى مع الدولة الأم في أوزباكستان وطاجيكستان شمال آمودريا (جيحون) وهي دول انشقت عن روسيا مؤخرًا مع ملاحظة أن الحدود الحالية لأفغانستان كانت قد رسمت لتشكل عازلًا بين الإمبراطورية الروسية والإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر، أو كي تضع حدًّا لطموحات البشتون الدورانيين وبهذا يمكن اعتبار هذه الحدود حدودًا أثرية أو تاريخية. أما السؤال الذي يطرح نفسه الآن فهو هل استطاع الأفغان أن يكتسبوا حسًا قوميًّا يحتوي انقساماتهم العرقية. ولو حدث وانقسمت أفغانستان إلى دويلات متعددة، كل واحدة منها بمنأى عن أي حرب أهلية فلن تذرف الدول الأجنبية إلا قليلًا من الدموع. لأنه بنظرة استراتيجية أشمل سوف يظل الجميع تحت عباءة الإسلام، لكن الخطر الأساسي يكمن هنا لو تتبعنا هذا المنطق العرقي في أن قضية البشتون يمكن أن تنفجر مرة أخرى بما يشكل ضررًا لباكستان.

إلا أن دوبريه وآخرين يقولون إنه في نطاق حدود أفغانستان الحالية هناك الكثير من العرقيات التي لا تزال تفخر بأصلها، رغم كل ما عانته من حروب. وحتى الآن لم يتحد الأفغان إلا خلال الفترات التي حكمهم فيها حاكم مستبد قاس، أو التي تعرضوا فيها لغزو أجنبي. إلا أنه في عالمنا المعاصر فإن أي دكتاتور قاسٍ مثل داود أو عبد الرحمن لن يجد لديهم أي ترحيب. وإذا كانت أفغانستان تريد أن تظل دولة بالمعنى المتعارف عليه فعليها أن تبحث عن نظام حكم آخر يجمع البلد بأكملها وليس حكومة مركزية متسلطة.

وفي خلال عقدين من الحرب في أفغانستان في أواخر القرن العشرين، كان أهم علم غربي استمر يرفرف على هذه البلاد التي دمرتها الحرب هو علم الصليب الأحمر ومقره جنيف وهي منظمة تضم عددًا من المواطنين السويسريين. وكما ذكرنا سابقًا فإن سويسرا هي أقرب الدول الأوروبية إلى أفغانستان فهي بلد متعدد الأعراق يتحدث أهلها عدة لغات وتقع بين مرتفعات جبلية شاهقة، ومرت بها عدة قوى عظمى معادية على مر التاريخ. ويذهب التشابه بينها وبين أفغانستان إلى أبعد من ذلك، فالسويسريون من أكثر شعوب أوروبا تسليحًا — حيث يجند معظم رجالها، بل ويحتفظون ببنادقهم في بيوتهم — كما أنهم يكنون من شعور عداء لبقية الأوروبيين مثلما كان يفعل الأفغان بالنسبة لشعوب آسيا. ولم تحصل النساء في سويسرا على حق التصويت في الانتخابات إلا سنة ١٩٧١م، ولم تفكر سويسرا في الانضمام إلى منظمة الأمم المتحدة إلا في مارس/آذار من عام ٢٠٠٢م حين حدثت معركة شاهي-كوت.

وبدلًا من التقسيم إلى دويلات أو الاعتماد على قوات حفظ السلام الأجنبية أو انتظار رجل قوي يوحد البلاد، فقد يكون من الأجدى لأفغانستان أن يزيح السويسريون علم الصليب الأحمر ويرفعوا علمًا وطنيًا، وأن يأتي إليها وفد من برن — وليس من جنيف — ويشرح للقادة الأفغان كيف يكون الحكم في دولة متعددة الأعراق خاضعة للأحكام العرفية. يعتبر مجلس «اللويا جيرجا» الأفغاني نظامًا جيدًا إذا ما قورن ببعض النظم الديموقراطية الأخرى، لكن أغلب قراراته كان يتم تجاهلها من قبل الملوك أو الدكتاتوريين في كابول. أما جوهر النظام السويسري فهو وضع السلطة في يد حكومة مركزية، وتحقيق انتفائها عن أي قائد منفرد. فالسلطة التنفيذية يتولاها مجلس يتكون من سبعة وزراء، يتولى كل منهم منصب الرئيس لمدة سنة واحدة. وهذا المبدأ — الذي نشأ منذ القرون الوسطى يتمحور حول عدم تولي أي شخص حكم سويسرا حتى لو كان من مواطني البلد. وفي أفغانستان يمكن لهذا النظام أن يضمن اشتراك كل الجماعات في السلطة التنفيذية، كما يضمن أيضًا ألا يقع أغلب متخذي القرار سواء في القرية أو المدينة أو المقاطعة تحت تأثير أو تدخل الحكومة المركزية. وتنحصر القرارات في العاصمة في قضايا مثل النقل والمواصلات والسياسة التجارية والصحة العامة والدفاع. لكن القوة الوحيدة التي توحد الجميع هي

الجيش الذي يتطلب تجنيدًا إلزاميًّا (للذكور)، ولأن هذا النظام يستهدف الدفاع القومي، فهو يوفر نوعًا من التشارك بين مختلف العرقيات جغرافيًّا واقتصاديًّا بحيث يتواجد رعاة الماشية من قاطني الجبال بكل فجاجتهم وغلظتهم كتفًا إلى كتف بجوار أكثر سكان المدن تحضرًا، بل وأحيانًا يكونون قادة لهم. وفي أفغانستان فإن مثل هذا الجيش سوف يستخدم أيضًا كقوة شرطية إلى أن يتمكن الخارجون عن القانون وأمراء الحرب المستقلون من السير وفق البرنامج القومي للبلاد.

إلا أن المشكلة الرئيسية الحالية في أفغانستان هي أن الحكومة المركزية بصدد أن تحصل على معونات مالية ضخمة من الولايات المتحدة، ومن جهات أجنبية أخرى، وهذا سوف يؤدي بدوره إلى تزايد الرغبة في تولي السلطة بالإضافة إلى أنه سيثير المزيد من الصراعات. وكإجراء مضاد فلن تحقق المعونة الأجنبية أغراضها إلا إذا تواجدت سلطة استرشادية في كابول. ففي بلد تأرجحت بين نظام حكم شيوعي، وآخر استبدادي وفوضوي وحكم ثيوقراطي على مدى عشرين عامًا؛ يتطلب الأمر البحث عن نظام سياسي جديد برؤية خاصة. وسوف يواجه الأمريكيون صعوبة بالغة إذا ما حاولوا زرع نظامهم الخاص. وفي نفس الوقت فإن الإسلام لا يعطي خيارات كثيرة مرغوبة يمكن الانتقاء منها، ومن ثم فالاختيار الأمثل هو لقاء بين الأفغانيين ونظرائهم السويسريين لبحث هذا الأمر.

وفي تطور يبشر بخير عاد الملك ظاهر شاه إلى بلاده من منفاه الذي عاش فيه ما يقرب من ثلاثين عامًا في أبريل/نيسان من عام ٢٠٠٢م، وقد قوبل بكثير من الترحاب من آلاف الأفغانيين، فهو يمثل حقبة في تاريخ أفغانستان خلت من الحروب، وكان المواطنون فيها يمارسون حياتهم اليومية وبداخلهم أمل في تحقيق النمو والرخاء. وفي الحقيقة لم يكن لظاهر شاه أي دور في الحكم حين جلس على العرش في الفترة ماب بين عامي ١٩٣٣ و١٩٧٣م، كما أن الشعب لم يكن مستكينًا تمامًا، ومع ذلك فإن مجرد نظرة الأفغان إلى هذه المرحلة من تاريخهم على أنها «الأيام السعيدة» يشير إلى رغبة صادقة في السلام، ومن ثم يجب على المجتمع الدولي أن يمد لهم يد المساعدة فقد نالوا كفايتهم من الحروب والدمار.

مســرد الكلمــات

عبد الرحمن: عرف باسم «الأمير الحديدي»، استولى على العرش عام ١٨٨٠م بعد الحرب الأنجلو-أفغانية ونجح في تحقيق الاستقرار في البلاد.

أحمد شاه دوراني: أسس الأسرة الدورانية ١٧٥٧م بعد أن غزا الأراضي التي تضمها أفغانستان حاليًّا.

أكبر خان: ابن دوست محمد، لعب دورًا أساسيًّا في إرغام الإنجليز على الانسحاب عام ١٨٤٢م مما شكل كارثة لهم.

الإسكندر الأكبر: ملك مقدونيا الذي قهر إمبراطورية الفرس، شن حملات على أفغانستان وبلاد ما وراء النهر ما بين عامي ٣٣٠ و٣٢٦ ق.م.

القاعدة: تنظيم إسلامي متطرف وإرهابي يتزعمه أسامة بن لادن.

أراكوزيا: الاسم القديم لجنوب أفغانستان، وكانت قندهار مركزها.

آريا: الاسم القديم لمنطقة غرب أفغانستان وشرق إيران، وكانت هرات مركزها.

آسوكا: أحد ملوك الإمبراطورية الهندية الورانية، أصبح في القرن الثالث ق.م أول وأعظم دعاة البوذية السياسيين.

بابور: مؤسس إمبراطورية المغول في الهند، دفن في كابول.

باكتريا: الاسم القديم لشرق أفغانستان، وكانت بلخ مركزها.

بالاهيسار: قلعة وقصر يقع في ضاحية غربية من كابول، وكانت مقر العائلة المالكة الأفغانية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

بيزوس: حاكم باكتريا الفارسي الذي أعلن نفسه الملك الأعظم بعد موت داريوس الثالث. طارده الإسكندر إلى أن قتل بواسطة رجاله.

البرقع: حجاب يستر المرأة من رأسها حتى قدميها.

آلكسندر بيرنز: القنصل الإنجليزي في كابول خلال فترة حكم شاه شوجا، تسبب مصرعه في ثورة عام ١٨٤١م الوطنية.

محمد داود: الأمير الدوراني الذي كان رئيسًا لأفغانستان في الفترة ما بين عامي ١٩٥٣و١٩٦٣م، وتولى السلطة مرة أخرى في ١٩٧٣م بعد أن نفى ابن عمه الملك ظاهر. قتل عام ١٩٧٨م خلال ثورة أبريل/نيسان الشيوعية.

داريوس الثالث: آخر ملوك الإمبراطورية الفارسية العظام، هزمه الإسكندر الأكبر في القرن الرابع ق.م.

دوست محمد: ملك أفغانستان. أقصي عن العرش بعد الغزو البريطاني عام ١٨٣٨م، ثم عاد إليه بعد جلاء القوات البريطانية.

عبد الرشيد دوستم: قائد من الأوزبك الشماليين — حارب مع الشيوعيين وضدهم، ومع مسعود وحكمتيار وضدهم، ثم ضد طالبان، وأخيرًا ضد قوات التحالف الشمالي بالقرب من مزار شريف.

الدورانيون: كانوا يعرفون سابقًا بالأبداليين، وهم مجموعة من القبائل الكبيرة تقطن جنوب وغرب أفغانستان، تنتمي إليها الأسرة المالكة الأفغانية.

مونتيستيوارت إلفنستون: ابن عم وليام الديبلوماسي البريطاني الذي دون لأول مرة تاريخ الغرب بالتفصيل، كما كتب تحليلًا شافيًا لأفغانستان عام ١٨٠٩م.

ويليلم إلفنستون: قائد القوات البريطانية في أفغانستان في عامي ١٨٤١ و١٨٤٢م، دمر جيشه أثناء انسحابه من كابول، ومات عندما أسره أكبر خان.

الفرنجة: كلمة أطلقها الأفغان على «الأجانب» استخدمت في القرن التاسع عشر كمعنى يحط من قيمة البريطانيين.

قندهار: الاسم القديم لشرق ووسط أفغانستان وغرب باكستان في المنطقة الممتدة من كابول عبر بيشاور إلى أتوك على نهر السند.

غازٍ: مصطلح يطلق على المحاربين المتدينين الأفغان.

غزنة: مدينة تقع على بعد ثمانين ميلًا جنوب شرق كابول، كانت عاصمة للإمبراطورية الغزنوية.

الجلزاي: مجموعة قبائل تستوطن جنوب وشرق أفغانستان.

هازاراجات: موطن الهازارا — وهم نسل المغول — تقع وسط الهندوكوش.

قلب الدين حكمتيار: القائد الأصولي لحزب المجاهدين البشتون خلال الاحتلال السوفييتي، حارب مسعودًا في الحرب الأهلية التي قامت بعد ذلك، واضطر إلى الهرب من طالبان، وعاد إلى أفغانستان أخيرًا من منفاه في إيران.

إسماعيل خان: قائد المجاهدين في منطقة هرات خلال الاحتلال السوفييتي، هزمته طالبان في عام ١٩٩٥م، وعاد من منفاه عام ٢٠٠١م ليشارك في الحرب التي شنتها أمريكا لإقصاء طالبان.

جلال الدين: أمير خوارزم الذي انتصر على جيش المغول في أفغانستان، ثم طارده جنكيز خان بعد ذلك وانتصر عليه.

محمد جان: واحد من قادة الأفغان خلال الحرب الأنجلو-أفغانية الثانية.

الجيزيل: بندقية أفغانية طويلة تعمل عادة بالفتيل، وبها زند يمكن تعديل وضعه، وهي أكثر دقة وأبعد مدى من البندقية البريطانية القديمة.

كانيشكا: ملك كوشاني عاش في القرن الثاني، واعتنق البوذية.

حامد كرازاي: الرئيس المؤقت لأفغانستان بعد سقوط طالبان في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠١م وحتى اجتماع مجلس «اللويا جيرجا» في يونيو/حزيران ٢٠٠٢م.

الخاد: البوليس السري الأفغاني خلال فترة الحكم الشيوعي.

خراسان: منطقة تقع شمال شرق إيران على الحدود الأفغانية.

خوارزم: إمبراطورية إسلامية كانت تضم أفغانستان وبلاد ما وراء النهر، دمرها جنكيز خان فيما بين عامي ١٢١٨ و١٢٢١م.

ممر خيبر: ممر طويل ضيق يفصل ما بين بيشاور في باكستان وجلال أباد في أفغانستان، ويقع الآن في الأراضي الباكستانية.

اللويا جيرجا: مجلس كبير يضم زعماء القبائل المحليين في أفغانستان.

ويليام ماكناتون: المندوب السامي البريطاني لدى أفغانستان حين أعادت بريطانيا شاه شوجا إلى العرش الأفغاني. قتل وهو في اجتماع مع أكبر خان.

أحمد شاه مسعود: أحد قادة المجاهدين البارزين خلال الاحتلال السوفييتي، كان متمركزًا في وادي بانجشير شمال شرق كابول. قاد القوات الحكومية في الحرب الأهلية، ثم تولى قيادة قوات التحالف الشمالي حين صمدت أمام طالبان حتى لقي مصرعه على يد عملاء تنظيم القاعدة في سبتمبر/أيلول من عام ٢٠٠١م.

نادر شاه: ملك الفرس الذي صنع نفسه بنفسه، غزا جنوب أفغانستان واكتسح دلهي. وقد أسس قائد حرسه أحمد شاه الأسرة الدورانية المالكة.

التحالف الشمالي: تحالف من الأحزاب غير البشتونية التي وقفت ضد طالبان، ونجحت في إسقاط طالبان في عام ٢٠٠١م بمساعدة الأمريكيين.

المقاطعة الشمالية الغربية: منطقة في باكستان الجنوبية بمحاذاة الحدود الجبلية مع أفغانستان، وتعرف أيضًا بمنطقة القبائل.

ويليام نوت: قائد القوات البريطانية في قندهار ما بين عامي ١٨٤١ و١٨٤٢م.

بارمينيو: جنرال مقدوني، كان نائبًا للإسكندر الأكبر ووالده فيليب الثاني من قبله، قتله أعوان الإسكندر عام ٣٣٠ ق.م.

البشتون: أكبر جماعة عرقية في أفغانستان وتشكل من ٤٠٪ إلى ٤٥٪ من تعداد السكان، تقطن جنوب الهندوكوش وتشكل أكبر مجتمع قبلي باقٍ في العالم.

الحزب الشعبي الديمقراطي في أفغانستان: يعرف بالحزب الشيوعي. انشقت عنه جبهتان متصارعتان: خلق، وبارشام. وبعد ثورة أبريل/نيسان ١٩٧٨م تكونت قياداته من:
نور محمد تركي: لقي مصرعه على يد أمين في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٨م.
حفيظ الله أمين: لقي مصرعه على يد القوات السوفييتية في ديسمبر/كانون الأول ١٩٧٨م.
بابراك كارمال: وضعه السوفييت في السلطة عند غزوهم لأفغانستان ليحل محل أمين.
محمد نجيب الله: حل محل كارمال عام ١٩٨٦م، ونحاه المجاهدون عن السلطة عام ١٩٩٢م، ولقي مصرعه على يد طالبان عام ١٩٩٤م.

القزلباش: جنود مرتزقة من الفرس استقروا في أفغانستان وبالأخص في كابول خلال القرن الثامن عشر.

برهان الدين رباني: الزعيم السياسي للحزب الإسلامي: وهو حزب لا ينتمي إلى البشتون، ضم مسعودًا وإسماعيل خان ضمن قياداته، وكانوا الزعماء السياسيين للتحالف الشمالي، ولكونهما من الطاجيك فلم يقبل أن يكون قائدًا مؤقتًا لأفغانستان بعد سقوط طالبان، فحل محله الزعيم البشتوني حامد كرزاي.

راج: كلمة هندية تعني «الحكم». والراج كلمة أطلقها البريطانيون لتصف حكمهم للهند.

فـــردريك روبـــرتس: جنرال وقـــائد بريطاني إبان الـــحرب الأنجلو-أفغانية الثانية.

روبـــرت سيـــل: جنرال بريطـــاني اعتصم في جلال أباد خلال شتـــاء ١٨٤١-١٨٤٢م.

سيلوكوس: جنرال مقدوني ورث الأراضي الشرقية التي تضم أفغانستان بعد موت الإسكندر.

شاه شوجا: أمير دوراني، عاد إلى عرش أفغانستان بمساعدة البريطانيين عام ١٨٣٨م، وقتل بعد انسحابهم عام ١٨٤٢م.

سيستان: إقليم يقع جنوب شرق إيران على الحدود الأفغانية.

سبيتامينيس: أحد أمراء الفرس، حارب الإسكندر الأكبر في أفغانستان الشمالية وبلاد ما وراء النهر.

طالبان: كلمة تعني «طلبة» أو «مريدين» وهي جماعة إسلامية أصولية أغلبها من البشتون، انتزعت الحكم من جماعات المجاهدين المتصارعة عام ١٩٩٦م، ولكنها فشلت في الانتصار على الشطر الشمالي من أفغانستان الذي كان يسيطر عليه التحالف الشمالي. أسقطتها قوات التحالف الشمالي عام ٢٠٠١م بمساعدة الأمريكيين.

بلاد ما وراء النهر: إقليم يخترق نهر الأوكسس (آموديا (جيحون)) يضم الآن تركمانستان وأوزبكستان وطاجيكستان.

محمد ظاهر شاه: تولى حكم أفغانستان عام ١٩٣٣م حتى أقصاه داود عام ١٩٧٣م ونفاه، لكنه قبل أن ينفى نجح في إقامة حكومة دستورية عام ١٩٦٤م، وعاد إلى أفغانستان في ٢٠٠٢م بعد سقوط طالبان.

المراجع

Alexiev, Alexander. *Inside the Soviet Army in Afghanistan.* Santa Monica, CA: The Rand Corporation, 1988.

Alexievich, Svetlana. *Zinky Boys: Soviet Voices from a Forgotten War.* London: Chatto & Windus, 1992.

Allen, Charles. *Soldier Sahibs: The Daring Adventurers Who Tamed India's Northwest Frontier.* New York: Caroll & Graf PubLishers, 2000.

Babur. *The Baburnama: Memoirs of Babur, Prince and Emperor.* (Wheeier M. Thackston, ed.) London and New York: Oxford University Press, 1995.

Benoist-Méchin, *Jacques. Alexander the Great: The Meeting of East and West.* New York: Hawthorn Books, 1966.

Borovik, Artyom. *The Hidden War. A Russian Journalist's Account of the Soviet War in Afghanistan.* New York: Grove Press, 1990.

Bosworth, A.B. *Conquest and Empire. The Reign of Alexander the Great.* Cambridge (UK): Cambridge University Press, 1988.

Broadfoot, Major W. *The Career of Major George Broadfoot, C.B.* London, John Murray, 1888.

Caroe, Olaf. *The Pathans.* London: MacMillan & Co., 1964.

Carpini, Giovanni DiPlano. *The Story of the Mongols Whom We Call the Tartars.* (Translated by Erik Hildinger.) Boston: Branden Pubishing, 1996.

Collins, Joseph J. *The Soviet Invasion of Afghanistan: A Study in the Use of Force in Soviet Foreign Policy.* Lexington, MA: Lexington Books, 1986.

Cook, J.Wm. *The Persian Empire.* New York: Schocken Books, 1983.

Cooley, John K. *Unholy Wars: Afghanistan, America and International Terrorism.* London and Sterling, VA: Pluto Press, 2000.

Curtius, Quintus Rufus. *The History of Alexander.* (Translated by John Yardley.) New York: Penguin Books, 1984.

Davis, Henry William Carless. *H. W.C. Davis, 1874-1928: A Memoir and Selection of His Historical Papers.* London: Constable and Co., 1933.

Din, Shams Ud. *Soviet Afghan Relations.* Calcutta: K.P. Bagchi, 1985.

Dupree, Louis. *Afghanistan.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1973.

Elliot, Jason. *An Unexpected Light: Travels in Afghanistan.* New York: St. Martin's Press, 2001.

Elphinstone, Mountstuart. *An Account of the Kingdom of Caubul and its Dependences in Persia Tartary, and India,* Vols. I and II. London: Longman, Hurst, Rees, Orme and Brown, 1819.

Engels, Donald W. *Alexander the Great and the Logistics of the Macedonian Army.* Berkeley: University of California Press, 1978.

Ewans, Martin. *Afghanistan: A New History.* Richmond, Surrey (UK): Curzon Press, 2001.

Eyre, Lieut. *Vincent. Journal of an Afghanistan Prisoner.* (Orig. 1843.) London: Routledge & Kegan Paul, 1976.

Finley, M.I. (ed). *The Greek Historians.* New York, Viking Press, 1959.

Forbes, Archibald. *The Afghan Wars, 1839-42 and 1878-80.* New York: Charles Scribner's Sons, 1892.

Fox, Robin Lane. *The Search for Alexander.* Boston: Little, Brown and Company, 1980.

Fraser-Tytler, William Kerr. *Afghanistan: A Study of Political Developments in Central and Southern Asia.* London: Oxford University Press, 1967.

Galeotti, Mark. *Afghanistan: The Soviet Unions Last War.* London: Frank Cass, 1995.

Ghobar, Mir Gholam Mohammad. *Afghanistan in the Course of History,* Vol. II. (Translated by Sherief A. Fayez.) Alexandria, VA: Hashmat K. Gohar, 2001.

Girardet, Edward R. *Afghanistan: The Soviet War.* New York: St. Martin's Press, 1985.

Goodson, Larry P. *Afghanistan's Endless War: State Failure, Regional Politics, and the Rise of the Taliban.* Seattle: University of Washington Press, 2001.

Goodwin, Jan. *Caught in the Crossfire.* New York; E.P. Dutton, 1987.

Grant, Michael. *The Founders of the Western World: A History of Greece and Rome.* New York; Charles Scribner's Sons, 1991.

Grau, Lester W. (ed.). The Bear Went Over the Mountain: Soviet Combat Tactics in Afghanistan. London: Frank Cass, 1991.

Green, Peter. *Alexander of Macedon, 356–323 B.C.: A Historical Biography.* Berkeley: University of California Press, 1991.

Griffin, Michael. *Reaping the Whirlwind: The Taliban Movement in Afghanistan.* London and Sterling, VA: Pluto Press, 2001.

Grousset, René. *The Empire of the Steppes: A History of Central Asia.* (Translated by Naomi Walford.) New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1970.

Hallam, Elizabeth (ed.). *Chronicles of the Crusades.* New York: Weidenfeld and Nicolson, 1989.

Hammond, Thomas Taylor. *Red Flag Over Afghanistan: The Communist Coup, the Soviet Invasion, and the Consequences.* Boulder, CO: Westview Press, 1984.

Harlan, J. *A Memoir of India and Avghanistaun, with Observations on the Present Exciting and Critical State and Future Prospects of Those Countries.* Philadelphia: J. Dobson, 1842.

Hartog, Leo de. *Genghis Khan: Conqueror of the World.* London: I.B. Tauris Publishers, 1989.

Heinämaa, Anna, Maije Leppanen and Yuri Yurchenko (eds.) *The Soldiers' Story: Soviet Veterans Remember the Afghan War.* Berkeley: University of California International and Area Studies, 1994.

Herodotus. *The Histories.* (Translated by Robin Waterfield.) London: Oxford University Press, 1998.

Hildinger, Erik. *Warriors of the Steppe: A Military History of Central Asia, 500 B.C. to 1700 A.D.* New York: Sarpedon, 1997.

Hopkirk, Peter. *The Great Game: The Struggle for Empire in Central Asia.* New York: Kodansha America, 1992.

Hussain, Syed Shabbir. *Afghanistan Under Soviet Occupation: A Study of Russia's Expansion Drama whose Latest Aggression has Pushed Mankind to the Threshold of a New Catastrophe.* Islamabad: World Affairs Publications, 1980.

Jalali, Au Ahmad, and Lester W. Grau. *Afghan Guerrilla Warfare: In the Words of the Mujahideen Fighters.* St. Paul, MN: MBI Publishing Co., 2001.

Kakar, M. Hasan: Afghanistan: *The Soviet Invasion and the Afghan Response, 1979-1982.* Berkeley: University of California Press, 1995.

Kaye, John William. *History of the War in Afghanistan,* Vols. I and II. London: Richard Bentley (Publisher in Ordinary to Her Majesty), 1851.

Keegan, John. *The Mask of Command.* New York: Viking, 1987.

Kinsley, D.A. *They Fight Like Devils: Stories from Lucknow During the Great Indian Mutiny, 1857-58.* New York: Sarpedon, 2001.

Macrory, Patrick A. *The Fierce Pawns.* Philadelphia: J.B. Lippincott Co., 1966.

Maley, William (ed.). *Fundamentalism Reborn? Afghanistan and the Taliban.* New York: New York University Press, 1998.

Manz, Beatrice Forbes. *The Rise and Rule of Tamerlane.* Cambridge (UK): Cambridge University Press, 1989.

Matinuddin, Kamal. *The Taliban Phenomenon: Afghanistan 1994-1997.* London: Oxford University Press, 1999.

McMichael, Scott R. *Stumbling Bear: Soviet Military Performance in Afghanistan.* London: Brassey's, 1991.

Meyer, Karl E., and Shareen Blair Brysac. *Tournament of Shadows: The Great Game and the Race for Empire in Central Asia.* Washington, DC: Counterpoint Press, 1999.

Nikoaev, Lev Nikolaevich. *Afghanistan between the Past and Future.* Moscow: Progress Publishers, 1986.

Nojumi, Neamatollah. *The Rise of the Taliban in Afghanistan: Mass Mobilization, Civil War, and the Future of the Region.* New York: Palgrave, 2002.

Norris, J.A. *The First Afghan War 1838-1842.* Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1967.

Perry, James M. *Arrogant Armies: Great Military Disasters and the Generals Behind Them.* New York: John Wiley & Sons, 1996.

Pottinger, George. *The Afghan Connection: The Extmordinary Adventures of Major Eldred Pottinger.* Edinburgh: Scottish Academic Press, 1983.

Rais, Rasul Bakhsh. *War Without Winners: Afghanistan's Uncertain Transition After the Cold War.* Oxford and Karachi: Oxford University Press, 1994.

Rashid, Ahmed. *Taliban: Militant Islam, Oil, and Fundamentalism in Central Asia.* New Haven, CT: Yale University Press, 2001.

Rawlinson, George. *Memoirs of Sir Henry C. Rawlinson.* London: Longmans, Green, and Co., 1898.

Russian General Staff. *The Soviet-Afghan War: How a Superpower Fought and Lost.* (Translated and edited by Lester W. Grau and Michael A. Gress.) Lawrence: University Press of Kansas, 2002.

Sale, Lady Florentia. *The First Afghan War.* Hamden, CT: Archon Books, 1969.

Secret History of the Mongols, and Other Pieces. (Arthur Waley, trans.) London: Allen and Unwin, 1963.

Stein, Aurel. *On Alexander's Track to the Indus: Personal Narrative of Explorations on the North-West Frontier of India.* (Orig. 1929.) London: Phoenix Press, 2001.

Stewart, Rhea Talley. *Fire in Afghanistan 1914-1 929: The First Opening to the West Undone by Tribal Ferocity Years Before the Taliban.* (Orig. 1973.) iUniverse.com, 2000.

Tamarov, Vladislav. *Afghanistan: Soviet Vietnam.* San Francisco: Mercury House, 1992.

Toynbee, Arnold J. *Between Oxus and Jumna.* London: Oxford University Press, 1961.

Trousdale, William (ed.). *The Gordon Creeds in Afghanistan, 1839 and 1878-79.* London, British Association for Cemeteries in South Asia (BACSA), 1984.

Urban, Mark. *War in Afghanistan.* New York: St. Martin's Press, 1988.

Wood, Michael. *In the Footsteps of Alexander the Great.* Berkeley: University of California Press, 1997.

Yousaf, Mohammad, and Mark Adkin. *Afghanistan the Bear Trap: The Defeat of a Superpower.* Havertown, PA: Casemate Publishers, 2001.

In the chapters on the Soviet-Afghan War, quotes from the Soviet press and official statements were found in *The Current Digest of the Soviet Press*, compiled weekly 1949-1991 by the American Association for the Advancement of Slavic Studies; and from the *Daily Report* of the Foreign Broadcast Information Service. Also useful were two papers written by Alexander Alexiev for the Rand Corporation: "The War In Afghanistan: Soviet Strategy and the State of the Resistance" (November; (1984 and "The United States and the War in Afghanistan" (January 1988).

The letters of Colonel Frederic Rowcroft during the Second AngLo-Afghan War were reprinted in the *London Daily Telegraph*, December, 26, 2001.

Events from September, 11, 2001 through April 2002 were researched through a combination of daily newspaper and television reports as well as weekly magazines. On the internet, the Strategic Issues Research Institute-U.S. (SIRIUS) was especially useful for periodic news and analytical updates based on a wide range of U.S. military sources. Updates from the Associated Press and Reuters were also to be found on the internet as well as in print. Among newspapers—ranging from the four major New York dailies to the *Washington Post, Boston Globe*

and the *Daily Telegraph* and *Times of London*—the Pulitzer-prize winning "A Nation Challenged" section of the New York Times, which ran until January, 1, 2002 was most helpful.

رقم إيداع ١٦٧٣ / ٢٠١٠
ISBN 978 977 6263 41 3

هذا الكتاب:

السجل الأوحد الذي يتناول بالكامل التاريخ العسكري لأفغانستان منذ العصور الغابرة حتى الحرب التي شنتها الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر/أيلول.

كانت أرض أفغانستان الوعرة - لمدة تربو على ٢٥٠٠ عام - ملتقى رئيسيًّا تقاطعت فيه مسارات الجيوش، وشهدت إلى جانب ذلك صراعات حوَّلت مجرى التاريخ بين حضارات الإغريق والعرب والمغول والتتار قديمًا، وبين بريطانيا وروسيا وأمريكا حديثًا، وقد دخلت قوات الولايات المتحدة هذه الأرض عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، تلك الأرض التي تحولت عبر القرون إلى مقبرة للإمبراطوريات، وفي ربيع عام ٢٠٠٢ كانت أمريكا قد تغلبت على نظام طالبان، ولاذ الإرهابيون الذين كان يؤويهم بالفرار... ولكن هل يُعدّ النصر السهل الذي حققته الولايات المتحدة دليلا على تفوقها العسكري؟ أم هل اكتفى الأفغان بمراقبة الغزاة الجدد عن كثب كما شاهدوا غيرهم من الجيوش الأجنبية في القرون الماضية عالمين أن الوقت في صالحهم؟

يلقي هذا الكتاب الضوء على الملابسات التاريخية التي سيقت إليها القوات الأمريكية، ولعلها تكون رسالة تحذيرية عن المخاطر التي قد تخبئها الأيام المقبلة.

«إنه كتاب شيق، زاخر بالمعلومات، يحض الذهن على التفكير.» مجلة ميليتاري هيريتاج.

«عمل تاريخي بُحث جيدًا.» مجلة تشويس.

ستيفن تانر:

هو مؤرخ عسكري وكاتب حر له مؤلفات عدة منها:

Epic Retreats: From 1776 to the Evacuation of Saigon

وكتاب: ... Reich American Airmen and Switzerland during WWII

وهو يعيش حاليًّا في لونج أيلاند - نيويورك.



صفحة



http://www.kalimatarabia.com

كلمات عربية